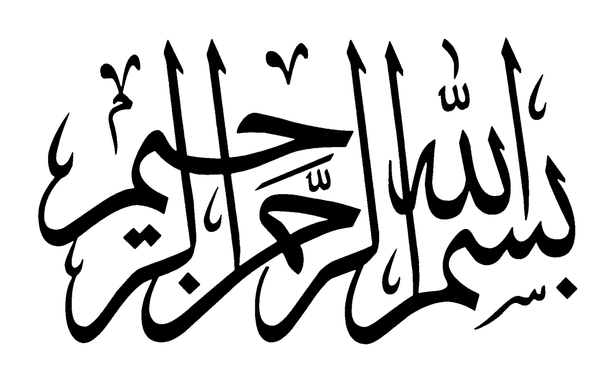
ضياء الفرقان

في تفسير القرآن

المجلد التاسع



السيد محمد تقي النقوي القايني


بسم الله الرحمن الرحيم



ضیاء الفرقان

فی

تفسیر القرآن

مجلد ۹

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۹: 978-964-8981-53-7
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur’an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد التاسع

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. – ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران – شارع انقلاب – بازارچه کتاب – رقم ۱۰ – دارالکتب الاسلامیة

شابک: ۷ – ۵۳ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

شابک دوره: ۷ – ۲۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

الجزء

الثاني عشر

وَ مٰا مِنْ دٰابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى ٱللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ ﴿۶﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمٰاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هٰذٰآ إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿۷﴾ وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ ٱلْعَذٰابَ إِلىٰٓ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مٰا يَحْبِسُهُۥٓ أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿۸﴾ وَ لَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنٰاهٰا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ ﴿۹﴾ وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ نَعْمٰآءَ بَعْدَ ضَرّٰآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئٰاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿۱۰﴾ إِلاَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿۱۱﴾ فَلَعَلَّكَ تٰارِكٌ بَعْضَ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيْكَ وَ ضٰآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلآَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جٰآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمٰآ أَنْتَ نَذِيرٌ وَ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿۱۲﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرٰيهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيٰاتٍ وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿۱۳﴾

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنْزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَ أَنْ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

◀ اللّغة

دَآبَّةٍ الدابّة بتشديد الباء الحيّ الّذي مِن شأنه أن يدَّب يقال دبَّ يَدُّب دبيباً، هذا بحسب اللّغة و أمّا في العرف فأنّها عبارة عن الخيل و البرازين دون غيرها من الحيوان و قال في المفرادت الدّبّيب مشئٌ خفيف و يستعمل ذلك في الحيوان و الحشرات أكثر و يستعمل في كلّ حيوان و إن إختّصت في التّعارف بالفرس انتهىٰ.

مُسْتَقَرَّهَا المستّقر الموضع الّذي يقرّ فيه الشّئ و هو قراره و مكانه الّذي يأوي اليه.

وَ مُسْتَوْدَعَهَا المستودع المعني المجعول في القرار كالولد في البطن و النطّفة الّتي في الظّهر و قيل مستودعها مدخلها بعد موتها و قيل مستّقرها في أصلاب الآباء و مستودعها في أرحام الأمّهات و قيل مستقرّها ما تستقرّ عليه و مستودعها ما تصير اليه.

كِتَابٍ مُبِينٍ المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ.

عَرْشُهُ العَرش بفتح العين و سكون الرّاء في الأصل شيئ مسّقف عروش و يكنّىٰ به عن العزّ و السلّطان و المملكة، و أنا عَرش اللّه فلا يعلمه البشر علىٰ الحقيقة إلاّ بالإسم.

لِيَبْلُوَكُمْ البلاء الإختبار أي ليختبركم.

حَاقَ أي نَزَل أو أحاط.

أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ الذَّوق في الحقيقة تناول الشّئ بالفَم لإدراك الطَّعم.

نَزَعْنَا النّزع رفع الشّئ عن غيره ممّا كان مشابكاً له و النّزع و القلع و الكَشط نظائر.

لَيَؤُسٌ هو فعولٌ من اليأس أي كثير اليأس من رحمة اللّه.

لَفَرِحٌ فَخُورٌ الفَرح إنفتاح القلب بما يلتذّ به و ضدّه الغمّ و الفخور المتطاوِل بتعديد المناقب و فخورٌ كثير الفخر.

صَدْرُكَ الصَّدر مسكن القلب.

كَنْزٌ الكنز بفتح الكاف المال المدفون لعاقبته.

◀ الإعراب

وَ لَئِنْ: اللاّم لتوطئة القسم و القسم محذوف و جوابه لَيَقُولَنَّ: و مثله وَ لَئِنْ أَذَقْنَا و جواب القسم إِنَّهُ لَيَؤُسٌ و سدَّ القسم و جوابه مسّد جواب الشّرط أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يوم ظرف لَفَرِحٌ يقرأ بكسر الرّاء و ضمّها و هما لغتان مثل حَذَر و حذر و يقظ و يقظ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا في موضع نصب و هو إستثناء متّصل و المستثنىٰ منه الإنسان و قيل هو منفصل، و قيل هو موضع رفع علىٰ الإبتداء أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ خبره وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ صدرك مرفوع بضائق لأنّه معتمد على المبتدأ و قيل هو مبتدأ و ضائق خبر مقدّم أَنْ يَقُولُوا أي مخافة أن يقولوا و قيل لأن يقولوا.

◀ التّفسير

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا كلمة، ما، نافية بمعنى ليس و المعنىٰ أنّه ليس في الأرض ما من شأنه أن يدُّب إلاّ و على اللّه رزقها و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ هو الخالق و رزق المخلوق بيده و قد وصف اللّه ذاته بهذه الصِّفة في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالى: ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ[١].

١- الرّوم = ٤٠

قال اللّه تعالى: **وَ تُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰآءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لا تَقْتُلُوٓا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰآءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ**(٣).

قال اللّه تعالى: **ان ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰآءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ**(٤).

قال اللّه تعالى: **ٱللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰآءُ وَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ**(٥).

قال اللّه تعالى: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللّٰهُ**(٦).

قال اللّه تعالى: **أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ**(٧).

و أمثالها من الأيات كثيرة و الظّاهر أنّ المراد بالّرزق في الآية ما يتغذّى به الحيوان من الطّعام و الشّراب.

و أمّا الرّزق الأخروي فليس المراد قطعاً و الرزّق لا يقال إلاّ للّه تعالى علىٰ الحقيقة و أمّا إطلاقه على غيره فهو مجاز لو أطلق و ذلك لأنّ ما سواه تعالىٰ من قبيل الأسباب كما يقال رزق الجند، علىٰ السّلطان و رزق الأولاد علىٰ الأب و رزقُ العبد على المولى و هكذا.

وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا الهاء ترجع الىٰ الدّابة أي أنّ اللّه تعالىٰ يعلم الموضع الّذي فيه قرار الدابّة كما يعلم المعنىٰ المجعول في القرار كالولد في البطن و النطّفة في الظّهر.

و قيل المراد بالمستودع المدفن بعد الموت.

١- آل عمران = ٢٧
٢- الإسراء = ٣١
٣- البقرة = ٢١٢
٤- آل عمران = ٣٧
٥- الشّورىٰ = ١٩
٦- سبأ = ٢٣
٧- الملك = ٢١

و قال بعضهم المراد بالمستقّر أصلاب الأباء و بالمستودع أرحام الأمّهات و قيل مستقرّها ما تستقرّ عليه و مستودعها ما تصير اليه.

و الحاصل أنّ الخالق الّذي خلق الدّابة، لا يخفى عليه شئ منها و إلاّ يكون خالقها قوله: **كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** معناه أنّ جميع ذلك مكتوبٌ في كتابٍ ظاهرٍ يعني اللَّوح المحفوظ.

و أعلم أنّ في الآية مسائل لابدّ لنا من التّنبيه عليها.

الأولىٰ: أنّ الدّابة إسم لكلّ حيوان و بنيت هذه اللّفظة علىٰ هاء التأنيث و أطلق على كلّ حيوانٍ ذي روحٍ ذكراً كان أو أنثى إلاّ أنّه بحسب العرف إختصّ بالفرس و المراد بها في المقام هو معناها اللّغوي أعني به ما يدّب على الأرض فيدخل فيه جميع الحيوانات بأقسامها و أصنافها من الإنسان و الفرس و البقر و الطَّير و غيرها ممّا يدُّب علىٰ الأرض و هذا ممّا لا خلاف فيه عند جميع المفسّرين.

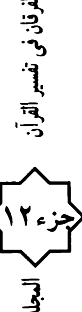
الثّانية: قالوا كلمة، علىٰ، في قوله، علىٰ رزقها، تدُّل علىٰ الوجوب و هذا يدّل علىٰ أنّ إيصال الرّزق الىٰ الدّابة واجبٌ علىٰ اللّه تعالىٰ و هو غير معقُولٍ إذ لا معنىً للوجوب في حقّه و كيف يمكن القول بوجوب شئ عليه تعالىٰ.

و أجيب عنه بأنّه واجب بحسب الوعد و الفضل و الإحسان ذكر هذا السّؤال و الجواب الرّازي في تفسيره.

و قال بعضهم في الجواب أنّ كلمة، علىٰ، لا تدّل علىٰ الوجوب أصلاً بل هي تدُّل علىٰ أنّ الخالق يرزق مخلوقه بمقتضى الخلقة و أمّا أنّه واجبٌ عليه فلا.

و أنا أقول الوجوب الثُّبوت قال في المفردات و هو يقال علىٰ أوجه:

الأوّل: في مقابلة الممكن و هو الحاصل الّذي إذا قدِّر كونه مرتفعاً حصل منه محال نحو وجود الواحد مع وجود الإثنين فأنّه محال أن يرتفع الواحد مع حصول الإثنين.



الثّاني: يقال في الّذي إذا لم يفعل يستحقّ بـه اللّـوم و ذلك ضـربان واجبٌ من جهة العقل كوجوب معرفة الوحدّانـية و مـعرفة النُّبوة و واجبٌ مـن جـهة الشّرع كوجوب العبادات الموظّفة و ساق الكلام الىٰ أن قال.

و قال بعضهم الواجب يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يراد به اللاّزم الوجوب فأنّه لا يصّح أن يكون موجوداً كقولنا في اللّه تعالى واجبٌ وجوده.

الثّاني: الواجب بمعنى حقّه أن يوجد و قول الفقهاء الواجب ما إذا لم يفعله يستحقّ العقاب و ذلك وصفٌ له بشيٍ عارضٍ له لا بـصفةٍ لازمـة له و يـجري مجرىٰ من يقول الإنسان إذا مشى مشىٰ برجلين منتصب القامة انتهىٰ كلامه.

إذا عرفت هذا فنقول أمّا أوّلاً فكلمة، علىٰ، في قوله علىٰ اللّه رزقها، لا تدُّل علىٰ الوجوب و لو فرضنا دلالتها عـليه فـالوجوب بـمعنى حـقّه أن يـوجد، أو بمعنىٰ الثُّبوت و عليه يلزم ما ذكروه من المحذور فأنّ المعنىٰ أنّ الرزّق واجب عليه تعالىٰ بمعنىٰ حقّه أن يـوجد أو بـمعنى أنّـه ثـابت فـي حـقّه تـعالىٰ عـقلاً لِخالقّيته و أيُّ محذورٍ في إثبات الوجوب بهذا المـعنى عـليه تـعالىٰ أليس مـن حقّ الخالق أن يرزق مخلوقه أو من حقّ المخلوق أن يرزقه خالقه.

و أمّا قول بعضهم أنّ إعطاء الرّزق منه تعالىٰ على سبيل التّفضل لا الوجوب لا نفهم معناه و ذلك لأنّ معنىٰ التَّفضل أنّه تعالىٰ يرزقهم مِن فضله أي من زيادة إحسانه و لطفه فأنّ الفضل في الأصل الزّيادة و إذا كان كذلك فيجوز تـركه و لا لَوم عليه عقلاً و أنت ترى أنّه ممّا لا يسـاعده العـقل السّـليم و بـعبارةٍ أخـرى الفضل حسنٌ في ذاته و أمّا تركه ليس بقبيحٍ عقلاً و هل يجوّز العـقل أن يـمنع الخالق مخلوقه الّذي خلقه من الرِزّق الّذي به قوام وجوده و إدامة حياته أليس هذا من الظُّلم القبيح عليه تعالىٰ فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه ثبوت الرزّق في حقّه تعالى لخلقه في مدّة حياته و هو المطه.

المسألة الثّالثة: قال الرّازي و غيره من الأشاعرة أنّ هذه الآية تدلّ علىٰ أنّ الرِزّق قد يكون حراماً.

قال هذا ما لفظه تعلّق أصحابنا بهذه الآية في إثبات أنّ الرِزّق قد يكون حراماً قالوا لأنّه ثبت أنّ إيصال الرِزّق الى كلّ حيوانٍ واجب علىٰ اللّه تعالىٰ بحسب الوعد و بحسب الإستحقاق و اللّه تعالىٰ لا يخلّ الواجب ثمّ قد نرى إنساناً لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقاً لكان اللّه تعالىٰ ما أوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد أخلّ بالواجب و ذلك محال فعلمنا أنّ الحرام قد يكون رزقاً انتهىٰ كلامه.

و الجواب عنه هو أنّ اللّه تعالى قدرّ أرزاق العباد قبل خلقهم و إيجادهم ثمّ خلقهم و الإنسان الّذي لا يأكل من الحلال طول عمره مضافاً الىٰ أنّه مجرّد الفرض و لا يوجد في الخارج، لا يأكل من الحلال بإختياره و إرادته لا أنّه تعالىٰ لم يقدّر له الرِزّق الحلال و إن شئت قلت أنّه لم يقنع بما رزقه اللّه من الحلال و لذلك طلب الحرام و أكل منه ألا ترىٰ أنّ السّارق و الغاصب و الظّالم و أمثالهم لو تركوا ما كانوا عليه من السرّقة و الغصب و الظّلم و قنعوا بما رزقهم اللّه من طريق الحلال لكان ممكناً إلاّ أنّهم يطلبون ما ليس لهم حرصاً علىٰ الدّنيا فلا محالة يكون الوزر و الوبال عليهم لا علىٰ اللّه تعالىٰ فأنّ اللّه قدَّر أرزاق العباد على طبق المصلحة و الحكمة زيادةً و نقيصةً لا علىٰ طبق أميال الإنسان.

و أمّا الأشاعرة لمّا قالوا بالجبر و أنّ العبد لا إختيار له في أفعاله و أقواله و جميع حركاته.

و سكناته فلا جرم تفوَّهوا في المقام و غيره بما لا يقبله العقل و لا يساعده النّقل ولم يعلموا أنّ معنىٰ كلامهم هو أنّ اله خلق الإنسان و لم يقدّر له الرزّق الحلال و أجازه أن يرتزق من السِرّقة والغَصب و ما يَحصل له من الفوَاحش فكأنّه تعالىٰ قال له بلسان التّكوين عَبدي أنّي خَلقتُك ولَم أُقدّر لك من الحلال

شيئاً فَعَليك بالسِرّقة و غيرها من كسب الحرام و مَع ذلك حَكمتُ في ديني بَقطع يَدك لَو سَرقت، أليسَ للعبد أن يقول له لِمَ خَلقتني كذلك رَزقتَني الحرام ثمّ حَكَمتَ بعقُوبتي في الدّنيا والآخرة أنّ هذا لشيءٌ عجاب.

وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ

أمّا أنّه تعالىٰ خَلَق السَّمٰوات والأرض فلا كلام لأحدٍ فيه إذ لَو لَم يَخلُقها فَمن خَلَقهما، فأنّ المخلوق لابدّ له من خالقٍ و لا شكّ أنّهما مَخلُوقان كغيرهما من الموجودات فالّذي خَلقهما هُو اللّه أو ما شئت فَسِمّه و أنّما الكلام في قوله: **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** و قد مضىٰ تفسيره في سورة يُونس بما لا مَزيد عليه فلا نحتاج الىٰ الإعادة الّتي توجب الملالة قهر**الِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** البلاء الإمتحان والإختبار أي أنّما فَعل ذلك لِيختبركم ويَمتحنكم أيّكم أحسَن عملاً.

قال الزّمخشري قوله ليبلوكم، متعلّق، بخلق، أي خلقهنّ لحكمةٍ بالغةٍ وهي أن يجعلها مساكن لعباده و ينعم عليهم بفنون النِّعم و يكلّفهم الطّاعات، و إجتناب المعاصي فمن شَكر و أطاع و أثاب و من كفر و عصىٰ عاقبه انتهىٰ.

فهذا ما قالوه في تفسير الآية و منه يَظهر أنّ اللّه تعالىٰ خَلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلّفين بحيث لولا ذلك لَما خَلَقه ويَظهر أيضاً أنّ أفعاله تعالىٰ معلّلة بالمصالح بدليل لام التّعليل خلافاً للأشاعرة حيث أنكروا ذلك و قالوا لام التّعليل وردت على ظاهر الأمر و معناه أنّه تعالىٰ فعل فعلاً لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله إلاّ لهذا الغرض، و أنت ترى أنّ هذه التّأويلات السّخيفة الباردة الّتي تشمئز عنها القلوب و تنكره العقول السّليمة في الأيات الكريمة لا يعتمد عليها وأيّ إشكالٍ عقلاً أو شرعاً في تابعيّة الأحكام و الخلق و البعث و غير ذلك للمصالح الواقعيّة الّتي لا يعلمها

إلاّ هو حتّى نحتاج الىٰ هذه التّكلفات و المفروض أنّ النّفع عائد الىٰ الخلق **وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.**

أي لأن قلت لهؤلاء الكفّار الّذين أنكروا البعث، أنّكم مبعوثون مِن بعد الموت، للحساب **لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا** بما أنزل اليك، أن هذا، أي ليس هذا الكلام أعني به البَعث إلاّ سحرٌ ظاهر و المقصود أنّهم ينكرون هذا الكلام فلا محالة يحكمون بفساد القول بالبعث و سيأتي منّا الكلام في إثباته زيادةً علىٰ ما مرَّ سابقاً في محلّه إن شاء اللّه.

و حاصل الكلام في المقام هو أنّ الآية الشّريفة قد دلّت علىٰ أصل الخلقة أوّلاً و علىٰ ثبُوت الإختبار والإبتلاء في دار الدّنيا ثانياً.

و علىٰ لزوم البَعث و هو الحياة بعد المَوت لأجل الحساب ثالثاً.

و الكُلّ حَقٌّ لا كلام لأحدٍ من المسلمين فيه ولابدّ لنا في ختام الكلام من بيان نقطةٍ خَفيّة و هي قوله سحرٌ مبين، حيث عبرّوا عن إنكارهم بالسِّحر أو عن البعث بالسِّحر أو عن إخبار الرّسول بالبعث، بالسِّحر و من المعلوم أنّ السِّحر فعلٌ مخصوص يفعله السّاحر ليخدع به النّاس، و الرّسول لم يكن ساحراًإخباره بالبعث كان من سِنخ السِّحر.

فنقول أنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا يعتقدون آثار السِّحر و خوّاصه في هذا القول و ذلك لأنّ السِّحر عبارة عن الخداع و التخيّلات الّتي لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عمّا يفعله لخفّة يدٍ، و علىٰ ذلك قال اللّه في قصّة موسىٰ عليه السلام: **سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ**[١] والىٰ التَّخيل، أشار بقوله: **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ**[٢] و بهذا النَّظر سمّوا موسىٰ عليه السلام ساحراً فقالوا: **يٰٓأَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ**[٣] و المقصود أنّ الكفّار عدّو الأنبياء من السّحرة و

١- الأعراف = ١١٦ ٢- طه = ٦٦
٣- الزّخرف = ٤٩

دعوتهم من السِّحر فكما أنّ السّاحر يريد بِسحره إغفال النّاس وإضلالهم فكذلك النّبي و لمّا كان الأمر على هذا المنوال فقالوا ما قالوا، و السِّر فيه هو أنّ الكفّار كانوا منهمكين في لذاّت الدّنيا منغمرين فيها بحيث لم يعتقدوا لذّةً ألَذّ و أحسن ممّا كانوا فيه و حيث أنّ الدّين كان مقيّداً بل مانعاً عن الإستفادة بها كيف إتّفقت ثمّ أوجب لهم العقاب في صورة مخالفة فلا جرم قالوا هو سِحر أي هو موجب لردع النّاس عن مشتهياتهم و أميالهم و هذا ممّا لا يختصّ بزمانٍ دون زمانٍ ففي زماننا هذا يقولون أنّ الدّين يوجب تحذير الأفكار و هو عبارة أخرىٰ عن السِّحر و قد نُقل عن بعض الكفّار أنّهم قالوا للرّسول أنّ هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع النّاس عن لذّات الدّنيا و إحرازاً لهم الىٰ الإنقياد لكم و الدّخول تحت طاعتكم والىٰ هذا المعنىٰ أشار يزيد بن معاوية بن أبي سفيان لعنهم اللّه حيث قال:

لَعبت هاشم بالمُلك فلا خبرٌ جاء ولا وَحيٌ نَزَل

وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ ٱلْعَذٰابَ إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مٰا يَحْبِسُهُ

اللاّم في، **لأن**، للقسم، و الجواب، ليقولّن و المراد بالأمّة في المقام المدّة و أصل الأمّة الجماعة فعبّر عن الحين و السّنين بالأمّة لأنّ الأُمّة تكون فيها و قيل هو علىٰ حذف المضاف و المعنىٰ الى مجيئ أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقّون الهلاك، أو الىٰ إنقراض أمّةٍ فيها من يؤمن فلا يبقى بعد إنقراضها من يؤمن و الأمّة إسم مشترك يقال علىٰ ثمانية أوجه:

الأوّل: الجماعة و منه قوله تعالىٰ:

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةًمِنَ النّاس[1].

الثّانى: إتباع الأنبياء عليهم السّلام و منه قوله تعالىٰ:

وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ[2].

١- القصص = ٢٣ ٢- النحل = ٣٦

الثّالث: أنّها تقال للّرجل الجامع للخير الّذي يقتدى به و منه قوله تعالىٰ:

إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ(١).

الرّابع: الأُمّة الّدين والمِلَة و منه قوله تعالىٰ:

إِنّٰا وَجَدْنٰآ اٰبٰآءَنٰا عَلٰىٓ أُمَّةٍ(٢).

الخامس: الأُمّة الحين والزّمان و منه قوله تعالىٰ:

وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ اَلْعَذٰابَ إِلٰىٓ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ(٣).

السّادس: الأمّة القامة و هو طول الإنسان و إرتفاعه كما يقال فلا حسن الأُمّة أي القامة.

السّابع: الأمّة الرّجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد قال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يبعث زيد بن عمرو بن مفيل أمّة وحدة.

الثّامن: الأمّة الأمّ يقال هذه أمّة زيد يعني أمّ زيد إذا عرفت موارد إطلاقاتها.

فأعلم أنّ المراد بها في المقام هو المعنى الخامس أعني به الحين و الزّمان و عليه فمعنى الكلام و لأن أخرّنا عنهم، أي عن الكّفار، العذاب الىٰ أمّةٍ معدودة، أي زمان خاصّ ليقولّن الكفّار، ما يحسبه، أي ما يحبس العذاب عنّا و أنّما قالوا ذلك للعذاب لتأخره عنهم أو إستعجالاً و إستهزاءً و عليه فكلمة، ما، في قوله: **مٰا يَحْبِسُهُ** إستفهام قالو و هو علىٰ سبيل التّكذيب ثمّ إستّفتح الأخبار بأنّه يوم لا يرّده شئ و لا يصرفه فقال: **أَلٰا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** أي أنّ هذا العذاب الّذي يستنبطونه إذا نزل بهم في الوقت المعلوم لا يقدر على صَرفه و منعه أحد عنهم و لا يتمكنون من إذهابه عنهم إذا أراد اللّه أن تأتيهم به و أمّا قوله: **وَ حٰاقَ بِهِمْ** ألخ أي نَـزَل بهم وأَحاط بهم يقال حاق به العذاب حيقاً إذا

١- النّحل = ١٢٠   ٢- الزّخرف = ٢٣
٣- هُود = ٨

نزل و الحيق نزول البلاء قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَحيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلّا بِأَهْلِهِ**[١] قال بعضهم، أصله، حّق، فقلب نحو زَّل و زال و قد قرئ، فأزَّ لهما الشّيطان، و أزالهما و علىٰ هذا ذمه و ذاته نقله الرّاغب في المفردات إنتهىٰ.

و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فالمضاف محذوف و يستفاد من الآيـة أنّ الّذين في قلوبهم مرض يستهزؤن بالإمهال و تأخير العـذاب و لم يـعلموا أنّـه لطفٌ منه تعالىٰ في حقّ العَبد العاصي ليرتدع عمّا يكون عليه و يتوب.

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ.

اللاّم في قوله: **وَ لَئِنْ** للقسم و الذَّوق في الحقيقة تناول الشّئ بالضّم لادراك الطَّعم و أصله فيما يقَّل تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر مـنه يـقال له الأكـل و أختير في القرآن لفظ الذَّوق في العذاب تارّةً وفي الرَّحمة أخـرى عـلىٰ سـبيل الإستعارة لأنّ ذلك و أن كان في التّعارف للقليل فهو مستصلح للكـثير فـخَّصه بالذِّكر ليعَّم الأمرين.

فَمَن الأوّل:

قال اللّه تعالى: **وَ قيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ ٱلنّارِ ٱلَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **فَذُوقُوا ٱلْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**[٣].

قال اللّه تعالى: **وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ ٱلْحَريقِ**[٤].

قال اللّه تعالى: **فَلْيَذُوقُوهُ حَميمٌ وَ غَسّاقٌ**[٥].

قال اللّه تعالى: **فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْرًا**[٦].

قال اللّه تعالى: **هٰذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**[٧]

والأيات كثيرة في الباب.

١ـ فاطر = ٤٣
٢- السَّجدة = ٢٠
٣- آل عمران = ١٠٦
٤- آل عمران = ١٨١
٥- ص = ٥٧
٦- الطّلاق = ٩
٧- التّوبة = ٣٥

من الثّانى:

قال اللّه تعالى: **وَ إِذآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ إِنّآ إِذآ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا**[٢].

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ إِذآ أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**[٣].

و غيرها من الأيات هذا و لكن إستعماله في العذاب أكثر منه في الرّحمة وكيف كان فهو يستعمل في المقامين علىٰ سبيل المجاز إذا عرفت هذا فنقول قوله: **وَ لَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً** و هي من اللّه إنعام وإفضال و من الآدميّين رقّةٌ و تعطّفٌ و ذلك لأنّ الرّحمة منطوية علىٰ معنيين، الرّقة، و الإحسان ُ فرّكز تعالىٰ في طبائع النّاس الرّقة و تفرد بالإحسان فإذا أستعمل اللّفظ في حّق اللّه تعالىٰ يراد به الإحسان و الأفضال و إذا أستعمل في الآدميين يراد به الرّقة و التّعطف و عليه فمعنى الكلام و لئن أذقنا الإنسان منّا إحساناً أيّ إحسانٍ كان و أمّا الانسان بكسر الألف فهو مأخوذ من الإنس خلاف الجّن قيل سمّي بذلك لأنّه يأنس بكّل ما يألفه و قيل هو إفعلان و أصله إنسيان سمّي بذلك لأنّه عُهد اليه فنسي و كيف كان فالمراد به في الآية الشّريفة هو الجنس و هو الحيوان النّاطق أي جنس الإنسان كذا و كذا و لا يضّر بشمول الحكم و كلّيته خروج بعض الأفراد من تحت الحكم كالأنبياء و الأوصياء و الأولياء و ذلك لأنّ الحكم دائماً يكون بإعتبار الأعّم و الأغلب اللّهم إلاّ أن يكون عقلّياً فأنّه يشمل الكّل إذا تخصّص في العقلّيات و ما نحن فيه ليس من الأحكام العقّلية الّتي لا تَخصيص فيها كقولنا الإنسان حيوان ناطق و قلنا إجتماع النّقيضين محال و أمثال ذلك هذا و يمكن أن يقال أنّ الإنسان بمقتضىٰ

١- الرّوم = ٣٦

٢- الشّورىٰ = ٤٨

٣- الرّوم = ٣٣

طبعه و أن شئت قلت بما هو هو يكون كذلك و هو لا ينافي من ردّته الشّرائع و الإيمان الىٰ الصّبر،ذكر بعضهم أنّ المراد به في المقام الكافر.

و عن إبن عبّاس المراد به هو الوليد بن المغيرة و فيه نزلت و قيل المراد به عبد اللّه بن أمّية المخزومي ذكره الواحدي والحّق ما ذكرناه من العموم و قوله ثمّ نزعناها منه أي ثمّ سلبناها منه أنّه ليؤوسٌ كفورٌ، صفتاً مبالغة و المعنى أنّه شديد اليّأس والكفران و فيه إشارة الىٰ أنّ الإنسان جاهل بسعة رحمة اللّه الّتي تقتضي قوّة الأمل و أنّه يقنط من رحمة اللّه عند نزول الشّدة و أنّه إذا أنعم عليه بنعمةٍ لم يشكره عليها و إذا سلبها منه يئس من رحمته و هو كذلك في كثير من النّاس لو لا أكثرهم و لذلك ترى في كثير من الأيات صار مورداً للذّم:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّا نَجَّيكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُورًا**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَا بِجَانِبِهِ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ قَتُورًا**(۶).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا**(٨).

و الأيات كثيرة ويظهر من الأيات أنّ الإنسان بمقتضىٰ طبعه و ذاته منبع الشّرور و الآفات و بمقتضىٰ معرفته و دينه و إيمانه منبع الخيرات و الحسنات.

١- إبراهيم = ٣۴ ٢- النّحل = ۴
٣- الإسراء = ١١ ۴- الإسراء = ۶٧
۵- الإسراء = ٨٣ ۶- الإسراء = ١٠٠
٧- الزّخرف = ١۵ ٨- المَعارج = ١٩

وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ

أي أنّه لو أحّل بالإنسان نعماء بعد ضَّراء مسَّته، كالصَّحة بعد المرض و الغنى بعد الفقر و بالجملة الفرح بعد الشِّدة، ليقولَّن ذهب السَّيئات عنّي فيعّبر عن الضَّراء مثل الفقر و المرض بالسّيئات و هو دليل علىٰ جهله و أنّه لا يعلم ما يقول إذ لا يبعد أن يكون الفقر له خير من الغنى و المرض خير من الصَّحة ثمّ وصفه اللّه تعالىٰ بأنّه فرحٌ فخور، و الفرح إنفتاح القلب بما يلّتذ به و ضّده الغَّم و الفخور مبالغة من الفخرالمتطاول بتعديد المناقب و فخور كثير الفَخر و هي صفة ذَّمٍ إذا أطلقت لما فيه من التَّكبر علىٰ من لا يجوز أن يتَّكبر عليه ثمّ إستثنىٰ اللّه تعالىٰ بعضهم فقال:

إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ

إستثنى اللّه تعالى عن هٰؤلاء الّذين مَّر ذكرهم الصّابرين العاملين فقال إلاّ الّذين صبروا الآية و الصَّبر بفتح الصاد و سكون الباء و الرّاء مصدر و هو الإمساك في ضيقٍ يقال صبرت الدّابة حبستها بلا عَلف و صبرت فلاناً خايفة خلفة لا خروج له منها هذا بحسب اللّغة و في الإصطلاح هو حبس النَّفس على ما يقتضيه العقل و الشَّرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه فأن كان حبس النَّفس لمصيبة سمّي صبراً لا غير و ضّده الجزع و أن كان في محاربة سمّي شجاعة و ضّده الجبن و أن كان في نائبةٍ مضجرة سمّي رحب الصَّدر و ضّده الضَّجر و أن كان في إمساك الكلام سمّي كتماناً و قد سمّي اللّه تعالىٰ كلّ ذلك صبراً و أمّا العمل الصّالح فهو عبارة عن كلّ عملٍ يقتضيه العقل و الشَّرع و إنّما أشار اللّه تعالىٰ به في الآية و لم يقنع بقوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا** لأنّ الثّواب و العقاب يترتّبان علىٰ العمل إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و قال بعضهم المراد بقوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا** هو أن يكون عند البلاء من الصّابرين و مِن قوله: **وَ عَمِلُوا**

ٱلصَّالِحَاتِ أن يكون عند الرّاحة و الخير مِن الشّاكرين ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ ما يترتّب علىٰ الصَّبر و العمل الصّالح فقال: **أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** بزوال العقاب و الخلاص منه، و أجرٌ كبير و هو الفوز بالثّواب يوم القيامة و من المعلوم أنّ العبد إذا غفر اللّه له سيّئاته و أدخله في رحمته فقد فاز فوزاً عظيماً و نال ملكاً كبيراً و أعلم أنّهم إختلفوا في هذا الإستثناء علىٰ قولين:

فقال الأخفش و من تبعه هو إستثناء ليس من الأوّل، أي لكن الّذين صبروا و عملوا الصّالحات في حالتي النعمة و المحنة.

و قال الفرّاء هو، إستثناء من، و لئن أذقناه أي من الإنسان فأنّ الإنسان بمعنى النّاس و هو يشمل الكافر و المؤمن فهو إستثناء متّصل و هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنْتَ نَذِيرٌ وَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

قال الطّبرسي ﷺ ثمّ أمر سبحانه رسوله بالثّبات على الأمر و حثّه علىٰ حجاج القوم بما يقطع العُذر وقال: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** أي لعلَّك تاركٌ بعض القرأن و هو ما فيه سبّ ألهتهم و لا تبلغهم إيّاه دفعاً لشّرهم و خوفاً منهم، و ضائقٌ به صدرك بما يقولونه و بما يلحقك من أذاهم و تكذيبهم و قيل بإقتراحاتهم، أن يقولوا، أي كراهة أن يقولوا أو مخافة أن يقولوا، لولا أنزل عليه كنزٌ، من المال، أو جاء معه ملك، يشهد له فليس قوله فلعلَّك على وجه الشكّ بل المراد به النّهي عن ترك أداء الرّسالة و الحثّ علىٰ أداءها كما يقول أحدنا لغيره و قد علم من حاله أنّه يطيعه و لا يعصيه و يدعوه غيره الى عصيانه لعلَّك تترك بعض ما أمرك به لقول فلان و أنّما يقول ذلك ليأس من يدعوه الىٰ ترك أمره فمعناه لا تترك بعض ما يوحىٰ اليك و لا يضيق صدرك بسبب مقالتهم هذه.

إِنَّمَآ أَنْتَ نَذِيرٌ وَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي حفيظ يجلب النَّفع اليه و يدفع الضّرر عنه انتهىٰ كلامه رفع مقامه.

و قال الزّمخشري في الكشّاف و مِن إقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملك و كانوا لا يعتدون بالقرأن و يتهاونون به و بغيره ممّا جاء من البيّنات فكان يضيق صدر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يلقىٰ اليهم ما يقبلونه و يضحكون منه فحرّك اللّه منه و هيَّجه لأداء الرّسالة و طرح المبالاة بردّهم و إستهزاءهم و إقتراحهم بقوله: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** أي لَعَلَّك تترك أن تلقيه اليهم و تبلغه إيّاهم مخافة ردّهم و تهاونهم به **وَ ضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ** بأن تتلوه عليهم **أَنْ يَقُولُوا** مخافة يقولوا**لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ** أي هلاّ أنزل عليه ما إقترحنا نحن من الكنز و الملائكة و لم أنزل عليه ما لا نريده و لا نقترحه ثمّ قال: **إِنَّمَآ أَنْتَ نَذِيرٌ** أي ليس عليك إلاّ أن تنذرهم بما أوحي اليك و تبلّغهم ما أمرت تبليغه و لا عليك ردّوا أو تهاونوا و إقترحوا، **وَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** يحفظ ما يقولون و هو فاعل بهم ما يجب أن يفعل انتهىٰ.

و قال الشّيخ في التّبيان، هذا خطاب من اللّه لنبيّه يحثّه علىٰ أداء جميع ما بعثه به و أوحى اليه، و ينهاه عن كتمانه و يشجعه على الأداء و يقول له لا يكون لعظم ما يرد علىٰ قلبك و يضيق به صدرك من غيظهم يوهمون عليك أنّهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربّك و أنّك تترك بعض الوحي و يضيق به صدرك مخافة أن يقولوا أو لئّلا يقولوا، لولا أنزل عليه كنزٌ، أي هلاّ أنزل عليه كنز فينفق منه، أو جاء معه ملك، يعينه علىٰ أمره بل أنّما أنت نذير، أي منذرٍ مخّوف من معاصي اللّه و عقابه و اللّه على كلّ شيٍ وكيل، أي حافظ يكتب عليهم أفعالهم و أقوالهم و مجازيهم عليها فلا تغمّك أفعالهم و لا أقوالهم يضيق به صدرك فأنّ و بال ذلك عائد عليهم و ضائق و ضيق واحد إلاّ أنّ، ضائق هاهنا أحسن لمشاكلته لقوله، تارك، و الضَّيق قصور الشّئ عن مقدار غيره أن يكون فيه انتهىٰ كلامه.

أقول هؤلاء الثّلاثة أعني بهم الطّبرسي و الزّمخشري و الشّيخ من أساطين المفسّرين من العامّة و الخاصّة فأنّ جميع المفسّرين من العامّة أنّما أخذوا ما أخذوا في تفاسيرهم عن الكشّاف كما أنّ الشّيعة أخذت ما أخذت عن التّبيان للطّوسي قدّس سرّه و المجمع للطّبرسي فكلامهم حجّة بلاكلام و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا نحتاج الىٰ ذكر كلمات المتّأخرين منهم اذ لم يأتوا بشيٍ بعدهم إلاّ إستخراجات ظنّية أو تخيّلات و أوهام باطلة و كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

و محصّل الكلام في الآية هو أنّ ما تلقيه اليهم و تبلغه إيّاهم لعلّك ضائق به صدرك مخافة ردّهم و تهاونهم به بأن يقولوا لولا أنزل عليه كنزٌ **أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ** و لم ينزل عليه ما لا نريده و لا نقترحه و لم يعلموا أنّه ليس عليك إلاّ أن تنذرهم بما أوحي اليك و تبلغهم ما أمرت تبليغه و لا عليك ردّوا أو تهاونوا أو إقترحوا واذا كان كذلك فلا معنىٰ لضيق صدرك ممّا يقولون أو يطلبون ففي الآية تسلية للنّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و مع ذلك فيها إشارة الىٰ أنّ النّبي أو الوّصي أو كلّ مؤمنٍ أنّما وظيفته العمل بما أمر به وأن لا يعتني بما قيل به أو أن لا يعتني بما قيل أو يقال في حقّه من تكذيب أو ردٍّ أو إنكار فأن المطلوب هو تحصيل رضىٰ اللّه تعالىٰ فقط.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

الظّاهر، أن أم، منقطعة تتّقدر ببل و الهَمَزة من أيقولون إفتراه و قيل، أم، إستفهام توّسط الكلام علىٰ معنىٰ أيكتفون بما أوحيت اليك من القرأن أم يقولون أنّه ليس من عند اللّه فأن قالوا أنّه ليس من عند اللّه فليأتوا بمثله و عليه فهي متّصلة و الأوّل أوّلىٰ بظاهر الكلام كما لا يخفىٰ و كيف كان فهذه الآية صريحة في التَّحدي و فيها قطع لإعتدال المشركين و بغيهم لأنّهم عجزوا عن معارضة القرأن و لمّا قالوا أنّ ما فيه من الأخبار كذبٌ و إختلاق إخترعه من

الكتب السّالفة فقال تعالىٰ في جوابهم إقتروا أنتم مثله و أدحضوا حجّته فذلك أيسر و أهون ممّا تكلفتّموه فعجزوا عن ذلك و صاروا الى الحرب و بذل النّفس و المال و قتل الأباء والأبناء ولو قدروا علىٰ إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه مع هذا التّقريع العظيم و فيه دلالة على إعجاز القرأن و فصاحته في هذا النّظم المخصوص و حيث إنجرَّ الكلام الىٰ إعجاز القرأن فلا بأس بالإشارة الى شطرٍ ممّا لابدّ منه في هذا الباب فنقول:

لا شكّ أنّ القرأن معجزٌ أتىٰ به الرّسول لإثبات نبوّته فهو من المعجزات الباقية الى يوم القيامة و قبل إثبات إعجازه ينبغي التّكلم في المعجزة و أنّها ما هي قالوا أنّ شروطها أمور:

منها، أنّ يعجز عن مثله أو عمّا يقاربه المبعوث اليه و جنسه لأنّه لو قدر عليه أو واحد من جنسه في الحال لما دَلَّ علىٰ صدقه (علىٰ جنسه) و وصّي النّبي حكمه حكمه.

و منها، أن يكون من فعل اللّه أو بأمره و تمكينه لأنّ المصّدق للنّبي بالمعجز هو اللّه فلابدّ أن يكون من جهته تعالى ما يصدّق به النّبي أو الوّصي.

و منها، أن يكون ناقضاً للعادة لأنّه متىٰ كان معتاداً لم يدّل علىٰ صدقه كطلوع الشّمس من المشرق.

و منها، أن يحدث عقيب دعوى المدّعىٰ أو جارياً مجرىٰ ذلك والّذي يجري مجراه هو أن يدّعي النُّبوة و يظهر عليه معجزاً ثمّ يشيع دعواه في النّاس ثمّ يظهر معجز من غير تجديد دعوىٰ لذلك لأنّه أن لم يظهر لذلك لم يُعلم تعلّقه بالدّعوى فلا يعلم أنّه تصديق له في دعواه.

و منها، أن يظهر ذلك في زمان التّكليف لأنّ إشتراط السّاعة ينتقض بها عادته تعالى و لا يدّل علىٰ صدق مدّع اذا عرفت هذا فنقول:

أنّ القرأن معجز لأنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تحدّى العرب بمثله و هم في النّهاية في البلاغة و توفرت دواعيهم الىٰ الإتيان بما تحدّاهم به و لم يكن لهم صارف عنه

و لا مانع منه و لم يأتوا به فعلمنا أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله و أنّما قلنا أنّه صلى الله عليه و آله و سلم تحدّاهم به لأنّ القرأن نفسه تضمن التّحدي كقوله تعالىٰ: **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**(١).

و من المعلوم أنّ العرب فى زمانه صلى الله عليه و آله و سلم و بعده كانوا يتبادرون (يتنازعون) في البلاغة و يفتخرون بالفصاحة و كانت لهم مجامع يعرضون فيها شعرهم و حضر زمانه صلى الله عليه و آله و سلم من ربّما يعدّ في الطّبقة الأولى كالأعشى و لبيد و زمانه أوسط الأزمنة في إستعمال المتّأنس من كلام العرب دون الغريب الوحشي الثّقيل على اللّسان و أنّهم كانوا لغاية في الفصاحة و أنّما قلنا إشتدّت دواعيهم الى الإتيان بمثله لأنّه صلى الله عليه و آله و سلم تحدّاهم ثمّ قرعهم بالعجز عنه.

و أمّا وجه إعجاز القرأن فقد ذهب قوم من المتكلّمين الى أنّه معجزٌ من حيث كان قديماً أو لأنّه حكاية للكلام القديم و عبارة عنه.

وقال السّيد المرتضىٰ قدس سره في وجه إعجازه أنّ اللّه تعالىٰ صرف عن معارضته و سلبهم العلم بكيفيّة نظمه و فصاحته و قد كانوا لولا هذا الصَّرف قادرين علىٰ المعارضة و متّمكنين:

منها، و ذهب المفيد قدس سره الىٰ أنّه معجز من حيث إختصاصه برتبةٍ في الفصاحة خارقة للعادة قال لأنّ مراتب الفصاحة أنّما تتفاوت بحسب العلوم التّي يفعلها اللّه في العباد فلا يمتنع أن يجري اللّه العادة بقدر من المعلوم.

و قال قوم أنّ إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستّمرة علىٰ النّظر و موافِقة للعقل.

و قال الأخرون أنّ إعجازه من حيث زال عنه الإختلال و التّناقض على وجه لم يَجْرِ العادة بمثله.

و قيل أنّ إعجازه من حيث أنّ يتَّضمن الإخبار عن الغيوب.

و قيل إعجازه لإختصاصه بنظمٍ مخصوص مخالفاً للعهود.

١- البقرة = ٢٣

و أمّا المعتزلة فذهب أكثرهم الىٰ أنّ تأليف القرأن و نظمه معجزان و الحقّ أن القرأن معجز بكلّ هذه الوجوه و غيرها ممّا لا نعلمه كان لا شكّ في أصل الإعجاز و هو المطلوب.

اذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول الإفتراء الكذب فلمّا قالوا أنّ النّبي إفتراه طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات إرضاءً لعنانهم فكأنّه يقول هبّوا أنّي إختلقت و لم يوح إلّي فأتوا أنتم بكلامٍ مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم فصحاء مِثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام و أدعوا من إستطعتم من دون اللّه، كائناً من كان أن كنتم صادقى في دعواكم ثمّ قال تعالىٰ.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنْزِلَ بِعِلْمِ ٱللّٰهِ وَ أَنْ لآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

إختلفوا في معنى المراد بالخطاب في قوله (لكم) بعد إتّفاقهم علىٰ أنّ المراد بقوله فأن لم يستجيبوا الكفّار القائلين بالإفتراء علىٰ قولين:

أحدهما: أنّ الخطاب في لكم، الرّسول و المؤمنين التّابعين له فالمعنى فأن لم يستجيبوا هؤلاء الكفّار الّذين قالوا بالإفتراء لكم أيّها الرّسول و من تابعك من المؤمنين بأن لم يأتوا بعشر سور مثله فأعلموا أيّها المؤمنون أنّما أنزل بعلم اللّه و بعبارةٍ أخرىٰ فأن لم يقبلوا إجابتك يا محمّد و المؤمنون و لم يأتوا بعشر سور معارضةً لهذا القرأن فليعلم المؤمنون أنّما أنزل القرأن بعلم اللّه بهذا الدّليل.



ثانيهما: أن يكون المراد به المشركين و التّقدير فأن لم يستجب لكم من تدعونهم الى المعاونة و لا يهيأ لكم المعارضة فقد قامت عليكم الحجّة إشعار بأنّ العاقل لا يقنع بالتّكذيب فقط بل ينبغي له أن يأتي بالدّليل الدّال علىٰ مدّعاه فأن أتى به فهو و إلاّ فهو كاذب في انكاره و من كان كذلك فهو سفيه أو معاند و هو كما ترىٰ.

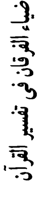
و أمّا قوله: **وَ أَنْ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.**

قيل معناه بعد قيام الحجّة عليكم بما ذكرناه من كلام اللّه و أنّه أنزله علىٰ نبيّه تصديقاً له فيما أدّاه اليكم عن اللّه، مسلمون له مؤمنون به.

قيل هذا خطاب لأصحاب النّبي من المُسلمين.

أقُول و في قوله: **وَ أَنْ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ** نُقطة خفيت عليهم و لذلك لم يتَّعرضوا لها وهي أنّ الإتيان بكلمة التّوحيد في هذا المقام إشارة الىٰ أنّه لو كان في الوجود إلٰهٌ غيره كما يقول به المشرك لكان قادراً علىٰ الإتيان بعشر سور مثلاً فأنّا قلنا لهم و أدعوا من إستطعتم من دون اللّه و حيث لم يجدوا أحداً من دون اللّه يقدر علىٰ الإتيان به فهو من أدّل الدّلائل علىٰ وحدانيّته تعالىٰ و أنّه لا شريك له في الملك و هو المطلوب هذا ما إستفدناه من الأية و العلم عند اللّه تعالىٰ.

■





مَنْ كانَ يُرِيدُ ٱلْحَيوٰةَ ٱلدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ «١٥» أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «١٦» أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسىٰ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ «١٧» وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِباً أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ ٱلْأَشْهادُ هٰؤُلاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ ٱللّٰهِ عَلَى ٱلظّالِمِينَ «١٨» ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ «١٩» أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ «٢٠» أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ «٢١» لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ «٢٢»

◀ اللّغة

زِينَتَهَا الزِّينة بكسر الزّاء تحسين الشّئ بغيره من لبسةٍ أو حليةٍ أو هيئةٍ.
نُوَفِّ مِن وَفَّىٰ يُوَفِّىٰ تَوَفِّيته والتَّوفية تأدية الحقّ علىٰ تمام.
لَا يُبْخَسُونَ البخس نقصان الحقّ يقال بَخَسه بَخساً اذا ظلمه بنقصان الحقّ.
حَبِطَ أصل الحَبط في اللُّغة هو أن تَكثر الدّابة أكَلاً حتّى تنتفخ بطنها.
مِرْيَةٍ المِرية بكسر الميم الرَّيب و الشّك.
يَصُدُّونَ الصَّد المنع.
عِوَجًا العِوج بكسر العين و فتح الواو العدول عن طريق الصَّواب.

◀ الإعراب

بَاطِلٌ خَبر مُقدّم و مَا كَانُوا المبتدأ و العائد محذوف أي يعلمونه و قرئ باطلاً بالنَّصب و العامل فيه، يعملون، و ما زائدة أَفَمَنْ كَانَ في موضع رفع بالإبتداء و الخبر محذوف تقديره أفمن كان على هذه الأشياء كغيره وَ يَتْلُوهُ الضّمير يرجع الى، من، و هو النّبي و التّقدير و يتلوا محمّداً و قيل و تمام الكلام عند قوله، منه، و من كتاب موسىٰ، إبتداء و خبر و إِمَامًا وَ رَحْمَةً حالان في مِرْيَةٍ بالكسر و الضَّم و هما لغتان يُضَاعَفُ لَهُمُ مستأنف مَا كَانُوا ما، بمعنىٰ الّذى.

و قيل هي مصدّرية و التّقدير، مدّة ما كانوا يستطيعون و قيل هي نافية أي من شدّة بغضهم له لم يستطيعوا الإصغاء اليه لَا جَرَمَ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أنّ لا، ردّ لكلام ماضٍ أي ليس الأمر كما زعموا و، جرم، فعل و فاعله مُضمر فيه و أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ في موضع نصب.

الثّانى: أنّ، لاجرم كلمتان ركبتا و صارتا بمعنى حقّاً و أن، في موضع رفع بأنّه فاعل لحقّ، أي حقّ خسرانهم.

الثّالث: أنّ المعنى لا محالة خسرانهم فيكون في موضع رفع أيضاً و قيل في موضع نصب أو جرّاً اذ التّقدير لا محالة في خسرانهم.

الرّابع: أنّ المعنى لا منع مِن أنّهم خسروا فهو في الإعراب كالّذي قبله.

◀ التّفسير

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا

أي كان يريد الدُّنيا و لا يريد الأخرة و أن شئت قلت يريد الدّنيا للدّنيا و أمّا من كان يريد الدّنيا للأخرة لا للدّنيا فلا إشكال فيه و لذلك قال تعالىٰ: **وَ زِينَتَهَا** أي يريد الدُّنيا لأجل زينتها و أنّما قال ذلك لأنّ حبّ الحياة أمرٌ طبيعي فأنّ كلّ موجودٍ كائناً من كان يريد حياته و لا يريد موته و فناءه و هذا ممّا لا إشكال فيه و أنّما الإشكال في حبّها للوصول الى ما فيها من الزّينة و التَّجمل و هذا هو الّذي يوجب نسيان الأخرة و الغفلة عمّا خلق لأجله و لا فرق فيه بين الكافر و المسلم و العالم و الجاهل و الرّجل و المرأة فأنّ الحكم عامّ يشمل الكلّ.

فما قاله بعض المفسّرين من أنّ المراد بها هو الكفّار لا دليل عليه و أمّا قوله: **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا** فالتَّوفية هي تأدّية الحقّ على تمامٍ كما أنّ البخس نقصان الحقّ و المعنىٰ أنّا نؤدّي اليهم حقّهم في الدُّنيا الّتي عملوا لأجلها من غير بخسٍ و نقصٍ كما هو مقتضى العدل و ذلك لأنّ من يعمل عملاً صالحاً فأن عمل للدّنيا يجزى فيها و إن عمل للأخرة أيضاً يجزى به فيها لقوله تعالىٰ: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**[1] أي يرىٰ ثمرة عمله في الدُّنيا أو في الأخرة و فيها إشارة الى كمال عدله تعالى حتّىٰ أنّه لا يُضيع أجر الكافر فضلاً عن غيره.

و محصّل الكلام هو أنّ الجزاء مترتّبٌ على العمل فأن كان العمل للدّنيا فالجزاء فيها و أن كان للأخرة فهو كذلك و اللّه تعالى لا يضيع عمل عاملٍ أبداً.

١- الزلزال = ٧ / ٨

و قال بعضهم نزلت في الغزو مع النّبي ﷺ للغنيمة دون ثواب الأخرة أمر اللّه نبيّه أن يوَّفيهم قسمهم منها و هذا من صفة المنافقين، و الحقّ أنّ المراد بها العموم و لا يضُّره نزولها في موردٍ خاصّ فأنّ خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى و في المقام إشكال أورَده بعض الأُدباء و هو أنّ الأجود في الشّرط و الجزاء أن يكونا مستقبلين كقولنا أن تضربني أو ماضيين بنية الإستقبال كقولنا أن ضربتني ضَربتك.

و أمّا أن كان أحدهما ماضياً و الأخر مستقبلاً فهو يجوز على ضعفٍ و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ الشّرط و هو قوله من كان، ماضٍ و الجزاء و هو قوله: **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ** مضارع.

و قد أجابوا عنه أمّا أوّلاً فبأنّ، كان زائدة و التّقدير من يرد الحياة الدُّنيا قاله الفّراء.

ثانياً: أنّ، كان، أمّ الأفعال فيجُوز فيه ما لا يجوز في غيره و الدّليل عليه قوله تعالىٰ في قصّة يوسف: **وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ**[١] هذا ولقائلٍ أن يقول أنّ الشّرط و الجزاء في هذه الآية ماضيان و هو ممّا لا كلام فيهبخلاف ما نحن فيه فأنّ الجزاء فيه مضارع و هو قوله: **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ** والحق في الجواب هو أن يقال لا دليل على ضعف ما ذكره من الإختلاف في الشّرط و الجزاء بل الدّليل قائم على عدمه و هو القرأن و بعبارةٍ أخرىٰ كلام اللّه هو الأصل في الباب لا كلام الأخفش والفّراء وأمثالهما و له في القرأن نظائر.

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ**[٣].

١- يوسف = ٣٧
٢- الشّورىٰ = ٢٠
٣- الأنفال = ٣٢

هذا كلّه مضافاً الىٰ أنّ هذا التّركيب من مجيئ فعل الشّرط ماضياً والجواب مضارعاً ليس مخصوصاً بكان بل هو جائز في غيرها أيضاً قال زهير:

ومَن هاب أسباب المنايا يَـنُلنه لو رام أن يـرقىٰ السّـماء بسُـلّمٍ

ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلَّا ٱلنّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.**

أُولئك إشارة الى من كان يريد الحياة الدُّنيا و زينتها، فقال تعالىٰ أنّهم أخذوا حقّهم في الدّنيا فلا جرم ليس لهم نصيبٌ في الأخرة إلاّ النّار لكونهم مستّحقين لها و لذلك.

قال بعض المفسّرين أو أكثرهم أنّ الآية مختّصة بالكفّار لأنّهم بسبب كُفرهم صاروا مستحقّين للنّار، والحقّ أنّ الآية لا إختصاص لها بالكفّار بل هي عامّة تشمل كلّ من كان كذلك مسلماً كان أو كافراً فأنّ الجزاء و هو النّار أو الجنّة مترتّبٌ علىٰ نفس العمل و ليس في الآية الشّريفة ما دلَّ علىٰ الخلود فيها حتّىٰ يقال أنّ المسلم لا يكون مخلّداً فيها مع أنّه أيضاً لا يرجع الى محصّلٍ و لم يدلّ دليل من العقل أو الشّرع علىٰ أنّ المسلم لا يخلَّد فيها بل الدّليل قائم علىٰ العكس.

و محصّل الكلام هو أنّ مريد الحياة الدُّنيا و زينتها ليس له في الأخرة إلاّ النّار مسلماً كان أو كافراً و أمّا الخلود فيها أو عدم الخلود فالآية ساكتة عنهما.

و أمّا قوله: **وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فيها** فقد قلنا في شرح اللّغات أنّ الحبط بسكون الباء مأخوذ من الحبط بفتحها و هو أن تكثر الدّابة أكلاً حتّىٰ ينتفخ بطنها و أمّا حبط العمل فهو علىٰ أضرب:

أحدها: أن تكون الأعمال دُنيويّة فلا تُغني في القيامة غناءً ومنه قوله تعالىٰ: **وَ قَدِمْنا إِلىٰ ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُورًا**[1].

١- الفرقان = ٢٣

الثّاني: أن تكون أعمالاً أخرّوية لكن لم يقصد بها صاحبها وجه اللّه تعالى كما روي أنّه يؤتى يوم القيامة برجلٍ فيقال له بم كان إشتغالك، قال بقراءة القرأن فيقال له قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ و قد قيل ذلك فيؤمر به الىٰ النّار.

الثّالث: أن تكون أعمالاً صالحة و لكن بأزاءها سيّئات توّفى عليها و ذلك هو المشار بخفة الميزان انتهىٰ كلام الرّاغب في المفردات.

أقول فعلى ما ذكره الرّاغب من أقسام الحبط يكون ما نحن فيه من القسم الثّاني و هو أنّ صاحب العمل عمل في الدُّنيا لها و لزينتها و لم يقصد بعمله وجه اللّه و قد وصل الى ما عمل لأجله كما هو المفروض و هو قوله تعالىٰ: **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمٰالَهُمْ** فلاجرم ليس له في الأخرة من نصيب لأنّ نصيب الأخرة يتوقّف على العمل لها لا على العمل للدّنيا و أنّما عبّر عنه بالحبط لسقوطه عن الأجر يوم القيامة و لذلك قال و حبط ما صنعوا فيها أي سقط و خرج عن الأجر في الأخرة و قوله: **وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** فمعناه أنّ نفس الأعمال تبطل اذا وقعت على خلاف الوجه الّذي يستحقّ به الثّواب.

أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰامًا وَ رَحْمَةً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

الألِف في قوله: أفمن كانَ ألف إستفهام و المراد به التّقرير و التّقدير هل الّذي كان على بيّنة يعني برهاناً و حجّة من اللّه.

قيل المراد بالبيّنة في المقام القرأن و المعنى بقوله: **أَفَمَنْ كٰانَ** هو النّبي و كلّ من إهتدىٰ به و إتّبعه.

و قال صاحب الكشّاف، **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ** معناه أمن كان يريد الحياة الدُّنيا كمن كان علىٰ بيّنةٍ أي لا يعقبونهم في المنزلة و لا يقاربونهم يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً و تبياناً بيّناً و أراد بهم من أمن من اليهود كعبد اللّه بن سلام و غيره كان على بيّنة من ربّه أي علىٰ برهانٍ من اللّه و بيان أنّ دين

الإسلام حقّ و هو دليل العقل **وَ يَتْلُوهُ** أي و يتبع ذلك البرهان **شَاهِدٌ مِنْهُ** أي شاهد يشهد بصحتّه و هو القرأن منه من اللّه أو شاهد مِن القرأن انتهىٰ كلامه.

و قال الرّازي و إعلم أنّ أوّل هذه الآية مشتمل علىٰ ألفاظ أربعة كلّ واحدٍ منها مجمل.

فالأوّل: أنّ هذا الّذي وصفه اللّه تعالىٰ على بيّنةٍ من ربّه من هو.

الثّانى: أنّ المراد بالبيّنة ماهو.

الثّالث: أنّ المراد بقوله يتلوه القرأن أو كونه حاصلاً عقيب غيره.

الرّابع: أنّ هذا الشّاهد ما هو فهذه الألفاظ الأربعة مجملة فلهذا كثر إختلاف المفسّرين في هذه الآية.

أمّا الأوّل: و هو أنّ الّذي وصَفه اللّه تعالىٰ بأنّه بيّنةٍ من ربّه من هو فقيل المراد به النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و قيل المراد به من أمنٍ من اليهود كعبد اللّه بن سلام و غيره و هو الأظهر لقوله تعالىٰ في أخر الآية **أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** و هذا صيغة جمعٍ فلا يجوز رجوعه الىٰ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و المراد بالبيّنة هو البيان و البرهان الّذي عرف به صحّة الدّين الحقّ و الضّمير في يتلوه يرجع الىٰ معنى البيّنة البيان و البُرهان والمراد بالشّاهد هو القرأن ومنه، أي مِن اللّه و من قبله كتاب موسىٰ، أي و يتلوا ذلك البرهان من قبل مجيئ القرأن كتاب موسىٰ و ساق الكلام الى أن قال و ذكروا في تفسير الشّاهد وجوهاً:

أحدها: أنّه جبرئيل و المعنى أنّ جبرئيل عليه السلام يقرأ القرأن على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيها: أنّ ذلك الشّاهد هو لسان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و هو قول الحسن.

ثالثها: أنّ المراد هو عليّ بن أبي طالب و المعنى أنّه يتلو تلك البيّنة و قوله، منه، أي هذا الشّاهد من محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و بعضٌ منه و المراد منه تشريف هذا الشّاهد بأنّه بعضٌ من محمّد صلى الله عليه وآله وسلم انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول أمّا قوله: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** فالظّاهر أنّه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و أمّا قوله و يتلوه شاهد منه فهو أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السلام فالكلام يقع في مقامين:

المقام الأوّل: و هو أنّ المراد بقوله: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** هو النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فالظّاهر أنّه قول أكثر المفسّرين من العامّة و الخاصّة و المخالف لا يعتدّ بقوله و ذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الّذي كان كذلك حقّاً لأنّه هو الدّاعي الىٰ اللّه و أمّا عبد اللّه بن سلام و أمثاله ممّن أمن به و أن كانوا بهذه الصّفة إلاّ أنّهم لم يكونوا على بيّنةٍ من ربّهم كاملاً بل كان وصفهم بذلك كغيرهم من المؤمنين فتخصيصهم بكونهم علىٰ بيّنةٍ من ربّهم دون غيرهم لا دليل عليه هذا مضافاً الى أنّ مدّعي النّبوة هو الّذي يجب أن يكون علىٰ بيّنةٍ من ربّه في دعواه وليس ذلك إلاّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و قد إعترف قاطبة المفسّرين بذلك فهذا ممّا لا كلام لنا فيه.

أمّا المقام الثّاني: و هو أنّ المراد بالشّاهد مَن هو فالحقّ أنّه أمير المؤمنين لا ما ذهب اليه بعض المخالفين أو أكثرهم من أنّ المراد به القرأن أو جبرئيل أو لسان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك لأنّ الآية نزلت في مقام الإحتجاج على المخالفين المنكرين للنّبوة والقرأن.

و من المعلوم أنّ من أنكر النّبي أنكر القرأن وأنكر جبرئيل وأنكر لسان النّبي بطريق أولى فكيف يعقل أن يقال لمن أنكر النُّبوة أنّ القرأن شاهد على صدق مدّعاه و بعبارةٍ أُخرىٰ القرأن جاء به النّبي لإثبات مدّعاه فمن أنكر النّبي أنكَر القرأن أيضاً فكيف يكون القرأن شاهداً علىٰ صدق النّبي و أمّا جبرئيل فهو أيضاً لا يصلح و ذلك لأنّ جبرئيل من الملائكة و لا يعقل أن يحتّج اللّه علىٰ عباده في إثبات النُّبوة بوجود جبرئيل و كونه شاهداً علىٰ النّبي.

و أمّا لسان محمّد فمن أنكر صاحب اللّسان لا يعقل أن يقال له أنّ لسانه شاهد علىٰ صِدقه فهذه الأقاويل كلّها عاطلة باطلة و الشّاهد لابدّ من أن يكون

حاضراً في مقام الشّهادة و لا يطلق على القرأن و لا على جبرئيل و لا على غيرهما ممّا لا حضور له فالشّاهد ينبغي أن يكون من جنس البشر كما أنّ النّبي كذلك و أن يكون في مرئى المنكر و منظر ليراه و يسمع كلامه و أمّا أنّه كان أمير المؤمنين لا غيره فيدّل عليه العقل والنَّقل.

أمّا العقل فلأنّ الشّاهد عبارة عمّن يشهد على شيءٍ و أصل الشَّهادة و الشّهود الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر و بالبصيرة و قد يقال للحضور مفرداً.

و قال بعضهم الشّهادة قولٌ صادرٌ عن علمٍ بمشاهدة بصيرةٍ أو بصرٍ و لذلك لا يرضى مِن الشّاهد أن يقول أعلم بل يحتاجٍ أن يقول أشهد اذا عرفت معنىٰ الشّهادة فنقول:

للشّاهد شروط ينبغي مراعاتها:

أحدها: أن يكون عازماً عالماً بما يشهد به أو له أو عليه فالجاهل الّذي لا يدري ما يقول لا يقبل شهادته.

ثانيها: أن يكون عادلاً فلو كان فاسقاً ظالماً لا تقبل شهادته.

ثالثها: أن يكون صادقاً فلا تقبل شهادة الكاذب و لا شكّ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان عالماً عادلاً صادقاً ومع ذلك كان أقرب النّاس بالمشهود له المعلوم أنّ الأقرب يمنع الأبعد و قد حكم العقل بأنّ أهل البيت أدرى بما في البيت و يدّل علىٰ جميع ما ذكرناه من الشّروط قوله تعالىٰ: **وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** فأنّ كلمة، منه، تدّل علىٰ أنّ الشّاهد في الآية الشّريفة كان منه أي من النّبي يقال للقرأن و لا لجبرئيل أنّهما مِن النّبي لأنّ القرأن من اللّه تعالىٰ و جبرئيل ملكٌ من الملائكة فهو من الملائكة لا من البشر و حيث كان الشّاهد من النّبي أي من سنخه و جنسه في العصمة و البشريّة فلا جرم هو أمير المؤمنين لا غيره اذ غير المعصوم لا يكون من سنخ المعصوم فقد ظهر أنّ الشّاهد في المقام منحصرٌ بعلّي عليه السلام و هو المطلوب.

أمّا النّقل فمِن طريق الخاصّة:



ما رواه في أصول الكافي بأسناده عن أحمد بن عُمر الحلال قال: سألت أبا الحَسن عن قول اللّه عزّ وجلّ: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** فقال عليه السلام أمير المؤمنين الشّاهد علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ورسول اللّه علىٰ بيّنةٍ من ربّه انتهىٰ.

و عن بصائر الدّرجات بأسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام واللّه ما نزلت أية في كتاب اللّه في ليلٍ أو نهارٍ إلاّ وقد علمت فيمن أنزلت و لا مرَّ على رأسه المواسي إلاّ وقد أنزلت عليه أية من كتاب اللّه تسوقه الى الجنّة أو الى النّار فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين فالآية التّي نزلت فيك قال عليه السلام له أما سمعت اللّه يقول: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** فرسول اللّه على بيّنةٍ من ربّه وأنا شاهدٌ له فيه وأتلُوه مَعه انتهىٰ.

و في تفسير علّي بن إبراهيم و قوله **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** الخ فقال الصّادق عليه السلام أنّما أنزل أفمن كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ أفمن كان علىٰ بيّنةٍ من ربّه ويتلوه شاهدٌ منه إماماً و رحمةً و من قبله كتاب مُوسىٰ انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أنّما أنزلت أفمن كان علىٰ بيّنةٍ من ربّه، يعني رسول اللّه، ويتلوه شاهدٌ منه إماماً و رحمةٍ و من قبله كتاب موسىٰ أولئك يؤمنون به فقدّموا أو أخرُّوا في التّأليف انتهىٰ.

أقول يظهر من هذا الحديث أنّ في الكلام تقديم و تأخير و لا بعد فيه لأنّ تأليف القرأن كان في عهد عثمان فقدّموا و أخروا ما شاءوا في التّأليف و لا شكّ أنّ نظم الكلام يقتضي أن يكون قوله: **إِمٰامًا وَ رَحْمَةً** صفة للشاهد كما ذكره عليه السلام في الحديث ضرورة أنّ الإمام لا يطلق علىٰ الكتاب إلاّ بضربٍ من التّجوز و أمّا إطلاقه علىٰ الشّخص فهو علىٰ سبيل الحقيقة خير من المجاز فحمل الكلام عليها أوَلىٰ.

ما رواه الشّيخ رحمه الله في أماليه بأسناده الىٰ أمير المؤمنين أنّه اذا كان يوم الجمعة يخطب علىٰ المنبر فقال: والّذي فلق الحبّة وبرئ النَّسمة ما من رجلٍ من قريش جرت عليه المواثيق إلاّ وقد نزلت فيه أية من كتاب اللّه عزّ وجلّ أعرفها فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين ما أيُتك التّي نزلت فيك فقال عليه السلام اذا سألت فإفهم و لا عليك إلاّ تسأل عنها غيري أقرأت سورة هود قال نعم يا أمير المؤمنين قال أفسمعت اللّه عزّ وجلّ يقول أفمن كان علىٰ بيّنةٍ من ربّه و يتلوه شاهدٌ منه، قال نعم قال عليه السلام فالّذي علىٰ بيّنةٍ مِن ربّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم والّذي يتلوه شاهد منه و هو الشّاهد و هو منه و أنا علّي بن أبي طالب وأنا الشّاهد وأنا منه انتهىٰ.

و قال سليم بن قيس سأَل رجل علّي بن أبي طالب عليه السلام وأنا أسمع أخبرني بأفضل منقبةٍ لك قال عليه السلام: ما أنزل اللّه في كتابه و ما أنزل اللّه فيك قال عليه السلام: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** أنا الشّاهد من رسول اللّه و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة وفي تفسير العيّاشي عن بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: الّذي على بيّنةٍ من ربّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم والّذي تلاه من بعده الشّاهد منه أمير المؤمنين ثمّ أوصياءه واحد بعد واحدٍ.

و عن جابر عن عبد اللّه بن يحيى قال: سمعتُ عليّاً عليه السلام يقول ما من رجلٍ من قريشٍ إلاّ وقد أنزل فيه آيةٍ أو آيتان من كتاب اللّه فقال له رجل من القوم فما نزل فيك يا أمير المؤمنين فقال أما تقرأ الآية الّتي في هود: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** محمّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ بيّنةٍ من ربّه و أنا الشّاهد انتهى و الأحاديث كثيرة[١].

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٣٤٤

و أمّا الأخبار الواردة من طرق العّامة.

ما رواه الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العّامة في كتابه شواهد التّنزيل بأسناده عن عباد بن عبد اللّه عن علّي عليه السلام في قوله تعالىٰ: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** قال عليه السلام: الّذي على بيّنةٍ هو رسول اللّه وأنا الشّاهد الّذي أتلُوه انتهىٰ.

و أيضاً بأسناده عنه عليه السلام في قوله تعالىٰ: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** قال هو رسول اللّه، و يتلوه شاهد منه قال عليه السلام أنا الشّاهد.

و بأسناده عن محمّد بن أحمد بن محمّد المفيد أنّه قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنا البيّنة و عليّ الشّاهد انتهىٰ.

و بأسناده عن عباد بن عبد اللّه قال كنّا مع علّي في الرُّحبة فقال اليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أريت قول اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** أفمن كان علىٰ بيّنةٍ من ربّه و يتلوه شاهد منه، فقال عليٌّ عليه السلام: والّذي فلق الحبّة و برئ النسّمة ما جرت المواسي علىٰ رجل من قريش إلاّ و قد نزلت فيه من كتاب اللّه آية أو آيتان و لأن يعملوا ما فرض اللّه لنا على لسان النّبي الأُمّي أحبُّ إلّيَ من ملئ الأرض فِضّة و أنّي لأعلم أنّ القلم قد جرى بما هو كائن أمّا والّذي فلق الحبّة و برئ النسّمة أنّ مثلنا فيكم كمثل سفينة نوح في قومه و مثل باب حِطّة في بني إسرائيل أتقرأ سورة هُود **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** فرسول اللّه على بيّنةٍ من ربّه وأنا أتلوه الشّاهد انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي إسحاق عن الحرث عن علّي بن أبي طالب قال عليه السلام: رسول اللّه علىٰ بيّنةٍ من ربّه و أنا الشّاهد منه أتلُوه أتبَعه انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي الطّفيل قال خَطبنا علّي بن أبي طالب علىٰ منبر الكوفة فقام اليه إبن الكَّوا فقال هل أُنزلت فيك آية لم يشاركك فيها أحَد قال عليه السلام نعم أما تقرأ **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** فالنّبي صلى الله عليه و آله و سلم كان علىٰ بَيِّنَةٍ من ربّه وأنا الشّاهد منه انتهىٰ.

و بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** قال: النّبي صلى الله عليه و آله و سلم ويتلوه شاهد منه، قال هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و بأسناده عن إبن عبّاس أيضاً في قوله: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** رسول اللّه، ويتلوه شاهد منه، علّي خاصّة انتهىٰ.

و بأسناده عن أنَس بن مالك في قوله عزّ وجلّ: **أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** قال هو محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و يتلوه شاهد منه، قال هو علّي بن أبي طالب كان واللّه لسان رسول اللّه الىٰ أهل مكّة في نقض عهدهم انتهىٰ.

و الأحاديث كثيرة نقلناها شطراً منها و أن أردت الإطّلاع علىٰ أكثر ممّا ذكرناه فعليك بشواهد التّنزيل و غيره من كتب العامّة و العجب أنّ الطّبري ذَكر حديثاً واحداً في الباب و هكذا الرّازي في تفسيره و الألوسي في تفسيره و هكذا غيرهم من مفسّري العّامة نقلوا بعض الأحاديث في الباب إلاّ أنّهم لم يرضوا بما هو الحقّ في تفسير الآية ولم يعلموا أنّ اللّه تعالى أحكم الحاكمين يوم القيامة أنّ يوم الفصل كان ميقاتاً.



تنبيهٌ

إعلم أنّ قوله: **وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** يدّل علىٰ أنّ الشّاهد من الرّسول المعلوم أنّ عليّاً منه لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: **أنتَ منّي وأنا مِنك**، وقوله صلى الله عليه و آله و سلم: **هو منّي و أنا منه بل نقول هو نفس النّبي في الحقيقة بدليل قوله: وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكُمْ**

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت منّي كروحي من جسدي وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنتَ منّي كالضَوء من الضّوء.

ولنعم ما قال إبن حماد:

وسمّاه ربّ العرش في الذّكر نفسه   فحسبك هذا القول إن كنت ذا خبر
وقال لهم هذا وصيّي و وارثي   ومن شدّ ربّ العالمين به أزري
عليٌ كزريّ من قميص أشارة   بأن ليس يستغني القميص عن الزر

و سُأل النبّي عن بعض أصحابه فذكر فيه فقال له قائل فعليٌّ عليه السلام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّما سألتني عن النّاس ولَم تسألني عن نفسي و قد ثبت أنّ جبرائيل قال منكما لما قال رسول اللّه هو منّي و أنا منه.

قال الجماني:

وأنزله منه النّبي كنفسه   روايةُ أبرارٍ تأّدت الى برٍّ
فَمَن نفسه فيكم كنفس محمّدٍ   ألا بأبي نفس المطهّر والطّهر

و قال الأخر:

عضو النّبي المصطفى و روحه   وشمّه و ذوقه و ريحه

و قال الآخر:

اللّه سمّاه نفس أحمد في   القرآن يوم البهال إذ ندبا
فكيف شبّهه بطائفةٍ   شبّهها ذو المعارج الخشبا

و قال الآخر:

من نفسه من نفسه و جنسه من جنسه
و عرسه من عرسه فهل له معادلُ

و الأشعار و الأقوال و الأخبار في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية و منه يظهر معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ** فأنّ كلمة، منه، يدلّ علىٰ المقصود و لنختم الكلام فعلاً والحمدُ لِلّه.

وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰامًا وَ رَحْمَةً كتاب موسىٰ هو التّوراة و قد مرّ في أحاديث أهل البيت أنّ إماماً و رحمة كان موضعه بحسب النزّول قبل ذلك فأنّ الآية نزلت و يتلوه شاهد منه إماماً و رحمةً و من قبله كتاب موسى و قلنا أنّه الحقّ لأنّ الكتاب لا يكون إماماً إلاّ بضرب من التّجوز و لكنّ المصاحف بخلاف ذلك و كيف كان فمعنى الكلام على هذا أنّ كتاب موسى و هو التّوراة كان قبل القرآن إماماً و رحمةً لأمّة موسىٰ و كانوا مأمورين بإتّباعه و الإستضاءة بنور هدايته **أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** قالوا هذا كناية عمّن كان على بيّنةٍ من ربّه أنّهم يصدّقون بالقرآن و يعترفون بأنّه حقّ.

و قال الطّبري وقوله: **أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** يقول هؤلاء الّذين ذكرتُ يصدّقون و يقرّون به إن كفر به هؤلاء المشركون انتهىٰ كلامه.

و قال صاحب الكشّاف، أولئك يعني فمن كان علىٰ بيّنةٍ، يؤمنون به، يؤمنون بالقرآن.

و قال الرّازي في تفسيره و المعنى أنّ الّذين وصفهم اللّه بأنّهم على بيّنةٍ من ربّهم في صحّة هذا الدّين يؤمنون.

و قال الطّبرسيّ قدّس سرّه في تفسيره معناه أولئك الّذين هم على بيّنةٍ من ربّهم يؤمنون بالقرآن و قيل بمحمّدٍ و تقدير الآية أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه و بصيرةٍ كمن ليس على بيّنةٍ و لا بصيرة إلاّ أنّه اختصر و قيل تقديره، أفمن كان علىٰ بَيّنةٍ من ربّه و يتلوه شاهد على صدقه و تقدّمه شاهد فآمن بهذا كلّه كمن أراد الحياة الدّنيا و زينتها و لم يؤمن ثمّ أخبر عنه فقال أولئك يؤمنون به انتهىٰ كلامه.

و به قال جميع المفسّرين إلاّ أنّ عباراتهم مختلفة و الوجه في ذلك أنّهم أخذ بعضهم عن بعضٍ من غير تدّبرٍ منهم في الآية فأنّهم لم يبيّنوا المشار اليه في قوله، أولئك بل قالوا أولئك الّذين هُم علىٰ بيّنةٍ من ربّهم و قد إتّفقوا علىٰ أنّ المراد بمن كان على بيّنةٍ من ربّه هو النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و إذا كان كذلك فحقّ الكلام أن يقال هو يؤمن به أي بالقرآن لا أولئك بصيغة الجمع و قول بعضهم



في دفع الإشكال أنّه راعى معنى، مع، فجمع لا يرجع الى محصّلٍ اللّهم إلاّ أن يقال أنّ المراد بقوله: **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** معناه العامّ الشّامل لجميع من كانوا كذلك و قوله: **أُولَٰئِكَ** إشارة اليهم فيصير المعنىٰ: **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** كغيره ممّن ليس كذلك أولئك الّذين يؤمنون بالقرآن لا غيرهم ممّن لا يتّصف بذلك و اللّه أعلم بما قال.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ أي و مَن يكفر بالقرآن من الأعراب فمصيره الىٰ النّار و لا يبعد أن يكون مرجع الضّمير في، به، الرّسول أي و من يكفر بالرّسول و الأوّل أولى بقرنية السّياق **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ** الخطاب للنّبي أي فلا تك في شكّ منه و المراد جميع المكلّفين **إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** أي أنّ هذا الخبر الّذي ذكره حقّ من عند اللّه و هو أنّ موعدهم النّار و يحتمل رجوع الضّمير الىٰ القرآن أي أنّ القرآن الّذي أنكره بعضهم هو الحقّ من ربّك أي جاء من عنده و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون، صحتّه و صدقه لجهلهم باللّه و جحدهم نبّوة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو كذلك.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ

قيل معنىٰ الكلام لا أحد أظلم منه إلاّ أنّه خرج مخرج الإستفهام مبالغةً في أنّه أظلم لنفسه من كلّ ظالم و أنّما كان المفتري علىٰ اللّه كذباً أظلم من كلّ ظالمٍ لأنّه يجحد نعم اللّه و لاّ يشكرها هكذا قيل.

وٍ نحن نقول الفري قطع الجلد للحزز و الإصلاح و الإفراء للإفساد و الإفتراء فيهما إلاّ أنّه في الإفساد وأكثر و كذلك أستعمل في القرأن في الكذب و الشّرك و الظُّلم.

قال اللّه تعالى: **وَ لَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ.**

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا.**

قال اللّه تعالى: **أُنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ وَ كَفٰى بِهِۦٓ إِثْمًا مُبِينًا.**

فَمَن الأوّل قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ**(١).

من الثّاني قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**(٢).

من الثّالث قال اللّه تعالىٰ: **أُنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ وَ كَفٰى بِهِۦٓ إِثْمًا مُبِينًا**(٣).

و أمّا قوله: **أُولٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلٰى رَبِّهِمْ** فالعرض إظهار الشّئ بحيث يرى للتّوقيف علىٰ حاله يقال عرضت الكتاب على فلان و عرض الجند علىٰ السّلطان و معنى العرض علىٰ اللّه أنّهم يقفون في المقام الذّي يريو العباد جعله اللّه تعالىٰ للمطالبة بالأعمال فهو بمنزلة العرض في الحقيقة.

يَقُولُ ٱلْأَشْهٰادُ هٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلٰى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللّٰهِ عَلَى ٱلظّٰالِمِينَ

الأشهاد جمع شاهد مثل أصحاب جمع صاحب.

و قيل جمع شهيد كشريف و أشراف قيل المراد بهم في الآية هو الملائكة و العُلماء و الأنبياء و المعنى أنّ الأشهاد يقولون هؤلاء الّذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة اللّه على الظّالمين و معنى لعنة اللّه إبعادِه من رحمته.

و محصّل الكلام هو أنّ هؤلاء الّذين كذبوا على اللّه بعد عرضهم على اللّه يوم القيامة يقول الأشهاد في حقّهم كذا و كذا وفي الآية إشارة بل دلالة علىٰ أنّ الظّالم يستحقّ اللّعن.

١- المائدة = ١٠٣ ٢- النّساء = ٤٨
٣- النّساء = ٥٠

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

الظّاهر أنّ هذه الأوصاف ثابتة للظّالم في قوله ألا لَعنة اللّه على الظّالمين فكأنّه قيل من هم الظّالمون فقال: ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ الخ و الصَّد المنع فقد وصف اللّه الظّالمين بأنّهم يصدّون أي يمنعون الخلق و يصرفونهم عن المصير اليه و إتّباعه.

و قيل أنّهم يغرّون الخلق وقوله: **وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا** العوج العدول عن طريق الصَّواب و هو في الدّين عِوج بالكسر و في العود عوج بالفتح و المعنى أنّهم يطلبون لسبيل اللّه عدولاً عنه و قوله: **وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** أي بالبَعث والنّشُور.

و في تفسير علّي بن إبراهيم أنّ المراد بالأشهاد في الآية هو الأئمّة عليهم السّلام و قوله ألا لَعنة اللّه علىٰ الظّالمين، لأل محمّد حقّهم و قوله: **ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** يعني يصدّون عن طريق اللّه وهي الإمامة، **وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا** يعني صرّفوها الى غيرها انتهىٰ.

وفي كتاب المناقب لإبن شهر أشوب عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ ويقول الأشهاد قال عليه السلام نحن الأشهاد انتهىٰ.

أقول لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ قال ألا لعنة اللّه على الظّالمين، و للظّلم مصاديق كثيرة فمن ظلم على أهل البيت فهو من أظلم النّاس لأنّ الظّلم عليهم هو الظّلم علىٰ اللّه و هكذا قوله: **ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** فأنّ طريق أهل البيت هو طريق اللّه و سبيله فالصّاد عن سبيل اللّه صادّ عن سبيل الحقّ أعظم مصاديقه الإمامة و هكذا الكلام في قوله تعالىٰ و يبغونها عوجاً، فأنّ الظّالمين عدلوا عن الإمامة و جعلوها في غير موضعها و الحاصل أنّ عموم المعنى في الآية يشمل ما ذكرناه.

أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰآءَ يُضٰاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذٰابُ مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ عن هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم بأنّهم ملعونون و أنّهم يصدّون عن سبيل اللّه الآية بأنّهم غير معجزين في الأرض، الإعجاز المنع من تحصيل المراد يقال أعجزني فلان أي معني عن مرادي و معنى معجزين في الأرض أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا و ذلك لأنّ الهرب عن عذاب اللّه معناه الفرار عن حكومته و الخروج عن تحت قدرته محال لأنّ المخلوق تحت قدرة الخالق قهراً و الاّ لايكون مخلوقاً له و قد قال أمير المؤمنين عليه السلام: و لا يمكن الفرار مِن حكومتك، و المقصود أنّ هؤلاء الكفّار يؤخذون بأعمالهم و إعتقاداتهم.

وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰآءَ أي لا يقدر أحد على تخليصهم من العذاب فانّ الأمور بيده و الكلّ تحت قدرته و اذا كان كذلك فهو تعالى يضاعف لهم العذاب، بكفرهم و إنكارهم البعث و النّشور فكفرهم بالمبدأ و المعاد صار سبباً لتضعيف العذاب أو أنّهم مع ضلالهم و كفرهم سعوا في الإضلال أيضاً فضّلوا و أضلّوا فلهذا حصل التّضعيف عليهم.

مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ والمراد ما هُم عليه في الدّنيا من صميم القلب و عمىٰ النّفس.

قال الرّازي و إحتجّ أصحابنا بهذه الآية علىٰ أنّه تعالىٰ قد يخلق في المكلّف ما يمنعه الإيمان.

و روي عن إبن عبّاس أنّه قال أنّه تعالىٰ منع الكافر من الإيمان في الدّنيا و في الأخرة.

أمّا في الدّنيا فلقوله تعالىٰ: **مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ.**

و أمّا في الأخرة فهو قوله: **يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**[١].

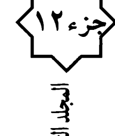
و حاصل الكلام في هذا الإستدلال أنّه تعالىٰ أخبر عنهم أنّهم لا يستطيعون السّمع فإمّا أن يكون المراد أنّهم ما كانوا يستطيعون سمع الأصوات و الحروف و إمّا أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل اللّه تعالى و القول الأوّل باطل لأنّ البديهة دلّت على أنّهم كانوا يسمعون الأصوات و الحروف فوجب حمل اللّفظ علىٰ الثّاني و هو المطلوب انتهى كلام الرّازي.

الجواب قوله أنّ اللّه قد يخلق في المكلّف ما يمنعه الإيمان، أن كان مراده أنّ اللّه قادرٌ علىٰ أن يخلق فيه ما يمنعه الإيمان، فهو ممّا لا كلام فيه لأنّه علىٰ كلّ شئٍ قدير.

و أنٍ كان مراده أنّ اللّه فعل ذلك في حقّ المكلّف فعليه بالإثبات هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول كلام الرّازي يستلزم إجتماع النّقيضين و ذلك لأنّه قال أنّه تعالىٰ قد يخلق في المكلّف ما يمنعه الايمان فنقول هذا غير معقول بل هو محال و ذلك لأنّ العبد لا يكون مكلّفاً إلاّ بعد وجود القدرة فيه فلو لم يكن قادراً كيف يكون مكلّفاً و المفروض أنّه مكلّف بما لا يقدر على إيجاده فهو مكلّفٌ و غير مكلّفٍ و بعبارةٍ أخرىٰ العبد مأمور بالإيمان و مكلّف به و المفروض أنّ اللّه الّذي أمره بالإيمان و منعه منه فهو غير مكلّف به فعلاً من جهة وجود المانع و هذا معنى قولنا هو مكلّف و غير مكلّفٍ و هما متناقضان و قد حكم العقل بإستحالته.

نعم لو قلنا أنّه تعالى خلق في العبد ما يمنعه الإيمان فهو معقول إلاّ أنّ العَبد لا يكون مكلّفاً علىٰ هذا التّقدير من أوّل الأمر و هو خارج عن البحث اذ البحث في المكلّف بالإيمان و العجب من الرّازي و هو هو بإدّعاءه و مع ذلك لا يعلم ما يقول.



١- القلم = ٤٢

و أمّا ما نقله عن إبن عبّاس فهو بعيد غاية البعد و ذلك لأنّ عبد اللّه بن عبّاس أجلّ شأناً من هذه الكلمات و أمّا ما حققَّه في الإستدلال فهو أوهن من بيت العنكبوت فلا نحتاج الى الجواب و مع ذلك فهو أشبه شئ بالمغالطة اذ الكلام في عدم الإستطاعة لا في العجز الّذي هو ضدّ القدرة فكأنّ الرّازي أراد المغالطة حيث عبّر عن عدم الإستطاعة بالعجز و قال، كونهم عاجزين عن الوقوف علىٰ دلائل اللّه، أو أنّه لم يفرق بين العجز و عدم الإستطاعة و أنّ الثّاني أعمّ من الأوّل فكلّ عاجزٍ عن الفعل لا يستطيعه و ليس كلّ من لا يستطيع عاجزاً اذ قد يكون منشأ عدم الإستطاعة العجز أعني به عدم القدرة و قد يكون منشأه شيئاً أخر غير العجز.

ألا ترى أنّهم يقولون فلان لا يستطيع أن ينظر الى جنازة أخيه أو جنازة ولده مثلاً و لا يقولون أنّه عاجزٌ عنه.

و الحاصل أنّ الإنسان قد يقدر على فعلٍ من الأفعال و مع ذلك يعرض عنه لداعٍ من الدّواعي كما أنّه قادر علىٰ الإنفاق إلاّ أنّه لا ينفق لبخلِه لا لعجزه عنه بحسب ذاته و كما أنّه قادر على إنقاذ الغريق و لا ينقذه لعداوته إيّاه أو لغيرها من الجهات و هكذا وهكذا اذا عرفت هذا فنقول:

ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ الإنسان بحسب ذاته و قدرته يقدر علىٰ الإيمان بمعنى أنّه غير عاجزٍ منه إلاّ أنّه لا يؤمن لأجل بعض الدّواعي كحبّ الدُّنيا و زخارفها و أنّ الإيمان يمنعه عن الإنغمار في الشّهوات و متابعة الهوىٰ و أمثال ذلك من الجهات و قد يكون ذلك لأجل عدم التوجّه و الغفلة عن رجحانه و يعبّر عن هذه العوائق بعدم الإستطاعة و لا يعبّر عنها بالعجز نقول أنّ عدم الإستطاعة لا ينافي القدرة الذّاتية لأنّ رفع هذه الموانع أو دفعها تحت قدرته فلا يقال أنّ البخيل الّذي لا ينفق أنّه عاجزٌ عنه بل هو قادر عليه و المانع هو البخل الّذي يمكن رفعه و لأجل هذه الدّقيقة قال تعالىٰ: **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ** و لم يقل ما كانوا يقدرون السَّمع و لعمري هذا واضح لا خفاء فيه.

فقول الرّازي و أمثاله بالجبر و أنّ اللّه تعالى خلق في المكلّف ما يمنعه أشبه شئ بكلام المجنون الّذي لا يعلم ما يقول و عليه فمعنى الآية أنّهم سلبوا عن أنفسهم السّمع و الأبصار بإختيارهم و إرادتهم و لذلك يعذّبون يوم القيامة فأنّ العذاب على غير المقدور محال عقلاً وشرعاً و لذلك قال اللّه تعالىٰ.

أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ.

أي هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم اللّه خسروا أنفسهم بما ذهبوا اليه و أعتقدوا به أو خسروا أنفسهم بعد إيمانهم باللّه و برسوله نسب اللّه تعالىٰ الخسران الىٰ أنفسهم فلو كان اللّه تعالىٰ هو الّذي منعهم من الإيمان بسبب خلقه فيهم ما يمنعهم من الإيمان كما يقول الجبري لما صّح أن يقال: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ** بل ينبغي أن يقال أولئك الّذين خسر اللّه أنفسهم فحيث أنّه تعالىٰ نسب الخسران الى أنفسهم علمنا بطلان الجبر و صحّة الإختيار و الخسران في الأصل إنتقاص رأس المال و ينسب ذلك الىٰ الإنسان فيقال خسر فلان و الى الفعل فيقال خسرت تجارته و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال و الجاه في الدّنيا و في المقتنيات النّفيسة كالصّحة و السّلامة و العقل و الإيمان و الثّواب، و هو الّذي جعله اللّه الخسران المبين و قد أشير الى ذلك في كثير من الأيات فكّل خسرانٍ ذكره اللّه في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير أعني به المقتنيات النّفيسة دون الخسران المتعلّق بالمقتنيات الدّنيوية و التّجارات البشّرية و لعّل الوجه فيه هو أنّ الدّنيا و ما فيها من المال و الجاه في معرض الزّوال إذ لا بقاء لها في حّد نفسها فإذا فقد المال أو الجاه مثلاً في حياة الإنسان ليس من الخسران بشئ في الحقيقة و أنّما الخسران الحقيقي هو فِقدان النِّعم الأخرّوية الّتي لا زوال لها فمن فقدها فقد خسر حقّاً، و الىٰ هذا المعنىٰ أشير بقوله تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ**



يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلَا ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرانُ ٱلْمُبِينُ[١] و قد يكون الخُسران فيهما قال اللّٰه تعالىٰ: **خَسِرَ ٱلدُّنْيا وَ ٱلْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرانُ ٱلْمُبِينُ**[٢] والأيات كثيرة جدّاً.

وأمّا قوله: **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** فقيل في معناه قولان:

أحدهما: ذهب عنهم الإنتفاع بالإفتراء كما كانوا في الدّنيا.

الثّاني: ذهب عنهم الأوثان الّتي كانوا يأملون بها الإنتفاع هذا و لقائلٍ أن يقول لم يجئ ضَّل بمعنى ذهب فتفسير الكلام بما فسّروه و لا دليل عليه بل الحَّق أنّ الكلام علىٰ ظاهره و هو أنّ الضّلالة و الضّلال العدول عن الطّريق المستقيم و يضّاده الهداية و قد يقال الضّلال لكّل عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً كثيراً كان أو يسيراً فأنّ الطّريق المستقيم الّذي هو المرتضىٰ صعبٌ جدّاً قال النّبي ﷺ **أستقيموا ولَن تُحصُوا)** و قال بعض الحكماء كوننا مُصيبين مِن وجهٍ وكَوننا ضّالين مِن وجوهٍ كثيرة.

فأنّ الإستقامة و الصّواب يجري مجرى المُقرطس من المرمىٰ عداه من الجوانب كلّها ضلال و قد روى أنّ رسول اللّه ﷺ قال (شَيبتني سُورة هُود لقوله تعالىٰ: **فَاسْتَقِمْ كَمٰآ أُمِرْتَ**[٣] هود وإذا كان الضّلال ترك الطّريق المستقيم صَّح أن يستعمل لفظ الضّلال ممّن يكون منه خطأً فضلاً عن أن يكون عمداً إذا عرفت معنى الضّلال فقوله تعالىٰ: **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** معناه أنّ الإفتراء صار سبباً لضلالتهم فأنّ الإفتراء على اللّه من أقوى وجوه الضّلال و من أضَّل مِمّن يفتري على اللّه تعالىٰ و هو واضح لا خفاء فيه و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله بعد ذلك: **لٰا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْاٰخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ** قالوا، جرم فعل ماضٍ معناه كسب و الفاعل مضمر أي كسب هو أي فعلهم و، أنّ و ما بعدها في موضع نصب على المفعول به وجرم القوم كاسبهم قال الشّاعر:

١- الزّمر = ١٥ ٢- الحّج = ١١
٣- هود = ١١١

نصبنا رأسه في جذع نخلٍ بما جرمت يداه وما أعتدينا

أي بما كسبت يداه و يقال لاجرم بالكسر و لا جر بحذف الميم

و زعم الكسائي أنّ فيها أربع لغات، لا جرم، و لا عن ذا جرم، و لا عن ذا جرم، و لاجرم بضمّ الجيم و كيف كان فمعناه لابّد أنّهم، أو لا محالة إنّهم معناهُ حقّاً أنهّم و أصل الجرم القطع فكأنّه قال لا قطع أنّهم في الآخرة هم الأخسرن فحاصل المعنى أنّ هو هٰؤلاء الكفّار لكفرهم و طغيانهم و إفترائهم على اللّه و رسوله فلا محالة أنّهم في الآخرة هم الأخسرون، و الوجه في كونهم كذلك أنّهم قالوا على كفرهم و شقاقهم و إذا كانوا كذلك فخسرانهم في الآخرة أشدّ ممّن لا يكون من العصاة و الفسّاق و قيل في وجه كونهم أخسر أنّه فات عنهم الدّنيا و الآخرة و قيل غير ذلك و لكّل وجهٌ.

■

إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ وَ أَخْبَتُوٓا إِلٰى رَبِّهِمْ أُولٰٓئِكَ أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمٰى وَ ٱلْأَصَمِّ وَ ٱلْبَصِيرِ وَ ٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيٰانِ مَثَلًا أَفَلٰا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحًا إِلٰى قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لٰا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللّٰهَ إِنِّىٓ أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقٰالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰيكَ إِلّٰا بَشَرًا مِثْلَنٰا وَ مٰا نَرٰيكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِىَ ٱلرَّأْىِ وَ مٰا نَرٰى لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قٰالَ يٰا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَاٰتٰانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا كٰارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَ يٰا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مٰالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلّٰا عَلَى ٱللّٰهِ وَ مٰآ أَنَا بِطٰارِدِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنَّهُمْ مُلٰاقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰكِنِّىٓ أَرٰيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلٰا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَ لٰآ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزٰآئِنُ ٱللّٰهِ وَ لٰآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَ لٰآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَ لٰآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللّٰهُ خَيْرًا ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِىٓ أَنْفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَمِنَ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٣١﴾ قٰالُوا يٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَكْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا

تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴿۳۲﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ إِنْ شَآءَ وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿۳۳﴾ وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿۳۴﴾

◄ اللّغة

أَخْبَتُوٓا الإخبات الخشوع المستمّر على إستواء فيه وأصله الإستواء من الخبت و هو الأرض المستوية الواسعة.

ٱلْمَلَأُ الجماعة و قيل جماعة من رؤوساء القوم.

أَرَاذِلُنَا جمع أرذل و هو الخسيس الحقير و عليه فالأراذل جمع الجمع.

بَادِيَ ٱلرَّأْيِ أي أوّل الرّائى.

فَعُمِّيَتْ أي خفيت.

أَنُلْزِمُكُمُوهَا أي أنضطّركم الإلزام الإجبار و الإضطرار.

طَرَدْتُهُمْ الطّرد المنع.

تَزْدَرِيٓ الإزدراء الإفتعال، من الزّراية و هي الحقارة.

يُغْوِيَكُمْ من أغوىٰ يغوي إغواءً الإغواء الإضلال.

◄ الإعراب

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ مبتدأ و خبر كَالْأَعْمٰى و التّقدير كمثل الأعمىٰ مَثَلًا تمييز مَا نَرٰيكَ يجوز أن يكون من رؤية العين و تكون الجملة بعدها في موضع الحال و، قد، معه مرادة و يجوز أن يكون من رؤية القلب فتكون الجملة في موضع المفعول الثّاني بَادِيَ ٱلرَّأْيِ يقرأ بهمزة بعد الدّال و هو من بَدَأَ يَبْدَأُ إذا فعل الشّئ أوّلاً و قد يقرأ بياء مفتوحة و فيه وجهان:

أحدهما: أنّ الهَمزة أُبدلت ياءً لإنكسار ما قبلها.

الثّانى: أنّه من بدأ يبدو إذا ظهر و بادي هنا ظرف رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ يجوز أن تكون، من، متعلّقة بالفعل و أن تكون من نعت الرّحمة فَعُمِّيَتْ بضمّ العين و تشدّيد الميم و قد يقرأ بفتح العين و خفيف الميم أَنُلْزِمُكُمُوهَا الماضي منه ألزمت و هو متعدٍ الى مفعولين و دخلت الواو هنا تَتِّمة للميم و قرئ بإسكان الميم الأولى فراراً من توالي الحركات تَزْدَرِيٓ الدّال بدل من التّاء و أصلها تزتَري و هو يفتعل من زريت و أبدلت دَالاً لتجانس الزّاي في الجهر و التّاء مهموسة فلم تجتمع الزّاي.

◀ التّفسير

إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لمّا بيَّن اللّه حال الكفّار و وصفهم بما وصفهم و أخبر بما أعدَّ لهم من العذاب يوم القيامة و حكم عليهم بالخسران في الدّنيا و الآخرة، أشار في هذه الآية الىٰ حال المتّقين و ما أعدَّ لهم من النَّعيم في الأخرة فقال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ذَكَراللّه تعالىٰ في هذه الآية شروطاً ثلاثة للدّخول في الجنّة والخلود فيها:

أحدها: الإيمان و هو الأصل في جميع الأعمال و هو عبارة عن الإعتقاد بالتّوحيد و النبوّة و جميع ما جاء به النّبي من اللّه تعالىٰ و لا شئ أفضل منه في مقام العبوّدية إذ لا يقبل العمل بلا إيمان.



ثانيها: العمل الصّالح و هو في الحقيقة مظهر للإيمان وأن شئت قلت أنّه كالثّمرة للشّجرة فالإيمان إذا لم يقارنه العَمل لا أثر له و لذلك نقول الإيمان عبارة عن الإعتقاد و الإقرار و العمل و قد ثبت أنّ الآثار تتوقّف على الوجود الخارجى.

و أمّا الوجود الذّهني فلا أثر له و حيث أنّ العمل بمنزلة الوجود الخارجي للإيمان فلامحالة تترتّب الآثار عليه.

ثالثها: قوله: **وَ أَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** و فيه إشارة الىٰ الخلوص و أن يكون العمل لِلّه و التّعبير بالإخبات لأجل أنّ المؤمن العامل ينبغي أن يكون خاضعاً خاشعاً لرّبه في مقام العبوديّة فأنّ الخشوع من مقامات الصّالحين و قد أشير اليه في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ**(۴) وغيرها من الأيات الكثيرة.

وأعلم أنّ ما ذكرناه في معنى الأخبار إنّما هو على مسلك القوم فأنّ المفسّرين فسَّروا الإخبات بالخشوع و أمّا على مسلك العرفاء فهو غير الخشوع بل هو أفضل و أعلى منه قالوا الإخبات هو السّكون الىٰ من إنجذب اليه بقوّة الشَّوق فهو من أوائل مقام الطّمأنينة و هو ورود المأمن من الرّجوع والترّد ثلث درجات.

الأولىٰ: أن تستغرق العصمة الشّهوة.

الثّانية: أن لا ينقص إرادته سبب.

الثّالثة: أن يستوي عنده المدح و الذَّم لعدم إلتفاته الىٰ الخلق و نظره اليهم بنظر الفناء و عروجه عن حظّ النَّفس بشهود الحقّ.

و أمّا توضيح هذه الكلمات فهو خارج عن طور الكتاب و الّذي نقول في المقام هو أنّ الإخبات في الأصل ليس بمعنى الخشوع.

۱- الحديد = ۱۶
۲- الإسراء = ۱۰۹
۳- المؤمنون = ۱ / ۲
۴- البقرة = ۴۵

قال الرّاغب في المفردات الخبط المطمئن من الأرض و أخبت الرّجل قَصد الخبت ثمّ إستعمل اللّين و التّواضع انتهىٰ.

و عليه فقوله تعالىٰ: **وَ أَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** أي تواضعوا و قوله: **وَ بَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ** أي المتواضعين و يمكن الجمع بين القولين بأنّ الخشوع و التّواضع متلازمان فكلّ متواضع خاشع متواضع فالمأل واحد و المقصود ظاهر.

و أمّا قوله تعالىٰ: **أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** فهو الجزاء المترتّب علىٰ العمل الصّالح النّاشئ من الإيمان و لا جزاء أحسن منه.

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَ ٱلْأَصَمِّ وَ ٱلْبَصِيرِ وَ ٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

لمّا ذكر اللّه تعالى ما يؤل اليه الكفّار من النّار و ما يؤل اليه المؤمنون من الجنّة و الفريقان هنا الكافر و المؤمن و لمّا كان تقدّم ذكر الكفّار و أعقب بذكر المؤمنين جاء التّمثيل هنا مبتدأً بالكافر فقال كالأعمىٰ و الأصمّ و يمكن أن يكون من باب تشبيه أثنين بأثنين فقُوبل الأعمىٰ بالبصير و هو طباق وقوبل الأصمّ بالسّميع و هو طباق أيضاً و العمى و الصَّمم أفتان تمنعان من البصر و السّمع وليستا بضدّين لأنّه لا تعاقب بينهما و يحتمل أن يكون من تشبيه واحدٍ بواحدٍ بوصفيه فيكون من عطف الصّفات كما قال الشّاعر:

الىٰ الملك القرت وإبن الهمام   وليث الكريهة في المزدحم

و لم يجئ التّركيب كالأعمى و البصير و الأصمّ و السّميع فيكون مقابلة في لفظ الأعمىٰ و ضدّه و لفظة الأصمّ و ضدّه لأنّه تعالىٰ لمّا ذكر إنسداد العين أتبعه بإنسداد السّمع و لمّا ذكر إنفتاح البصر أتبعه بإنفتاح السّمع و ذلك هو الإسلوب في المقابلة و الأتمّ في الإعجاز و إحتمل أن تكون الكاف نفسها هي خبر المبتدأ فيكون معناها معنىٰ المثل فكأنّه قيل مثل الفريقين مثل الأعمىٰ و الأصمّ و إحتمل أن يراد بالمثل الصّفة و بالكاف مثل فيكون على حذف

مضاف أي كمثل الأعمىٰ فيكون من تشبيه المعقول بالمحسوس و كيف كان فقد شبّه الكافر بالأعمىٰ و الأصمّ و المؤمن بالبصير و السّميع و لا شكّ أنّ المراد بالأعمىٰ هو أعمىٰ القلب و أصمّ القلب و بالبصر البصيرة في القلب و أنّما قلنا ذلك لأنّ الكافر و المؤمن في السّمع و البصر سيّان بحسب الظّاهر فالكافر يرى ببصره و يَسمَع بسمعه و المؤمن كذلك إلاّ أنّ الكافر أسيرٌ في المحسوسات و المؤمن ليس كذلك و المؤمن ينظر بعين البصيرة و الكافر ليس كذلك و السِّر العلمي فيه هو أنّ البصر ليس للرّؤية فقط بل لها و للإعتبار كما أنّ السَّمع أيضاً ليس للإستماع فقط بل له و للتَّفقه و هذا هو الفرق بين الإنسان و الحيوان فأنّه أيضاً يرىٰ ببصره و يسمع بسمعه و أذنه فلا فرق بينه و بين الإنسان مِن هذه الجهة أعني بها رؤية المحسوسات و إستماع الأصوات الفرق في الأثار المترتّبة على السَّمع و البصر فالإنسان يرى بعينه و يعتبر و يسمع بأذنه و يتَّفقه و الحيوان لا يعتبر و لا يتَّفقه و الى هذا المعنىٰ أشار:

قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ اٰذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهآ أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** (١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْاٰنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُها** (٢).

و لذلك قال في أخر الآية **هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلا تَذَكَّرُونَ** فأنّ الإستفهام إنكارّي أي لا يستويان أفلا تذّكرون فتعلموا صحّة ما ذكرناه.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلىٰ قَوْمِهِۤ إِنّى لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ

نُوح بضمّ النّون وسكون الواو و الحاء إسم نبيّ من الأنبياء قيل هو نُوح بن مَلك إبنم متوشلخ بن أخنوخ و هو إدريس و هو أوّل نبيّ بعد إدريس.

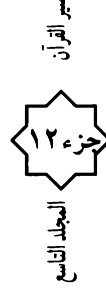
و قيل إسمه عبد الغفّار و كان نجّاراً و ولد في العام الّذي مات فيه أدم قبل موت أدم في الألف الأولى و بعث في الألف الثّانية هو إبن أربع مائة و قيل

١- الأعراف = ١٧٩
٢- محمّدٌ = ٢٤

بعث و هو إبن خمسين سنة و لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً و كان في تلك الألف ثلاثة قرون عايشهم ثمّ شكاهم الى اللّه فغرقت له الدُّنيا و عاش بعد تسعين سنة و قيل أكثر و أنّما سمّي نوحاً لأنّه كان ينوح على نفسه، أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية و ما بعدها أنّه أرسل نوحاً الى قومه بالرّسالة كما أرسَل غيره من الرُّسل بعده و قوله: **إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ** قالوا لأنّ في الإرسال معنىٰ القول أي فقال نُوح **إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**.

و قرأ بعضهم، أنّي، بفتح الهَمزة أي أرسلناه بأنّي لكم نذيرٌ مبين و أنّما قال اللّه تعالىٰ، إنّي، ولم يقل، إنه، لإنّه رجع من الغيبة الىٰ الخطاب أي الىٰ خطاب نوح لقَومه و ذلك كما في قوله تعالىٰ في قصّة موسىٰ: **وَ كَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ**[١].

و قوله: **نَذِيرٌ مُبِينٌ** أي إنّي منذركم فأنّ النّذير المنذر و يقع على كلّ شيءٍ فيه إنذار إنساناً كان أو غيره ثمّ أنّ الإنذار إخبارٌ فيه بتخويف كما أنّ التّبشير إخبارٌ فيه سرور والإنذار و التّبشير من وظائف الأنبياء و ذلك لأنّهم بعثوا لينذروا قومهم من عذاب اللّه في صورة العصيان و يبشّرونهم في صورة الطّاعة و الإنقياد.



أَنْ لَا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ.

يظهر منه أنّهم كان يعبدون الأوثان كما جاء مصرّحاً في غير هذه السُّورة و قد ورد في الأخبار كانت شريعة نُوح أن يعبد اللّه بالتّوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد و هي الفطرة التّي فطر النّاس عليها و أخذ ميثاقه علىٰ نوح و النّبيّين أن يعبدوا اللّه يشركوا به شيئاً و أمر بالصّلاة والحلال و الحرام و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرض مواريث و لا شكّ أنّ التّوحيد هو أصل الدَّعوة في كلّ شريعةٍ اذ لم يبعث نبيٌّ قطّ إلاّ و كان أوّل دعوته التّوحيد فقوله: **أَنْ لَا تَعْبُدُوٓا**

١- الأعراف = ١٤٥

إِلَّا ٱللَّهَ معناه لا تعبدوا إلاّ اللّه الّذي ليس في الوجود إلاّ هو و هو الواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات.

و قوله: إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ أي إن لم تقبلوا قولي و بقيتم على ما كنتم عليه من الكفر و العصيان و عبادة الأوثان أنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ أليم و هو يوم القيامة، و معناه مؤلم لأنّ العذاب يقع في اليوم فكأنّه سبب الألم و الأليم صفة مبالغة و هو من كثر ألمه و أمّا أن كان بمعنىٰ مؤلم فنسبته لليوم مجاز و للعذاب حقيقة.

فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَيٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا.

فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قيل الملاء جماعة الرّؤوساء و الأشراف من كلّ قومٍ قالوا لنوحٍ مَا نَرَيٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ذكروا أنّه مماثلهم في البشريّة و إستبعدوا أن يبعث اللّه رسولاً من البشر و كأنّهم ذهبوا الىٰ مذهب البراهمة الّذين ينكرون نبوّة البشر علىٰ الإطلاق و هذا القول لا يكون مختصّاً بقوم نُوح بل قالوا ذلك لغيره من الأنبياء، قال قوم صالح النّبي لمّا بعث اليهم ودعاهم الىٰ التّوحيد:

مَآ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِاٰيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ(١).

وقال قوم شُعيب:

وَ مَآ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ(٢).

قال تعالىٰ حكايةً عنهم في تكذيبهم الأنبياء:

فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا(٣).

قال في قوم ثمود:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ،فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُٓ إِنَّآ إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ(٤).

١- الشّعراء = ١٥٤
٢- الشّعراء = ١٨٦
٣- التّغابُن = ٦
٤- القَمَر = ٢٣ / ٢٤

و هكذا غيرها من الأيات الواردة في الباب و العجب أنّهم لم يقنعوا بذلك بل قالوا: **وَ مَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ** أراذِل جمع رَذِل بسكون الذّال و الرُّذال المرغوب عنه لرداءته و بادي الرّأي فيه قراءتان:

أحدهما: بالياء.

الثّاني: بالَهمزة.

فمن لم يهمز أراد به الإبتداء و هو من بدو الشّئ و هو ظهوره و الفعل منه بدى يبدو أي أظهر و عليه فمعنى الكلام ما إتَّبعك إلاّ أراذل النّاس فيما ظهر لهم من الرّأي أي لم يفعلوه بنظرٍ فيه و لا تبيّن له و من همز أراد إتَّبعوك في أوّل الأمر من غير فكرٍ فيه و لا روّية لأنّه على هذا من بدء أي إبتداءً و حاصل المعنى أنّهم قالوا لنوح ليس متابعوك إلاّ الاراذل منّا و أمّا الأشراف فلَم يتَّبعوك.

و من المعلوم أنّ الأراذل لجهلهم لا علم لهم بحقيقة الحال لأنّهم من العوام و المقصود من هذا الكلام هو أنّ نوح النّبي لو كان نبيّاً حقّاً ما كان إماماً للأراذل و العوام فكأنّه بمنزلة الدّليل على أنّه ليس نبيٍّ و لم يعلموا أنّ الفهم والعلم لا يختصّ بالأشراف و الأعيان بل الأمر بالعكس في أغلب الأوقات.

و توضيحه أنّ الأديان لا توافق الأميال النّفسانية في أكثر الموارد قال رسول اللّه حفّت الجنّة بالمكاره و حفّت النّار بالشّهوات، و الأعيان و الأشراف مِن كلّ قوم عبيد الدّنيا فلا معبود لهم في الحقيقة إلاّ الدّرهم و الدّنيا و الجاه و المقام و حيث الأنبياء كانوا يدعوهم الى الأخرة وترك الشَّهوات و الأميال و أنّه لا مزيّةٍ لهم على غيرهم فلا جرم لم يقبلوا دعوتهم في أوّل الأمر لعلمهم بأنّ متابعة الأنبياء و التدّين بالأديان الإلٰهية تنافي ما كانوا عليه من الظّلم على الضُّعفاء و غصب أموالهم و تضييع حقوقهم و لأجل هذه الأمور خالفوهم في

كلّ عصرٍ و زمانٍ ولم يؤمنوا بهم حتّىٰ الإمكان حتّىٰ إضطّروا و هذا هو السِّر في عدم ايمانهم فى اوّل الدّعوة.

و أمّا الفقراء و الضُّعفاء فلعدم تمكّنهم من حيث المال و الجاه أمنوا بهم و لذلك نرىٰ أنّ كلّ نبيٍّ بعث في أيّ زمانٍ كان لم يؤمن به من الرّؤوساء والأغنياء أحد فهذا نبيّ الإسلام بعث و لم يؤمن به أحدٌ من أشراف قريش حتّى إضطّروا و لم يجدوا بدّاً من الإسلام لحفظ أموالهم و نفوسهم والعجب أنّهم كانوا يعبّرون عن المؤمنين بالأراذل و لم يعلموا أنّ الرّذل الرّديئ من لا يقبل الحقّ.

وَ مٰا نَرٰى لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ أي أنّهم قالوا النوح و غيره من المؤمنين ما نرىٰ لكم علينا من فضلٍ، أي لستم بأفضل منّا، و الإمام و النّبي لابدّ أن يكون أفضل من مأمومه بل نظنّكم كاذبين في دعواكم.

و قال بعض المفسّرين قوله: **وَ مٰا نَرٰى لَكُمْ** أي لك يا نُوح و أمثالك ممّن يدّعي النبوّة و بعبارةٍ أخرىٰ قالوا **مٰا نَرٰى لَكُمْ** أي لكلّ من يدّعي النُّبوة علينا من فضل و اذا كان كذلك فلا وجه لمتابعتنا إيّاكم و اذا ثبت ذلك فأنتم كاذبون في إدّعاء النبوّة لأنّ النّبي لابدّ من أن يكون أفضل من أمّته فاذا إنتفت الأفضلّية إنتفت النبوّة و اذا إنتفت النبوّة ثبت الكذب و هو المطلوب.

و أنت ترى أنّهم في قولهم هذا كانوا كاذبين و ذلك لإنكارهم أفضليّة نُوح عليهم إمّا لأجل أنّه عليه السلام كان بشراً مثلهم في ظاهر الأمر يأكل و يشرب و يمشي و يقوم و بالجملة لا فرق بينه و بينهم في صورة البشريّة و ما يترتّب عليها من الحركات.

و أمّا لأجل أنّهم زعموا أنّ ملاك الأفضليّة هو المال و العشيرة و الرّئاسة مثلاً و لم يعلموا أنّ الملاك فيها شئ أخر و هو إتّصاف البشر بالملكات النّفسانية من العلم و السّخاوة و الشّجاعة و أمثال ذلك و في رأسها التّقوىٰ و لكن كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

قٰالَ يٰا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّى وَاٰتٰانى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا كٰارِهُونَ.

أي قال نُوح في جوابهم يا قوم ليس الأمر كما تزعمون من أنّه لا فضيلة لي عليكم و أنّي بشر مثلكم من جميع الجهات و الدّليل علىٰ ذلك هو أنّي علىٰ بيّنةٍ من ربّي و أتاني اللّه رحمةً من عنده و لذلك جعلني نبيّاً.

غاية الأمر أنّها أي البيّنة خفيت عليكم لجهلكم و قلّة درايتكم أو لعنادكم و نفاقكم و اذا كان الأمر على هذا المنوال، أنلزمكموها، أي أنلزمكم على قبول البيّنة و الحال أنتم لها كارهون فالإستفهام للإنكاري أي لا أقدر على إلزامكم أو للتّوبيخ و التّقريع و في الآية مسائل:

الأُولىٰ: أنّ النّبي لابدّ له في إثبات دعواه من البيّنة الدّالة علىٰ صدق المدّعىٰ و الىٰ هذا المعنىٰ أشير بقوله: **إِنْ كُنْتُ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّى** ويدّل عليه:

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْمِيزٰانَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ اَلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظٰالِمُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ اٰتَيْنٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اَلْبَيِّنٰاتِ وَ أَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ**[٣].

قال اللّه تعالى: **قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نٰاقَةُ اَللّٰهِ لَكُمْ اٰيَةً**[٤].

قال اللّه تعالى: **أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مٰا فِى اَلصُّحُفِ اَلْأُولىٰ**[٥] والأيات كثيرة.

١- الحديد = ٢٥ ٢- البقرة = ٩١
٣- البقرة = ٢٥٣ ٤- الأعراف = ٧٣
٥- طه = ١٣٣

و اذا كان كذلك فلا وجه للإنكار إلاّ العناد و أنّما أتاهم البيّنات ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحى من حيّ عن بيّنةٍ و هذا هو المقتضى العدل و قد ثبت في الشّريعة أنّ البيّنة على المدّعى و اليمين علىٰ من أنكر فكلّ من إدّعى شيئاً فعليه بالبيّنة و هذه هي السّيرة المستمرّة العقلائيّة الىٰ يوم القيامة.

المسألة الثّانية: أنّ للّه تعالى رحمتين، عامّة و خاصّة.

أمّا العامّة فقد و سعت كلّ شيءٍ.

و أمّا الخاصّة منها فهي مخصوصة بمن يليق بها و في رأسها النبوّة و الإمامة و اليه أشير في الآية بقوله: **وَآتاني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ** فأنّ هذه الرّحمة المشار اليها في الآية ليسست إلاّ النبوّة في هذا المقام أي أنّ اللّه تعالى قد خصَّني بها و هو من أدلّ الدّلائل على فضيلتي و تقرّبي عنده.

المسألة الثّالثة: أنّ البيّنة لا أثر لها للجاهل المعاند لأنّ شرط التّأثير القبول نعم هي تكفي لإتمام الحجّة على الخصم فاذا أقام المدّعي البيّنة علىٰ صدق مدّعاه فقد تمّت الحجّة على الخصم و ليس على المدّعي شئ بعد ذلك اذ ليس عليه إلزام الخصم علي قبولها و الى هذا المعنى أشير بقوله: **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ.**

و الحاصل أنّ ذلك بسبب أنّ الحجّة عميّت عليكم و إشتبهت فأمّا لو تركتم العناد و اللّجاج و نظرتم في الدّليل لظهر المقصود و تبين لكم أنّ اللّه تعالىٰ فضلّنا عليكم فضلاً عظيماً.

وَ يا قَوْمِ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلّا عَلَى ٱللّٰهِ

أي قال نوح لقومه لا أسألكم على ما أدعوكم اليه مالاً ليكون أجراً على رسالتي إن أجري، أي ليس أجري إلاّ على اللّه، الّذي أرسلني اليكم و فيه إشارة الىٰ أنّ الأنبياء كانوا مخلصين في دعوتهم و أنّما بعثوا لإرشاد الخلق و المعنى أنّكم و هؤلاء الّذين إتّبعونا سواء في أن أدعوكم الىٰ اللّه و أنّي لا أبتغي

عمّا ألقيه اليكم من شرائع اللّه مالاً فلا يتفاوت حالكم و حالهم فأن كنتم ظننتم أنّي أريد من دعوتي إيّاكم مالاً فالأمر ليس كذلك فأنّ أجر المرسل علىٰ المرسل لا على المرسل اليه و في الحقيقة جميع الأنبياء كانوا كذلك كما حكىٰ اللّه عنهم قال هود لقومه:

يٰا قَوْمِ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلّٰا عَلَى ٱلَّذى فَطَرَنىٓ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ(١).

و قال صالح النّبي لقومه:

إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمينٌ،فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطيعُونِ،وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلّٰا عَلىٰ رَبِّ ٱلْعٰالَمينَ(٢).

و قال لُوط النّبى:

وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلّٰا عَلىٰ رَبِّ ٱلْعٰالَمينَ(٣).

و قال شعيب:

وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلّٰا عَلىٰ رَبِّ ٱلْعٰالَمينَ(٤).

قُلْ مٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلّٰا عَلَى ٱللّٰهِ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهيدٌ(٥).

و قال أيضاً لنَبيّه:

أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ هَدَى ٱللّٰهُ فَبِهُدٰيهُمُ ٱقْتَدِهْ قُلْ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلّٰا ذِكْرٰى لِلْعٰالَمينَ(٦).

قُلْ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبىٰ(٧).

اِتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ(٨).

١- هود = ٥١
٢- الشّعراء = ١٠٧ الى ١٠٩
٣- الشّعراء = ١۶۴
۴- الشّعراء = ١٨٠
۵- سَبأ = ۴٧
۶- الأنعام = ٩٠
٧- الشّورىٰ = ٢٣
٨- يٰس = ٢١

فهذه الأيات كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنّ الأنبياء لم يبعثوا إلاّ للإرشاد و هو المطلوب.

وَ مَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ

فالطَّرد بفتح التّاء المنع و قيل هو الإزعاج والإبعاد علىٰ طريق الإستخفاف و يقال أطرده السّلطان اذا أخرجه من بلده.

قال صاحب الكشّاف معنى الآية أنّهم يلاقون اللّه فيعاقب من طردهم أو يلاقونه فيجازيهم علىٰ ما في قلوبهم من إيمانٍ صحيح ثابت كما ظهر لي منهم و ما أعرف غيره منهم أو علىٰ خلاف ذلك ممّا تعرفونهم به من نبأ إيمانهم علىٰ بادي الرّأي من غير نظرٍ و تفكرٍ و ما عليّ أن أشقّ عن قلوبهم و أتعرّف سرّ ذلك منهم حتّىٰ أطردهم إن كان الأمر ما تزعمون انتهىٰ كلامه.

و تبعه علىٰ هذا التّفسير غير واحدٍ من مقلّديه من مفسّري العامّة و بعض الخّاصة.

و قال الطّبرسي قدّس سرّه في معناه أي لست أطرد المؤمنين من عندي أبعدهم علىٰ وجه الإهانة و قيل أنّهم أي الملاء من قومه سألوه طردهم ليؤمنوا له، آنفةً من أن يكونوا معهم على سواء أنّهم ملاقول ربّهم و هذا يدّل على أنّهم سألوه طردهم فأعلمهم أنّه لا يطردهم لأنّهم ملاقوا ربّهم فيجازيهم من ظلمهم و طردهم بجزاءه من العذاب.

و قيل معناه أنّهم ملاقوا ثواب ربّهم فكيف يكونون أراذل و كيف يجوز طردهم و لا يستحقّون ذلك عن الجبائي **وَ لَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ** أي تجهلون الحقّ و أهله و قيل معناه تجهلون أنّ النّاس يتفاضلون بالدّين لا بالدّينا و قيل تجهلون فيما تسألون من طرد المؤمنين انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما قاله الطّبرسي قدّس سرّه لا بأس به و لكن الأظهر في معنى الكلام هو أن يقال أنّ هذا الكلام مرتبطٌ بما مضى من قول الرّؤوساء و الأشراف حيث قالوا و ما نراك إتّبعك إلاّ الّذين هم أارذلنا بادي الرّأي فلمّا أرادوا ظاهراً أو واقعاً أن يؤمنوا به سألوه طردهم أي إبعادهم عن حوله و ذلك لأنّهم كانوا بزعم الأشراف أراذل فقال نوح في جوابهم لست أطردهم من عندي فأن كنتم زعمتم أنّهم أمنوا بي في بادي الرّأي أي من غير تفكّرٍ و تدّبرٍ فلا يكون إيمانهم أصيلاً واقعيّاً فأنّهم ملاقوا ربّهم لا محالة بعد الموت و هو يحكم بينهم و بينكم يوم القيامة فأنّه أحكم الحاكمين و مع ذلك هو العالم بحقيقة الأمر و لكنّي أرايكم قوماً تجهلون و الدّليل علىٰ جهلهم أنّ سؤالهم كان على خلاف العقل.

أمّا أوّلاً: فلأنّهم أي الرّؤوساء نسبوهم الىٰ الرّذالة و لم يذكروا دليلاً على إثبات مدّعاهم و العاقل لا يتّهم غيره بما ليس فيه.

ثانياً: لو كانو أراذل لم يؤمنوا به فأنّ الرَّذل بمعزلٍ عن الإيمان.

ثالثاً: أيّ ربطٍ بين إيمان الملاء ولو صدقوا و بين طرد هؤلاء المؤمنين عقلاً فيتعلّق إيمانهم على طردهم خلاف طور العقل فثبت أنّ هؤلاء السّائلين كانوا من الجهّال الّذين لا علم لهم بما يقولون و من كان كذلك فلا يعتنىٰ.

وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ.

قال نُوح له أي لهؤلاء السّائلين من ينصرني من اللّه أي من يمنعني منه إن طردتهم من عندي و بعبارةٍ أخرى لا ناصر لي من عقاب اللّه إن طردتهم عن الخير الّذي قد قبلوه هكذا قيل في معنىٰ الكلام.



و يحتمل أن يكون المعنى لا ناصر لي في ترويج دين اللّه إن طردتهم فأنّهم أعواني و أنصاري في إعلاء كلمة التّوحيد و دفع الأشرار و على التّقديرين، كلمة، من، إستفهاميّة و في قوله: **أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ** قيل أنّ التّذكر هو طلب معنىٰ قد كان حاضراً للنّفس و التّفكر طلب معرفة الشّئ وأن لم يكن حاضراً فيها قاله الطّبري.

وأنا أقول الذّكر تارة يراد به هيئةٌ للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ الاّ أنّ الحفظ يقال بإعتبار إحرازه و الذّكر بإعتبار إستحضاره و أخرىٰ يقال لحضور الشّئ فى القلب أو القول و لذلك قيل الذّكر ذكران:

ذكرٌ بالقلب وذكرٌ باللّسان و كلّ واحدٍ منهما ضربان:

ذكرٌ عن نسيان و ذكرٌ لا عن نسيان بل عن إدامة الحظ فكلٍّ قولٍ يقال له الذّكر فَمن الذّكر باللّسان و أمّا بالفِكر فهو قوّة مُطرقة للعِلم الىٰ المعلوم والتّفكر جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل و ذلك للإنسان دُون الحيوان و لا يقال هذا إلاّ فيما يمكن أن يَحصل له صورة في القلب ولهذا وَردَ، تَفكّروا في ألاء اللّه ولا تفكّروا في ذات اللّه، اذ كان اللّه مُنّزهاً أن يُوصف بصُورةٍ.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ الإزدراء الإستحقار نفي نوح في هذه الآية عن نفسه أموراً:

أحدها: لا أقول لكم عندي خزائن اللّه، فأعطيكم منها و أستطيل عليكمبها.

ثانياً: لا أعلم الغيب اذ لا يعلم الغيب إلاّ هو.

ثالثها: لا أقول إنّي ملك روحانّي غير مخلوق من ذكرٍ و أنثى.

رابعها: لا أقول للّذين تزدري أعينكم أي تستحقرهم أعينكم لن يؤتيهم اللّه خيراً أي ليس إحتقاركم إيّاهم ينقص ثوابهم عند اللّه أو يبطل أجورهم، اللّه تعالىٰ أعلم بها في أنفسهم لأنّه تعالىٰ هو الواقف على الضّمائر و العالم بما في السّرائر هل هم مؤمنون في باطنهم أم لا.

و ذلك إنّي لو فعلت كنت من الظّالمين على أنفسهم فأنّ التعدّي و التّجاوز عن الحدّ ظلمٌ بلاكلام بل أقول أنا بشر مثلكم قد خصّني اللّه بالرّسالة و شرّفني بها و هذا هو الفرق بيني و بينكم و هو ظاهر.

وإعلم أنّ قوله: **وَ لآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ** إشارة الىٰ قوله:

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزَآئِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لِلّٰهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنَّ ٱلْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ**(٣).

قال اللّه تعالى: **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهّابِ**(٤).

و الخزائن جمع خزينة و هي محلّ حفظ الشّيئ و أنّما إختّصت به تعالىٰ لأنّ أصل النِّعم منه و المخلوق محتاج الى الخالق فكلّ مت هو تحت إختيار المخلوق من المال مثلاً فهو من عطيّات ربّه لأنّ معطي الشّيئ لا يكون فاقداً له،

و قوله: **لآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ** إشارة الىٰ قوله:

قال اللّه تعالى: **وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ ٱلْغَيْبِ لا يَعْلَمُهآ إِلَّا هُوَ**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ**(٦).

قال اللّه تعالى: **فَقُل إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلّٰهِ**(٧).

قال اللّه تعالى: **وَ لِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ**(٨).

قال اللّه تعالى: **قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللّٰهُ**(٩).

و الأيات كثيرة، و الغيب ذهاب الشّيئ عن الإدراك.

و قوله: **لآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ** إشارة الىٰ قوله:

١- الحجر = ٢١
٢- المنافقون = ٧
٣- الطّور = ٣٧
٤- ص = ٩
٥- الأنعام = ٥٩
٦- الأعراف = ١٨٨
٧- يُونس = ٢٠
٨- هُود = ١٢٣
٩ـ النّمل = ٦٥

قال اللّه تعالى: **وَ قالُوا لَوْلآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**[۱].

قال اللّه تعالى: **لَوْلآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جآءَ مَعَهُ مَلَكٌ**[۲].

قال اللّه تعالى: **لَوْلآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيرًا**[۳].

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنٰا عَلَيْهِمْ مٰا يَلْبِسُونَ**[۴].

و هذا لا يدّل علىٰ أفضليّة الملك كما زعمه بعض المفسّرين بل يدّل على أنّ الأنبياء من جنس البشر فقوله: انتم بشرٌ مثلنا كلام عارٌ عن التّحصيل.

و أمّا قوله: **لآ أَقُولُ لِلَّذينَ تَزْدَريٓ أَعْيُنُكُمْ** الخ، فهو إشارة الىٰ عدم جواز التّحقير و الإستخفاف بالغير اذ من المحتمل أن يكون رجلاً صالحاً مؤمناً مقرّباً عند اللّه و هو أيضاً ظاهر.

قٰالُوا يٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَكْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصّٰادِقينَ

الجِدال بكسر الجيم المفاوضة على سبيل المنازعة و المغالبة و أصله مِن جدلت الحبل أى أحكمت فتله يقال جدلت البناء أي أحكمته، فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحدٍ الأخر عن رأيه.

و قيل الأصل في الجدال الصّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة و هي الأرض الصُّلبة فمعنى قولهم قد جادلتنا، أي قد خاصمتنا و حاججتنا فأكثرت مجادلتنا فلسنا نؤمن لك فأتنا بما تعدنا، من العذاب، إن كنت من الصّادقين، والمراد بالعذاب هو قوله: **إِنّيٓ أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ أَليمٍ** و قد سبق الكلام فيه.

۱- الأنعام = ۸
۲- هُود = ۱۲
۳- الفرقان = ۷
۴- الأنعام = ۹

قٰالَ إِنَّمٰا يَأْتِيكُمْ بِهِ اَللّٰهُ إِنْ شٰآءَ وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

أي قال نُوح في جوابهم أنّما يأتيكم به، أي بـالعذاب المـوعود، إن شـاء، و أراد و ما أنتم بمعجزين أي لستم بـقادرين عـلىٰ مَـنع العـذاب اذا أراد اللّـه أن يعذّبكم في هذه الآية مسائل لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

الأُولىٰ: قوله **إِنَّمٰا يَأْتِيكُمْ بِهِ اَللّٰهُ** مع أنّهم طلبوا العذاب منه أي من نُوح حيث قالوا: **فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰآ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ** فحقّ الجواب أن يقال أنا أتيكم به و لم يقل ذلك بل قال أنّما يأتيكم به اللّه مشـعراً بأنّ العـذاب ليس تحت قدرة العبد و أنّما هو بيد اللّه تعالىٰ و السِّر فيه هو أنّ العبد لا قدرة له إلاّ ما أعطاه إيّاه و هو الذّي على كلّ شيٍ قدير فالقدرة في عالم الوجود ترجع الى قدرة اللّه كما أنّ العلوم ترجع الىٰ علمه و الوجود يرجع الىٰ وجوده و بالجملة كلّ ما سواه مخلوق له محتاج اليه ليس له في حدّ ذاته إلاّ الفقر فـهو مـع قـطع النّظر عن خالقه لا يقدر علىٰ شئ أصلاً.

و في هذا الكلام الّذي حكاه اللّه تعالىٰ عنه نقكتةٌ أخرى و هي أنّ نـوحاً و غيره من الأنبياء كانوا مبعوثين الى الخلق من قبله و كـانت دعـوتهم إيّـاهم الىٰ ربّهم و عليه فالثّواب في صورة الطّاعة و العقاب في صورة المعصية أيضاً مـن اللّه فقوله: **إِنَّمٰا يَأْتِيكُمْ بِهِ اَللّٰهُ** إشارة الىٰ أنّ النّبي وظيفته الإبلاغ قـال اللّـه تعالىٰ: **مٰا عَلَى اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ**.

الثّانية: أنّ العذاب منوط بمشيّئته و إرادته و ليس وجـوده و عـدمه بـإختيار النّبي ألا ترىٰ أنّ يونس النّبي دعى على قومه و لم ينزل عليهم العـذاب لأنّـهم تابوا عمّا كانوا عليه قبل نزوله و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ إن شاء يعذّب و إن شاء يرحم و يعفو.

الثّالثة: أنّ المخلوق لا يقدر على دفع العذاب عن نفسه لعجزه و ضـعفه و بعبارةٍ أخرىٰ اذا أراد اللّه نزول العذاب فـلا يـقدر أحـد عـلى دفـعه و اذا كـان

كذلك فينبغي للعبد أن لا يعصى حتّىٰ الإمكان و أن عصى و خالف ربّه رجع و تاب عمّا كان عليه قبل نزول العذاب كما فعل قوم يونس فأنّ رحمته تعالىٰ سبقت غضبه و هو أرحم الرّاحمين.

وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

قال نوح لقومه و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، و أنّما قال ذلك لأنّ شرط تأثير النّصيحة هو القبول ثمّ العمل و شرط القبول القابليّة والإستعداد و توضيحه أنّ الموعظة و النّصيحة من النّبي أو من أيّ شخصٍ كان بمنزلة العلّة و القبول ممّن ينصح بمنزلة المعلول و شرط تأثير العلّة في المعلول هو قابليّة المعلول للتّأثر و إلاّ يلزم تأثير العلّة في كلّ شيئ.

ألا ترىٰ أنّ النّار لا تحرق الحجر و تحرق الخشب و قد يعبّر عن القابليّة بالمانع فيقال شرط تأثير العلّة في المعلول إن لا يكون للمعلول مانع عن قبول التّأثر و كيف كان لا شكّ فيما ذكرناه من الشّرط.

نعم قد يكون المانع أو عدم القابليّة أو ما شئت فسمّه في المعلول ذاتّياً و قد يكون عرّضياً فالحجر لا يقبل الإحراق من النّار ذاتاً و الخشب الّذي دَخل الماء في جوفه لا يقبله عرضاً قبل جفافه اذا عرفت هذه القاعدة العقليّة فنقول.

عدم تأثير الموعظة من الواعظ النّاصح في حقّ غيره من قبيل الثّاني وذلك لأنّ الإنسان بحسب ذاته وطبيعته يقبل الموعظة و إلاّ يلزم الجبر و أنّما يمنعه عن قبولها العوارض الطّارئة علىٰ قلبه و أصلها و أساسها العصيان لأنّه يوجب قساوة القلب و القساوة هي المانعة عن قبول الموعظة و حيث أنّ إيجادها في القلب تحت إختيار المكلّف لأنّه عصى بإختياره و إرادته فلا محالة هو المسؤل في الدّنيا و الآخرة و ذلك لأنّ يكون قادراً على إيجاده فالقول بأنّ العبد مجبور أي لا يقدر علىٰ قبول الموعظة ليهتدي بها كما يقول به الجبري باطل عاطّل و كيف يكون قادراً علىٰ إيجاده و لا يكون قادراً علىٰ رَفعه.

نَعم لو كان المانع في المقام ذاته أو ذاتيّاً له لا يقدر و ليس كذلك و أنّما قلنا أنّ المانع ليس ذاتيّاً له لأنّه لو كان كذلك لما كان الكافر و العاصي قاراً علىٰ الإيمان و نحن نرىٰ أنّ الأمر ليس كذلك إذ كثيراً من الكفّار آمنوا باللّه و حسن إيمانهم و فيه دليل علىٰ القدرة و حكم الأمثال واحد فكلّ كافرٍ قادرٌ علىٰ قبول الإيمان و هو المطلوب.

فقوله: **وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيٓ** ليس معناه أنّ اللّه خلقكم هكذا بل معناه أنّكم لا تقبلون نصحي و موعظتي لأنّكم عبيد الدّنيا و أسير الهوىٰ.

و من المعلوم أنّ حُبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و الإنغمار في الشّهوات النّفسانية و الغرائز الحيّوانية توجب الغفلة عن كمال الإنّسانية و المقامات العالية و من كان كذلك لا يقبل الموعظة و النّصيحة قطعاً و إذا كان الأمر على هذا المنوال فترك الموعظة أولى و السّكوت أحرى و الى هذا المعنى أشير بقوله: **إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ** و ذلك لأنّ من شرائط وجوب الأمر بالمعروف و النّهي عن المُنكر إحتمال التّأثير و القبول فإذا علم الآمر و النّاهي بعدم التأّثير فهما ساقطان عنه.

و أمّا قوله: **إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** فمعناه أن كان اللّه يُريد عقوبتكم على بقاءكم علىٰ الكفر و إغواءكم الخلق و إضلالكم أيّاهم فسمّي عقوبته أيّاهم علىٰ إغواءهم إغواءً.

و قيل معناه و يريد اللّه إهلاككم و عقوبتكم علىٰ ذلك.

وحكي عن طّي أنّها تقول أصبح فلان غاوياً أي مريضاً و حكي عن غيرهم سماعاً منهم أغويت فلاناً أهلكته يقال غوي الفصيل إذا فقد اللّبن فمات بكسر الواو في الماضي و فتحها في المستقبل و منه قوله تعالىٰ: **وَ عَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ**[1].



١- طه = ١٢١

أي خاب من الثّواب الّذي كان يحصل له بتركه و مثله حكاية إبليس حيث: **قٰالَ فَبِمٰآ أَغْوَيْتَنِي**[١] فأنّه يحتمل الوجهين.

الأوّل: يحتمل أن يكون المعنىٰ فبما خيّبتني.

الثّاني: فبما جازيتني علىٰ إغوائي الخَلق عن الهدىٰ و لا يجوز أن يكون المراد بذلك أن يجعلهم كفّاراً على ما يذهب اليه المجبّرة لأنّ الإغواء بمعنىٰ الدّعاء الىٰ الكفر أو فعل الكفر لا يجوز عليه تعالىٰ لقبحه كقبح الأمر بالكفر انتهىٰ ما قاله الشّيخ قدّس سرّه في التبّيان.

و قال صاحب تفسير الميزان و الإغواء كالإضلال و أن لم يجز نسبته اليه تعالى إذا كان إغواءٌ إبتدائّياً لكنّه جائز إذا كان بعنوان المجازاة كأن يعصي الإنسان و يستوجب به الغواية فيمنعه اللّه أسباب التّوفيق و يخلّيه و نفسه فيغوي و يضّل عن سبيل الحقّ قال اللّه تعالىٰ: **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاّٰ الْفٰاسِقِينَ**[٢] انتهىٰ كلامه.

و أمّا المجبّرة فَحملوا الآية على مذهبهم وقالوا أنّها صريحة في المدّعىٰ.

قال الرّازي في تفسيره لها ما هذا لفظه إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّ اللّه تعالىٰ قد يريد الكفر من العبد و أنّه إذا أراد منه ذلك فأنّه يمتنع صدور الإيمان منه قالوا أنّ نوحاً عليه السلام قال: و لا ينفعكم نصحي إن كان اللّه يريد أن يغويكم و التّقدير لا ينفعكم نصحي أن كان اللّه يريد أن يغويكم و يضلّلكم و هذا صريح في مذهبنا انتهىٰ.

أقول لابدّ لنا من بيان معنىٰ الإغواء أوّلاً ثمّ التّكلم في المراد منه.

قال في المفردات، الغيّ جهلٌ من إعتقادٍ فاسدٍ و ذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقدٍ إعتقاداً لا صالحاً و لا فاسداً، و قد يكون من إعتقاد شيءٍ فاسدٍ و هذا النّحو الثّاني يقال له غيّ:

١- الأعراف = ١٥ ٢- البقرة = ٢٦

قال اللّه تعالى: **مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا غَوىٰ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى اَلْغَيِّ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**(٣).

أي عذاباً فسمّاه الغيّ لمّا كان الغيّ هو سببه و ذلك كتسمية الشّئ بما هو سببه و قيل معناه فسوف يلقون أثر الغيّ و ثمرته:

قال اللّه تعالى: **وَ بُرِّزَتِ اَلْجَحِيمُ لِلْغٰاوِينَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ اَلشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ اَلْغٰاوُونَ**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ**(٦) أي جَهل.

و قيل معناه نحو قول الشّاعر:

ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائماً

و قيل معنىٰ غوى فسد عيشه من قولهم غوى الفصيل انتهى ما أردنا ذكره إذا عرفت معنى الغيّ و أنّه يختلف بحسب موارد الإستعمال.

فنقول قوله تعالىٰ: **إِنْ كٰانَ اَللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** معناه أن يعاقبكم على غيّكم و ذلك لأنّ الغيّ سسبب العذاب و يحتمل أن يكون المعنىٰ أن كان اللّه يريد أن يحكم عليكم بغيّكم و عليه فلا إشكال في المقام.

و قال بعض المحقّقين في رفع الإشكال أنّ الآية يدّل ظاهراً على أنّ اللّه تعالى إن أراد إغواء العبد و إضلاله فهو لا ينتفع بنصح الرّسول و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدً من العقلاء ضرورة أنّ اللّه تعالىٰ لو أراد إغواء العبد فأنّه لا ينفعه نصح النّاصحين.

١- النّجم = ٢ ٢- الأعراف = ٢٠٢

٣- مريم = ٥٩ ٤- الشّعراء = ٩١

٥- الشّعراء = ٢٢٤ ٦- طه = ١٢١

و أمّا أنّه تعالىٰ أراد ذلك فالآية لا تدّل عليه وعلىٰ المُدّعي الإثبات فقوله: **وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** ليس معناه أنّه تعالىٰ أراد الإغواء ألا ترىٰ ان عدم النّفع معلّق علىٰ الشّرط و هو إرداة الإغواء و حيث أنّه لم يدّل دليل من العقل أو النّقل على تحقّق الشّرط و هو إرادة الإغواء منه تعالىٰ فينتفع النُّصح و هو المطلوب.

و بعبارةٍ أخرىٰ أصل النّزاع في تحقّق الإغواء منه تعالىٰ أو عدم تحقّقه فكيف يفرض الإغواء مفروغاً عنه و يبحث في جوازه و عدم جوازه في حقّ اللّه و بعبارة ثالثة أصل الاغواء لم يثبت في المقام ثمّ المستدّل إستدّل علىٰ إثبات مدّعاه بما حاصله أنّه تعالىٰ لو أراد إغواءهم لما بقى في النصّح فائدة ولو لم يكن فيه فائدة فكيف أمر نُوحاً بأن ينصح الكفّار و قد أجمع المسلمون على أنّه كان مأموراً بدعوة الكفّار و نصيحتهم و هو دليل على عدم تحقّق الإغواء منه تعالىٰ و إلاّ لم يكن مأموراً بالنصّح و هو المطلوب.

ثانياً: لو ثبت الحكم عليهم أنّ اللّه أغواهم لصار هذا عذراً لهم في عدم إيمانهم به و عليه فلهم أن يقولوا لنوح إنّك سلمت أنّ اللّه أغوانا فلا يبقى في نصحك و لا في جِدّنا و إجتهادنا فائدة و لا جواب لنوح حينئذٍ و هو ظاهر.

و قال بعضهم أنّ الكفّار كانوا مجبّرة و كانوا يقولون أنّ كفرهم بإرادة اللّه فعند هذا قال نوح و لا ينفعكم نصحي أن أردت أن أنصح لكم إن كان اللّه يريد أن يغويكم كما تزعمون.

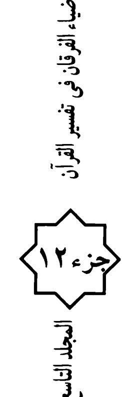
أقوْل هذه الوجوه لا بأس بها فأنّ المدّعىٰ هو تنزّهٌ الرَّب عن إغواء العبد وهو ثابت بحمد اللّه، و أمّا قوله هو ربّكم و اليه ترجعون، و هو المسألة الثّالثة فالمعنى فيه واضح إذ لا شكّ أنّ رجوع الكلّ اليه تعالىٰ و المقصود من هذا الكلام هاهنا هو إنّا معاشر الانبياء ليس عَلينا إلاّ البلاغ لقوله تعالىٰ: **مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ**.

و أمّا قبول الدّعوة و عدمه فأنّه خارج عن قدرتنا لقوله تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَـهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَهْدي مَنْ يَشٰآءُ**[1] كما أنّ حسابكم أيضاً على اللّه تعالىٰ بعد رجوعكم اليه و هو أحكم الحاكمين والحمد لِلّه ربّ العالمين و صلّى اللّه على رسوله و الأئمّة الميامين.

■

۱- القصص = ۵۶

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرٰامي وَ أَنَا بَرٓيءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَ أُوحِيَ إِلٰى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّٰا مَنْ قَدْ اٰمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَ يَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَ كُلَّمٰا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمٰا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتّٰيٓ إِذٰا جٰآءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلّٰا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَ مَنْ اٰمَنَ وَ مٰآ اٰمَنَ مَعَهُٓ إِلّٰا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَ قٰالَ ٱرْكَبُوا فِيهٰا بِسْمِ ٱللّٰهِ مَجْرٰيهٰا وَ مُرْسٰيهٰآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَـٱلْجِبٰالِ وَ نٰادىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَ كٰانَ فِي مَعْزِلٍ يٰا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنٰا وَ لاٰ تَكُنْ مَعَ ٱلْكٰافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قٰالَ سَاٰوِيٓ إِلٰى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمٰآءِ قٰالَ لاٰ عٰاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ إِلّٰا مَنْ رَحِمَ وَ حٰالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكٰانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَ قِيلَ يٰآ أَرْضُ ٱبْلَعِي مٰآءَكِ وَ يٰا سَمٰآءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ ٱلْمٰآءُ وَ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَ ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَ قِيلَ



بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظّالِمينَ ﴿٤٤﴾ وَ نادىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْني مِنْ أَهْلي وَ إِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحاكِمينَ ﴿٤٥﴾ قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّيَ أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجاهِلينَ ﴿٤٦﴾ قالَ رَبِّ إِنّيَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلّا تَغْفِرْ لي وَ تَرْحَمْنيَ أَكُنْ مِنَ ٱلْخاسِرينَ ﴿٤٧﴾ قيلَ يا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذابٌ أَليمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْباۤءِ ٱلْغَيْبِ نُوحيهاۤ إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُهاۤ أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقينَ ﴿٤٩﴾

◀ اللّغة

ٱفْتَرٰيهُ قد مَرَّ معنىٰ الإفتراء غير مرّةٍ وقلنا أنّه مأخوذ من الفري و الإفتراء استعمل في القرآن في الكذب و الشّرك و الظُّلم.

إِجْرامي يقال، أجرم فلان أي صار ذا جرمٍ و أصل الجرم قطع الثّمرة و أستعير لكلّ إكتسابٍ مكروهٍ.

فَلاٰ تَبْتَئِسْ أي لا تغتّم و لا تحزن يقال إبتئس إبتأساً فهو مبتئسٍ أي مغمُوم.

وَ ٱصْنَعِ أمرٌ من صَنَعَ يَصنَعَ والصّنع جعل الشّيء موجوداً بعد أن كان معدوماً.

سَخِرُوا السُّخرية الإستهزاء.

يُخْزِيهِ من أخزىٰ يُخزي والخزي الذّل والحقارة.

ٱلتَّنُّورُ قيل فيه أقوال و الأشهر هو الّذي يخبز فيه، و قيل أنّه عين ماءٍ معروفة.

مَجْرىٰهَا وَ مُرْسىٰهَآ المجرى موضع الإجراء و المرساء مكان توّقف السّفينة.

سَاٰوِىٓ أي سأرجع الى مأوى من جبل يقال يأوي الىٰ منزله إذا رجع اليه و منه المأوىٰ.

ٱبْلَعِي أمرٌ من البلع و هو في اللّغة إنتزاع الشّئ من الحلق الى الجوف.

أَقْلِعِي أمرٌ من القلع و الإقلاع إذهاب الشّئ من أصله حتّىٰ لا يبقى منه شئ يقال أقلع عن الأمر إذا تركه رأساً.

غِيضَ ٱلْمَآءُ غاض الماء يغيض غيضاً إذا ذهب في الأرض و المعنى إذهب به عن وجه الأرض الى باطنها.

وَ ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ الجوديّ بضمّ الجيم جبل معروف.

◄ الإعراب

لَنْ يُؤْمِنَ يقرأ بفتح الهَمزة و أنّه في موضع رفع بأوحى، و يقرأ بكسرها و التّقدير قيل أنّه، و المرفوع بأوحىٰ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ إستثناء من غير الجنس في المعنى و هو فاعل، لن يؤمن، بِأَعْيُنِنَا في موضع الحال من ضمير الفاعل أي محفوظاً مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يقرأ، كلّ بالأضافة و يقرأ بالتّنوين، فعلى الاضافة فيه وجهان:

أحدهما: أنّ مفعول، إحمل، إثنين تقديره إحمل فيها إثنين من كلّ زوج، فمن علىٰ هذا حال لأنّها صفة للنّكرة قدّمت عليها.

الثّانى: أنّ، من، زائدة و المفعول، كلّ، و إثنين، توكيد و هو قول الأخفش و أمّا على التّنوين، يكون مفعول، إحمل، زوجين، وإثنين توكيد له، و مِن، علىٰ هذا تتعلّق، بإحمل، و يمكن أن تكون حالاً و التّقدير من كلّ شيءٍ أو صنفٍ **وَ أَهْلَكَ** معطوف على المفعول و **إِلَّا مَنْ سَبَقَ** إستثناء متّصل، و من آمن، مفعول إحمل أيضاً **بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖيهَا** مجراها مبتدأ، و بسم اللّه خبره والجملة حال مقدّرة و صاحبها الواو في، إركبوا **وَ مُرْسَيٰهَآ** معطوف عليه و قيل هما ظرفان مكان و يقرأ بفتح الميم فيهما و بضمّها كذلك و هو صفة لإسم اللّه عزّ و جلّ **وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ** حال من الضّمير في بسم اللّه أي جريانها، بسم اللّه و هي تجري بهم **فِي مَعْزِلٍ** بكسر الزّاي موضع وليس بمصدر و بفتحها مَصدر **يَٰبُنَيَّ** يقرأ بكسر الياء و أصله، بني، بياء التّصغير و، ياء هي لام الكلمة و أصلها واو عند قومٍ و ياء عند آخرين، والياء الثّالثة ياء المتكلّم و لكنّها حذفت لدلالة الكسرة عليها فراراً من توالي الياءات و لأنّ النّداء موضع تخفيف، و يقرأ بالفتح و فيه وجهان:

أحدهما: أنّه إبدال الكسره فتحة فأنقلبت ياء الإضافة ألفاً ثمّ حُذفت الألف كما حُذفت الياء مع الكسرة.

الثّانى: أنّ الألف حذفت من اللّفظ لإلتقاء السّاكنين **لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ** قيل فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه إسم فاعل علىٰ بابه.

الثّانى: أنّ عاصماً بمعنى معصوم مثل ماء دافق أي مدفوق فعلىٰ هذا يكون الإستثناء متّصلاً أي إلاّ من رحمه اللّه تعالىٰ.

الثّالث: أنّ عاصماً بمعنى ذا عصمة على النّسب مثل حائض و طالق و الإستثناء علىٰ هذا متّصل أيضاً.

و أمّا خبر لا، فلا يكون اليوم لأنّ ظرف الزّمان لا يكون خبراً عن الجثّة بل الخبر، من أمر اللّه، و اليوم معمول، من أمر، و لا يجوز أن يكون اليوم، معمول، عاصم، إذ لو كان كذلك لَنُّون عَلَى ٱلْجُودِيِّ بتشدّيد الياء و قرئ بالتّخفيف لإستثقال اليائين وَ غِيضَ ٱلْمَآءُ هذا الفعل يستعمل لازماً و متعدّياً فمن الأوّل قوله، و ما تغيض الأرحام، و من المتعدّي، و غيض الماء بُعْدًا مصدر أي قيل بُعداً إِنَّهُ عَمَلٌ في الهاء ثلاثة أوجه:

أحدها: هي ضمير الإبن أي أنّه ذو عمل.

الثّانى: أنّها ضمير النّداء و السّؤال في إبنه أي إنّ سؤالك فيه عمل غير صالح.

الثّالث: أنّها ضمير الرّكوب و قد دلّ عليه، إركب معنا، و من قرأ أنّه عمل، على أنّه فعل ماضي فالهاء ضمير الإبن لا غير فَلاتَسْئَلْنِ يقرأ بإثبات الياء على الأصل و بحذفها تخفيفاً و الكسرة تدّل عليها و يقرأ بفتح اللاّم و تشدّيد النّون على أنّها نون التّوكيد فمنهم من يكسرها و منهم من يفتحها و المعنى واضح قِيلَ يٰا نُوحُ ياء و نوح في موضع رفع لوقوعها موقع الفاعل بِسَلاٰمٍ وَ بَرَكٰاتٍ حالان من ضمير الفاعل وأُمَم معطوف علىٰ الضّمير في، إهبطْ أنت و أممٌ سَنُمَتِّعُهُمْ نعت لإمَم مٰا كُنْتَ تَعْلَمُهٰآ حال من ضمير المؤنث في نوحيها أو من الكاف في، اليك.

◀ التّفسير



أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرٰامِي وَ أَنَا بَرِيٓءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ

ذهب المفسّرون الىٰ أنّ هذه الآية معترضة في الأيات النّازلة في قصّة نوح و أنّها خطاب للنبّي ﷺ و فيها إخبار عن قريش فأنّهم قالوا أنّ النّبي إفترىٰ على اللّه في قوله أنّه أي القرآن كلام اللّه فقال تعالىٰ لنبيّه ﷺ قل لهم إن

إفتريته فعلّى إجرامي أي علّى عقاب جرمي و إن كانت الأخرى فعليكم عقاب تكذيبي و ستعلمون صدق قولي و قوله و أنا بريّ ممّا تجرمون معناه ليس علّى من إجرامكم ضرر و أنّما ضرر ذلك عليكم فأعلموا بحسب ما يقتضيه العقل مِن التَّفكر في هذا المعنى قالوا و الفرق بين الإفتراء و الكذب أنّ قول الكذب قد يكون على وجه تقليد من الإنسان لغيره و أمّا إفتراءه فهو إفتعاله من قبل نفسه و معنى أجرم أذنب.

و قال بعض المفسّرين كان إفتراءهم علىٰ رسول أنّهم قالوا ما أخبرتنا عن نوح و قومه هو من عند نفسك لا من عند اللّه و أنّما إفتريته على اللّه تعالىٰ.

و محصّل الكلام أنّهم إتّفقوا على أنّ المخاطب بهذه الآية هو رسول و المراد بالإفتراء إمّا القرآن و إمّا قصّة نوح.

و لقائلٍ أن يقول ما الدّليل على أنّ الآية معترضة والخطاب فيها لِرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و سياق الآية يقتضي أن يكون المخاطب بها أيضاً نُوح و لعلّهم ذهبوا اليه من أجل كلمة الإفتراء، حيث سبقت هذه الكلمة في قوله تعالىٰ: **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيٰاتٍ**[1] لاشكّ أنّ المخاطب فيها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و القائلين به هم قريش و أمّا بالنّسبة الىٰ نوح فليس من هذه الكلمة عين و لا أثر في الأيات الّتي مَّر ذكرها و لذلك قالوا ما قالوا و لم يعلموا أنّ كلمة الإفتراء بمعنىٰ الكذب و الفرق بينهما بالإعتبار و قوم نوح وإن لم يستعملوا هذه الكلمة و لم ينسبوا نوحاً الى الإفتراء إلاّ أنّهم نسبوه الى الكذب فيما إدّعاه حيث قالوا: **وَ مٰا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ**[2] و من المعلوم أنّ معنىٰ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ** أي مفترين على اللّه في إدّعاء الرّسالة و عليه فقوله تعالىٰ: **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيٰهُ** أم يقولون أنّ نوحاً إفترى على اللّه، قل، يا نُوح لهم إن إفتريته فعلّي إجرامي ألخ.



۱- هُود = ۱۳ ۲- هُود = ۲۷

و لعمري هذا واضح لا خفاء فيه و أن كان سبب إختصاصهم هذه الآية برسول اللّه شيئاً آخر لا نعلمه غير ما أحتملناه فاللّه أعلم بالصّواب ثمّ قوله أنّ فعَلي إجرامي و أنا بريءٌ ممّا تجرمون، إشارة الىٰ أنّ كلّ نفسٍ بما كسبت رَهينة و لا تزر وازرةٌ وزر أخرى فأن إفتريت على اللّه بزعمكم فعَلي جرمي و أنتم تنكرون نبوّتي فعليكم عقاب إنكاركم و الحساب علىٰ اللّه وفي قوله: **بَرِىٓءٌ** إشارة الىٰ عُظم جُرمهم و شِدَّة عقابه فأنّ إنكار التّوحيد و النبوّة من أعظم الجرائم و علىٰ ما أحتملناه فالضّمير في قوله: **يَقُولُونَ**. عائد الى قوم نوح لا الى قوم قريش وأمّا علىٰ مذاق المشهور فالأمر بالعكس.

وَ أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ اٰمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه أوحي الى نُوح أي أوحىٰ اللّه اليه وقال له أنّه لن يؤمن، كلمة، لن، لنفي الأبد و المعنى لا يؤمن من قومك أبداً إلاّ من قد آمن بك مِن قبل أي أنّ المؤمنين ينحصرون بمن آمن من قبل فلا تبتئس أي فلا تغتَّم و لا تحزن بما كانوا يفعلون من المعاصي و الإنكار و الإستهزاء و غيرها و لّما أوحىٰ اللّه تعالىٰ الىٰ نوح ما أوحىٰ من عَدم إيمان قومه به في المستقبل و أنّه قد حانَ وَقت الإنتقام و العذاب قال له:

وَ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ

أشار اللّه تعالىٰ في هذه الآية الى أنّه مهلكهم بالطُّوفان فأمره بأن يتَّخذ الفلك و يصنعها و **الفُلك** بضمّ الفاء السّفينة و يستعمل ذلك للواحد و الجمع و قوله: **بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا** قيل معناه بحيث نراها و كأنّها ترى بأعين علىٰ طريق المبالغة فالمعنى بحفظنا إيّاك حفظ من يراك و يملك دفع السُّوء عنك و قيل بأعين أوليائنا من الملائكة الّذين يعلّمونك كيفيّة عملها، معناه، بعلمنا و معنى

وحينا أي على ما أوحينا أليك من صفتها و حالها ثمّ قال لنوح: **وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** نهاه اللّه تعالىٰ أن يُراجع اليه و يخاطبه و يسئله في أمرهم بأن يمهلهم أو يؤخّر إهلاكهم لأنّه تعالى أراد إهلاكهم و حكم عليهم بالغرق فلا يكون الأمر بخلاف ما أخبر به والحاصل أنّهم محكومٌ عليهم بالفرق و قد وجب ذلك و قضىٰ به القضاء و جفّ القلم فلا سبيل الى كفّه و من المعلوم أنّه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون لأنّه علىٰ كلّ شئ قدير.

وَ يَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ

لمّا أمر اللّه تعالىٰ نوحاً أن يصنع الفُلك شرع نوح في صنعه و كلّما مَّر عليه، أي على نوح، ملأٌ من قومه أي أشراف قومه و رؤوسائهم سخروا منه، أي هزءوامن فعله و السُّخرية الإستهزاء، قال، أي قال نُوح لهٰؤلاء القوم إن تسخروا و تستهزؤا منّا في عمل السَّفينة فإنّا، نسخر منكم، و قيل معناه فذًم علىٰ سخرّيتكم و سمّىٰ الذَّم سخريّة كما قال تعالىٰ: **وَ جَزَآؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**[1] فأطلق عليه السّخريّة على وجه الإزدواج و قال بعضهم معناه، إن تتجهلونا في عِلمنا هذا فإنّا نستجهلكم كما تستجهلون **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ** أي يذّله و يحّل عليه هذابٌ مقيم، أي دائمٌ لا يزول، قال بعض المفسّرين إنّما سخروا منه لكونهم رأوه يبني السّفينة و لم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا يا نوح ما تصنع قال أبني بيتاً يمشي على الماء فعجبوا من قوله و سخروا منه و قيل لَكونه يبني السَّفينة في قريةٍ لا قرب لها من البحر فكانوا يتضاحكون و يقولون يا نوح صرت نجّاراً بعد ما كنت نبّياً، في كتاب إكمال الدّين و تمام النِّعمة للصّدوق؁ بأسناده الى سدير الصّيرفي عن أبي‌عبد اللّه و الحديث طويل و فيه يقول عليه‌السلام و أمّا إبطاء نُوح فأنّه لمّا أستنزل العقوبة على

١ـ الشّورىٰ = ٤٠

قومه من السّماء بعث اللّه تبارك و تعالى جبرئيل الرّوح الأمين معه سبع نوايات فقال يا نبي اللّه أنّ اللّه يقول لك أنّ هٰؤلاء خلائقي و عبادي لست أبيدهم بصاعقةٍ من صواعقي إلاّ بعد تأكيد الدّعوة و إلزام الحجّة فعاوِد إجتهادك في الدّعوة لقومك فإنّي مشيبك عليه و أغرس هذا النّوىٰ فأنّ لك في نباتها و بلوغها و إدراكها إذا أثمرت الفرج والخلاص فبشّر بذلك من أتبّعك من المؤمنين فلّما نبتت الأشجار و تأزّرت و تسوقت و أغصّنت و زهىٰ الثَّمر على ما كان بعد زمانٍ طويل إستنجز من اللّه العدّة فأمره اللّه تبارك و تعالىٰ أن يغرس نوىٰ تلك الأشجار و يعاود الصَّبر و الإجتهاد و يؤكّد الحجّة علىٰ قومه فأمر بذلك الطّوائف الّتي آمنت به فأرتدط منهم ثلاث مائة رجل و قالوا لو كان ما يدَّعيه نوح حقّاً لما وقع في وعد ربّه خلف ثمّ أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ لم يل يأمره عند كلّ مرَّةٍ بأن يغرسها مرَّةً بعد أخرى الىٰ أن غرسها سبع مرّاتٍ فما زالت تلك الطّوائف من المؤمنين يرتَّد منهم طائفة بعد طائفة الىٰ أَن عاد الىٰ نيَّف و سبعين رجلاً فأوحى اللّه عند ذلك اليه و قال يا نوح ألآن أسفر الصبح عن اللّيل يعينك عن صرح الحقّ محضه وصفا الكدر بإرتّداد كلّ من كانت طينته خبيثة فلو إنّي أهلكت الكفّار و أبقيت من أرتَّد من الطّوائف الّتي كانت آمَنت بك لما كنت صدقت و عدي السّابق للمؤمنين الّذين أخلصوا التّوحيد من قومك و أعتَّصموا بحبل نبوّتك فأنّي إستخلفتهم في الأرض و أمكّن لهم دينهم و أبدلهم خوفهم بالأمن لكي تخلص العبادة لي بذهاب الشِّرك الحديث.

و في تفسير علّي بن إبراهيم فأمره اللّه عزّ و جّل أن يغرس النَّخل فأقبل يغرس النَّخل فكان قومه يمرّون به و يسخرون منه و يستهزئون به و يقولون شيخ قد أتى له تسع مائة سنة يغرس النَّخل و كانوا يرمونه بالحجارة فلّما أتىٰ لذلك خمسون سنة و بلغ النَّخل و أستحكم أمر بقطعه فسخروا منه و قالوا بلغ النَّخل مبلغه و هو قوله عزّ وجّل و كلّما مَّر عليه ملأ من قومه سخروا منه الآية

فأمره اللّه أن يتّخذ السّفينة و أمر جبرئيل أن ينزل عليه و يعلّمه كيف يتّخذها فقدّر طولها في الأرض ألفاً و مائتي ذراع و عرضها ثما مائة ذراعاً فقال يا ربّ من يعينني على إتّخاذها فأوحىٰ اللّه اليه ناد في قومك من أعانني عليها و ينجو منها شيئاً صار ما ينجره ذهباً و فضّة فنادى نوح فيهم بذلك فأعانوه عليه يسخرون منه و يقولون يتّخذ سفينة في البّر إنتهىٰ.

و في روضة الكافي بأسناده عن المُّضل قال قلت لأبي عبد اللّه جعلت فداك في كم، عمل نوح سفينته حتّى فرغ منها قال عليه السلام في دورين.

قلت و كم الدَّور قال عليه السلام ثمانين سنة قلت أنّ العّامة يقولون عملها في خمس مائة عام، فقال كلاّ كيف كان، و اللّه يقول و وحينا إنتهى.

أقول اقل بعض المحدّثين، لعلّ المراد بقوله: **وَ وَحْيِنٰا** أنّ ما أوحاه اللّه اليه لا يناسب هذا التّأخير إنتهىٰ.

و الّذي يختلج بالبال في معنى قوله: **وَ وَحْيِنٰا** هو أنّ نوح عمل السَّفينة على أساس الوحي لا من عند نفسه و إذا كان كذلك فمعنى قوله: **وَ وَحْيِنٰا** لا يعلمه إلاّ أهل بيت الوحي فأنّ أهل البيت أدرى بما في البيت فمن أين يقول العّامة أنّه عملها في خمس مائة سنة و اللّه أعلم.

حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ اَلتَّنُّورُ قُلْنَا اَحْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اَثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ اَلْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ

اي و كان نوح يصنع الفلك و الملأ من قومه سخروا منه الى أن جاء وقت الوعد الموعود و فار التَّنور، و المقصود فوران الماء من التَّنور و هو تنور الخبز وقيل هو تنور آدم يقال فار الماء إذا أنبع و أختلفوا في مالك التَّنور فقال بعضهم أنّه كان في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد الكوفة و قيل أنّه كان لنوح فجائت إمرأة نوح اليه و هو يعمل السَّفينة فقالت له أنّ التنور قد خرج منه

ماء فقام اليه مسرعاً حتّى جعل الطَّبق عليه و ختمه بختامه فلّما فرغ نوح من السَّفينة جاء الى خاتمه ففَّضه و كشف الطَّبق فغار الماء و يظهر من الأخبار أنّ المسجد الّذي كان فيه التّنور هو مسجد الكوفة.

فعن عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول نعم المسجد مسجد الكوفة صلّى فيه ألف نبّي و ألف وصّي و منه فار التَّنور و فيه نجرت السَّفينة.

و روي في مجمع البيان بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال مسجد كوفان روضته من رياض الجّنة الصّلاة فيه سبعين صلاة صلّىٰ فيه ألف نبّي و سبعون نبّياً فيه فار التَّنور و نجرت السَّفينة و هو سره بابل و مجمع الأنبياء إنتهى.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية إختلف في التّنور على سبعة أقوال:

الأوّل: أنّه وجه الأرض و العرب تسّمى وجه الأرض تنّوراًقاله إبن عبّاس و عكرمة و الزُّهري و ذلك أنّه قيل له إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت و من معك.

الثّاني: أنّه تنور الخبز الّذي يخبز فيه و كان تنوراً من حجارة و كان لحوّاء حتّى صار لموح، فقيل له إذا رأيت الماء يفور من التّنور فأركب أنت و أصحابك و أنبع اللّه الماء من التّنور فعلمت به إمرأته فقالت يا نوح فار الماء من التّنور فقال جاء وعد ربّي حقّاً هذا قول الحسن.

الثّالث: هو موضع إجتماع الماء في السَّفينة.

الرّابع: أنّه طلوع الفجر و نور الصّبح من قولهم نوّر الفجر تنويراً نسب هذا القول الى علّي بن أبي طالب.

الخامس: أنّه مسجد الكوفة قاله علّي بن أبي طالب أيضاً.

و قال مجاهد كان ناحية التّنور بالكوفة و قال إتّخذ نوح السّفينة في جوف

مسجد الكوفة و كان التّنور على يمين الدّاخل ممّا يلي كندة، و كان فوران الماء منه علماً لنوح و دليلاً على هلاك قومه.

السّادس: أنّه أعالي الأرض و المواضع المرتفعة منها قاله قتادة.

السّابع: أنّه العين الّتي بالجزيرة (عين الوردة) رواه عكرمة.

و قال مقاتل كان ذلك تنور آدم و أنّما كان بالشّام بموضع يقال له (عين وردة).

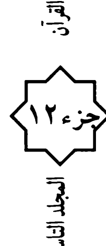
و قال إبن عبّاس فار تنور آدم بالهند.

قال النّحاس و هذه الأقوال ليست بمتناقضة لأنّ اللّه عزّ وجلّ أخبرنا أنّ الماء جاء من السّماء و الأرض فهذه الأقوال تجتمع في أنّ ذلك كان علامة.

ثمّ قال القرطّبي، و الفوران الغليان، و التنّور إسم أعجّمي عرّبته العرب على بناء، فعَّل، لأنّ أصل بناءه، تنَّر، وليس في كلام العرب نون قبل راء و قيل معنىٰ، فار التنّور، التمثيل لحضور العذاب كقولهم، حمي الوطيس، إذا إشتدّت الحرب و الوطيس التنور و يقال فارت قدر القوم إذا إشتدّ حربهم قال الشّاعر:

تركتم قدركم لا شئ فيها و قدر القوم حاميةٌ تفور

انتهى كلام القرطبي.



أقول و قد نقل الطّبري قبله هذه الأقوال و جمهور المفسّرين من العّامة أخذوا منه ثمّ قال الطّبري بعد نقله الأقوال المذكورة و أولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله التنّور قول من قال هو التنّور الّذي يخبز فيه لأنّ ذلك هو المعروف من كلام العرب و كلام اللّه لا يوجه إلاّ على الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب إلاّ أن تقوم حجّة على شئٍ منه بخلاف ذلك فيسلم لها انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و لا يخفى على المتأمّل المنصف أنّ ما ورد في تفسيرات آيات القرآن و كلماتها من طريق أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت أولى بالإتّباع ممّا ورد عن غيرهم و كيف كان التنّور أصل القضيّة ممّا لا كلام فيه لدلالة القرآن

عليه **قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** قرأ حفص، من كلٍّ زوجين إثنين بالتنوين في اللاّم، هنا و في المؤمنون.

و قال أبو الحسن يقال للإثنين هما زوجان قال اللّه تعالى: **وَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**[١] يقال للمرأة زوج وللّرجل زوجها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**[٣].

و قال بعضهم زوجة وقال أبو الحسن يقال للأثنين هما زوج و قال الفارسي يدلّ على أنّ الزّوج يقع للواحد:

قال اللّه تعالىٰ: **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَ مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ**[٤].

و قال الكسائي أكثر كلام العرب بالهاء ثمّ نقول من قرأ بالأضافة أي إضافة كلّ الى زوجين كما عليه المصاحف، جعل قوله إثنين مفعول الحمل فالمعنى إحمل من الأزواج إذا كانت إثنين إثنين زوجين فالزّوجان من قوله: **مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ** يريد بهما الشّياع و لا يراد به النّاقص من الأثنين، و منّ نوّن اللاّم في كُلٍّ، فالمعنى إحمل من كلّ شيءٍ أو من كلّ زوج زوجين إثنين و عليه فيكون إنتصاب إثنين على أنّه صفة لزوجين و ذكر تأكيداً لما قال: **إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ**[٥] فقوله تعالىٰ: **قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** إخبار منه تعالى بأنّه أمر نوحاً أن يحمل معه في سفينته من كلّ جنسٍ زوجين و الزّوج واحد لا شكل له إلاّ أنّه قد كثر إطلاقه على الرّجل الّذي له إمرأة و لذلك قالوا في قوله تعالىٰ: **وَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ**

١- الذّاريات = ٤٩
٢- النّساء = ١
٣- الأحزاب = ٣٧
٤- الأنعام = ١٤٣
٥- النّحل = ٥١

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ فالسّماء زوج و الأرض زوج والشّتاء زوج و الصّيف زوج و اللّيل زوج و النّهار زوج حتّى يصير الأمر الى اللّه الفرد الّذي لا يشبهه شئ.

وقال بعضهم في قوله، من كلّ زوجين إثنين، يعني ذكراً و أنثى لبقاء أصل النسل بعد الطوفان و يقال لكل إثنين هما زوجان فأنّ العرب تسمّى كلّ واحدٍ منهما زوجاً، يقال.

له، زوجاً نعلٍ، إذا كان له نعلان و كذلك يقال له زوجا حمامٍ، و عليه زوجاً قيودٍ و يقال للمرأة هي زوج الرّجل و للرّجل هو زوجها و قد يقال للإثنين هما زوج و قد يكون الزّوجان بمعنى الضربين و الصنفين و كلّ ضربٍ يدعى زوجاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَنْبَتْنٰا فيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْبَتْنٰا فيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**(٣).

أقول و الّذي يحصل للمتّبع من جميع الأقوال هو أنّ الزّوجين قد يقال للذّكر و الأنثى و قد يقال لكلّ إثنين قال الشّاعر:

و كلّ زوجٍ من الدّيباج يلبسه ... أبو قدامة محبوٌ بذاك معاً

و عليه فقوله تعالىٰ: **اَحْمِلْ فيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اَثْنَيْنِ** يحتمل أن يكون المراد بهما الذّكر و الأنثى و يحتمل أن يكون المراد إحمل من كلّ جنسٍ إثنين **وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ اَلْقَوْلُ وَ مَنْ اٰمَنَ وَ مٰا اٰمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ** و أهلك معطوف على قوله: **قُلْنَا اَحْمِلْ** أي قلنا فيها أي في السّفينة من كلّ زوجين أثنين و أهلك، إلاّ من سبق عليه القول، بالإهلاك قيل هو إبنه و إمرأته و قوله: **وَ مَنْ اٰمَنَ** على أهلك أي أحمل من كلّ زوجين أثنين و أحمل معهما أهلك و من أمن بك ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّه ما أمن معه إلاّ قليل، قيل القليل الّذين نجو معه كانوا ثمانية و قيل سبعة و قيل كانوا ثمانين و كان فيهم ثلاثةٌ بنيه

١- الحجّ = ٥
٢- الشّعراء = ٧
٣- ق = ٧

يافث و سام، وحام، و ثلاث كنائن له قالوا و يافث جدّ التّرك و الرّوم والصَّقالية و أصناف البيضان، و حام جدّا السُّودان و هم الحبش و النّوبة و الزّنج و غيرهم و سام أبو فارس و أصناف العجم.

قال القرطبي و لمّا خرجوا من السّفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثّمانين بناحية الموصل و ورد في الخبر أنّه كان في السّفينة ثمانية أنفس، نوح و زوجته غير التّي عوقبت و بنوه الثّلاثة و زوجاتهم فأصاب حام إمرأته في السّفينة فدعا نوح أن يغيّر اللّه نطفته فجاء بالسُّودان قال عطاء و دعا نوح على حام ألاّ يعد و شعر أولاده أذانه و أنّهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام و يافث.

و قال الأعمش كانوا سبعة، نوح وثلاثة كنائن وثلاثة بنين و أسقط إمرأة نوح.

و قال إبن إسحاق كانوا عشرة سوى نساءهم نوح و بنوه، سام و ياقث و حام و ستّة أناس ممّن كان أمن به و أزواجهم جميعاً و قليلٌ، رفع بأمن و لا يجوز نصبه على الإستثناء لأنّ الكلام قبله لم يتّم.

قال بعض المفسّرين من العامّة و لا يمكن التّخصيص على عدد هذا النّفر القليل الّذي أبهم اللّه عددهم إلاّ بنّص عن رسول اللّه انتهىٰ.

أقول في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن عمران عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: وَ مَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ قال عليه السلام: كانوا ثمانية انتهىٰ.

و في مجمع البيان بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام وقال عليه السلام: أمن مع نوح من قومه ثمانية نفر انتهىٰ.

و عندنا أنّ هذه النُّصوص كنًص رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بل هي عينه.

أقول في قوله تعالىٰ: **وَ مَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ** نكتةٍ خفيت على جميع مفسّري العامّة الّذين تمّسكوا في صحّة خلافة أبي بكر بعد رسول بالكثرة مثل

الإجماع و غيره و يستدّلون على مشروعيّة خلافته بأنّ أكثر المسلمين بل قاطبتهم بايعوا أبا بكر و لا يمكن لنا تخطئتهم مع كثرتهم لأنّ ذلك يوجب سوء الظّن بالمسلمين و لا سيّما المهاجر و الأنصار فيقال لهم ما تقولون في هذه الآية و أمثالها حيث حكم اللّه تعالى بأنّ المؤمنين بنوح النّبي بعد طول الزّمن كانوا قليلين فمدح اللّه تعالى القلّة و لازم ذلك تخطئته الكثرة ولم يكن مختّصاً بنوح و قومه بل جميع الأنبياء كانوا كذلك و العقل السليم أيضاً يحكم بمدح القلّة و ذمّ الكثرة و ذلك لأنّ العقلاء الّذين لا يتّبعون الهوى في كلّ عصرٍ و زمانٍ يكونون أقلّ من الجهّال الّذين لا يعلمون الحرّ من البّر و لا يميّزون الغثّ من السّمين و لا الحقّ من الباطل دينهم دنانيرهم و إيمانهم متابعة أهواءهم و اذا كان كذلك فهم محكومون بفساد الرّأي و العقيدة و التدبير في محكمة العقل و على هذا حكم اللّه تعالى في كثيرٍ من الأيات بذّمهم و قبح سريرتهم و عقلهم و فعلهم فقال: **أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ، أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** وهكذا و لتفصيل الكلام فيه مقام أخر.

وَ قٰالَ ٱرْكَبُوا فيهٰا بِسْمِ ٱللّٰهِ مَجْرٰيهٰا وَ مُرْسٰيهٰآ إِنَّ رَبّى لَغَفُورٌ رَحيمٌ.

قرأ حمزة و الكسائي مجراها بفتح الميم و الباقون، بضمّها و أمّا قوله: **مُرْسٰيهٰآ** فلا خلاف في ضمّ الميم فمن ضمّ الميم في، مجراها، قابل بينها و بين مرسيها لما بينها من المشاكلة و من فتح فلأنّه قال بعده و هي تجري، ثمّ أنّ الضمير في قوله: **وَ قٰالَ** عائد على نوح أي و قال نوح حين أمر بالجمل في السّفينة لمن أمن معه و من أمر بحمله، أركبوا فيها.

و قيل الضّمير عائد على اللّه و التّقدير و قال اللّه لنوح و من معه أركبوا فيها و هذا ليس بصحيح و ذلك لقوله بعد ذلك أنّ ربّي لغفورٌ رحيمٌ، ولو كان المراد كما ذكره القائل لقال تعالى أنّ ربّك لغفورٌ رحيمٌ، و قيل غلّب من يعقل في قوله: **ٱرْكَبُوا** و أن كانوا قليلاً بالنسبة لما لا يعقل ممّن حمل فيها.

و قال بعضهم و الظّاهر أنّه خطاب لمن يعقل خاصّة لأنّه لا يليق بما لا يعقل، و عدّىٰ أركبوا، بفي، لتضمينه معنى صيّروا فيها، أو أدخلوا فيها و قيل التّقدير أركبوا الماء فيها و قيل في زائدة للتّوكيد أي أركبوها، والباء في بسم اللّه، في موضع الحال أو متَّبركين بسم اللّه و مجراها و مرساها منصوبان أمّا على أنّهما ظرفان زمانٍ أو مكانٍ لأنّهما يجيئان لذلك و يجوز أن يكون بسم اللّه حالاً من ضمير فيها و مجراها و مرساها مصدران مرفوعان على الفاعليّة أي أركبوا فيها متَّلبساً بإسم اللّه إجراءوها و ارساءها أي ببركة إسم اللّه أو يكون مجراها أو مرساها، مرفوعين على الإبتداء و بسم اللّه الخبر و الجملة حال من الضّمير في، فيها، و على هذه التّوجيهات الثّلاثة فالكلام جملة واحدة و الحال مقدّرة.

قال الضّحاك اذا أراد جري السّفينة قال بسم اللّه مجرايها و اذا أراد وقوفها قال بسم اللّه مرسيها فتقف.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم عن أبي عبد اللّه في قوله تعالىٰ: **ٱرْكَبُوا فِيهٰا بِسْمِ ٱللّٰهِ مَجْرٰيهٰا وَ مُرْسٰيهٰآ** قال مجريها أي مسيرها أي موقفها و قوله: **إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** إخبار منه تعالى حكايةً عمّا قال نوح لقومه أنّ ربّي غفورٌ رحيمٌ، أي ساتر عليهم ذنوبهم رحيمٌ بهم منعمٌ عليهم ثمّ قال تعالى.

وَ هِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبٰالِ وَ نٰادىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكٰانَ فِى مَعْزِلٍ يٰا بُنَىَّ ٱرْكَبْ مَعَنٰا وَ لٰا تَكُنْ مَعَ ٱلْكٰافِرِينَ

و هي، أي السَّفينة تجري بهم في موج و المعنى تجري و هم فيها في موج كالجبال أي في موج الطّوفان شبّه كلّ موجةٍ منه بجبلٍ في تراكمها و إرتفاعها.

روي أنّ السّماء أمطرت جميعها حتّى لم يكن في الهواء جانب إلاّ أمطر و تفجّرت الأرض كلّها بالنّبع و هذا معنى إلتقاء الماء و روي أنّ الماء على الجبال و أعالي الأرض أربعين ذراعاً و قيل خمسة عشر و قيل غير ذلك.

و أمّا قوله: **وَ نَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ** قيل أنّه كان كافراً و إسمه كنعان و قيل، يام، و كان في معزلٍ.

أي كان إبنه في معزلٍ، من دينه أي من دين أبيه يا بنّي أركب معنا و لا تكن مع الكافرين، قالوا أنّ نوحاً لم يعلم أنّ إبنه كان كافراً بل ظنّ أنّه مؤمن قال له و لا تكن مع الكافرين، قرأ عاصم **يا بنّي أركب** بفتح الياء و الباقون بكسرها و في، بنّي، ثلاث ياءات: ياء التّصغير، و ياء الأصل، و ياء الإضافة.

قال أبو علّي الفارسي الوجه كسر الياء لأنّ اللاّم من (إبن) ياء أو واوا و حذفت من، إبن، كما حذفت من، إسم، فإذا حقرّت ألحقت ياء التّحقير لزم أن ترّد اللاّم الّذي حذفت لأنّك لو لم تردّها لوجب أن تحرّك ياء التّصغير بحركات الإعراب و هي لا تحرّك بحركات الإعراب أبداً فاذا أضفته الى نفسك إجتمعت ثلاث ياءات.

الأُولىٰ: التّي للتّحقير.

الثّانية: لام الفعل.

الثّالثة: هي لام الإضافة تقول: بنّي فاذا ناديت جاز فيه وجهان:

إثبات الياء و حذفها فمن قال يا عبادي فأثبت الياء فقياسه أن يقول يا بنّي،قال ياعباد، يقول، يا بنّي، حذفت التّي للإضافة و أبقيت الكسرة دلالة عليها و هذا هو الجيّد عندهم انتهىٰ.

و قوله: **وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ** فالمعزل موضع منقطع عن غيره و أمّا أنّه كان على غير دين أبيه كما فسّروه به فلا دليل عليه و قوله: **وَ لَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ** لا يدلّ على أنّه كان على دين الكفّار و هو واضح وكيف كان فهو لم يركب السّفينة و قال في جواب أبيه:

سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ أي سأرجع الى مأوى من جبلٍ يمنعني من الماء فقال نوح **لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ** العصمة المنع من الأفة و منه

المعصوم في الدّين أي الممنوع باللّطف من فعل القبيح لا وجه الحيلولة و المراد من أمر اللّه، هو أمره تعالى بالإهلاك و الغرق.

و من المعلوم أنّ اللّه تعالى اذا شاء و أراد وقع و لا يمكن لأحدٍ منعه **وَ حَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ** أي حال بين نوح و ولده الموج **فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ** كغيره ممّن غرق في الطّوفان.

أقول قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها غرق، أوهلك.

وَ قِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَ يَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ ٱلْمَآءُ وَ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَ ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ.

لمّا غرق من غرق و نجى من نجى من قوم نوح بسبب الطّوفان قيل و القائل هو اللّه تعالى يا أرض أبلعي ماءك.

قال صاحب الكشّاف نداء الأرض و السّماء بما ينادي به الحيوان المميّز على لفظ التّخصيص و الإقبال عليهما بلاخطاب من بين سائر المخلوقات قوله، يا أرض و يا سماء، ثمّ أمرهما بما يؤمر أهل التمييز و العقل من قوله: **ٱبْلَعِي مَآءَكِ** و أقلعي، من الدّلالة على الإقتدار العظيم و أنّ السّموات و الأرض و هذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعةٍ عليه كأنّها عقلاء مميّزون قد عرفوا عظمته و جلاله و ثوابه و عقابه و قدرته على كلّ مقدور و تبيّنوا تحتّم طاعته عليهم و إنقيادهم له الى آخر ما قال.

أقول لا نحتاج الى هذه التكلفات في أوامر اللّه تعالى و ذلك لأنّ أوامر الحقّ على قسمين: تشريعي و تكوينّي.

فالأوّل: مختّص بالمكلّفين بالتّكاليف الشرعيّة.

الثّاني: مختّص بالإيجاد ومنه:

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١].

قال اللّه تعالى: **سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[٢].

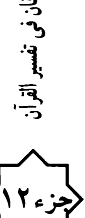
قال اللّه تعالى: **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**[٣].

و أمثالها من الأيات و الفرق بين الأمرين هو أنّ الإختيار واسطة بين الإرادة و المراد في الأومر التشريعية و أمّا في التكوينيات فلا و ما نحن فيه من الأوامر التكوينية التّي لابّد لها من تحقّق المراد و عليه فلا فرق فيها بين تعلّق الأمر بالأرض أو بالسّماء لأنّ ما سوى اللّه مخلوق له و المخلوق تحت قدرة خالقه قهراً و إلاّ فليس بمخلوقٍ له اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **يَآ أَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ** البلع في اللُّغة إنتزاع الشّئ من الحَلق الى الجوف فكانت الأرض تبلع الماء هكذا حتّى صار الماء في بطنها الغّراء.

و قوله: **يَا سَمَآءُ أَقْلِعِي** الإقلاع إذهاب الشّئ من أصله حتّى لا يبقى منه شئ يقال قلعت الشّجرة اذا قلعتها من أصلها و إقلع عن الأمر اذا تركه رأساًإخبار عن إقشاع السّحاب و قطع المطر في أسرع وقتٍ فكأنّه قال لها أقلعي فأقلعت.

و قوله: **وَ غِيضَ ٱلْمَآءُ** يقال غاض الماء يغيض غيضاً اذا ذهب في الأرض فالمعنى و ذهب الماء: **وَ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ** أي وقع الأمر على تمامٍ و إحكامٍ بإهلاك قوم نوح: **وَ ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ** أي و إستوت السَّفينة و إستّقرت على الجوديّ و هو جبلٌ معروف قيل هو بناحية، أحد و قيل بقرب جزيرة الموصل.



قال بعضهم إستوت عليه في العاشر من المحرّم يوم عاشوراء فصامه نوح و أمر جميع من معه من النّاس و الوحش و الطّير و الدّواب و غيرها فصاموه شكراً للّه تعالى و قيل كان ذلك يوم جمعة.

١- النّحل = ٤٠ ٢- مَريم = ٣٥
٣- الأنبياء = ٦٩

و روي أنّ اللّه تعالى أوحى الى الجبال أنّ السّفينة ترسي على واحدٍ منها فتَّطاولت و بقى الجوديّ لم يتَّطاول تواضعاً للّه فإستوت السّفينة عليه و بقيت عليه أعوادها قيل لقد بقى منها شئ أدركه أوائل هذه الأمّة و قد يقال أنّ الجوديّ من جبال الجنّة فلهذا إستوت عليه و الأقوال كثيرة كلّها لا دليل عليه و الّذي نقطع به هو صحّة أصل القضية و أنّ السّفينة إستوت على الجوديّ و غير ذلك من الأمور الّتي دلّت الأيات عليها و أمّا غيرها ممّا ذكروه فهو ممّا لا دليل عليه و الّذي تنبغي الإشارة اليه هو أنّ هذه الآية من حيث الفصاحة و البلاغة و الايجار و حسن النّظم من المعجزات بحيث قيل لو فتَّش كلام العرب و العجم ما وجد فيها مثل هذه الآية.

ألا ترى كيف خرج الأمر مخرج التّعظيم من نحو، كن، لأنّه من غير معاناة و لا لغوب مضافاً الى حسن تقابل المعنى و حسن إئتلاف الألفاظ و حسن البيان في تصوير الحال و إيجاز الكلام من غير إخلالٍ و تقبل الفهم على أتّم الكمال و غير ذلك فإفهم و تدّبر.

وَ نَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لمّا رأى نوح هلاك قومه فقال ربّ أنّ إبني من أهلي و أنّ وعدك الحقّ، و ذلك لأنّه تعالى كان وعده بأنّه ينجيه و أهله و أمره بأن يحملهم معه في الفلك و هو قوله: و **قلنا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ** و على هذا فسأل نوح ربّه أنّ إبنه أن كان ممّن وعده بنجاته أن ينجيه فالسّؤال كان بهذا الشّرط قالوا لأنّه لا يجوز أن يسأل نبيٌّ من الأنبيا أمراً لا يجاب اليه و خاصّة على رؤوس الملاء لأنّ ذلك ينفر عنهم قال الشّيخ في التّبيان.

و قال الطّبري يقول تعالى ذكره، و نادى نوح ربّه فقال ربّ أنّك وعدتني أنّ

تنجيني من الغرق و الهلاك و أهلي و قد هلك إبني و إبني من أهلي و أنّ وعدك الحقّ الّذي لا خلف له و أنت أحكم الحاكمين بالحقّ فأحكم لي بأن تفي لي بما وعدتني من أن تنجي لي أهلي و ترجع إلّي إبني انتهىٰ.

و قال القرطبي قال علماءونا و أنّما سأل نوح ربّه إبنه لقوله: **وَ أَهْلَكَ** وترك قوله إلاّ من سبق عليه القول، فلمّا كان عنده من أهله قال، ربّ أنّ إبني من أهلي، يدلّ على ذلك قوله: **وَ لَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ** أي لا تكن ممّن لست منهم لأنّه كان مؤمناً في ظنّه لم يك نوح يقول لربّه أنّ إبني من أهلي إلاّ و ذلك عنده كذلك اذ محالٌ أن يسأل هلاك الكفّار ثمّ يسأل في إنجاء بعضهم و كان إبنه يسّر الكفّار و يظهر الإيمان فأخبر اللّه تعالى نوحاً بما هو منفردٌ به من علم الغيوب أي علمت من حال إبنك مالا تعلمه أنت.

و قال الحسن كان منافقاً و لذلك إستّحل نوح أن يناديه و عنه أيضاً أنّه كان إبن إمرأته دليله قراءة علّيٍ، ونادى نوح إبنها، و أنت أحكم الحاكمين، إبتداء و خبر، أي حكمت على قومٍ بالنّجاة و على قومٍ بالغرق انتهى كلامه.

و قال الزّمخشري في الكشّاف، أنّ إبني من أهلي، أي بعض أهلي لأنّه كان إبنه من صلبه أو كان ربيباً له فهو بعض أهله، و أنّ وعدك الحقّ، أي و أن كان وعدٌ تعده فهو الحقّ الثّابت الّذي لا شكّ في إنجازه و الوفاء به و قد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي و أنت أحكم الحاكمين، أي أعلم الحكّام و أعدلهم لأنّه لا فضل لحاكم على غيره إلاّ بالعلم و العدل انتهى كلامه.

فهذا ما ذكره أساطين المفسّرين من العامّة و الخاصّة فعلى قوله الشّيخ في التّبيان و هو المتّبع لنا كان سؤال نوح في نجاة إبنه معلّقاً على الشّرط لا مطلقاً أي إن كان ممّن وعده اللّه بنجاته و إلاّ فلا.

و أمّا على قول العامّة فليس السّؤال معلّقاً على الشّرط اذا عرفت هذا فنقول، الإشكال في مقامين:

الأوّل: لا شكّ إنّه أي نوح سأل ربّه أن ينجي إبنه و هذا ممّا لا خلاف فيه و

أنّما الخلاف في أنّ إبنه كان كافراً أو مؤمناً و على الأوّل كيف سأل نوح نجاة الكافر من الغرق.

علىٰ الثّاني: لا يحتاج الى السّؤال لأنّ اللّه لم يهلك المؤمنين بل أهلك الكافرين، و على فرض الكفر هل كان نوح عالماً بكفره و مع ذلك سأل ما سأل أو كان غير عالم بكفره لا سبيل الى الأوّل لأنّه مع العلم بالكفر لا موضع للسّؤال.

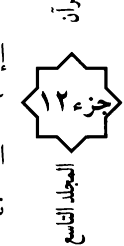
الثّاني: هو الحقّ و هو أنّه لم يكن عالماً بكفره و هو المطلوب.

المقام الثّاني: هل كان الإبن في الآية إبنه من صلبه أو كان إبن إمرأته من صلب أخر و قد يطلق الإبن عليهما إلاّ أنّ إطلاقه على الأوّل حقيقة و على الثّاني مجاز.

أمّا البحث في المقام الأوّل: فظاهر الآية الشّريفة يدلّ على عدم إيمانه و أنّه كان كافراً باطناً و أن كان مؤمناً ظاهراً و نوح لم يكن عالماً بكفره و الدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية **فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** و هذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ العلم بالغيب مختصّ باللّه تعالى و الأنبياء و الأوصياء لا يعلمون إلاّ ما أعلمهم اللّه.

أمّا المقام الثّاني: و هو أنّه كان إبنه من صلبه أو إبنه من إمرأته فيظهر من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّه كان إبنه من صلبه و لكن لمّا عصى اللّه عزّ و جلّ نفاه اللّه تعالى عن أبيه.

ففي عيون الأخبار في باب قول الرّضا عليه السلام لأخيه زيد بن موسى حين إفتخر على من في مجلسه بأسناده الى الحسن بن موسى الوشا البغدادي قال كنت مع علّي بن موسى الرّضا في مجلسٍ و زيد بن موسىٰ حاضر (أقول هو المعروف بزيد النّار) قد أقبل على جماعةٍ يفتخر عليهم في المجلس و يقول نحن و أبو الحسن عليه السلام مقبل على القوم يحدّثهم (على قومٍ يحدّثهم) فسمع مقالة زيد فإلتفت اليه فقال عليه السلام: يا زيد أغرُّك قول ناقلي الكوفة أنّ فاطمة أحصنت فرجها فحرَّم اللّه تعالى ذريّتها على النّار واللّه ما ذاك إلاّ للحسن و



الحسين عليهما السّلام و ولد بطنها خاصّة، و أمّا أن يكون موسى بن جعفر يطيع اللّه و يصوم نهاره و يقوم ليله و تعصيه أنت ثمّ تجيئان يوم القيامة سواء لأنت أعزَّ على اللّه عزّ وجلّ منه أنّ عليّ بن الحسين كان يقول لمحسننا كفلان من الأجر و لمسيئنا ضعفان من العذاب.

قال الحسن الوشا ثمّ إلتفت عليه السلام إلّي فقال يا حسن كيف تقرأون هذه الأية **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** فقُلت من النّاس من يقرأ أنّه عمل غير صالحٍ، و منهم من يقرأ أنّه عمل غير صالحٍ، فمن قرأ أنّه عملٌ غير صالح، نفاه عن أبيه.

فقال عليه السلام كَلاّ لقد كان إبنه و لكن لمّا عصى اللّه عزّ وجلّ نفاه عن أبيه كذا من كان منّا لم يطع اللّه عزّ وجلّ فليس منّا فأنت اذاً أطعت اللّه فأنت منّا أهل البيت انتهىٰ.

و في خبرٍ أخر بأسناده عن ياسر قال خرج زيد بن موسى أخو أبي الحسن بالمدينة و أحرق و قتل و كان يسمّى زيد النّار فبعث اليه المأمون فأسر و حمل الى المأمون فقال المأمون أذهبوا به الى أبي الحسن قال ياسر فلمّا أدخل قال له أبو الحسن يازيد أغَّرك قول سفلة أهل الكوفة و ساق الحديث الى أن قال فقال له زيد أنا أخوك و إبن أبيك فقال له أبو الحسن أنت أخي ما أطعت اللّه عزّ وجلّ أنّ نوحاً قال أنّ إبني من أهلي و أنّ وعدك الحقّ و أنت أحكم الحاكمين فقال اللّه عزّ وجلّ، أنّه ليس من أهلك أنّه عمل غير صالح فأخرجه اللّه من أن يكون من أهله بمعصيته انتهى.

و في عيون الأخبار أيضاً بأسناده عن الرّضا عليه السلام قال عليه السلام: قال أبي قال أبو عبد اللّه عليه السلام أنّ اللّه عزّ وجلّ قال يا نوح أنّه ليس من أهلك، لأنّه كان مخالفاً له و جعل من إتّبعه من أهله قال، أي قال الرّاوي وسألني الرّضا عليه السلام كيف يقرأون هذه الآية في إبن نوح فقلت يقرأوها النّاس على وجهين:

أنّه عملٌ غير صالح، و أنّه عمل غير صالحٍ، فقال عليه السلام كذبوا هو إبنه و لكنّ اللّه عزّ وجلّ نفاه عنه حين خالفه في دينه إنتهى.

و الأخبار بهذه المضامين كثيرة فثبت و تحقّق أنّه كان إبنه واقعاً من صلبه إلاّ أنّ اللّه نفاه عنه لمعصيته وكفره، بقي في المقام شئ و هو أنّ اللّه تعالى كيف كذّب نبيّه أليس هذا يدلّ على وجود الهفوات في أنبياءه و اذا كان كذلك فكيف يكونون معصومين.

أقول **روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثٍ طويل وفيه يقول عليه السلام مجيباً لبعض الزّنادقة وقد قال الزّنديق وأجد قد شهر هفوات أنبياءه بتكذيبه نوحاً لمّا قال أنّ إبني من أهلي، بقوله أنّه ليس من أهلك قال عليه السلام في جوابه و أمّا هفوات الأنبياء عليهم السّلام وما بيّنه اللّه في كتابه فأنّ ذلك من أدَلّ الدّلائل على حكمة اللّه عزّ وجلّ و قدرته القاهرة وعزّته الظّاهرة لأنّه تعالى علم أنّ براهين الأنبياء تكبر في صدور أممهم وأنّ منهم من يتّخذ بعضهم إلهاً كالذّي كان من النّصارى في إبن مريم فذكرها دلالة على تخلّفهم عن الكمال الّذي تفرّد به عزّ وجلّ انتهىٰ.**

أقول يظهر من هذا الحديث أنّ الحكمة في تكريب الأنبياء أو تخطئتهم في بعض الأحيان هي أنّهم في قالب البشر فلا يظّن ظانّ فيهم الألوهيّة مثلاً و هذا لا ينافي كونهم معصومين لأنّ معنى المعصوم من عصمه اللّه عن الخطأ لا أنّهم من قبل أنفسهم كانوا معصومين.

قَالَ يَا نوح إِنَّه لَيْس منْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ.

قد ظهر معنى قوله: **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** ممّا ذكرناه و قلنا أنّ قوله: **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ليس معناه أنّه لم يكن إبنه من صلبه بل هو كان من صلب نوح، لكنّ اللّه تعالىٰ نفاه عنه لمعصيته.

و أمّا قوله: **فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ففيه نهيٌ عن السّؤال بغير علم و هو من أحسن المواعظ يشترك فيه الكلّ فأنّ النّبي أيضاً لا يكون عالماً بكلّ الأشياء ظاهرها و باطنها إلاّ ما علّمه اللّه تعالى و عليه فلو كان إبنه كافراً أو فاسقاً باطناً لا ظاهراً فلا يعلمه إلاّ اللّه و حيث أنّ نوحاً سأل ربّه نجاة إبنه و المفروض أنّه من الكافرين أو العاصين واقعاً، قال اللّه تعالى فلا تسألن الخ.

إن قلت حقّ الجاهل أن يسأل العالم ليرتفع به جهله فكيف يقال فلا تسألن ما ليس لك به علم، و بعبارةٍ أخرى ظاهر الكلام يدلّ على نهي سؤال الجاهل من العالم و هو كما ترى على خلاف العقل اذ لازم ذلك أن يكون السّائل عالماً و هو من تحصيل الحاصل.

قلت أنّ نوحاً سأل ربّه أن ينجي إبنه من العذاب لزعمه أنّه من أهله فقال تعالى أنّه ليس من أهلك فلا يستّحق النّجاة فالنّهي لم يتعلّق بمطلق السّؤال بل تعلّق بسؤال النّجاة من العذاب لكونه من أهله فلو قال نوح ياربّ هل هو من أهلي أم لا كان الجواب نعم أولا و بعبارةٍ أخرى أنّه سأل عن شئ لم يكن عالماً به و هو نجاة من العذاب فكأنّه قال ياربّ لا تهلكه لأنّه من أهلي فقال تعالى أنّه ليس من أهلك و من المعلوم أنّ جواب هذا السّؤال هو النّهي عنه و هو واضح و لذلك قال تعالى بعد ذلك **إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجٰاهِلِينَ** أي أنهاك عن هذا السّؤال و أحذّرك لئّلا تكون أو كراهية تكون من الجاهلين، قيل أنّ الأثمين، و لا دليل عليه فأنّ حمل الكلام على ظاهره أولى فأنّ نوح كان جاهلاً بكفر إبنه باطناً.

قٰالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مٰا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلّاٰ تَغْفِرْ لي وَ تَرْحَمْنيٓ أَكُنْ مِنَ ٱلْخٰاسِرِينَ.

في هذه الآية إخبارٌ منه تعالى عمّا قاله نوح حين عرّفه اللّه حال ولده و أنّه لا يستّحق الغفران فأنّه قال يا ربّ أني أعوذبك، قيل العياذة طلب النّجاة بما

يمنع من الشّر و قيل العياذ الإعتصام بما يمنع من الشّر و المعنى إنّي أعتصم بك أن أسألك ما لا أعلمه بعد ذلك أبداً و حيث أنّ الإحتراز منه لا يمكن إلاّ بإعانته و هدايته و توفيقه و لطفه بدأ كلامه بقوله: **إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ** فأنّ العياذة قبل العمل و لذلك أمرنا بها عند الشّروع في العمل حتّى أنّ المصلّي ينبغي أنّ يتّعوذ باللّه في بدء الشّروع بها و هذه هو السِّر في تقديمه في الآية.

و أمّا قوله: **وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِيٓ أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ** فمعناه و إلاّ تغفرلي ممّا صدر عني من السّؤال بغير علمٍ فيما مضى، فأنّي أكون من الخاسرين.

و الحاصل ندم على ما قال فكأنّه تاب و رجع عنه في المستقبل فأنّ حقيقة التَّوبة هي العزم على التَّرك و اليه الإشارة بقوله: **إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** و النّدم على ما مضى و اليه الإشارة بقوله: **وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِيٓ أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ.**

و إعلم أنّ ما قاله نوح لم يكن معصية بل كان تركه أولى من فعله كما مرَّ البحث فيه في قصّة أبيه أدم فأنّ الأنبياء لا كلام عندنا في عصمتهم فمن إحتَّج بهذه الآية و أمثالها على عدم عصمتهم فقد أخطأ، ولم يعلم أنّ ترك الأولى منهم كالمعصية فينا فأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين و بعبارةٍ أخرى ترك الأولى و الأفضل يعد في حقّهم من الذّنوب و للبحث فيه مقام أخر.

قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَىٓ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أمر اللّه تعالى نوحاً و من معه بالعبوط أي إنزل يا نوح من الجبل فالهبوط نزول من أعلى مكان في الأرض الى ما دونه و من السّماء و قوله بسلامٍ منّا أي بتسليم منّا اليك و بركات جمع، بركة، وهي النّعمة و المعنى و نعمٌ دائمةٌ و خيرٌ ثابت حالاً بعد حالٍ و أصله الثّبوت و منه البروك و البركة لثبوت النّماء.

قال بعضهم القائل هو اللّه أو الملائكة تبليغاً عن اللّه تعالى و الظّاهر الأوّل لقوله منّا، و سنمتّعهم أمر عند نزوله بالهبوط من السفينة مع أصحابه للإنتشار في الأرض والباء للحال أي مصحوباً بالسّلامة و أمنٍ و بركاتٍ و هي الخيرات النّامية في كلّ الجهات و يجوز أن يكون اللاّم بمعنى التّسليم أي إهبط مسلّماً عليك مكرّماً و بشّر بالسّلامة إيذاناً له بمغفرة ربّه له و رحمته أيّاه و بإقامته في الأرض آمناً من الآفات الدنيويّة إذ كانت الأرض قد خلت من النّبات و الحيوان فكان ذلك تبشيراً بعود الأرض الى أحسن حالها و لذلك قال و بركات عليك أي دائمةً باقية عليك.

و الظّاهر أنّ، من، لإبتداء الغاية أي ناشئة من الذّين معك و هم الأمم المؤمنون الى آخر الدَّهر.

و قال الزّمخشري يحتمل أن تكون، من بيّانية، فتراد الأمم الّذين كانوا معه في السَّفينة لأنّهم كانوا جماعات و قيل لهم، أمم، لأنّ الأمم تشعَّبت منهم.

و أمّا قوله: **سَنُمَتِّعُهُمْ** صفة و الخبر محذوف تقديره و ممّن معك أمم سنمتَّعهم و أنّما حذف لأنّ قوله: **مِمَّنْ مَعَكَ** يدلّ عليه فالمعنى أنّ السّلام منّا و البركات عليك و على أممٍ مؤمنين ينشئون ممّن معك و أممٌ متَّمتعون بالدنيّا منقلبون الى النّار.

و قال بعضهم و الّذي ينبغي أن يفهم من الآية أنّ قوله من معه، ينشأ منهم مؤمنون و كافرون و نبَّه على الإيمان بأنّ المتّصفين به من اللّه عليهم سلام و بركة و على الكفر بأنّ المتّصفين به يمتّعون في الدنيّا ثمّ يعذّبون في الأخرة و ذلك من باب الكناية و ظاهر قوله: **مِمَّنْ مَعَكَ** يدلّ على أنّ المؤمنين و الكافرين نشاؤوا ممّن معه و الّذين كانوا معه في السَّفينة أن كانوا أولاده الثّلاثة فقط أو معهم نساءهم إنتظم قول المفسّرين أنّ نوحاً هو أبو الخلق كلّهم و يسمّى آدم الأصغر أو آدم الثّاني لذلك و أن كانوا أولاده و غيرهم على الإختلاف في العدد فأن كان غير أولاده مات ولم ينسل صحّ أنّه أبو البشر بعد

آدم ولم يصحّ أنّه نشاء ممّن معه مؤمن و كافر إلاّ أن أريد بالّذين معه أولاده فيكون من ذكر العّام و إرادة الخاّص، و أن كانوا نسلوا كما عليه الأكثر فلا ينتظم أنّه أبو البشر بعد آدم بل الخلق بعد الطّوفان منه و ممّن كان معه في السّفينة و قيل هم قوم هود و صالح ولوط و شعيب و أمثالهم.

و قال الرّازي و أعلم أنّ اللّه تعالى جعل تلك الأمم النّاشئة من الّذين مَعه على قسمين:

أحدهما: الّذين عطفهم على نوح في وصول سلام اللّه و بركاته اليهم و هم أهل الإيمان.

الثّاني: أممٌ وصفهم اللّه تعالى بأنّه سيمتّعهم مدّة في الدنيّا ثمّ في الأخرة يمسّهم عذابٌ أليمٌ فحكم اللّه بأنّ الأمم النّاشئة من الّذين كانوا مع نوح عليه السّلام لابدّ و أن ينقسموا الى مؤمنٍ و الى كافرٍ.

قال بعض المفسّرين دخل في تلك السّلامة كلّ مؤمنٍ و مؤمنةٍ الى يوم القيامة و دخل في ذلك المتاع و في ذلك العذاب كلّ كافرٍ و كافرة الى يوم القيامة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وقال الطّبرسي قدّس سرّه في معنى **وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ** معناه أنّه يكون من نسلهم أممٌ سنمتّعهم في الدنيّا بضروبٍ من النِّعم فيكفرون ونهلكهم ثمّ يمسُّهم بعد الهلاك عذابٌ مؤلم و أنّما إرتفع أمم لأنّه إستأنف الإخبار عنهم.

و روي عن الحسن أنّه قال هلك المتمتّعون في الدنيّا لأنّ الجهل يغلب عليهم والغفلة فلا يتفكرون إلاّ في الدنيّا و عماراتها و ملاذها ثمّ أشار سبحانه الى ما تقدّم ذكره من إخبار قوم نوح انتهى كلامه هذا ما ذكروه في تفسيرالكلام.

أقول أحسن الأقوال ما ذكره الزّمخشري في الكشاف و قد نقلناه و هو أن يكون قوله: **سَنُمَتِّعُهُمْ** صفة و الخبر محذوف تقديره ممّن معك أممٌ سنمتّعهم فأنّه جمع بين صحّة المعنىٰ و الإعراب و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَآ أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

أنباء جمع نَبَأ و هو الخبر و قوله: **تِلْكَ** إشارة الىٰ مل تقدّم ذكره من أخبار نُوح و قومه و ما وقعوا فيه من الطّوفان و العذاب و التّقدير تلك الأنباء الّتي تقدّم ذكرها من أنباء الغيب، نوحيها اليك، و الضّمير يرجع الىٰ الأنباء و المعنى أنّ هذه الأخبار الّتي أعلمناك أيّاها لم تكن تعلمها أنت و لا قومك قبل الوحي ثمّ أمره بالصَّبر على أذى قومه و جهلهم بموضعه كما صبر نُوح مثل ذلك علىٰ قومه و العاقبة للمتّقين أعني بهم من إتّقى معاصي اللّه و تحرّز من عقابه.

قال بعض المفسّرين أنّ اللّه تعالىٰ ذكر هذه القصّة لأجل أنّ الكفّار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكر اللّه تعالى هذه القصّة لبيان أنّ إقدام الكّفار على الإيذاء و الإيحاش كان حاصلاً في زمان نُوح أيضاً و لم يكن مختّصاً بزمان رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم فكما أنّ الأنبياء قبل رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم صبروا على أذى قومهم ينبغي للرّسول أيضاً أن يصبر على أذى قريش فأنّ الصّبر عاقبته النّصر و الظّفر و الفرح و السرور في الدّنيا و الأجر الجزيل و الثّواب الجميل في الآخرة و في خاتمة البحث في قصّة نُوح نشير الىٰ بعض الأخبار الواردة في الباب.

في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: لمّا أراد اللّه عزّ وجلّ هلاك قوم نُوح وساق الحديث الىٰ أن قال وأنزل اللّه علىٰ نوح: يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا فنزل نوح بالموصل من السّفينة مع الثّمانين وبَنوا مدينة الثّمانين و كان لنوح إبنة ركبت مَعه السّفينة فتناسل النّاس منها و ذلك قول النّبي نوح أحد الأبوين انتهىٰ.

و في الخصال عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لمّا هبط نوح عليه السلام من السَّفينة أتاه إبليس عليه اللّعنة فقال ما في الأرض أعظم منّة علّى منك دعوت على هؤلاء الفسّاق فأرحتني منهم ألا أعلّمك خصلتين،

أيّاك والحسد فهو الّذي عمل بي ما عمل و أيّاك و الحرص فهو الّذي عمِل بآدم انتهىٰ.

وفي الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: لمّا حسر الماء عن عظام الموتىٰ فرأى ذلك نُوح عليه السلام جزع جزعاً شديداً و إغتّم لذلك فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه هذا عملك بنفسك أنت دعوت عليهم فقال يا ربّ أنّي أستغفرك و أتوب اليك فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه أن كل العنب الأسود ليذهب غَمّك انتهىٰ.

و في إكمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده الىٰ عبد الحميد بن أبي الدَّيلم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: بقى نوح بعد النزّول من السَّفينة خمسين سنة ثمّ أتاه جبرائيل عليه السلام فقال له يا نُوح قد إنقضت نبوّتك و استكملت أيّامك فأنظر الأسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النّبوة فأدفعها الىٰ إبنك سام و الحديث طويل أخذناه منه موضع الحاجة.

و في روضة الكافي بأسناده عنه عليه السلام قال عاش نُوح ألفي سنة و ثلاث مِائة سنة منها ثمان مائة و خمسين سنة قبل أن يُبعث، و ألف سنة إلاّ خمسين عاماً و هو في قومه يدعوهم، و خمس مائة عامٍ بعد ما نزل من السَّفينة و نضب الماء فمصَّر الأمصار و أسكن ولده البلدان ثمّ أنّ ملك الموت جاءه و هو في الشّمس فقال السّلام عليك فردّ عليه نُوح عليه السلام فقال ما جاء بك يا ملك المَوت قال جئتك لأقبض روحك قال دعني أدخل من الشّمس الى الظِّل فقال له نعم فتَّجول فقال يا ملك الموت ما مرَّ بي من الدّنيا مثل تحوَّلي من الشّمس الىٰ الظِّل انتهىٰ[1].

■

١- نور الثّقلين

وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُودًا قٰالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلّٰا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يٰا قَوْمِ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلّٰا عَلَى ٱلَّذي فَطَرَنيَ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَ يٰا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمٰآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمينَ ﴿٥٢﴾ قٰالُوا يٰا هُودُ مٰا جِئْتَنٰا بِبَيِّنَةٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِكيٓ اٰلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِكَ وَ مٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّآ ٱعْتَرٰيكَ بَعْضُ اٰلِهَتِنٰا بِسُوٓءٍ قٰالَ إِنّيٓ أُشْهِدُ ٱللّٰهَ وَ ٱشْهَدُوٓا أَنّي بَرِيٓءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكيدُوني جَميعًا ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللّٰهِ رَبّي وَ رَبِّكُمْ مٰا مِنْ دٰآبَّةٍ إِلّٰا هُوَ اٰخِذٌ بِنٰاصِيَتِهٰآ إِنَّ رَبّي عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مٰآ أُرْسِلْتُ بِهِٓ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبّي عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفيظٌ ﴿٥٧﴾ وَ لَمّٰا جٰآءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا هُودًا وَ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَليظٍ ﴿٥٨﴾ وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا بِاٰيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ ٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبّٰارٍ عَنيدٍ ﴿٥٩﴾ وَ أُتْبِعُوا في هٰذِهِ ٱلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلآ إِنَّ عٰادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْدًا لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

◀ اللّغة

مِدْراٰرًا بكسر الميم مِفعال صفة مبالغة كقولهم، معطار و منجار و أصله من الدَّر بفتح الدّال و هو اللَّين و يستعار ذلك للمطر.

تَوَلَّوْا التّولي الإعراض.

اَعْتَرٰيكَ أي أصابك بجنون خبل عقلك والباقي واضح.

◀ الإعراب

مِدْراٰرًا حال من السَّماء و أنّما لم يؤّنثه لوجهين:

أحدهما: أنّ المراد بالسَّماء السّحاب فذكر مدراراً على المعنىٰ.

الثّاني: أنّ مفعالاً للمبالغة و ذلك ليستوي فيه المذّكر و المؤّنث مثل فعول كقبور و فعيل كبغّى **مٰا جِئْتَنٰا بِبَيِّنَةٍ** يجوز أن يتّعلق الباء بجئت و يجوز أن تكون حالاً **إِلَّا اَعْتَرٰيكَ** الجملة مفسّرة لمصدرٍ محذوف تقديره أن نقول إلاّ قولاً هو إعتراك و يجوز أن يكون موضعها نصباً أي ما نذرك إلاّ هذا القول **كَفَرُوا رَبَّهُمْ** محمول على المعنىٰ أي جحدوا ربّهم و قيل التّقدير كفروا نعمة ربّهم.

◀ التّفسير

وَ إِلٰى عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُودًا نُصب أخاهم بتقدير أرسلنا، كأنّه قال و أرسلنا الى عادٍ أخاهم و أنّما قلنا ذلك لأنّ الواو في قوله: **وَ إِلٰى عٰادٍ** للعطف فالآية معطوفة علىٰ قوله: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحًا إِلٰى قَوْمِهِ** فالتّقدير و لقد أرسَلنا نُوحاً و أرسلنا الى عاد أخاهم هوداً، لمّا ذكر اللّه تعالىٰ قصّة نوح الى آخرها شرع بذكر قصّة هود النّبي و قومه و أنّما قال أخاهم مع أنّ هود كان مؤمناً و قومه كانوا من الكفّار و لا يكون الكافر أخاً للمؤمن لأنّ المراد بالأخوّة في المقام الأخوّة في النسب لا في الدّين فحذف لدلالة الحال عليه **قٰالَ يٰا قَوْمِ اَعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ** أي قال هود النّبي لقومه أعبدُوا اللّه،

الّذي لا إلٰه إلاّ هو خالق السَّمٰوات و الأرض و ما بينهما من الموجودات، مالكم مِن إلهٍ غيره، أي ليس لكم من إلهٍ غيره تعالىٰ.

قال بعضهم كلمة، من، زائدة و التّقدير مالكم إلهٌ غيره، قرأ بعضهم، غيره بالجرّ بناءً على أنّه صفة على اللّفظ، و المشهور فيه الرّفع بناءً علىٰ أنّه صفة على المحّل ثمّ قال إن أنتم إلاّ مفترون، أي كاذبون في قولكم أنّ هذه الأصنام تستحقّ العبادة كيف وهي جمادات لا حسّ لها و لا إدراك و الإنسان هو الّذي صورّها و ركبّها فكيف يليق به أن يعبدها و يضع الجبهة علىٰ التّراب تعظيماً لها و يستفاد من هذه الآية و أمثالها أنّه من رسولٍ إلاّ و هو واجه قومه بهذا القول لأنّ شأنهم النّصيحة إلاّ أنها لا تنفع إلاّ بعد حسم المطامع و ما دام يتوهّم شئ منها لم تنجح و لم تنفع و لذلك قال نُوح **وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحىِ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ**[1].

يٰا قَوْمِ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذى فَطَرَنىِٓ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ

قال هُود لقومه بعد دعوتهم الى التّوحيد يا قوم لا أسألكم عليه علىٰ ما أدعوكم اليه أجراً ليس أجري إلاّ علىٰ الذّي فطرني و خلقني أفلا تعقلون فتعلمون أنّ ذلك مَحض النّصيحة خالصاً لوجه اللّه إذ لو كانت لغيره لطلبت عليه الأجر، و أنّما قال أفلا تعقلون لأنّهم عدلوا عن الإستدلال فأنّ من عدل عنه فهو بمنزلة من لا يعقل، و يحتمل أن يكون الوجه فيه هو عدم تفكّرهم في الأصنام الّتي هي جمادات و هم يعبدونها و لم يتّفكروا أنّ العامل كيف يعبد الجماد الّذي لا شعور له و كيف كان فالأمر واضح لا خفاء فيه.

وَ يٰا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ

١- هُود = ٣٤

أي قال لهم هُود أيضاً **يا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ** و أرجعوا عمّا تكونوا عليه من عبادة الأوثان و إنّما قدّم الإستغفار على التّوبة لأنّ طلب المغفرة هي الغرض الاصلي ثمّ تصل النّوبة الىٰ ما يتوصّل اليها و هو التّوبة من المعلوم أنّ الغرض و هو الّذي قد يعّبر عنه بالعِّلة إلغائية مقدّم في النّفس و ذلك لأنّ الحاجة اليه ثمّ السَّبب لأنّه يحتاج اليه من أجله هذا أن قلنا، ثمّ، للتراخي و أن قلنا أنّه بمعنى **الواو** كما في قوله تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها**(١) فالأمر اوضح.

إذ المعنى إستغفروا ربّكم و توبوا اليه فإذا فعلتم ذلك أي رجعتم من الكفر و الشِّرك الى الإيمان و التّوحيد بأن تركتم عبادة الأصنام وعبدتم اللّه الواحد الأحد **يُرْسِلِ ٱلسَّمٰآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰارًا** روي أنّهم أي قوم عاد كانوا أجدبوا فقال لهم أنّهم متى تابوا خُصبت بلادهم و أثمرت أشجارهم و أنزل عليهم الغيث الّذي يعيشون به و فيه إشعار بأنّ الإيمان باللّه موجب لنزول البركات وهو كذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرىٰ اٰمَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ**(٢).

و إذا كان الإيمان يوجب نزول البركات فالكفر يوجب منع البركات لأنّ الكفر مقابل للإيمان و هو أيضاً كذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْأَبْوٰابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّٰىٓ إِذٰا فَرِحُوا بِمٰآ أُوتُوٓا أَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَةً فَإِذٰا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دٰابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ**(٣).

و من المعلوم أنّ الفتح إذ اكان سبباً للعذاب فهو عذاب في الحقيقة و أن شئت قلت الإيمان يوجب فتح البركات و الكفر يوجب فتح العذاب:

١- الاعراف = ١٨٩
٢- الأعراف = ٩٦
٣- الأنعام = ٤٤ / ٤٥

قال اللّه تعالىٰ: **حَتّىٰ إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَديدٍ إِذا هُمْ فيهِ مُبْلِسُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فيهِ يَعْرُجُونَ**(٢).

و الحاصل أنّ الإيمان باللّه يوجب نزول بركاته في الدّنيا و الآخرة و الكفر بالعكس و أمّا قوله: **وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ** ففيه إشارة ايل نعمةٍ أخرىٰ و هي زيادة القوّة الجّسمانية علىٰ ما كانت.

أمّا قوله: **وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمينَ** أي و لا تعرضوا عنّي و عمّا أدعوكم اليه من ترك عبادة الأصنام و الإستغفار و التّوبة الىٰ اللّه الّذي خلقكم حال كونكم مجرمين أي مصرّين علىٰ إجرامكم و آثامكم و إنـمّا قصد هو إستمالتهم الى الإيمان و ترغيبهم فيه بكثرة الإمطار و نزول البركات و زيادة القوّة و ذلك لأنّ قوم عاد كانوا أصحاب زروعٍ و بساتين و عمارات حرّاصاً عليها أشدّ الحرص فكانوا أحوج شئ الى الماء و كانوا مدلين بما أوتوا من شدّة القوّة و البطش و البأس و النَّجدة متحرزين بها من العدّو مهيبين فى كلّ ناحية.

و قيل أراد القوّة في المال و قيل القوّة علىٰ النّكاح و قيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين و عقمت أرحام نسائهم ذكره صاحب الكشّاف.

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنينَ



البيّنة الحجّة أي أنّك تدّعي النبوّة و ما جئتنا بحجّةٍ دالّة على صدقك و إنمّا قالوا ذلك لأنّ المدّعي لابدّ له منها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم **البيّنة علىٰ المُدّعي واليمين علىٰ من أنكر** و من المعلوم أنّ البيّنة لإثبات المدّعي و بدونها لا يثبُت فكلّما

١- المؤمنون = ٧٧ ٢- الحَجر = ١٤

كان المدّعي أشرف و أفضل و أهمّ فإحتياجه الى البّينة أقوى و حيث أنّ الرّسالة من أهمّ الأمور فإحتياج المدّعي لها أقوىٰ و ألزم:

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْمِيزٰانَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اٰتَيْنٰا عِيسَى اَبْنَ مَرْيَمَ اَلْبَيِّنٰاتِ وَ أَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جٰآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نٰاقَةُ اَللّٰهِ لَكُمْ اٰيَةً**(٣) والأيات كثيرة في الباب جداً بل نقول ما بعث اللّه نبيّاً إلاّ و معه نبّيه والوجه فيه ظاهر فأنّ العقل يحكم بكذب المدّعي إذا لم تكن معه نبّيه و أن كان في الواقع صادقاً في دعواه و هذا ممّا لا كلام فيه فثبت و تحقّق أنّ طلب البّينة عم المدّعي حقّ لا إشكال فيه و إنمّا الكلام في قبولها و عدم قبولها فالمعاند لا يقبلها قطعاً لعناده و أكثر أمم الأنبياء كانوا من المعاندين و لذلك ترى في أكثر الموارد حملوا معجزات الأنبياء على السّحر و نسبوهم الى الجنون مع أنّ المنكرين في أكثر الموارد كان إنكارهم باللّسان دون القلب و قوم نُوح و هود و شعيب و غيرهم كانوا كذلك بل لم نجد رسولاً ما واجه الى هٰؤلاء المعاندين في دعوته و العناد داء معضل لا دواء له في الحقيقة ما دام حبّ الدّنيا في قلب الإنسان ولذلك قالوا: **وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِكِيٓ اٰلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِكَ وَ مٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** و قد ذكروا في وجه إنكار البيّنة وجوهاً:

أحدها: تقليد الأباء.

ثانيها: عدم التّأمُل فيها بعين الإنصاف.

ثالثها: وجود الشّبهة في صحّتها.

رابعها: إعتقادهم لأصول فاسدة تدعوهم الى إنكارها وغير ذلك من الأمور الباعثة علىٰ الجحد و الإنكار.

١- الحديد = ٢٥
٢- البقرة = ٢٥٣
٣- الأعراف = ٧٣

إِنْ نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ

إن، نافية أي لسنا نقول إلاّ إعتراك بعض آلِهتنا قوله: **ٱعْتَرَىٰكَ** مفعول نقول و المعنى لسنا نقول إلاّ قولنا، إعتراك بعض ألهتنا بسوء أي خبلك و مسَّك بجنون.

قال صاحب الكشّاف و ليس بعجبٍ من أولئك أن يسمّوا التّوبة و الإستغفار خبلاً و جنوناً و هم عاد أعلام الكفر و أوتاد الشّرك و أنّما العجب من قومٍ من المتّظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمّون التّائب من ذنوبه مجنُوناً و المنيبَ الىٰ ربّه مخبّلاً الخ.

أقول ما ذكره حقّ لا مرية فيه بل نحن نقول في زماننا هذا نجد كثيراً من المتظاهرين بالإسلام يسمّون المؤمن الّذي يصلّي و يصوم و يحجّ و هكذا مجنوناً و أعجب منه أنّهم يدّعون الإسلام الحقيقي و يسنبُون إسلام غيرهم الىٰ المجازي أو الخرافي و لم يعلمون أنّ حلال محمّد حلال الى يوم القيامة و حرامه كذلك نعوذ باللّه من هذه الأراجيف و العقائد الفاسدة.

قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَ ٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ قيل أنّه إخبار عمّا أجابهم به هُود بأن قال أشهد اللّه علىٰ أدائي اليكم و نصحي إيّاكم و على ردّكم ذلك علّي و تكذيبكم إيّاي و أشهدوا أنتم أيضاً أنّي بريءٌ ممّا تشركون و أنّما أشهدهم على ذلك و إن لم يكونوا أهل شهادة من حيث كانوا كفّاراً فسّاقاً إقامةً للحُجّة عليهم لا لتقوم الحجّة بهم فقيل هذا القول إعذاراً و إنذاراً و يجوز أن يريد بذلك إعلموا كما قال شهد اللّه بمعنىٰ علم اللّه انتهىٰ ما قاله في التّبيان.



أقول و الحقّ أنّ ذلك الكلام من هود و أنّما صدر منه في جوابهم حيث أنّهم نسبوا ما صدر من هود من دعاءهم الى اللّه و إفراده بالألوهيّة، الى الخبل و الجنون و أنّ ذلك ممّا إعتراه به بعض ألهتهم لكونه سبَّها و حرَّض على تركها و دعا الىٰ ترك عبادتها فجعلته يتكلّم مكافاة بما يتكلّم به المجانين كما قالت

قريش معلم مجنون أم يقولون به جنّة، و إعتراك، جملة محكيّة بقولهم (نقول) فهي في موضع المفعول و دلَّت على بلهٍ شديد و جهلٍ مفرط حيث إعتقدوا في حجارةٍ أنّها تنتصّر و تنتقم و قول هُود في جوابهم، إنّي أشهد اللّه الىٰ أخره حيث تبَّرأ من ألِهتهم و حرَّضهم كلّهم مع إنفراده وحده على كيده بما يشاءون و عدم تأخّره من أعظم الأيات علىٰ صدقه و ثقته بموعود ربّه من النّصر له و التّأييد و العصمة من أن ينالوه بمكروهٍ هذا و هم حريصون على قتله يرمونه عن قوسٍ واحدة و مثله قول نوح لقومه **ثُمَّ اَقْضُوٓا إِلَيَّ وَ لا تُـنْظِرُونِ**[١] وأكَّد براءته من ألهتهم و شركهم و وقفها بما جرت عليه عادة النّاس من توثيقهم الأمر بشهادة اللّه و شهادة العباد.

قال صاحب الكشّاف فأن قلت هلاّ قيل إنّي أشهد اللّه و أشهدكم.

قُلتُ لأنّ إشهاد اللّه علىٰ البراءة من الشِّرك إشهادٌ صحيح ثابت في معنى تثبيت التّوحيد و أمّا إشهادهم فما هو إلاّ تهاون بدينهم و دلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب فعدل به عن لفظ ما بينهما وجئ به علىٰ لفظ الأمر بالشّهادة انتهىٰ.

أقول ما ذكروه في معنى الكلام لا بأس به و يحتمل أن يكون قوله و أشهدوا، بمعنى و أعلموا و المعنى أنّي أشهد اللّه لأنّه عالم بما في قلبي و أنّي صادق في قولي و أشهدوا أي و أعلموا أنتم أنّي بريءٌ ممّا تشركون و على هذا فهو أشهد اللّه على صِدقه بما يقول و أعلم الكفّار بالبراءة من ألهتهم و اذا كان كذلك فقولهم: **إِنْ نَقُولُ إِلَّا اَعْتَرَيٰكَ بَعْضُ اٰلِهَتِنَا بِسُوٓءٍ** مجرّد التُّهمة و الكذب فأنّ من يقول أنّي بريءٌ ممّا تشركون و أشهد اللّه علىٰ ذلك و أعلم الكفّار بالبراءة عن ألهتهم، كيف يقال فيه ما يقال و كيف كان فقال هُود لهم.

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ

١- يونس = ٧١

أي إفعلوا ما شئتم و أعملوا قدرتكم و لا تمهلوني لحظة قيل في هذه الآية دلالة على صحّة النبوّة و أنّه كان نبيّاً من عند اللّه و رسولاً منه الى خلقه لأنّ القوم كانوا من أهل البأس و النّجدة و هود لم يكن معه إلاّ قليلاً ممّن أمن به من الضُّعفاء و الفقراء الّذين لا يقدرون على شئ فقوله للكفار (فكيدوني جميعاً و لا تتنظرون)، من أدّل الدّلائل على نبوّته و أنّه مؤيدٌ من عنداللّه الّذي هو على كلّ شئٍ قدير و ذلك لأنّه تعالى وعد رسله بالنّصر و الغلبة على أتباع الشّيطان:

قال اللّه تعالى: **إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا و الَّذينَ امَنُوا فِى الْحَيوةِ الدُّنْيا**(١).

قال اللّه تعالى: **إلّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْرًا عَزيزًا**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبينَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ لَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللّهَ لَقَوِىٌّ عَزيزٌ**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ مَا النَّصْرُ إلّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ إنَّ اللّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ**(٦).

و الأيات كثيرة و العقل أيضاً يحكُم بذلك لأنّ اللّه تعالى هو الّذي أرسل رسوله في كلّ عصرٍ و زمانٍ الى الخلق لأجل الهداية و الإرشاد و من المعلوم أنّ أعداءهم كانوا من أهل البأس و النّجدة و القوّة و الشّوكة.

و أمّا الّذين آمنوا بهم في بدو الأمر لم يكونوا إلاّ الفقراء و الضّعفاء الّذين كانوا فاقدين للمال و الجاه و غيرهما من أسباب القدرة و إذا كان الأمر على هذا المنوال فأن لم ينصر اللّه نبيّه فمن ينصره و الى هذا المعنى أُشير بقوله تعالىٰ: **وَ إنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ**(٧).

و محصّل الكلام هو أنّ النّصر بيد اللّه لا بيد غيره و هو الّذي قال: **وَ كانَ حَقًّا**



١- غافر = ٥١
٢- التّوبة = ٤٠
٣- الفتح = ٣
٤- الصّافات = ١١٦
٥- الحجّ = ٤٠
٦- الأنفال = ١٠
٧- آل عمران = ١٦٠

عَلَيْنا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ(١) و هذا هو الّذي دعاهم أي الأنبياء الىٰ أن يتّكلموا مع هؤلاء الكفّار عن موضع القدرة لا عن موضع الضّعف فأنّ من يتوكّل علىٰ اللّه فهو حسبه، و لا يحتاج الى غيره ألا ترى أنّ هود قال بعد ذلك: **إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللّٰهِ رَبّى وَ رَبِّكُمْ**.

و ليعلم أنّ هذا النّوع من الكلام أعني بـه التّكـلم مـع الأعـداء عـن موضع القدرة لم يكن مختصّاً بهود عليه السلام حيث قال فكيدوني جميعاً و لا تنظرون:

فقد قال نُوح قبله: **فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاۤءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ**(٢).

و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم: **فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ**(٣).

والكيد طلب الغبظ بالسِّر و هو الإحتيال بالسِّر، و الإنظار الإمهال.

إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللّٰهِ رَبّى وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دٰآبَّةٍ إِلّا هُوَ اٰخِذٌ بِناصِيَتِهآ إِنَّ رَبّى عَلٰى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

ذكر هود عليه السّلام في هذه الآية توّكله على اللّه معلماً أنّه ربّه و ربّـهم و منبّهاً على أنّه من حيث هو ربّكم يجب عليكم أن لا تعبدوا إلاّ أيّـاه و مـفوّضاً أمره اليه ثقّةً بحفظه و إجاز موعوده ثمّ وصف قدرة اللّه و عظيم ملكه من كون كلّ دابّةٍ في قبضته و مكله و تحت قهره و سلطانه فأنتم أيضاً من جملة أولئك المقهورين هكذا قيل في تفسير الآية.

و لتوضيح المعنىٰ نقول في الآية ثلاث مسائل:

الأولىٰ: قوله **إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللّٰهِ رَبّى وَ رَبِّكُمْ**.

الثّانية: قوله **ما مِنْ دٰآبَّةٍ إِلّا هُوَ اٰخِذٌ بِناصِيَتِهآ**.

الثّالثة: قوله **إِنَّ رَبّى عَلٰى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**.

١- الرّوم = ٤٧
٢- يونس = ٧١
٣- المرسلات = ٣٩

أمّا البحث في المسألة الأولىٰ:

فنقول التّوكُل مصدر قولك تَوّ كل يَتَوّكل مُتّوكلاً و هو بمعنى الإعتماد يقال توكلّت عليه بمعنى إعتمدته ثمّ أنّ هذا الإعتماد قد يكون لشخصٍ على شخصٍ آخر و يسّمىٰ بالتّوكيل و يسّمىٰ المعتمد عليه وكيلاً و المعتمد موكّلاً و هو معلوم و قد يكون الإعتماد على اللّه تعالى بمعنى أن يكون الإنسان معتمداً عليه في جميع شئونه و أموره و هذا هو الّذي أشير الى مدحه في الكتاب و السُّنة فالأيات الواردة في الكتاب ناظرةٌ اليه و سيأتي البحث فيه في موضعه بوجهٍ أبسط و الّذي نشير اليه في المقام بحسب الإجمال هو أنّ التّوحيد الواقعي يستلزم التَّوكل على اللّه كاملاً و ذلك لأنّ من عرف اللّه حقّ معرفته يعلم أنّه لا مؤّثر في الوجود إلاّ اللّه و ذلك لأنّه هو الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكمالّية و هو الّذي علىٰ كلّ شيءٍ قدير و هو اللّه الّذي بكل شيءٍ محيط و هو الّذي قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً و هو العالم بالسّرائر كما أنّه عالمٌ بالظّواهر و هو الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ و سبقت رحمته غضبه و بالجملة هو.

الّذي يحتاج الكلّ اليه و هو غنيٌّ عن الكلّ:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**[١].

أزِمــة الأُمـور طُـراً بَـيده والكُلّ مُستّمدةٌ من مَـدَدِه.

فإذا كان العبد عارفاً باللّه تعالى لا يعرف غيره لِعلمه بأنّ ماسواه كائناً ما كان و كائناً من كان محتاج اليه فالتَّوكل على المخلوق في الحقيقة توكلٌّ على السَّراب الّذي يحسبه الظمآن ماءً.

و أن شئت قلت هو من إعتماد الفقير و الضّعيف على الضّعيف و من المعلوم أنّه لا ينفع بل يضّر أحياناً و على قول الفلاسفة و العرفاء هو مِن ضمّ

١- فاطر = ١٥

المعدوم الى المعدوم لأنّهم يقولون لا موجود حقيقتاً إلاّ هو فأنّ الموجود الحقيقي هو الّذي يكون قائماً بذاته مستغنياً عن غيره في قوامه و وجوده منحصرٌ به تعالىٰ فأنّ ما سواه قائم به فهو القيّوم الّذي هو قائم بالذّات و غيره قائم به.

قال تعالىٰ: **اَللّٰهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ اَلْحَيُّ اَلْقَيُّومُ**(١) إذا عرفت هذا فنقول.

لا شكّ أنّ الأنبياء كانوا في رأس الموحّدين في كلّ زمانٍ و ذلك لأنّ المؤمنين الموحّدين في عصر كلّ نبّيٍ أخذوا التّوحيد من نبّيهم الّذي كان مبعوثاً اليهم فلا يكون المبعوث اليه أعرف باللّه من النّبي الّذي بعث ايه لقبح تقديم المفضول على الفاضل فأنّ المأموم إذا كان أعلم و أفضل من الإمام في توحيده و معرفته باللّه و مع ذلك كان مأموراً بإتّباعه لزم منه ما ذكرناه و هو غير معقول.

و إذا كان النّبي أعلم و أفضل و أعرف باللّه كما هو كذلك فهو بالتّوكل علىٰ اللّه أحرىٰ و أليق و لذلك ترى الأنبياء في جميع الأدوار و الأزمان كانوا متوكّلين علىٰ اللّه.

معتمدين عليه مفوّضين أمورهم اليه في جميع شئونهم و كان حقّاً عليهم أن لا يعتمدوا علىٰ غيره لعلمهم و معرفتهم بأنّ غيره تعالى لا يقدر علىٰ شئ و لذلك أمرهم اللّه بالتّوكل علىٰ اللّه و الإعراض عن غيره قال اللّه تعالىٰ.

قال اللّه تعالى: **فَإِذاٰ عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَوَكِّلِينَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ وَ كَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ لاٰ تُطِعِ اَلْكٰافِرِينَ وَ اَلْمُنٰافِقِينَ وَ دَعْ أَذيٰهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَلْحَيِّ اَلَّذِي لاٰ يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ**(٥).

١- البقره = ٢٥٥
٢- آل عمران = ١٥٩
٣- النّساء = ٨١
٤- الأحزاب = ٤٨
٥- الفرقان = ٥٨

قال اللّه تعالى: **وَ عَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**[١].

قال اللّه تعالى: **قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**[٢].

و الأيات الواردة في الباب كثيرة جدّاً و السّر فيه فيه هو أنّ اللّه خالق كلّ شيئ فلا محالة هو علىٰ كلّ شيئ وكيل و بما ذكرناه يظهر سِّر ما حكاه اللّه تعالىٰ عن هود النّبي حيث قال لقومه **إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَ رَبِّكُمْ** و إنّما أضاف الى قوله: **رَبِّى** قوله: **وَ رَبِّكُمْ** مع أنهّم كانوا كفّاراً للإشارة الىٰ أنّ التَّوكل على وظيفة العبد لرّبه الّذي خلقه وربّاه و أنتم أيضاً عباد اللّه و هو خلقكم و ربّاكم فلم تعبدون الأصنام الّتي لا حياة لها و لا إدراك فلو كنتم عرفتموه لم تتخّذوا معبوداً سواه.

المسئلة الثّانية: قوله: **مٰا مِنْ دٰآبَّةٍ إِلّٰا هُوَ اٰخِذٌ بِنٰاصِيَتِهٰآ** الدّابة تطلق علىٰ كلّ حيوانٍ يدُّب علىٰ الأرض و قوله هو آخذ بناصيتها، معناه أنّ اللّه الّذي هو ربّي و ربّكم قادر علىٰ التّصرف فيها أي تصرّف شاء و هو كناية عن قدرته تعالى و النّاصية في الأصل قصاص الشّعر والأخذ بها كناية عن القدرة عليها و التَّصرف فيها و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالىٰ خيث قال: **فَيُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِى وَ ٱلْأَقْدٰامِ**[٣].

و أنّما خصّت النّاصية بالذّكر لأنّ في جرّ الرّجل بناصيته إذلالٌ له و الحاصل أنّ إنكاركم التّوحيد و بقاءكم على الكفر لا ينفعكم بل يضرّكم لأنّكم لا تقدرون الفرار عن حكومته و الأصنام الّتي تعبدونها لا قدرة لها في دفع البليّات عنكم و اذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال فالعقل يحكم بالإيمان به تعالىٰ فانّ دفع الضّرر المحتمل واجب عقلاً فضلاً عن الضَّرر المقطوع لو كنتم تعقلون حقّ التَّعقل.

أمّا المسألة الثّالثة: و هي قوله: **إِنَّ رَبِّى عَلٰى صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ** فقال بعض المفسّرين معناه أنّ أمر ربّي في تدبير خلقه على صراطٍ مستقيمٍ لاٰ عِوَج فيه

١- المائدة = ٢٣ ٢- الزّمر = ٣٨

٣- الرّحمٰن = ٤١

إضطراب فهو يجري على سبيل الصَّواب لا يعدل الى اليمين و الشّمال و الفساد قال و الفائدة هنا أنّ ربّي و أن كان قادراً على التّصريف في كلّ شيءٍ فأنّه لا يفعل إلاّ العدل و لا يشاء إلاّ الخير انتهىٰ.

و قال الأخرون أيضاً كذلك مع تفاوتٍ يسير في الألفاظ، و الّذي يختلج بالبال مضافاً الى ما ذكروه في معناه هو أنّ الصّراط المستقيم و قد يقال له سراط بالسّين أيضاً هو الدّين الحقّ الّذي لا يقبل اللّه من العباد غيره و أنّما سمّي الدِّين صراطاً لأنّه يؤدّي من يسلكه الى الجنّة كما أنّ الصِّراط يؤدّي من يسلكه الى مقصده.

و قيل الصَّراط الطّريق المستهل و على التَّقديرين فالدِّين صراطٌ إمّا على التَّفسير الأوّل فواضح اذ لا شكّ أنّه يؤدّي من يسلكه الى الجنّة.

إمّا علىٰ الثّاني: فأنّه طريقٌ مستهل قال رسول اللّه بعثت الى الشّريعة السَّمحة السَّهلة.

و في عيُون الأخبار عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال: قال جعفر بن محمّد عليه السلام في اللّه ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ يقول أرشدنا الىٰ الطّريق المستقيم أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّي الىٰ محبّتك والمبلّغ دينك والمانع مِن أن نتَّبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بأراءنا فنهلك وصراطٌ مستقيمٌ دينٌ واضح انتهىٰ.

و عليه فمعنىٰ قوله: **إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** أي أنّه علىٰ دينٍ واضح و أن شئت قلت علىٰ صراطٍ واضح و هذا بخلاف ما تعبدونه من الأصنام التّي لا شعور لها و لا إدراك و ما كان كذلك كيف يكون علىٰ صراطٍ مستقيم و ما لَيس على صراطٍ مستقيم فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له فضعفً الطّالب و المطلوب و لا خسرانً أعظم منه والىٰ هذه الدّقيقة أشار بقوله:

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ

قرأ الجمهور، فأن تـوَّلوا أي تـتولّوا مـضارع، تـوَّلىٰ و التّـولي الذّهـاب الىٰ خـلاف جـهة الشّيء و هـو الإعـراض عـنه و عـليه فـالمعنى أن تـعرضوا عـمّا دعوتكم اليه من عبادة اللّه و إتّباع أمره فقد أبـلغتم مـا أرسـلت بـه اليكـم و لم جهداً في تبليغ رسالتي و ليس على الرّسول إلاّ البلاغ.

و قال بعضهم اللّفظ أعني به، توّلوا، على ظاهره و هو الماضي و يحتاج في الجواب الى إضمار قول و التّقدير فأن تـوّلوا و أعـرضوا عـمّا قـلت لهـم و لم يؤمنوا بك فقل لهم فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم، أي إنّي عملت بـوظيفتي و عهدي من تبليغ الرّسالة و كيف كان لا خفاء في معنى الكلام و هـو أنّ قـوم هُود أنكروا رسالته و لم يقبلوا دعوته و هو قد أدى وظيفته و بلَّغ رسالته **و مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ**.

قال اللّه تعالىٰ: **أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى**(٣).

و لمّا أعرضوا عمّا قـال هُـود و أنكـروا نـبوّته قـال: **وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ**

الإستخلاف جعل الثّاني بدل الأوّل يقوم مقامه فيما كان عليه الأوّل، فلمّا كـانوا قد كلّفوا فلم يجيبوا جعل الثّاني بدلاً منهم في التّكليف، و المعنىٰ أنّ هوداً قال لهم و يستخلف ربّي قوماً غيركم أي و يجعل اللّه تعالى بعدكم قوماً مقامكم و مكانكم.

قال اللّه تـعالىٰ: **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**(٤).

١- الأعراف = ٦٢ ٢- الأحقاف = ٢٣

٣- الأعراف = ٧٩ ٤- النُّور = ٥٥

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ**[٢].

و قوله: **وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا** فالظّاهر أنّ الضّمير في قوله: **وَ لَا تَضُرُّونَهُ** يرجع الىٰ الرّب و المعنىٰ لا تقدرون له على الضّر و بعبارةٍ أخرىٰ هذا الإستخلاف الّذي أنتم سببه و فيه هلاككم و إستخلاف قوم أخرين لا يضّر به تعالى شيئاً بل يضُّر بكم لأنّ فيه هلاككم و عذابكم في الدّنيا و الأخرة.

وقوله: **إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ** أي حافظ و المعنى أنّ ربّي حافظ لكلّ الأشياء و قيل حفيظ بمعنى محفوظ أي كلّ شئ عنده محفوظ لتنزّهه عن الغفلة و النّسيان.

فَعلىٰ الأوّل: معنى الكلام أنّ اللّه تعالىٰ يحفظني من أن تنالوني بسوء.

علىٰ الثّاني: معناه أنّ أعمالكم عنده محفوظة حتّىٰ تجازيكم عليها و علىٰ المعنيين فهو مختصّ به تعالىٰ و لا يوصف به غيره واقعاً قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لرسوله:

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَآ أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ هُوَ قُرْاٰنٌ مَجِيدٌ،فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ**[۵] أي مَحفُوظ.

وَ لَمَّا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا هُودًا وَ الَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ

أي لمّا جاء أمرنا بهلاك قوم عاد وذلك بعد تماميّة الحجّة عليهم نجّينا هوداً و من إتَّبعه من المؤمنين وما كان ذلك إلاّ برحمةٍ منّا و نجّيناهم من عذابٍ

١- الأنعام = ١٣٣
٢- الأعراف = ١٢٩
٣- الشّورىٰ = ۴٨
۴- البروج = ٢٢
۵- ق = ۴

غليظ أي عظيم الجثّة و الكثيفة قالوا أنّما وصف العذاب به لأنّه بمنزلته في الثِّقل علىٰ النّفس، فقوله: **بِرَحْمَةٍ** منّا يتعلق بقوله: **نَجَّيْنٰاهُمْ** أي كانت نجاتهم من العذاب بمجرّد رحمةٍ من اللّه لحقتهم لا بأعمالهم الصّالحة، أو يقال كنّي بالرّحمة عن أعمالهم الصّالحة التّي وفَّقهم اللّه لها برحمته، و يحتمل أن يتعلّق بأمنوا، أي أنّ إيمانهم باللّه و بتصديق رسوله أنّما هو برحمة اللّه تعالى إيّاهم اذ وفَّقهم لذلك و أمّا تكرار التَّنجية فيحتمل أن يكون سببه التّوكيد و يحتمل أن يكون سببه إختلاف متعلّقهما فأنّ العذاب الأوّل في الدّنيا و الثّاني، في الأخرة وهكذا التَّنجية و هو واضح.

ثمّ أشار اللّه تعالىٰ الىٰ علّة ذلك فقال:

وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا بِاٰيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ

تلك إشارةٍ الى ما تَقدَّم ذكره والمعنىٰ تلك القبيلة عادٌ و عليه فتلك مبتدأ و عادٌ خبره و تأنيث إسم الإشارة بإعتبار القبيلة و الحاصل أنّه تعالى علَّل عذاب قوم في الدّنيا و الأخرة بأمورٍ ثلاثة كلّ واحدٍ منها يكفي للعذاب فضلاً عن جميعها.

أحدها: إنكارهم أيات ربّهم و الأيات جمع أية و هي العلامة و هي تطلق علىٰ الأيات التَّشريعية و التّكوينية فالأيات التشّريعية هي أحكام اللّه تعالىٰ من التّوحيد و النبوّة و المعاد و ما يتفرّع علها من أحكام الدّين.

و أمّا الأيات التّكوينية فية عبارة عن الأيات الموجودة في عالم الوجود الدّالة على التّوحيد وفي رأسها وجود الأنبياء عليهم السّلام و المعجزات الّتي جرت على أيديهم بإذن اللّه و هي الأصل لأنّ إنكار الدّين و ما يتعلّق به فرعٌ على إنكار النّبي و معجزاته.

و محصّل الكلام هو أن قوم عاد جحدوا جميع أياته و لذلك قال تعالىٰ: **جَحَدُوا بِـاٰيٰاتِ رَبِّهِمْ**.

ثانيها: قوله: **وَ عَصَوْا رُسُلَهُ** و أنّما قال رُسله ولم يقل رسوله بصيغة المفرد مع أنّهم عصوا هوداً، إمّا لأنّ الرُّسل قد تقدَّمت عليهم بمثل ذلك و حكم الأمثال واحد.

و أمّا أنّ إنكار واحدٍ منهم بمنزلة إنكار الجميع فأنّ من أنكر هوداً انكر غيره أيضاً لو بعث اليه، و يحتمل أن يكون هود أرسل الى القوم من أرشدهم و و عظهم و نصحهم و أوعدهم من عذاب اللّه فأنكروا عليهم أيضاً و أنّما قال و عصوا رسله و لم يقل و أنكروا رسله لأنّ العصيان فرعٌ علىٰ الإنكار و مسببٌ عنه والذّي يختلج بالبال هو أنّ العصيان يتحقّق بالأعمال و العذاب يتفرّع عليها.

و أمّا الإنكار فهو من الأمور القلبيّة فرُبّ منكرٍ بقلبه لا بلسانه و عمله كأبي سفيان و معاوية و مغيرة و أمثالهم في الإسلام فأنّهم كانوا منكرين لنبوّة رسول اللّه بقلوبهم و نيّاتهم و لكن لم يتظّاهروا به بل كانوا متظاهرين بالإسلام فكانوا يصلّون و يصومون و يحجُّون و هكذا في ظاهر الأمر و يعبّر عنهم بالمنافق و لعلَّ هذا يكفي في رفع العذاب في الدّنيا.

و أمّا في الأخرة فهو بحاله و هذا بخلاف العاصي فأنّه يعمل أعمالاً منكرة قبيحة و اذا جمع العصيان و الإنكار معاً كالكفّار العاصين الفاسقين فالمُصيبة أعَظَم اذا عرفت هذا فنقول:

أنّ قوم عاد كانوا منكرين لنبوّة هُود و مع ذلك كانوا عاصين بأعمالهم مستهزئين بهود و من أمنوا معه و لذلك أهلكهم اللّه تعالىٰ في الدُّنيا و عذَّبهم في الأخرة.

ثالثها: قوله **وَ ٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** في أقوالهم و أفعالهم والعَنيد الطّاغي العاتي و الجبّار هو الّذي يجبر النّاس على ما يريد و قيل هو الّذي يَقتل على الغضب و يعاقب على المعصية.

و قيل الجبّار هو العظيم في نفسه المتكبّر على العباد وقوله: **وَ ٱتَّبَعُوٓا۟** ظاهر في العموم فيشمل جميع قوم عادٍ هكذا قيل و الحقّ أنّ الحكم دائماً بإعتبار الأعم و الأغلب فلا يلزم منه أن يكون جميعهم كذلك و كيف فقد إستفدنا من الآية أنّ اللّه أهلكهم لأنّهم كانوا مستحقّين له فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد كما أشار اليه بقوله:

وَ أُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ

أي أتبعهم اللّه في دار الدُّنيا لعنة بمعنى أنّه تعالى أخبر من بعدهم من الأنبياء و أممهم بإهلاكهم و لعنهم كما أخبر نبيّنا في القرأن بذلك و عرّفهم بأنّهم أبعدهم من رحمته و يوم القيامة، معطوف علىٰ الدُّنيا أي لعنهم و طردهم عن رحمة اللّه ليس منحصراً بالدّنيا بل هم كذلك يوم يقوم النّاس من قبورهم للجزاء والحساب.

وقوله: **أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ** ألا معناها التَّنبيه و هكذا في قوله ألاأ بعداً لعادٍ قوم هود، ففيه تنبيه علىٰ من كان مثل قوم عادٍ أو يكون كذلك بعدهم فحكم الأمثال واحد.



في تفسير علّي بن إبراهيم قال ثمّ حكى اللّه عزّ وجلّ خبر هود وهلاك قومه فقال:**وَ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا** الىٰ قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** قال أنّ عاداً كانت بلادهم في البادية من الشّقيق الى الأجض أربعة منازل و كان لهم زرعٌ و نخلٌ كثير و لهم أعمار طويلة و أجسام طويلة فعبدوا الأصنام فبعث اللّه اليهم هُوداً يدعوهم الىٰ الإسلام و خلع الأنداد فأبوا و لم يؤمنوا بهود و أذوه فكفّت

السّماء عنهم سبع سنين حتّىٰ قحطوا و كان هود زرّاعاً و كان يسقي الزّرع فجاء قوم الى بابه يريدونه فخرجت اليهم إمرأته شمطاء عوراء فقالت من أنتم فقالوا نحن من بلاد كذا و كذا أجدبت بلادنا فجئنا الى هود نسأله أن يدعوا اللّه حتّى تمطر و تخصب بلادنا فقالت لو أستجيب لهود لدعا لنفسه فقد إحترق زرعه لقلّة الماء قالوا فأين هو قالت هو في موضع كذا و كذا فجاءوا اليه فقالو يا نبيّ اللّه قد أجدبت بلادنا و لم تمطرنا فإسأل اللّه أن يخصب بلادنا فتّهيأ للصّلاة و صلّى و دعا لهم وقال لهم أرجعوا فقد أمطرتم و أخصبت بلادكم فقالوا يا نبيّ اللّه أنّا رأينا عجباً قال رأيتم فقالوا رأينا في منزلك إمرأة شمطاء عوراء قالت لنا من نتم و ما تريدون قلنا جئنا الىٰ هود ليدعوا اللّه فيمطر فقالت لو كان هود داعياً لدعا لنفسه فأنّ زرعه قد إحترق فقال هود تلك أهلي و أنا أدعو اللّه لها بطول البقاء فقالوا و كيف ذلك قال لأنّه تعالى ما خلق مؤمناً و إلاّ و له عدّوٌ يؤذيه و هي عدوّتي فلأن يكون عدّوي ممّن أملكه خير من أن يكون عدّوي ممّن يملكني فبقي هود في قومه يدعوهم الىٰ اللّه و ينهاهم عن عبادة الأصنام حتّى تخصب بلادهم و أنزل اللّه عليهم المطر و هو قوله عزّ وجلّ.

وَ يٰا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمٰآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلٰى قُوَّتِكُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ فقالوا كما حكى اللّه، يا هود ما جئتنا ببيّنة و ما نحن بتاركي ألهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين الخ فلّما لم يؤمنوا أرسل اللّه عليهم الرّيح الصَّرصر يعني الباردة:

قوله في سُورة القمر:**كَذَّبَتْ عٰادٌ فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ،إِنّٰآ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**(١).

و حكى اللّه فى سورة الحاقة: **وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِيَةٍ،سَخَّرَهٰا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيٰالٍ وَ ثَمٰانِيَةَ أَيّٰامٍ حُسُومًا**(٢).

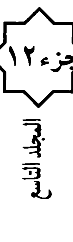
١- القمر = ١٨ / ١٩ ٢- الحاقة = ٦ / ٧

قال كان القَمر منحوساً بزحل سبع ليالٍ و ثمانية أيّام انتهىٰ.

و قال بعض أرباب السّير لمّا تمّ لهوداً أربعون سنة أوحى اللّه اليه أن أئت قومك فأدعهم الى عبادتي و توحيدي فأن أجابوك زدتهم قوّةً و أموالاً بينا هم مجتمعون اذ أتاهم هود فقال يا قوم أعبدوا الّه مالكم من إلٰهٍ غيره فقالوا يا هود لقد كنت عندنا ثقةً أميناً قال فأنّي رسول اللّه اليكم دعوا عبادة الأصنام فلمّا سمعوا ذلك بطشوا به و خنقوه و تركوه كالميّت فبقي يومه و ليلته مغشّياً عليه فلمّا أفاق قال يا ربّ أنّي قد عملت و قد ترىٰ ما فعل بي قومي فجاء جبرئيل فقال يا هود أنّ اللّه يأمرك أن لا تفتر عن دعاءهم و قد وعدك أن يلقي في قلوبهم الرُّعب فلا يقدرون على ضربك بعدها فأتاهم هود و قال لهم قد تجبَّرتم في الأرض و أكثرتم الفساد فقالوا يا هود أترك هذا القول فأنّا إن بطشنا بك الثّانية نسيت الأولىٰ فقال دعوا هذا و أرجعوا الى اللّه و توبوا اليه فلمّا رأىٰ ما لبسهم من الرُّعب علموا أنّهم لا يقدرون على ضربه الثّانية فإجتمعوا بقوّتهم فصاح بهم هود صيحةً فسقطوا لوجوههم ثمّ قال هود ياقوم قد تماديتم في الكفر كما تمادىٰ قوم نوح و خليق أن أدعوا عليكم كما دعى نوح علىٰ قومه فقالوا يا هود أنّ ألهة قوم نوح كانوا ضعفاء و أنّ ألهتنا أقوياء و قد رأيت شدّة أجسامنا و كان طول الرّجل منهم مائة و عشرين ذراعاً بذراعهم و عرضه ستّون ذراعاً و كان أحدهم يضرب الجبل الصّغير فيقطعه فمكث هود علىٰ هذا فيهم يدعوهم سبع مائة و ستّين سنة فلمّا أراد اللّه هلاكهم حقف الأحقاف حتّىٰ صارت أعظم من الجبال فقال لهم هود ياقوم ألا ترون هذه الرّمال كيف تحقّفت أنّي أخاف أن تكون مأمورة فإغتمّ هود لمّا رأىٰ من تكذيبهم و نادته الأحقاف قِرَّ يا هود عينا فأنّ لعاد منّا يوم سوء فلمّا سمع هود ذلك قال ياقوم إتّقوا اللّه و إعبدوه فأن لم تؤمنوا صارت هذه الأحقاف عليكم عذاباً و نقمةً فلمّا سمعوا ذلك أقبلوا على نقل الأحقاف فلا تزيد إلاّ كثرة فرجعوا صاغرين

فقال ياربّ قد بلّغت رسالاتك فلم يزدادوا إلاّ كفراً فأوحى اللّه اليه يا هود أنّي أمسك عنهم المطر فقال هود، ياقوم قد وعدني ربّي أن يهلككم و مرَّ صوته في الجبال و سمع الوحش صوته و السّباع و الطَّير فإجتمع كلّ جنسٍ منها يبكي و يقول يا هود أتهلكنا مع الهالكين فدعا هود ربّه تعالىٰ في أمرها فأوحى اللّه اليه أنّي لا أهلك من لم يعصي بذنب من عصاني تعالىٰ اللّه علّواً كبيراً انتهىٰ ماذَكره و فيه عبرةٌ للمعتبر.

■



وَ إِلىٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحًا قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قٰالُوا يٰا صٰالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينٰا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذٰا أَتَنْهٰينٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا يَعْبُدُ اٰبٰاؤُنٰا وَ إِنَّنٰا لَفِي شَكٍّ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قٰالَ يٰا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ اٰتٰانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمٰا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَ يٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَةُ اللّٰهِ لَكُمْ اٰيَةً فَذَرُوهٰا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّٰهِ وَ لٰا تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذٰابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِي دٰارِكُمْ ثَلٰاثَةَ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا صٰالِحًا وَ الَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا أَلٰا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلٰا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾

◄ اللّغة

ثَمُودَ بفتح الثّاء وضمّ الميم قيل هو عجميّ و قيل هو عربّي و ترك صرفه لكونه إسم قبيلة و هو مفعول من الثَّمد و هو الماء القليل الّذي لا مادّة له ومنه

قيل فلان مثمود اذا كثر عليه السّؤال حتّىٰ فقد مادّة ماله.

أَنْشَأَكُمْ النّشأ و النّشأة إحداث الشّيء و تربيته و الإنشاء إيجاد الشّيء وتَربيته وأكثر ذلك يقال في الحيوان.

مَرْجُوًّا الرّجاء تعلّق النّفس بمجيء الخير على جهة الظّن و مثله الأمل و الطّمع و المرجو إسم مفعول من رجا يَرجُو و المعنى قد كنّا نرجوا منك الخَير.

فَذَرُوهَا أي إتركُوها.

تَمَسُّوهَا المَّس و اللَّمس متقاربان و بعضهم فرّق بين المَّس و اللَّمس فقال المَّس يكون بين جمادين و اللَّمس لا يكون إلاّ بين حيَّين.

فَعَقَرُوهَا العقر قطع العضو الذّي له سراية في النّفس.

جَاثِمِينَ أي خامدين و الجثوم السُّقوط علىٰ الوجوه و قيل هو القعود علىٰ الرُّكب يقال جثم على القلب اذا ثقل عليه.

◄ الإعراب

غَيْرَ تَخْسِيرٍ قيل أنّ غير، هنا إستثناء في المعنى و هو مفعول ثانٍ لتزيدونني أي فما تزيدونني إلاّ تخسيراً **وَ أَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ** في حذف التّاء عن الفعل ثلاثة أوجه:

أحدها: الفصل بين الفعل والفاعل.

ثانيها: أنّ التّأنيث غير حقيقي.

الثّالث: أنّ الصَّيحة بمعنىٰ الصّياح فحمل على المعنى.

لِثَمُودَ يُقرأ بالتّنوين لأنّه مذّكر و هو حَيّ أو أبو القبيلة و بحذف التّنوين غير مصروف علىٰ أنّها القبيلة.

◄ التّفسير

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ قصّة نوح و هود حكىٰ قصّة صالح النّبي فقال: **وَ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا** أي و أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحاً، لأنّه عطف علىٰ ما

تقدّم و ثمود إسم قبيلة صالح على المشهور و صالح النّبي كان منهم قال تعالىٰ و الى ثمود أخاهم صالحاً، فالأخوة في النّسب لا في الدّين.

قَالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قد فسّرناه في قصّة هود و محصّله أنّ صالح دعاهم الى التّوحيد و ترك عبادة الأصنام كما دعىٰ هُود قومه به **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا** أي أعبدُوا خالقكم و موجدكم الّذي أنشأكم من الأرض أي أوجدكم و خلقكم فيها و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ خلق أدم من تراب:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلٰالَةٍ مِنْ طِينٍ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: فى حكاية عن إبليس: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**(٥).

و غيرها من الأيات و قد مرَّ الكلام في هذا الباب في سورة البقرة و الأعراف و سيأتي البحث في موضعه.

وأمّا قوله: **وَ ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا** أي جعلكم قادرين علىٰ عمارة الأرض و مكّنكم منها و عن المجاهد أنّه قال: **ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا** أي أعمركم بأن جعلها لكم طول أعماركم و منه العمري المسألة المعروفة في الفقه.

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ الفاء للتّفريع أي اذا كان اللّه تعالىٰ هو الّذي

١- طه = ٥٥
٢- فاطر = ١١
٣- المؤمنون = ١٢
٤- غافر = ٦٧
٥- ص = ٧٦

أوجدكم و خلقكم من تراب الأرض و إستعمركم فيها، فإستغفروه و توبوا اليه أي فإطلبوا المغفرة منه تعالى عمّا مضى و توبوا و أرجعوا اليه بالنّسبة الىٰ المستقبل و أنّما قدّم الإستغفار على التّوبة لأنّها لا تتحقّق بدونه واقعاً و يحتمل أن يكون المعنىٰ إستغفروا عن عبادة الأصنام و أرجعوا اليه تعالى بعبادتكم إيّاه و أنّما قال ذلك بعد قوله هو أنشأكم و إستعمركم فيها، لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً.

و من المعلوم عند جميع العقلاء أنّه لا نعمة أشرف و أفضل من نعمة الإيجاد و بعده لا نعمة أفضل من نعمة القدرة اذ بهما يحصل المطلوب و كلاهما من إعطاء اللّه و إفاضته و اذا كان كذلك يجب عقلاً أن يشكر المخلوق إيّاه و أساس الشُّكر معرفته و أنّه لا إله إلاّ هو و اذا تحقّقت المعرفة تحقّقت العبادة فأنّها فرعٌ عليها فأنّ اللّه تعالىٰ لم يخلق الخلق إلاّ ليعرفوه فاذا عرفوه عبدوه، و اذا عبدوه إستغنوا بطاعته عن طاعة ما سواه فمن عبد غيره تعالىٰ جهلاً يجب عليه الإستغفار أوّلاً و الرّجوع اليه بعده.

إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ فيه إشارة الىٰ أنّه قريبٌ من الخلق مجيبٌ دعوته، أمّا أنّه قريب فلأنّ العلّة أقرب الىٰ معلوله من كلّ شئٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدّاعِ إِذا دَعانِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لٰكِنْ لا تُبْصِرُونَ**(٣).

ففي قوله تعالى إشارة الى أصلين أصيلين القرب، و الإجابة و في قوله مجيبٌ مضافاً الىٰ المعنى إشارة الى نكتةٍ خفيّة و هي أنّ اللّه تعالى يجيب دعوة الدّاع و لا يجيب سائله و هو كذلك.

١- البقرة = ١٨٦ ٢- ق = ١٦

٣- الواقعة = ٨٥

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَآ

لمّا دعاهم صالح الى التّوحيد قالوا في جوابه يا صالح قد كنت فينا مرّجواً أي كنّا نرجوا منك الخير قبل هذا الكلام.

قال الزّمخشري أي كانت تلوح فيك مخايل الخير و إمارات الرُّشد فكنّا نرجوك لننتَّفع بك و تكون مشاوراً في الأمور و مسترشداً في التّدابير فلمّا نطقت بهذا القول إنقطع رجاءنا عنك و علمنا أن لا خير فيك.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال أي فاضلاً خيراً على جميعنا.

و قال الأخر كنّا نرجوا ن تدخل في دِيننا و توافقنا علىٰ ما نحن عليه إنتهىٰ.

أقُول المعنى واضح لا خفاء فيه والّذي يستفاد من هذا الكلام هو أنّ المتكلّم اذا تكلّم على طبق ميل المخاطب فهو علىٰ خيرٍ بزعمه و إلاّ فلاأصلٌ من أصول المحاورات العرفيّة عند العوام.

ألا ترىٰ أنّ العالم اذا وافق العوام في أقوالهم و أفعالهم يكون محبوباًعندهم و اذا خالفهم فيها فلا و هذا هو السِّر في مخالفة النّاس أنبياءهم في كلّ زمانٍ من الأزمنة لأنّهم لَم يتكلّموا على طبق أميالهم و أهواءهم بَل دعوهم الى خلاف أميالهم مع أنّهم كانوا قبل البعثة عند قومهم و أبناء زمانهم من أصدق النّاس و أحسنهم سيرةٍ و عملاً و لذلك قالوا: **أَتَنْهٰينَآ أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ اٰبَآؤُنَا** أي قالوا لصالح أتمنعنا و تنهانا عمّا كان عليه أباءنا من عبادة الأوثان و الأصنام و تدعونا الى الواحد الأحد و فيه إشارة الى أنّهم كانوا مقلّدين لأباءهم لا أنّهم إختاروا عبادة الأصنام من عند أنفسهم و هو دليل علىٰ جهلهم و غوايتهم فأنّ العاقل لا يقلّد غيره في أصول دينه و لذلك أجمع العلماء كافّة علىٰ حرمة التَّقليد في الأصول أعني بها التّوحيد و النبوّة و المعاد و الإمامة و أمّا الفرُوع فلا إشكال فيها.

وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ أي إنّا نقطع بصّحة قولك بل نحن من الشّاكين فيه و أنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا مقلّدين لأباءهم و من كان كذلك لا يقدر على التّعقل.

وقال بعض المفسّرين معنى الكلام أنّ الّذي أتيتنا به لا يوجب الشكّ فنحن في شكّ منه و الرَّيبة هي الشكّ إلاّ أن معها تهمة للمعنى ليست في نقيضه و أمّا الشكّ فقد يعتدل فيه النّقيضان.

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي وَ آتاني مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُني مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزيدُونَني غَيْرَ تَخْسيرٍ

قد مرّ نظير هذه الآية في قصّة نوح النّبي عليه السلام حيث قال: **قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي وَآتاني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**[١].

و قلنا هناك أنّ المراد بالبيّنة الحجّة و البرهان و الشّاهد أو المعجزة و المأل واحد فأنّ كلّ ما يثبت به الدّعوى يعبّر عنه بالبيّنة:

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْميزانَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ الْمُنيرِ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ جاءَهُمْ موسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ**[٤].

و الأيات كثيرة ثمّ أنّ البيّنة تختلف بحسب الزّمان و المكان و السّؤال و أمثال ذلک و لذلك ترى معجزة كلّ نبيٍّ في كلّ زمانٍ غيرها في زمانٍ أخر أو مكانٍ أخر أو قومٍ أخر و ذلك لأنّ النّبي المبعوث في كلّ زمانٍ لابدّ من أن يكون معجزته مطابقة لما يقتضيه زمانه و مكانه و هذا هو السّر في إختلاف البيّنات و إلاّ فالدَّعوة في جميعهم واحدة و هي التّوحيد و النبوّة و بالجملة الدِّين، و المرسل هو اللّه الواحد الأحد و لا شكّ أنّ المعجزة من كلّ نبيّ أنّما هي بأمره تعالىٰ و إذنه فلولا ما ذكرناه من الوجه لا معنى لإختلاف البيّنات.

١- هُود = ٢٨
٢- الحديد = ٢٥
٣- فاطر = ٢٥
٤- العنكبُوت = ٣٩

و المراد من الرّحمة في قوله و أتاني منه رحمةً أي من اللّه تعالىٰ و هي النبوّة و يحتمل أن يكون المراد بها القدرة على إظهار الحجّة و البرهان و على أيّ حالٍ تكون الرّحمة منه تعالىٰ.

و قوله: **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ** فمن إستفهاميّة، و المراد بالعصيان قيل هو متابعة هؤلاء القوم أي إن إتّبعتكم فيما أنتم عليه من الكفر و دعوتموني اليه من ترك الدَّعوة الى اللّه فمن ينصرني منه تعالى أي من ينجيني من سخطه و عذابه.

فَمٰا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ما نافية، و غير، بمعنى، إلاّ الإستثنائيّة و المعنى ليس تزيدونني بإحتجاجكم بعبادة أباءكم أي ما تزدادون إلاّ خساراً.

و قيل في معناه ان أجبتكم الى ما تدعونني اليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران.

و قيل معناه ما تزيدونني على ما أنا عندكم إلاّ خساراً و أحسن الأقوال هو القول الثّاني لأنّ قوله فما تزيدونني غير تخسيرٍ، ظاهر في أنّ ترك الدَّعوة أو متابعتكم فيما تدعونني اليه يوجب الضّرر و الخسران في حقّي فأنّي بعثت اليكم من قبل اللّه تعالى لأدعوكم الى التّوحيد و ترك عبادة الأصنام و مخالفة الأمر توجب الخسران في الدّنيا و الأخرة و اذا كان كذلك فأنّي أدعوكم الى ما أمرني اللّه به فأن لم تقبلوا قولى: **مٰا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ**.

ثمّ أشار صالح الى ما أتاه ربّه من البيّنة الدّالة على صدق دعواه وهي النّاقة الّتي كانت من أيات اللّه فقال كما حكى اللّه تعالى عنه.



وَ يٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ اٰيَةً فَذَرُوهٰا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذٰابٌ قَرِيبٌ

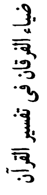
في الآية مسائل:

أحدها: قوله **هٰذِهِ نٰاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ**.

الثّانية: قوله **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ**.
الثّالثة: قوله **وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ**.
الرّابعة: قوله **فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ**.

أمّا المسألة الأُولىٰ: و هي قول صالح لقومه **هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ** أصلها نوقة علىٰ فَعَلَة بلاتّحريك لأنّها جمعت على نُوق مثل بدنة و بدن و قد جمعت في ايلقلّة علىٰ أنوق ثمّ إستثقلوا الضمّة علىٰ الواو فقدّموها فقالوا أونوق ثمّ عوّض الواء ياءً فقالوا، أنيق ثمّ جمعوها علىٰ أيانق و قد تجمع الناقّة على نياق كثمرة و ثمار و النّاقة من الإبل و قوله: **هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ** فهو من إضافة كلّ خلقٍ الىٰ خالقه تشريفاً له و إختصاصاً و تنَّوق في الأمر تأنَّق فيه و منه إعمل طعاماً و تنوّق فيه والتّنوق الحسن و الجودة و منه الحديث تنَّوقوا بأكفانكم فأنّكم تبعثون بها، أي إطلبوا حسنها وجودتها من قولهم تنوّق و تنَّيق في مطعمه و ملبسه أي تجوَّد و بالغ و الإسم النَّيقة بالكسر.

و أمّا الآية فهي العلامة و هي مشّتقة من التّأيي الّذي هو التّثبت و الإقامة على الشّيء فقوله: **هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً** معناه أنّ النّاقة أيةٌ وعَلامةٍ لكم من جهة دلالتها على وجود خالقها و قدرته لو كنتم تعقلون فكيف تعبدون الأصنام و هي ليست إلاّ جمادات، أو أنّها علامة دالّة على صدق نبوّتي و أنّي مبعوث من قبل اللّه الى الخلق و كيف كان لا شكّ أنّها من آيات اللّه بل هي من أكبر الآيات و أعظمها.



فقد روي القمي في تفسيره بأسناده الىٰ أبي جعفر عليه السلام أنّه قال أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ بعث صالحاً الىٰ ثمود و هو إبن ستّة عشرة سنة لا يجيبوه الى خيرٍ وكان لهم سبعون صنماً يعبدونها من دون اللّه فلمّا رأى ذلك منهم قال بعثت اليكم و أنا إبن ستة عشر وقد بلغتُ عشرين و مائة سنة و أنا أعرض عليكم أمرين إن شئتم فأسلوني مهما أردتم حتّىٰ أسأل إلهي فيجيبكم و أن شئتم سألت آلهتكم فأن



أجابتني خرجت عنكم فقالوا أنصفت فأمهلنا فأقبلوا يتعبّدون ثلاثة أيّام ويتمسّحون بالأنام ويذبحون لها وأخرجوها الىٰ سفح الجبل و أقبلوا يتضرّعون اليها فلمّا كان اليوم الثّالث قال لهم صالح قد طال هذا الأمر فقالوا له سل من شئت فدنا الىٰ أكبر صنمٍ لهم فقال ما إسمك فلم يجبه فقال لهم ماله لا يجيبني قالوا تنَّح عنه فتنحّىٰ عنه و أقبلوا اليه و وضعوا على رؤوسهم التّراب وضجّوا وقالوا فضحتنا و نكست رؤوسنا وقال صالح قد ذهب النّهار فقالوا سله فدنا مِنه فكلّمه فلم يجبه فبكوا و تضرَّعوا حتّىٰ فعلوا ذلك ثلاث مرّات فلم يجبهم بشئٍ فقالوا إنّ هذا لا يجيبك و لكنّا نسأل إلٰهك فقال لهم سلوا ما شئتم فقالوا سله أن يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء شقراء عشراء أي حاملة تضرب بمنكبها طرفي الجبلين و تلقي فصيلها من ساعتها و تدَّر لبنها فقال صالح أنّ الّذي سألتموني عندي عظيم و عند اللّه هَيّن فقام و صلّىٰ ركعتين ثمّ سجد و تضرّع الى اللّه فما رفع رأسه حتّىٰ تصدّع الجبل و سمعوا له دوّياً شديداً ففزعوا منه وكادوا أن يموتوا منه فطلع رأس النّاقة وهي تجتر فلّما خرجت ألقت فصيلها و درّت لبنها فبهتوا و قالوا قد علِمنا يا صالح أنّ ربّك أعزّ و أقدر من آلهتنا الّتي نعبدها.

أقُول هذا معنى قول صالح هذه ناقة اللّه لكم آية و قد ظهر أنّها من أكبر الأيات و أعظمها و إلاّ فكلّ شئٍ له تعالىٰ آية كما قيل.

وفي كلّ شئٍ له آيةٌ تَدُّل علىٰ أنّه واحدٌ.

أمّا المسألة الثّانية: و هي قوله: **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ** معناه إتركوها و لا تتعرّضوا لها تأكل في أرض اللّه ففيه إشارة الىٰ أن رزقها بيد خالقها و الأرض و ما فيها من الماء و الكلاء ليست لكم بل هي مملوكة لخالقها الّذيخلقها و النّاقة أيضاً خلقها اللّه فأتركوها في أرضه تأكل و تشرب، قال أبو

جعفرعليه السلام كان لقريتهم ماء و هي الحجر الّتي ذكرها اللّه تعالى في قوله: **وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ**(١) فقال لهم صالح لهذه النّاقة شربٌ أي أنّها تشرب ماءكم يوماً و تدّر لَبنها عليكم و هو قوله عزّ وجلّ: **لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**(٢) فكانت تشرب ماءهم يوماً و إذا كان من الغَد وقفت وسط قريتهم فلا يبقىٰ في القرية أحدٌ إلاّ حلب منها حاجته و كان الأمر على هذا المنوال برهةً من الزّمان.

أمّا المسألة الثّالثة: و هي قوله: **وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ** فأنّهم خالفوه وأرادوا عقرها و لم يعلموا أنّه يوجب غضب الرّب و نزول العذاب كما أوعدهم صالح به فهمّوا بقتلها و كانت في قريتهم إمرأة جميلة يقال لها صدوف ذات مالٍ من إبلٍ و بقرٍ و غنمٍ و كانت أشدّ النّاس عداوةً لصالح فدعت رجلاً من ثمود يقال له مصدع بن مهرج و جعلت له نفسها علىٰ أن يعقر النّاقة و إمرأة أخرىٰ يقال لها عنيزة دعت قدار بن سالف و كان أحمر أزرق قصيراً و كان ولد زنا و لم يكن لسالف الّذي يدعى اليه و لكنّه ولد على فراشه و قالت أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر النّاقة و كان قدار عزيزاً منيعاً في قومه فأنطلق قدار بن سالف و مصدع فأستغويا غواة ثمود فأتبعهما سبعة نفر و أجمعوا على عقر النّاقة قالوا لمّا ولد قدار و كبر جلس مع أناسٍ يصيبون من الشّراب فأردوا ماءً يمزجون به شرابهم و كان ذلك اليوم شرب ناقة فوجدوا الماء قد شربته النّاقة فإشتّد ذلك عليهم فقال قدار هل لكم في أن أعقرها لكم قالوا نعم.

و قيل كان سبب عقرهم النّاقة أنّ إمرأة يقال لها ملكاً قد ملكت ثمود فلمّا أقبل النّاس على صالح حسدته فقالت لإمرأةٍ يقال لها قطام و كانت معشوقة قدار بن سالف، و لإمرأة أخرى يقال لها قبال و كانت معشوقة مصدع و كان قدار و مصدع يجتمعان معهما كا ليلةٍ و يشربون الخمر فقالت لهما ملكاء أن أتاكما اللّيلة قدار و مصدع فلا تطيعاهما و قولا لهما أنّ الملكة حزينة لأجل

١- الحجر = ٨٠ ٢- الشعراء = ١٥٥

النّاقة و صالح و لا نطيعكما حتّى تعقرا النّاقة فلمّا أتياهما قالتا لهما هذه المقالة فقالا نحن نكون من وراء عقرها فأنطلق قدار و مصدع و أصحابهما السّبعة فرصدوا النّاقة حين رجعت عن الماء و قد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها و كمن لها مصدع في أصلٍ أخرى فمرَّت على مصدع فرماها بسهمٍ فأنتظم به عضلة ساقها و خرجت عنيزة و أمرت إبنتها و كانت من أحسن النّاس فأستقرّت لقدار ثمّ زمرَّته فشدّ علىٰ النّاقة بالسّيف فكشف عرقوبها فخرّت و رغت رغاةً واحدة تحذَّر سقبٰها ثمّ طعن في لبتّها فنحرها و خرج أهل البلدة و أقتسموا لحمها و طبخوه فلمّا رأىٰ الفصيل ما فعل بأمّه ولّى هارباً حتّى صعد جبلاً ثمّ رغا رغاءً تقطع منه قلوب القوم و أقبل صالح فخرجوا يعتذرون اليه و قالوا أنّما عقرها فلان و فلان و لا ذنب لنا فقال صالح أنظروا هل تدركون فصيلها فأن أدركتموه فعسىٰ أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه بالجبل فلم يجدوه و كانوا عقروا النّاقة ليلة الأربعاء فقال لهم صالح تمتَّعوا الآية وسيجئ الكلام فيها.

أمّا المسألة الرّابعة: فقوله: **فَيَأْخُذَكُمْ عَذاٰبٌ قَرِيبٌ** و قد أشار الىٰ هذا العذاب بقوله:

فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِي داٰرِكُمْ ثَلاٰثَةَ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ

يعني قال لهم صالح بعد عقرهم النّاقة تمتَّعوا في داركم أي في محلّتكم في الدّنيا ثلاثة أيّام فأنّ العذاب نازل بكم ثمّ قال لهم يا قوم أنّكم تصبحون غداً و وجوهكم مصفّرة و اليوم الثّاني تصبحون و وجوهكم محمّرة و اليوم الثّالث وجوهكم مُسوّدة فلمّا كان أوّل يومٍ أصبحوا و وجوههم مصفّرة فقالوا جاءكم ما قال صالح و لمّا كان اليوم الثّاني إحمرّت وجوههم و في اليوم الثّالث إسودّت وجوههم فلمّا كان نصف اللّيل أتاهم جبرائيل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم و كانوا قد تحنّطوا و

تكفّنوا و علموا أنّ العذاب نازل بهم فماتوا أجمعين في طرفة عين كبيرهم و صغيرهم فلم يبق اللّه منهم ثاغية و لا راغية و لا شيئاً يتنفّس إلاّ هلكها فأصبحوا في ديارهم موتى ثمّ أرسل اللّه عليهم الصّيحة مع النّار من السّماء فأحرقتهم أجمعين و هذا معنى قوله: **ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** نعوذ باللّه من غضب الجبّار و الى هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِي دٰارِكُمْ ثَلاٰثَةَ أَيّٰامٍ** الخ.

فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا صٰالِحًا وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ

أي فلّما أردنا أن نهلكهم نجيّنا صالحاً و من آمن معه مِن العذاب برحمةٍ منّا أي أنّ رحمتنا شملتهم لإيمانهم و عدم إستحقاقهم للعذاب أنّ ربّك هو القوّي أي القادر و العزيز أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحدٌ علىٰ منعه يقال عزَّ علي الشّئ إذا إمتنع بقلبه إذا عرفت هذا فلا بأس بالإشارة الىٰ ما نَقله المجلسي قدس سره في البحار.

قال روي الثّعلبي بأسناده مرفوعاً عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم قال صلى الله عليه و آله و سلم: يا علّي أتدري من أشقىٰ الأوّلين قال قلت اللّه و رسوله أعلم قال صلى الله عليه و آله و سلم: عاقر النّاقة ثمّ قال أتدري من أشقىٰ الأخرين قال قلت اللّه ورسوله أعلم قال صلى الله عليه و آله و سلم قاتلك.

و في روايةٍ أخرى قال أشقىٰ الأخرين من يخضب هذه من هذه و أشار الى لحيته و رأسه انتهىٰ.

أقول و في هذه القصص الّتي أخبر اللّه تعالى بها في كتابه عبرة لمن إعتبر بها و موعظةٌ لِمن إتّعَظ بها و ليس ذلك إلاّ لمن كان له قلب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: النّاس نيام إذا ماتوا إنتبهوا نعوذ باللّه منه.

و الى العذاب النّازل عليهم أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

وَ أَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ

و قد ظهر المعنىٰ ممّا ذكرناه وله الحَمد.

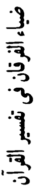
كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰآ أَلٰآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْدًا لِثَمُودَ.

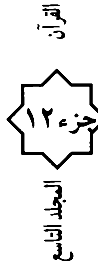
أي كأن لم يقيموا فيها لإنقطاع آثارهم بالهلاك و ما بقىٰ من أخبارهم الدّالة علىٰ الخِزي الّذي نزل بهم يقال غنى بالمكان إذا قام به قال الشّاعر:

كأن لم يكن بين الحجون الىٰ الصّفا　　أنيسٌ ولم يسمر بمكّة سامرُ.

و حاصل معنىٰ الآية كأنّ ثمود لم تكن في الدّنيا إذ لم يبق إلاّ اللّعنة في الدّنيا و العذاب في الدّنيا و الآخرة و ذلك هو الخسران المبين الّذي لا خسران فوقه.

■





وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰآ إِبْراٰهِيمَ بِالْبُشْرٰى قٰالُوا سَلاٰمًا قٰالَ سَلاٰمٌ فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمّٰا رَاٰ آ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إِنّٰآ أُرْسِلْنٰآ إِلٰى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَ ٱمْرَأَتُهُ قٰآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰآءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قٰالَتْ يٰا وَيْلَتىٰٓ ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قٰالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ رَحْمَتُ ٱللّٰهِ وَ بَرَكٰاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمّٰا ذَهَبَ عَنْ إِبْراٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَ جٰآءَتْهُ ٱلْبُشْرٰى يُجٰادِلُنٰا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْراٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّٰاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يٰآ إِبْراٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰآ إِنَّهُ قَدْ جٰآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ اٰتِيهِمْ عَذٰابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قٰالَ هٰذٰا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئٰاتِ قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰٓؤُلآٰءِ بَنٰاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قٰالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ اٰوِيٓ إِلٰى رُكْنٍ



شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قالُوا يا لُوطُ إِنّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

◀ اللّغة

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ العجل بكسر العين و سكون الجيم هو ولد البقرة يسمّىٰ بذلك بتعجيلٌ أمره بقرب ميلاده و يقال فيه عجول و جمعه عجاجيل و الحنيذ بفتح الحاء و كسر النّون و سكون الياء والذّال، المشوّي و معناه محنوذ، فجاء فعيل بمعنى مفعول كطبيخ و مطبوخ و قتيل و مقتول.

و قال في المفردات، حنيذ، مشّويٌ بين حجرين و أنما يفعل ذلك لتَّعبب عنه اللّزوجة الّتي فيه.

أَوْجَسَ أي أضمر.

يا وَيْلَتىٰ يجوز أن يكون ألف ندبة و يحتمل أن يكون للإضافة إنفلبت من الياء و نظير ذلك قول العرب يا للدّواهي.

الرَّوْعُ الإفزاع و الخوف.

أَوّاهٌ الأوّاه الرّحيم و قيل الرّجاع و قيل كثير الدّعاء.

مُنِيبٌ المنيب هو الرّاجع الى الطّاعة و لذلك يقال التّوبة الإنابة لأنّها رجوع الىٰ حال الطّاعة.

سيٓءَ بِهِمْ أي ساءه مجيئهم و أصله سويْ بهم فنقلت حركة الواو الیٰ السّين وقلبت همزة.

عَصِيبٌ أي شديد في الشّر.

يُهْرَعُونَ أي يسرعون. قال الكسائي الإهراع الإسراع مع رعدة.

اٰويٓ أي ألجأ.

سِجّيلٍ مَنْضُودٍ السِّجيل بكسر السّين والجيم المشدّدة الشدّيد الكثير مَنْضُودٍ أي متتابع، قال قتادة نضد بعضها فوق بعضٍ و قال عكرمة أي مصفوف و قيل مرصوص و المعنیٰ متقارب.

مُسَوَّمَةً من السّيما و هي العلامة.

◀ الإعراب

بِالْبُشْرٰى في موضع الحال من الرُّسل قٰالُوا سَلاٰمًا في نصبه وجهان:

أحدهما: هو مفعول به علی المعنی كأنّه قال ذكروا سلاماً.

الثّانی: مصدر أسلموا سلاماً سلامٌ خبر مبتدأ محذُوف أي أمري سلامٌ أو جوابي أو قولي و قيل هو مبتدأ و الخبر محذوف أي سلامٌ عليكم.

أَنْ جٰآءَ في موضعه وجوه:

أحدها: جَرّ تقديره عن أن جاء لأنّ، لبث بمعنی تأخّر.

الثّانی: نصب و فيه وجهان:

أحدهما: أنّه لمّا حذف حرف الجرّ وصل الفعل بنفسه.

الثّانی: هو محمول علی المعنی أي لم يترك الإتيان بعجلٍ.

الثّالث: رفع و فيه أيضاً وجهان:

أحدهما: فاعل لبث أي فما أبطأ مجيئه.

الثّانی: أنّ، ما، بمعنی الّذي و هو مبتدأ و أن جاء، خبره.

وَ ٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ الجملة حال من ضمير الفاعل في أرسلنا فَضَحِكَتْ بكسر الحاء و قرئ بفتحها و المعنى، حاضت وَ مِنْ وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ بالرّفع على الإبتداء و ما قبله الخَبر هَذَا بَعْلِي مبتدأ و خبر شَيْخًا حال من بعلي أَهْلَ ٱلْبَيْتِ تقديره يا أهل البَيت أو يكون منصوباً على التّعظيم ولتخصيص أي أعني وَ جَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ معطوف على ذهب و يجوز أن يكون حالاً من إبراهيم ءَاتِيهِمْ هو خبر، أن، و عذابٌ، مرفوع به و قيل، عذاب، مبتدأ، و آتيهم، خبر مُقدّم سِيٓءَ بِهِمْ القائم مقام الفاعل ضمير لوط و ذَرْعًا تمييز و يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حال هَٰٓؤُلَآءِ مبتدأ و بَنَاتِي عطف بيان أو بدل و هُنَّ فَصل و أَطْهَرُ الخبر مَا نُرِيدُ ما، بمعنى، الّذي و عليه فموضعها النَّصب، بتعلم و قيل أنّها إستفهامية في موضع نصب بنريد أَوْ ءَاوِيٓ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون في موضع رفع خبر أنّ على المعنى تقديره، أو أنّي آوِي و بِكُمْ حال من قوّة و ليس معمولاً لها لأنّها مصدر إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ بالرّفع على أنّه بدل من أحد، و بالنَّصب على أنه إستثناء من أحد أو من أهل جَعَلْنَا عَالِيَهَا مفعول أوّل و سَافِلَهَا ثان مِنْ سِجِّيلٍ صفة لحجارة و مَنْضُودٍ نعتٌ لسجيّل و مُسَوَّمَةً نعتٌ لحجارة و عِنْدَ معمول مسوّمة أو نعتٌ لها بِبَعِيدٍ نعت، لكان محذوف و يجوز أن يكون خبر، هي، و لم، تؤنث لأنّ العقوبة و العقاب بمعنى أي العقاب بعيداً من الظّالمين.

◀ التّفسير

وَ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ

لمّا ذكر اللّه تعالى لنبيّه قصّة نوح و هود و صالح أردفها بقصّة إبراهيم و لوط النّبي و أمّا تفصيل قصّة إبراهيم فسيجئ في المستقبل إن شاء اللّه تعالى و المهم هاهنا هو قصّة لوط و هو لُوط بن هاران بن تارخ إبن أخي إبراهيم الخليل و قيل أنّه إبن خالة إبراهيم و كانت سارة إمرأة إبراهيم أخت لوط و قيل هو إبن

عمّ إبراهيم و قيل إبن خاله **وَ لَقَدْ جٰآءَتْ رُسُلُنٰآ إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرٰى** قيل هم جبرئيل و ميكائيل وإسرافيل عليهم السّلام قاله إبن عبّاس.

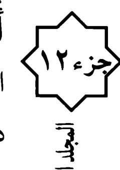
وقال الضّحاك كانوا تسعة و قال السّدي أحد عشر ملكاً علىٰ صورة الغلمان الحسان الوجوه ذوو و ضاءة و جمالٍ بارعٍ، بالبشرى، أي بالولد و قيل بـإهلاك قوم لوط و قيل بشّروه بأنّهم رسل اللّه و أنّه لا خوف عـليه، **قٰالُوا سَلاٰمًا** أي قال الرسّل سلاماً، فقال إبراهيم في جوابهم (سَـلاٰمٌ) أي سـلام عـليكم، **فَـمٰا لَبِثَ** أي فما لبث إبراهيم، ما، نافية و اللّبث التَّوقف **أَنْ جٰآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** قالوا أَن بمعنى حتّىٰ أي ما لبث إبراهيم و ما توّقف حتّىٰ جاءهم بـعجلٍ و هـو ولد البقرة، حنيذ، أي مشّوي و قيل هو المشّوي بحّر الحـجارة مـن غـير أن تـمسّه النّار و في قوله فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ.

إشارةً الى عادة إبراهيم في إكرام الأضياف و تقديم الطَّعام اليهم و أنّما قـدَّم الطّعام اليهم و هم ملائكة لأنّه رآهم في صورة البشر فظنّهم أضيافاً.

و قيل أنّ الرسّـل إسـتضافوه و إلاّ لم يـخف عـليه أنّ المـلائكة لا يأكـلون يشربون.

فَلَمّٰا رَءٰآ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

أي فلّما رأى إبراهيم أيـدي الرسّـل لا تـصل الى العـجل المشّـوي أي رأى أنّهم لا يأكلون الغذاء، نكرهم، أي أنكرهم و(و أوجس منهم خيفة) أي أضمر في قلبه الخوف و الوحشة من الرسّل فلمّا رأووا ذلك منه **قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إِنّٰآ أُرْسِلْنٰآ إِلٰى قَوْمِ لُوطٍ** أي قالوا لإبراهيم لا تخف منّا إنّا أرسلنا من قبل اللّه الى قوم لوط بالعذاب و الإهلاك و قيل أنّهم دعوا اللّه فأحيى العجل الّذي كـان ذبحه إبراهيم و شوّاه، فظهر و رعى فعلم حينئذٍ أنّهم رسل اللّه تعالى:



وَ ٱمْرَأَتُهُ قٰآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰآءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ

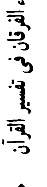
أي و إمرأة إبراهيم كانت قائمة هناك و هي سارة بنت هارون بن ناخور وهي إبنة عمّه كانت قائمة لخدمة الأضياف و كانت عجوزاً و خدمة الضّيفان ممّا يعد من مكارم الأخلاق و قيل كانت سارة قائمة وراء السّتر تسمع محاورتهم و قيل كانت قائمة تصّلي، و قيل معناه قائمة عن الولد **فَضَحِكَتْ** أي حاضت و عليه إتّفاق أكثر المفسّرين و قيل هو الضّحك المعروف و هو مجاز يعبّر به عن طلاقة الوجه و سروره بنجاة أخيها، لوط، و هلاك قومه كما يقال أتيت على روضةٍ تضحك أي مشرقة، و قيل هو حقيقة.

و روي عن إبن عبّاس أنّه قال ضحكت أي حاضت من شدّة خوف إبراهيم.

و قال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط و قرب العذاب منهم و قيل ضحكت من البشارة بإسحاق وهي عجوز و الأقوال كثيرة **فَبَشَّرْنٰاهٰا** أي فبشّرنا إمرأة إبراهيم بإسحاق و بأنّ إسحاق سيلد يعقوب، و إسناد الضّمير الى اللّه مع أنّ المبشّرين كانوا رسل اللّه من الملائكة لأنّ البشارة منهم كانت بأمر اللّه تعالى و أنّما خصّت سارة بالبشارة دون إبراهيم لأنّ المرأة اعجل فرحاً بالولد و لأنّ إبراهيم قد بشّروه و أمنوه من خوفه فأتبعوا بشارته ببشارتها.

و قيل في وجه الإختصاص بها أنّه لم يكن لها ولد و أمّا إبراهيم فكان له ولد و هو إسماعيل من هاجر و قيل أنّ الوراء ولد الولد.

و به قال الشّعبي و أبو عبيدة و هو قريب من معنى الظّرف الّذي ذهب اليه المشهور في، وراء، على أيّ حالٍ فلمّا بشروها به.



قٰالَتْ يٰا وَيْلَتىٰ ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ

أي قالت سارة بعد البشارة يا ويلتى، الظّاهر أنّ الألف في ياويلتىٰ بدل من ياء الأضافة نحو يا لهفا و يا عجبا فأنّ الأصل فيهما يا لهفي ويا عجبي و هكذا، يا ويلتى و هذه كلمة تجري على أفواه النّساء إذا طرء عليهنّ ما يعجبن منه

والهَمزة في قوله: **ءَأَلِدُ** للإستفهام الإنكاري و التَّعجب و قولها: **وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذا بَعْلِي شَيْخًا** فالوجه فيه أنّ سارة كانت حين البشارة بالولد بنت تسع وتسعين سنة و إبراهيم إبن مائة و قيل مائة و عشرون و لهذا قالت **إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** لأنّه على خلاف العادة فأنّ الولد بين عجوزين شيخين شيءٌ يتَّعجب منه.

قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ

أي قال الرسّل لسارة أتعجبين من أمر اللّه و الإستفهام للإنكار أي لا عجب من أمر اللّه و ذلك لأنّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير فلو لم يقدر على إعمال القدرة على خلاف العادة فهو ضعيف و المفروض خلافه و لمّا كانت البشارة بالولد منهما على خلاف العادة بل هي شبيهةٌ بالمعجزة و هي لا توجد إلاّ في موارد خاصّة عللّوا البشارة بالولد بقولهم رحمة اللّه و بركاته عليكم أهل البيت، و فيه دلالة على عظم إبراهيم و أنّه كان من المقرّبين المشمولين لرحمته الخاصّة و ذلك لأنّ للّه رحمتين، رحمة عامّة تشمل كلّ الموجودات و هي المشار اليها بقوله تعالى: سبقت رحمتي غضبى و رحمةٌ خاصّة و هي لا تكون إلاّ للمقرّبين من عباده الصّالحين ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء و لذلك ترى أدعيتهم مستجابة و حوائجهم مقضيّة وليس ذلك لغيرهم و منها النّبوة و الإمامة و لذلك قال عليكم أهل البيت و إعطاء الولد لهما في سنّ الكهولة من هذا القبيل.

قال الجبائي الآية دلّت على أنّ زوجة الرّجل تكون من أهل بيته و أجابوا عنه بأنّ سارة لمّا كانت بنت عمّه جعلت من أهل بيته و هذا لا يدلّ على أنّ كلّ زوجةٍ من أهل بيت الرّجل.

و نحن نقول ما أجابوا عنه لا يكون مرضيّاً صحيحاً إذ لو كانت بنت العمّ من أهل البيت للزم أن يكون إبن العمّ و العمّ و غيرهما أيضاً منه و ليس كذلك بل

الحقّ في الجواب هو أنّ سارة كانت سيّدة نساء زمانها و ليست كسائر الأزواج فلا يقاس بها أحد في زمانها من حيث العبوديّة و الإخلاص و المعرفة باللّه و لأجل هذا صارت من أهل البيت و أمّا قوله: **إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** فالضّمير راجع الى اللّه و معناه أنّ اللّه تعالى حميد أي مستحمدٌ الى عباده مجيدٌ، أي كريمٌ، و قيل حميدٌ أي محمودٌ و قيل حامدٌ قاله الرّاغب في المفردات و المجيد معناه يجري السّعة في بذل الفضل المختّص به و قيل في معناه، سعة الفيض و كثرة الجود و هما من أوصاف اللّه تعالى حقّاً.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَ جٰاءَتْهُ ٱلْبُشْرىٰ يُجٰادِلُنٰا فِي قَوْمِ لُوطٍ

الرَّوع بفتح الرّاء الخيفة الّتي كان إبراهيم أوجسها في نفسه حين نكر أضيافه و المعنى لمّا إطمّأن قلبه بعلمه أنّهم ملائكة اللّه و جاءته البشرى يعني تبشره بالولد أو بأنّ المراد بمجيئهم غيره و جواب، لمّا، محذوف كما حذف في قوله: فلمّا ذهبوا به، و تقديره، إجترأ على الخطاب إذ فطن للمجادلة أو قال كيت و كيت و دلّ على ذلك الجملة المستأنفة و هي قوله: **يُجٰادِلُنٰا** الجواب يجادلنا وضع المضارع موضع الماضي أي جادلنا و جاز ذلك لوضوح المعنى و قال بعضهم، يجادلنا حال من إبراهيم و جاءته حال أيضاً و جواب، لمّا محذوف و تقديره قلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا و الحقّ أنّ المحذوف، جعل و تقدير الكلام جعل يجادلنا في قوم لوط، و إختلفوا في قوله: **يُجٰادِلُنٰا** فقال قوم يجادل رسلنا من الملائكة و قال قوم يسألنا في قوم لوط و المعنى أنّه سأل اللّه و أمّا ما جادل به إبراهيم فقيل أنّه جادل الملائكة بأن قال لهم أنّ فيها لوطاً كيف تهلكونهم فقالت له الملائكة **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهٰا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ**[1] وقال بعضهم أنّه سألهم أتعذّبون خمسين من المؤمنين أن كانوا قالوا، لا، ثمّ نزل الى عشرة فقالوا، لا.

١- العنكبوت = ٣٢

ثالث الأقوال: أنّه جادلهم ليعلم بأيّ شيءٍ إستحقّوا عذاب الإستيصال و هل ذلك واقع بهم لا محالة أم لا على سبيل الإخافة ليرجعوا الى الطاعة قالوا ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان قوم لوطٍ و نجاتهم و كان في القرية أربعة آلاف ألف إنسان.

إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّٰاهٌ مُنِيبٌ

وصفه اللّه تعالى بأنّه كان أوّاهاً أي رحيماً أو كثير الدّعاء و قيل هو المتّأوه خوفاً من العقاب، ثمّ وصفه ثانياً بأنّه حليمٌ الّذي يمهل صاحب الذّنب فلا يعاجله بالعقوبة.

ثالثاً: بأنّه منيب و هو من الإنابة بمعنى الرّجوع الى الطّاعة و لذلك يقال للتّوبة هي الإنابة أي الرّجوع الى طاعة الرّب بعد العصيان و هذه الأوصاف الثّلاثة من أحسن الصّفات للعبد و لا سيّما إذا كان الواصف هو اللّه تعالى و فيها إشارة الى أنّ إبراهيم عليه‌السلام كان قصده من الجدال هو دفع العذاب عن قوم لوطٍ بسبب التّوبة أو بأيّ وجهٍ ممكن ولو بطريق الإمهال و هذا ممّا لا إشكال فيه بل هو ممدوحٌ مطلوب عقلاً.

يٰا إِبْرٰاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذٰابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية ما قالته الملائكة في جواب إبراهيم بعد المجادلة و من المعلوم أنّ الملائكة قالت هذا بأمرٍ من اللّه فالقائل في الحقيقة هو اللّه تعالى و حاصل الجواب يا إبراهيم أعرض عن هذا، أي أعرض عن الجدال في قوم لوط و ذلك لأنّ اللّه تعالى أراد إهلاكهم و لا مردّ لقضائه فأنّ العذاب نازل بهم لا محالة و لا يمكن لأحدٍ دفعه عنهم، فأنّ قوله غير مردود معناه غير مدفوع و الوجه فيه ظاهر إذ لا دافع لقضائه و لا رادّ لحكمه و حكم الحقّ و الى هذا المعنى.

قال اللّه تعالى: **فَإِذا جَآءَ أَمْرُ اَللّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ اَلْمُبْطِلُونَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ اَلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ اَلْأَمْرُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **سُبْحانَهُ إِذا قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٣) و غيرها من الأيات.

وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قالَ هٰذا يَوْمٌ عَصِيبٌ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية خروج الملائكة من قرية إبراهيم الى قرية لوط لإجراء أمر اللّه تعالى و كان بين القريتين ثمانية أميال و قيل أربعة فراسخ و قيل غير ذلك فأتوها عشاء و قيل نصف النّهار و وجدوا لوطاً في حرثٍ له، و قيل وجدوا إبنته تستسقي ماءً في نهر سدوم و هي أكبر حواضر قوم لوط فسألوها الدّلالة على من يضيفهم و رأت هيأتهم فخافت عليهم من قوم لوط و قالت لهم مكانكم و ذهبت الى أبيها فأخبرته فخرج اليهم فقالوا إنّا نريد أن تضيفنا الليلة فقال لهم أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم فقالوا و ما عملهم فقال أشهد باللّه أنّهم شَّر قومٍ في الأرض و قد كان اللّه قال للملائكة لا تعذّبوهم حتّى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما قال لوط ما قال لهم قال جبرئيل هذه واحدة و تردّد القول منهم حتّى كرّر لوط الشّهادة أربع مرّات ثمّ دخل لوط المدينة فحينئذٍ يسئ بهم أي لحقه سوء بسببهم و ضاق ذرعه بهم و قال هذا يوم عصيب أي شديد لما كان يتخوّفه من تعدّي قومه على أضيافه و جاءه قومه يهرعون اليه لمّا جاء لوط بضيفه كما قال تعالى:

١- غافر = ٧٨
٢- مَريم = ٣٩
٣- مَريم = ٣٥

وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئٰاتِ

قيل لم يعلم بذلك أحد إلاّ أهل بيته فخرجت إمرأته حتّى أتت مجالس قومها فقالت أنّ لوطاً قد أضاف اللّيلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً و كذا و كذا فحينئذٍ جاءوا يهرعون اليه أي يسرعون كما يدفعون دفعاً فعل الطّامع الخائف فوت ما يطلبه.

قرأ الجمهور **يُهرعون** مبنيّاً للمفعول و الباقون بفتح الياء على كونه مبنيّاً للفاعل و المعنى ما ذكرناه و قوله تعالى: **وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئٰاتِ** يدلّ على أنّ ذلك كان ديدنهم و عاداتهم أصّروا على ذلك و مّرنوا عليه فليس ذلك بأوّل إنشاء هذه المعصية و لذلك جاءوا يهرعون لا تكفّهم حياء لضراوتهم عليها و التّقدير في، و من قبل، أي من قبل مجيئهم الى هؤلاء الأصناف و طلبهم إيّاهم.

و قيل من قبل بعث لوط رسولاً اليهم قيل و جمعت السيئات و أن كان المراد بها معصية إتيان الذّكور إمّا بإعتبار فاعليها أو بإعتبار تكرّرها و قيل كانت سيّئات كثيرة بإختلاف أنواعها و محصلّ الكلام هو أنّهم كانوا أهل المعاصي أيّة معصيةٍ كانت فأنّ العاصي إذا تكّرر منه العصيان يصير عادة له و عند ذلك قال لوط لهم.

يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قوم لوط و أنّهم لمّا أحسّوا بما أنزل بلوط و ظّنوا هم أضيافه و قصدوا السُّوء بهم قال لوط لقومه، يا قوم، أصله يا قومي، حذفت الياء بالمنادى هؤلاء بَناتي، جمع بِنت، اختلفوا في معنى المراد منه فقال قوم الإضافة مجازيّة أي هؤلاء بنات قومي، هُّن أطهر لكم، قالوا إذ النّبي بمنزلة الأب لقومه قالوا و يدلّ عليه أنّه لم يكن له إلاّ بنتان و هذا بلفظ الجمع، و أجيب عنه بأنّ أقّل الجمع إثنان، و قيل كنَّ ثلاثاً و معنى أطهر، أنظف فعلاً و قيل أحّل و أطهر بيتاً قالوا أنّ، أطهر، ليس

أفعل التّفضيل إذ لا طهارة في إتيان الذّكور ثمّ أمرهم بتقوى اللّه في أن يؤثروا البنات على الإضياف فقال فأتّقوا اللّه و قوله: **وَ لاٰ تُخْزُونِ** يحتمل أن يكون من الخزي و هو الفضيحة أو من الخزاية و هي الإستحياء و ذلك لأنّه إذا خزي الرّجل في ضيفه فقد إفتضح لأنّ خزي ضيف الرّجل أو جاره هو خزيه بعينه على عادة الكرام و هذا هو الّذي تقتضيه المرّوة و قوله: **أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** فالرشيد هو الّذي يعمل بما هو مقتضى العقل و لا شكّ أنّه يدعوا الى الحّق و منه الإرشاد في الطُّرق فمن عمل على خلاف العقل و سلك مسلك الباطل فليس برشيدٍ بل هو سفيهٌ في الحقيقة فالمعنىٰ أليس منكم رجل يهتدي الى سبيل الحّق و فعل الجميل و الكّف عن السُّوء و في ذلك توبيخٌ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيد البّتة و قيل في وجه ذلك أي عرض المسلمة على الكفّار قولان:

أحدهما: أنّه كان جائز في شرعه و في صدر الإسلام أيضاً و لذلك زوّج النّبي ﷺ بنته بأبي العاص قبل أن يسلم ثمّ نسخ بقوله: **وَ لا تَنْكِحُوا اَلْمُشْرِكاٰتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ**(١).

الثّاني: قال الزّجاج أنّ ذلك عرض بشرط أن يؤمنوا على ما هو شرط النّكاح الصَّحيح و الضَّيف يقع على الواحد و الإثنين و الجماعة و كيف كان فلّما عرض لوط عليهم بناته ردّوا عليه كما قال تعالى حكاية عنهم.

قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِيدُ

أي قال القوم في جواب لوط **لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ** فأنّهن لسن لنا أزواج، و قيل معناه مالنا في بناتك من حاجةٍ فجعلوا تناول ما ليس لهم فيه حاجة بمنزلة ما لا حقّ لهم فيه، فعلى الأوّل و حمل الكلام على ظاهر اللّفظ و على.

١- البقرة = ٢٢١

الثّاني حمل على المعنى و قولهم، أنّك لتعلم ما نريد، فهم تمام حكاية ما قالوه للوط أي أنّك لتعلم إنّا نريد الذّكور دون الإناث.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ

أي قال لوط عند عند إياسه من قبول القوم ما دعاهم اليه لو أنّ لي بكم قوّة، أي أنّي لو قدرت على دفعكم و منعكم من إضيافي لفعلت بكم و صنعت و عليه فجواب، لو محذوف و هو قوله لفعلت أو لحلت بينكم و بين ما جئتم به من الفساد و حذف الجواب لدلالة الكلام عليه و قوله: **أَوْ آوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**.

قيل المراد به من يستند اليه و يمتنع به من عشيرته الذّي يمتنع به بالرُّكن من الجبل في شدّته و منعته و كأنّه إمتنع عليه أن ينتصر و يمتنع بنفسه أو بغيره ممّا يمكن أن يستند اليه قال الشّاعر:

يأوي الى ركنٍ من الأركان في عددٍ طيس و مجدبان

و الرُّكن معتمد البناء بعد الأساس و أنّما قال لوط ذلك مع أنّه كان يأوي الى اللّه تعالى لأنّه أراد العدّة من الرّجال و إلاّ فله ركنٌ من معونة اللّه و نصره إلاّ أنّه لا يصحّ التكليف إلاّ مع التّمكين.

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

قالت الملائكة يا لوط أنّا رسل ربّك و أنّما قالوا له ذلك حين رأتهم كئيباً حزيناً بعثنا اللّه لإهلاك قومك فلا تغتّم فأنّهم لا ينالونك بسوء، **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ** قَرأ أهل الحجاز، فأسر، بوصل المهَمزة من سريت، و الباقون بقطعها و المعنى إمض و أخرج من القرية و معك أهلك باللّيل و القطع القطعة العظيمة تمضي من اللّيل و أهله إبنتاه و طائفة يسيرة من المؤمنين.

و قال إبن عبّاس بقطعٍ من اللّيل أي بطائفةٍ منه.

و قال بعضهم أي ببقيّة أخره و قيل أنّه نصف اللّيل و يظهر من الآية أنّ لوطاً لم يكن عارفاً بأنّهم رسل ربّه و أنّهم من جنس الملائكة قبل هذا الكلام كذلك لأنّهم كانوا في صورة البشر قيل أنّهم أي القوم غلبوا لوطاً و همُّوا بكسر الباب وهو يمسكه قال له الرُّسل تنَحّ عن الباب فتنَّحى و إنفتح الباب فضربهم جبرئيل عليه السلام بجناحه فطمس أعينهم و عموا و إنصرفوا على أعقابهم يقولون النّجاة النّجاة و كان عند لوط قومٌ سحرة فتوَّعدوا لوطاً فحينئذٍ قالوا إنّا رسل ربّك.

و روي أنّ جبرئيل نقب من خصاص الباب و رمى في أعينهم فعميوا أخذ قبضةً من ترابٍ و أذرأها في وجوههم فأوصل الى عين من بعد و من قرب من ذلك التّراب فطمست أعينهم فلم يعرفوا طريقاً و لم يهتدوا الى بيوتهم و كيف كان لن يصلوا الى لوط و لم يقدروا على ضرره و عند ذلك أمروه بأن يسري بأهله.

و قوله: **وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ** قيل معناه لا ينظر أحد و راءه فأنّ الإلتفات كناية عن النَّظر.

و قال الأخرون أي لا يلتفت أحد منكم الى ماله و الى متاعه بالمدينة وليس المعنىٰ لا يلتفت من الرؤيّة.

إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهٰا مٰآ أَصٰابَهُمْ إختلفوا في قراءة، إمرأتك، علىٰ قولين:

أحدهما: النَّصب على أنّه إستثناء من قوله، بأهلك اذ قبله أمر و الأمر عندهم كالواجب.

ثاينهما: الرّفع على أنّه بدل من أحد و هو إستثناء متّصل.

أقول وجه الرَّفع لا يستقيم لأنّ المعنى أنّ المرأة لم تنته عن الإلتفات وليس كذلك و عليه فالنَّصب هو المتَّبع لأنّ المعنى يصير فأسر بأهلك إلاّ إمرأتك أنّه مصيبها ما أصابهم و هذا هو الصّحيح.



قال بعض المفسّرين روي أنّه أخرجها معهم و أمر أن لا يلتفت منهم أحد إلاّ هي فلمّا سمعت هدّة العذاب إلتفتت و قالت و اقوماه فأدركها حجر فقتلها.

و روي أنّه أمر بأن يخلفها مع قومها و كان هواها اليهم ولم يسر بها و إختلاف القراءتين لإختلاف الرّوايتين و هذا وهمٌ فاحش اذ بني القراءتين على إختلاف الرّوايتين من أنّه سرى بها أو أنّه لم يسر بها و هذا تكاذب في الأخبار و يستحيل أن تكون القراءتان و هما من كلام اللّه تتقربان على التكاذب.

و الحقّ أنّ القراءتين وردتا على ما تقتضيه العربيّة في الإستثناء المنقطع النَّصب و الرّفع فالنّصب لغة أهل الحجاز و عليه الأكثر و الرّفع لبني تميم و عليه أثنان من القرّاء فثبت و تحقّق أنّ الإستثناء منقطع على كلّتا القراءتين و عليه فلم يقصد به إخراج المرأة من المأمور بالإسراء و لا من المَنهيين عن الإلتفات و لكن أستوئنف الأخبار عنها فالمعنى لكن إمرأتك يجري لها كذا وكذا و يؤيّد ما ذكرناه أنّ مثل هذه الآية جاءت في سورة الحجر أيضاً و ليس فيها إستثناء كما سيأتي الكلام فيها.

و أمّا قوله: **مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** فمعناه أنّ موعد إهلاكهم عند الصُّبح و جعل الصُّبح ميقاتاً لهلاكهم لأنّ النّفوس فيه أودع و الرّاحة فيه أجمع و قيل أنّ لوطاً قال للرُّسل أريد أسرع من ذلك فقالوا في جوابه أليس الصُّبح بقريب أي أنّه قريب وليس ببعيد فالإستفهام للإنكار وليس للنّفي و النّفي في النّفي يفيد الإثبات كقوله تعالى: **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**[1] أي أنّه كاف، قيل أنّ لوطاً خرج بإبنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر و طوى اللّه له الأرض في وقته حتّى نجا و وصل الى إبراهيم عليه السلام.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ

١- الزمر = ٣٦

و الضّمير في، عاليها، و سافلها، عائد الى مدائـن قـوم لوط جـعل جـبرئيل جناحه في أسفلها ثمّ رفعها الى السّماء حتّى سمع أهل السّماء يناح الكلاب و صياح الدّيكة ثمّ قلّبها عليهم و أتبعوا الحجارة من فـوقهم و هـي المـؤتفكات سبع مدائن و قيل خمس و أعظمها سدوم و قوله حجارة من سـجيّل مـنضود، إختلفوا في معنى السّجيل فقال قوم أنّه إسم الدنيّا و هو ضعيف و قيل هو مـن قولهم أسجله أي أرسله و قيل أنّه كالأجر المطبوخ، و قيل حجرٌ مخلوط بطينٍ و قيل غير ذلك.

و قال في المفردات السّجيل حجرٌ و طينٌ مختلط و أصله فيما قيل فارّسي معرّب انتهى.

و قوله: **مَنْضُودٍ** أي متتابعٍ أي كانت الأحجار متتابعة.

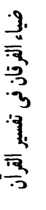
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مٰا هِيَ مِنَ ٱلظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ

مسوّمة أي مـعلمة و ذلك أنّـه جـعل فـيها عـلامات تـدلّ عـلى أنّـها مـعدّة للعذاب فأهلكوا بها، قيل كانوا أربعة ألاف ألف و قيل كانت مخطّطة بسـواد و حمرة فتلك يتعلمها ذكره الفّراء و نصب مسوّمة على الحال من الحجارة و قوله عند ربّك، أي فـي خزائـنه التّـي لا يـتَّصرف فـي شـئٍ مـنها إلاّ بـإذنه و أصـل المسوّمة من السّماء و هي العلامة و الظّاهر أنّ قوله: **هِيَ** عائد عـلى الحـجارة وفي قوله: **وَ مٰا هِيَ مِنَ ٱلظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ** قيل في معناه قولان ذكرهما الشّيخ في التبيان:

أحدها: أنّ مثل ذلك ليس ببعيدٍ من ظالمي قومك يا محمّد أراد به إذهـاب قريش.

الثّاني: يعني من قوم لوط انتهى.

أقول حمل الكلام علىٰ ظاهره أولى اذ لا دليل على التّخصيص بـقريش، أو بقوم لُوط بل نقول أنّ اللّه تعالىٰ أخبَرنا في أخر قصّة قوم لُوط أنّ عـذاب اللّـه

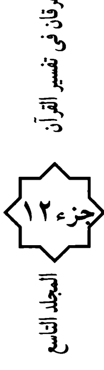


ليس من الظّالمين ببعيدٍ من أيّ قومٍ فأنّ سبب العذاب هو العصيان و حكم الأمثال واحد و لا قرابة بينه تعالى و بين أحدٍ من خلقه و يؤيّد هذا المعنىٰ أنّ اللّه تعالىٰ أخبرنا في القرأن بقصصٍ كثيرة هي واحدة منها.

و من المعلوم أنّ ذكر القصص لأجل الإعتبار بها و لذلك أمرنا بالتّفكر فيها و الإتّعاظ بها و معنىٰ الإتّعاظ هو ترك ما يوجب العذاب و العمل بما يوجب الرّحمة و الثّواب فكأنّ قوله تعالىٰ: **وَ مَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ** هو نتيجة ذكر القصّة لمن إعتبر بها نسأل اللّه التّوفيق فيما يحبّ و يرضىٰ و نعوذ به من غضبه.

قال بعض المفسّرين إمطار الحجارة علىٰ من لم يكن في المدن من أهلها و كان خارجاً منها.

و قال الأخرون إمطارها علىٰ القوم بعد الإهلاك تغليظٌ للعذاب و قيل الضّمير أعني به هي، يرجع الىٰ المدن و لذكل قال ببعيدٍ و لم يقل ببعيدةٍ فهو على معنى بمكانٍ بعيد أي ليست المدن بمكانٍ بعيد منه فيمكن لهم رؤيتها بالحسّ و العيان و كيف كان فالمعنى واضح و في ختام البحث نذكر حديثاً جامعاً في قصّة لُوط.



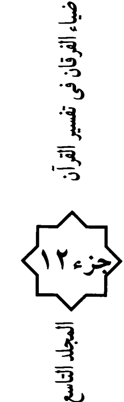
فقد روي عن أبي حمزة الثّمالي عن أبي جعفر عليه السلام أنّ رسول اللّه سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لُوط فقال أنّ قوم لُوط كانوا أهل قريةٍ لا يتّنظفون من الغائط و لا يتطّهرون من الجنابة بخلاء أشحّاء علىٰ الطّعام وأنّ لُوطاً لبث فيهم ثلاثين سنة و أنّما كان نازلاً عليهم ولم يكن منهم ولا عَشيرة له فيهم و لا قوم و أنّه دعاهم الى اللّه عزّ وجلّ و الى الإيمان به و إتّباعه و نهاهم عن الفَواحش و حثّهم علىٰ طاعة اللّه فلم يجيبوه ولم يطيعوه و أنّ اللّه عزّ وجلّ لمّا أراد عذابهم بعث اليه رسلاً منذرين عذراً و نذراً فلمّا عتوا عن أمره بعث اليهم ملائكة ليخرجوا من كان في قريتهم من المؤمنين فما وجدوا فيها

غير بيتٍ مِن المسلمين فأخرجوهم منها وقلوا للوط أسر بأهلك من هذه القرية اللّيلة بقطعٍ من اللّيل ولا يلتفت منكم أحد و أمضوا حيث تؤمرون فلمّا إنتصف اللّيل سار لوط ببناته و توّلت إمرأته مدبرة فإنقطعت الىٰ قومها تسعىٰ بلُوط و تخبرهم أنّ لُوطاً قد سار ببناته و أنّي نوديت من تلقاء العرش لمّا طلع الفجر يا جبرئيل حقّ القول من اللّهّ تحتُّم عذاب قوم لُوط فأهبط الىٰ قرية قوم لُوط و ما حوت فأقلعها من تحت سبع أرضين ثمّ أعرج بها الىٰ السّماء فأوقفها حتّىٰ يأتيك أمر الجبّار في قلبها ودع منها أية بيّنة من منزل لُوط عبرة للسّيارة فهبطت علىٰ أهل القرية الظّالمين فضربت بجناحي الأيمن علىٰ ما حوىٰ عليه شرقها و ضربت بجناحي الأيسر علىٰ ما حوىٰ عليه غربها فإقتلعتها يا مُحمّد من تحت سبع أرضين إلاّ منزل لوط أيةً للسّيارة ثمّ عرجت بها في خوافي جناحي حتّىٰ أوقفتها حيث يسمع أهل السّماء زقاء ديوكها ونباح كلابها فلمّا طلعت الشّمس نوديت مِن تِلقاء العَرش يا جبرئيل أقلب القرية علىٰ القوم فقلّبتها عليهم حتّىٰ صار أسفلها أعلاها و أمطر اللّه عليها حجارة من سِجّيلٍ مسوّمة عند ربّك و ما هي من الظّالمين من أمّتك ببعيد فقال رسول اللّه يا جبريئل وأين كانت قرتهم من البلاد فقال جبرئيل كان موضع قريتهم في موضع بحيرة طبرية اليوم هي في نواحي الشّام قال عليه السلام فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أرأيتك حين قَلّبتها عَليهم في أيّ موضعٍ من الأرضين وقعت القرية و أهلها فقال يا محمّد وقعت فيما بين بحر الشّام الىٰ مصر فصارت تلولاً في البحر انتهى.

أقول يظهر من هذا الخبر أنّ جبرئيل لم يكن في الملائكة التّي أرسلها اللّه الىٰ لُوط واللّه أعلم بحقيقة الحال و كيف كان فالأمر سهل.

■

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْبًا قالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيالَ وَ ٱلْمِيزانَ إِنِّيَ أَرٰيكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّيَ أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ «۸۴» وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيالَ وَ ٱلْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا ٱلنّاسَ أَشْيآءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «۸۵» بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ «۸۶» قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباۤؤُنآ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيٓ أَمْوالِنا ما نَشٰٓاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ «۸۷» قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ مآ أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلىٰ مآ أَنْهيٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ «۸۸» وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِيٓ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مآ أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ «۸۹» وَ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ «۹۰» قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمّا تَقُولُ وَ إِنّا لَنَرٰيكَ فِينا ضَعِيفًا وَ لَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ مآ أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ «۹۱» قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ



ٱللَّهِ وَ ٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَ لَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَ بِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَ أُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

◀ اللّغة

مَدْيَنَ بفتح الياء قيل هم قوم شُعيب و في تسميتهم بذلك قولان:

أحدهما: أنّهم بنوا مدين بن إبراهيم فقيل، مدين و المراد بنوا مدين كما يقال مضر و المراد بنو مضر.

الثّانی: أنّه إسم مدينتهم فنسبوا اليها قيل، مدين، لا ينصرف لأنّه إسم مدينة.

شُعَيْبًا إسم نبيٍّ من الأنبياء قيل هو إبن مكيد بن شنجرة بن مدين و كان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه.

وَ لَا تَبْخَسُوا البخس النَّقص أي و لا تنقصوا.

وَ لَا تَعْثَوْا أي تضطربوا بالقبيح.

لَا يَجْرِمَنَّكُمْ لا يكسبَّنكم.

شِقَاقِي الشّقاق و المشاقّة المباعدة بالعداوة الىٰ جانب المباينة.

ظِهْرِيًّا الظِّهر جعل الشّئ وراء الظّهر.

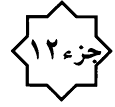
وَ ٱرْتَقِبُوا أي و إنتظروا والباقي واضح.

◄ الإعراب

أَخَاهُمْ مفعول فعلٍ محذوف أي و أرسلنا الى مدين أخاهم و شُعَيْبًا بدل و تَنْقُصُوا يتعدّى الى مفعولٍ بنفسه و مُحِيطٌ نعتٌ لليوم في اللّفظ و للعذاب في المعنىٰ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ في موضع نصب عطفاً على ما يعبد و التّقدير أو أن نَترك أن نفعل لَا يَجْرِمَنَّكُمْ بضمّ الياء و فتحها و فاعله شقاقي، و قوله: أَنْ يُصِيبَكُمْ مفعول الثّاني وَ ٱتَّخَذْتُمُوهُ هي المتعدّية الىٰ مفعولين و ظِهْرِيًّا المفعول الثّاني و وَرَاءَكُمْ ظرف لإتّخذتم أو حال من ظهرّياً كَمَا بَعِدَتْ يقرأ بكسر العين و مستقبله يبعد و المصدر بعداً بفتح العين فيهما و يقرأ بضمّ العين و مصدره البعد وهو من البعد في المكان و المشهور فيه كسرها و عليه المصاحف.

◄ التّفسير

أخبر اللّه تعالىٰ أنّه أرسل شعيباً الى قومه و أنّما سمّي شعيباً أخاهم لأنّه كان من نسبهم و قيل أنّهم من ولد مديم بن إبراهيم و قيل أنّ مدين إسم القبيلة أو المدينة التّي كانوا فيها كما قال تعالىٰ:



وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

قد سبق شرح هذا الكلام في قصّة لوط و هود و صالح و يظهر منه أنّ الأنبياء كانت دعوتهم في بدو البعثة كذلك فأنّ الدّعوة الىٰ التّوحيد بمنزلة

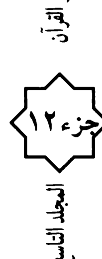
الأصل الّذي لا محيص عنها وأمّا النبوّة و المعاد و غيرهما من الأحكام موضعها بعد الإقرار بالتّوحيد.

وَ لَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَ ٱلْمِيزَانَ نهاهم شعيب أن يبخسوا النّاس فيما يكيلوا به لهم و يزينونه لهم فأنّ المكيال مفعال و هما من ألات الكيل و الوزن و أنّما ذكرهما لأنّ بعض الأجناس ممّا يكال و بعضها ممّا يوزن و قوله: **إِنِّيٓ أَرَيٰكُمْ بِخَيْرٍ** قيل يعني برخص السّعر و حذّرهم العلاء و قيل أراد بالخير زينة الدّنيا والمال.

وَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ يعني يوم القيامة لأنّ عذابه يحيط بجميع الكفّار.

أقول لا وجه لإختصاص العذاب في الآية بيوم القيامة فأنّ العذاب في الدّنيا أيضاً قد يكون محيطاً بالعاصي من جميع الجوانب كما في قوم نُوح و هود و صالح و لُوط علىٰ ما مرَّ شرحه وبيانه فقوله أنّي أخاف عليكم عذاب يوم لا يمكن الفرار منه لأنّه أحاط بالعاصي من جميع الجوانب سواء كان في الدّنيا أم في الأخرة و يظهر من الآية أنّ قوم شعيب مضافاً الىٰ كُفرهم بعبادتهم الأوثان و الأصنام كانوا في معاملاتهم متّصفين بما أخبر اللّه تعالى عنهم مفهوماً فأنّ النّهي عن البخس في المكيال و الميزان مشعر بأنّهم كانوا ينقصون فيهما و قد قال رسول اللّه ﷺ **ما نقص قوم المكيال والميزان إلاّ إرتفع عنهم الرّزق.**

و قال بعض المفسّرين أنّهم اذا جاءهم البائع بالطّعام أخذوا بكيلٍ زائد وأن جاءهم مشترٍ للطّعام باعوه بكيلٍ ناقص و شحُّوا له بغاية ما يقدرون فأمروا بالايمان إقلاعاً عن الشّرك و بالوفاء نهياً عن التّطفيف كما أشار اللّه تعالىٰ بقوله:



وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَ ٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

أمرهم بالإيفاء بعد أن نهى عن التَّطفيف تأكيداً والإيفاء لإتمام و قوله بالقسط أي بالعدل و الحقّ و المقصود هو أن يصل كلّ ذي نصيب الى نصيبه و

لا يضيع حقّه و المراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود و كذا الميزان، و لا تبخسوا النّاس أشياءهم، أي لا تنقصوهم ممّا إستحقّوه شيئاً.

وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَيَّن أنّ الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض و ذلك لأنّها من أكبر مصاديق الظُّلم و الفرق بين البخس و الظُّلم أنّ الظّلم أعمّ لأنّ البخس نقصان الحقّ اللاّزم و قد يكون الظّلم الألم بغير حقٍّ.

قال في المفردات العيث و العثّي يتقاربان نحو جذب و جبذ إلاّ أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد الذّي يدرك حسّاً و العثّي فيما يدرك حكماً انتهىٰ.

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ

بقيّة اللّه، قال إبن عبّاس ما أبقىٰ اللّه لكم من الحلال بعد الإيفاء في المكيال و الميزان خير من البخس و قال مجاهد طاعة اللّه خير لكم و قال قتادة حظّكم من اللّه و قيل رحمة اللّه و قيل ذخيرة اللّه و قيل وصيّة اللّه و قيل ثواب اللّه و هكذا.

و قال إبن عطيّة هذا كلّه لا يعطيه لفظ الآية و أنّما المعنى عندي إبقاء اللّه عليكم إن أطعتم وقوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** شرط في أن يكون البقيّة خيراً لهم و أمّا مع الكفر فلا خير لهم في شيٍ من الأعمال وجواب هذا الشّرط متقدّم.

و قوله: **وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** فالحفيظ المراقب الذّي يحفظ أحوال من يرقب و المعنى أنّما أنّا مبلّغ رسالات ربّي و أمّا الحفيظ المحاسب هو الذّي يجازيكم علىٰ الأعمال.

و قال صاحب الكشّاف و أنّما خوطبوا بترك التّطفيف و البخس و الفساد في الأرض و هم كفرة بشرط الإيمان و يجوز أن يريد ما يبقى لهم عند اللّه من الطّاعات كقوله: **وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا**[١] وإضافة البقيّة الىٰ

١- الكهف = ٤٦

اللّه من حيث أنّها رزقه الّذي يجوز أن يضاف اليه و أمّا الحرام فلا يجوز أن يضاف الىٰ اللّه و لا يسمّىٰ رزقاً إنتهىٰ.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **وَ مَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** أي لَست أنا أرقبكم عند كيلكم و وزنكم أي لا يمكنني شهود كلّ معاملة تصدر منكم حتّىٰ أؤاخذكم بإيفاء الحقّ.

و قيل أي لا يّتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم اللّه عليكم بسبب معاصيكم انتهىٰ.

أقُول معنىٰ الآية ظاهر و لا يحتاج الى هذه التّكلّفات والتّأويلات الباردة و ذلك لأنّه لمّا قال لقومه، يا قوم أوفوا المكيال و الميزان كأنّه خطر على قلوبهم أنّ إيفاء المكيال و الميزان يوجب النّقص في أموالهم فقال لهم بقيّة اللّه خيرٌ لكم الآية أي ما أبقاه اللّه لكم بعد الإيفاء خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين به و بذلك لأنّ القليل من الحلال خير من الكثير من الحرام فقوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** معناه إن كنتم مؤمنين بأنّ الخير و البركة في الحلال ولو كان قليلاً و يحتمل أن يكون المراد بالإيمان الإيمان باللّه و هو ضعيف لأنّ قوم شعيب كانوا كفّاراً اللّهم إلاّ أن يقال بشرط الإيمان باللّه أي بشرط خروجكم من الكفر و دخولكم في الإيمان إذ بدونه لا يتحقّق الخير في البَقية و ذلك لأنّه هو معطي الخير و البركة في الأموال والنّفوس.



قَالُوا يٰا شُعَيْبُ أَصَلٰوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مٰا يَعْبُدُ آبٰآؤُنٰآ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيٓ أَمْوٰالِنٰا مٰا نَشٰآءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ.

لمّا أمرهم شعيب بأمرين:

أحدهما: أن يعبدوا اللّه حيث قال **قٰالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ.**

ثانيهما: أمرهم بإيفاء الميكال والميزان حيث قال: **وَ يٰا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيٰالَ وَ ٱلْمِيزٰانَ** فأجابوه و قالوا أصلاتك تأمرك الخ.

و أنّما أضافوا الأمر الىٰ صلاته دون ربّه لعدم إعتقادهم بنبوّته من عند اللّه لأنّهم كانوا كفّارً و قيل قولهم أصلاتك، يعني أدينك الذّي أنت عليه أمرك أن تأمرنا بترك عبادة الأصنام الّتي كان آباءنا عليه و أن نفعل في أموالنا ما نشاء من إيفاء الميكال، أنّك لأنت الحليم الرَّشيد، قيل أنّهم قالوا له ذلك علىٰ وجه الإستهزاء و قيل قالوا ذلك علىٰ وجه الحقيقة أي أنّك كذلك عند قومك فكيف تقول ما تقُول.

و نقل عن المؤرخ، أنّ الحليم الرّشيد، معناه الأحمق السَّفيه بلغة هذيل.

أقول لا يمكن حمل كلام اللّه علىٰ لغة هذيل والحقّ في معنىٰ الكلام هو خير الأمور أوسطها **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا** قالَ شعيب لقومه أريتم إن كنت على بيّنةٍ و حجّةٍ فيما أقول لكم و رزقني اللّه، منه، أي من عنده، رزقاً حسناً.

إن قُلت أين الشّرط، قلت قال الشّيخ في التّبيان جواب، إن، في الآية محذوف و تقديره يا قوم إن كنت على حجّةٍ و دلالةٍ من ربّي و مع ذلك رزقني منه رزقاً حسناً انتهىٰ كلامه.

و أنت ترى أنّ فيما ذكره لا يوجد جواب الشّرط أصلاً و الحقّ في الباب ما ذكره صاحب الكشّاف فأنّه قال ما هذا لفظه.

إن قُلت أين جواب **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ** و ماله لم يثبت كما أثبت في قصّة نُوح و لوط.

قُلت جوابه محذوف و أنّما لم يثبت لأنّ إثباته في القصّتين دلَّ على مكانه و معنى الكلام ينادي عليه و المعنى أخبروني أن كنت على حجّةٍ واضحةٍ و يقينٍ من ربّي و كنت نبيّاً علىٰ الحقيقة أيصّح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان و الكّف عن المعاصي و الأنبياء لا يبعثون إلاّ لذلك انتهىٰ كلامه.

وأنا أقُول ما ذكره الزّمخشري لا بأس به إلاّ أنّه أطال الكلام بما لا نحتاج اليه و ذلك لأنّ قوم شعيب لمّا قالوا له **أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** الخ.

قال في جوابهم **يٰا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى** فيما أقول لكم فما تقولون و عليه فجواب الشّرط فما تقولون أو ما يفيد معناه.

و الحاصل أنّ بعد إثبات النبّوة لا عذر لكم و لا يصحّ أن تقولوا ما قلتم قبل ذلك و هذه مراجعة لطيفة و إستنزال حسن و إستدعاء رقيق لا ينبغي صدوره إلاّ من خطيب الأنبياء على ما قيل و هذا النّوع من الكلام سمّي إستدراج المخاطب عند أرباب علم البيان و هو نوعٌ لطيف غريب يتوصّل به الىٰ بلوغ الغرض و قد ورد منه في قصّة إبراهيم و في قصّة نوح و هود و صالح و في قصّة مؤمن آل فرعون مع قومه.

و أمّا قوله: **وَ رَزَقَني مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا** فقيل أنّه النبوّة و قيل الهدىٰ و الإيمان و قيل المال الحلال لأنّه كان كثير المال و قيل العلم، و الكلّ محتملٌ.

وَ مٰآ أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلٰى مٰآ أَنْهٰيكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّآ ٱلْإِصْلٰاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ أي أنّي أنهاكم عن شيئين.

عبادة الأوثان و إيفاء المكيال و الميزان و لست أخالفكم في ما أنهاكم عنه برجوعي عن قولي فأنّي لا أرجع عمّا نهيتكم عنه.

و قال بعضهم معناه أنا لا أنهي عن القبيح و أفعله مثل من ليس بمستبصرٍ في أمره كما قال الشّاعر:

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله عارٍ عليك إذا فعلت عظيم

و قوله: **إِنْ أُرِيدُ إِلَّآ ٱلْإِصْلٰاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ** بمنزلة التّعليل لقوله: **مٰآ أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ** كأنّه قيل لم لا تخالف قال: **أَنْ أُخٰالِفَكُمْ** الخ أي ما أُريد إلاّ الإصلاح أي ليس نهيي لكم لمنفعةٍ أجرّها الىٰ نفسي بل النّهي لأجل الإصلاح وإذا كان كذلك فلا معنى لرجوعي عنه فأنّ الرّجوع عن الإصلاح هو الدّخول في الإفساد بعينه.

و في قوله: **وَ مٰا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ** إشارة الىٰ ما هو الأصل الحقيق بالإتّباع في جميع الأعمال و الأقوال و الحركات و

السَّكنات و بالجملة في جميع الشّئون و الأحوال و لا سيّما في إداء الرّسالة و إبلاغ الأحكام من التّوحيد و النبوّة و المعاد و جميع أحكام الشّريعة حيث أنّ النّبي في كلّ زمانٍ كان مواجهاً الى مخالفة أكثر النّاس الّذين لم يبالوا من الإيذاء و التُّهمة و حتّى قتل النّبي في صورة الإمكان و المفروض أنّه لم يكن له ناصرٌ من الخلق فلا محالة يكون التّوكل علىٰ اللّه و طلب التّوفيق و النُّصرة منه في رأس جميع الأمور في حقّ النّبي و لذلك ترى جميع الأنبياء كانوا متّوكلين علىٰ اللّه معرضين عن الخلق لعلمهم بأنّ اللّه تعالى هو النّاصر لهم كما وعدهم اللّه به في قوله:**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**(١) و قد مرَّ الكلام في معنىٰ التوكّل و الإنابة و الفرق بينهما إجمالاً و سيأتي الكلام في الباب بوجهٍ أبسط في موضعه إن شاء اللّه تعالىٰ.

وَ يَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ

قال لهم شعيب بعد يأسه عن قبول قوله و تمرّدهم و عنادهم للحقّ يا قومِ الأصل يا قومي حذفت الياء بالمنادىٰ **لَا يَجْرِمَنَّكُمْ** أي لا يكسبنّكم، شقاقي أي خلافي و عدواتي و كان سبب هذه العدواة دعاءه لهم الىٰ مخالفة الآباء و الأجداد في عبادة الأوثان يثقل عليهم من الإيفاء في المكيال و الميزان و أصل الجرم قطع الثّمرة عن الشّجر يقال أجرم الرّجل إذا صار ذا جرم نحو أثمر و أتمر ثمّ أستعير ذلك لكلّ إكتسابٍ مكروهٍ.

قال صاحب الكشّاف، جرم مثل كسب في تعدّيه الىٰ مفعولٍ واحدٍ او مفعولين تقول جرم ذنباً و كسبه و جرمته ذنباً و كسبته أيّاه و منه قوله تعالىٰ: **لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَنْ يُصِيبَكُمْ** أي لا يكسبنّكم شقاقي إصابة العذاب و قرأ إبن كثير بضمّ الياء من أجرمته ذنباً و ساق الكلام الىٰ أن قال و القراءتان

١- غافر = ٥١

مستويتان في المعنىٰ لا تفاوت بينهما إلاّ أنّ المشهورة أفصح لفظاً كما أنّ كسبته مالاً أفصح من أكسبته انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول و على هذا فيصير المعنى يا قوم أنّ عداوتكم لي بسبب دعائي أيّاكم الى ترك عبادة الأوثان لا توجب وقوعكم في الهلاكة و العذاب كما كانت في قوم نوح و هود و صالح و لوط و ما قوم لُوط منكم ببعيد، بل كانوا قريباً منكم بحسب الزّمان و في هذا الكلام إشارة الى أنّ العناد و الطّغيان و العصيان و أمثال ذلك كثيراً ما يوجب الإضرار على نفس المعاند بل دائماً يكون كذلك فأنّ المعانِد للحقّ يضرّ على إنكاره الحقّ لعناده فيقع في الخسران من حيث لا يحتسب و فيما نحن فيه أيضاً كذلك و توضيحه إجمالاً أنّ النّبي المبعوث من عند اللّه الىٰ هداية خلقه و إرشادهم الىٰ ما هو صلاحهم فيه في الدّنيا و الآخرة كما حكى اللّه تعالىٰ عن شعيب بقوله: **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ** وقوله: **لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ**[1] وأمثال ذلك من الأيات ثمّ أنّ النّاس منهم من يقبل الدّعوة ومنهم من لا يقبل لا كلام لنا فيمن يقبل فأنّهم مِن المؤمنين.

و أمّا من لا يقبل فهم طائفتان، طائفة لا تقبل الدّعوة لجهلها و طائفة لا تقبل لعنادها و لجاجها و هذه الطّائفة من شّر خلق اللّه على وجه الأرض و ذلك لأنّ الجاهل ما دام كونه جاهلاً معذور بجهله فإذا إرتفع الجهل منه يقبل و أمّا المعاند فليس كذلك لأنّ عدم قبوله الحقّ ليس لجهله بل لعناده و خبث سريرته و أن كان عالماً بالحقّ واقعاً إذا عرفت هذا.

فأعلم أنّ الأنبياء لمّا بعثوا الىٰ النّاس لم يكن لهم كثير اشكالٍ مع الجّهال و أنّما المانع في دعوتهم الى الحقّ هو وجود المعاندين الّذين كانوا مصرّين على خلافهم و عنادهم و لم يعلموا أنّ هذا كان عليهم لا لهم لأنّ النّبي وظيفته الإبلاغ و إتمام الحجّة علىٰ الخلق و بعد ذلك إستحقاق العقاب في صورة



١- هود = ٢٩

الإنكار كما حَكىٰ اللّه تعالى عن قوم نُوح و هود و صالح و الىٰ هـذه الدّقيقة أشار شعيب النّبي حيث قال: **لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ** أي مخالفتكم أيّاي و عداوتكم لي من أجلِ الدّعوة الى الحقّ مثل ما أصاب قوم نُوح و هُود و صالح و لوط.

و أمّا إختصاص قوم لوط بعدم البعد فوجهه واضح لأنّ شعيب بعث بعد لُوط فكان قومه أقرب الى قوم لُوط زماناً و كيف كان ففي هذا الكلام تخويفٌ و تهديدٌ منه لقومه و لذلك أردف كلامه هذا بالإستغفار و التّوبة كما حكى اللّه تعالىٰ عنه:

وَ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ

أمرهم شعيب بالإستغفار و هو طلب المغفرة عمّا فعلوا من عبادة الأوثان و نقص المكيال و الميزان و غير ذلك من المعاصي ثمّ بعد الإستغفار الرّجوع الىٰ اللّه بمعرفته و الإنقياد لأحكامه وفي قوله: **إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ** إشارة الىٰ سعة رحمة اللّه و أنّه يقبل التّوبة من عباده لأنّه رحيمٌ ودودٌ، والودود المحبّ لا غير أي هو رحيم بكم و محبٌّ لكم إذا رجعتم اليه و أطعتموه و **مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ** ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عنها و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَيٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَ لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَآ أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ

قال القوم في جواب النّبي يا شعيب ما نفقه أي ما نعلم كثيراً ممّا تقول لنا و المراد بالكثير في قولهم ما كان على خلاف أميالهم و شهواتهم من ترك عبادة الأوثان و غيرها من المعاصي مع أنّهم في قولهم هذا أيضاً من الكاذبين و ذلك لأنّ الدّعوة الىٰ الحقّ و النّهي عن الظّلم و العصيان ليس ممّا لا يفهمه العاقل و أنّما قالوا ذلك لعنادهم و طغيانهم و تمرّدهم وقولهم **إِنَّا لَنَرَيٰكَ فِينَا ضَعِيفًا**

إشارة الىٰ أنّهم كانوا مغرورين بقوّتهم و قدرتهم و عدتّهم و عدتهم و لم يعلموا أنّ قدرة الخالق غالبة على قدرة ما سواه لأنّ المخلوق لا قدرة في جنب قدرة الخالق و لذلك أي لأجل كونهم مغرورين قالوا و لولا رهطك لرجمناك، بالحجارة، **وَ مَآ أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** أي لست علينا بممتنعٍ فلا نقدر عليك بالرّجم و لا أنت بكريم علينا، و لمّا قالوا ذلك تعجّب شعيبٌ من قولهم فقال لهم:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِيَ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ

و فيه إشارة الى ردّ قولهم و لولا رهطك لرجمناك، و لذلك قال شعيب أرهطي أعزّ عليكم من اللّه، و الإستفهام إنكاري أي ليس كذلك **وَ ٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** إختلفوا في مرجع الضّمير في قوله: **وَ ٱتَّخَذْتُمُوهُ** علىٰ ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: أنّه يرجع الىٰ اللّه أي إتخذتُم اللّه وراءكم ظهريّاً أي جعلتم اللّه وراء ظهركم و هو كناية عن إعراضِهم عنه.

الثّاني: أنّه يرجع الى ما جاء به شعيب و هو دعوته أيّاهم الى الحقّ.

الثّالث: أنّه يرجع الىٰ أمر اللّه أي جعلتم أمر اللّه وراء ظهركم.

أقول لا فرق في معنى الكلام في الأقوال الثّلاثة و أنّما قال لهم ذلك لأنّهم لم يقبلوا دعوته و أنكروا نبوّته و من كان كذلك فهو معرِضٌ عن اللّه واقعاً و قوله: **إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** إشارة بأنّ اللّه تعالىٰ لا يخفىٰ عليه أعمالكم و أقوالكم و ضمائركم و بالجملة هو تعالى بجميع ما تعملون به محيط إحاطةً علّمية تنشأ من قوله: **أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** و إذا كان كذلك فأنّه تعالىٰ سيجازيكم على أعمالكم الشنّيعة الرّديئة أنّ ربّكم لبالمرصاد.

و قال المبرّد الضّمير يرجع الىٰ العصيان فيكون الكلام على حذف المضاف تقديره و إتخذّتموه أي عصيانه انتهىٰ.

وَ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ

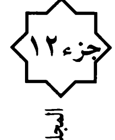
لمّا قال القوم لشعيب ما قالوا من الإنكار ولم يقبلوا دعوته قال شعيب لهم إعملوا على مكانتكم، **والمَكانة** بفتح الميم الحال الّتي يتمكّن بها صاحبها من عملٍ مّا فقال لهم قد مكَّنتم في الدّنيا من العمل كما مكنّ غيركم ممّن عمل بطاعة اللّه و تسترون منزلتكم من منزلته و هذا الخطاب و أن كان ظاهره ظاهر الأمر فالمراد به التّهديد و تقديره كأنّكم أنّما أمرتم بأن تكونوا علىٰ هذه الحال من الكفر و العصيان و فيه نهاية الخزي و الهوان قاله في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف لا تخلوا المكانة من أن تكون بمعنى المكان يقال مكان و مكانة و مقام و مقامه أو تكون مصدراً من مكن مكانةً فهو مكين و المعنى إعِملوا قارّين على جهتكم الّتي أنتم عليها من الشّرك و الشّنأن لي و إعملوا متمكّنين من عداوتي مطبقين عليها أنّي عاملٌ، على حسب ما يؤتيني اللّه النّصرة و التّأييد و يمكّنني انتهىٰ.

أقول معنى الكلام ظاهر لا خفاء فيه أي اذا لم تقبلوا نصحي فاعِملوا ما شئتم، أنّي عاملٌ بوظيفتي و هي الإبلاغ و سوف تعلمون نتيجة عصيانكم و كفركم.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ

من يخزيه العذاب و من هو كاذبٌ في دعواه، أنا، أو أنتم، و إرتقبوا أي و إنتظروا ما وعدتكم من العذاب و إنّي أيضاً معكم رقيبٌ أي منتظرٌ لنزول العذاب عليكم و يستفاد من الآية أنّ شعيب النّبي قد كان مأيوساً عن قبول دعوته فلا محالة قال لهم ما قال و هو نظير قوله تعالىٰ: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(١).



١- الانعام = ٩١

وَ لَمَّا جٰآءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا شُعَيْبًا وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ أَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ

و هذا هو العذاب الّذي قال شعيب سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه، و المعنى لمّا أردنا أن نهلك قوم شعيب نجّينا شعيباً و من أمن به من العذاب و ذلك لأنّ رحمة اللّه قريبٌ من المحسنين و لذلك قال برحمةٍ منّا و أخذت الذّين ظلموا، و هم قوم شعيب، الصَّيحة السّماوية الّتي صدرت من جبرئيل عليه السلام فأصبحوا في ديارهم جاثمين أي خامدين موتىٰ.

تَذنيبٌ

قيل أنّ إسم شعيب يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم و قيل هو شعيب بم ميكيل من ولد مدين، و قيل لم يكن شعيب من ولد إبراهيم و أنّما هو من ولد بعض من أمن بإبراهيم و هاجر معه الىٰ الشّام و لكنّه إبن بنت لُوط فجدّة شعيب إبنة لُوط و كان ضرير البصر و هو معنى قوله تعالىٰ: **وَ إِنّٰا لَنَرٰيكَ فِينٰا ضَعِيفًا** أي ضرير البصر و كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا ذكره قال ذاك خطيب الأنبياء بحسن مراجعته قومه و أنّ اللّه تعالىٰ أرسله الى مدين (أهل مدين) و هم أصحاب الأيكة و هي الشَّجر الملتَّف و كانوا أهل كفرٍ باللّه تعالىٰ و بخسٍ للنّاس في المكاييل و الموازين و إفساد أموالهم و كان اللّه وسع عليهم في الرِّزق و بسط لهم في العيش إستدراجاً لهم منه مع كفرهم باللّه فقال لهم شعيب **يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ** الى قوله: **عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ** فلمّا طال تماديهم في غيّهم و ضلالتهم و لم يزدهم تذكير شعيب إيّاهم و تحذيره عذاب اللّه إلاّ تمادياً فلمّا أراد اللّه إهلاكهم سلَّط عليهم عذاب يوم الظّلة و هو أنّه تعالى بعث عليهم و قدةً و حرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً الىٰ البَّرية فبعث اللّه سبحانه عليهم سحاباً فأظلّتهم من الشّمس فوجدوا لها برداً ولذّةً فنادى بعضهم بعضاً حتّىٰ إجتمعوا تحتها فأرسل اللّه عليهم ناراً قال إبن عبّاس فذاك عذاب يوم الظّلة.

و قال قتادة بعث اللّه شعيباً الىٰ أمّتين الىٰ قومه الىٰ أهل مدين، و الى أصحاب الأيكة و أمّا أهل مدين فهم من ولد مدين بن إبراهيم فهذّبهم اللّه بالرَّجفة و هي الزَّلزلة فأهلكوا.

روي المجلسي قدس سره في البحار بأسناده عن أنس قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بكىٰ شعيب من حُبّ اللّه عزّ وجلّ حتّىٰ عمي فردّ اللّه تعالىٰ عليه بصره ثمّ بَكىٰ حتّى عمي فردَّ اللّه عليه بصره ثمّ بكى حتّىٰ عمي فردَّ اللّه عليه بصره فلمّا كانت الرّابعة أوحى اللّه اليه يا شعيب الى متى يكون هذا مِنك إن يكن هذا خوفاً من النّار فقد أجرتك و أن يكن شوقاً الىٰ الجنّة فقد أبحتك فقال إلٰهي و سيّدي أنّك تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك و لا شوقاً الىٰ جنّتك ولكن عقد حبّك على قلبي فلست أصبر أو أراك فأوحى اللّه جلّ جلاله اليه أمّا اذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسىٰ بن عمران انتهىٰ.

و أيضاً بأسناده قال أمير المؤمنين عليه السلام أنّ شعيباً النّبي دعا قومه الىٰ اللّه حتّىٰ كبر سنّه و دقَّ عظمه ثمّ غاب عنهم ما شاء اللّه ثمّ عاد اليهم شابّاً فدعاهم الىٰ اللّه تعالىٰ فقالوا ما صدّقناك شيخاً فكيف نصدّقك شابّاً وكان عليّ عليه السلام يكرّر عليهم الحديث مراراً.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال أنّ اللّه عزّ وجلّ لَم يبعث من العرب إلاّ خمسة أنبياء، هوداً و صالحاً و إسمعيل و شعيباً و محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النّبيين وان شعيب بكّاء.

وبأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال أَوحىٰ اللّه الى شعيب أنّي معذّب من قومك مائة ألف أربعين ألفاً من شرارهم و ستّين ألفاً من خيارهم فقال ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه أنّهم أي الأخيار داهنوا أهل المعاصي و لم يغضبوا لغضبي انتهىٰ.

و عاش شُعيب مائتين و أثنين و أربعين سنة علىٰ ما قيل و اللّه أعلم بحقائق الأمور.

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيهآ أَلٰا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ

شبّه اللّه تعالى ديار قوم شعيب التّي كانوا يسكنون فيها قبل العذاب بعد هلاك القوم و إنقطاع أثارهم فيها بحالهم لو لم يكونوا فيها يقال غني بالمكان اذا أقام به على وجه الإستغناء به عن غيره و لذلك قيل للمنازل المغاني و أنّما شبّهوا بثمود لأنّهم أهلكوا بالصّيحة كما أهلكت ثمود مثل ذلك مع الرَّجفة.

و قوله: **أَلٰا بُعْدًا لِمَدْيَنَ** دعاءٌ عليهم بإنتفاء الرَّحمة عنهم كما قال لثمود،كأن هي مخفّفة مِن الثّقيلة على أن يضمر فيها كالإضمار في أن، من قوله و أخر دعواهم أن الحمد لِلّه ربّ العالمين و يجوز أن تكون أن، الّتي تنصب الفعل بمعنى المصدر وقوله: **بَعِدت** بكسر العين و ضمّها فيها لغتان و كانت العرب تذهب بالرَّفع الى التَّباعد و بالكسر الى الدُّعاء و هما واحد و هكذا قيل.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسٰى بِاٰيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبينٍ

المراد بالأيات الحجج و المعجزات و من سُلطانٍ مبين قيل أي حجّة ظاهرة مخلصة من تلبيس وتمويه على أتّم ما يمكن فيه قيل في وجه الفرق بين الأيات والسُّلطان هو أنّ الأيات حجج من وجه الإعتبار العظيم بها و السُّلطان من جهة القوّة العظيمة علىٰ المبطل و قد قيل أنّ سُلطان الحجّة أنفذ من سلطان المملكة قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال بعضهم المراد بالأيات المعجزات التّسع أعني بها، العصا واليد و الطُّوفان و الجراد و القمّل و الضّفادع و الدَّم و نقصٍ من الأموال و الأنفس و الثّمرات و منهم من أبدل النَّقص بإظلال الجبل.

و قيل الأيات التّوراة و هذا محتمل اذا كان نزول التّوراة قبل هلاك فرعون و المشهور أنّه بعده.

قال و السلطان المبين هو الحجج الواضحة و يحتمل أن يريد بقوله أو سلطانٍ مبين فيها أي في الأيات و هي دالّة على صدق موسى عليه‌السلام و يحتمل أن يريد به العصا لأنّها أبهر تلك الأيات فنصّ عليها كما نصّ علىٰ جبرئيل و ميكائيل بعد ذكر الملائكة علىٰ سبيل التّشريف بالذّكر.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ

أي أرسلنا موسىٰ بالبيّنات و الحجج الى فرعون لإرشاده و هدايته و المراد بالملاء و هو قوم فرعون من القبط وقوله: **فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ** فيه إخبار عن قومه و أنّهم إتَّبعوه على ما كان يأمرهم به ثمّ أخبر اللّه تعالىٰ أنّ أمر فرعون لم يكن رشيداً و الرّشيد هو الّذي يدعو الى الخير و يهدي اليه.

و من المعلوم أنّ أمر فرعون كان بالشّر و الفساد كما قال اللّه تعالىٰ:

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَ بِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ

أي أنّ فرعون يقدم قومه، يقال قدم زيد القوم قدماً و قدوماً اذا تقدّمهم و فرعون كان كذلك أي كان مقدّم القوم و إمامهم فالمعنى أنّه يقدم قومه المغرقين الى النّار و بعبارةٍ أخرى كما كان متّبعاً لقومه في الضّلال كذلك يتّقدمهم الىٰ النّار و هم يتّبعونه.

و قوله: **وَ بِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ** و يحتمل أن يكون قوله: **بِرَشِيدٍ** معناه بحميد العاقبة و يكون قوله: **يَقْدُمُ قَوْمَهُ** تفسيراً له و إيضاحاً أي كيف يرشد أمر من هذه عاقبته و أنّما قال فأوردهم، ولَم يَقُل فَيُوردهُم لتّحقق وقوعه لا محالة فكأنّه قد وقع و لما في ذلك من الإرهاب و التّخويف أو هو ماضٍ حقيقةً أي فأوردهم في الدّنيا النّار أي موجبه و هو الكفر و أنت ترىٰ أنّ هذا التّأويل لا يساعده الكلام لوقوع الفاء.

و الورود في هذه الآية قيل ورود الخلود و ليس بورود الأشراف على الشّئ و قوله: **وَ بِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ** يحتمل أن يكون المورود صفة الورد أي بئس مكان الوِرد المورود النّار و يكون المخصوص محذوفاً لفهم المعنى كما حذف في قوله: **وَ بِئْسَ ٱلْمِهَادُ**(١).

و قال بعضهم الوِرد فاعل بئس، و المخصوص بالذّم المورود و هي النّار.

و قال في التّبيان، قوله فأوردهم النّار معناه أوجب ورودهم الىٰ النّار و الإيراد إيجاب الورود الى الماء أو ما يقوم مقامه و قال في بئس الورد المورود، قال أبو علّي أنّه مجاز و المعنى بئس وارد النّار.

و قال البلخي بل هو حقيقة لأنّه تعالى وصف النّار بأنّها بئس الورد المورود و هي كذلك.

و قال إبن عبّاس أنّ الورد الدُّخول و المعنى أنّ ما وردوه من النّار هو المورود بئس الورد لمن ورده.

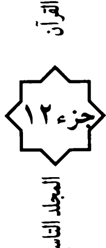
أقُول الوِرد بكسر الواو قيل أنّه مصدر، **وَرَد يَـرِدُ وِرداً وَوُرداً والوِرد** بالكسر الماء الذّي يورد.

و قال الرّاغب في المفردات الورد الماء المرشّح للورود و أستعمل في النّار علىٰ سبيل الفظاعة.

و قال بعضهم الوِرد العطش و أنّما قال ذلك لأنّ أصل الورود قصد الماء ثمّ يستعمل في غيره.

و أمّا **المَورُود** فالمراد به النّار و عليه فالمعنىٰ بئس الورد الّذي يردونه النّار لأنّ الوارد أنّما يقصد تسكين العطش و تبريد الأكباد و النّار ضدّه.

وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ



١- آل عمران = ١٢

أي و أتبع فرعون و ملاءه في هذه، أي هذه الدّنيا لعنة لأنّ اللّه و ملائكته و المؤمنين يلعنهم في هذه الدّنيا الىٰ يوم القيامة وأمّا في يوم القيامة فبئس **الرِّفد** المرفود و الرِّفد بكسر الرّاء العون علىٰ الأمر و المعنى بئس العون المعان و ذلك أنّ اللّعنة في الدّنيا رفدٌ للعذاب و مدد له و على هذا فالمرفود صفة للرِّفد و المخصوص بالذّم محذوف تقديره رفدهم و محصّل الكلام أنّ فرعون و ملاءه صاروا ملعونين في الدّنيا معذّبين في الأخرة.

■

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْقُرٰى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهٰا قٰآئِمٌ وَ حَصيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِـنْ ظَـلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ فَمٰآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ اٰلِهَتُهُمُ ٱلَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ لَمّٰا جٰآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مٰا زٰادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبيبٍ ﴿١٠١﴾ وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذٰآ أَخَذَ ٱلْقُرٰى وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُٓ أَليـمٌ شَديدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ ٱلْاٰخِرَةِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنّٰاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَ مٰا نُؤَخِّرُهُٓ إِلّٰا لِأَجَلٍ مَـعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لٰا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلّٰا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذينَ شَقُوا فَفِي ٱلنّٰارِ لَهُمْ فيهٰا زَفيرٌ وَ شَهيقٌ ﴿١٠٦﴾ خٰالِدينَ فيهٰا مٰا دٰامَتِ ٱلسَّمٰوٰاتُ وَ ٱلْأَرْضُ إِلّٰا مٰا شٰآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّٰالٌ لِمٰا يُريدُ ﴿١٠٧﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خٰالِدينَ فيهٰا مٰا دٰامَتِ ٱلسَّمٰوٰاتُ وَ ٱلْأَرْضُ إِلّٰا مٰا شٰآءَ رَبُّكَ عَطٰآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلٰا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمّٰا يَعْبُدُ هٰٓؤُلٰآءِ مٰـا يَعْبُدُونَ إِلّٰا كَمٰا يَعْبُدُ اٰبٰآؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنّٰـا لَمُوَفُّوهُمْ نَصيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَ لَـقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فيهِ وَ لَوْلٰا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُريبٍ ﴿١١٠﴾

◀ اللّغة

أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ أنباء جمع نبأ و هو الخبر و القرى بضمّ القاف جمع قرية.
قَآئِمٞ وَ حَصِيدٞ القائم المعمور و الحصيد الخراب من تلك الدّيار.
أَغۡنَتۡ أي دفعت.
مَشۡهُودٞ أي يشهده جميع الخلائق.
تَتۡبِيبٖ معناه التّخير من تبّت يده أي خسرت.
لِأَجَلٖ مَعۡدُودٖ الأجل المدّة المضروبة.
شَقِيّٞ وَ سَعِيدٞ الشّقي من شقي بسوء عمله و السّعيد من سعد بحسن عمله.
زَفِيرٞ وَ شَهِيقٌ الزّفير بفتح الزّاء الشّدة و الشّهيق بفتح الشّين وكسر الهاء صَوتٌ فَظيع يخرج من الجوف عند النّفس و أصله الطّول المفرط.
مَجۡذُوذٖ المجذوذ المقطوع.

◀ الإعراب

يقدُم قومه هو مستأنف لا موضع له ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ مبتدأ و خبر و نَقُصُّهُ حال مِنۡهَا قَآئِمٞ هو مبتدأ وخبر في موضع الحال من الهاء في نقصّه وَ حَصِيدٞ مبتدأ و خبره محذوف أي و منها حصيد و هو بمعنى محصود إِذَآ أَخَذَ ظرف والعامل فيه أَخۡذُ رَبِّكَ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مبتد و خبر و مَجۡمُوعٞ صفة يومٍ و ٱلنَّاسُ مرفوعٌ بمجموع يَوۡمَ يَأۡتِ يوم ظرف و العامل فيه تَكَلَّمُ مقدّرة و التّقدير لا تكلّم نفسٌ.

لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ الجملة في موضع الحال و العامل فيهما الإستقرار الذّي في النّار أو نفس الظّرف و يجوز أن يكون حالاً من النّار خَٰلِدِينَ فِيهَا حال و العامل فيها لَهم، مَا دَامَتِ في موضع نصب أي مدّة دوام السّموات و دام هنا تامّة إِلَّا مَا شَآءَ في هذا الإستثناء قولان:

أحدهما: هو منقطع.

الثّانى: هو متّصل و سيأتي توضيح ذلك **عَطٰآءً** إسم مصدر أي إعطاء ذلك **غَيْرَ مَنْقُوصٍ** حال أي وافياً.

◄ التّفسير

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰآءِ ٱلْقُرٰى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهٰا قٰآئِمٌ وَ حَصِيدٌ

ذلك إشارة الىٰ ما تقدّم من ذكر الأنبياء وقومهم و ما حلَّ بهم من العقوبات كما عرفت تفصيل ذلك في قصّة نُوح و هود و صالح و شعيب و لُوط و في كلمة، مِنْ إشارة الى أنّ ما تقدّم ذكره كان بعض أنباء القرى لا كلّها و عليه فالمعنى ذلك الذّي قدّمنا ذكره لك بعض أنباء القُرىٰ و أخبارها نقصّه عليك منها، أي من القرى قائمٌ و حصيد، أي بعض القرىٰ قائم و معمور و بعضها غير معمور.

و قيل المعنى بعضها، قائم على بناءه و أن كان خالياً من أهله و بعضها ليس كذلك و الحصد في الأصل قطع الزَّرع من الأصل فالحصيد منهم كالزّرع المحصود و حصدهم بالسّيف اذا قتلهم هذا معنىٰ الآية بحسب الألفاظ و اللّغات و فيها نكتةٍ خفيّة لا بأس بالإشارة اليها، و هي أنّ اللّه تعالى شبّه هؤلاء الكفّار أو ديارهم الّتي كانوا يسكنون فيها بالزَّرع فكما أنّ الزَّرع يقطع من أصله يوم حصاده لتبقى الأرض خالية منه و تستعدّ لزرع آخر كذلك الكفّار المعاندين لا فائدة في بقاءهم على الأرض فالحكمة تقتضي إهلاكهم و إفناءهم عن وجه الأرض و تخيلتها عن وجودهم و إستخلاف قوم آخرين.



إن قُلت هذه السّيرة مستّمرة في كلّ البشر فأنّ جميع الأفراد يموتون و يستخلفهم قومٌ آخرون.

قُلتُ نعم لكنّ الفرق بين الهلاكين موجود فالكافر يموت بالعذاب النّازل عليه و تلحقه اللّعنة في الدّنيا و العذاب في الأخرة فكأنّه قطع اللّه أصلَه و فرعه و أمّا غيره من الأصناف فيبقى منهم آثار الخير و تلحقهم الرَّحمة في

الدّنيا و الأخرة فالكافر الّذي أهلكه اللّه بالعذاب النّازل أشبه بالزّرع المقطوع من أصله الّذي لم يبق منه فيها بعد القطع عين و لا أثر ثمّ أنّ اللّه تعالى أشار الى أنّ الباعث على الهلاك و نزول العذاب هو الأعمال و النيّات فقال:

وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ

أي و ما ظَلمنا هؤلاء الكفّار وهم قوم نُوح و هود و صالح و لوط و شعيب و أمثالهم ممّا لم يذكر في الأيات و قد أهلكهم اللّه في طول الأزمنة و لكن ظلموا أنفسهم بسبب إنكارهم الحقّ و ما كانوا عليه من الكفر و الظّلم و الإتيان بقبائح الأفعال و إيذاء الأنبياء و بالجملة العصيان و الطّغيان و الإفساد في الأرض و غير ذلك من الأمور الشّنيعة و ما أهلكناهم إلاّ بعد إتمام الحجّة عليهم و من كان كذلك فلا دواء لداءه إلاّ الإهلاك بالعذاب في الدّارين و أنّما قال تعالى ظلموا أنفسهم لأنّ اللّه تعالىٰ لا تضرّه معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه فأنّه غنّي بالذّات عن جميع ما سواه و الى هذا المعنىٰ:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**[١].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَ لٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ وَجَدُوا مٰا عَمِلُوا حٰاضِرًا وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**[٣].

قال اللّه تعالى: **فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ بِمٰا كٰانُوا يَظْلِمُونَ**[٤].

و الأيات بهذه المضامين كثيرة.

فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ اٰلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

أي أنّ الأصنام الّتي كانوا يعبدونها لم تقدروا على دفع العذاب عنهم إشارة الى أنّ وجودها كالعدم و ما كان كذلك فكيف يعبده العاقل ويتّخذه ربّاً معبوداً.

١- النّساء = ٤٠
٢- يُونس = ٤٤
٣- الكهف = ٤٩
٤- الأعراف = ١٦٢

لَمَّا جٰآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مٰا زٰادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ

قال الزّمخشري، لمّا منصوب بما أغنت و هذا بناءً على أنّ لمّا ظرف خلاف مذهب سيبويه لأنّ مذهبه أنّها حرف وجوب لوجوب و قوله: **وَ مٰا زٰادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**.

في قوله: **وَ مٰا زٰادُوهُمْ** عومل معه معاملة العقلاء في الإسناد الىٰ واو الضّمير الّذي هو لمن يعقل و ذلك لأنّ الكفّار نزّلوا الأصنام و الأوثان منزلة العقلاء في إعتقادهم أنّها تنفع في عبادتهم أيّاهم و جرى كلام اللّه علىٰ هذا المجرى و لولا ذلك لقال و ما زادتهم غير تتبيبٍ.

قال إبن زيد التَّتبيب الشّر و المشهور أنّه الهلاك و الخسران و قيل التّدمير و هذه كلّها متقاربة و المعنى أنّ الأصنام الّتي يدعونها مضافاً الى أنّها لم تقدر على دفع العذاب عنهم زادت علىٰ خسرانهم و عقابهم و ذلك لأنّ عبادتهم أيّاها صارت موجبة لنزول العذاب عليهم.

قال الرّاغب في المفردات، التّب و التّباب الإستمرار في الخُسران **تَبَّتْ يَدٰآ أَبِي لَهَبٍ** أي إستمرت في خسرانه انتهىٰ.

وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذٰآ أَخَذَ ٱلْقُرىٰ وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ

أي و مثل ذلك الأخذ أخذ اللّه الأمم السّابقة إذ أخذ القرى أي أهلها و هي أي أهل القرىٰ ظالمة و هو الّذي صار سبباً لأخذهم كما مرّ الكلام فيه عند قوله: **مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ**.

إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ أي مؤلمٌ شديد قيل في وجه التّشبيه في قوله: **وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ** انّ أخذه الظّالم الّذي يساوي مَن تقدَّمه في ظُلمه و حاله في بطلان الفلاح ببقاءه، كأخذه الّذي قبله لأنّه ليس هناك محاباة لأحدٍ من خلقه و الأخذ نقل الشّئ الى جهة الأخذ فلمّا نقلهم الى اللّه الى جهة عقابه كان قد أخذهم به.



إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ الْآخِرَةِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ في ما أخبر به مِن إهلاك قوم نُوح و غيرهم على وجه العُقوبة لهم على كفرهم، آية اى علامة عظيمة بما فيها من البيان عن الأمر الكثير.

و قال بعض المفسّرين قوله الآية لمن خاف عذاب الأخرة أي لعبرة لأنّه ينظر الىٰ ما أحلَّ اللّه بالمجرمين في الدّنيا و ما هو إلاّ أنموذجٌ ممّا أعدَّ لهم في الأخرة.

أقول معنى الكلام واضح لا خفاء فيه سواء قلنا أنّ الآية بمعنى العَلامة أم قلنا بمعنى العبرة إلاّ أنّ الأوّل أوفق باللُّغة و الثّاني بالمعنى فعلىٰ الأوّل يصير المعنى أنّهم إذا عذّبوا في الدّنيا لأجل تكذيبهم الأنبياء و إشراكهم باللّه وهي دار العمل فلأن يعذّبوا علىٰ ذلك في الأخرة الّتي هي دار الجزاء أولى و ذلك أنّ الأنبياء أخبروا بإستئصال من كذَّبهم و أشركوا باللّه و وقع ما أخبروا به وفق إخبارهم فدَّل علىٰ أنّ ما أخبروا به من البعث و الجزاء صدق لا شكّ فيه.

و أمّا قوله: **ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ** فهو إشارةٌ الىٰ يوم القيامة فأنّه اليومُ الّذي يجمع فيه النّاس و يشهده جميع الخلائق و ليس يوصف في هذه الصِّفة يومٌ سواه و الجمع ضمّ أحد الشّيئين الىٰ آخر:

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنٰاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَكَيْفَ إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِيَوْمٍ لٰا رَيْبَ فِيهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنٰاهُمْ جَمْعاً**[٣].

و هكذا وَ **مٰا نُؤَخِّرُهُ إِلّٰا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ** الضّمير في قوله: **نُؤَخِّرُهُ** عائد على قوله: **يَوْمٌ مَشْهُودٌ**.

١- المُرسلات = ٣٨ ٢- آل عمران = ٢٥

٣- الكَهف = ٩٩

و هو يـوم الجـزاء و المـعنى ليس تأخـير يـوم الجـزاء إلاّ يسـتوفي الأجـل المضروب لوقوع الجزاء فيه و يحتمل رجـوع الضَّـمير الىٰ الجـزاء و المـعدود المحدود و قيل إلاّ لأجل معدود، أي لقضاء سابق قد نفذ فيه بأجلٍ مـحدودٍ لا يتقدّم عليه و لا يتّأخر عنه.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ

قرأ النّحويون و النافع، يأتي بإثبات الياء وصلاً و حذفها وقفاً.

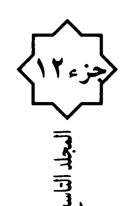
و قرأ إبن كثير بإثباتها وصلاً و وقفاً.

و قرأ باقي السَّبعة بحذفها وصلاً و وقفاً و عليه المصاحف فعلاً و قـوله: **لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ** أي لا تتكلّم نفسٌ فحذف أحدى التّائين لدلالة الكلام عليه.

إن قلت بما أنتصب الظَّرف، أعني، به يوم، قلت إمّا بلا تكلّم و إمّا بـإضمار، أذكر، أي أذكر يوم لا تكلّم نفسٌ و المعنى أنّ اليوم المشهود و هو يوم القـيامة يوم يأتي اللّه عزّ وجلّ: **لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ** إلاّ بإذنه و على هذا فقوله: **يَوْمَ** ظرف و يأت فعل و فاعله، اللّه تعالىٰ و قوله لا تكلّم نفسٌ أي لا تتكلّم نفسٌ إلاّ بإذنه و منه قوله تعالىٰ: **لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قَالَ صَوابًا**[١]

و قوله: **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ** من للتّبعيض أي من الخلائق الّذين يجمعون يوم القيامة بعضهم شقّيٌ و بعضهم سعيد و من المعلوم أنّ الشّـقي مـصيره الىٰ النّار و السَّعيد الىٰ الجنّة.

وإعلم أنّ السّعادة معاونة الأمور الإلٰهيّة للإنسان عـلىٰ نـيل الخـير و يـضّاده الشّقاوة فية خلاف السّعادة و كـلّ إنسـانٍ لا يـخلو مـنهما لأنّ رفـعهما إرتـفاع النقيضين كما أنّ جمعها إجتماعهما فقوله تعالىٰ فـمنهم شـقّيٌ و سـعيدٌ، يـفيد حصر الإنسان فيهما إمّا هذا وإمّا هذا اذا عرفت هذا فنقول:



١- النّبأ = ٣٨

إختلفوا في أنّ السّعادة و الشّقاوة ذاتيّتان للإنسان او عرضيتان فعلى الأوّل يكون السّعيد سعيداً ذاتاً و الشّقي كذلك بمعنى أنّ تبديل أحدهما بالأخر لا يمكن فالسَّعيد لا يصير شقّياً و الشّقي لا يصير سعيداً فلو قيل لم كان السَّعيد سعيداً و الشّقي شقّياً يقال في الجواب أنّهما من لوازم ذات الإنسان و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ الذّاتي لا يعلّل.

قال السّبزواري في المنظومة:

ذاتّي شيءٍ لم يكن فعلّلاً

وقال في موضع أخر:

ذاتّي شيءٍ بيّنِ الثّبوت له

و معنى هذا الكلام أنّه لا يقال لم كان الشّقي شقّياً و السَّعيد سعيداً كما لا يقال لم كانت النّار حارّة و لم كان الماء رطبة و أمثال ذلك من الذّاتيات الّتي لا تتغيّر و لا تتبدّل.

علىٰ الثّانى: و هو أن تكونا عرضيتين فتبديل أحدهما بالأخر ممكنٌ لا محذور فيه كما في جميع الصّفات العرضيّة ألا ترى أنّ الكافر يصير مؤمناً و بالعكس و الجاهل يصير عالماً و بالعكس و البخيل يصير سخيّاً و بالعكس و الظّالم يصير عادلاً و بالعكس و هذا الكلام في الأعراض الطّارئة على الجسم.

و الحاصل أنّ العرض معلّلٌ و الذّاتي لا يعلّل و على هذا فلو قلنا بأنّ السّعادة و الشّقاوة ذاتّيتان للإنسان يعني أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان سعيداً و شقّياً و هما من لوازم ذاته و الذّاتي لا يتغيّر أصلاً كما هو المفروض يلزم أن يكون التكلّيف عبثاً و لازم ذلك هو تعطيل دائرة التّشريع بالكلّية و عليه فإرسال الرُّسل و إنزال الكتب و جميع الأحكام الشّرعية لا فائدة فيها لأنّ النّبي المبعوث الى الشّقي مثلاً لا يقدر على إرشاده و هدايته قطعاً فيلزم إختصاص فائدة البعث بالسُّعداء و هو كما ترىٰ لا يقبله العقل السّليم لو لم نقل أنّه مِن تحصيل الحاصل و كيف يعقل إحتياج السّعيد الى النّبي و عدم إحتياج الشقّي

اليه بل الشقّي أحوج اليه من السّعيد و المفروض أنّ الشقّي لا يتّغير و لا يمكن أن يصير سعيداً فجميع الكفّار في فسحةٍ من دعوة الأنبياء إيّاهم الى الإيمان لأنّ اللّه خلقهم للكفر تبديل لخلق اللّه و اذا كان كذلك فما معنىٰ الثّواب و العقاب و الحساب و الميزان و بالجملة ما معنى يوم الحساب.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

وإعلم أنّ اللّه تعالىٰ حكم على بعض أهل القيامة بأنه سعيدٌ و على بعضهم بأنّه شقّي و من حكم اللّه عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر إمتنع كونه بخلافه و إلاّ لزم أن يصير خبر اللّه تعالىٰ كذباً و علمه جهلاً و ذلك محال فثبت أنّ السّعيد لا ينقلب شقّياً و أنّ الشّقي لا ينقلب سعيداً و تقرير هذا الدّليل مرَّ في هذا الكتاب مراراً لا تحصى.

و روي عن عمر أنّه قال نزل قوله: **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ** قلتُ يا رسول اللّه فعلى ماذا نعمل على شيءٍ لَم يفرغ منه فقال علىٰ شيءٍ قد فرغ منه يا عُمر و جفّت به الأقلام و جرت به الأقدار و لكن كلٌّ ميسّرٍ لمّا خلق له انتهى كلامه.

أقُول لا نتعجّب من الرّازي فأنّه من الأشاعرة القائلين بالجبر و من المعلوم أنّ كلّ واحد يجرّ النّار الىٰ قرصته و لكن نتعجّب من إستدلاله بحديثٍ رواه عن عُمر عن رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لم يعلم أنّ البحث عقلّيّ قبل أن يكون مؤيّداً بالسّمع.

و من المعلوم المسلّم عند جميع العقلاء أنّ النّقل لا يعارض العقل السّليم و لا سيّما النّقل عن عُمر و أبي هريرة و سمرة و أمثالهم ألا ترىٰ أنّهم رووا عن رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنّه قال سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، أو كما ترون هذا القمر و هل يقول عاقل بصحّة هذه الأحاديث مع أنّ الأدلّة العقليّة تنفي الرّؤية مطلقاً و ما نحن فيه من هذا القبيل فلا يجوز لنا رفع اليد عمّا يقتضيه العقل السّليم الخالي عن شوائب الأوهام لأجل هذه المنقولات التّي لا تسمن و لا تغني.

و الحاصل أنّ الدّليل القاطع لا يدفع بهذه الرّوايات فثبت و تحقّق أنّ ذاتيّة الشّقاوة و السّعادة لا معنى لها لأنّها توجب تعطيل دائرة الشّرع و القيامة و الثّواب و العقاب بل نسبة الظّلم الىٰ اللّه تعالىٰ بل نقول لا ظلم أفحش منه و أنّما قلنا به لأنّ الخالق اذا خلق العبد شقّياً ثمّ عاقبه على شقاوته و كفره و إلحاده و المفروض عدم قدرة العَبد علىٰ ترك الشّقاوة فهو من أقبح الظّلم و أفحشه أليس للعبد أن يقول لخالقه لم تعذّبني علىٰ شقاوتي و أعمالي خلقتني للشّقاوة و الكفر فما يقول الخالق في جوابه فأن قال في جواب العبد لا تتكلّم فقد جفَّت به الأقلام و جرت به الأقدار أليس للعبد أن يقول لم جفّت الأقلام و جرت الأقدار في حقّي بالشّقاوة و في حقّ غيري بالسّعادة و ما كان ذنبي قبل وجودي و اذا كان الأمر على هذا المنوال فالقول بأنّ السّعادة و الشّقاوة ذاتّيتان كما عليه الأشاعرة عاطلٌ باطل من أصله و القائل به لا يفهم ما يقول و هو ظاهر.

أمّا القسم الثّاني: و هو كونهما عرَّضيتان فهو الصّحيح الموافق للعقل و النّقل و معنى ذلك أنّ حصولهما تحت إختيار العبد و لتوضيحه نقول، أنّ الإنسان في بدو خلقته لا يحكم عليه بأنّه شقّي أو سعيد لما ذكرناه و دلَّلنا عليه من أنّ اللّه تعالىٰ أعدل من أن يخلق الإنسان شقّياً أو سعيداً و لكنّه قابل و مستعدٌّ لهما فأنّ مقام القابلّية غير مقام الفعليّة و البحث في الفعلّية لا في القوّة و اذا كان قابلاً لهما فأن قبل دعوة الأنبياء و أطاع أوامرهم و نواهيهم فعلاً و تركاً و فعل الأعمال الصّالحة و ترك القبائح و المعاصي و جالس الصُّلحاء و إتَّعظ بمواعظ اللّه و بالجملة كان مطيعاً لربّه فيصير من السُّعداء و الصُّلحاء و أن لم يقبل دعوة الأنبياء و سلك مسلك الطّغيان و التمّرد و بقي علىٰ ما كان عليه من الكفر و الإلحاد فلا محالة يصير من الأشقياء و عليه فالسّعادة و الشّقاوة من الأمور الكسبّية كالعلم و الشّجاعة و العدالة و أمثال ذلك من الصّفات الكسبيّة العارضة علىٰ ذات الإنسان و أنّما قلنا ذلك لأنّ الإنسان مختار في فعله و تركه و المختار لا يكون مجبوراً.

و أمّا قول الجبري أنّ اللّه تعالىٰ كان عالماً من الأزل بشقاوة العبد أو بسعادته ففي صورة التّغير و التّبديل يلزم أن يكون علمه جهلاً و هو محال.

فنقول في جوابه، نحن أيضاً نقول بمقالتكم و لا نخالفكم فيها إلاّ أنّا نقول هو كان عالماً بشقاوة العبد و سعادته بإختياره و بعبارةٍ أخرىٰ أنّ اللّه تعالىٰ كان عالماً بأنّ هذا العبد يختار الشّقاوة و هذا يختار السّعادة في دار الدّنيا و لا شكّ أنّ ما علم اللّه يحصل و لا خلاف فيه.

و أمّا نتم تقولون أنّ علمه تعالىٰ بذلك صار علّة لوجود السّعادة و الشّقاوة المسلّم عند العقلاء أنّ العلم الأزلي لا يكون علّة و سبباً للشّقاوة و لنعم ما قيل بالفارسية:

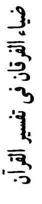
علم ازلى علّت عصيان بُودن نزد عُقلا زغايت جَهل بُود

إن قلت فما معنىٰ الخبر الّذي رُوي عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال صلى الله عليه وآله وسلم: الشّقي شقيٌّ في بطن أُمّه والسّعيد سعيد في بطن أمّه، و أمثال ذلك ممّا روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

قُلت أمّا هذا الحديث فلم نجد له مأخذاً صحيحاً و لا سنداً و أنّما هو من المشهورات الّتي لا أصل لها كما قيل ربّ مشهورٍ لا أصل له.

و علىٰ فرض صحّته فهو مؤلّ بأن يقال الشّقي في بطن أمّه في علم اللّه و هكذا السَّعيد أو يقال المراد قابليّته لهما في بطن أمّه ذلك من التّأويلات و قلنا أنّ الخبر لا أصل له.

و محصّل الكلام هو أنّ الأحاديث الواردة في الباب علىٰ خلاف ما أثبتناه و أصلّناه بعد صحّة إسنادها قابلة للتّأويل ما هو شأن النَّقل المعارض لصريح العقل.



فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ، خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَ ٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ

قال الضّحاك و مقاتل والفرّاء الزّفير أوّل نهيق الحمار و الشّهيق أخره.

و قال الأخرون الزّفير في الحلق و الشّهيق في الصّدر.

و قال إبن السّائب الزّفير زفير الحمار و الشّهيق شهيق البغال.

و قال الرّاغب في المفردات الزّفير تردّد النّفس حتّى تنتفخ الضلوع منه و إزدفر فلان كذا إذا تحمّله بمشقّةٍ فتردّد فيه نفسه و قال الشّهيق طول الزّفير وهو ردّ النّفس و لازّفير مدُّه و أصله من جبلٍ شاهق أي متناهي الطُّول انتهىٰ.

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الذّين شقوا بإستحقاقهم النّار جزاء بسوء أعمالهم داخلون فيها و أنّما سمّي الشّقي شقّياً قبل دخوله في النّار لأنّه علىٰ حال تؤدّيه الىٰ دخولها من قبائح أعماله.

فأمّا ما روي من قوله، أنّ الشّقي شقّي في بطن أمّه، فجاز لأنّ المعنى أنّ المعلوم من حاله أنّه سيشقى بإرتكاب المعاصي الّتي تؤدّيه الى عذاب النّار كما يقال لولد شيخ هرم هذا يتيم و معناه أنّه (سَيُتَيتم) أي سيكون كذلك قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول ما ذكره ﷺ حقّ لا مرية فيه و هو يؤيّد ما ذكرناه والذّي نقول في المقام مضافاً الىٰ ما ذكرناه في معنىٰ السّعادة و الشّقاوة هو أنّ قوله تعالىٰ فأمّا الّذين شقوا، دليل علىٰ ما ذكرناه في معنىٰ الشّقاوة و هو أنّها ليست ذاتّية و ذلك لأنّه تعالىٰ قال فأمّا الذّين شقوا و لم يقل أنّ الأشقياء في النّار مثلاً للإشارة الى أنّ الشّقاوة ممّا إكتسبه العبد و لذلك نسبت اليه في قوله: **شَقُوا** فأنّ معناه أنّهم شقوا بإختيارهم كما يقول هؤلاء ضربوا زيداً أو أكلوا خبزاً و أمثال ذلك ممّا ينسب الفعل الىٰ الفاعل و هكذا القول في قوله: **سَعدوا**، وليت شعري ماالفرق بين هذا الكلام و بين قوله تعالىٰ.

و أمّا الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات فلهم كذا و كذا و أمّا الّذين كفروا فلهم كذا و كذا أليس المعنىٰ أنّ الّذين أمنوا أو كفروا بإختيارهم فأن قالوا أنّ الإيمان و الكفر أيضاً خارجان عن قدرته بل المؤمن خلق مؤمناً و الكافر كافراً نقول في

جوابهم لو كان كذلك فحقُّ العبارة أن يقال و أمّا المؤمنون كذا و الكافرون كذا، و لم يقل هكذا بل قال أمّا الّذين أمنوا، أو كفروا أي أمنوا بعد أن لم يكونوا مؤمنين و كفروا بعد أن لم يكونوا من الكافرين فلو كانوا بحسب الخلقة مؤمنين أو كافرين لا يصّح قوله تعالىٰ: **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أو كفروا**، اذ لقائل أن يقول أنّهم لم يؤمنوا و لم يكفروا بل كانوا كذلك وهكذا الكلام في مورد البحث اذ لو كان الشّقي شقّياً في بطن أمّه و السّعيد كذلك لا يصحّ أن يقال فأمّا الذّين شقوا أو سعدوا لأنّه يعدّ من الكذب تعالىٰ اللّه عنه و أنّما قلنا أنّه كذب لأنّه تعالىٰ قال فأمّا الّذين شقوا فكذا و كذا و هؤلاء لم يشقوا بل كانوا شقّياً في الأصل المعلوم أنّ نسبة الفعل الىٰ غير فاعله كذبٌ.

و محصّل الكلام هو أنّ الآية ظاهرة بل دالّة على نسبة الفعل و هو الشّقاوة الىٰ العبد بدليل قوله شقوا، و المفروض أنّه لم يشق بفعله و إختياره بل خلق شقيّاً و هذا كما ترىٰ.

ثانياً: نقول الآية مصّرحة بأنّ الّذين شقوا في النّار و لا تدلّ على أنّ الشّقي بحسب ذاته في النّار و هكذا في السّعيد فيلزم أن لا يكون الشَّقي الذّاتي في النّار بل الذّين إكتسبوا الشّقاوة في الدّنيا يدخلون النّار و هو أيضاً كما ترىٰ.

و أمّا قوله: **لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ** فقد مرّ الكلام في معناهما و المعنىٰ أنّهم في النّار في نهاية الشدّة و العسرة فأنّهما كنايتان عن شدّة العذاب و لا يبعد أن يكون لهم فيها زفيرٌ و شهيقٌ واقعاً.

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَ ٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ أخبر اللّه تعالىٰ عن هؤلاء الأشقياء أنّهم مُخلّدون في النّار ما دامت السّموات و الأرض و الخلود الكون في الأمر أبداً، و الدّوام البقاء أبداً و لهذا يوصف اللّه بأنّه دائم و لا يوصف بأنّه خالدٌ فالخلود لا يكون دائميّاً و لذلك قيّده اللّه تعالىٰ بقوله ما دامت السّموات و الأرض أي ما دامت السّموات و الأرض باقيّة و إختلفوا في معنى المراد بهما علىٰ قولين:

أحدهما: أنّ المراد بهما هو السّماء والأرض المعهودتين في الدّنيا و أجرى ذلك علىٰ عادة العرب في الإخبار عن دوام الشّيء و تأبيده كقولهم أتيك ما جنَّ اللّيل (ليلٌ) أو سال سيلٌ، و ما إختلف اللّيل و النّهار، و ما ناح الحمام، و ما دامت السّموات و الأرض و نحو هذا ممّا يريدون به طولاً من غير نهاية فأفهمهم اللّه تخليد الكفرة بذلك وأن كان قد أخبر بزوال السّموات و الأرض.

ثانيهما: أنّ المراد بهما سموات الجنّة و النّار و أرضهما و ذلك لأنّ السّماء كلّ ما علاك فأظلك و الأرض ما إستقرّ عليه قدمك و لا شكّ أنّ سموات الجنّة و أرضهما مخلوقتان للابد و إستدلّ صاحب الكشّاف علىٰ أنّ لها سموات و أرضاً.

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلسَّمٰوٰتُ.**

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ** [1] انتهىٰ.

أقول قال الرّاغب في المفردات، الخلود هو تبرّئ الشّئ من إعتراض الفساد و بقاءه على الحالة الّتي هو فيها و كلّ ما يتّباطئ عنه التّغير و الفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للإثافي خوالد و ذلك لطول مكثها لا لدوام بقاءها و أصل المخلّد الّذي يبقىٰ مدّةً طويلة و منه قيل رجلٌ مخلَّد لمن أبطأ عنه الشّيب الى أن قال و الخلود في الجنّة بقاء الأشياء على الحالة الّتي عليها من غير إعتراض الفساد عليها انتهىٰ.

و علىٰ هذا فقوله تعالىٰ: **خَالِدِينَ فِيهَا** معناه بقاءهم علىٰ الحالة الّتي هم عليها من غير إعتراض الفساد عليها فقولهم في تفسير الآية أنّه أي الخلود فيها كناية عن الدّوام و التّأبيد أن كان مرادهم بالدّوام بقولٍ مطلق يعني التّأبيد فلا معنى له لعدم مساعدة اللّغة إيّاه و أن كان مرادهم به الدّوام المؤقّت أعني مكثهم فيها طويل لا يعلم مدّته إلاّ اللّه فهو صحيحٌ و يؤيّد هذا المعنى أنّه علّق



١- الزمر = ٧٤

الخلود على بقاء السّموات و الأرض و غيرهما من المخلوقات لا تكون دائمّياً لقوله تعالىٰ: **كُلُّ شَىْءٍ هٰالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ** فما علّق بقاءه أيضاً لا يكون دائمّياً و ينتج أنّ الخلود في الجنّة و النّار منقطع الأخر و لا يكون دائمّياً أبديّاً و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **إِلّا ما شٰآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّٰالٌ لِما يُرِيدُ** إختلفوا في هذا الإستثناء علىٰ أقوالٍ ذكر أكثرها الشّيخ في التّبيان.

أحدها: ما يليق بمذهبنا في الأرجاء و هو أنّ اللّه تعالىٰ أخبر أنّ الأشقياء المستحقّين للعقاب يحصلون في النّار ثمّ إستثنى من أراد من فسّاق أهل الصّلاة اذا أراد التَّفضل بإسقاط عقابه أو من يشفع فيه النّبي ﷺ فأنّه عند ذلك لا يدخله النّار و تكون علىٰ هذا، ما، في قوله: **ما شٰآءَ** معناها، من، كأنّه قال إلاّ من شاء ربّك فلا يدخله النّار و هو قوله قتادة و إبن عبّاس و الضّحاك و جابر بن عبد اللّه و أبي سعيد الخدري و جماعة من المفسّرين و يجوز علىٰ هذا المذهب أن يكون إستثناءً من الخلود فكأنّه قال إلاّ من شاء ربّك بأن لا يخلدهم في النّار بل يخرجهم عنها.

قال إبن عبّاس قوله تعالىٰ: **لابِثِينَ فيهآ أَحْقٰاباً**[١] **خٰالِدِينَ فيهآ إِلّا ما شٰآءَ رَبُّكَ** في أهل التّوحيد.

ثانيها: قال إبن زيد و حكاه الرّماني أنّ المعنىٰ خالدين فيها ما دامت السّموات و الأرض إلاّ ما شاء ربّك من الزّيادة المضاعفة.

ثالثها: قال الجبائي أنّ المعنى مادامت السّموات لأهل الأخرة و أرضهم إلاّ يما شاء ربّك ممّا كان قبل أن يدخلوها من أوقات وقوفهم في صدر يومهم في الموقف لأنّ اللّه تعالىٰ قال: **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلسَّمٰواتُ**.

رابعها: ما ذكره كثير من أهل العربّية كالفرّاء و الزّجاج و غيرهم أنّ إلاّ، في الآية بمعنى سوىٰ، و التّقدير ما دامت السّموات و الأرض سوىٰ ما شاء ربّك كما يقول القائل، لو كان معنا رجل إلاّ زيد أي سوى زيد و لك عندي ألف

١- النّبَأ = ٢٣

درهم إلاّ الألفين التّي لك عندي أي سوىٰ الألفين و مثله قوله: **وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ اٰباۤؤُكُمْ مِنَ اَلنِّساۤءِ إِلّا ما قَدْ سَلَفَ**[1] أي سوىٰ ما قد سَلَف لأنّ قوله: **وَ لا تَنْكِحُوا** مستقبل و **إِلّاٰ ما شاۤءَ رَبُّكَ** ماض و المعنىٰ علىٰ هذا خالدين فيها مقدار دوام السّموات و الأرض سوى ما شاء ربّك من الخلود و الزّيادة.

خامسها: إنّ إلاّ بمعنىٰ، واو، كما قال الشّاعر:

وكلّ أخٍ مفارقة أخوه لعمر أبيك إلاّ الفرقدانِ

و علىٰ هذا لو قال القائل لك عندي ألف إلاّ ألفين لزمه ثلاث ألاف درهم لأنّ إستثناء الزّائد من النّاقص.

سادسها: أنّ ذلك تعليقٌ لما لا يكون بما لا يكون كأنّه قال: **إِلّاٰ ما شاۤءَ رَبُّكَ و هو** لا يشاء أن يخرجهم منها و تكون الفائدة أن لَو شاء أن يخرجهم لقدر و لكنّه قد أعلمنا أنّهم خالدون أبداً.

سابعها: ذكره الزّجاج و هو أنّ الإستثناء وقع على أنّ لهم زفيراً و شهيقاً: **إِلّاٰ ما شاۤءَ رَبُّكَ** من أنواع العذاب التّي لم يذكرها.

ثامنها: ما ذكره البلخي و هو أنّ المراد بذلك: **إِلّاٰ ما شاۤءَ رَبُّكَ** من وقت نزول الآية أو من يوم يموتون.

فأن قيل كيف يستثنى من الخلود فيها ما قبل الدُّخول فيها، قلنا يجوز ذلك اذا كان الإخبار به قبل دخولهم.

تاسعها: ما ذكره قوم من أصحابنا في التّفسير أنّ المعنى أنّهم فيها يعني في النّار في حال كونهم في القبور، دائمين فيها ما دامت السّموات و الأرض، فأنّها اذا عدمت إنقطع عقابهم الىٰ أن يبعثهم اللّه للحساب.

و قوله: **إِنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ** معناه أنّه كلّما أراد شيئاً فعله لأنّه لا يجوز عليه البداء بالرّجوع عمّا أراده و لا المنع من مراده و لا يتعذّر عليه شئ مع كثرته بإرادةٍ من أفعاله انتهىٰ.

١- النّساء = ٢٢

ما ذكره الشّيخ من نقل الأقوال في الآية و يظهر منه مُتَيِّنٌ أنّه إختار أوّل الوجوه لأنّه قال أنّه أليق بمذهبنا في الإرجاء.

و قال بعض المفسّرين من العامّة لهذه الآية و الظّاهر أنّ قوله ما شاء ربّك إستثناء من الزّمان الدّال عليه قوله: **خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّمٰواتُ وَ الْأَرْضُ** و المعنى إلاّ الزّمان الّذي شاء اللّه تعالىٰ فلا يكون في النّار و لا في الجنّة.

و قال الأخر أنّ ذلك على طريق الأستثناء الذّي ندب الشّرع الىٰ إستعماله في كلّ كلامٍ فهو على نحو قوله تعالىٰ: **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ**(١) إستثناء في واجب و هو في حكم الشّرط كأنّه قال إن شاء اللّه فليس يحتاج أن يوصف بمتّصلٍ و لا منقطع انتهىٰ كلامه.

و قال الزّمخشري في الكشّاف ما هذا لفظُه:

فإن قلت فما معنىٰ الإستثناء في قوله: **إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ** و قد ثبت الخلود لأهل الجنّة و النّار في الأبد من يغر إستثناء.

قلتُ هو إستثناء من الخلود في عذاب النّار و من الخلُود في نعيم الجنّة و ذلك لأنّ أهل النّار لا يخلدون في عذاب النّار وحده بل يعذّبون بالزّمهرير و بأنواعٍ من العذاب سوىٰ النّار بما هو أغلظ منها كلّها و هو سخط اللّه عليهم و خسئوه لهم و إهانتهم و كذلك أهل الجنّة لهم سوىٰ الجنّة ما هو أكبر منها و أجّل موقعاً منهم و هو رضوان اللّه كما قال:

وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ(٢).

و لهم ما يتفضّل اللّه به عليهم سوىٰ ثواب الجنّة ممّا لا يعرف كنهه إلاّ هو فهو المراد بالإستثناء و الدّليل عليه قوله: **عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** و معنى قوله في مقابلته **إِنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ** أنّه يفعل بأهل النّار ما يريد من العذاب كما



١- الفتح = ٢٧
٢- التوبة = ٧٢

يعطي أهل الجنة عطاءه الذّي لا إنقطاع له فتأمّله فأنّ القرأن يفسّر بعضه بعضاً و لا يخدّ عنك قول المجبّرة أنّ المراد بالإستثناء خروج أهل الكبائر من النّار بالشّفاعة فأنّ الإستثناء الثّاني يكذّبهم و يسجّل بإفتراءهم و ما ظنّك بقومٍ نبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم.

لما روي لهم بعض النّاقلين عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ليأتينَّ علىٰ جهنّم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد و ذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، و قد بلغني أنّ من الضُّلال من إغتَّر بهذا الحديث فإعتقد أنّ الكفّار لا يخلدون في النّار و هذا و نحوه و العياذ باللّه من الخذلان المبين زادنا اللّه هداية الىٰ الحقّ و معرفة بكتابه و تنبيهاً علىٰ أن نعقل عنه و لئن صحّ هذا عن إبن العاص فمعناه أنّهم يخرجون من حرّ النّار الى برد الزّمهرير فذلك خلّو جهنّم وصفق أبوابها.

و أقُول ما كان لإبن عمرو في سيفيه و مقاتلته بهما علّي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى كلام صاحب الكشّاف بألفاظه و عباراته و لابدّ لنا من التّكلم فيه لِما فيه من الأعوجاج ما لا يخفى علىٰ المتأمّل البصير بحقائق الأمور فنقول:

أمّا قوله هو إستثناءٌ من الخلود في عذاب النّار و من الخلود في نعيم الجنَّة فهو ممّا لا إشكال فيه فأنّه أحد الأقوال في الباب بل أوثقها و أحسنها أيضاً نقول به و أمّا قوله أنّ أهل النّار لا يخلدون في عذاب النّار وحده بل يعذّبون بالزّمهرير و بأنواع العذاب سوىٰ عذاب النّار، فلا نسّلمه إذ لا دليل على ما ذكره و الآية ساكتة عمّا ذكره من التّفصيل بل هي مصرّحة بأنّ الأشقياء في النّار خالدين فيها و الظّاهر منها أنّ عذابهم عذاب النّار فقط و ما زاد عليه يحتاج الى الدّليل و إذ ليس فليس و هكذا الكلام في أهل الجنَّة فقوله فهو المراد بالإستثناء أعني ما يتفّضل اللّه علىٰ أهل الجَّنة من الثّواب و ما يزيد على أهل النّار من العذاب.

لا دليل عليه بل هو خلاف ظاهر الآية و كيف يكون هو المراد بالإستثناء و ليس منه في الآية عين و لا أثر.

و قوله فى: **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** أي أنّه يفعل بأهل النّار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجّنة عطائه الّذي لا إنقطاع له.

نقول في جوابه أنّه تعالى يفعل بعباده ما يريد و أمّا أنّه يفعل بأهل النّار ما يريد من العذاب و أن كان حقّاً في الواقع إلاّ أنّ تفسير الكلام به لا يصّح بل المعنى أنّه تعالىٰ يفعل بهم ما يريد إمّا العذاب و إمّا العفو.

و إنّما قال الزّمخشري ذلك لأنّ مذهبه أنّ أهل الكبائر يخلدون في النّار أبداً و لا يجوز إنقطاع العذاب عنهم و تفسير كلام اللّه على مذهب الإعتزال من التّفسير بالرّأي و هو كما ترى خلاف العقل و الشّرع و ذلك لأنّه أيّ إشكالٍ عقلاً و شرعاً في أن لا نحمل كلام اللّه على مسلك الإعتزال و نقول أنّه تعالىٰ: **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** في حقّ عباده أمّا إدامة العذاب و إمّا قطع العذاب و إخراج العبد من النّار بسبب العفو و هذا معنى فعّال لما يريد لا ما قاله من أنّه يفعل بهم ما يُريد من العذاب فقط و من أين علم الزّمخشري أنّه تعالىٰ يريد العذاب و لا يريد العفو و إنقطاع العذاب و بعبارةٍ أخرىٰ معنى قوله: **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** أنّه فعّال لأيّ شئٍ يريد من العذاب و العفو فتخصيص الكلام بالعذاب دون العفو منافٍ لظهور الكلام و العجب من الزّمخشري و هو من أساطين علماء الأدب و اللُّغة و بالجملة هو أعرف بكلام العرب منى غيره فكيف يقول أي يفعل بهم ما يريد من العذاب فقط أليس هذا التّفسير منافٍ لظاهر اللّفظ.

و أمّا قوله و لا يخدُّعنك قول المجبّرة أنّ المراد بالإستثناء خروج أهل الكبائر من النّار بالشّفاعة فطريفٌ من القول بل أطرف.

أمّا أوّلاً: فلأنّ خروج أهل الكبائر من النّار لا يختصّ بالمجبّرة و لا نعلم أنّهم يقولون به أم لا بل هو مذهب أهل الحقّ و القول بعدم خروجهم مذهب أهل

الباطل و هو منهم أعني بهم المعتزلة و هل يجوز لمدّعي الإسلام أن ينكر الشّفاعة يوم القيامة لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ألم يسمع الزّمخشري.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من لم يؤمن بحَوضي فلا أورده اللّه حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أنا له اللّه شفاعتي ثمّ قال عليه السلام أنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي وأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل انتهىٰ.

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: وقد أخبأت دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة انتهىٰ.

و في حديثٍ أخر قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا يشفع أحد أكثر ممّا يشفع فيه نبيّكم ثمّ النَّبيون ثمّ الصّديقون ثمّ الشّهداء الحديث.

و لا تختصّ الشّفاعة برسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بل الأئمّة و الشّهداء و الصّلحاء و الأنبياء و غيرهم أيضاً يشفعون و صاحب الكشّاف يدّعي الإسلام فكيف يقول أنّ خروج أهل الكبائر بالشّفاعة قول المجبّرة.

و اذا ثبت أصل الشّفاعة فهي لا محالة في حقّ الكبائر من المعاصي أو في الصّغائر و الكبائر معاً و أمّا الكفّار فلا كلام لنا فيهم و للبحث فيه مقام أخر.

والذّي نقول و نذهب اليه هو أنّ أهل الكبائر أيضاً تتعلّق الشّفاعة بهم إشكال فيه عقلاً و شرعاً و تخصيصها بالصّغائر لا دليل عليه و اذا كان كذلك فلا مانع عقلاً و شرعاً في خروج أهل الكبائر من النّار بسبب الا شّفاعة رغماً لأنوف المنكرين خذلهم اللّه و أبعدهم اللّه عن شفاعة الشّافعين.

و أمّاالحديث الذّي رواه عن إبن العاص فقد روي عن إبن مسعود لا غيره فأن نقلوه عن إبن أبي العاص أيضاًكما ذكره الزّمخشري و نسبه اليه فلا إشكال فيه اذ هو تعالىٰ لا يسئل عمّا يفعل و هم يسألون و لا دليل من العقل أو النّقل علىٰ خلافه.

و أمّا قوله أنّ الإستثناء الثّاني ينادي على تكذيبهم فالجواب عنه يأتي في محلّه و من العجائب أنّه قال و ما ظنّك بقوم نبذوا كتاب اللّه لما روي لهم بعض النّوابت الخ و لم يعلم أو لم يتفطّن بأنّ حَمل كلام اللّه على مذهب المعتزلة

أفحش و أشنع و من فعل ذلك فهو من أعظم المصاديق لقوله نبذوا كتاب اللّه أعاذنا اللّه منه.

فثبت و تحقّق أنّ الإستثناء من الخلود و معناه أنّ الذّين شقوا ففي النّار خالدين فيها إلاّ ما شاء ربّك من إخراج من أراد منها في أيّ زمانٍ شاء و بأيّ نحوٍ شاء فأنّ ربّك فعّال لما يريد أي يفعل بعباده ما شاء و أراد هذا ما فهمناه من الآية و العلم عند اللّه.

وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَ ٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ

قرأ أهل الكوفة إلاّ أبا بكر، **سُعدوا**، بضّم السّين والباقون بفتحها، و فتح السّين أولى لأنّه على هذا يكون غير متعدٍّ كما أنّ خلافه الّذي هو، شقّي كذلك، و اذا لم يكن متعدّياً لم يجب أن يبنى منه المفعول به و اذا كان كذلك ضمّ السّين مشكل إلاّ أنّ يكون سمع فيه لغة خارجةٌ عن القياس و كيف كان فالمعنىٰ أنّ السّعداء في الجنّة خالدين فيها كما مرَّ البحث في الأشقياء اذ لا فرق بينهما من حيث الخلود إلاّ أنّ الأشقياء في النّار و السّعداء في الجنّة و قوله: **مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَ ٱلْأَرْضُ** قد مرَّ الكلام فيه في الآية السّابقة.

و أمّا الإستثناء و هو قوله: **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** فعلى قول صاحب الكشّاف معناه إلاّ ما شاء ربّك ممّا يتّفضل به عليهم سوىٰ الجنّة ممّا هو أكبر منها رضوان اللّه تعالىٰ و إستدلّ على ذلك بقوله بعد ذلك عطاءً غير مجذوذٍ أي غير مقطوعٍ و هذا لا يستقيم لأنّ الإستثناء لابدّ له من المستثنى منه في اللّفظ و بعبارةٍ أخرىٰ الإستثناء من شيٍ مقدّرٍ لا معنى له و عليه فالإستثناء من الخلود كما كان كذلك في الآية السّابقة و الفرق بين المقامين هو أنّ إخراج بعض الأشقياء ممّن تناول الوعيد لهم و إخراجهم من النّار بسبب العفو و الشّفاعة أمرٌ ممكنٌ معقول على مذهبنا.

و أمّا في المقام فلا يجوز إخراج من كان في الجنّة منها لإجماع الأمّة علىٰ أنّ كلّ مستحقٍ للثّواب لابدّ أن يدخل الجنّة و لا يخرج منها بعد دخوله فيها.

و قال بعضهم في معنىٰ الآية أنّ الّذين سعدوا بطاعة اللّه يدخلون الجنّة خالدين فيها و إستثنى من جملتهم من كان مستحقّاً للنّار و أراد اللّه عقابهم ثمّ إخراجهم منها فكأنّه قال تعالى خالدين فيها إلاّ مدّة ما كانوا معاقبين في النّار.

قال الشّيخ بعد نقله ما نقلناه و هو يليق بقولنا في الإرجاء انتهىٰ.

أقول أصل النّزاع بين المعتزلة و أتباع الحقّ أعني بهم الشّيعة الأثنىٰ عشريّة الذّين أخذوا مذهبهم عن أهل البيت الذّين طهّرهم اللّه تطهيراً في أنّ أصحاب الكبائر من العصاة علىٰ يرجى لهم النّجاة من العذاب الذّي كانوا مستحقّين به أم لا يرجىٰ بل يدخلون النّار خالدين فيها أبداً فالمعتزلة تقول بعدم الرّجاء و الشّيعة تقول بالإرجاء و إمكان الخروج منها بسبب الشّفاعة مثلاً فعلى مذهبنا قد يخرج من أصحاب الكبائر من النّار و يدخل الجنّة فاذا دخل الجنّة يكون خالداً فيها و لا يخرج منها أبداً إلاّ ما شاء ربّك أي إلاّ مدّة كانوا معاقبين في النّار فأنّها تستثنىٰ من الخلود في الجنّة.

و أمّا على مسلك المعتزلة فهو لا يخرج من النّار أبداً و على هذا يكون الإستثناء في قوله: **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ**، بالنسّبة الى السّعداء ناظراً الىٰ ما يتفضّل اللّه به لهم من أنواع النّعم غير الجنّة و هو قوله عطاءً غير مجذوذٍ.

و أنت ترى أنّ الأصل الذّي بنوا عليه مذهبهم باطل كما مرَّ الكلام فيه و قلنا أنّه لا معنىٰ له و لا يقبله العقل السّليم و لا يساعده الشّرع المُنيف للزومه إنكار الشّفاعة رأساً أو إختصاصها بالصّغائر من الذّنوب و لا سبيل اليهما قطعاً و أمّا علىٰ مذهبنا فقوله: **عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**، فمعناه أنّ خلودهم في الجنّة بعد دخولهم فيها هو عطاء من اللّه غير مجذوذٍ أي غير مقطوعٍ و أيُّ عطاءٍ أحسن منه و هذا بحمد اللّه واضح لا خفاء فيه.

فَلاٰ تَكُ فى مِرْيَةٍ مِمّٰا يَعْبُدُ هٰٓؤُلآٰءِ مٰا يَعْبُدُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَعْبُدُ اٰبآؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنّٰا لَمُوَفُّوهُمْ نَصيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ فيما مضى من الأيات قصيص عبدة الأوثان من الامم السّالفة و أتبع ذلك بذكر أحوال الأشقياء و السُّعداء و شرح للرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أحوال الكفّار من قومه و ذكر أنّهم متّبعوا أباءهم كغيرهم ممّن تقدَّم من الأمم السّالفة الذّين كانوا أتباع أباءهم في الضّلال و هؤلاء إشارة الىٰ كفّار قريش و مشركي العرب و بيان أنّ ديدنهم كديدن الأمم الماضية في التّقليد و العمي عن النّظر في الدّلائل و الحجج و هذا الكلام في الحقيقة تسلية للرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و الإعلام بأنّ عاقبتهم كعاقبة من قبلهم و لذلك قال تعالىٰ مخاطباً لرسوله فلا تك في مريةٍ و شكّ ممّا يعبد هؤلاء الكفّار من الأصنام و الأوثان فأنّهم ما يعبدون إلاّ كما يعبد أباءهم أي أنّ أباءهم كانوا كذلك فلا تعجب منهم فأنّ الأخلاف يتّبعون الأسلاف غالباً ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنّٰا لَمُوَفُّوهُمْ نَصيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ** الإيفاء الإتمام و كذلك التّوفية و النَّصيب الحظّ و المعنى إنّا نعطيهم على جهة الوفاء قسمتهم و حظَّهم من خيرٍ أو شرٍّ على قدر إستحقاقهم من غير أن ينقص منه شيئ كما هو مقتضىٰ العدل و فيه إشارة الى أنّ مألهم الىٰ الخسران كالّذين كانوا من قبلهم و مع ذلك في الآية إشارة الىٰ ذمّ التّقليد في الأصول الإعتقادية و مع الأسف يكون أكثر المسلمين و هم العامّة بجمعهم مقلّدين لأسلافهم في المسائل الإعتقادية و الأحكام الفرعيّة ففي الأصول يقلّدون و أصل إبن عطاء و أبو الحسن الأشعري فيعبّر عنهم بالمعتزلة و الأشاعرة وجميع أهل السنّة لا يخرجون عن هذين القسمين.

و في الفروع يقلّدون أئمّتهم الأربعة الذّين ماتوا في صدر الإسلام، و هم أبو حنيفة و مالك بن أنس، و الشّافعي، و أحمد بن حنبل و غيرهم و من كان مقلّداً في أصول دينه و فروع دينه من الأموات الذّيم لم تكن لهم صلاحيّة لذلك

كيف يحكم بقبح تقليد الكفّار و يفسّر كلام اللّه في ذمّ التّقليد على رؤوس الأشهاد و هو غافل عمّا هو عليه في طول حياته أليس هو من مصاديق:

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَ تَقُولُونَ مٰا لا تَفْعَلُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَتَأْمُرُونَ اَلنّٰاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**(٢).

إن قُلتَ فأنتم معاشر الشّيعة الأثنىٰ عشريّة أيضاً من المقلّدين لأئمّتكم في الأصول و الفروع.

قلتُ إمّا أوّلاً فنحن لا نقلّد في الإعتقادات كما هو ثابت في محلّه.

ثانياً: على فرض التّقليد في بعض الأصول لا إشكال فيه لأنّ الأئمّة الأثنى عشر كالأنبياء في وجود العصمة فيهم و تقليد المعصوم لا إشكال فيه و أمّا الفروع فلا مناص من التّقليد فيها و أنّما الذّم في الأصول و لتفصيل البحث فيه مقام أخر.

وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أعطى موسى الكتاب و هو التّوراة و أنّ قومه يعني بني إسرائيل إختلفوا في صحّة الكتاب الّذي أنزل اليه.

قال بعض المفسّرين أنّ الآية نزلت في تسلية النّبي صلى الله عليه و آله و سلم عن تكذيب قومه إيّاه و إنكارهم القرأن المنزل عليه فبيَّن اللّه تعالىٰ فيها أنّ الإختلاف في صحّة الكتاب و أنّه منزل من عند اللّه أولا لا يختصّ بأمّتك بل الأمم السّالفة أيضاً كانوا ينكرون الكتاب الذّي أنزلناه على أنبياءهم فهذا قوم موسىٰ أنكروا الكتاب فلا تحزن لذلك و لا تغتّم له.

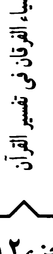
ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** قيل المراد

١- الصف = ٢
٢- البقرة = ٤٤

بـالكلمة التّـي سبقت هـي تأخـير الجـزاء الى يـوم القـيامة لمـا فـي ذلك مـن المصلحة و بعبارةٍ أخرى لولا أنّه سبق في عمله تأخير الجـزاء ليـوم الحسـاب لقضي بينهم في دار الدّنيا و لكنّه تعالىٰ رأى المصلحة في الإمهال مدّة الحياة و الحساب و الجزاء بعدها و قوله: **إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** فالرَّيب أقـوىٰ الشكّ و المعنىٰ أنّ الكفّار لفي شكّ قوّي ي صحّة ما أنزلناه عـلىٰ نـبيّنا هكـذا فسَّروا الآية.

أنا أقول لا يبعد أن يكون المراد به أي بالإختلاف هـو الإخـتلاف فـي فـهم معنىٰ الكتاب و أنّ كلّ واحدٍ من علماء الأمّة فسَّر الكلام و الكتاب بـرأيـه بـعد النّبي لأجل وصولهم الى مقاصدهم الدنيويظة و عليه فقوله فإختلف في مـعناه و فهم المراد منه و هو أيضاً ممّا لا شكّ فيه في وقوعه فأنّه قد وقع في التّوراة و المأل واحد فأنّ الإختلاف كان واقعاً في قوم موسى بل في قوم كلّ نبيّ مرسل و منهم رسول الإسلام و كيف كان ففي الآية دلالة على وجود الإخـتلاف و أنّ اللّه يجازيهم عليه يوم الحساب.

■





وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمٰالَهُمْ إِنَّهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمٰآ أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَكَ وَ لاٰ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَ لاٰ تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰآءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهٰارِ وَ زُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئٰاتِ ذٰلِكَ ذِكْرٰى لِلذّٰاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَ ٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلاٰ كٰانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسٰادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلّٰا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنٰا مِنْهُمْ وَ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كٰانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرٰى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَ لَوْ شٰآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلّٰا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنّٰاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰآءِ ٱلرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ جٰآءَكَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَ قُلْ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلٰى مَكٰانَتِكُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَ ٱنْتَظِرُوٓا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَ لِلّٰهِ غَيْبُ

ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

◀ اللّغة

لَيُوَفِّيَنَّهُمْ التَّوفية والإيفاء، الإتمام.

وَ لاٰ تَطْغَوْا الطُّغيان تجاوز المقدار في الفساد.

وَ لاٰ تَرْكَنُوا الرُّكون الى الشّيء السُّكون اليه بالمحبَّة اليه و الإنصات اليه و نقيضه النُّفور عنه.

زُلَفًا الزُّلفة في الأصل المنزلة و الحظوة و قيل إستعمال الزُّلفة في منزلة العذاب كإستعمال البشارة ونحوها من الألفاظ و قيل لمنازل اللّيل زلف.

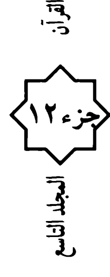
أُتْرِفُوا فِيهِ أي إتَّبعوا التَّلذذ و التَّنعم بالأموال و منه التَّرفه و هو التَّوسع في النِّعمة يقال أترف فلان فهو مترف.

فُؤٰادَكَ الفؤاد القلب.

الأَنْبٰاءِ جمع نبأ و هو الخبر والباقي واضح.

◀ الإعراب

وَ مَنْ تٰابَ هو في موضع رفع عطفاً علىٰ الفاعل في، إستقم، و يجوز أن يكون نصباً مفعولاً معه طَرَفَيِ ٱلنَّهٰارِ ظرفٌ لأقم زُلَفًا بفتح اللاّم جمع زلفة مثل ظلم و ظلمة بَقِيَّةٍ مصدر بقي بقيَّةٌ و قيل أنّها مصدر بمعنىٰ فعيل و هو بمعنىٰ فاعل فِى ٱلْأَرْضِ حال من الفساد إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ هو مستثنىٰ من ضمير الفاعل في، يزالون، وكلاً نقصُّ، كلاًّ منصوب، بنقصُّ و مِنْ أَنْبٰاءِ صفة لكلّ و مٰا نُثَبِّتُ بدل من كلّ، أو هو رفع بإضمار هو و يجوز أن يكون مفعول نقص، و يكون،



كلاًّ، حالاً من، ما، أو من الهاء على مذهب من أجاز تقديم حال المجرور عليه، و يكون كُّلاً بمعنى، جميعاً.

◀ التّفسير

وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمٰالَهُمْ إِنَّهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

إختلف القرّاء في قوله: **وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا** علىٰ وجُوهٍ:

أحدهما: قرأ إبن كثير ونافع بتخفيف، إن، وتَخفيف، لما، و قرأ إبـن عـامر و حمزة و حفص عن عاصم بتشديدهما معاً و قرأ أبو عمرو والكسائي بـتشدّيد الأولىٰ و تخفيف.

الثّانية: و قَرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الأولىٰ و تشديد الثّانية خمسة أوجه:

أحدهما: قال الفرّاء أنّها بمعنى، لمن ما، فإجتمعت ثلاث ميمات فـحذفت ثاحدة ثمّ أدغمت الأولىٰ في الثّانية كما قال الشّاعر:

وأنّي لمّا أصدَرَ الأمـر وجَـهه   إذا هو أعيا بالسَّبيل مـصادره

ثمّ تخّففت كما قرأ بعض القرّاء: **وَ اَلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ**[١] فحذفت إحدىٰ اليائين.

ثانيها: ما إختاره الزّجـاج و هـو أنّ، لمّـا، بـمعنىٰ، إلاّ، كـقولهم سألتك لمّا فعلت و مثله قوله تعالىٰ: **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمّٰا عَلَيْهٰا حٰافِظٌ**[٢] لأنّه دخـله مـعنى، مـا كلّهم إلاّ لنوفّينهم.

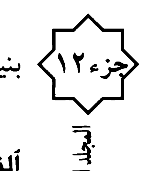
ثالثها: إختاره المازني و هو أنّها مخفّفة شدّدت للتأكيد.

رابعها: ما حكى عن بضهم أنّها من، لممت الشّيئ ألمّه لمّاً إذا جمعته إلاّ أنّها بنيت على، فعلىٰ، فلم تصرف نحو، كأنّه قال و أن كلاًّ جميعاً ليوفّينهم.

خامسها: قراءة الزّهري، لمّاً، بالتّنوين بمعنى شديداً كقوله تعالىٰ: **وَ تَأْكُلُونَ اَلتُّرٰاثَ أَكْلًا لَمًّا**[٣] واللاّم في قوله: **لَمَّا** يحتمل أن تكون لام القسم دخلت علىٰ،

١- النّحل = ٩١   ٢- الطّارق = ٤

٣- الفجر = ١٩



ما، الّتي للتّوكيد، و يحتمل أن تكون لام الإبتداء دخلت على، ما، بمعنىٰ الّذي كقوله تعالىٰ: **فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ ٱلنِّساءِ**[١] ومثله قوله تعالىٰ: **وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ**[٢].

قال الشّاعر:

فلَو أنّ قومي لم يكونوا أعزّةً لبعدٍ لقد لا قيت لابدّ مصرعاً

و قال الزّمخشري التّنوين (في كُلاًّ) عوض المضاف اليه والتّقدير و أن كلّهم و أن جميع المتلفين فيه.

و قال مقاتل أريد به كفّار هذه الأمّة.

و قال بعض المفسّرين الظّاهر عموم كلّ و شموله للمؤمن و الكافر.

إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية و هو أنّ اللّه تعالىٰ أخبر فيها أنّه يوّفي جميع المكلّفين ما يستحقّونه على أعمالهم و العقاب و في قوله: **إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** إشارة الىٰ أنّ أعمال العباد خَيرها و شرّها لا تخفىٰ عليه تغيب عن علمه تعالى لأنّه بكلّ شئٍ عليم.

فَاسْتَقِمْ كَمآ أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

أمر اللّه تعالى رسوله و أمّته بالإستقامة في أمر الدّين و نهاهم عن الطُّغيان و هو تجاوز المقدار في الفساد و أنّه تعالى بما تعملون بَصير لا يخفى عليه شئ.

أمّا الإستقامة المأمور بها في الآية و غيرها من الأيات فهي عبارة عن المنهج المستقيم و ذلك لأنّ الإستقامة في الأصل يقال في الطّريق الّذي يكون على خطٍّ مستو و به شبّه طريق المحقّ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا ٱللّهُ ثُمَّ ٱسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلآئِكَةُ**[٣].

١- النسّاء = ٣ ٢- النّساء = ٧٢

٣- فصّلت = ٣٠

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَلَّوِ اَسْتَقَامُوا عَلَى اَلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَآءً غَدَقًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اَسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّمَآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **اَهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ**[٥] وغيرها من الأيات.

وأعلم أنّ لزوم المنهج المستقيم و السّلوك اليه في جميع الشّئون من العبادات و المعاملات و بالجملة في جميع الحركات و السّكنات حتّى الأكل و الشّرب و النّوم و أعمال الشّهوة و الغضب و غيرها أمرٌ مشكل مستصعب جدّاً.

روي عن سول اللّه صلّى الله عليه و آله وسلّم أنّه قال شيبتّني سورة هود لمكان هذه الآية و هي قوله تعالىٰ: فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ أي إجتنب عن الإفراط و التّفريط في جميع أمورك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَن زَلَّ فَإِلَى النَّارِ[٦]

و قال عليه السلام: قُلْتُمْ «رَبُّنَا اللّٰهُ» فَاسْتَقِيمُوا عَلَىٰ كِتَابِهِ وَعَلَىٰ مَنْهَاجِ اَمْرِهِ وَعَلَىٰ الطَّرِيقَة الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا وَلاَ تَبْتَدِعُوا فِيهَا وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا فَاِنَّ اَهْلَ الْمرُوقِ مُنْقَطِعُ بِهِمْ عِنْدَ اللّٰهِ يَوْمِ الْقِيامَةِ.[٧]

و قال عليه السلام: اَلْيَمِينُ وَ الشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ هِيَ اَلْجَادَّةُ، عَلَيْهَابَاقِى اَلْكِتَابِ وَ آثَارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْهَامَنْفَذُالسنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ اَلْعَاقِبَةِ،[٨]

و قال عليه السلام: نحنُ النُّمْرُقَةُ الوُسطىَ بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي وإِلَيْها يَرْجَعُ الْغَالِي[٩].

١- الجنّ = ١٦
٢- الشّورىٰ = ١٥
٣- فصّلت = ٦
٤- يُونس = ٨٩
٥- الحَمد = ٥
٦- خ ١١٩
٧- خ ١٧٦
٨- خ ١٦
٩- قصار الحكم ١٠٩

محصّل الكلام في الباب هو أنّ السّلوك علىٰ الجادّة الوسطىٰ من غير إنحرافٍ الى اليمين و الشّمال أمرٌ مطلوبٌ عقلاً و شرعاً.

و أمّا قوله: **وَ لَا تَطْغَوْا** فهو في الحقيقة بمنزلة التّفسير و التّوضيح لقوله فأستقم كما أمرت كأنّه قيل ما معنى الإستقامة علىٰ الطّريق المُستقيم فقال تعالىٰ معنىٰ الإستقامة عدم الطُّغيان لأنّ الطُّغيان هو الخروج عن حدّ الإعتدال فعبّر عن الإعتدال بالإستقامة و عن الخروج عنه بالطُّغيان و هذا معنىٰ أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

و من المعلوم أنّ الإستقامة علىٰ طريق المستقيم الذّي لا إعوجاج فيه واقعاً لا تحصل إلاّ للمعصوم الّذي وفقّه اللّه و عصمه من الزَّلل و الخطأ و أمّا غيره فلا يقدر على تحصيله إلاّ بقدر إستطاعته و قدرته فأنّ الميسور لا يترك بالمعسور: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**[1].

وَ لَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ

قيل الركون الىٰ الشّيء هو السّكون اليه بالمحبّة اليه و الإنصات اليه و نقيضه النُّفور عنه.

و قال في المفردات ركن الشّيء جانبه الّذي يسكن اليه و يستعار للقوّة من ركن يركن أو ركن يَركن و ناقةٌ مركَّنة الظّهر له أركان تُعظّمه انتهىٰ.

و الظّلم وضع الشّيء في غير محلّه كما أنّ العدل وضعه في موضعه و المعنىٰ لا سكنوا الى الظّالمين بالمحبّة أي لا تحبّوهم و لا تعتمدوا عليهم في أفعالهم و أقوالهم من دون اللّه بأن تمسّكوا بهم و تعتمدوا عليهم و تعرضوا عن اللّه و الحال أنّه لاولّى لكم إلاّ اللّه و الظّالم لا يكون ولّياً ثمّ لا تنصرون أي أن فعلتم ذلك لا تنصرون من الّظالم و لا من اللّه.

١- البقرة = ٢٨٦

أمّا الظّالم فلعدم قدرته علىٰ نصرتكم و أمّا اللّه فلاعراضكم عنه ثمّ بعد ذلك في الأخرة مأوايكم النّار وبئس المَصير.

أقول في الآية نهيٌ عن الرّكون الىٰ الظّالم ثمّ فرَّع على ذلك مسَّ النّار الّذي هو كناية عن الدّخول فيها في الأخرة ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى الرّكون و المراد به فعن عبد اللّه بن عبّاس أنّ المراد به هو الميل اليهم بالقلب.

و قال إبن زيد أي لا تداهنوا الظَّلمة.

و قال قتادة لا تلحقوا بهم وقال سفيان لا تدنوا اليهم و قيل لا ترضوا أعمالهم.

و قيل لا تجالسوهم و قيل لا تشبّهوا بهم.

و أنا أقول ما ذكره لا يرجع الىٰ محصّلٍ لأنّ الميل الىٰ الظّالم أو مداهنته أو نظير ذلك ممّا ذكروه لا يمكن منعه على الإطلاق و هو واضح عند التأمل.

و الحقّ أنّ المراد به في الآية هو موّدة الظّالم و طاعته.

فقد روي في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: في المراد بهذه الآية وهو قوله: وَ لَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ قال عليه السلام هو الرّجل يأتي السّلطان فيُحبّ بقاءه الىٰ أنّ يدخل يده في كيسه فيعطيه.

و عن كتاب الخصال عن الحسين بن علّي عليه السلام قال أنّ رسول اللّه أوصىٰ علّي بن أبي طالب فيما كان أوصىٰ به أن قال: لا تركن الىٰ ظالمٍ وأن كان حميماً قَريباً.

و نقل الرّازي عن المحقّقين أنّ الرّكون المنّهي عنه هو الرّضا بما عليه الظّلمة من الظُّلم و تحسين تلك الطّريقة و تزيينها عندهم و مشاركتهم في شئٍ من تلك الأبواب فأمّا مداخلتهم لدفع ضررٍ أو إجتلاب منفعةٍ عاجلة فغير داخلٍ في الرّكون انتهىٰ.

اقول و التّحقيق أنّ الرّكون الى شئٍ على ضربين:

أحدهما: الرُّكون اليه لأجل الأخرة و من المعلوم أنّه خارج عن مورد البحث لأنّ من يركن اليه لأجل الأخرة والوصول الى درجاتها و مقاماتها لا يكون ظالماً قطعاً و هذا كالرُّكون الى الأنبياء و الأوصياء و الصُّلحاء و العلماء العاملين فهذا ممدوحٌ مرّعبٌ فيه عند الكُّل.

ثانيهما: الرُّكون الىٰ الغير لأجل الحطام الدنيويّة من المال و المقام و الشّهرة و أمثال ذلك فهذا هو المراد بالآية و مصاديقه كثيرة في جميع الأزمنة كما نـراه في زماننا هذا و السِّر فيه هو أنّ النّاس عبيد الدّنيا و لا يمكن الوصول اليها كاملاً إلاّ بالتعدّي و الظُّلم فطالب الدّنيا لا يخلو حاله، إمّا يظلم و إمّا يستعين ويَستّمد من الظّالم لأجل الوصول الى مطلوبه و لذلك ترى أبناء الدّنيا من الظّلمة أو من أعوان الظَّلمة إذ الآمال الدنيويّة لا تحصل لِلإنسان إلاّ بالظّلم أن كان قادراً عـليه بنفسه أو بإعانة الظّالم أيّاه أن كان ضعيفاً من حيث القدرة.

و من المعلوم أنّ الظّالم لا يعنيه إلاّ في صورة متابعته أيّـاه و تأيـيده الظّـالم قولاً و فعلاً و أن كان مخالفاً للظّلم و الظّالم في إعتقاده لأنّ أكثر النّاس يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم و الآية ليست بصدد بيان الإعتقاد و أن شئت قلت ليست بصدد بيان الرُّكون الإعتقادي بل هي بصدد بيان الرُّكون العملي و النّهي عنه فقوله تعالىٰ: **وَ لَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ** معناه لا تكونوا من أعوان الظَّـلمة لأجـل الوصـول الى المـقاصد الدنـيويّة و الشّـهوات النّفسانية بأن تحكموا بصّحة أفعالهم و أقوالهم في الإجتماع فأنّ هـذا يـوجب تقوية الظّالم و إذا قوي الظّالم يصير الحقّ مغلوباً و الباطل غالباً و هذا هـو الدّاءُ الّذي لا دواء له.



و نحن نرىٰ في زماننا هذا ثمرات الرُّكون بأعيننا و ندرك معنى قوله تعالىٰ: **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ**[١] و يستفاد من الآيـة أنّ المراد بالظّالم أعمّ من الكافر و المسلم فما ذهب اليه أكثر مفسّري العامّة من أنّ

١- الرّوم = ٤١

المراد بقوله ظلموا، الكفّار لا دليل عليه بل الدّليل من العقل و النّقل على خلافه كيف و قد نرى أكثر حكّام المسلمين من الظَّلمة لولا كلّهم بل لو إدّعىٰ مدّعٍ أنّ أكثرهم أظلم من حكّام الكفّار و أفسد لا نكذّبه و نعتقد أنّ ظلمهم بعد موت الرّسول الى زماننا هذا كان لأجل ركون أكثر النّاس اليهم و للبحث فيه مقام آخر.

و أمّا قوله: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ** فمعناه واضح لأنّ اللّه تعالى هو الّذي خلقكم و يرزقكم و ينصركم لا غيره.

وَ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهٰارِ وَ زُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّٰاكِرِينَ

أمر اللّه نبيَّه و أمّته بإقامة الصّلاة قالوا و إقامتها هو الإتيان بأعمال الصّلاة علىٰ وجه التّمام ركوعها و سجودها و سائر فروضها و قيل إقامة الصّلاة هو عملٌ علىٰ إستواء كالقيام الّذي هو الإنتصاب في الإستواء.

و قيل هو الدَّوام على فعلها من قولهم هو قائم أي دائمٌ واقف و أحسن الأقوال الأوّل فأنّ المكلّف مأمورٌ بإقامة الصّلاة أي الإتيان بها علىٰ وجهها لا بقراءة الإذكار و الإنتصاب في الإستواء و أمثال ذلك فأن الإتيان بها كيف إتّفق شيءٌ و الإتيان بها على وجه المطلّوبية للشّارع شيءٌ آخر.

و لذلك أقول أنّ المصلّين في الإسلام أكثر من المقيمين للصّلاة و تفصيل الكلام فيها من حيث الأجزاء و الشّرائط مذكورٌ في الفقه.

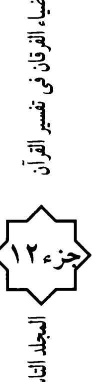
و أمّا قوله: **طَرَفَيِ ٱلنَّهٰارِ وَ زُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ** فهو إشارة الىٰ أوقات الصّلاة فقال بعضهم المراد بطرفي النّهار، صلاة الفجر و المغرب.

و قال الآخر، الغداة و الظُّهر و العصر و علَّل ذلك بأنّ طرف الشّيئ من الشّيئ و صلاة المغرب ليست من النّهار.

و قال الزّمخشري، طرفي النّهار، غدوة و عشيّة و قوله: **زُلَفًا مِنَ ٱلَّيْلِ** أي و ساعات من اللّيل و هي ساعة القريبة من آخر النّهار من أزلفه إذا قربه و صلاة الغدوة و الفجر و صلاة العشّية الظّهر و العصر لأنّ ما بعد الزّوال عشي و صلاة الزُّلف المغرب و العشاء و إنتصاب طرفي النّهار علىٰ الظَّرف لأنـهما مضافان الى الوقت و ساق الكلام الىٰ أن قال و قرئ **وَ زُلُفًا** بضمّتين، **وَ زُلْفًا** بسكون اللاّم و زلفىٰ بوزن قربىٰ الىٰ أن قال و حقّها علىٰ هذا التّفسير أن تعطف **وَ زُلَفًا مِنَ ٱلَّيْلِ** علىٰ الصّلاة أي أقم الصّلاة طرفي النّهار و أقم زلفاً من اللّيل علىٰ معنى و أقم صلاةً تتقرّب بها الىٰ اللّه عزّ وجّل في بعض اللّيل إنتهىٰ كلامه.

أقول وفي أَخبارنا وَرَد أنّ المراد بِطَرفي النّهار المغرب و الغداة ما ورد في تهذيب الأحكام عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أقم الصّلاة طرفي النّهار و طرفاه المغرب والغداة، و زلفاً من اللّيل، و هي صلاة العشاء الآخرة إنتهى كلامه.

أقول و كيف كان فالآية دالّة علىٰ بعض الصّلوات الخمس و على سعة وقتها في الجملة و يرشدك الىٰ ذلك.



ما رواه أبو حَمزة الثّمالي عن أحدهما في حديث طويل عن علّي عليه السلام قال: سمعت حبيبي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول أرجى آية في كتابَ اللّه: أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ألخ.

والّذي بعثني بالحقّ بشيراً و نذيراً أنّ أحدكم ليقوم في وضوءه فتساقط عن جوارحه الذّنوب فإذا إستقبل اللّه تعالى بوجهه و قلبه لم ينفتل و عليه من ذنوبه شئ كما ولدته أمّه فأن أصاب شيئاً بين الصّلاتين كان له مثل ذلك حتّىٰ عدّ الصّلواة الخَمس ثّم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا علّي أنّ منزلة الصّلاة الخمس لأمّتي كنهرٍ جارٍ علىٰ باب أَحدكم فما يظّن أحدكم لو كان في جسدة درن ثمّ إغتسل في

ذلك النّهر خمس مرّات أكان يبقىٰ في جَسده درن فكذلك واللّه الصّلاة الخَمس لأمّتي هذا إنتهىٰ.

فتّحصل مما ذكرناه أنّ المراد بطرفي النّهار الغداة و المغرب و زلفاً من اللّيل هي صلاة العشاء كما يظهر من الأخبار و هو الحّق لأنّه لاشكّ أنّ النّهار يطلق علىٰ اليوم و هو في العرف و اللّغة من طلوع الفجر الىٰ غسق اللّيل و أن شئت قلت الى المغرب و علىٰ هذا فطرفي النّهار عبارة عن الغداة و المغرب لأنّ إبتداء النّهار من الغداة و إنتهائه المغرب فطرفي النّهار الغداة و المغرب و أمّا قوله: **وَ زُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ** هي ساعات القريبة من ساعات آخر النّهار و هي وقت العشاء و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱلْحَسَنٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئٰاتِ** فالظّاهر أنّ المراد بالحسنات في الآية هذه الصّلاة و هي مكفّرةٌ لما بينها من المعاصي هذا ما ذكروه في تفسير كلام اللّه و لا يبعد أن يدخل في قوله: **وَ زُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ** صلاة اللّيل أيضاً لأنّها في زلفٍ من اللّيل كصلاة العشاء و عليه فالصُّبح و الظُّهر و العصر في النّهار و المغرب في أحد طرفيه و العِشاء و صلاة اللّيل في اللّيل و هذا العموم ممّا لا بأس به لأنّ قوله زلفاً من اللّيل، يشمل الصّلاتين لوقوعها في ساعات اللّيل و أنّما إحتملنا ذلك لأنّ كثيراً من الأخبار تدّل علىٰ أنّ المراد بالحسنات في الآية صلاة اللّيل قالوا صلاة المؤمن باللّيل تذهب بما عمل من ذنبٍ بالنّهار.

إن قُلت يلزم على هذا أن تكون صلاة اللّيل واجبة علىٰ الأمّة لأنّ الآية بِصدد بيان الصّلاة المفروضة في اللّيل و النّهار و لم يقل أحد بوجوب صلاة اللّيل علىٰ الأمّة.

قُلت نعم لكن المخاطب في الآية هو الرّسول و أمّته وصلاة اللّيل، علىٰ الرّسول واجبة بلا كلام بمقتضىٰ الآية و أمّا عدم وجوبها على الأمّة فبالنَّص و الإجماع.

و نحن نقول أنّ عموم الكتاب يخصَّص بالأخبار واللّه أعلم بكلامه.

و أمّا قوله: **ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّاكِرِينَ** فهو إشارة الىٰ إقامة الصّلاة في تلك الأوقات و أنّها من ذكر اللّه المأمور به على الإطلاق لمن أراد أن يكون من الذّاكرين أو أنّها عظةٌ للمتّعظين حيث علموا أنّ ذكرهم اللّه سبباً لذكر اللّه تعالىٰ إيّاهم لقوله: **فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ**[1] و يحتمل أن يكون الإشارة الى ما ذكره من كون الحسنات يذهبن السّيئات أي فيه تذكار و موعظة لمن تذّكر فيه و تفّكر و يحتمل أن تكون الإشارة الىٰ القرآن و الإحتمالات كثيرة و لكّلٍ وجهٌ.

وَ ٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

الصَّبر حبس النّفس عن الخروج الىٰ ما لا يجوز من ترك الحقّ، أمر اللّه نبيّه صلّى الله عليه و آله و سلّم بالصَّبر علىٰ أذى قومه و تكذيبهم إيّاه كما أمر جميع الأنبياء بذلك ثمّ قال فأنّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين فيه إشارة الىٰ أن الصَّبر من الإحسان و هو كذلك لأنّ الإحسان تارّة يكون في الإنعام على الغير كما يقال أحسن فلان و تارّة يكون في الفِعل إذا صدر من فاعله علىٰ وجه الحسن و لا عمل أفضل من الصَّبر في سبيل اللّه فالإحسان أعّم من الصَّبر إذ الصَّبر من مصاديقه و أفراده و لذلك قال: **فَإِنَّ ٱللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ولم يقل أجر الصّابرين مَع أنّه أيضاً كذلك للإشارة الى أنّ الصّابرين من مصاديق المحسنين بمعنى أنّ كلّ محسنٍ صابر و ليس كلّ صابرٍ محسن فأنّ الصَّبر في غير طريق الحّق ليس من الإحسان و فاعله لا يعدّ محسناً.

فَلَوْلا كٰانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسٰادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلّا قَليلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنٰا مِنْهُمْ وَ ٱتَّبَعَ ٱلَّذينَ ظَلَمُوا مٰآ أُتْرِفُوا فيهِ وَ كٰانُوا مُجْرِمينَ

١- البقرة = ١٥٢

لولا، هنا للتّخصيص صحها معنى التّفجع و التّأسف الّذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم الّتي لم تهتدوانحو قوله يا حسرةً على العباد و القرون قوم نوح و عاد و ثمود و شعيب و من تقدّم ذكره وقوله: **أُولُوا بَقِيَّةٍ** أي أصحاب طاعةٍ و دينٍ و عقلٍ و بصرٍ **يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ** لما أعطاهم اللّه من العقول و أراهم من الأيات و هذا توبيخٌ للكفّار و قيل، لو لا، هاهنا للنّفي أي ما كان من قبلكم أولي بقّيةٍ من قبيل قوله تعالىٰ: **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ**[١] أي ما كانت، **إِلَّا قَلِيلًا** إستثناء منقطع أي لكن قليلاً وهُم قوم يونس و قيل هم أتباع الأنبياء و أهل الحّق **مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ** أي من الكفّار و هم الّذين آمنوا مع الرُّسل و نجوا من العذاب الّذي نزل بقومهم **وَ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** من الإشتغال بالمال و اللّذات و إيثار ذلك علىٰ الآخرة، **وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ** لأنّهم إتّبعوا التّلذذ و التنعّم بالأموال والنِّعم الّتي أعطاهم اللّه إيّاها و قضوا الشّهوات و من كان كذلك فهو مجرمٌ عاص و لذالك قال و كانوا مجرمين و حاصل المعنى في الآية أنّه ينبغي التعجّب و التّأسف من قومٍ إجتمعوا على الكفر حتى إستأصلهم اللّه بالعذاب و أنواع العقوبات و لم يبق منهم أولوا بقيةٍ ينهوَن عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممّن أنجاهم اللّه و هم المؤمنون و إتّبع الّذين ظلموا منهم التلذّذ و التّنعم بالأموال و لم يعلموا أنّ اللّه تعالىٰ ما أعطاهم الأموال لذلك ففي الآية إشارة الىٰ أنّ مآل المعصية الىٰ الخسران و الهلاك آجلاً و عاجلاً و أنّ اللّه شديدُ العقاب و أنّ رحمته قريبٌ من المحسنين.

وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه لم يهلك أهل قريةٍ فيما مضىٰ ممّن ذكر إهلاكهم كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم بظلمٍ منه تعالى و الحال أنّ ألها كانوا

١- يونس = ٩٨

مصلحين بل أنّما أهلكهم إذا فسدوا كلّهم أو أكثرهم، فما، في قوله للنّفي و أسند الهلاك الى القرىٰ مجازاً أي أهل القرى فهو من قبيل قوله: **وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ** أي و أسأل أهلها، والواو واو الحال قالوا في قوله: **بِظُلْمٍ** ثلاثة أوجه:

أوّلها: بظلم صغير فيكون منهم لأنّه يقع مكفّراً بما معهم من الثّواب الكثير.

الثّاني: بظلمٍ كثير من قليلٍ منهم مع أكثرهم هم المصلحون لأنّ القليل لا يعتدّ به في جنبِ الكثير.

الثّالث: أنّ المعنىٰ بظلم منّا كما قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا**(١)

و قال الزّمخشري قولهَ و أهلها مصلحون فيه تنزيه لذاته عن الظّلم و إيذانٌ بأنّ إهلاك المصلحين من الظّلم.

أقول معنىٰ الآية واضح لا خفاء فيه و ذلك لأنّه بعد ما ثبت في الأصول أنّه تعالىٰ عادلٌ منزّهٌ عن الظّلم و غيره من القبائح و ثبت أيضاً أنّه تعالى أهلك قوم نُوح و قوم هود و قوم صالح و قوم شعيب على ما أخبره في كتابه و كانت هناك مظنّة سؤالٍ و هو أنّه لم أهلك اللّه تعالىٰ هؤلاء الأقوام فقال تعالى في جواب هذا السؤال ما خلاصته إنّا لم نلكهم ظلماً منّا عليهم بل أهلكناهم لأنّهم كانوا ظالمين كما قال تعالىٰ: **وَ ما ظَلَمُونا وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٢) و قد مضىٰ الكلام فيه فالغرض من هذه الآية و أمثالها نفي الظّلم منه تعالى و إثباته للهالكين و فيه إشعار بأنّ الظّالم في معرض الهلاك و أنّه لا خير في وجوده إلاّ أنّه بعد الإمهال و إتمام الحجّة كما سبق القول فيه غير مرّة.

و قال القرطبي في تفسير الآية بعد ما فسرّ **لِيُهْلِكَ ٱلْقُرىٰ** بقوله، أي أهل القرى ما هذا لَفظه **بِظُلْمٍ**، أي بشركٍ و كفرٍ، و أهلها مصلحون، أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق أي لَم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتّى ينضاف اليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال و الميزان و قوم لوط باللّواط و دلَّ هذا على أنّ المعاصي أقرب الى عذاب الإستئصال في الدّنيا من الشِّرك و أن كان



١- يونس = ٤٤ ٢- البقرة = ٥٧

عذاب الشِّرك في الأخرة أصعب و في صحيح التّرمذي من حديث أبىبكر الصّديق.

قال سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول أنّ النّاس إذا رأووا الظّالِم فَلم يأخذوا علىٰ يَديه أوشكّ أن يَعمّهم اللّه بعقابٍ من عنده انتهىٰكلامه.

وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ

قيل معناه علىٰ دينٍ واحدٍ ففي الآية إخبار منه تعالىٰ أنّه لو شاء لفعل ذلك لأنّه قادر علىٰ كلّ شئ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْلَآ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً**[2].

أي على دينٍ واحدٍ بأن يلجئهم الى الإسلام بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنّهم لو داموا على غير ذلك لمنعوا منه لكن ذلك ينافي التكليف و يبطل الغرض به لأنّ الغرض به إستحقاق الثّواب قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين من العّامة نقلاً عن الضّحاك أي على أهل دينٍ واحدٍ أهل ضلالة أو أهل هدى و لا يزالون مختلفين، أي على أديانٍ شتّى.

و قال صاحب الكشّاف يعني لو شاء اللّه لأضطّرهم الى أن يكونوا أهل أمّةٍ واحدة أي ملّةٍ واحدة و هي ملّة الإسلام كقوله: **إِنَّ هٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً**[3].

و هذا الكلام يتّضمن نَفي الإضطرار وأنّه تعالىٰ لم يضطّرهم الى الإتّفاق على دين الحقّ و لكنّه مكنّهم من الإختيار الّذي هو أساس التكليف فإختار بعضهم الحقّ و بعضهم الباطل فإختلفوا فلذلك قال: **وَ لٰا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ**.

أقول الأمّة تطلق على كلّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو إختياراً و جمعها أمم:

١- الزّخرف = ٢٢ ٢- الزّخرف = ٣٣
٣- الانبياء = ٩٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما مِنْ دٰابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لا طٰآئِرٍ يَطيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلّآ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ**[١].

أي كلّ نوعٍ منها على طريقة قد سخرّها اللّه عليها بالطّبع فهي من بين ناسجة كالعنكبوت و باينة كالسرَّفة، و مدّخرة كالنّمل و معتمدة على قوت وقته كالعصفور و الحمام الى غير ذلك من الطّبائع الّتي تختَّص بها كلّ نوعٍ، تعالىٰ: **كٰانَ ٱلنّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً** معناه أي صنفاً واحداً في الضّلال و الكفر و قوله: **وَ لَوْ شٰآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً** أي في الإيمان.

و قوله: **وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**[٢].

معناه أي جماعة يتَّخيرون العلم و العمل الصّالح و يكونون أسوة لغيرهم.

و قوله: **إِنّٰا وَجَدْنٰآ اٰبآءَنٰا عَلٰىٓ أُمَّةٍ**[٣].

أي على دينٍ مجتمع و هكذا و الحاصل أنَ الأمّة يختلف معناها بحسب موارد الإستعمال إذا عرفت هذا فنقول معنىٰ قوله: **وَ لَوْ شٰآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً** عامّ يشمل جميع الموارد من الدّين و الزّمان و المكان و قوله: **وَ لٰا يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ** أيضاً كذلك أي أنّهم مختلفون زماناً و مكاناً و إعتقاداًالمعلوم أنّ هذا الإختلاف يرجع الى مشيّئة اللّه و مصلحته لأنّه لو كان مريداً فيهم الوحدة تسخيراً لفعل و لكنّه لم يفعل ذلك لأنّه منافٍ للإختيار الّذي تعلّقت المشّيئة به و إذا بطل الإختيار بطل الثّواب و العقاب لأنّ المجبور لا يثاب و لا يعاقب على فعله لأنّه مستلزم للظُّلم و هو لا يتحقق إلاّ مع الإختلاف و أمّا مع الوحدة تسخيراً فلا يمكن للعبد أن يختار ما شاء فتبطل دائرة الثّواب و العقاب هذا ما نفهم من الآية الشريفة و اللّه أعلم.

١- الأنعام = ٣٨
٢- آل عمران = ١٠٤
٣- الزّخرف = ٢٢

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ

قالوا: **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** إستثناءٌ منقطع و لذلك جعل رأس آية ولو كان متّصلاً لم يجز ذلك و أنّما قلنا أنّه منقطع لأنّ الأوّل على أنّهم يختلفون بالباطل و ليس كذلك من رحم لإجتماعهم على الحقّ و المعنى و لا يزالون مختلفين بالباطل إلاّ من رحم ربّك فأنّهم يشملهم اللُّطف و العناية الربانيّة فيؤمنون و يستحقّون بذلك الثّواب و من كان كذلك فهو ناج من الإختلاف بالباطل هذا و منهم من ذهب الى أنّ الإستثناء متّصل من قوله: **وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** و قال لا ضرورة تدعو الىٰ أنّه أي، إلاّ، بمعنى لكن فيكون منقطعاً كما ذهب اليه من ذهب، و الإشارة بقوله و لذلك خلقهم الى المصدر المفهوم من قوله: **مُخْتَلِفِينَ** أي و لذلك الإختلاف خلقهم و عليه فيكون على حذف مضافٍ أي لثمرة الإختلاف من الشّقاوة و السّعادة خلقهم و دلّ على هذا المحذوف أنّه قد تقرّر من قاعدة الشريعة أنّ اللّه خلق خلقاً للسعادة و خلقاً للشقاوة ثمّ يسرّ كلاًّ لما خلق له و هذا نصّ في الحديث الصحيح و هذه اللاّم في التحقيق لام الصيرورة في ذلك المحذوف أو تكون لام الصّيرورة بغير ذلك المحذوف أي خلقهم ليصير أمرهم الى الإختلاف و لا يتعارض هذا مع قوله: **وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**[1] لأنّ معنى هذا الأمر بالعبادة انتهى.

أقول هذا الّذي ذكره و حقّقه يصحّ على مسلك الجبر و أنّ اللّه خلق خلقاً للسعادّة و خلقاً للشقاوة فمن قال بهذا الأصل الّذي لا يساعده العقل و لا النّقل فالإستثناء متّصل و إلاّ فلا و قد تكلّمنا في بطلانه بقدر ما يقتضيه المقام.

و قال مجاهد و قتادة، ذلك، إشارة الى الرَّحمة الّتي تضّمنها قوله: **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** و الضّمير في خلقهم عائد على المرحومين.



١- الذاريات = ٥٦

لا يقال أنّه لو أراد ذلك لقال و لتلك خلقهم، لأنّ مرجع الضّمير و هو الرّحمة الّتي تضّمنها قوله: **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** مؤنثة الفظ، لأنّه يقال في جوابه أنّ تأنيث الرَّحمة ليس بتأنيثٍ حقيقي، فيجوز أن يعبَّر عنه بالتذكير كما قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**(١) ولم يقل قريبة من المحسنين هذا مع أنّه يمكن أن يراد في قوله و لذلك خلقهم، ولأن يرحم خلقهم، لأنّ الرَّحمة تدلّ على ذلك فعلى هذا يكون مرجع الضّمير مذّكراً و يقع التذكير موقعه انتهى.

أقول هذا أيضاً كسابقه في إفادة الجبر إذ العدل يقتضي أن لا يخلق اللّه خلقاً للسعادة و لا للشقاوة لمنافاته الثّواب و العقاب فقوله خلقهم لأجل الرّحمة معناه خلقهم للسعادة إذ لا نعني بالسعادة إلاّ هذا و هو كما ترى إذ لقائلٍ أن يقول لم خلق بعضهم لأجل الرَّحمة دون بعضٍ آخر.

و منهم من قال أنّ اللاّم في قوله: **وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ** لام العاقبة و التقدير أنّه خلقهم و علم أنّ عاقبتهم تؤل الى الإختلاف المذموم كما قال في قصّة موسى:

فَالْتَقَطَهُ اٰلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا(٢).

وكما قلنا في قوله: **وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ**(٣).

و به قال إبن عبّاس و الحسن و عطاء و مالك و قد يكون اللاّم بمعنى، على، كقولك أكرمتك على برّك أو علمك أي لبرك ولعلمك فيكون التّقدير و على ذلك خلقهم.

و قال الطبري الإشارة بذلك الى الإختلاف و الرحمة معاً فيكون على هذا أشير بالمفرد الى إثنين كقوله عوانٌ بين ذلك، أي بين الفارض و البكر و الضمير في خلقهم عائد على الصِّنفين المستثنى و المستثنى منه انتهى.

١- الأعراف = ٥٦
٢- القصص = ٨
٣- الأعراف = ١٧٩

و ليس في هذه الجملة ما يمكن أن يعود اليه الضّمير إلاّ الإختلاف على قول أكثر المفسّرين و قد أبعد المتأوّلون في تقدير غيره و الّذي نقول في تفسير الأية: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً** على الإيمان علىٰ سبيل الجبر و التّسخير و من المعلوم أنّه تعالى كان قادراً عليه إلاّ أنّه لم يخلقهم كذلك لئّلا يلزم الجبر و يبطل الثواب و العقاب و قد مرّ الكلام فيه **وَ لٰا يَزاٰلُونَ مُخْتَلِفِينَ** فيه إشارة الى إختلاف النّاس من حيث الإعتقاد و أنّهم لم يخلقوا على أمّةٍ واحدة **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** الإستثناء منقطع إستثنى منه طائفة خاصّة و هو المؤمنون و حكم عليهم بالرَّحمة و هي الإحسان المجرّد من اللّه في حقّ عبده فالمعنى إلاّ من شملتهم رحمة ربّك لكونهم أمنوا باللّه و برسوله و عملوا الصّالحات بإختيارهم و إرادتهم فصاروا بذلك من المحسنين و لا شكّ أنّ الإيمان و العمل الصّالح و أن كان تحت إختيار العبد إلاّ أنّ التّوفيق منه تعالى و هذا هو الإحسان المجرّد منه تعالى في حقّ العبد و يعبّر عنه بالرّحمة وليس معنى ذلك أنّه خلقهم كذلك.

وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ الحقّ أنّ الإشارة الى الإختلاف واللاّم في قوله: **وَ لِذٰلِكَ** لام الصّيرورة أو لام العاقبة و المعنى أنّا لم نجعلهم أمّةً واحدة فلا محالة أمرهم يصير الى الإختلاف أو عاقبتهم تكون كذلك ففريقٌ منهم في الجنّة و فريقٌ في السَّعير فمن أمن منهم و أحسن و شملته الرَّحمة الإلٰهيّة فهو في الجنّة و من لم يؤمن ففي النّار و عليه فقوله: **وَ لٰا يَزاٰلُونَ مُخْتَلِفِينَ** ليس معناه مختلفين في شقوق الكفر و أقسامه بل معناه مختلفين في الإيمان و الكفر فمنهم من بقى على الكفر و منهم من أمن و هذا هو الإختلاف ثمّ حكم على المؤمنين بالرّحمة دون غيرهم كما قال: **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**[١].



١- الأعراف = ٥٤

و أمّا قوله: **وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ** قال بعض المفسّرين و تمّت كلمة ربّك أي نفذ قضاءه و حقّ أمره.

و قال القرطبي معنى تمَّت، ثبت ذلك كما أخبر و قدَّر في أزله و تمام الكلمة إمتناعها عن قبول التَّغيير و التَّبديل انتهى.

و نحن نقول الكلمة مشتّقة من **الكَلم** بسكون اللاّم والميم و هو في اللّغة بمعنى الجرح يقال كلمه كلماً، جرحه و هي أي الكلمة ما ينطق به الإنسان مفرداً كان أو مركّباً و تجمع على كلمات و أمّا كلمة اللّه فهي على قسمين:

تكوينيّة و تشريعيّة، فالتشريعية منها عبارة عن أوامره و نواهيه و مواعظه و بالجملة جميع الأيات القرأنيّة كلمات اللّه بحسب التشريع و للبحث فيها مقام أخر.

و أمّا التكوينية فهي عبارة عن كلمة، كن، الإيجاديّة المشار اليها:

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(۱).

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(۲).

و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ**(۳).

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**(۴).

فإطلاق الكلمة على عيسى لكونه موجوداً بكلمة الإيجاد أعني بها كلمة كن، و قد تطلق على القضيّة بل قال بعضهم كلّ قضيّة تسمّى كلمة مقالاً أو فعالاً و منه قوله: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا**(۵).

اذا عرفت هذا فقوله: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ** يحتمل أن يكون المعنى تمَّت قضيّة ربّك أي حكمه بما حكم به و يحتمل أن يكون المراد بها كلمة الإيجاد

۱- النّحل = ۴۰
۲- يٰس = ۸۲
۳- النّساء = ۱۷۱
۴- أل عمران = ۴۵
۵- الأنعام = ۱۱۵

التّي يعبّر عنها بقوله، كن، و عليه فالمعنى تمَّت إيجاد ربّك على ما ذكر في الآية أي إنّا خلقنا النّاس كما قلنا في الأية كان فقد جرى به القلم.

و أمّا قوله: **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ** الخ قيل اللاّم للقسم و قيل قوله: **وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ** الخ معناه التَّحذير و هو يمينٌ أقسم اللّه به و تقديره يميناً لأملأنَّ كما تقول لأضنَّك و من المعلوم أنّ اللّه تعالى أقسم أن يملأ جهنَّم من الكافرين و العصاة أعاذنا اللّه منها.

وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبآءِ ٱلرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ جٰاءَكَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ

قال صاحب الكشّاف **وكُلاًّ**، التَّنوين فيه عوض عن المضاف اليه كأنّه قيل و كلّ نبأ نقصّ عليك فهو مفعول به و العامل فيه نقصُّ و التَّنوين عوض عن المحذوف و التقدير و كلّ نبأ نقصُّ عليك، و قوله: **مِنْ أَنْبآءِ ٱلرُّسُلِ** أي من أخبارهم و هو في موضع الصّفة لقوله: **وَ كُلاًّ** و المعنى وكلّ نبأ نقصّ عليك من أنباء الرُّسل و أخبارهم مثل قصّة نوح و هود و صالح و شعيب ما نثبّت به فؤادك و قلبك أي أنّ القصص التّي قصصناها عليك أنّما هي لأجل تسكين قلبك لتكون على إطمئنانٍ و إستقرارٍ عمّا وعدك ربّك من النُّصرة و هلاك الظّالمين.

و قوله: **وَ جٰاءَكَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَقُّ** أي في الأخبار و القصص و مع ذلك فيها موعظة لمن إتَّعظ بها و ذكرى للمؤمنين و ملّخص الكلام هو أن فيها علمٌ لمن جهل بها و تسكينٌ للقلب بأنّ اللّه ينصر المؤمنين و يخذل الكافرين و موعظةٌ لمن إتَّعظ و إستيقظ من نوم الغفلة و ذكرى لمن تذّكر بها و خشي غضب الجبّار و أيّ نفعٍ أحسن منها في مقام العبوديّة و السلوك الى اللّه.

وَ قُلْ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ، وَ ٱنْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ

أمر اللّه نبيّه أن يقول للكفّار المعاندين الذّين لا يؤمنون باللّه و اليوم الأخر و لا يعترفون بنبّوة نبيّه، إعملوا على مكانتكم أي إعملوا على كفركم و إلحادكم و عنادكم للحقّ، **إِنّا عٰامِلُونَ** على الإيمان الذّي أمرنا اللّه به فإنتظروا ما يعدكم الشّيطان من الغرور، أو إنتظروا العذاب على الكفر كما وعدكم اللّه به فإنّا منتظرين بما وعدنا اللّه من الثّواب على الإيمان.

وَ لِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ

قرأ نافع و حفص، **يُرجَع**، بضّم الياء و فتح الجيم و الباقون بفتح الياء وكسر الجيم بصيغة المعلوم.

و قرأ حفص و عامر و يعقوب **يَعملون** بالياء هاهنا و في النّمل و الباقون بالتّاء و المعنيان متقاربان و الغيب كون الشّئ بحيث لا يلحقه الحسّ و منه عالم الغيب و الشّهادة أي عالم المحسوس و غير المحسوس و في هذا الكلام إشعار بأنّ العلم بالغيب مخصوصٌ باللّه تعالى و لا يعلم الغيب إلاّ هو و أنّما قلنا أنّه مخصوصٌ به تعالى بمفاد الآية لأنّ تقديم الظّرف يفيد الحصر كما يقال في الدّار زيد يفيد الحصر بخلاف زيدٌ في الدّار و من هذا القبيل قوله:

وَ لِلّٰهِ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ،وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ.

و أمثال ذلك الذّي ذكره في الآية من إنحصار الغيب له تعالى لا ينافي حصوله في الأنبياء و الأصياء بسبب إعطاءه إيّاهم من العلم بالغيب حسب ما يراه من المصلحة و ستتكلّم فيه في موضعه إن شاء اللّه.

و أمّا قوله: **وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ** كلّه فهو أيضاً من المسلّمات و فيه إشارة الى يوم الحساب:

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ يَعْلَمُ مٰآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُو**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَى ٱللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**(٣) والأيات كثيرة.

و قوله: **فَاعْبُدْهُ** أمر نبيّه و من آمن به بالعبادة و المعنى أنّه يليق بها و أنّما قال فأعبذه و لم يقل و أعبده لأنّ الفاء للتّفريع أي اذا كان العلم بالغيب في السّموات و الأرض و ما فيهما منحصراً به و رجوع جميع الموجودات و الأمور أليه فهو مستحقّ للعبادة لا غيره من الأصنام و الأوثان و غيرها و قيل في معنىٰ **فَاعْبُدْهُ** أي وجّه عبادتك اليه وحده و لا تشرك به أحداً.

قال بعض أهل التحقيق العبادة أبلغ من العبوديّة و ذلك لأنّ العبوديّة إظهار التَّذلل و لا يستحقها إلاّ من له غاية الإفضال و هو اللّه تعالى و لهذا قال: **أَلّٰا تَعْبُدُوٓا إِلّٰآ إِيّٰاهُ** و العبادة ضربان:

عبادة بالتّسخير كما في الجمادات و النباتات و الحيوانات، قال اللّه تعالى: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**(٤) والسُّجود أصَله التَّطامُن و التَّذلل و جعل ذلك عبارةً عن التَّذلل للّه و عبادته و هو عامّ في الإنسان و الحيوانات و الجمادات إلاّ أنّ في الجمادات و الحيوانات بالتسخير لا بالإرادة.

و أمّا العبادة بالإختيار فهي منحصرة بالإنسان و بها يستحق الثّواب و العبادة بهذا المعنى لذوي النُّطق و هي المأمور بها في الشريعة للمكلفين الواجدين للشرائط.

١- النُّور = ٦٤

٢- المائدة = ١٠٥

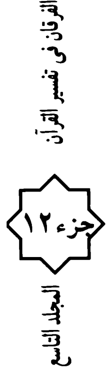
٣- يُونس = ٤

٤- الرعد = ١٥

و أمّا قوله: **وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ** فمعناه واضح و التَّوكل إيكال الأمر الى اللّه و الإعتماد عليه في جميع الأمور و قد مضى الكلام فيه غير مرّةٍ و سيجئ أيضاً في المستقبل.

و أمّا قوله: **وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ** فالغفلة السَّهو إلاّ أنّ الغَـفلة يغلب عليها أن تكون بعد اليقظة كلنّوم بعد الإنتباه و السَّهو نـقيض الذّكـر مـن غير علّةٍ في الصّفة فالمعنى أنّه تعالى ليس بساهٍ عن أعمال عباده بل هـو عـالم بها ففي الكلام نفي السَّهو عن أعمال العباد و فـيه إشـعار بأنّ السَّـهو لا يـجوز عليه لأنّه نقص و هو تعالى منَّزهٌ عن النّقائص لأنّه واجب الوجـود المسـتجمع لجميع الكمالات و المنزّه عن جميع النقائص و العيوب و الحمد للّه وحده.

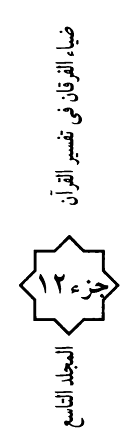




سُورَةُ يُوسُف

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرٰ تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنّٰٓا أَنْزَلْنٰاهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمٰآ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْـغٰافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قٰـالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يٰآ أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَـرَ كَوْكَبًا وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سٰاجِدِينَ ﴿٤﴾ قٰالَ يٰا بُنَىَّ لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلٰىٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحٰادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلٰىٓ اٰلِ يَعْقُوبَ كَمٰآ أَتَمَّهٰا عَلٰىٓ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كٰانَ فِى يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِٓ اٰيٰاتٌ لِلسّٰآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قٰالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلٰىٓ أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَـحْنُ



عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

◄ اللّغة

اَلْقَصَصِ واحدها قصّة بكسر القاف وهي مأخوذة من القصّ يقال قصَّ أثره أي تتبّعه و القصّ بفتح القاف الخبر قصَّ عليه الخبر، حدَّثه به و القصّة المرّة من قصَّ و قيل هي النّوع من قصَّ الحديث و الجمع منها قصص و أقاصيص القصَّ البيان و القصص بفتح القاف الإسم و بالكسر جمع قصّة يقال قصصت الرؤيا على فلان أخبرته بها.

أَوْحَيْنَا أصل الوحي الإشارة السّريعة و لتَّضمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض و قد يكون مجرّداً عن التركيب و يقال للكلمة الالهيّة التّي تلقى الى أنبياءه و أولياءه وحيٌ.

رُؤْيَاكَ الرُّؤيا بضّم الرّاء مصدر كالبشرى و السُّقيا إلاّ أنّه لمّا صار إسماً لهذا التَّخيل في المنام جرى مجرى الأسماء.

يَجْتَبِيكَ الإجتباء إختيار معالي الأمور للمجتبى.

عُصْبَةٌ العصبة بضّم العين الجماعة التّي يتَّعصب بعضها لبعضٍ.

غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ الجبّ البئر و غيابته كناية عن عمقه أي إطرحوه في جبّ عميق قليل الماء.

يَلْتَقِطْهُ الإلتقاط تناول الشّئ من الطريق و منه اللُّقطة.

ٱلسَّيَّارَة جماعة المسافرين لأنّهم يسيرون في البلاد.

◄ الإعراب

قُرْءَانًا قيل أنّه توطئة للحال التّي هي عَرَبِيًّا و الثّاني أنّه حال و هو مصدر في موضع المفعول أي مجموعاً أو مجتمعاً و عرَّبياً صفة له على رأي من يصف الصّفة أو حال من الضّمير الذّي في المصدر أَحْسَنَ ينتصب إنتصاب المصدر بِمَآ أَوْحَيْنَآما، مصدريّة و هَٰذَا مفعول أوحينا ٱلْقُرْءَانَ نعتٌ له أو بيان ويجوز رفعه على إضمار، هو، و جرّه على البدل من، ما، والباء متعلّق بنقص ويجوز أن يكون حالاً من أحسن والهاء في قبله، ترجع الى القرأن أو على هذا، أو على الإيحاء إِذْ قَالَ اذ مفعولٌ لاذكر محذوف وفي يُوسُفُ ستّ لغات ضمّ السّين و فتحها و كسرها بغير هَمزٍ فيهنّ و بالهَمز و مثله يونس يَٰٓأَبَتِ بكسر التّاء وهي زائدة عوضاً من ياء المتكلّم و هذا في النّداء خاصّة و كسرت التّاء لتدلّ على الياء المحذوفة و لا يجمع بينهما لئَلا يجمع بين العوض و المعرّض و يقرأ بفتح التّاء و فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه حذف التّاء التّي هي عوضٌ من الياء كما تحذف تاء طلحة في التَّرخيم و زيدت بدلها تاء أخرى و حرّكت بحركة ما قبلها كما قالوا يا طلحة أقبل بالفتح.

الثّانى: أنّه أبدل من الكسرة فتحة كما يبدل من الياء ألف.

الثّالث: أنّه أراد يا أبتاه كما جاء في الشِّعر، يا أبتا علَّك أو عساكا فحذفت الألف تخفيفاً و قد أجاز بعضهم ضمّ التّاء لشببها بتاء التّأنيث أَحَدَ عَشَرَ بفتح العين على الأصل و بإسكانها على التخفيف فراراً من توالي الحركات

سٰاجِدِينَ حال وَ كَذٰلِكَ الكاف في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف أي إجتباه مثل ذلك إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ بدلان من أبويك أَرْضًا ظرف لإطرحوه و ليس بمفعول به لأنّ طرح لا يتّعدى الى أثنين و قيل هو مفعول ثانٍ لأنّ إطرحوه بمعنى أنزلوه.

◄ التّفسير

لمّا أخبر اللّه نبيّه بالقصص التّي مرَّ ذكرها و هي قصّة نوح و قصّة هود و قصّة صالح و شعيب أردفها بقصّة يوسف و أخبر نبيّه بها وهي من أحسن القصص كما يأتي الكلام فيه فقال تعالى الٓر، وهي من الحروف المقطّعة التّي لا يعلم تأويلها إلاّ اللّه.

تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ

قيل هذه السُّورة مكيّة كلّها و قال إبن عبّاس و قتادة إلاّ ثلاث أيات من وَّلها و قالوا في سبب نزولها أنّ كفّار مكّة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن السَّبب الذّي أحلَّ بني إسرائيل بمصر فنزلت و قيل سببه تسلية الرّسول عمّا كان يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف به.

و قيل سألت اليهود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحدّثهم أمر يعقوب و ولده و شأن يوسف و وجه مناسبتها لما قبلها و إرتباطها أنّ في أخر السُّورة الّتي قبلهاوَ **كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰاۤءِ ٱلرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ**[١] و كان في تلك الأنباء المقصوصة فيها ما لاقى الأنبياء من قومهم فأتبع ذلك بقصّة يوسف و ما لاقاه من إخوته و ما ألت اليه حاله من حسن العاقبة ليحصل للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التّسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى القريب و البعيد و جاءت هذه القصّة مطوّلة مستوفاة اذا عرفت هذا فقوله: **تِلْكَ** إشارة الى، الٓر، و سائر حروف المعجم التّي تركبت منها أيات القرأن.

١- هود = ١٢٠

أو الى التّوراة و الإنجيل.

أو الى الأيات التّي ذكرت في سورة هود.

أو الى أيات السُّورة و الكتاب المبين أي تلك الأيات التّي أنزلت اليك في هذه السُّورة و أمّا الكتاب المبين فالظّاهر أنّ المراد به القرأن و أنّما وصفه بكونه مبيناً لأنّه ظاهر أمره في إعجاز العرب و تبكيتهم و أمّا لأنّه مظهر للحلال و الحرام و الحدود و الأحكام و ما يحتاج اليه البشر في أمر و الدنيّا و الدين و قيل المراد بالمبين الهدى و الرّشد فأنّ القرأن يظهرهما.

إِنَّآ أَنْزَلْنٰاهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّه أنزل القرأن عرّبياً لكي يعقلوا معانيه و أغراضه و أنّما سمّاه قرأناً لجامعيّته يقال قرأ قرأناً، الشّئ اذا جمعه و ضمّ بعضه الى بعضٍ و القرأن في الأصل مصدر نحو كفران و رجحان و قد خصّ بالكتاب المنزل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فصار له كالعلم كما أنّ التّوراة لمّا أنزل على موسى و الإنجيل على عيسى صارا علمين للكتابين المعهودين.

قال بعض المحققين تسمية هذا الكتاب فرأناً من بين كتب اللّه لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه لثمرة جميع العلوم و الضّمير في، أنزلناه، عائد على الكتاب و القرأن إسم جنسٍ يقع على القليل و الكثير و قوله: **عَرَبِيًّا** فيه إشارة الىٰ أنّه بلسان العرب فأنّ العرَّبي منسوب الى العرب و السّر فيه هو أنّ اللّه أنزل كلّ كتاب على كلّ نبيّ بلسانه ولسان قومه كما أرسل كلّ رسولٍ أيضاً بلسان قومه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلّا بِلِسٰانِ قَوْمِهِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّمٰا يَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**[2].

١- إبراهيم = ۴ ٢- الدّخان = ٥٨

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**[١].

و قوله: **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** أي لكي تعقلون و تتفكرون في أياته ثمّ تتّعظون بها و تعتبرون.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ

قد مرَّ الكلام في القصص و قلنا أنّها جمع قصّة إن قرأتها بكسر القاف و الإسم بفتحها في شرح اللّغات و قوله: **أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ** يدلّ على أنّ الحسن يتفاضل و يتعاظم و أنّما يتعاظم بكثرة إستحقاق المدح عليه و إختلفوا في معنى أحسن القصص و المراد به.

فقال قوم المراد بكونه أحسن أنّه إقتَّص على أبدع طريقةٍ و أحسن إسلوبٍ ألا ترى أنّ هذا الحديث قصصٌ في كتب الأولين و في كتب التواريخ و لا ترى إقتصاصه في كتاب منها مقارباً لإقتصاصه في القرأن لما فيه من العبر و الحكم و النكُت و العجائب الّتي ليست في غيره.

و قال بعضهم هذه السُّورة أحسن القصص لإنفرادها عن سائر بما فيها من ذكر الأنبياء و الصُّلحاء و الملائكة و الشياطين و الجنّ و الإنس و الأنعام و الطّير و سير الملوك و الممالك و التّجار و العلماء و الرّجال و النّساء و كيدهنّ و مكرهنّ مع ما فيها من ذكر التوحيد و الفقه و السير و السياسات و حسن المللكة و العفو عند المقدرة و حسن المعاشرة و الحيل و تدبير المعاش و المعاد و حسن العاقبة في العفّة و الجهاد و الخلاص من المرعوب الى المرغوب و ذكر الحبيب و المحبوب و تعبير الرّؤيا و العجائب الّتي تصلح و تفيد للدّين و الدنيا.

١- مريم = ٩٧

و قيل كانت أحسن القصص لأنّ كلّ من ذكر فيها كان مأله الى السّعادة أنظر الى يوسف و أبيه و إخوته و إمرأة العزيز و الملك أسلم بيوسف و حسن إسلامه.

و قيل، أحسن هنا ليست أفعل التّفضيل بل هي بمعنى حسن كأنّه قيل حسن القصص من باب إضافة الصّفة الى الموصوف أي القصص الحسن، وما، في بما أوحينا، مصدريّة أي بإيحاءنا و الوحي قلنا في شرح اللّغات أنّه في الأصل الإشارة السريعة و لتّضمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيّ و هاهنا نقول أنّ الوحي قد يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض، و قد يكون بصوتٍ مجرّدٍ عن التّركيب و قد يكون بإشارةٍ ببعض الجوارح، و بالكتابة و على ذلك حمل قوله تعالى حكايةً عن زكريّا:

فَخَرَجَ عَلٰى قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا[1].

و على هذه الوجوه قوله تعالى:

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا[2].

اذا عرفت هذا فاعلم أنّه يقال للكلمة الالهيّة الّتي تلقى الى أنبياءه و أولياءه وحيٌ و ذلك على أقسامٍ:

أحدها: أن يكون الوحي برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في صورة معيّنة.

الثّاني: أن يكون بسماعِ كلامٍ من غير معاينة كسماع موسى كلام اللّه.

ثالثها: أن يكون بإلقاءٍ في الرّوح كما ذكر عليه السلام أنّ روح القدس نفث في روعي.

۱- مريم = ۱۱ ۲- الأنعام = ۱۱۲

رابعها: أن يكون بإلهام كقوله تعالى: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ**[١].

خامسها: أن يكون بالتّسخير و عليه قوله تعالى: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا**[٢].

سادسها: أن يكون بمَنامٍ كما قال صلّى الله عليه و آله و سلّم إنقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن فالإلهام و التّسخير و المنام دلَّ عليه قوله تعالى: **إِلَّا وَحْيًا**[٣].

و سماع الكلام معاينةً دَلَّ عليه قوله: **أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ**[٤] و تبليغ جبرئيل في صورةٍ معيّنةٍ دلّ عليه قوله: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ**[٥].

اذا عرفت أقسام الوحي فقد علمت أنّ الوحي على رسول اللّه كان من تبليغ جبرئيل في صورةٍ معينة و قيل بصورة الدّحية الكَّلبية و يظهر من الآية أنّ القرأن بتمامه وكماله ممّا أوحي اليه صلّى الله عليه و آله و سلّم و لا يختّص الوحي بهذه السُّورة فقط و إنّا قوله: **وَ إِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ** فمعناه، وَ إِنْ كُنْتَ يا محمّد قبل وحينا اليك غافلاً عمّا أوحينا اليك و ذكرناه في القرأن من الأحكام و القصص و قيل معناه من الغافلين عن قصّة يوسف و إخوته حتّى أخبرناك بها.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَآ أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

قالوا و التّقدير، أُذكر اذ قال يوسف لأبيه و هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللّه، يا أبت، قد مرّ الكلام في شرح اللّغات في يا أبت، و ذكرنا هناك الوجوه المحتملة من فتح التّاء و كسرها و ضمّها مفصّلاً و الأصل فيها يا أبي، فحذفت الياء و عوضت عنها التّاء عوضاً عن ياء الإضافة لأنّ التّأنيث و الإضافة يتناسبان في أنّ كلّ واحدٍ منهما زيادة مضمومة الى الإسم في أخره.

١- القصص = ٧
٢- النّحل = ٦٨
٣- الشّورىٰ = ٥١
٤- الشّورىٰ = ٥١
٥- الشّورىٰ = ٥١

و أمّا الكسرة في التّاء كانت قبل الياء في قولك يا أبي، قالوا و الدّليل على أنّها تاء التّأنيث هو قلبها هاء في الوقف فيقال يا أبة **إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا** أي إنّي رأيت في المنام كذلك و الكوكب في أصل اللّغة معظم الشّئ يقال هذا كوكب الشّئ أي معظمه و كوكب الرَّوضة نورها و المراد به هاهنا النَّجم و لعلَّه سمّي به لنوره.

وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ قال الزّمخشري فأن قلت لم أخرَّ الشّمس و القمر.

قلت أخرَّهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الإختصاص إثباتاً لفضلهما و إستبدادهما بالمزيّة على غيرهما من الطّوالع كما أخرَّ جبرئيل و ميكائيل عن الملائكة ثمّ عطفهما على الملائكة لذلك و يجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي رأيت الكواكب مع الشّمس و القمر انتهى.

أقول و الذّي يظهر من الكلام هو أنّ تأخيرهما عن الكواكب أنّما هو من باب التَّرقي من الادنى الى الأعلى كما هو السِّيرة المستمرة في المحاورات و المناظرات و الأخبار و يحتمل أن يكون التّأخير و إختصاصهما بالذّكر بعدها تشريفاً و تعظيماً لهما لأنّهما و لا سيّما الشّمس منبع النُّور و أصلها و ما سواها من الكواكب يستضئ بنور الشّمس و لا نور فيها في حدّ ذاتها و كيف كان فأنّ يوسف رأى في المنام ما حكاه اللّه عنه بقوله: **رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ** أي رأيت أحد عشر كوكباً و الشّمس و القمر لي ساجدين و أنّما قال رأيتهم و لم يقل رأيتها و حقّ العبارة كان كذلك ظاهراً و هكذا في ساجدين لأنّه لمّا أخبر عن هذه الأشياء بالطّاعة و السُّجود و هما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمّن يعقل أي نزّل من لا يعقل منزلة من يعقل فقال رأيتهم لي ساجدين و لم يقل رأيتها لى ساجدة أو ساجدات و من عادة العرب أن تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل اذا أنزلوه منزلته و أن كان خارجاً عن الأصل.

إن قلت ما وجه التّكرار في رأيت.

قلت لإفادة التوكيد حيث طال الكلام و قيل ليدُّل على أنّه رآهم و رأى سجودهم.

و قال صاحب الكشّاف أنّه ليس بتكرارٍ أنّما هو كلام مستأنف على تقدير سؤالٍ وقع جواباً له كأنّ يعقوب قال له عند قوله: **إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ** كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها فقال رأيتهم لي ساجدين انتهى.

و أمّا السُّجود فقيل أنّه على وجه الحقيقة تكرمةً له لا عبادةً له.

و قيل معناه الخضوع كما قال الشّاعر:

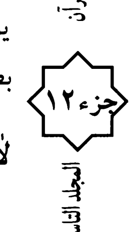
ترى الأكم فيه سجداً للحوافر

و نظيره هو سجود الملائكة لأبيه أدم

قَالَ يَٰا بُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ

أي قال يعقوب يا بنّي، فيه ثلاث ياءات، اليّاء الأصليّة و ياء الإضافة التَّصغير فحذفت ياء الإضافة إجتزاءً بالكسرة و أدغمت إحدى اليائين في الأخرى و فتح الياء و كسرها لغتان و أنّما صغِّر بنّي مع عظم منزلته لأنّه أي يعقوب قصد بذلك صغر السِّن ولم يقصد به تصغير الذّم.

و قال بعضهم كان في ذلك الوقت السُّجود تحيّة بعضهم ولمّا خاطب يوسف أباه بقوله: **يَآ أَبَتِ** و فيه إظهار الطّاعة و البّر و التَّنبيه على محلّ الشّفقة بطبع الأبّوة خاطبه أبوه بقوله: **يَٰا بُنَىَّ**، تصغير التَّحبيب و التَّقريب و الشَّفقة.



لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ

قرأ زيد بن علّي لا تقص مدغماً وهي لغة تميم، و الجمهور بالفّك و هي لغة الحجاز والرُّؤيا بضّم الرّاء مصدر كالبقيا و قيل الرُّؤيا هنا بمعنى الرُّؤية إلاّ أنّها مختصة بما كان في النّوم دون اليقظة فرّق بينهما بحرفي التّأنيث كما في القربة

و القربى و المعنى لا تحكي ما رأيته في المنام من سجود أحد عشر كوكباً و الشّمس و القمر، لإخوتك، و إخوة يوسف هم كاذ، و بنيامين و يهوذا و نفتالي و زبلون و شمعون و روبين (روبيل) و يساخا و لاوي و ذان و ياشير، فهؤلاء إخوة يوسف على ما قيل و قد فسَّروا أحد عشر كوكباً كناية عن هؤلاء الإخوة و الشّمس و القمر عن أبويه قاله الحسن و تبعه عليه غير واحدٍ من المفسّرين.

قال الطّبرسي رحمه الله في تفسير الآية قال إبن عبّاس أنّ يوسف رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السّماء فسجد له و رأى الشّمس و القمر نزلا فسجدا له قال فالشَّمس و القمر أبواه و الكواكب إخوته الأحد عشر.

و قال السُّدي الشّمس أبوه و القمر خالته و ذلك أنّ أمّه راحيل قد ماتت.

و قال إبن عبّاس الشّمس أمّه و القمر أبوه انتهى.

و قال وهب كان يوسف رأى ما رأى و هو إبن سبع سنين و قيل أنّه رأى أحد عشرة عصًا طولاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدّائرة و اذا عصاً صغيرة تثبّ عليها حتّى إقتلعتها و غلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال له إيّاك أن تذكر هذا لإخوتك ثمّ رأى و هو إبن عشرة سنة أنّ أحد عشر كوكباً و الشّمس و القمر سجدت له فقصّها على أبيه فقال: **لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ.**

و قيل أراد بالرّؤية الأولى الأعيان و الأشخاص و بالثانيّة رؤية سجودهم **فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا** قيل في معناه أي فيحسدوك أو يقابلوك بما فيه هلاكك و ذلك أنّ رؤيا الأنبياء وحيٌ و علم يعقوب أنّ إخوة يوسف يعرفون تأويلها و يخافون علُّو يوسف عليهم فيحسدونه و يبغون الغوائل و الكيد في الأصل ضربٌ من الإحتيال و قد يكون مذموماً و قد يكون ممدوحاً و أن كان إستعماله في المذموم أكثر و سيأتي الكلام فيه و هذا الكيد الّذي أشير به في الآية من المذموم و لذلك قال بعد ذلك **إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** و فيه إيماءٌ الىٰ أنّ ذلك الكيد من كيد الشّيطان في الحقيقة لأنّه بوسوسته و كيده لا يكون

الاّ مذموماً لأنّه للإنسان عدوٌّ مبين أي عدوٌّ ظاهرٌ لا خفاء فيه و العدو حاله معلوم و اللاّم في قوله: **لَكَ كَيْدًا**، لام التَّعدية كما يقال قدمت له طعاماً و قال قوم هو مثل قولهم شكرته و شكرت له لأنّه يقال كاده يكيده و كاد له، و الرّؤيا، فيها أربع لغات:

ضمّ الرّاء مَع الهَمَزة، وبالواو بلا هَمَزة و قد قرئ بهما و بضّم الرّاء و الإدغام و بكسر الرّاء و لا يقرأ بهاتين.

أقول في هذه الآية تنبيةٌ بل نهيٌ عن نقل الرُّؤيا الّتي رأهـا النّائم في منامه لكلّ أحدٍ من أحاد النّاس بل لو أراد النّقل للتعبير مثلاً ينبغي له أن يحرز صلاحيّة المعبّر له أوّلاً وكونه حافظاً للأسرار ثانياً و ذلك لأنّ المعبّر لو كان جاهلاً بعلم التَّعبير فيعبّر الرُّؤيا و قد ورد في الأخبار أنّ الرُّؤيا على ما تعبّر.

و أمّا كون المعبّر حافظاً للأسرار فلأنّ الخائن بها يذيع الرُّؤيا و يفشيها في النّاس و كثيراً مّا تكون الإذاعة على خلاف مصلحة الرّائي.

فقد روي في البحار بأسناده عن معمّر بن خلاّد قال سمعت أبا الحسن يقول أنّما رأيت الرُّؤيا فأعبُّرها و الرُّؤيا على ما تعبّر انتهى.

و بأسناده عن جابر ابن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول أنّ رؤيا المؤمن ترّف بين السّماء و الأرض و على رأس صاحبها حتّى يعبّرها لنفسه أو يعبّرها له مثله فاذا عبّرت لزمت الأرض فلا تقصُّوا رؤياكم إلاّ على من يعقل انتهى.

و في النهاية في حديث الرّؤيا لا تقصّها إلاّ على وآدٍ.

و بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الرؤّيا لا تقصّ إلاّ على مؤمنٍ خلا من الحسد و البغي انتهى.

و قال المجلسي بعد نقله الخبر أنّما إشترط ذلك لئّلا يتعمد المعبّر تـعبيرها بالسُّوء حسداً و بغياً.

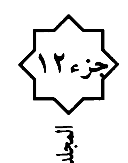
قال رسول اللّه ﷺ الرؤّيا الصّالحة من اللّه فإذا رأى أحدكم ما يحبّ فلا يحدّث به إلاّ من يحبّ وإذا رأى مايكره فلا يحدّث به انتهىٰ.

و في روايةٍ أخرى الرؤّيا على رجل طائر ما لم يعبّر فإذا عـبّرت وقعت ولا تقصّها إلاّ على وادٍ أو ذي رأيٍ، الوادّ لا يحبّ أن يستقبلك في تفسيرها إلاّ بما تحبّ و أن لم يكن عالماً بالعبارة لم يعجل لك بما يغمّك و أمّا ذو الرّأي فمعناه ذو العلم بعبارتها فـهو يـخبرك بحقيقة تفسيرها أو بأقرب ممّا تعلم منها.

و روي أبو أيّوب مرسلاً أنّ النّبي قال إنّ الرؤّيا يقع على ما عبرّ و مثل ذلك رجلٍ رفع رجله و هو ينتظر متّى يضعها و إذا رأى أحدكم رؤّيا فلا يحدّث بها إلاّ ناصحاً أو عالماً انتهىٰ. و الأحاديث كثيرة أنظر بحار الأنوار[1].

و غيرها من المطّولات أو كتب الموضوعة لهذا الفنّ.

وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحٰادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمٰا أَتَمَّهٰا عَلىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ



الإجتباء الإصطفاء و قيل الإجتباء هو إختيار معالى الأمور للمجتبى مـثل مـا إختاره اللّه ليوسف من الخصال الكريمة و الأمور السَّنية.

و قال الحسن إجتباه بالنبوة و بشّره بها و أصله من جبيت الشّئ إذا أخلصته لنفسك و منه جبيت الماء في الحوض و موضع الكاف من، وكذلك، نصب أي

١- بحار الأنوار ج ١۴ ط كمپاني

مثل ما رأيت تأويله يجتبيك ربّك و المعنى و كذلك يجتبيك ربّك أي مثل ذلك الإجتباء و هو ما أراه اللّه تعالى من تلك الرؤيا الّتي دلَّت على جليل قدره و شريف منصبه و مآله الى النبوة و الرّسالة و الملك و قوله: **وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** معناه أنّه تعالىٰ يعرّفك عبارة الرؤيا و قيل معناه يعلّمك تأويل الأحاديث في آيات اللّه تعالى و دلائله على توحيده و غير ذلك من أمور دينه و يجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب اللّه و سير الأنبياء و ما غمض و أشتبه على النّاس في أغراضها و مقاصدها يفسّرها لهم و يشرحها ويدلّهم على مودّعات حكمها و سميّت أحاديث لأنّها تحدث بها عن اللّه و رسله فيقال قال اللّه وقال الرّسول كذا و كذا و الأحاديث جمع تكسير للحديث علىٰ غير قياس كما قالوا أباطلٍ وأباطيل و لم يأت إسم جمع علىٰ هذا الوزن و قوله: **وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ** فإتمامها بأنّه تعالىٰ أعطاهم نعمة الدّنيا ونعمة الأخرة أمّا في الدّنيا فبأن جعلهم أنبياء و ملوكاً وأمّا في الأخرة فبأن نقلهم الىٰ أعلى الدَّرجات في الجنّة، و قال بعضهم في قوله: **وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** أي بإعلاء كلمتك وتحقيق رؤياك و قال الحسن هذا شئ أعلمه اللّه يعقوب من أنّه سيعطي يوسف النبوّة، و قيل بأن يحوج إخوتك اليك فتقابل الذّنب بالغفران و الإساءة بالإحسان، و قيل بإنجاءك من كلّ مكروه والأقوال كثيرة و المآل واحد فأنّ ما ذكروه كلّه من النِّعم و قوله: **وَ عَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ** معناه أنّ نعم اللّه تشمل جميع آل يعقوب ممن كانوا لائقين بها و أمّا الفسّاق منهم فلا **كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ** أي كما أتّم اللّه نِعَمه الظّاهرية و الباطّنية علىٰ أبويك من قبل و هما إبراهيم و إسحاق، أطلق عليهما الأب مع أنّهما كانا من أجداد يوسف لأنّ الجدّ بمنزلة الأب و لذلك أثبتوا للجدّ ما أثبتوا للأب من الولاية و قالوا أنّ ولاية الجدّ كولاية الأب بل هي في الجدّ في كثير من الموارد أقوىٰ منها لِلأب كما في مسألة نكاح البالغة العاقلة الرّشيدة

بناءً علىٰ أنّها تحتاج في النّكاح الىٰ إذن وليّها قالوا هو الأب و الجدّ وفي صورة التّعارض يقدّم قول الجدّ علىٰ الأشهر علىٰ قول الأب و إستدّلوا عليه بأنّ الجدّ وليّ لهما و تفصيل الكلام في الفقه و محصّل الكلام في المقام هو أنّ الجدّ بمنزلة الأب و الآية تدّل عليها: و أنّما قال ذلك لأنّ يوسف كان من أولاد إبراهيم و إسحاق في الحقيقة و هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام و قوله: **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** معناه أنّ ربّك عليمٌ بمن يستحقّ الإجتباء حكيمٌ، يضع الأشياء مواضعها و هذان الوصفان مناسبان لهذا الوعد الّذي وعده يعقوب و يوسف في قوله: **وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ.**

لَقَدْ كٰانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِۦٓ اٰيٰاتٌ لِلسّٰٓائِلِينَ

اللاّم في قوله: **لَقَدْ** قيل هي اللاّم الّتي يتّلقى بها القسم أقسم باللّه في هذه الآية أنّه كان في يوسف و إخوته آيات أي علامات تكشف عن المعنى و هذا هو الفرق بين الآية و الحجّة فأنّ الحجّة، معتمد البيّنة الّتي توجب الثّقة بصّحة المعنى و ليست بكاشفة عنه و المعنىٰ أنّ فيها علامات و دلائل على قدرة اللّه تعالىٰ و حكمته في كلّ شيئ للسّائلين لمن سأل عنهم و عرف قصتّهم و قيل آيات دالّة علىٰ نبوّة النّبيﷺ للذّين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصّحة من غير سماعٍ من أحدٍ و لا قراءة كتابٍ.

إِذْ قٰالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبٰانٰا لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ

العامل في، إذ، أُذكر و تقدير الكلام أُذكر يا محمّد إذ قالوا، و يحتمل أن يكون العامل فيه، ما في الآية الأولى من قوله: **لَقَدْ كٰانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِۦٓ اٰيٰاتٌ لِلسّٰٓائِلِينَ** إذ قالوا كذا و كذا و المعنىٰ أذكر إذ قالوا، أي إخوة يوسف، ليوسف و أخوه و هو بنيامين و أمّهما راحيل و هي ماتت من نفاسه و القائلون



بهذه المقالة هم عشرة من إخوته و كان روبيل أكبرهم و هو أي روبيل و يهوذا و شمعون و لاوي و زبولون، و يساخا، أمّهم، ليا، بنت بن ناهر بن آزر و هي بنت خال يعقوب، و ذان، و نفتالي، و كاذ، و ياشير، أربعة من سرّتين كانتا لليا و أختها راحيل فوهبتاهما ليعقوب فجمع بينهما و لم يحلّ الجمع بين الأختين لأحدٍ بعده و أسماء سرّتين فيما قيل، ليا، و قلتا، و توفيّت أمّ السّبعة فتزوّج بعدها أُختها راحيل فولدت له يوسف و بنيابين و ماتت من نفاسها، أنّما قال و أخوه و لم يصرّح بإسمه لأنّهما كانا شقيقين فأضافوه الىٰ يوسف و اللاّم في، ليوسف، لام الإبتداء و فيها تأكيد و تحقيق لمضمون الجملة أي كثرة حبّه لهما ثابت لا شبهة فيه و أحبَّ، أفعل التّفضيل و هي مبنّيٌ مِن المفعول شذوذاً و لذلك عدّي، بألىٰ و كان بنيابين أصغر من يوسف و كان يعقوب يحبّهما لِصغرهما و موت أمّهما و حُب الصّغير و الشَّفقة عليه مركوزٌ في فطرة البشر.

قيل لبعض الحكماء أيُّ بنيك أحبّ اليك، قال، الصّغير حتّىٰ يكبر، و الغائب حتّى يقدم، و المريض حتّىٰ يفيق و قد نظم الشّعراء في محبّة الصّغير قديماً و حديثاً و من ذلك ما قاله الوزير عبد الملك بن إدريس في قصيدته الّتي بعث بها الىٰ أولاده و هو في السِّجن:

وصغيركم عبد العزيز فأنّني ... أطوي لفرقته جوىً لم يصغر
ذاك المقدّم في الفؤاد وأن غدا ... كفواً لكم في المنتمىٰ والعُنصر
إنّ البنان الخمس أكفاءُ معاً ... والحلي دُون جميعها للخنصر
وإذا الفتىٰ بعد الشّباب سماله ... حبّ البنين ولا كحُبّ الأصغر

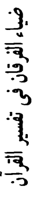
و قوله: **وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ** الواو للحال فالجُملة حالّية أي حال كوننا عصبة أي جماعة و المعنىٰ كيف يفضلّهما، علينا في المحبّة و هما إبنان صغيران لا كفاية فيهما و لا منفعة و نحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته فنحن أحقّ

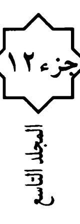
بزيادة المحبّة منهما، و عن إبن عبّاس أنّه قال العصبة مازاد على العشرة و منه ما بين العشرة الىٰ الأربعين و عن مجاهد العصبة من عشرة الىٰ خمسة عشر، مقاتل، عشرة، و عن إبن جُبير سَتّة أو سبعة و قيل لا يقال لأقلّ من عشرة عُصبة وقوله: **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**.

فقيل المراد بالضّلال هنا هو الهوىٰ و قيل هو الخطأ من الرّأي و قيل هو الجور في الفعل أو الغلط في أمر الدّنيا و روي أنّه بعد إخباره لأبيه الرّؤيا كان يضمه كلّ ساعةٍ الى صدره و كان قلبه أيقن بالفراق فلا يكاد يصبر عنه.

و قال بعض المُفسّرين أنّ المراد بقولهم: **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** أنّ أبانا في ذهابٍ عن طريق الحقّ و الصّواب الّذي فيه التّعديل بيننا في المحبّة و قال الآخر أنّهم أرادوا بذلك أنّه غلط في تدبير الدّنيا، أمر الدّنيا، إذ كانوا أنفَع له من يوسف و أخيه من أمّه و أبيه إذ كانوا يقومون بأمواله و مواشيه و كيف كان أنّهم لم يريدوا بقولهم هذا الضّلال في الدّين إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفّاراً و ذلك خلاف الإجماع.

قال الشّيخ في التبّيان بعد نقله القولين الأخيرين و أكثر المفسّرين على إنّ إخوة يوسف كانوا أنبياء و قال قوم لم يكونوا كذلك و هو مذهبنا لأنّ الأنبياء لا يجوز أن تقع منهم القبائح و خاصّة ما فعلوه مع أخيهم يوسف وقال قومٌ أنّهم لم يكونوا في تلك الحال بلغوا الحلم و قد يقع مثل ذلك ممّن قارب البلوغ انتهىٰ.





و أنا أقُول كلّ هذه الأقوال لا دليل عليها و أنّما هي من مستخرجاتهم الظَّنية و أوهامهم الفاسدة الكاسدة الّتي لا يجوز الإعتماد عليها والّذي يدّل عليه القرآن و الأخبار الصّحيحة الصّادرة عن مقام العصمة هو المتّبع والّذي يستفاد من هذه الآية أمور ينبغي التنّبيه عليها:

الأوّل: أنّ المحبّة و أن كانت من الأمور القلّبية و في أكثر الموارد فطرّية كما

في الأولاد مثلاً إلاّ أنّ شدّة المحّبة وضعفها بالنّسبة الىٰ بعض الأولاد ليست فطّرية كما زعم أكثر النّاس بل هي مسبّبة عن الأسباب الخارّجية و ذلك لأنّ حبّ الوالِد أو الأمّ لجميع أولادها بحسب الفطرة علىٰ حدٍّ سواء لأن الولد بما هو ولد محبوبٌ لأبويه بالفطرة لوحدة الملاك و هي البنوّة في الجميع تختلف المحبّة بحسب الأسباب و الأوصاف الخارجة من أصل البنوّة مثل أن يكون بعضهم أطوع لأبويه من بعضٍ أو يكون أتقى و أورع و أنفع و من المعلوم أنّ محبّة الأب بالنّسبة الىٰ الأتقىٰ و الأورع مثلاً أشدّ منها لمن لا يكون كذلك ومن جملة الأسباب أي أسباب الشّفقة الصغر و المرض و أمثال ذلك و هذا ممّا لا شكّ فيه إذا عرفت هذا فنقول.

أنّ يوسف الصّديق لِصغره أو لأن يعقوب كان عالماً بعاقبة أمره و أنّه من الأنبياء مثلاً أو لغير ذلك من الأمور كان أحبّ الى أبيه من إخوته و هذا ممّا لا إشكال فيه و لا منقصة عقلاً و شرعاً فأنّ المحبّة من الأمور القلّبية النّاشئة عن الأسباب و العلل الموجودة لها قهراً و أنّما الكلام في إظهارها قولاً و عملاً هو الّذي صار باعثاً لحسد الأخوة لا أصل المحبّة المركوزة في قلب يعقوب بالنّسبة الى يوسف إذ لم يطّلع عليها قبل الإظهار أحدٌ من الأخوة و إذا كان كذلك فينبغي للأب و الأمّ كتمان المحبّة القلبيّة لا إظهارها بين الأولاد وتَرجيح بعضهم على بعض فعلاً ولساناً.

الثّاني: أنّه يستفاد من الآية أنّ الأخوة فعلوا ما فعلوا لأجل الحسد و لم يترتّب عليه إلاّ الخسران في الدّنيا و الأخرة و النّدم بعد ذلك علىٰ ما فعلوه و طلب المغفرة من اللّه و أمثال ذلك و أمّا يوسف فقد رفع اللّه مقامه في الدّنيا و الأخرة فالحاسِد لا يحصد إلاّ خساراً و المحسود لا يحصد إلاّ شرفاً و مقاماً في الدّارين فينبغي للعاقل أن لا يحسد على غيره.

الثّالث: أنّ قولهم: **وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ** أي جماعة، فيه إشارة الىٰ أنّهم أي إخوة يوسف إعتمدوا علىٰ قدرتهم لكونهم جماعة ففعلوا مافعلوا بيوسف و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى أقدر منهم و من كلّ مخلوقٍ فلو أراد اللّه تعالىٰ أن يرفع عبداً أو يضعه لا يقدر أحدٌ على منعه فالقول بإنّا عصبة ناشٍ من ضعف الإيمان و الغفلة و هو كما ترىٰ.

الرّابع: أنّ قولهم: **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** حيث نسبوا الضّلال بأيّ معنى كان، الىٰ أبيهم مشعر بعدم معرفتهم بحال النّبي وأنّه لا يخطئ لعصمته و أنّ حبَّه و بغضه للّه لالنفسه فلو كانوامتوجّهين الىٰ هذه الأمورالمترتّبة علىٰ النبّوة فكيف قالوا ما قالوا و لااستبعاد فيه فأنّ أولاد الأنبياء يجوزعليهم الخطأكغيرهم.

اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

و الظّاهر أنّ، أقتلوا يوسف، من جملة قول الأخوة وقيل هو من قول قوم إستشارهم إخوة يوسف فيما يفعل به فقالوا لهم ذلك وهكذا قوله: **أَوِ اطْرَحُوهُ** و يجوز أن يكون، أو، لِلتنّويع أي قال بعض إقتلوا يوسف وقال بعض إطرحوه أرضاً، و إنتصب أرضاً، على إسقاط حرف الجرّ أي في أرض بعيدة من الأرض الّتي هو فيها قريبٌ من أرض يعقوب و قيل مفعول ثانٍ علىٰ تضمين إطرحوه معنىٰ إنزلوه كما تقول أنزلت زيداً الدّار و قالت رفة ظرفٌ و إختاره الزّمخشري و قال أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران معنىٰ تنكيرها و قوله: **يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** جواب الأمر في قوله: **اُقْتُلُوا يُوسُفَ** يجوز فيه غير الجزم لأنّه ليس فيه ضمير قالوا و المعنىٰ أنّكم متّىٰ قتلموه أو طرحتموه في أرضٍ أخرىٰ، خلا لكم أبوكم و حسّن أليكم **وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** و قيل هو إستعارة عن شغله بهم و صرف مودّته اليهم بعد يوسف

لأنّ من أقبل عليكَ صرف وجهه اليك و هذا كقول تغامة حين أحبّته أُمّه لمّا قتل إخوته و كانت قبل لا تحبّه قال الثّكل أرامها أي عطفها و الضّمير في، بعده، عائد على يوسف أو قتله أو طرحه وقولهم: **صٰالِحِينَ** أي صلاح حالهم عند أبيهم أو صلاحهم بالتّوبة.

و محصّل المعنى أنّهم إستشاروا و بعد الإستشارة عزموا و أرادوا قتله أو طرحه في مكانٍ بعيدٍ عن يعقوب على ما مرَّ بيانه.

قٰالَ قٰآئِلٌ مِنْهُمْ لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ اَلسَّيّٰارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ

قال قتادة القائِل هو روبيل و قيل هو شمعون و قيل يهوذا و كان أحلمهم و أحسنهم فيه رأياً قال لإخوته: **لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ** الغيابة الموضع الّذي يغيب فيه صاحبه و الجبّ بضمّ الجيم البئر.

قال الرّاغب في المفردات في قوله: **وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ** أي بِئرٍ لَم تطؤ و تسميته بذلك أمّا لكونه محفوراً في جنوبٍ أي أرضٍ غليظة و أمّا لأنّه قد جبَّ و الجبّ قطع الشّئ من أصله كجبَّ النخلّ و بعيرٌ أجبَّ مقطوع السّنام و معنى مجبوب مقطوع الذّكر من أصله انتهىٰ.

و قال الحسن يعني ألقُوه في قعر الجبّ.

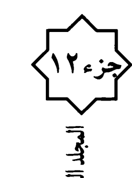
قال الشّاعر:

فأن أنا يومُ غيبتني غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهلِ

و قال الأعشىٰ في الجُبّ:

لأن كُنتُ في جُبٍّ ثمانين قامة ورقيّتُ أسباب السّماء بُسلّمٍ

و أمّا قوله: **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ اَلسَّيّٰارَةِ** فالالتقاط تناوُل الشّئ من الطّريق ومنه اللُقّطة و اللّقيطة و السّيارة الجماعة المسافرون لأنّهم يسيرون في البلادهم مارّة الطّريق و قيل أنّهم أشاروا اليه بأن يقعد في دلو المدلي إذا إستقىٰ ليخرجه



من البئر ففعل و معنىٰ إلتقاطه أن يجدوه و من غير أن يحسبوه.

قال قتادة الجُب بئر بيت المقدس و قال وهب بأرض الأردن و قال مقاتل على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب و قيل بين مدين و مصر، قالوا و الظّاهر أنّ الجبّ كان فيه ماء و لذلك قالوا: **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ** اذ الجبّ اذا كان خالياً من الماء فهو متروك و لذلك قال بعض المفسّرين أنّه كان فيه ماء كثير يغرق يوسف فنشز حجرٌ من أسفل الجبّ حتّىٰ ثَبت يوسف عليه و قيل لم يكن فيه ماء أخرجه اللّه فيه حتّى قصده النّاس و قيل أنّهم رموه بحبلٍ في الجبّ فتماسك بيديه حتّى ربطوا يديه و نزعوا قميصة و رموه حينئذٍ و همُّوا بعد برضحه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ** ما يحصل به غرضكم من التّفريق بينه و بين أبيه ثمّ أنّهم بعد الإستشارة و إهتمامهم بقتل يوسف أو طرحه في غيابت الجبّ و تقرَّر في أذهانهم التّفريق بين يوسف وأبيه بأيّ وجهٍ كان و إتّفقوا على ذلك أعملوا الحيلة و المكر علىٰ أبيهم يعقوب و تلطّفوا في إخراج يوسف معهم و ذكروا لأبيهم نصحهم له و ما في إرساله معهم من إنشراح صدره بالإرتعاء و اللَّعب اذ هو ممّا يشرح الصّبيان و ذكروا حفظهم له ممّا يسؤوه كما حكى اللّه تعالىٰ عنهم بقوله.

قٰالُوا يٰآ أَبٰانٰا مٰا لَكَ لاٰ تَأْمَنّٰا عَلٰى يُوسُفَ وَ إِنّٰا لَهُ لَنٰاصِحُونَ

ما، في **مالَكَ**، إستفهاميّة و المعنىٰ أنّهم جاءوا الىٰ أبيهم يعقوب و قالوا له يا أبانا ما لك لا تأمنّا علىٰ يوسف أي لأيّ شيٍ لا تأمنّا عليها و هو نفيٌ لا نهيٌ والأصل تأمننا فأدغمت النّون في النّون.

و قرأ الأعمش بالإظهار و يظهر من قولهم هذا لأبيهم أنّه تقدَّم منهم سؤال في أن يخرج يوسف معهم و ذكروا سبب الأمن و هو النُّصح أي لم لا تأمنّا عليه و حالتنا هذه و النُّصح دليل على الأمانة و لهذا قرنا في قولهم ناصحٌ أمين

قد أحسّ يعقوب منهم قبل ذلك ما أوجب أن لا يأمنهم عليه و لذلك سألوه بصورة التّعجب و قالوا ما لك لا تأمنّا عليه و أنّهم كانوا كاذبين في دعواهم النُّصح له لأنّ النُّصح إخلاص العمل من فسادٍ و نقيضه الغّش.

أَرْسِلْهُ مَعَنٰا غَدًا يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ

قرأ إبن كثير و إبن عامر و أبو عمرو، نَرتَع ونَلعَب بالنّون فيهما والباقون بالياء فيهماالمصاحف و رأيت في بعض تفاسيرالعامّة أنّ إبن كثير قرأ نرتع و يلعب بالياء و أمّا مانقلناه عنه من قراءة النُّون فيهمانقلناه عن التّبيان و اللّه أعلم بحقيقةكلامه.

قال بعضهم و الّذي نذهب اليه في القراءة هو إثبات النّون فيبضمّ النون، نرتع، والياء في، يلعب بفتحها و ذلك لأنّ الإرتعاء القيام علىٰ المال و هو لا يليق إلاّ لمن بلغ و جاوز الصِّغر و أسند اللّعب الى يوسف لصغره و لا لوم علىٰ الصَّغير في اللّعب و لا ذمّ و الدّليل عليه أي علىٰ صغره قول إخوته و أنا له لحافظون، ولو كان كبيراً ما إحتاج الىٰ حفظهم الىٰ أخر ما قال في إثبات صغره.

و لقائلٍ أن يقول أنّ الفعل أعني به يَرتع من رَتَع يَرتَع لا من أرتع لأنّ مضارعه يُرتع بضمّ الياء و لم يقرأ به أحد هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الإرتعاء ليس بمعنى القيام علىٰ المال في لُغة العرب حتّى يقال هو لمن بلغ و جاوز الصِّغر.

قال أهل اللّغة أرتع القوم وقعوا في خصبٍ و رتع رتاعاً كان مخصباً لا يعدم شيئاً يريده رتع في المكان أقام و تنَّعم و أكل فيه و شرب ما شاء في خصب و سعةٍ و رغدٍ انتهىٰ.

و اذا كان كذلك فلا يرجع ما ذكره الىٰ مُحصّلٍ وأمّا أنّ يوسف كان صغيراً فهو شئ أخر والحقّ هو إثبات النّون فيهما أو إثبات الياء فيهما فعلى الأوّل معنى الكلام هو إشتغال جميع الإخوة بالرَّتع و اللّعب مع يوسف.

علىٰ الثّاني: إختصاص الرَّتع و اللّعب بيوسف دون إخوته و كلاهما محتمل

لأنّ المراد بقوله يرتع و يلعب هو اللّعب المباح مثل الرّمي و الإستباق لا مطلق اللّعب و يرتع حول الحمى يطوف به و يدور حوله و المعنى أنّ الإخوة قالوا لأبيهم أرسله أي أرسل يوسف معنا غداً يرتع و يلعب في الصّحراء و إنّا له أي ليوسف لحافظون عن الأفات و البليّات و الخطرات و قلنا أنّ المراد باللّعب هو المباح منه و هو ممّا لا إشكال فيه و يظهر من قولهم و إنّا له لحافظون، أنّ القضيّة كانت مسبوقة بالدّعوة عند أبيهم و هو أي يعقوب أظهر الخوف على يوسف فقالوا: **وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ.**

■

قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيَ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ ﴿١٣﴾ قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ في غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَ جاءُو أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَ جاءُو عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ

أَسَرُّوهُ بِضٰاعَةً وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرٰاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كٰانُوا فِيهِ مِنَ اَلزّٰاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

◄ اللّغة

لَيَحْزُنُنِي الحزن ألم القلب بفراق المُحبّ.

تَذْهَبُوا بِهِ الذّهاب و المرور و الإنطلاق نظائر.

عُصْبَةٌ الجماعة و مرَّ الكلام فيها.

غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ قعر البئر.

لَتُنَبِّئَنَّهُمْ من الإنباء و هو الإخبار.

لاٰ يَشْعُرُونَ الشُّعور إدراك الشّئ بمثل الشَّعرة في الدِّقة و منه المشاعر في البدن.

نَسْتَبِقُ مشتقّ من السّباق في الرَّمي أي نتَّنصل و قيل نستبق في العدو.

كَذِبٍ أي مكذوبٌ فيه.

سَيّٰارَةٌ جماعة المسافرين.

وٰارِدَهُمْ هو الّذي يصير الماء ليستقي منه.

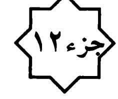
فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ أي فأرسل يقال أدليت الدَّلو اذا أرسلتها.

بِضٰاعَةً البضاعة قطعة من المال للتّجارة.

وَ شَرَوْهُ أي باعُوه.

بَخْسٍ البخس النّقص من الحقّ يقال بخسه في الوزن أو الكيل اذا نقصه من حقّه فيهما.

مَعْدُودَةٍ أي قليلة لأنّ الكثير قد يمنع من عدده لكثرته.



◀ الإعراب

وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ الجملة حال فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ جواب لمّا محذوف تقديره عرفناه أو نحو ذلك وَ أَجْمَعُوٓا يجوز أن يكون حالاً معه قد مرادة، و أن يكون معطوفاً عِشَآءً ظرف أي وقت العشاء و يَبْكُونَ حال عَلَىٰ قَمِيصِهِ في موضع نصب حالاً من الدَّم فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي فشأني فحذف المبتدأ و قيل هو مبتدأ و الخبر محذوف أي فصبرٌ جميلٌ عندي أَسَرُّوهُ الفاعل ضمير الإخوة السّيارة بِضَٰاعَةً الحال بَخْسٍ مصدر في موضع المفعول أي مبخوس و ذي بخسٍ و دَرَٰاهِمَ بدل من ثمن.

◀ التّفسير

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَٰافِلُونَ

لمّا أصرّوا عند أبيهم إعتذر يعقوب لهم بشيئين:

أحدهما: عاجل في الحال و هو ما يلحقه من الحزن لمفارقة يوسف و كان لا يصبر عنه و الحزن ألم القلب بفراق المحبّ فكلّما كانت المحبّة و العلاقة الى المحبوب أشدَّ كان فراقه أصعب قال الشّاعر:

يقولون أنّ الموت صعبُ علىٰ الفتىٰ   مفارقة الأحباب واللّه أصعب.

و لذلك يكون الموت على أهل الدّنيا صعباً لأنّهم يحبّون الدّنيا و زخارفها حبّاً شديداً و الموت في الحقيقة هو الفراق و أن كان في الظّاهر سببه.

قال رسول اللّه ﷺ **مُوتُوا قبل أن تَمُوتوا** أي أخرجوا حبّ الدّنيا عن قلوبكم قبل الموت فقول يعقوب **إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ** مُشعر بكمال علاقته و محبّته ليوسف و من المعلوم أنّ فراق الأحبّة يوجب الحزن.

الثّاني: خوفه على يوسف من الذّئب أن غفلوا عنه برعيهم و لعبهم أو يقلّة

إهتمامهم بحِفظه و عنايتهم فيأكله الذّئب و يحزن عليه الحزن المؤبّد قيل و خصَّ الذّئب لأنّه كان السَّبع الغالب لصغر يوسف فخاف عليه هذا السَّبع الحقير و كان تنبيهاً علىٰ خوفه عليه ما هو أعظم إفتراساً قال الشّاعر:

والذِّئب أخشاه إن مررتُ به وحدي وأخشى الرّياح والمطرا

و أنت ترى أنّ يعقوب بقوله هذا لقنَّهم ما سقولون له من العذر في المستقبل اذا جاءوا ليس معهم يوسف فلقنّوا ذلك و جعلوه عدة للجواب و من المحتمل أنّ يعقوب لو لم يقل لهم هذا لم يعلموا ما يقولون في الجواب و لكن اذا جاء القدر عمي البصر فقال ما قال و وقع ما وقع و هكذا قوله: **وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غٰافِلُونَ.**

قال بعض المفسّرين في وجه تخصيصه الذّئب بالذّكر دون غيره من السَّبع أنّ يعقوب رأىٰ في المنام كأنّه على رأس جبل و يوسف في صحراء فهجم عليه أحد عشر ذئباً فغاب يوسف بينهنّ و لذا حذَّرهم من أكل الذِّئب و مع ذلك فقد دفعه الىٰ إخوته.

أقول ما ذكره لا يعتمد عليه لأنّ رؤيا الأنبياء من الرُّؤيا الصّالحة و لو كان الأمر على ما ذكره فكيف دفعه الى إخوته و الحقّ أنَّه جرى على لسانه ما جرى لغلبة القضاء علىٰ الفكر.

قٰالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّٰآ إِذًا لَخٰاسِرُونَ

لمّا قال يعقوب لهم و أخاف أن يأكله الذّئب، قالوا في جواب أبيهم لئن أكله الذّئب و نحن عصبة أي جماعة إنّا إذاً لخاسرون أي هالكون ضعناً و خوراً و عجزاً واللاّم في لئن أكله الذّئب لام القسم فكأنّهم أقسموا على ما قالوه و قيل معناه مغبونون بترك حرمة الوالد و الأخ و أنّما إقتصروا في جواب أبيهم على الثّاني و هو أكل الذّئب و لم يجيبوا عن الإعتذار الأوّل و هو قوله: **لَيَحْزُنُنِي**

لأنّ السّبب القوّي في المنع هو أكل الذّئب دون الحزن لقصر مدّته بناء علىٰ أنّهم يأتون به عن قريب.

قال بعضهم لا ينبغي للرّجل أن يلقّن الخصم الحجّة لأنّ إخوة يُوسف كانوا لا يعلمون أنّ الذّئب يأكل النّاس و في الحديث البلاء موكّل بالنُّطق.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ

الجواب محذوف أي فعلوا به من الأذى ما فعلوا، قيل أنّ يعقوب لمّا رأى إلحاح إخوة يوسف في خروجه معهم الى الصَّحراء و مبالغتهم بالعهد و اليمين و رأى أيضاً ميل يوسف الىٰ التّفرج و التّنزه رضي بالقضاء فأذن و أمر أن يغسل بدن يوسف في طستٍ كان أتىٰ به جبرئيل الىٰ إبراهيم حين مجيئ الفداء فأجرى فيه دم الكبش، و أن يرجل شعره و يدهن بدهن إسماعيل الذّي جاء به جبرئيل من الجنّة و أن يكحل ففعلوا و يروى أنّ إبراهيم حين ألقي في النّار و جرّد عن ثيابه أتاه جبرئيل بقميصٍ من حرير الجنّة فألبسه إيّاه فدفعه إبراهيم الى إسحاق و إسحاق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمةٍ و علّقها في عنق يوسف فلمّا خرجوا من عند يعقوب شيَّعهم الىٰ شجرة الوداع و هى شجرة كانت خارجة من البلد فأخذ يوسف و ضمّه الى صدره و بكى بكاءً شديداً فقال يوسف يا أبت ما أبكاك و ما سببه فقال يعقوب يا بنّي إنّي أشمّ رائحة الغمّ بسبب ذهابك و فراقك و علىٰ أيّ حالٍ لا تنساني فأنّي لا أنساك ثمّ أوحى الى إخوة يوسف أن يحفظوه و يرقبوه و هم جعلوا يحملونه علىٰ عواتقهم إكراماً له و سروراً به فذهبوا به و كان يعقوب ينظر اليهم و هو يبكي الىٰ أن غابوا و رجع يعقوب الى مكانه فلمّا بعدوا به عن العيون تركوا وصايا أبيهم فألقوه علىٰ الأرض و قالوا يا صاحب الرُّؤيا الكاذبة أين الكواكب التّي رأيتهم لك ساجدين حتّى يخلصوك من أيدينا فجعلوا يؤذونه و يضربونه و كلّما لجأ الى واحدٍ منهم ضربه و لا يزدادون عليه إلاّ غلظة و خنقاً و هو يبكي بكاءً

شديداً و ينادي يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيَّعوا وصّيتك لو تعلم ما يصنع بإبنك و ما فعل به أولاد الإماء و هو يتضرّع و يبكي و هم يجرّونه على الأرض و يضربونه و هو مع ذلك عطشان جائع و كان الأمر علىٰ هذا المنوال حتّى يشرف على الهلاك فأخذه روبيل و جلّد به الأرض و وثب علىٰ صدره و أراد قتله و لوَّى عنقه ليكسرها فنادىٰ يوسف يا يهودا و كان أرفقهم به، إتَّق اللّه وحل بيني و بين من يريد قتلي فأخذته رقةً و رحمةً فقال يهودا ألستم قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه قالوا بلى قال أدُّلكم ما هو خير لكم من القتل ألقوه في الجبّ فسكن غضبهم و قالوا نفعل كما قال تعالىٰ: **وَ أَجْمَعُوٓا۟ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ** فعزموا علىٰ إلقاء يوسف في قعر الجبّ و كان علىٰ ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بكنعان التّي هي من نواحي الأردن حضره شدّاد حين عمَّر بلاد الأردن و كان أعلاه ضيّقاً و أسفله واسعاً فأتوا به الى رأس البئر فتعلّق بثيابهم فنزعوها من يديه فدَّلوه فيها بحبلٍ مربوط علىٰ وسطه فتعلّق بشفيرها فربطوا يديه و نزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بدمٍ كذب إحتيالاً لأبيه فقال يا إخوتاه ردّوا إلّي قميصي أتوارى به في حياتي و يكون كفناً بعد مماتي فلم يفعلوا فلمّا بلغ نصفها قطعوا الحبل و ألقوه ليموت و كان في البئر ماء فسقط فيه ثمّ أوى الى الصَّخرة بجانب البئر فقام عليها و هو يبكي فنادوه و ظنَّ أنّها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرداوا أن يرضخوه فمنعهم يهودا فقال اللّه تعالىٰ أدرك عبدي جبرئيل فجاء جبرئيل و أدركه قبل أن يصل الى قعر البئر و أجلسه على صخرةٍ كانت في البئر و أشبعه من طعام الجنّة و شرابها قالوا و ألقي في الجبّ و هو إبن ثنتي عشرة سنة و لقى أباه بعد ثمانين سنة و قيل أربعين سنة و قيل كان إبن سبع عشرة سنة و قيل إبن ثمانية عشرة سنة.

و روي أنّ هوام البئر قال بعضها لبعضٍ لا تخرجن من مساكنكنَّ فأنّ نبيّاً من

الأنبياء نزل بساحتكنّ فإنحجرن إلاّ الأفعى فأنّها قصدت يوسف فصاح بها جبرئيل فصمت و بقي الصمّم في نسلها و لمّا ألقي في الجبّ قال يا شاهداً غير غائبٍ و ياقريباً غير بعيدٍ و يا غالباً غير مغلوب إجعل لي من أمري فرجاً و مخرجاً.

و روي إجعل لي فرجاً ممّا أنا فيه فما بات فيه و قيل خرج من ساعته بعد ثلاثة أيّام و علَّم جبرئيل يوسف هذا الدُّعاء في البئر «اللّهم يا كاشف كلّ كربةٍ و يا مجيب كُلّ دعوةٍ و يا جابر كلّ كسيرٍ و يا ميسّر كلّ عسيرٍ و يا صاحب كُلّ غريبٍ و يا مؤنس كلّ وحيدٍ يا لا إلٰه إلاّ أنت أسألك أن تجعل لي فرجاً و مخرجاً و أن تقذف حبّك في قلبي حتّىٰ لا يكون لي همٌّ و لا ذكرٌ غيرك و أن تحفظني و ترحمني يا أرحم الرّاحمين».

وَ أَوْحَيْنآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ قالوا هذا الوحي وحي النبوّة أي أوحينا الىٰ يوسف بالنبوّة و بشّرناه بها فهو تبشيرٌ له بما يؤل اليه أمره و إزالةٌ لوحشته و كان وحي نبّوةٍ و رسالة و قد صحّ أنّ اللّه تعالىٰ أوحى الى يحيىٰ و عيسىٰ بها قبل إدراكهما و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ قد فتح باب الولاية الخاصّة لبعض الأحاد في صِغرهم فأمر الولاية و النبوّة لا يتوقف على البلوغ و على الأربعين و إن إستنبأ أكثر الأنبياء بعد الأربعين و قوله لتنبّئنهم، أي لتحدثنَّ إخوتك في المستقبل **بِأَمْرِهِمْ هٰذا** أي بما فعلوا بك **وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ** بأنّ ما فعلوا بك لحسدهم كان علىٰ ضررهم و قيل معناه أنّهم لا يشعرون في المستقبل بأنّك يوسف لتباين حالك هذه وحالك يومئذٍ لعلُّو شأنك و كبرياء سلطانك و بعد حالك عن أوهامهم و ذلك أنّهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم و هم له منكرون دعا بالصّواع فوضعه علىٰ يده ثمّ نقره فطّن فقال أنّه ليخبرني هذا الجام أنّه كان أخٌ لكم من أبيكم يقال له يوسف و كان يدنيه دونكم و أنّك إنطلقتم به و ألقيتموه في غيابت الجبّ و قلتم لأبيكم أكله الذّئب.

قال بعضهم إبتلىٰ أبوه بفراقه لما في الخبر أنّه ذبح جدياً بين يدي أمّه فلم يرض اللّه تعالىٰ ذلك منه و أرىٰ دماً بدمٍ و فرقةً بفرقةٍ لعظمة إحترام شأن النُّبوة و من ذلك المقام حسنات الأبرار سيأت المُقرّبين.

و قال بعضهم إستطعمه يوماً فقير فما إهتَّمَ بإطعامه فإنصرف الفقير حزيناً.

و قال بعضهم لمّا ولد يوسف إشترىٰ يعقوب له ظئراً و كان لها إبنٌ رضيع فباع إبنها تكثير اللّبن علىٰ يوسف فبكت و تضرّعت و قالت ياربّ أنّ يعقوب فرَّق بيني و بين ولدي ففرِّق بينه و بين ولده يوسف فإستجابَ اللّه دعاءها فَلم يصل يعقوب الىٰ يوسف إلاّ بعد أن لقيت تلك الجارية إبنها و قيل غير ذلك.

وأنا أقول و مثل هذا و أن كان بعيداً من الأنبياء عليهم السّلام إلاّ أنّ اللّه تعالى اذا قضىٰ أمراً فلا مردّ له و حيث أنّ الدّنيا دارٌ بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة كان أقرب الىٰ اللّه في مقام العبودّية فهو أقرب الى البلاء و حيث أنّ الأنبياء في رأس المقرّبين و أقرب الموجودات الى ربّ العالمين لا محالة يكون إبتلاءوهم أكثر و مصائبهم أشدَّ و أوفر و من المعلوم أنّ الدّنيا دار الأسباب أبى اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها و أن كانت الإسباب أيضاً تحت قدرته و إرادته و على هذا لا يبعد أن تكون مصائب الأنبياء و آلامهم و إبتلائهم مسَّببةً عن أسبابها و ما نحن فيه أيضاً من هذا القبيل.

و أمّا أنّ النّبي كيف يغفل عنه فالوجه فيه هو أنّه اذا جاء القدر عمي البصر و هو أمرٌ معقول لا إشكال فيه كما نقل أنّ يوسف أخذ يوماً مرأتاً فنظر الى صورته فأعجبه حسنه و بهاءه فقال لو كنت عبداً فباعوني لما وجد لي ثمن فأبتلي بالعبودّية و بيع بثمنٍ بخسٍ و كان ذلک سبب فراقه عن أبيه واللّه أعلم بحقائق الأمور.

وَ جَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ

أي جاءوا أباهم أخر النّهار، يبكون، حال أي متباكين أي جعلوا أنفسهم بصورة البّكائين لا أنّهم في الحقيقة يبكون.

روي أنّ يعقوب لمّا سمع فزع وقال ما لكم يا بنّي هل أصابكم في غنمكم شئ قالو الأمر أعظم قال فما هو و أين يوسف.

قَالُوا يٰآ أَبٰانٰآ إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ

متسابقين في العدو أو الرَّمي **وَ تَرَكْنٰا يُوسُفَ عِنْدَ مَتٰاعِنٰا** من اليثاب و الأزواد و غيرهما فأنّ المتاع في اللّغة كلّ ما أنتفع به و أصله النَّفع الحاضراسمٌ من متع كالسّلام من سِلم **فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ** عقيب ذٰلک من غير مضّي زمانٍ يعتاد فيه التَّفقد و التَّعهد فبكى يعقوب و صاح و خرَّ مغشّياً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرّك دوه فلم يجيب و وضع يهودا يده على مخارج نفسه فلم يحسّ بنفسه و لا تحَرَّك له عرق فقال ويلٌ لنا من ديّان يوم الدّين ضيَّعنا أخانا و قتلنا أبانا فلم يفق إلاّ ببرد السَّحر.

وَ مٰآ أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنٰا وَ لَوْ كُنّٰا صٰادِقِينَ أي و ما أنت بمصدّقٍ لنا الأن في قولنا أكاه الذِّئب و لو كنّا صادقين في الواقع لما غلب عليك من تهمتنا و كراهتنا في يوسف و إنّا نرتاد له الغوائل و نكيد له المكائد و أوهموا بقولهم: **وَ لَوْ كُنّٰا صٰادِقِينَ** في أكل الذِّئب يوسف روي أنّهم أخذوا صخلةً أو جدياً فذبحوه و لطَّخوا قميص يوسف بدمه و قالوا ليعقوب هذا قميص يوسف فأخذه و لطَّخ به وجهه و بكى ثمّ تأمّله فلم ير خرقاً و لا أرتاب فأستّدل بذلك على خلاف ما زعموا و قال لهم متى كان الذِّئب حليماً يأكل يوسف و لا يخرق قميصه.

و قيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلاً ليعقوب علىٰ أنّ يوسف لم يأكُله الذِّئب كما قال تعالىٰ:

وَ جٰاءُو عَلٰى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اَللّٰهُ اَلْمُسْتَعٰانُ عَلٰى مٰا تَصِفُونَ

أي قال لهم يعقوب بعد أن جاءوا على قميصه بدمٍ كذب، ليس الأمر كذلك أي لم يأكله الذّئب بل سوّلت لكم أنفسكم أي زيّنت و سهّلت و التّسويل تقدير شئٍ في النّفس مع الطّمع في إتمامه.

و قال الأزهري كان التّسويل تفعيل من سؤال الأشياء وهي الأمنّية الّتي يطلبها فيزيّن لطالبها الباطل و غيره و قوله أمراً، فهو مفعول لقوله: **سَوَّلَتْ** و التّقدير سوّلت أنفسكم أمراً لكم و هو أمرٌ منكر لا يوصف و لا يعرف فصنعتموه بوسف إستّدل يعقوب على أنّهم فعلوا به ما أرادوا و أنّهم كاذبون، بشيئين:

أحدهما: ما عرف من حسدهم الشّديد.

ثانيهما: بسلامة القميص حيث لم يكن فيه خرق فقوله: **بَلْ سَوَّلَتْ** رَدّ لقولهم أكله الذّئب و بل، للإعراض عمّا قبله و إثبات ما بعده على سبيل التّدارك نحو جاء زيدٌ بل عمروٌ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** أي فأمري صبرٌ جميلٌ فحذف المبتدأ و قيل بل حذف الخبر أي فصبرٌ جميلٌ عندي و كيف كان معناه لا شكواى فيه الى الخلق بل شكواي الىٰ اللّه تعالى فأنّ اللّه تعالىٰ: **اَلْمُسْتَعٰانُ عَلٰى مٰا تَصِفُونَ** أي أستعين به و أستمدّ منه علىٰ إظهار حال ما تصفون من شأن يوسف كأنّه علم منهم الكذب هذا علىٰ الرّفع.

و أمّا علىٰ النّصب كما هو قراءة بعض القرّاء فالتّقدير أنّ يعقوب رجع الى مخاطبة نفسه و قال لها أصبري صبراً جميلاً و هو كما ترىٰ من قبيل الأكل من القفا وفي الحديث أنّ الصّبر الجميل هو الذّي لا شكوىٰ فيه الىٰ الخلق.

وَ جٰاءَتْ سَيّٰارَةٌ فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ فَأَدْلٰى دَلْوَهُ قٰالَ يٰا بُشْرٰى هٰذٰا غُلاٰمٌ

قيل كانوا من مدين قاصدين الى مصر و قيل سيّارة في الطّريق أخطأوه فنزلوا قريباً من الجبّ و كان في قفره بعيدة من العمران لم تكُن إلاّ للرّعاة و فيهم مالك بن دعر الخزاعي فأرسلوه ليطلب لهم الماء، و الوارد الّذي يرد الماء ليستسقي للقوم و إضافة الوارد الى الضّمير كإضافته في قولهم ألقيت كاسبهم و ليست إضافة الىٰ المفعول بل المعنى الذّي يرد عليهم والذّي يكسب لهم و الظّاهر أنّ الوارد واحد و حمل على معنى السَّيارة ولو حمل علىٰ اللّفظ لكان الترتّيب فأرسلت واردها فأدلىٰ دلوه أي أرسلها ليستسقي الماء، فلمّا أدلى دلوه للماء أوحي الى يوسف بالتعلّق بالحبل فلمّا خرج يُوسف من البئر اذا هو بغلام أحسن ما يكون و قد كان أعطىٰ شطر الحسن.

قَالَ يٰا بُشْرٰى هٰذٰا غُلاٰمٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضٰاعَةً وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ أي قال مبشّراً نفسه و أصحابه يا بشرىٰ هذا غلام قيل هو أي، **بُشْرٰى** إسم صاحبٍ له ناداه ليعينه علىٰ إخراجه و لنعم ما قيل بالفارسّية:

چو آن ماه جهان آرا برآمد　　زجانش بانگ يا بشرىٰ برآمد

بشارت كز چنين تاريک چاهى　　بر آمد پس جهان افرُوز ماهى

نعم ماء الحياة لا يُوجد إلاّ في الظّلمات كما أنّ العلم الإلٰهي لا يوجد في ظلمات هذا القلب و القالب و قوله و أسرّوه، أي أخفاه الوارد و أصحابه عن بقيّة الرَّفقة لئّلا يطالبوا بالشّركة فيه، بضاعةً، حال أي حال كون يوسف بضاعةً أي متاعاً للتّجارة فأنّها قطعة من المال واللّه عليمٌ بما يعملون، لم يخف عليه إسرارهم.

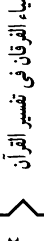


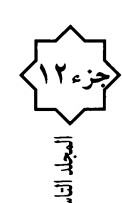
و قال إبن عبّاس الضّمير في و أسرَّوه و شروه يرجع الىٰ الإخوة لأنّهم قالوا للرّفقة هذا غلامٌ قد أبق لنا فإشتروه منّا و سكت يوسف مخافة أن يقتلوه و ذلك لما روي أنّ بعضهم رجع الى الجبّ ليتحقّقوا أمر يوسف و يقفوا على الحقيقة من فقده فلمّا علموا أنّ الوارد قد أخذوه جاءوهم و قالوا تلك المقالة

ثمّ قال واللّه عليمٌ بعمل إخوة يوسف بأبيهم و أخيهم من سوء الصُّنع و في ذلك أعظم تذكارٍ بما فعلوا بيوسف.

و قيل أوحى اللّه تعالى اليه في الجبّ أن لا يطّلع أباه و لا غيره على حاله لحكمةٍ أراد امضاها و ظهر بعد ذلك ما جرى له من جعله على خزائن الأرض و أحوج إخوته اليه و رفع أبويه علىٰ العرش و ما جرى مجرى ذلك ممّا كان مكنوناً في القدر.

أقُول قد ذكر في كتاب علل الشّرائع في الباب حديثاً لا بأس بنقله توضيحاً للمقام و عبرةً لمن إعتبر به بإسناده عن مالك بن عطيّة عن الثّمالي قال صلّيت مع علّي بن الحسين صلاة الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلمّا فرغ من صلاته و سبحته نزل الى منزله و أنا معه فدعا مولاه له تسمّىٰ سكينة فقال لها لا يعبر علىٰ بابي سائل إلاّ أطعمتموه فأنّ اليوم يوم الجمعة قلت له ليس كلّ من يسأل مستّحق فقال يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقّا فلا نطعمه ونرُّده فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب و أله أطعموهم أطعموهم أنّ يعقوب كان يذبح كلّ يوم كَبشاً فيتصدّق منه و يأكل هو و عياله و أنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً محقّاً له عند اللّه منزلة وكان مجتازاً غريباً إعتر علىٰ باب يعقوب عشيّة جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه أطعموا السّائل المجتاز الغريب الجائع من فَضل طعامكم يهتف على بابه ذلك مراراً و هم يسمعونه وقد جهلوا حقّه و لم يصدّقوا قوله فلمّا يئس أن يطعموه و غشيه اللّيل إسترجع و إستعبر و شكى جوعه الىٰ اللّه عزّ وجلّ وبات طاوياً و أصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً للّه وبات يعقوب وأل يعقوب شباعاً بطاناً و أصبحوا و عندهم فضلة من طعامهم قال عليه السلام فأوحى اللّه تعالىٰ الى يعقوب في صبيحة تلك اللّيلة لقد أذللت يا يعقوب عبدي





ذلّة إستحدثت بها غضبي و إستوجبت بها أدبي و نزول عقوبتي و بلواي عليك و على ولدك يا يعقوب أنّ أحبَّ أنبيائي إلَّي و أكرمهم علَّي من رحم مساكين عبادية و قرّبهم اليه و أطعمهم و كان لهم أويً و ملجأ يا يعقوب أما رحمت ذميال عبدي المجتهد في عبادته القانع باليسير من ظاهر الدّنيا عشاء أمس لمّا أعتر بابك عند أوان إفطاره وهتف بكم أطعموا السّائل الغريب المجتاز القانع فلم تطعموه شيئاً فإسترجع و إستعبر و شكى وبات طاوياً حامداً لي صابراً و أصبح صائماً و أنت يا يعقوب و ولدك شباعاً و أصبحت و عندكم فضلة من طعامكم أو ما علمت يا يعقوب أنّ العقوبة و البلوى الىٰ أوليائي أسرع منها الى أعدائي وذلك لحسن النَّظر منّي لأوليائي و إستدراجٍ منّي لأعدائي أما و عزّتي لأنزل بك بلواي و لأجعلنَّك و ولدك غرضاً لمصائبي و لأؤدبنّك بعقوبتي فإستّعدوا البلوىٰ و أرضوا بقضائي و أصبروا للمصائب فقلت لعلّي بن الحسين عليه السلام جعلت فداك متىٰ رأى يوسف الرُّؤيا فقال في تلك اللّيلة التّىٰ بات فيها يعقوب و أل يعقوب شباعاً و بات فيها ذميال طاوياً جائعاً فلمّا رأى يوسف الرُّؤيا و أصبح و قصَّها على أبيه يعقوب فإغتّم يعقوب لمّا سمع مِن يوسف الرُّؤيا مع ما أوحى اللّه اليه عزّ وجلّ أن إستَّعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف لا تقصص رؤياك هذه على إخوتك فأنّي أخاف أن يكيدوا لك كيداً فلم يكتم يوسف رؤياه و قصَّها علىٰ إخوته قال علّي بن الحسين عليه السلام و كانت أوّل بلوى نزلت بيعقوب و أل يعقوب الحسد ليوسف لمّا سمعوا منه الرُّؤيا قال عليه السلام فإشتدّت رقّة يعقوب على يوسف وخاف أن يكون ما أوحى اللّه عزّ وجلّ اليه من الإستعداد للبلاء هو

في يوسف خاصّة فإشتدّت رقّته عليه من بين ولده فلمّا رأىٰ إخوة يوسف ما يصنع يعقوب بيوسف من تكرمته إيّاه و ايثاره إيّاه عليهم إشتّد ذلك عليهم وبدا البلاء فيهم فتأمروا فيما بينهم و قالوا أنّ يوسف و أخاه أحبَّ الى أبينا منّا و نحن عصبة الأيات الىٰ قوله إنّي ليحزنني أن تذهبوا به و أخاف أن يأكله الذّئب، فإنتزعه حذراً عليه منه أن يكون البلوى من اللّه علىٰ يعقوب في يوسف خاصّة لموفعه من قلبه و حبّه له قال عليه السلام فغلبت قدرة اللّه و قضاءه نافذ أمره في يعقوب و يوسف و إخوته فلم يقدر يعقوب علىٰ دفع البلاء عن نفسه ولا عن يوسف و ولده فدفعه اليهم و هو لذلك كاره مُتَّوقع للبلاء من اللّه في يوسف فلمّا خرجوا من منزلهم لحقهم مسرعاً فإنتزعه من أيديهم فضّمه اليه و إعتنقه و بكى و دفعه اليهم فإنطلقوا به مسرعين مخافة أن يأخذه منهم و لا يدفعه اليهم فلمّا أيقنوا به أتوا به غيضة أشجار فقالوا نذبحه و نلقيه تحت هذه الشّجرة فيأكله الذّئب اللّيلة فقال كبيرهم لا تقتلوا يوسف، ولكن ألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السّيارة أن كنتم فاعلين، فإنطلقوا به الىٰ الجبّ و ألقوه فيه و هم يظنُّون أنّه يغرق فيه فلمّا صار في قعر الجبّ ناداهم يا ولد رومين إقرأوا يعقوب السّلام منّي فلمّا رأوا كلامه قال بعضهم لبعضٍ لا تزالوا من هاهنا حتّى تعلموا أنّه قد مات فلم يزالوا بحضرته حتّىٰ أيسوا و رجعوا الىٰ أبيهم عشاءً يبكون قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذّئب، فلمّا سمع مقالتهم إسترجع و إستعبر و ذكر ما أوحى اللّه عزّ وجلّ اليه من الإستعداد للبلاء فصبر و أذعن فقال لهم، بل سوّلت أنفسكم أمراً، وما كان اللّه ليطعم لحم يوسف للذّئب من قبل أن أرىٰ رؤياه الصّادقة.

قال أبو حمزة ثمّ إنقطع حديث علّي بن الحسين عليه السلام عند هذا فلمّا كان من الغد غدوت عليه فقلت له جعلت فداك إنّك حـدَّثتني أمس بحديث يعقوب و ولده ثمّ قطعته فما كان من قصّة يوسف و إخوته بعد ذلك فقال عليه السلام أنّهم لمّا أصبحوا قالوا إنطلقوا بنا حتّىٰ ننظر ما حال يوسف أماتَ أم هو حيّ فلمّا إنتهوا الىٰ الجبّ و جدوا بحضرة الجبّ سيّارة و قد أرسلوا واردهم فأدلى ئلوه اذ هو بغلام متعلّق بدلوه فقال لأصحابه يا بشرىٰ هذا غلام فلمّا أخرجوه أقبل اليهم إخوة يوسف فقالوا هذا عبدنا سقط منّا أمس في هذا الجبّ وجئنا اليوم لنخرجه فإنتزعوه من أيديهم وتنّحوا به ناحية فقالوا إمّا أن تقرَّ لنا أنّك عبدنا فنبيعك لبعض هذا السّيارة أو نقتلك فـقال لهـم يوسف لا تقتلوني و أصنعوا ما شئتم فأقبلوا به الى السّيارة فقالوا أمنكم من يشتري منّا هذا العـبد فـإشتراه رجـل مـنهم بـعشرين درهماً و كان إخوته فيه من الزّاهدين و صار به من إشتراه مـن البدو حتّىٰ أدخله مصر فباعه الذّي إشتراه من البدو من ملك مصر و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: وَ قَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ.

قال أبو حمزة فقلت لعلّي بن الحسين إبن كم كان يوسف يوم ألقوه في الجبّ قال عليه السلام كان إبن تسع سنين فقلت كم كـان بـين مـنزل يعقوب يومئذٍ و بين مـصر فـقال عليه السلام مسـرة أثـنتي عشـر يـوماً قال عليه السلام و كان يوسف من أجمل أهل زمانه الحديث و أنّما نقلنا ما نقلناه منه لما فيه من المواعظ و العبر مضافاً الى تفسير كلام اللّه من لسان العترة.

وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ

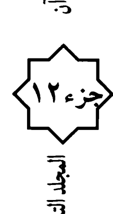
أي و باعوا يوسف بثمنٍ بخسٍ أي ناقصٍ و قيل ذِي ظُلم لأنّه كان حُرّاً لا يحلّ بيعه و البخس النَّقص من الحقّ وقوله: **مَعْدُودَةٍ** أي قَليلة و كانوا، أي إخوة يوسف، فيه أي في يوسف من الزّاهدين أي من التّاركين فأنّ الزُّهد التَّرك و المقصود أنّهم كانوا جاهلين بما له عند اللّه من المنزلة الرّفيعة فباعوه بعشرين درهماً، و قد إستفدنا من الحديث الذّي مرَّ ذكره أنّ إخوة يوسف باعوه بثمنٍ بخسٍ.

و قال قتادة أنّ أهل السّيارة باعوه بثممنٍ بخسٍ في مِصر و من المعلوم أنّ أهل البيت أدرىٰ بما في البَيت.

وبه قال إبن عبّاس و مجاهد قال بعض المُفسّرين في وجه ذلك أنّهم إلتقطوه و الملتقط للشّيء متهاونٌ به لا يبالي بما باعه و لأنّه يخاف أن يعرض له مستحقّ فينزعه من يده فيبيعه من أوّل مساومٍ بأوكس الثَّمن و يجوز أن يكون معنىٰ و شروه، إشتروه يعني الرَّفقة من إخوته و كانوا فيه من الزّاهدين لأنّهم إعتقدوا فيه أنّه أبق فخافوا أن يخاطروا بمالهم فيه.

و يروي أمّ إخوته إتَّبعوهم يقولون إستوثقوا منه لا يأبق انتهىٰ.

■



وَ قَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرٰيهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوٰاهُ عَسٰىٓ أَنْ يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ كَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحٰادِيثِ وَ ٱللّٰهُ غٰالِبٌ عَلٰىٓ أَمْرِهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَ لَمّٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ اٰتَيْنٰاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَ راٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوٰابَ وَ قٰالَتْ هَيْتَ لَكَ قٰالَ مَعٰاذَ ٱللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوٰاىَ إِنَّهُ لٰا يُفْلِحُ ٱلظّٰالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا لَوْلآ أَنْ رَاٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَ ٱلْفَحْشٰآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَ ٱسْتَبَقَا ٱلْبٰابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيٰا سَيِّدَهٰا لَدَا ٱلْبٰابِ قٰالَتْ مٰا جَزٰآءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلّآ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قٰالَ هِىَ راٰوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ أَهْلِهٰآ إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ ٱلْكٰاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَ إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ ٱلصّٰادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمّٰا رَاٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قٰالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا وَ ٱسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ٱلْخٰاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

◀ اللّغة

مَثْواٰهُ بفتح الميم المكان و قيل أي موضع مقامه.

أَشُدَّهُ و هو كمال القوّة و قيل هو من ثمانية عشرة الىٰ ستّين سَنة، و قيل من عشرين و قيل غير ذلك و لا واحِدٍ له من لفظه مستعمل.

هَيْتَ بفتح الهاء و التّاء و قرأ إبن كثير بضمّ التّاء وإبن عامر بكسر الهاء و فتح التّاء. قال أبو عبيدة معناه، هلّم هَمَّتْ الهمّ العزم علىٰ الفعل و قيل خطور الشّئ بالبال و أن لم يعزم عليه.

قَدَّتْ أي شقتّه طولاً و القدّ شقّ الشّئ طولاً.

أَلْفَيٰا ألفىٰ يلفي ألفاً اذا صادف.

◀ الإعراب

مِنْ مِصْرَ يجوز أن يكون متعلّقاً بالفعل كقولك إشتريت من بغداد أي فيها أو بها و يجوز أن يكون حالاً من، الذّي، أو من الضّمير في إشترى فيتعلّق بمحذوف مَعٰاذَ ٱللّٰهِ هو منصوب على المصدر لَوْلآ أَنْ رَاٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ جواب لولا محذوف تقديره لَهَمَّ بها كَذٰلِكَ في موضع رفع أي الأمر كذلك و قيل في موضع نصب أي نراعيه كذلك مِنْ دُبُرٍ مبنّي على الضمّ لأنّه قطع عن الإضافة و الأصل دبره و قبله.

◀ التّفسير

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَيٰهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِٓ أَكْرِمِي مَثْوٰاهُ عَسَىٓ أَنْ يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا

الذّي إشتراه من مِصر من أهل السّيارة هو عزيز مِصر الّذي كان علىٰ خزائن مصر و صاحب جنود الملك و إسمه قطيفر و كان يقال له العزيز قال في القاموس العزيز الملك لغلبته علىٰ أهل مملكته و لقب من ملك مصر مع

الإسكندريّة و قيل إشتراه رجلٌ من العماليق و قد أمن بيوسف و مات في حياة يوسف و قيل هو إذ ذاك الملك بمصر و إسمه الرّيان بن الوليد فدعاه يوسف الى الإيمان فأبى فإشتراه العزيز و هو إبن سبع عشرة و أقام في منزله ثلاث عشرة سنة و إستوزره الرّيان إبن الوليد و هو إبن ثلاثين سنة و أتاه اللّه الحكمة و العلم و هو إبن ثلاث وثلاثين سنة وتوّفىٰ و هو إبن مائة و عشرين سنة، و قيل كان الملك في أيّامه فرعون موسىٰ عاش أربع مائة سنة فرعون موسىٰ من أولاده فرعون يوسف و قالوا في كيّفية بيعه و شراءه أنّه عرض في السّوق و كان أجمل النّاس فوقعت فيه مزايدة حتّىٰ بلغ ثمناً عظيماً فقيل وزنه من ذهب و من فضّة و من حرير فإشتراه العزيز و هو كان صاحب الملك و خازنه و إسم إمرأته راعيل و قيل زليخا و قيل راعيل بنت رعاييل و قيل زُليخا بنت تمليخا و مثواه مكان إقامته و هو كناية عن الإحسان اليه في مأكل و مشربٍ و ملبسٍ و اللاّم في لإمرأته تتعلّق، بقال، فهي للتّبليغ نحو قلت لك (لا بإشتراه) عسىٰ أن ينفعنا فيما نحتاج اليه و يكفينا بعض المهمّات أو نَتخّذه ولداً، أي نقيمه مقام الولدلأنّ إمرأة العزيز لم يكن لها ولد منه و كان الملك عقيماً لا يولد فتفرس فيه الرشدّ و قال ما قال وهب و غيره لمّا إشترىٰ مالك بن دعر يوسف من إخوته كتب بينه و بينهم كتاباً، هذا ما إشترىٰ مالك بن دعر من بني يعقوب و هم فلان و فلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً و قد شرطوا له أنّه آبق، و أنّه لا ينقلب به إلاّ مقيّداً مسلسلاً و أعطاهم على ذلك عهد اللّه قال فودَّعهم يوسف عند ذلك و جعل يقول لإخوته، حفظكم اللّه و إن ضيّعتموني نصركم اللّه و إن خذلتموني رحمكم اللّه و إن لم ترحموني قالوا فألقت الأغنام ما في بطونها دَماً عبيطاً لشدّة هذا التَّوديع، ثمّ أنّهم حملوه علىٰ قتبٍ بغير غطاء وطاء مقيّداً مكّبلاً مسلسلاً فمرَّ علىٰ مقبرة آل كنعان فرأى قبر أُمّه و قد كان و كُلّ به أسود يحرسه فغفل الأسود فألقىٰ يوسف نفسه علىٰ قبر أمّه و جعل يمزّق و يعتنق القبر و يضطرب و يقول يا أمّاه إرفعي رأسك ترىٰ و لدك مكبّلاً مقيّداً مغلولاً فرَّقوا

بيني و بين والدي فأسألي اللّه أن يجمع بيننا في مستقرّ رحمته أنّه أرحم الرّاحمين فتّفقده الأسود علىٰ البعير فلم يره فقفا أثره فإذا هو بياض علىٰ قبرٍ فتأملّه فإذا هو أيّاه فركضه برجله في التّراب و مرّغه و ضربه ضرباً شديداً وجيعاً فقال له يوسف لا تفعل واللّه ما هربت و لا أبقت و إنّما مررت بقبر أمّي فأحببتُ أن أودّعها و لن أرجع الىٰ ما تكرهون فقال الأسود اللّه أنك بعد سُوء تدعوا أباك مرّةً و أمّك أخرىٰ فهلاّ كان هذا عند مواليك فرفع يوسف يديه الى السّماء قال اللّهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحقّ آبائي إبراهيم و إسحاق و يعقوب أن تَغفر لي و ترحمني فضَّجت الملائكة في السّماء و نزل جبرائيل فقال له يا يوسف غضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السّماء أتريد أن أقلّب الأرض فأجعل عاليها سافلها قال عليه السلام تثَّبت يا جبرائيل فأنّ اللّه حليم لا يعجل فضرب الأرض بجِناحيه فأظلمت و إرتفع الغبار و كسفت الشّمس و بقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً فقال رئيس القافلة من أحدث منكم جدثاً فأنيّ أسافر منذ كيت و كيت ما أصابني قطّ مثل هذا، فقال الأسود أنا لطمت ذلك الغلام العبّراني فرفع يده الىٰ السّماء و تكلَّم بكلمةٍ لا أعرفه و لا أشكّ أنّه دعا علينا فقال له ما ردت إلاّ هلاكنا إتنا به فأتاه فقال له يا غلام لقد لطمك فجاءنا ما رأيت فأن كنت تقتصّ فأقتصّ ممّن شئت و أن كنت تعفو فهو الظّن بك قال عفوت رجاء أن يعفو اللّه عنّي فأنجلت الغبرة و ظهرت الشّمس و أضاءت مشارق الأرض و مغاربها و جعل التّاجر يزوره بالغداة و العشّي و يكرمه حتّىٰ وصل الى مصر فأغتسل في نيلها و أذهب اللّه عنه كآبة السَّفر و ردّ عليه جماله و دخل به البلد نهاراً فسطع نوره على الجدران و أوقفوه للبيع و الشّراء فإشتراه قطفير وزير الملك انتهىٰ.

وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الكاف في موضع نصب أي كما أنقذناه من إخوته و من الجبّ فكذلك مكّنا له.

قيل في معناه أي عطفنا عليه قلب الملك الّذي إشتراه حتّى تمكّن من الأمر و النّهي في البلد الّذي الملك مستوّل عليه.

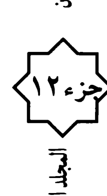
و قال بعض المفسّرين في وجه التّشبيه أنّه تعالىٰ شبه التّمكن له في الأرض بالتّوفيق للأسباب الّتي صار بها الىٰ ما صار بالنّجاة الى الهلاك و الإخراج الىٰ أجلّ حالٍ.

أقول و يستفاد من هذا الكلام أنّ الوصول الى المقامات العالية لا يمكن إلاّ بسبب تحملّ المشّقات و الألام الّتي قد يكرهها الإنسان في بادئ النّظريعلم أنّها من أسباب الخير:

قال اللّه تعالىٰ: **فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**[٢].

فالأحسن أن يفوّض العبد أمره الى اللّه و يتوكّل عليه في جميع أموره و يقطع العلائق و الإعتماد عمّا سواه فأنّ اللّه تعالى لا يريد بعبده إلاّ خيراً و من يتوكّل علىٰ اللّه فهو حسبه أنظر الى اللّه تعالىٰ كيف أنقذ يوسف من إخوته و هم أرادوا قتله فقلّب قلوبهم عمّا أرادوا من القتل حتّىٰ ألقوه في الجبّ و كيف أنجاه اللّه من خطرات الجُبّ بسبب مرور السّيارة على طريق الجبّ و إدلاء المدلى دلوه و تعلُّق يوسف به و هكذا الىٰ أن وصل مصر فجعله في بيت الملك و هو بيت العزّة و المكنة و عطف قلب الملك عليه الىٰ أن تمكّن في الأرض ثمّ علّمه من تأويل الأحاديث كما قال: **وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** و هو كناية عن علمه بالمغيبات بحسب ما أعطاه اللّه فَجمع يوسف بين المُلك و العلم و أيّ مقام أرفع منه و من يقدر على إعطاء هذا المقام غير اللّه تعالىٰ و لذلك قال: **وَ ٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ** أي أنّه إذا أراد شيئاً لا يقدر أحدٌ علىٰ



١- النسّاء = ١٩ ٢- البقرة = ٢١٦

منعه و لكن أكثر النّاس لا يعلمون، أنّ أزمّة الامور بيده و الكلّ مستّمدة من مده فأنّه إذا أراد بعبدٍ خيراً هَيأ له أسبابه على رغم أُنوف الحاسدين.

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

أي و لمّا بلغ يوسف أشدّه، و هو كمال القوّة النّظرية و العمليّة و قيل هو ما بين ثماني عشرة سنة الىٰ ثلاثين و قيل معناه إشتداد جسمه و قوّته و إستحكام عقله و تمييزه و هو سنّ الوقوف ما بَين الثّلاثين و الأربعين و قد ضبطوا مراتب أعمار النّاس في أربع:

الأولىٰ: سنّ النشوء و النّماء و نهايته الىٰ ثلاثين سَنة.

الثّانية: سنّ الوقوف و هو سِنّ الشّباب و نهايته الىٰ أن تتّم أربعون سنة من عمره.

الثّالثة: سنّ الكهولة و هو سنّ الإنحطاط اليسير الخفي و تمامه الى ستّين سنة.

الرّابعة: سِنّ الشّيخوخة و هو سِنّ الإنحطاط العظيم الظّاهر وتمامه عند المشهور الىٰ مِائة و عشرين سنة والأشدّ غاية الوصول الى الفطرة الأولىٰ بالتّجرد عن غواشي الخلقة الّتي يسمّيها الصوّفية بمقام الفتوة الّتي قيل في تعريفها هي السّخاء و الكرم وفي إصطلاح أهل الحقيقة هي أن توثّر الخلق على نفسك بالدّنيا و الأخرة.

قالوا و الأشدّ جمع لا واحد له من لفظه مستعمل.

و قيل أنّه واحد علىٰ بناء الجَمع و قوله: **ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا** أي كمالاً في العلم و العمل إستعدّ به الحكم بين النّاس بالحقّ و رئاستهم

و قال بعض العرفاء من جملة الحكم الّذي أتاه اللّه نفوذ حكمه علىٰ نفسه حتّىٰ غلب شهوته فإمتنع عمّا راودته زليخا عن نفسه و من لا حكم له علىٰ نفسه لم ينفذ حكمه علىٰ غيره.

قال بعض المفسّرين أنّ الحكم و الحكمة أصلهما حبس النّفس عن هواها و منعها ممّا يشنيها فالمراد من الحكم الحكمة العمّلية و المراد من العلم الحكمة النّظرية و أنّما قدّم الحكمة العمّلية على الحكمة النّظرية العلمّية لأنّ أصحاب الرّياضات يشتغلون بالحكمة العملّية ثمّ يترَّقون منها الى الحكمة النّظرية.

و أمّا أصحاب الأفكار العقّلية و الأنظار الرّوحانية فأنّهم يصلون الىٰ الحكمة النّظرية أوّلاً ثمّ ينزلون منها الىٰ الحكمة العمّلية و طريقة يوسف عليه السلام الأوّل لأنّه صبر علىٰ البلاء و المحنة ففتح اللّه عليه أبواب المكاشفات فلهذا السّبب قال: **اٰتَيْنٰاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا** انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره و حقّقه بزعمه ليس علىٰ ما ينبغي و ذلك لأنّ المراد بالحكم ليس الحكمة العمّلية بل المراد به معناه المشهور و هو أن تقضي بأنّه كذا فأن كان مطابقاً للحقّ يسمّىٰ الحاكم به حكيماً لأنّه وضع الشّئ موضعه و إلّا فليس حكيماً.

ثانياً: أنّ الحكمة العمّلية كانت في يوسف قبل حصول الحكمة النّظرية كلام عارٍ عن التّحصيل لأنّه تعالىٰ قال: **اٰتَيْنٰاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا** والواو للجمع.

و أن شئت قلت هي **واو** المعّية أي آتيناه الحكم مع العِلم ولو كان الأمر كما ذكره المستدلّ لقال آتيناه حكماً ثمّ علماً، أليس الادباء يقولون **الواو** للجمع و **الفاء** للتّرتيب بإتّصالٍ و أمّا ثمّ فهو للتّرتيب الإنفصالي فقول المستدّل لو تمّ لتمّ في غير المقام لأنّ الأنبياء ليس العِلم و الحِكمة فيهم بسبب الكسب و التّحصيل بل هما من إضافات الرّبانية في حقّهم بخلاف غيرهم من الأشخاص و إذا كان كذلك فالمعنى أنّ اللّه تعالىٰ أفاض علىٰ قلب يوسف العلم و الحكمة معاً دفعةً واحدة.

و أمّا صبره علىٰ البلاء و المحنة فهو شئ آخر لا ربط له بما نحن بصدده ألا ترى أنّ غيره من الأنبياء قد أعطاهم اللّه العلم و الحكمة مع عدم إبتلاءهم بما إبتلاه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اٰتَيْنٰاهُ اَلْحُكْمَ صَبِيًّا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّةَ**(٢).

و محصّل الكلام هو أنّ الآية الشّريفة قد دلّت على أنّ اللّه تعالىٰ بعد ما بلغ يوسف أشدّه أتاه الحكم و العلم و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا علّة تقديم الحكم علىٰ العلم فهو ممّا لا وجه له كما إذا قال القائل جاءني زيد و عمروٌ معناه أنّهما جاءا معاً و لا يسأل عنه لم قدّم زيدٌ علىٰ عمرو في اللّفظ فلا يمكن تفسير كلام اللّه بهذه الوجوه الظّنية الوّهمية الّتي تركها أولى من ذكرها.

و أمّا قوله: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى اَلْمُحْسِنِينَ** ففيه إشعار بأنّ يوسف عليه السلام كان من المحسنين و من كان كذلك فهو جزاءه:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ جَزٰاءُ اَلْمُحْسِنِينَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسىٰ وَ هٰرُونَ وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى اَلْمُحْسِنِينَ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **سَلاٰمٌ عَلىٰ نُوحٍ فِى اَلْعٰالَمِينَ،إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِى اَلْمُحْسِنِينَ**(٧) والأيات كثيرة.

جزء ١٢

وَ رٰاوَدَتْهُ اَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ اَلْأَبْوٰابَ وَ قٰالَتْ هَيْتَ لَكَ قٰالَ مَعٰاذَ اَللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوٰايَ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ

١- مَريم = ١٢
٢- الأنعام = ٨٩
٣- البقرة = ١١٢
٤- المائدة = ٨٥
٥- الأنعام = ٨٤
٦- التّوبة = ١٢٠
٧- الصّافات = ٧٩ / ٨٠

ضمير، هو، يرجع الىٰ يوُسف و قوله: **راٰوَدَتْهُ** كناية عن زليخا لأنّها هي الّتي كان يوسف في بيتها، يقال راود مراودةً و المراودة المطالبة بأمرٍ للعمل به.

و قال الرّاغب هي المطالبة برفقٍ و هو الحقّ لأنّ مطلق المطالبة لا يعبرّ عنه بالمراودة إذا لم تكن علىٰ سبيل الرفّق و المداراة و عليه فالمعنى طالبت إمرأة العزيز يُوسف برفقٍ والهاء في راودته ترجع الىٰ يُوسف.

و محصّل الكلام هو أنّ إمرأة العزيز دَعَته الىٰ نفسها و طالبته ما تطلب النّساء من الرّجال لإطفاء الغريزة و أنّما لم يصرّح في الآية به تأدّباً و صوناً للكلام عن ذكر القبيح مع أنّ الكناية أبلغ من التّصريح **وَ غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوٰابَ** التّغليق إطباق الباب بما يعسر فتحه مثل أن يكون مقفّلاً و أنّما قال غلّقت بالتشدّيد لتكثير الإغلاق و المبالغة فيه فأنّ باب التّفعيل يفيد التّكثير و المبالغة و قوله: **هَيْتَ لَكَ** أي هلُّم، و قيل معناه تهيّأت لك **قٰالَ مَعٰاذَ ٱللّٰهِ** أي قال يوسف في جواب زليخا معاذ اللّه أي أعوذ عياذاً باللّه إن أجيب الىٰ هذا أو أن يكون هذا أي أعتصِم باللّه من هذا **إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوٰاىَ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ ٱلظّٰالِمُونَ** الضّمير في **إِنَّهُ** يرجع الى اللّه و المعنى أنّ ربّي أحسن مثواي وأنّ ربّي لا يفلح الظّالمون و إختلفوا في قوله: **أَحْسَنَ مَثْوٰاىَ** ـ معناه أنّ الملك الّذي هو زوجها مالكي في الحكم و أحسن مثواي بإكرامي و بسط يدي و رفع منزلتي هذا هو قول المجاهد و إبن إسحاق وعلىٰ هذا فالضّمير في قوله: **إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوٰاىَ** أعني به الهاء ضمير الشأن لا مرجع له و المراد بقوله: **رَبِّىٓ** هو الملك اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الضّمير يرجع اليه و أن لم يتّقدم ذكره لفظاً إلاّ أنّه يتقدّم معنىً أو حكماً و هو يكفي في المقام و على هذا فيكون المعنىٰ إنّك تطلب منّي ما تطلب و بعلك ربّي و أحسن مثواي و منزلتي و أيّ ضيافةٍ أعظم منها.

و قال بعض المفسّرين الضّمير في المقامين يرجع الىٰ اللّه الذّي تقدّم ذكره لفظاً عند قوله: **مَعَاذَ ٱللَّهِ** و المعنىٰ أنّ اللّه تعالىٰ ربّي أحسن مثواي أخرجني من قعر الجبّ سالماً الى أن أنزلني في بيت الملك و جعل قلبه رؤفاً عطوفاً علّي فكيف أعصيه و أنّه لا يفلح الظّالمون و أيّ ظلم أفحش و أقبح منه و قيل أنّه لا يفلح الظّالمون حكاية أنّ يوسف قال أنّ مَن ظلم نفسه بإرتكاب المعاصي لا يفلح و لا يفوز بشيءٍ من الثّواب **والمَثوىٰ** بفتح الميم محلّ الإقامة مع الإستقرار والذّي يستفاد من الآية هو أن العبد ينبغي أن يكون شاكراً في مقام الإحسان و إذا كان اللّه تعالىٰ أحسن مثواه يجب عليه الشُّكر عقلاً و شرعاً لا التّمرد و العصيان و الكفران و هو من الأصول المسلّمة عند جميع العقلاء فضلاً عن الأنبياء، قيل أنّ زليخا كانت من أجمل النّساء في زمانها و كانت بنت سلطان المغرب و إسمه طيموس فرأت ذات ليلةٍ في المنام غلاماً على أحسن ما يكون من الحسن و الجمال فسألت عنه فقال أنا عزيز مصر فلّما إستيقضت إفتتنت بما رأت في الرّؤيا و أدّىٰ ذلك الىٰ تغير حالها و لكّنها كتمت حالها عن الأغيار ثمّ تفطّن من في البيت من الجواري و غيرها أنّ بها أمراً فقال بعض بإصابة العينون بعضٌ بإصابة السِّحر و بعضٌ بمسّ الجنّ و بعضٌ بالعشق كما قيل:

صحَّ عند النّاس إنّي عاشقٌ غير أَن لَم يَعرفوا عشقي لِمَن

ففتّشوا عن أمرها فما وجد غير العشق و قد كان خطبها ملوك الأرض فأبت إلاّ عزيز مصر فجهّزها أبوها بما لا يحصى من العبيد و الجواري و الأموال و أرسلها مع حواشيه الىٰ جانب مصر فأستقبلها العزيز بجمع كثير في زينةٍ عظيمةٍ فلّما رأته زليخا علمت أنّه ليس الّذي رأته في المنام فأخذت تبكي و تتحّسر علىٰ ما فات من المطلوب فسمعت من الهاتف لا تحزني يا زليخا فأنّ مقصودك إنّما يحصل بواسطة هذا ثمّ لمّا دخلوا مصر أنزلوا زليخا في دار العزيز بالعِّز و الإحترام و هي في نفسها علىٰ الفِراق و الآلام و كانت هذه الحال سنين و بقيت بكراً لأنّ العزيز كان عنيّناً لا يقدر علىٰ المواقعة فكان ما كان من

حسد الإخوان و وصول يوسف الى مصر بالعبّودية فلّما رأته زليخا علمت أنّه الّذي رأته في المنام.

روي أنّ يوسف كان يأوي الى بستانٍ في قصر زليخا يعبد اللّه فيه و كان قد قسَّم نهاره ثلاثة أقسام ثلثاً لِصلاته و ثلثاً يبكي فيه و ثلثاً يسّبح فيه و يذكره فلّما أدرك يوسف مبالغ الرّجال جعلت زليخا تراوده عن نفسها و هو يهرب منها الىٰ بستان فلّما طال ذلك عليها تغيّر لونها و أصفر وجهها و دخلت عليها جارية من جواريها فأخبرتها بذلك فأشارت اليها أن تَبني لها بيتاً مزّيناً لكّل ما تقدر عليه من الزّينة و الطّيب ليكون وسيلة الىٰ صحبة يوسف فلّما فرغ الصُّناع من عَمَلهم دعت العزيز فدخل فأعجَبه لكونه على إسلوبٍ عجيب و قال لها سَمّيه بيت السُّرور ثمّ خرج فَأستدعت يوسف فزّينوه بكّل ما يمكن من الزّينة، و تزَّينت هي أيضاً بأحسن الزّينة و كانت بيضاء حسناء بين عينيها خال يتلألأ حسناً ولها أربع ذوائب قد نظّمتها بالدُّر و الياقوت و عليها سبع حلل و أرسلت قلائدها على صَدرها كما قيل بالفارسية:

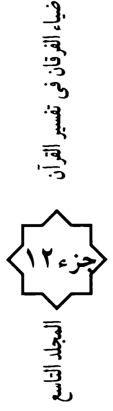
بـــزيورها بـــنودش إحـتياجى ولى أفزود أز آن خودرا رَواجـى

فجاءوا بِيوسف كما قيل:

در آمـد نـاكـهان أز دَر چـه مـاهى عـطارد حِشـمتى خـورشيد جـاهى

وُجـودى أز خـوّاص آب وگِـل دُور جَــبين طَـلعتى نُـورٌ عـلىٰ نـورٍ

فلّما دخل يوسف عليها في القسم الأوّل من البيت أغـفلته و أغـلقته و راودته عن نفسه بكّل حيلةٍ ثمّ أدخلته في الّذي يليه فأغـلقته و راودتـه بكّـل حيلة فلم يساعدها يوسف و دفعها مما قدر عليه ثـمّ و ثـمّ الىٰ أن إنـتهىٰ الىٰ البيت السّابع فأغلقته و ذلك قوله تعالىٰ: **وَ غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ** عليها و عليه وكانت سبعة أبواب و لذلك جاء الفعل بصيغة التّفعيل الدّالة على التّكثير و قالت: **هَيْتَ لَكَ** أي هلّم أو أقبل إلّي واللاّم في قوله: **لَكَ** متعلّق بمحذوف أي لك أقول هذا.



روي، أنّ يوسف كان إذا تبسّم سطعت النُّور في ضواحكه و إذا تكلّم كان شعاع النُّور في كلامه و لا يستطيع أحدٌ أن ينعت لغته فقالت زليخا يا يوسف إنّما صنعت هذا البيت المزّين من أجلك فقال يوسف يا زليخا إنّما دعيتني للحرام و حسبي ما فعل بي أولاد يعقوب ألبسوني قميص الذّل و الحزن يا زليخا إنّي أخشىٰ أن يكون هذا البيت الّذي سمّيته بيت السُّرور بيت الأحزان و الثُّبور و بقعة من بقاع جهّنم.

فقالت زليخا يا يُوسف ما أحسن عينيك قال هما أوّل شئ يسيلان الى الأرض من جسدي بعد الموت قالت ما أحسن وجهك قال هو للتّراب قالت ما أحسن شعرك قال هو أوّل ما ينتشر من جسدي قالت أنّ فراش الحرير مبسوط فقم و أقض حاجتي قال إذاً يذهب نصيبي من الجَّنة قالت أنّ طرفي سكران من محبّتك فأرفع طرفك الى حسني و جمالي قال يوسف، صاحبك أحقّ بحسنك و جمالك منّي قالت: **هَيْتَ لَكَ** قال: **مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ** أي الشّأن الخطير هذا و هو ربّي أي سيّد العزيز الّذي إشتراني **أَحْسَنَ مَثْوَایَ** أو أنّه، أي اللّه تعالى ربّي أحسن مثواي علىٰ ما مّر بيانه في صدر الآية فعلى الأوّل معناه ما جزاء من أحسن إلّي أن أسئ اليه بالخيانة في حرمه.

وعلىٰ الثّاني: معناه ما جزاء الإحسان و الإنقاذ من المهالك العصيان بل جزاء الإحسان الشُّكر و هو واضح.

وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَنْ رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَ ٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ

إعلم أنّ هذه الآية معركة الآراء بين المفسّرين قال البيضاوي في قوله: **وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَ هَمَّ بِهَا** أي قصدت مخالطته و قصد مخالطها و الهمّ بالشّئ قصده و العزم عليه و منه إلهّمام و هو الّذي إذا همَّ بشئ أمضاه و المراد بهّمه ميل الطّبع و منازعة الشّهوات لا القصد الإختياري و ذلك ممّا لا يدخل تحت

التّكليف بل الحقيق بالمدح و الأجر الجزيل من اللّه من كيَّف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهمّ أو مشارفة الهَّم كقولك قتلته لولم أخف اللّه.

و قال في قوله: **لَوْلآ أَنْ رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ** في قبح الزّنا و سوء عاقبة لَخالطها بشّق الظّلمة و كثرة المبالغة إنتهى موضع الحاجة.

و قال الطّبري نقلاً عن السّدي في قوله: **وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَ هَمَّ بِهَا.**

قالت له يا يوسف، ما أحسن شعرك و ساق الكلام الى أن قال، فلم تزل حتّىٰ أطمعته فهمّت به و هَّم بها فدخلا البيت و غلّقت الأبواب و ذهب ليحَّل سراويله فإذا هو بصورة يعقوب قائماً في البيت قد عضَّ علىٰ إصبعه يقول، يا يوسف تواقعُها فإنّما مثلك ما لَم تواقعها مثل الطّير في جّو السّماء لا يطاق و مثلك إذا واقعتها مثله إذا مات وقع الى الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الى أن قال فربط سراويله و ذهب ليخرج فأدركته فأخذت بمؤخّر قميصه من خلفه فخرقته حتّى أخرجته منه و سقط و طرحه يُوسف و أشتدّ نحو الباب ثمّ.

نقل الطّبري عن أبي مليكة عن إبن عبّاس حيث سَأل عن همّ يُوسف ما بلغ.

قال جلس منها مجلس الخائن و حلِّ الهيمان و بعد ذلك نقل عدّة روايات بهذا المضمون الىٰ أن نقل عن مجاهد أنّه قال إستلقت و حلّ ثيابه حتّىٰ بلغ التّبان.

و في حديث آخر قال، أطلق تكّة سراويله، و في حديث آخر أمّا همّ به فأستلقت له و أمّا همَّت بها فأنّه قصد بين رجليها و نزع ثيابه.

و في حديث آخر قال، لمّا رآى تمثال وجه يعقوب خرجت شهوته مِن أفاعله.

و نقل بهذا المضمون أيضاً أحاديث كثيرة و قد تبعه غير واحدٍ من مفسّري العامّة بل إتّفقوا علىٰ أنّ يوسف همّ بالمعصية إلاّ أنّه لم يفعل بها و لا خلاف بينهم في ذلك أنظر تفاسيرهم ترى صدق ما قلناه فأنّهم أخذوا بعضهم عن بعضٍ و إمامهم الطّبري في التّفسير إذا قال هذا ممّا ظنّك بأتباعه.

و قد نقل الرّازي عن الواحدي أنّه قال في كتاب البسيط ما هذا لفظه قد أَجمع المفسّرون الموثوقون بعلمهم المرجوع الىٰ روايتهم أنّ يوسف قد هَّم بهذه المرأة همّاً صحيحاً و جلس منها مجلس الرّجل من المرأة فلّما رآىٰ البرهان من ربّه زالت كلّ شهوةٍ عنه.

قال جعفر الصّادق بأسناده عن علّي أنّه قال طمعت فيه و طمع فيها فكان طمعه فيها أنّه همَّ أن يحَّل التّكه

و عن إبن عبّاس قال حلَّ الهيمان و جلس منها مجلس الخائن.

و عنه أيضاً نّها إستلقت له و جلس بين رجليها ينزع ثيابه ثمّ أنّ الواحدي طوَّل في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب و ما ذَكر أية يحتجّ بها و لا حديثاً صَحيحاً يؤّل عليه (يُعَّوَل عليه) في تصحيح هذه المقالة و ما أمعن النّظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة.

و روى أنّ يوسف لمّا قال ذلك، ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب، قال له جبرئيل و لا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك و ما أبرّئ نفسي الأية.

ثمّ قال و الذّين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء و إرتفاع منازلهم عند اللّه مِن الذّين نفوا الهمَّ عنه فهذا خلاصة كلامه في الباب إنتهىٰ كلام الرّازي نقلاً عن الواحدى.

ثمّ قال الرّازي القول الثّاني، أنّ يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل و الهمَّ المحرّم و هذا قول المحقّقين من المفسّرين و المتكلّمين و به نقول و عنه نذّب و إعلم أنّ الدّلائل على وجوب عصمة الأنبياء كثيرة.

فالحجّة الأُولىٰ: أنّ الزّناء من منكرات الكبائر و الخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذّنوب و أيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التّامة و العار الشّديد أيضاً من منكرات الذّنوب و أيضاً الصّبي اذا تربّى في حجر إنسانٍ و بقي مكفّى المؤنّة مصون العرض من أوّل صباه الىٰ

زمان شبابه و كمال قوّته فإقدام هذا الصّبي علىٰ إيصال أقبح أنواع الإساءة الىٰ ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال اذا ثبت هذا فنقول:

أنّ هذه المعصية الّتي نسبوها الىٰ يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع و مثل هذه المعصية لَو نسبت الى أفسق خَلق اللّه تعالىٰ و أبعدهم عن كلّ خيرٍ لإستنكف منه فكيف يجوز إسنادها الىٰ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم المؤيّد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

ثمّ أنّه تعالىٰ قال في غير هذه الواقعة كذلك لنصرف عنه السُّوء و الفحشاء و ذلك يدلّ علىٰ أنّ ماهيّة السُّوء و الفحشاء مصروفة عنه و لا شكّ أنّ المعصية الّتي نسبوها اليه أعظم أنواع السُّوء و أفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق بربّ العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السُّوء مع أنّه كان قد أتىٰ بأعظم أنواع السُّوء و الفحشاء و أيضاً فالآية تدلّ على قولنا من وجهٍ أخر و ذلك لأنّا نقول هب أنّ هذه الآية تدلّ علىٰ نفي هذه المعصية عنه إلاّ أنّه لا شكّ أنّها تفيد المدح العظيم و الثّناء البالغ فلا يليق بحكمة اللّه أن يحكي عن إنسانٍ إقدامه علىٰ معصيةٍ عظيمةٍ ثمّ أنّه يمدحه و يثني عليه بأعظم المدائح و الأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذّنب العظيم ما ذا حكى السّلطان عن بعض عبيده أقبح الذّنوب و أفحش الأعمال ثمّ أنّه يذكره بالمدح العظيم و الثّناء البالغ عقيبه فأنّ ذلك يستنكر جدّاً واللّه أعلم انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

و من أراد الوقوف علىٰ تفصيل كلامه في المقام فعليه بمراجعة تفسيره لهذه الآية و الإنصاف أنّه قد أجاد بما أجاب به عن الواحدي و أكثر المفسّرين بل قاطبتهم مِن العامّة و لم أر فيما بأيدينا من تفاسيرهم من أدرك الحقّ و أعرضّ عن الباطل و ذبَّ عن عِصمة الأنبياء غير الرّازي فأنّه قد أتىٰ في الباب بما لا مزيد عليه و أثبت عصمة يوسف و تنزّهه عن العيوب و النّقائص و لا سيّما أمثال هذه القبائح بأحَس وجهٍ و لاغرو فيه لأنّه من العقلاء و الفلاسفة توّغل في العقليّات تجّنب عن التَّفوه بالأباطيل و الموهومات بل الجهالات و

الضّلالات و لست أدري كيف يقول المسلم الّذي أمن باللّه و اليوم الأخر أنّ نبيّاً من الأنبياء جلس مجلس الرّجل من المرأة نعوذ باللّه من هذه الهفوات التّي ألقاها الشّياطين الى أولياءهم والعجب من الواحدي أنّه نسب ما نسب الىٰ جعفر الصّادق عليه السلام عن علّي عليهما السلام و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ أمثال الواحدي كانوا يكذّبون علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم في حياته اذا عرفت هذا علمت معنى قوله صلى الله عليه و آله و سلم من فسرّ القرأن برأيه فليتّبوأ مقعده من النّار.

فلنرجع الىٰ تفسير الآية على مذاق الشّيعة الأثنىٰ عشريّة التّابعين لأهل البيت الّذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً فنقول:

الهمَّ تارةً يقال و يراد به العزم علىٰ الفِعل و منه قوله تعالىٰ: **إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**[1] أي أنّهم أرادوا ذلك و عزموا عليه ومثله قول الشّاعر:

ولم أفعَل وكدت وليتنى ... تركت علىٰ عثمان تبكي حلائله

و قال الأخر:

ولِلّه صَعلوك تساوَر هَمَّه ... ويمضي علىٰ والأيّام والدّهر مقدماً

و قد يقال و يراد به خطور الشّئ بالبال و أن لم يعزم عَليه كقوله تعالىٰ:

إِذْ هَمَّتْ طَآئِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَ ٱللّٰهُ وَلِيُّهُمَا[2].

و المعنىٰ أنّ الفشل خطر ببالهم ولو كان الهمَّ هاهنا عزماً لما كان اللّه وليّهما لأنّه قال:

وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللّٰهِ[3].

و قد يقال ويراد به الشّهوة و ميل الطَّبع يقول القائل فيما يشتهيه و يميل طبعه و نفسه اليه هذا من همّي نقل هذه الوجوه في معنىٰ الهمَّ الشّيخ في التّبيان.

١- المائدة = ١٢
٢- أل عمران = ١٢٢
٣- الأنفال = ١۶

ثمّ قال و اذا إحتمل الهمّ هذه الوجوه نفينا عنه العزم علىٰ القبيح و أجزنا باقي الوجوه لأنّ كلَّ واحدٍ منها يليق بحاله يمكن أن يحمل الهَم في الآية على العزم و يكون المعنىٰ وهمَّ بضربها و رفعها عن نفسه كما يقول القائل كنت هصمت بفلان أي بأن أوقع عليه ضرباً أو مكروهاً و تكون الفائدة علىٰ هذا في قوله: **لَوْلَآ أَنْ رَاٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ** مع أنّ الدَّفع عن نفسه طاعة لا يصرف البُرهان عنها، أنّه لمّا همَّ بدفعها عن نفسه أراه اللّه برهاناً علىٰ أنّه إن أقدَّم على ما يَـهمّ به أهلكه أهلها و قتلوه و أنّها تدّعي علهى المراودة لها علىٰ القبيح و تقذفه بأنَه دعاها اليه و ضربها لإمتناعها منه فأخبر تعالىٰ أنّه صرف بالبرهان عنه السُّوء و الفحشاء اللّذين هما القتل و المكروه أو ظنّ القبيح و إعتقاده فيه.

فأن قيل هذا يقتضي أنّ جواب، لولا، تقدّمها في ترتيب الكلام و يكون التّقدير، لولا أن رأى برهان ربّه، لهمّ بضربها و تقدَّم جواب، لولا، قبيحٌ أو يقتضي أن تكون، لولا، بغير جوابٍ.

قلنا أمّا تقدّم جواب، لولا، فجائز مستعمل و لا نحتاج اليه في هذا الجواب لأنّ العزم علىٰ الضَّرب و الهمَّ به وقعا إلاّ أنّه إنصرف عنهما بالبرهان الذّي رأه و يكون التّقدير لقد همَّت به و همَّ بدفعها لولا أن رأىٰ برهان ربّه لفعل ذلك محذوف في الكلام مؤخّرٌ عنهماكما في قوله تعالىٰ:

وَ لَوْلا فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١).

معناه و لولا فضل اللّه عليكم لهلكتم و مثله قوله تعالىٰ:

كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اَلْيَقِينِ(٢).

و التّقدير لم تنافسوا في الدّنيا و تحرصوا علىٰ حطامها و قال إمرؤ القيس:

فلو أنّها نفسٌ تموت سَوّية ولكنّها نفسٌ تساقط أنفساً

١- النُّور = ٢٠
٢- التّكاثر = ٥

و المعنى فلو أنّها نفس تموت سوّية لنقضت وفنيت، فحذف الجواب تعويلاً علىٰ أنّ الكلام يقتضيه انتهى ما ذكره الشّيخ في تفسير الآية و أنّما نقلناه بطوله لأنّه الحقّ الحقيق بالإتّباع.

و أمّا ما ذكره بعضهم من أنّها همَّت به وأنّه أي يوسف همَّ بها أي همَّ يوسف بما همَّت به من الزّناء و الفحشاء لولا أن رأى برهان ربّه، لفعل و ذلك بمقتضى طبعه البشري لا إشكال فيه فهو مشكل لا يساعده العقل و لا النّقل.

أمّا العقل فلأنّ الخيانة في معرض الأمانة من المنكرات الّتي يحكم العقل بقُبحه في حقّ العامل فضلاً عن الأنبياء.

أمّا النّقل فلمّا ثبت عصمتهم بالأخبار و المعصوم لا يذنب عقلاً و نقلاً.

اللّهم إلاّ أن يقال أنّ المعصوم لا يذنب لعصمته و معنى العصمة فيه أنّه تعالىٰ عصمه من الزَّلل و الخطأ بسبب التّوفيق و اللُّطف و عليه فقوله: **لَوْلَآ أَنْ رَاٰ بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ** من الألطاف المانعة عن العصيان و إن شئت قلت أنّه تعالى عصمه من الذّنب بما ذكر في الآية من رؤية البرهان، و لازم ذلك أنّ النّبي بما أنّه من أفراد البشر و له قوّة شهويّة كغيره من أحاد النّاس فهو بمقتضى طبعه البشري لا مانع له من العصيان و أنّما المانع هو العصمة و ليس معنى العصمة عدم القدرة علىٰ الفعل بل معناها عدم تحقّق العصيان منه بتوفيقٍ من اللّه فمن قال في باب العصمة بهذه المقالة فلا إشكال عنده في حمل الآية على ظاهرها بأن يقول أنّ يوسف أيضاً همَّ بما همَّت به زليخا بمقتضى شهوته إلاّ أنّه لم يفعل لمكان عصمته الّتي تحقّقت له برؤية البرهان هذا أقصى ما يقال في تفسير الآية من غير تصرّفٍ في ظاهر الآية إلاّ أنّه يتمّ بناء على تجويز قصد المعصية في حقّ المعصوم و أنّ الممنُوع في حقّ المعصوم هو فعل المعصية لا العزم و القصد إلاّ أنّ الأخبار الواردة في باب العصمة قد دلَّت على عدم جواز الفعل و القصد معاً فكما أنّ المعصوم لا يذنب فعلاً فهو لا يذنب و قصد الذّنب ذنبٌ في حقّهم فأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين وعلىٰ هذا فحمل

الآية على ظاهرها لا معنى له إلاّ أن يقال ليس المراد بالهمّ في الآية العزم و القصد بل المراد به هو خطور الشّئ بالبال و أن لم يعزم عليه فهذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ الخطور غير القصد و العزم و الأحسن في ختم المقال حول الآية هو التّمسك بالأخبار الواردة في الباب عن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام جعلهم رسول اللّه في حديث الثّقلين عدلاً للقرأن حيث قال:

أنأّي تاركٌ أو مخلف فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي ما إن تَمَّسكتُم بهما لَن تَضُّلوا أبداً الحديث.

فنقول في عيون الأخبار في باب مجلس الرّضا عليه السلام عند المأمون مع أهل الملل والمقالات وما أجاب به علّي بن الجهم في عصمة الأنبياء عليهم السّلام في حديث طويل وفيه يقول:

و أمّا قوله فى يوسف **لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا** فأنها همَّت بالمعصية و هَمَّ يوسف بقتلها إن أجبرته لعظم ما تداخله في صرف اللّه عنه قتلها و الفاحشة و هو قوله: **كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَ ٱلْفَحْشَآءَ** يعني القتل و الزّناء انتهىٰ.

أقُول فعلىٰ هذا يكون المراد من السُّوء في الآية القتل.



و في باب مجلسٍ أخر للرّضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء بأسناده الىٰ علّي بن محمّد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون و عنده الرّضا عليه السلام فقال له المأمون يابن رسول اللّه أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون قال عليه السلام بلىٰ قال فما معنى قول اللّه عزّ و جلّ الىٰ أن قال فأخبرني عن قول اللّه: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَنْ رَّاٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ فقال الرّضا عليه السلام لقد همَّت به لَولا أن رأىٰ برهان ربّه لهمَّ بها كما همّت به لكنّه كان مَعصُوماً والمعصوم لا يهمّ بذنبٍ ولا يأتيه.

و لقد حدَّثني أبي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال همَّت بأن تفعل و همَّ بأن لا يَفعل فقال المأمون للّه درَّك يا أبا الحسن انتهىٰ.

و في باب أخر فيما جاء عن الرّضا من الأخبار المجموعة وبهذا الأسناد عن علّي بن الحسين عليه السلام أنّه قال في قول اللّه عزّ وجلّ: لَوْلآ أَنْ رَاٰ بُرْهَٰانَ رَبِّهِ قال قامت إمرأة العزيز الىٰ الصَّنم فألقت عليه ثوباً فقال لها يوسف ما هذا، فقالت أتستحيي من الصَّنم أن يرانا فقال لها يوسف أتستحين ممّن لا يسمع و لا يبصر و لا يفقه و لا يأكل و لا يشرب ولا إستحيي ممن خلق الانسان و علّمه فذالك قوله: لَوْلآ أَنْ رَاٰ بُرْهَٰانَ رَبِّهِ.

اقول يعنى البرهان الّذى الحمد اللّه و هو قوله عليه السلام انت تستحيى من الجماد مثلا و انا لا يستحيى من اللّطيف الخبير و نعم البُرهان و هو يؤيّد هذا التّأويل أنّ البرهان الحجّة و الدّليل ولو لم يرد هذا لقال لولا أن رأى إحسان ربّه أو عناية ربّه و أمثال ذلك فلفظ البرهان في الآية يَدُّلنا علىٰ نقكتةٍ خفيّة وهي أنّ إمرأة العزيز قالت شيئاً و يوسف في جوابها قال شيئاً و بهذا السّؤال و الجواب قد تمّت الحجّة و أقيم البرهان و هو واضح.

و عن أمالي الصُّدوق بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال لعلقمة، أنّ رضا النّاس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط تسلمون ممّا لم يسلم منه أنبياء اللّه و رسله و حجج اللّه عليهم السّلام ألم ينسبُوا يوسف عليه السلام الىٰ أنّه هَمَّ بالزّناء والحديث طويل أخَذنا منه موضع الحاجة[١].

و الأحاديث في الباب كثيرة وفي ختام البحث نذكر ما ذكره السيّد المرتضىٰ قدس سره في أماليه قال رضي الله عنه إن سأل سائل عن قوله تعالىٰ في قصّة يوسف عليه السلام و **لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا** هل يسوّغ ما تأوّل بعضهم هذه الآية من أنّ يوسف عزم على المعصية و أرادها و أنّه جلس مجلس الرّجل من المرأة ثمّ

١- تفسير نور الثّقلين ص ٤١٩ ج ٢

إنصرف عن ذلك بأن رأىٰ صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضّاً علىٰ إصبعه متوّعداً له علىٰ مواقعة المعصية أو بأن نودي له بالنَّهي والزَّجر في الحال علىٰ ما ورد به الحديث.

الجواب قلنا اذا ثبت بأدّلة العقول الّتي لا يدخلها الإحتمال و المجاز و وجوه التّأويلات أنّ المعاصي لا تجوز علىٰ الأنبياء عليهم السّلام صرَّفنا كلّ ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتابٍ أو سنّةٍ الىٰ ما يطابق الأدّلة و يوافقها كما نفعل مثل ذلك فيما يردّ ظاهره مخالفاً لما تدُّل عليه العقول من صفاته تعالى و ما يجوز عليه أو لا يجوز و لهذه الآية وجوه من التّأويل كلّ واحدٍ منها يقتضي نزاهة نبيّ اللّه من العزم على الفاحشة و إرادة المعصية.

أوّلها: أنّ الهمَّ في ظاهر الآية متعلّق بما لا يصحّ أن يتعلّق به العزم و الإرادة على الحقيقة لأنّه تعالىٰ قال: **لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا** فعلّق الهمّ بهما و ذاتاهما لا يجوز أن يراد أو يعزم عليهما لأنّ الموجود الباقي لا يصّح ذلك فيه فلابّد من تقدير محذوف يتعلّق العزم به و قد يمكن أن يكون ما تعلّق به همّه أنّما هو ضربها أو دفعها عن نفسه و كما يقول القائل كنت هممت بفلان و قد همَّ فلان بفلان أي بأن يوقع به ضرباً أو مكروهاً.

فأن قيل فأيّ معنىٰ لقوله: **لَوْلاٰ أَنْ رَاٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ** والدَّفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها.

قلنا يمكن أن يكون الوجه في ذلك أنّه لمّا همّ بدفعها و ضربها أراه اللّه برهاناً علىٰ أنّه أقَدم على ما همَّ به أهلكه أهلها و قتلوه و أنّها تدّعي عليه المراودة على القبيح و تقذفه بأنّه دعاها اليه و أنّ ضربها كان لإمتناعها فيظنّ به ذلك من لا تأمُّل له و لا علم بأنّ مثله لا يجوز عليه فأخبر اللّه تعالىٰ بأنّه صرف بالبرهان عنه السُّوء و الفحشاء و يعني بذلك القتل و المكروه اللّذين كانا يوقعان به لأنّهما يستحقّان الوصف بذلك من حيث القبح أو يعني بالسُّوء و الفحشاء ظنّهم به ذلك.

ثمّ ذكرقدس سره في وجه تقدّم جواب لولا، ما ذكره الشّيخقدس سره و نقلناه عنه الجواز الى أخر ما قالقدس سره و قد مرَّ ذكره فيما نقلناه عن التّبيان و ذلك أنّ الشّيخ الطّوسيقدس سره كان من أجلّ تلامذة المرتضى فما نقله في تفسيره أخذه منه و البحث طويل و لنختم الكلام حول الآية حذراً من الإطناب الممل.

و أمّا ما ذكرناه و فصّلناه فهو ممّا لابدّ منه تحفظاً علىٰ العصمة الثّابتة في الأنبياء فأنّ المقام ممّا زلَّ به أقدام أكثر المفسّرين أعاذنا اللّه منه بمحمّدٍ وأله.

وَ ٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

إستبقا الباب، أي طلب كلّ واحدٍ منهما السّبق الى الباب و السّبق تقدّم الشّئ لصاحبه في مجيئه و قيل أنّه بحذف الجرّ أي تسابقا الى الباب الّذي هو المخرج من الدّار و لذلك وحدّ بعد الجمع في قوله: **وَ غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ** أمّا يوسف فللفرار منها و أمّا هي فلمنعها إيّاه عن الخروج و قوله: **وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ** أي، شقّته طولاً و ذلك لأنّها أي إمرأة العزيز إجتذبته من وراءه و خلفه فإنشّق طولاً نصفين و هو القدّ كما أنّ الشّق عرضاً هو القطّ.

وَ أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ أي صادفاه لدى الباب و المراد بسيّدها هو قطفير عزيز مصر فوجداه مقبلاً ليدخل أو كان جالساً هناك مع إبن عمٍّ لزليخا يقال له يمليخا قال بعضهم أنّ الأبواب السّبعة كانت تنفتح له باباً باباً من غير مفتاح فلمّا رأهما علىٰ تلك الحالة قال ما لكما فلما سأل و قد خافت زليخا لومه أو سبق يوسف بالقول بادرت أن جاءت بحيلةٍ جمعت فيها بين تبرئةساحتها من الرّيبة و غضبها على يوسف أو تخويفه طمعاً في مواقعتها خيفةً من مكرها كرهاً لما آيست أن يواقعها طوعاً فقالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً و هو أبلغ في التّخويف و الظّاهر أنّ، ما، في الآية نافية بمعنى ليس و قيل هي إستفهاميّة فعلى الأوّل معنى الكلام ليس جزاء من أراد بأهلك سوءً إلاّ كذا و كذا.

علىٰ الثّانى: معناه أيُّ شيٍ جزاءه إلاّ كذا وكذا قال العزيز من أراد بأهلي سوءاً قالت زليخا كنت نائمة في الفراش فجاء هذا الغلام العبراني و كشف عن ثيابي و راودني عن نفسي فإلتفت اليه العزيز و قال يا غلام هذا جزاء منك حيث أحسنت اليك و أنت تخزيني كما قيل بالفاّرسية:

زكوى حقّ گزارى رخت بسَتى نمك خوردى نمكدان را شكستى

قٰالَ هِىَ راٰوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ أَهْلِهٰآ إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ ٱلْكٰاذِبِينَ، وَ إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ ٱلصّٰادِقِينَ

أي قال يوسف في جواب العزيز هي زليخا راودتني عن نفسي و شهد شاهد من أهلها أي من أهل المرأة فقال: **إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ**، أي قميص يوسف، قدّ، و شقّ من قبل فصدقت المرأة و هو أي يوسف من الكاذبين وأن كان قميصه قدّ من دبر أي من خلفه فكذبت المرأة و هو أي يوسف من الّصادقين، و من، في قوله: **قُدَّ مِنْ دُبُرٍ** و في قوله: **قُدَّ مِنْ قُبُلٍ**، لإبتداء الغاية لأنّ إبتداء القّد كان منها، و الّتي في قوله: **مِنَ ٱلْكٰاذِبِينَ** للتّبعيض لأنّه بعض الكاذبين، و لمّا تعارض قولا هما عند العزيز و كان رجلاً فيه إفاةٌ و نصفة طلب الشّاهد من كلّ منهما فشهد شاهد من أهلها أي من أهل زليخا و أقاربها فقيل كان إبن خالتها طِفلاً في المهد أنطقه اللّه ليكون أدلَّ على الحجّة و قيل كان لزليخا خال له إبن في المهد إبن ثلاثة أشهر أو أربعة أو ستّة علىٰ إختلاف الرّوايات فهبط جبرئيل الىٰ ذلك الطّفل و أجلسه في مهده و قال له إشهد ببراءة يوسف فقام الطّفل من المهد و جعل يسعي حتّى قام بين يدي العزيز و شهد بما حكاه اللّه تعالىٰ في الآية.

و قال بعضهم الشّاهد في الآية هو قدُّ القميص فأنّ العرب قد تضيف الكلام الى الجمادات و تخبر عنها بما هي عليه من الصّفات كما قيل، قال الحائط

للوتد لم تشقّني من يدّقّني، إلاّ أنّ قول اللّه، من أهلها،يردّه و يبطله لأنّ الأهل لا يطلق على القميص.

و هنا قول ثالث نقلوه عن بعضهم و هو أنّ الشّاهد كان خلقاً من خلق اللّه ليس بانسّى و لا بجنيٍّ نسبوا هذا القول أيضاً الى المجاهد و الجواب الجواب عن الثّاني فأنّ قوله: **مِنْ أَهْلِهَآ** يبطل هذه الإحتمالات.

القول الرّابع: و هو الأقوىٰ في النظّر هو أنّ الشّاهد كان رجلاً حكيماً عاقلاً كان العزيز يستشيره في أُموره و كان من جملة أهل المرأة و كان مع زوجها بالباب فقال قد سمعت الإستبدار و الجلبة من وراء الباب و شقّ القميص فلا أدري أيّكما كان قدّام صاحبه فأن كان شقّ القميص من قدّامه فأنت صادّقة وأن كان من خلفه فهو صادق فنظروا الىٰ القميص فإذا هو مشقوقٌ من خلف فهذه هي الأقوال في المسألة.

و قال الطّبري بعد نقله الأقوال المذكورة و الصّواب من القول في ذلك قول من قال كان صبيّاً في المهد للخبر الّذي ذكرناه عن رسول اللّه أنّه ذكر من تكلّم في المهد و ذكر أنّ أحدهم صاحب يوسف.

أقول الخبر الّذي ذكره في الباب عن سعيد بن جبير عن إبن عبّاس قال تكلّم أربعة في المهد و هم صغار إبن ماشطة بنت فرعون و شاهد يوسف و صاحب جريح و عيسٰ بن مريم.

و خبر أخر بهذا المضمون عن أبي هريرة أنّه قال كذا و كذا.

و خبر ثالث عن إبن عباس عن النّبي قال صلّى الله عليه وآله وسلّم تكلّم أربع في المهد الحديث (وهم صغار خ ل) وتَبعه غير واحدٍ علىٰ ذلك من مُفسّري العامّة.

و أنا أقُول الآية ظاهرة في أنّه شهد شاهدٌ من أهلها، وأمّا أنّه كان في المَهد أو كان صبيّاً فلا دلالة فيها عليه.

و أمّا الحديث الّذي تمّسك به في إثبات قوله فهو لا يصلح للإستناد و تخصيص الآية به.

أمّا أوّلاً: فلأنّه لم يثبت عند أهل الفنّ.

ثانياً: على فرض ثبوته فهو خبر واحد لا يصلح لتخصيص عموم الكتاب و أنّما قلنا خبرٌ واحد مع أنّ الرّاوي له لا يكون مختصّاً بواحدٍ بل نقله إبن عبّاس أوّلاً و أبو هريرة ثانياً لأنّ أبا هريرة من جملة الكاذبين و الكذب فِسق، و قد قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**[1] فَلم يبق في البين إلاّ إبن عبّاس أن صحَّ النقل عنه.

و محصّل الكلام هو أنّ القول بأنّ الشّاهد كان في المهد، أو صبيّاً لا دليل عليه و هكذا القول بأنّه كان خلقاً من خلق اللّه ليس بإنسّي و لا بجنّي، و القول بأنّ الشّاهد هو القميص كلّ ذلك من الأباطيل التّي لا ينبغي أن يسطر فضلاً عن القبول فيبقى القول بأنّه كان رجلاً حكيماً عاقلاً من أهَلها و هو المطلوب.

و العجب منهم حيث أنّهم رووا عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال تكلّم أربعة في المهد، و نقلوا في موضع أخر أنّ المتكلّمين في المهد كانوا كثيرين.

قال تفسير روح البيان و إعلم أنّه تكلّم في المهد جماعة ثمّ عدَّ منهم رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم، و عيسىٰ بن مريم، وإبراهيم الخليل، و يوسف، و موسىٰ و طفلٌ لذي الأخدود و مبارك اليمامة و غيرهم فإعتبروا يا أولي الأبصار.

نعم لو قيل لهم أنّ علّي بن أبي طالب و أولاده المعصومين تكلّموا في المهد حكموا بكفر قائله و هذا عجيبٌ.

فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

يأ فلمّا رأىٰ العزيز أنّ قميصه يوسف قدَّ من دبرٍ قال لزليخا أنّه أي الأمر الّذي وقع فيه التّشاجر، من كيدكنّ، أيتّها النّساء لا من غيركنَّ و أنّما أتى بصيغة الجمع مع أنّ المخاطب بهذا الكلام هو زليخا فقط للإشعار بأنّ الحِيلة و الكَيد و المكر لاتختصّ بزليخا بل جنس النّساء كذلك فخجلت زليخا من هذاالكلام.

١- الحجرات = ٦

و قد روي أنّ كيد النّساء أعظم من كيد الشّيطان لأنّ اللّه تعالىٰ يقول: **إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا**[1] و قال في المقام إنّ كيدكنّ عظيمٌ.

رواه القرطبي في تفسيره عن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ولقائل أن يقول بين المقامين فرق واضح و هذا أنّ قوله أنّ كيد الشّيطان كان ضعيفاً كلام اللّه تعالى أصدق القائلين و قوله: **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** حكاية كلام العزيز و الأمر سهل فأنّ الكيد ثابت منهما ولنعم ما قيل بالفارسية:

ز كيد زَن دل مردان دو نيم است　　زنانرا كيدهائى بس عظيم است

عزيزان را كند كيد زنان خوار　　بكيد زن بود دانا گرفتار

ز مَكر زن كسى عاجز مبادا　　زَنِ مَكارّه خود هرگز مبادا

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ

و التّقدير يا يوسف و أنّما أسقط حرف النّداء لأنّه إسم علم و لا يجوز ذلك في المبهم ثمّ أنّهم إختلفوا في القائل فقال قوم القائل هو الشّاهد الّذي شهدمن أهلها.

و قيل القائل هو العزيز لمّا علم براءة يوسف قال له يوسف أعرض عن هذا أي لا تَذكره لأحدٍ و أكتمه ثمّ أقبل على زليخا فقال و أنت إستغفري لذنبك يقول إستغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك، **إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ** لم يقل من الخاطئات لأنّه قصد الأخبار عن المذّكر و المؤنّث فغلّب المذّكر فالمعنى إنّكِ من النّاس الخاطئين أو من القوم الخاطئين.

قال بعضهم أنّه أي العزيز كان قليل الغيرة و لذلك رجّحوا القول الأوّل أنّ القائل بهذا الكلام هو الشّاهد و روي أنّه حلف أن لا يدخل عليها أربعين يوماً و أخرج يوسف من عندها و شغله في خدمته و بقيت زليخا لا ترىٰ يوسف.

■

١- النساء = ٧۶

وَ قٰالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزيزِ تُراٰوِدُ فَتيٰهٰا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهٰا حُبًّا إِنّٰا لَنَريٰهٰا في ضَلاٰلٍ مُبينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمّٰا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَ اٰتَتْ كُلَّ واٰحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكّينًا وَ قٰالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّٰا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَرًا إِنْ هٰذٰآ إِلّٰا مَلَكٌ كَريمٌ ﴿٣١﴾ قٰالَتْ فَذٰلِكُنَّ ٱلَّذي لُمْتُنَّني فيهِ وَ لَقَدْ راٰوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰآ اٰمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ ٱلصّٰاغِرينَ ﴿٣٢﴾ قٰالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنيَ إِلَيْهِ وَ إِلّٰا تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ ٱلْجاٰهِلينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجاٰبَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّميعُ ٱلْعَليمُ ﴿٣٤﴾

◀ اللّغة

نِسْوَةٌ بكسر النّون و ضمّها لغتان، و النِّساء و النِّسوان و النِّسوة جمع المرأة من غير لفظها كالقوم في جمع المرء.

تُراٰوِدُ أي تطالب المراودة المطالبة (فتيها) الفتى في كلام العرب الشّاب، و المرأة فتاة.

شَغَفَهٰا الشَّغف باطن القلب.

وَ أَعْتَدَتْ أي هيّأت و أعدَّت و إتَّخذت من العتاد.

مُتَّكَـًٔا المتّكأ بضمّ الميم الوسادة.
أَكْبَرْنَهُ أي أعظمنه و أجلنه.
ٱلصَّٰغِرِينَ الصّغار الذُّل و الهوان.
فَصَرَفَ أي منع.

◀ الإعراب

حُبًّا تمييز و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في، ترواد، أو من الفتى. **مُتَّكَـًٔا** نصب على المفعول **رَبِّ ٱلسِّجْنُ** بكسر السّين مبتدأ **أَحَبُّ** خبره.

◀ التّفسير

وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَيٰهَا

النّسوة بكسر النّون و ضمّها جماعة من النّساء قيل هو إسم مفرد لجميع المرأة و تأنيثه غير حقيقي و لذا لم يلحق تاء التّأنيث.

و قال بعضهم يجوز إلحاق التّاء أيضاً فيقال قالت نسوة كما في الإعراب يقال قالت الأعراب و قال الأعراب.

و قال الرّضي النِّسوة جمع لأنّها على وزن فعلة فيتّقدر لها مفرد و هو نساء كغلام و غلمة لا أنّها إسم جمع.

قال بعض المفسّرين أنّ الجماعة من النّساء كنَّ خمساً، إمرأة الخبّاز و إمرأة السّاقي و إمرأة صاحب الدّواب، و إمرأة صاحب السّجن، و إمرأة الحاجب و قيل أكثر و الذّي تدّل عليه الآية و هو مطلق الجماعة من النّساء و التّعيين لا دليل عليه و كيف كان أنّ قضية يوسف و زليخا إنتشرت في أهل مصر فتّحدث النّساء بها و قوله: **تُرَٰوِدُ فَتَيٰهَا** فالفتى كناية عن يوسف و فاعل الفعل إمرأة العزيز أي قلن أنّ إمرأة العزيز تراود و تطالب يوسف و أنّما قال فتاها لأنّ يوسف كان عبداً لعزيز مصر بحسب الظّاهر فالتّقدير تراود عبدها ولم يعبّر عنه

في القرأن بالعبد تعظيماً له أو أنّه في الواقع لم يكن من جنس العبيد بل كان من الأحرار **قَدْ شَغَفَهَا** أي بلغ الحبّ شغاف قلبها و هو داخله و باطنه و قرأ بعضهم شغفها بالعين المهملة و عليه فمعناه أحرق حبّه.

قال الجوهري شغفه الحبّ أحرق قلبه، و قيل أمرضه، قال أهل اللّغة شعاف الجبال أعاليها و قد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين اذا أولع به، و عن الزّهري و الشّعبي، الشَّغف بالغين المعجمة، حبٌّ و بالعين المهملة جنونٌ، و قيل الشّغاف بالغَين حجاب القلب و بالعين المهملة سويداه فلو وصل الحبّ الى الشّغاف لمات و كيف كان فالمأل في جميع الوجوه و القراءات واحدٍ أنّ حبّها إيّاه قد ملأ قلبها، قال الشّاعر:

أمرُّ على جدار ديار سلمى　　　أقبّل ذا الجدار و ذا الجدارا

فما حبّ ادّيار شغفن قلبي　　　ولكن حبّ من سكن الدّيارا

قال بعضهم أنّ العزيز بلسان العرب الملك و المراد به قطيفر وزير الرّيان و بإمرأته زليخا ولم يصَّرحنّ بإسمها على ما عليه عادة النّاس عند ذكر السّلطان و الوزير و قيل صرَّحنَ بإضافتها الى العزيز مبالغةً للتشنيع لأنّ النّفوس أقبل الى السّماع أخبار ذوي الأخطار و ما يجري مجرى لهم.

و إعلم أنّ المحبّة هو الميل الى أمرٍ جميل و هو إذا كان مفرطاً سمّي عشقاً و العشق اذا كان مفرطاً سمّي سكراً و هيماناً و صاحب العشق المفرط معذور غير ملوم لأنّه أفةٌ سماويّة كالجنون و المرض مثلاً و المحبّة أصل الإيجاد و سببه و لذلك قيل أنّ العشق أخصّ من المحبّة و لذلك لا يطلق على اللّه الإنتفاع الإفراط عن صفاته.

قال بعض العرفاء أنّ عشق زليخا و إن كان عشقاً مجازياً لكن لمّا كان تحقّقها به حقيقة و صدقاً جذبها الى المقصود وأل الأمر من المجاز الى الحقيقة قالوا أنّ المجاز قنطرة الحقيقة انتهى.

إِنَّا لَنَرٰيهٰا فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ أي إنّا لنعلم أنّ إمرأة العزيز في ضلالٍ ظاهرٍ، أي في خطأٍ و بعدٍ عن طريق الرُّشد و الصَّواب و أنّما لم يقلنَّ، أنّها لفي ضلالٍ مبين و قلنا أنّا لنراها كذلك إشعاراً بأنّ ذلك الحكم غير صادرٍ عنهنّ مجازفةً بل عن علمٍ و رأيٍ مع التَّلويح بأنّهنّ متنزّهات عن أمثال ما هي عليه و لذا إبتلاهنَّ اللّه بما رمينَّ به الغير لأنّه ما عيَّر أحد أخاه بذنبٍ إلاّ إرتكبه قبل أن يموت و هذه أعني ملامة الخلق و تضليلهم علاقة كمال المحبّة و نتيجته لأنّ اللّه اذا إصطفى عبداً رفع محبّته الذّاتية عن قلوب الأخيار غيرةً منه عليه ولذا ترى أرباب الأحوال مذكورين غالباً بلسان الذّنب و التَّعير و السِّر فيه أنّهم قد تجاوزوا حدّ الجمهور فكانوا كالمسك بين الدّماء فكما أنّ المسك خرج بذلك الوصف الزّائد عن كونه جنس الدَّم فكذا العشّاق خرجوا بما هم عليه عن كونهم من جنس العباد ذوي التَّفرقة و النّقصان و الجنس الى الجنس يميل فافهم حقيقة الحال هكذا قيل.

فَلَمّٰا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَ اٰتَتْ كُلَّ واٰحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قٰالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّٰا رَأَيْنَهٗ أَكْبَرْنَهٗ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَرًا إِنْ هٰذٰآ إِلاّٰ مَلَكٌ كَرِيمٌ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّ إمرأة العزيز حين سمعت قول نسوة المدينة فيها و عذلهنَّ إيّاها و مكرهنّ بها قيل إنّهن مكرن بها لتريهنَّ يوسف فلمّا سمعت ذلك أرسلت إليهنّ.

و قال بعضهم في تسميته مكراً لكونه خفية منها كمكر الماكر وإن كان ظاهراً لغيرها **وَ أَعْتَدَتْ** أي هيّأت و أعدَّت، لهنّ متّكئاً، أي وسادةً و المتّكأ النّمرق الّذي يتّكأ عليه و أتت كلّ واحدةٍ منها، أي أتت إمرأة العزيز كلّ واحدةٍ من النِّسوة سكيّناً، ليقطّعن الفاكهة قيل المراد بها البطّيخ قيل أنّها دعت أربعين إمرأة منهنّ غير الخمس المذكورات ثمّ أحضرت لهنّ ما يتّكأن عليه من

النّمارق و الوسائد و غيرها من الطّعام و الشّراب كما هو عادة المتَّرفهين وبعد مجيئهنّ و جلوسهنّ على الوسادة أتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكيّناً لتستعمله في قطع ما يعهد فيما قدم بين أيديهنَّ من اللّحوم و الفواكه و قصدت بتلك الهيئة و هي قعودهنّ متّكئات و السّكاكين في أيديهنّ أن يدهشن و يبهتن عند رؤيته و يشغلن عن نفوسهن فيقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطّعنها لأن المتّكئ اذا بهت لشئٍ وقعت يده على يده ثمّ قالت ليوسف و هنّ مشغولات بمعالجة السّكاكين و أعمالها فيما بأيديهنّ من الفواكه و أضرابها، أخرج يا يوسف عليهنّ أي إبرز لهنّ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ** عطف على مقدّر أي فخرج عليهنّ فلمّا رأينه ، النِّسوة أكبرنه، أي أعظمنه و أجللنه و ذلك بسبب رؤيتهنّ بشراً لم تر عينٌ مثله في حسنه الفائق و جماله الرّائق فأنّ فضل جماله على جمال كلّ جميلٍ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

قال قوم معنى ذلك أنّهنّ حضن حين رأينّه من شدّة الشَّبق شدّة شهوة الضّراب و المرأة اذا إغتلمت و إشتّدت شهوتها سال دم حيضها من أكبرت المرأة اذا حاضت ومنه قول الشّاعر:

يأتي النّساء علىٰ أطهارهنّ ولا ... يأتي النّساء اذا أكبرن إكباراً

وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ أي جرحنها بالسّكاكين لفرط وحشتهنّ و خروج حركات جوارحهنّ من منهج الإختيار حتّىٰ لا يعلمن ما فعلن.

و من المعلوم أنّ المدهوش لا يدرك ما يفعل و أنّما لم تقطع زليخا يديها لأنّ حالها إنتهت الى التّمكين في المحبّة كأهل النّهايات.

و أمّا حال النِّسوة فكانت في مقام التّلوين كأهل البدايات فلكلّ مقامٍ تلوّن و تمكّن و بداية و نهاية.

قيل أنّ يوسف خرج عليهنّ بغتةً و لذلك قطّعن أيديهنّ لما أصابهنّ من الحيرة و الدِّهشة لشهود جماله و الغيبة عن أوصافهنّ كما قيل:

غابت صفات القاطعات أكفَّها ... في شاهدٍ هو في البّرية أبدع

ولا شكّ أنّ زليخا كانت أبلغ في محبّته منهنّ لكنّها لم تغب عن التّمييز بشهود جماله لتّمكن حال الشّهود في قلبها **وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ** هو مشتّق من الحشاء الّذي هو النّاحية و المعنىٰ أنّه صار في حشاه أي ناحيته ممّا قذف به و فاعله يوسف و المعنى بعد عن هذا الذّي رمي به، للّه، أي لخوفه من اللّه و مراقبة أمره.

و قال بعضهم أصله، حاشا، حذفت الألف الأخيرة تخفيفاً و هو حرف جرٍّ يفيد معنى التّنزيه في باب الإستثناء تقول أساء القوم حاشا زيد، فوضع موضع التّنزيه و الرائة فمعناه تنزيه اللّه و براءة اللّه و اللاّم لبيان المبرّأ و المنّزه كما في سقياً لك.

و قرأ إبن السّماك حاشاً للّه بالتّنوين **مٰا هٰذٰا بَشَرًا إِنْ هٰذٰآ إِلّٰا مَلَكٌ كَرِيمٌ** أي ليس هذا من جنس البشر لأنّ هذا الجمال غير معهود للبشر، إن هذا، إن نافيه أي ليس هذا إلاّ ملك كريم.

قال بعضهم فيه دليل على تفضيل الملائكة على البشر لأنّه خرج مخرج التّعظيم ولم ينكره اللّه تعالى انتهى.

و أنت ترى أنّ هذا الدّليل أوهن من بيت العنكبوت و ذلك لأنّهنّ لم يقصدن الإخبار بذلك عن حاله و أنّما أخبرن بتشبيه حاله بحال الملائكة في و قاره و سكونه و بعده عن السُّوء فلذلك لم ينكره اللّه و أنّما قال المستدّل ذلك لما سمع من علماء البيان أنّ المشبّه به يكون أقوى من المشبه و حيث أنهنّ شبَّهن يوسف بالملك فلا محالة يكون الملك أحسن منه و هو دليل الفضيلة و لم يعلم أنّ الأقوى ليس بمعنى الأفضل و إلاّ يلزم أن يكون قولنا زيد كالأسد المشبّه به و هو الأسد أفضل من زيد و العاقل لا يقول به، و قرئ، **مُتَّكأً** بتسكين التّاء و معناه الأترج.

و قال قتادة معناه طعاماً و به قال عكرمة و إبن زيد و إبن إسحاق و غيرهم شاذّ.

قٰالَتْ فَذٰلِكُنَّ اَلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ اَلصّٰاغِرِينَ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّ إمرأة العزيز قالت للنّسوة اللاّتي عذلنها على محبّتها ليوسف و قلنّ فيها ما قلن، هذا الذّي لمتنّني فيه و اللّوم الوصف بالقبيح على وجه التّحقير و مثله الذّم و يستفاد من هذا الكلام أنّ الإسراع في اللّوم قبل أن يقع اللاّئم فيما وقع فيه الملوم ممّا لا ينبغي للعاقل فأنّ كثيراً ما نرى بعض الأشخاص أنّهم يلومون الظّالمين على ظلمهم مثلاً و بعد وصولهم الى ما وصل الظّالم اليه من القدرة يكون اللاّئم أظلم من الملوم و الوجه في ذلك هو أنّ الإنسان يرى عيوب النّاس و لا يرى عيبه أو لا يعلم به أو أنّ أسباب المعصية لم تتّهيأ له فيظّن أنّ عدم تحقّق العصيان في حقّه منشأه إيمانه و تقواه و خوفه من اللّه و هو غافلٍ عن سرّه الذّي هو فقدان الأسباب و عدم القدرة على المعصية فعلاً و عند ذلك يلوم العاصي و يحسن الظّن بنفسه.

و أمّا بعد وجود الإمكانات و الأسباب يرى و يشاهد أنّه أخبث و أفسق من الملوم قبل الإختبار هو هذا و الى هذه النّكتة أشارت زليخا في الحقيقة حيث قالت فذلك الّذي لمتنّني فيه، و الفرق أنّي لم أقطع يدي عند رؤية يوسف مع أنّي كنت معه و أنتم قطّعتن أيديكنّ في رؤيةٍ واحدةٍ و عند ذلك.

وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ أي لم أنكر مراودتي أيّاه و مطالبتي منه قضاء حاجتي إلاّ أنّه لم يقبل و إستعصم منه أي إمتنع عن قضاء حاجتي و الإستعصام هو طلب العصمة من اللّه تعالى بفعل لطفٍ من ألطافه ليمتنع من الفاحشة و فيه دلالة على أنّ يوسف لم يقع منه قبيح ولئن لم يفعل يوسف ما آمره من المعصية ليسجنُّن بالنّون الثّقيلة آثرت بناء الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك في كلماتهم.

و المعنىٰ ليجعلَّن في السِّجن أي في الحبس ألبتة،**وَ لَيَكُوناً مِنَ اَلصّٰاغِرِينَ** و التّقدير **ليكُونَّن** بالنُون الخفيفة و أنّما كتبت بالألف إتباعاً لخطّ

المصحف مثل، قوله لنسفعاً، على حكم الوقف يعني أنّ النّون الخفيفة يبدل منها في الوقف الألف و ذلك لشبهها بالتنوين كما قال الشّاعر:

و صلّ على حين العشيّات و الضحّى و لا تعبد الشّيطان و اللّه فأعبد

أي فأعبدن فأبدل في الوقف من النّون ألفاً والصّغار الذُّل من قولهم صغر يصغر صغاراً و منه قوله تعالى: **حَتّٰى يُعْطُوا اَلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ**[١] أي و هم أذلاّء فيصير معنى الكلام أنّ يوسف لو لم يفعل ما أمره ليجعل في السِّجن ألبتّة و إذا جعل فيه لا محالة يكون من الصّاغرين أي يكون ذليلاً حقيراً عندنا و عند النّاس و ذلك لأنّ المكان والمقام في السِّجن كاشف عن الخطأ والعصيان في حقّ من جعل فيه عن العرف و من المعلوم أنّ الخاطئ والعاصي لا قيمة له و من كان كذلك فهو ذليل حقير و هو المطلوب و هذا معنى قولهم فلان عاص لأنّه في السجّن.

قال بعضهم أنّ النّون الخفيفة هي الّتي يتّلقى بها القسم و كيف كان يستفاد من الآية التّهديد و التّخويف.

أقول و هذه سيرة الظَّلمة في كلّ عصرٍ و زمانٍ و الوجه فيه أنّ الحاكم الجائر المسلّط على النّاس يغلب هواه على عقله و إذا كان كذلك فليس له إلتزامٌ و تقيَّدٌ بالدّين و الوجدان و الشَّرف لغلبة سكر القدرة عليه فهو لأجل وصوله بما يشاء ولو كان باطلاً يفعل ما يشاء سواء كان مطلوبه من سنخ الشّهوات الجنسيّة أو غير ذلك فإذا رأى مخالفاً لما أراده يدفعه بأيّ نحوٍ ممكنٍ فإذا كان رجلاً حقيراً لا يعرفه النّاس يقتله في باديْ الأمر و إذا كان معروفاً مشهوراً في النّاس يدعوه الى موافقته لما أراد الجائر و يتشبَّث في دعوته بأنواع الحيل من تفويض المقام و إعطاء المال و غير ذلك ممّا يدلّ على لطفه و عنايته به ظاهراً فأن وافق و أطاع فهو و إلاّ يتشَّبث بالتّهديد من الضَّرب و الشّتم و الإرعاب و السِّجن و أمثالها و هكذا الى أن تصل النَّوبة الى القتل، و على هذا جرت عادتهم و سيرتهم مع الرَّعية.

١- التّوبة = ٢٩

و أمّا المخالف فأن كان من سنخ هؤلاء الظَّلمة فهو يوافقهم قطعاً و إن كان من المؤمنين المتّقين أو من الأحرار فهو يختار السِّجن حتّى القتل و لا يوافقهم و لا يعينهم على ظلمهم لأنّ المعين على الظُّلم ظالمٌ، و لا يبالي من المقام في السِّجن لأنّه ليس عند الأحرار من الذُّل بل هو يزيد على العزّ و الشَّرف يرجّحونه على إعانة الظّلم و الظّالم و يقولون ما قاله الشّاعر:

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى　　　حبسي و أيُّ مهنّدٍ لا يغمد

فالسِّجن يوجب العزّ و الشَّرف للأحرار و الصُّلحاء عند الخلق، و الذُّل و الحقارة للفّساق و الأشرار فما حكاه اللّه تعالى عنها أنّها قالت: **وَ لَيَكُونًا مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ** إنّما هو كذلك بزعمها و أمّا في الواقع فالأمر ليس كذلك ألا ترى أنّ يوسف ببركة السِّجن الذّي كان معلولاً لمخالفته إيّاها وصل الى ما وصل من المقام الرَّفيع عند الخلق و الخلق كما سيجئ تفصيل الكلام فيه و أمّا زليخا التّي هدَّدت يوسف بالسِّجن و حكمت بأنّه يصير من الصّاغرين، صارت من الأذّلاء رغماً لأنفها نفسها، هذا، و الى ما ذكرناه و حقّقناه أشار يوسف كما حكى اللّه عنه بقوله:

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ

أي قال يوسف مناجياً لربّه أو أنّه قال ذلك لمّا سمع وعيد المرأة و تهديدها إيّاه، السِّجن أحبَّ إلّي ممّا يدعونني إليه من المعصية أي اذا دار أمري بين المقام في السّجن أو إرتكاب القبيح فأنّي أختار المقام فيه اذ هو أحبَّ إلّي من العصيان و المخالفة لأمر اللّه تعالى قالوا في وجه كونه أحبَّ، أنّ التّقدير إنّي لو كنت ممّا أريد لكانت إرادتي لهذا أشدُّ.

و قال الأخرون أنّ المراد أنّ توطين نفسي على السِّجن أحبُّ إلّي ممّا يدعونني اليه و هاهنا قول ثالث.

و هو أنّ السّجن أسهل علّي ممّا يدعونني اليه.

أقول أصل الإشكال نشأ من قوله: **أَحَبُّ** و ذلك لأنّه أفعل التّفضيل يقتضي أن يكون الأمران أعني بهما السّجن و الّذي يدعونه اليه كلاهما عنده محبوباً إلاّ أنّ أحدهما أحبَّ من الأخر و الحال أنّ الأمر ليس كذلك لأنّه كان لا يحبّ ما يدعونه اليه و لا يريد كما أنّه كان لا يحبّ السّجن و لا يريده و الحاصل أنّ قوله: **أَحَبُّ** يصدق اذا كان الأمران محبوبين عنده و كيف يقال أنّ المعصية كانت عنده محبوبة.

فحقّ العبارة أن يقال ربّ السّجن محبوبٌ عندي في هذه الحالة مثلاً و لم يقل ذلك و لأجل هذا تصّدوا لرفع الإشكال و قالوا فيه ما قالوا و قد أجاب عنه السّيد المرتضى قدس سره في أماليه:

أمّا أوّلاً: فبأنّ المحبّة متعلّقة في ظاهر الكلام بما لا يصحّ في الحقيقة أن يكون محبوباً مراداً لأنّ السّجن أنّما هو الجسم و الأجسام لا يجوز أن يريدها و أنّما يريد الفعل فيها أو المتعلّق بها و السّجن نفسه ليس بطاعةٍ و لا معصية و أنّما الأفعال فيه قد تكون طاعات و معاصي بحسب الوجوه التّي يقع عليها و إدخال القوم يوسف الحبس أو إكراههم له على دخوله معصية منهم وكونه فيه و صبره على ملازمته و المشاق التّي تناله بإستيطانه طاعةٌ منه و قربة علمنا أنّ ظالماً لو أكره مؤمناً على ملازمة بعض المواضع و ترك التّصرف في غيره لكان فعل المكره حسناً و أن كان فعل المكره قبيحاً و هذه الجملة تبيّن أن لا ظاهر في الآية يقتضي ما عنده و أنّه لابّد من تقدير محذوف يتعلّق بالسجن و حيث دلّ الدّليل على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يجوز أن يريد المعاصي و القبائح إختصّ المحذوف المقدّر بما يرجع اليه ممّا ذكرناه و ذلك طاعة لا لوم على مريده و محبّه.

ثمّ قال قدس سره فإن قيل كيف يجوز أن يقول: **ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ** و هو لا يحبّ ما دعوه جملةً و من شأن هذه اللّفظة أن تدخل بين ما وقع فيه إشتراك في معناها و أن فضّل البعض على البعض.

قلنا قد تستعمل هذه اللّفظة في مثل هذا الموضع و إن لم يكن في معناها إشتراك على الحقيقة ألا ترى أنّ من خيّر بين ما يحبّه يكرهه جائز أن يقول هذا أحبَّ إلَّي من هذا و أن لم يجز مبتدأً أن يقول من غير أن يخيّر هذا أحبَّ إلَّي من هذا، اذا كان لا يحبّ أحدهما جملة و ما يقارب ذلك قوله تعالىٰ: **قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ اَلْخُلْدِ**[١].

و نحن نعلم أن لا خير في العقاب و أنّما حسن ذلك لوقوعه موقع التّوبيخ و التّقريع على إختيار المعاصي على الطّاعات و أنّهم ما ركبوا المعاصي و أثروها، على الطّاعات إلاّ لإعتقادهم أنّ فيها خيراً و نفعاً فقيل أذلك خيرٌ على ما تظنُّونه و تعتقدونه أم كذا وكذا.

الوجه الثّاني: أن يكون معنى، **أَحَبُّ إِلَيَّ** أي أهون عندي و أسهل علَّي و هذا كما يقال لأحدنا في الأمرين يكرههما معاً إن فعلت كذا و إلاّ فعل بك كذا و كذا فيقول بل كذا أحبَّ إلَّي أي بمعنى أسهل و أخفَّ و إن كان لا يريد واحداً منهما و هكذا الأمر فيما نحن فيه انتهى كلامه.

أقول ماذ كره السيّدﷺ في حلّ الإشكال لا بأس به و الذّي يختلج بالبال مع مراعاة الإختصار و حمل الكلام على ظاهره من غير إحتياج الى التّقدير هو أن نقول لا شكّ أنّ المؤمن الحقيقي يحبّ الطّاعة و يبغض المعصية و هذا ممّا لا كلام فيه و على هذا فكلّ مكانٍ يحصل فيه مطلوبه فهو أحبَّ اليه لا أنّ المكان بما هو محبوبٌ له بل حبّه له لأجل حصول غرضه و مطلوبه فحبّه له ألّي لا إستقلالي سواء كان المكان السّجن أم غيره اذ المفروض أنّ المكان بما هو هو لا خصوصيّة له إلاّ بإعتبار ما يتّرتب عليه من الطّاعة و المعصية مثلاً فهو يحبّ السّجن لذلك كما يحبّ البيت لذلك فكلّ واحدٍ منهما كان أبعد من العصيان و أقرب الى الطّاعة فهو أحبَّ اليه عقلاً و حيث أنّ يوسف رأى السّجن و المقام فيه أقرب الى الطّاعة و تحصيل رضا اللّه تعالى من المقام في بيت العزيز **قَالَ**

١– الفرقان = ١٥

رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ في بيت العزيز لأنّ البيت في مظّان الخطر و السّجن ليس كذلك هذا و يحتمل أن يكون المعنى أنّ السّجن أحبَّ إلَّي، لأنّه في طاعته أي أنّي لم أرتكب ذنباً أستحقّ به السّجن أسجن فيه لئّلا يتَّحقق عنّي الذَّنب و اذا كان كذلك فهو أحبَّ إلَّي.

و أمّا قوله: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ فالبحث فيه في مقامين:

المقام الأوّل: في قوله: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

المقام الثّاني: قوله: وَ أَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ

أمّا الأوّل، فنقول الصَّرف المنع، و قوله: إِلَّا أصله إن لا و المعنىٰ إن لا تمنع عنّي كيدهنّ أي كيد النّساء أصب إلَّيهن أي أميل اليهنّ لأنّ الصَّبا رقّة الهوىٰ يقال صبا يصبو فهو صاب اذا مال و اشتاق قال الشّاعر:

الى هندٍ صبا قلبى و هندُ مثلها يصبي

و أنّما قال ذلك لأنّ المقتضى و هو الشّهوة بمقتضى الطّبيعة البشريّة كانت فيه موجودة كغيره من أفراد البشر و الإقرار منه بهذا لا يضُّر بعصمته كما نقول بها في حقّ الأنبياء و ذلك لأنّ القائل بها لا يقول أنّهم معصومون عن الشّهوة بل يقول أنّهم معصومون عن أعمالها على خلاف الشّرع و العقل.

ألا ترى أنّهم يفسّرون العصمة بحفظ اللّه و المعصوم من عصمه اللّه من الخطأ و هو لا ينافي إمكان الخطأ بحسب الطبيعة البشريّة لولا حفظ اللّه فقوله:

وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

في الحقيقة يفسّر العصمة في المعصوم و إمكان الخطأ عقلاً لا ينافي عدم إمكانه عادةً و شرعاً و في قوله: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ إشارة الىٰ أنّ الإنسان في جميع أُموره يحتاج الى توفيقٍ من جانب الرّب و في أمثال هذه الموارد أحوج و ذلك لما ثبت و تحقّق عداوة الشيطان للإنسان:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا بَنيٓ اٰدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ اَلشَّيْطٰانُ كَمٰآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ اَلْجَنَّةِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**[٢].

و الأيات في التّحذير منه كثيرة و من المعلوم بل المحسوس أنّه في مورد الشّهوة و لا سيّما الجنسيّة منها أقوى و أطمع منه في غيرها لأنّ أعمال الشّهوة الجنسيّة يقتضيه الطبع البشري بمقتضى طبيعته و ذاته و بذلك قال الشيطان لنوح النّبي في نصيحته إيّاه يا نوح لا تخلو مع المرأة الأجنبيّة، و اذا كان كذلك فلولا لطف اللّه و عنايته للعبد لا يقدر العبد من حفظ نفسه عن شرّه و اللّه تعالى هو القادر على دفع شرّه نقول أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، فينبغي للعبد أن يتّعوذ به في جميع أموره و هذا هو الأصل في باب السّلوك الى اللّه فمعنى قوله: **وَ إِلّٰا تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنَّ** في الحقيقة يرجع كيد الشّيطان أي و إلاّ تصرف عنّي كيد الشّيطان و لم يصّرح بإسمه لأنّ المرأة من أظهر مصاديق كيده لوجود الشّهوة الجنسيّة في الرّجل و المرأة فطريقها من أحسن طرق العصيان كما أوضحناه.

و محصّل الكلام في هذا المقام هو أنّ يوسف دعا ربّه و إلتمس منه أن يوفّقه على دفع مكرهنّ لأنّهن من أجلى مكائده و مصائده و سيأتي لهذا المقام زيادة توضيح إن شاء اللّه في المستقبل.

المقام الثّاني: قوله: **وَ أَكُنْ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ** أي إن لا تصرف عنّي كيدهنّ أكن من الجاهلين، أو يقال إن لا تصرف عنّي كيدهنّ أصب اليهنّ و اذا كان كذلك أكن من الجاهلين و فيه إشارة الى أنّ إرتكاب المعاصي من الجهل.

و قال بعض المفسّرين في معنى قوله: **وَ أَكُنْ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ** أي و أكن ممّن يستحقّ صفة الذّم بالجهل لأنّه بمنزلة من قد إعتقد الشّئ على خلاف ما

١- الأعراف = ٢٧

٢- يوسف = ٥

هو به و إلاّ فهو كان عالماً بأنّ ذلك معصية و الغرض فيه بيان أنّ صفة الجهل من أغلظ صفة الذّم انتهى قاله في التّبيان.

و قال القرطبي أي إن لم تلطف بي في إجتناب المعصية و وقعت فيها **وَ أَكُنْ مِنَ ٱلْجٰاهِلِينَ** أي ممّن يرتكب الإثم و يستحقّ الذّنب أو ممّن يعمل عمل الجهّال و دلَّ هذا على أنّ أحداً لا يمتنع عن معصية اللّه إلاّ بعون اللّه و دلَّ أيضاً على قبح الجهل و الذّم لصاحبه انتهى.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ أَكُنْ مِنَ ٱلْجٰاهِلِينَ** من الذّين لا يعملون بما يعلمون لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو و من لا يعلم سواء، أو من السُّفهاء لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح انتهىٰ.

و أنت ترى أنّ ما ذكروه في معنى الكلام لا يساعده سياق الكلام في الآية و ذلك لأنّ معنى الجهل الّذي هو ضدّ العلم لا خفاء فيه و لا يحتاج الى التَّطويل و التوضيح و أنّما الكلام في أنّ قوله: **وَ أَكُنْ مِنَ ٱلْجٰاهِلِينَ** معطوف على قوله: **أَصْبُ إِلَيْهِنَّ** بمقتضى الواو العاطفة فيصير المعنى في الآية و إلاّ تصرف أي إلاّ تمنع كيدهنّ أصب اليهنّ أوّلاً أكن من الجاهلين ثانياً و عليه فالميل اليهنّ و الجهل أمران يتَّرتبان على عدم المنع أمّا ترَّتب الميل على عدم الصّرف فلا إشكال فيه بمقتضى الطّبيعة كما شرحناه و أمّا ترَّتب الجهل على عدم الصَّرف ففيه نوع غموض لأنّ الميل اليهنّ لا يختصّ بالجاهل بل يعمّ الجاهل و العالم معاً و بعبارة أخرى ظاهر الآية يدلّ على أنّ اللّه إن لا يصرف عنّي كيدهنّ أكن مائلاً اليهنّ و جاهلاً و مفهومه إن منع عنّي كيدهنّ لم أكن مائلاً و لا جاهلاً كما ترى اذ لا ملازمة بين الميل و الجهل.

نعم لو قال و أكن من الخاطئين مثلاً كان مناسباً لما ذكروه و فهموه من الآية و إنّي بعد مراجعتي الى ما عندي من التّفاسير لم أر فيها ما يرتفع الإشكال به بل لم أر من تفَّطن لذلك و الّذي يقوّى في النّظر هو أنّ الجهل في الآية ليس ضدّاً للعلم و توضيحه أنّ الجهل يستعمل على أقسام:

أحدها: خلو النّفس من العلم بالشّئ و هذا هو الأصل و يقال أنّه ضدّ العلم.

الثّاني: إعتقاد الشّئ بخلاف ما هو عليه و يعبّر عنه بالجهل المرّكب كما يعبّر عن القسم الأوّل بالجهل البسيط.

الثّالث: فعل الشّئ بخلاف ما حقّه أن يفعل سواء إعتقد فيه إعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كما في تارك الصّلاة متعمّداً و هكذا غيرها من الواجبات اذا عرفت هذا فنقول:

الجهل في قوله: **وَ أَكُنْ مِنَ ٱلْجاٰهِلِينَ** ليس من القسم الأوّل و الثّاني قطعاً لأنّ يوسف كان عالماً بقبح العصيان و أنّ الميل اليهنّ في حقّ النّبي معصية لأنّ النّبي لا يعصي و لا يريد المعصية فلا محالة يكون الجهل في الآية داخلاً في القسم الثّالث و هو فعل الشّئ بخلاف ما حقّه أن يفعل و عليه فالمعنى **إِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ** أكن مائلاً اليهنّ طبعاً و اذا كنت مائلاً بمقتضى الطبيعة البشريّة أفعل و أعمل بخلاف ما حقّه أن يفعل أي إرتكب المعصية و هي خلاف ما حقّه أن يفعل لأنّ ما حقّه أن يفعل هو طاعة الرّب لا العصيان و يعبّر عنه بالجهل لأنّ العاقل لا يفعل شيئاً على خلاف ما هو حقّه و الجهل بهذا المعنى هو الذّي يصحّ أن يعطف على قوله أصب اليهنّ لأنّه من لوازمه و تبعاته قهراً هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

فَاسْتَجاٰبَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ أي لمّا دعا يوسف ربّه و طلب منه أن يصرف كيدهنّ عنه فإستجاب له ربّه أي أجابه اللّه يوسف الى ما دعاه به فصرف اللّه أي منع عنه كيدهنّ أنّه سميعٌ أي عالمٌ بالمسموعات و عليمٌ أي لا يخفى عليه شئ.

و إعلم أنّ يوسف كان عالماً بما دعته اليه و أنّه قبيحٌ يستحقّ فاعله به الذّنب و مع سأل اللّه تعالى أنّ يصرف عنه كيدهنّ و المفروض أنّ كيدهنّ الّذي هو دعاء هنّ و إغواء هنّ قد حصل من قبل فكأنّه قد سأل اللّه لطفاً من ألطافه يصرفه عنده عن إجابة النّسوة الى ما دعونه من إرتكاب المعصية لأنّ ظاهر

القول خرج مخرج الشّرط و الجزاء المقتضيين للإستقبال و في الآية إشارة بل دلالة على أنّ العبد لابدّ له من الدّعاء و على اللّه الإجابة:

قال اللّه تعالىٰ: **اَدْعُونىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ اَلْأَسْمآءُ اَلْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِها**[2].

قال بعض العرفاء لا يمكن الخروج من النّفس بالنّفس و أنّما يمكن الخروج عن النّفس باللّه و قد وردت في مدح الدُّعاء و التَّرغيب اليه أخبار كثيرة سننشير الى شطرٍ منها في موضعه إن شاء اللّه و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

دام سخت است مگر لطف خدا يار شود　　ورنه آدم نبرد صرفة ز شيطان رجيم

■

١- غافر = ٦٠　　٢- الأعراف = ١٨٠

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَ دَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَ قَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَ ٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَ إِسْحَٰقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَ ءَابَآؤُكُمْ مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَ أَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِۦ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

◀ اللّغة

بَدَا لَهُمْ أي ظهر.

فَتَيَانِ تثنية فتى و الفتى الشّاب القوّى.

أَعْصِرُ خَمْرًا الخمر العنب اذا كان في الشّدة وباقي اللّغات واضح لا خفاء فيه.

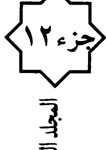
◀ الإعراب

بَدَا لَهُمْ في فاعل، بدا، ثلاثة أوجه:

أحدها: هو محذوف و ليسجننّه، قائم مقامه أي بدا لهم السِّجن فحذف و أقيمت الجملة مقامه.

الثّانى: أنّ الفاعل مضمر و هو مصدر، بدا أي بدا لهم بداءً فأضمر.

الثّالث: أنّ الفاعل ما دلَّ عليه الكلام أي بدا لهم رأى أي فأضمر أيضاً وحَتَّى متعلّقة بيسجنّنه وقَالَ مستأنف لأنّه لم يقل ذلك المنّام حال دخوله هو حال مقدرة لأنّ الدخول لا يؤدّي الى المنام فَوْقَ رَأْسِي ظرفٌ لإحمل و يجوز أن يكون حالاً من الخبز قدّم على ذي الحال وتَأْكُلُ صفة له أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ أم هنا متّصلة سَمَّيْتُمُوهَا يتّعدى الى مفعولين و قد حذف الثّاني أي سميّتموها ألهةً و أسماء هنا بمعنى مسمّيات أو ذوي أسماء لانّ الإسم لا يبعد أَمِ ٱللَّهُ يجوز فيه الإستئناف و يجوز أن يكون حالاً، و قد معه مرادة مِنْهُمَا صفة لناجٍ و يجوز أن يكون حالاً من الّذي و لا يكون متعلّقاً بناجٍ لأنّه ليس المعنى عليه.



◀ التّفسير

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّه ظهر لهم، لم يقل، لهُن مع تقّدم ذكر النَّبوة لأنّه أراد بذلك الملك و أعوانه و قيل أراد الذكّور مع النِّسوة من أعوانهن فغلب

المذّكر فقال لهم و فاعل، بدا، فضمر و تقديره ثمّ بدا لهم بداء، من بعد من رأوا الأيات، الدّالة على صدق يوسف و كذب إمرأة العزيز و المراد بها قًد القميص و قطع الأيدي و شهادة الطّفل في المهد على قول من قال به و الأيات جمع أية ، و هي العلامة ليسجننّه حتّى حينٍ، إنّما هو فعل المذّكر كما قال **بَداٰ لَهُمْ** ولَم يقل، لهُن و قد مرَّ الكلام في وجه التّذكير و دخلت النّون الثّقيلة جواباً للقسم و قوله: **حَتّٰى حينٍ** أي الى مدّةٍ غير معلومة و حتّى بمعنى، الى، و الحق أنّ **الحِين** بكسر الحاء و سكون الياء والنّون وقت بلوغ الشّئ و حصوله و هو مبهم المعنى و يتخصّص بالمضاف اليه نحو و لات حين مناصٍ[١] وقال بعضهم أنّه يأتي على أوجه:

أحدها: للأجل نحو قوله: **وَ مَتَّعْناٰهُمْ إِلٰى حينٍ**[٢].

و قوله: **وَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاٰعٌ إِلٰى حينٍ**[٣].

ثانيها: للمنّة نحو قوله تعالىٰ: **تُؤْتيِ أُكُلَهاٰ كُلَّ حينٍ بِإِذْنِ رَبِّهاٰ**[٤].

ثالثها: للسّاعة نحو قوله: **حينَ تُمْسُونَ وَ حينَ تُصْبِحُونَ**[٥].

رابعها: للزّمان المطلق نحو قوله: **هَلْ أَتىٰ عَلَى ٱلْإِنْساٰنِ حينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ**[٦] و قوله: **وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حينٍ**[٧].

و الظّاهر أنّه أريد به في المقام مطلق الزّمان الّذي لا يعلمه إلاّ اللّه و هو كذلك فأنّ ما ذكروه في تفسير الكلام من ستّة أشهر، أو ثلاثة عشر شهر، أو تسع سنين أو خمس سنين أو إثنتي عشرة سنة أو غير ذلك من الأقوال كلّها حدسٌ لا دليل عليه و أعلم أنّ في الآية الشّريفة نكتة خفيّة لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً و هي قوله: **مِنْ بَعْدِ ماٰ رَأَوُا ٱلْاٰياٰتِ** و أنّه أيّ فائدة فيه.

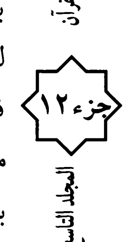
١- ص ٣.
٢- يُونس = ٩٨
٣- البقرة = ٣٦
٤- إبراهيم = ٢٥
٥- الرّوم = ١٧
٦- الإنسان = ١
٧- ص = ٨٨

فنقول في ذكر هذا الكلام إشارة الى قبح سريرة من حكم بذلك بعد رؤية الأيات الدالّة على عدم تحقق الذَّنب منه، و أنّهم جعلوه في السّجن بعد تماميّة الحجّة على عدم وجود الذّنب في حقّه و الحاكم بذلك أظلم ممّن حكم به قبل تماميّة الحجّة لأنّه يفعل ما يفعل مع علمه و هو أقبح و أفحش ممّن يفعل فعلاً أو حكم بحكمٍ جهلاً.

و قيل كان للعزيز ثلاثة سجون، سجن العذاب، و سجن القتل، و سجن العافية، فأمّا سجن العذاب فكان محفوراً في الأرض و فيه الحيّات و العقارب و هو مظلمٌ لا يعرف فيه اللّيل من النّهار.

و أمّا سجن القتل فأنّه كان محفوراً في الأرض أربعين ذراعاً و كان الملك إذا سخط على أحدٍ يلقيه فيه على أمّ رأسه فلا يصل الى قعره إلاّ و قد هلك.

و أمّا سجن العافية فأنّه كان على وجه الأرض الى جانب قصره فإذا غضب على أحدٍ من حاشيته حبسه في ذلك السِّجن فلّما أرادت زليخا أن يسجن يوسف أرسلت الى السّجان سجن العافية و أمرته أن يصلح فيه مكاناً منفرداً ليوسف ثمّ قالت ليوسف، لقد أعييتني و أنقطعت منك حيلتي فلأسلمنّك الى المعذّبين يعذّبونك كما عذَّبتني و لألبّسنك بعد الحلي و الخلل جبّة صوفٍ تأكل جلدك و لأقّيدنك بقيدٍ من حديدٍ يأكل رجليك ثمّ نزعت ما كان عليه من اللّباس و ألبسته جبّة صوفٍ و قيّدته بقيدٍ من حديدٍ قيل أنّ العزيز قد ظهر له برائة يوسف فلا جرم لم يتعرّض له وأحتالت المرأة في طريق آخر فقالت لزوجها هذا العبد العبراني فضحني في النّاس و أنا لا أقدر على إظهار عذري فأرى أنّ الأصلح أن تحبسه لينقطع عن النّاس ذكر هذا الحديث و كان العزيز مطيعاً لها و جملاً ذلولاً زمامه في يدها فأغتّر بقولها كما هو شأن أكثر الرّجال بالنّسبة الى أزواجهم و كيف كان لّما دنا يوسف باب السّجن نكس رأسه فلّما دخل قال بسم اللّه و جلس و أحاط به أهل السِّجن و هو يبكي فأتاه جبرئيل و قال لهممّ بكاءك و أنت إخترت السّجن لنفسك فقال إنّما بكائي لأنّه ليس في



السّجن مكان طاهر أصلّي فيه فقال له جبرئيل صلِّ حيث شئت فأنّ اللّه قد طهَّر داخل السّجن و خارجه أربعين ذراعاً لأجلك فكان يصلّي حيث يشاء و كان يصلّي ليلة الجمعة عند باب السّجن و لنعم ما قيل:

بهر جا يار گل رخسار گردد　　　　أگر گلخن بود گلزار گردد

حكي أنّ يوسف دعا لأهل السّجن فقال اللّهم أعطف عليهم الأخيارتخف عنهم الأخبار، ثمّ أنّ زليخا أثر في قلبها الفراق و إحراق نار الإشتياق و صارت دارها عين السِّجن في عينها وكانت تتفكّر في إلقاء نفسها من أعلى القصر أو شرب السَّم حتّى تهلك وكانت لها داية تسليّها و تحثّها على الصبر ثمّ أنّها عيل صبرها فجاءت ليلة مع دايتها الى السّجن و طالعت جمال يوسف من بعيد ثمّ لمّا أصبحت جعلت تنظر من روزنة القصر الى جانب السّجن.

وَ دَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا

العصر مصدر عصرت و المعصور الشّئ العصير و عصارة الشّئ نفاية ما يعصر و إعتصرت من كذا أخذت ما يجري مجرى العصارة قال الشّاعر:

و أنــمّا العـيش بـربّانه　　　　و أنت من أفنانه معتصر

و الفتى الشّاب القوي **والفَتَيان** بفتح الفاء والتّاء تثنيته و المعنى و دخل مع يوسف الجن فتيان قال أحدهما ليوسف أنّي أراني أعصر خمراً، أي في المنام رأيت كذا **وَ قَالَ ٱلْاٰخَرُ إِنِّىٓ أَرىٰنِىٓ** أي في المنام.

أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ أي من الخبز **نَبِّئْنَا** أي أخبرنا **بِتَأْوِيلِهِۦٓ** أي بتأويل الرّؤيا **إِنَّا نَرىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** هذه الرّؤية بالعين و يحتمل أن يكون بالقلب من المحسنين الى أهل السّجن فأحسن إلينا بكشف غمتّنا إن كنت قادراً عليه.

قال الزّجاج كانوا يسّمون المملوك فتىً شيخاً كان أو شابّاً و الفتيان كانا غلامي ملك مصر الأكبر منهما صاحب شرابه و الآخر صاحب طعامه جرمهما

أنّ صاحب الطّعام نمى اليه أنّه يريد أن يسّمه و ظنَّ أنّ الأخر ساعده و وافقه على ذلك فأمرهما بالسِّجن فقال أحدهما أنّي رأيت في المنام أن أعصر خمراً و الخمر عصير العنب إذا كان فيه الشّدة و التّقدير أنّي أرى في المنام أعصر العنب للخمر و قيل هي لغة عمّان فيها تسمّى العنب خمراً تقديره عنب الخمر، و قيل كان في السِّجن ناسٌ قد إنقطع رجاءهم و طال حزنهم فجعل يقول يوسف لهم أبشروا و أصبروا تؤجرّوا فقالوا بارك اللّه عليك ما أحسن وجهك و ما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى قال أنا يوسف بن صفّي اللّه يعقوب بن ذبيح اللّه إسحاق بن خليل اللّه إبراهيم عليهم السّلام فقال له عامل السِّجن لو إستطعت خلَّيت سبيلك و لكنّي أحسن جوارك فكن في أيّ بيت من بيوت السّجن شئت.

روي أنّ الفتيين قالا له إنّا لنحبّك من حين رأيناك فقال أنشدكما باللّه أن لا تحبّاني فو اللّه ما أحبّني أحدٌ قطّ إلاّ دخل علّي من حبّه بلاء لقد أحبّتني عمّتي فدخل من حبّها بلاء ثمّ أحبّني أبي فدخل علّي من حبّه بلاء ثمّ أحبّني زوجة صاحبي فدخل علّي من حبّها بلاء فلا تحبّاني بارك اللّه فيكما.

قال بعضهم إبتلى يوسف بالعبوديّة و السِّجن ليرحم المماليك و المسجونين إذا صار ملكاً في الأرض و إبتلى بجفاء الأقارب و الحسّاد ليعتاد الإحتمال من القريب و البعيد و إبتلى بالغربة ليرحم الغرباء.

و في الخبر يجاء بالعبد يوم القيامة فيقال له ما منعك أن تكون عبدتني فيقول يا ربّ إبتليتني فجعلت علّي أرباباً فشغلوني، فيجاء بيوسف في عبوديّته فيقال أنت أشدّ أم هذا فيقول بل هذا فيقال لم لم يمنعه ذلك أن عبدني، و يجاء بالغنّي فيقال له ما منعك أن تكون عبدتني فيقول يا ربّ كثرت لي من المال فيذكر ما إبتلى به فيجاء بسليمان فيقال ءأنت أغنى أم هذا فيقول بل هذا فيقول لم لم يمنعه ذلك أن عبدني.

و يجاء بالمريض فيقال له ما منعك أن تعبدني فيقول ربّ إبتليتني فيجاء بأيوّب عليه السلام فيقال ءأنت أشدّ ضرّاً و بلاءً أم هذا فيقول بل هذا فيقال لم لم يمنعه ذلك أن عبدني و يجاء بيائسٍ من رحمة اللّه بسبب عصيانه فيقال لم يئست من رحمتي فيقول لكثرة عصياني فيجاء بفرعون فيقال ءأنت كنت أكثر عصياناً أم هذا فيقول بل هذا فيقال له ما هو يائس من الرَّحمة الّتي وسعت كلّ شئٍ حيث أجرى كلمة التّوحيد على لسانه عند الفرق فيوسف حجّة على من إبتلى بالرّق و العبوديّة إذا قصر في حقّ اللّه و سليمان حجّة على الملوك و الأغنياء، و أيوب حجّة على أهل البلاء و فرعون حجّة على أهل اليأس.

و قد ورد في الحديث إذا أحَبَّ اللّه عَبداً صَبَّ عليه البلاء صَبّاً.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بما أجاب به يوسف الفتيين اللّذين سألاه عن المنام فقال لهما لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه و الطّعام كلّ جسمٍ يصلح للأكل و فيه طعم إلاّ أنّه يختلف بإضافته الى الحيوان و الرزّق العطاء الجاري في الحكم و كلمة، لا، للنفي **إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا** الإستثناء مُفرَّغ من أعمّ الأحوال و المعنى ليس يأتيكما طعامٌ في حالٍ من الأحوال إلاّ نبّأتكما، أي أخبرتكما بتأويله قبل أن يأتيكما بأن بيَّنت لكما ماهيّته من أيّ جنسٍ هو و مقداره و كيفيّته من اللَّون و الطَّعم و سائر أحواله قالوا و إطلاق التّأويل عليه بطريق الإستعارة فأنّ ذلك بالنسبة الى مطلق الطّعام المبهم بمنزلة التّأويل بالنظّر الى ما روي في المنام و شبيه له و قوله قبل أن يأتيكما أي قبل أن يصل الطّعام اليكما.

و المقصود من هذا الكلام هو أنّ يوسف أراد أن يدعوا الفتيين الى التّوحيد الّذي هو أولى بهما و أوجب عليهما مّما سألا منه و يرشدهما الى الإيمان و يزيّنه لهما قبل أن يسعفهما بذلك كما هو طريقة الأنبياء و الصُّلحاء في الهداية و الإرشاد و الشّفقة على الخلق فقدم ما هو معجزة من الأخبار بالغيب ليدلّهما على صدقه في الدّعوة و التّعبير و ذلك لأنّ الأنبياء و الأوصياء و الصلحاء من العلماء دائماً ينتهزون الفرصة لإرشاد الخلق قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **إغتنموا الفرص فأنّها تمرّ مرَّ السَّحاب**، و لا فرق في ذلك بين السِّجن و خارجه و حيث أنّ الإخبار عن الغيب من أظهر المعجزات عن العامّة و الخاصّة أشار يوسف عليه السلام بذلك و قال لهم ما قال و فيه دلالة على نبوّته ألا ترى أنّ عيسى عليه السلام أيضاً قال نظير ذلك لأمته في إثبات نبوّته حيث قال: **وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ في بُيُوتِكُمْ**[١] و قال بعضهم معنى ذلك أنّي عالمٌ بتعبير الرؤّيا إذ لا يأتيكما ما ترزقانه في منامكما إلاّ نبأتّكما بتأويله في اليَقظة.

و قيل أنّ الملك إذا أراد قتل إنسانٍ صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به اليه فعلى هذا يرزقانه في اليقظة.

إن قلت أنّهما سألاه عن تعبير الرّؤيا في المنام و أمّا ما أجابهما به يوسف فهو شئ آخر لا ربط له بالسّؤال فما الوجه في عدوله عنه به.

قلت لعلّه كره أن يعبّر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه لأحدهما فأعرض عن سؤالهما و أخذ في غيره و قيل علم يوسف أنّ أحدهما مقتول فدعاهما الى الإسلام ليسعدا به، و قيل أنّما قدّم هذا ليعلما ما خصَّه اللّه به من النبوّة ليقبلا الى الطّاعة و الإقرار بتوحيد اللّه ثمّ قال.

ذٰلِكُما مِمّا عَلَّمَني رَبّيَ إِنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ قال السُّدي فقالا أي الفتيان ليوسف هذا الّذي تقول هو

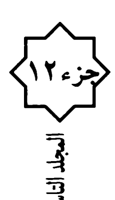
١- آل عمران = ٤٩

من فعل العرّافين و الكهنة فقال لهما يوسف ما أنا بكاهنٍ و أنّما ذلك ممّا علَّمني ربّي أنّي لا أخبركما به تكهنّاً و تنجيماً بل هو بوحيٍ من اللّه عزّ وجلّ و أنمّا قال ذلكما ولم يقل و ذلك لأنّ المشار اليه إثنان، التأويل للرّؤيا، و الإخبار عن الغيب.

قال بعض المفسّرين أنّه لمّا نبأهما بما يحمل اليهما من الطعام في السِّجن قبل أن يأتيهما و يصفه لهما و يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفة كذا وكذا قالا هذا من فعل العرّافين و الكهنة فقال في جوابهما ذلكما ممّا علّمني ربّي فكأنّه قالا له لماذا علَّمك ربّك العلوم البديعة فقال في جوابهما إنّي أي لأنّي تركت، أي رفضت، ملّة قوم، كان من قوم مصر و غيره **لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** أيْ أنّما علّمني اللّه تأويل ما سألتماني من الرّؤيا و غيره من العلوم لأجل إيماني باللّه و عدولي عن مسألة الكفّار و إعراضي عنهم لجحدهم البعث و النشور و الجزاء بالثّواب و العقاب **وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** هم الثّانية دخلت للتأكيد لأنّه لمّا دخل بينهما قوله: **بِالْاٰخِرَةِ** صارت الأولى كالملغاة و صار الإعتماد على الثانيّة كما قال: **وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**[1].

وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ اٰبَآئِيٓ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ مٰا كٰانَ لَنَآ أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنٰا وَ عَلَى النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لٰا يَشْكُرُونَ

الواو للعطف على ما سبق من قوله: **إِنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لٰا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ اٰبَآئِيٓ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ** و فيه إشارة الى أنّ ترك الكفّار لا يكفي في الإستعداد للإلهامات الغيّبية بل يلزم الإيمان باللّه و متابعة الأنبياء و العمل بالأحكام وغير ذلك و



١- النّمل = ٣

بعبارةٍ أخرى أنّما يعلّم اللّه العبد بما يعلّمه من تعبير الرّؤيا و الإخبار عن المغيبات و غيرهما من العلوم البديعة بعد أن يصل العبد الى مقام العبوديّة الكاملة و يستعدّ لقبولها و الوصول الى هذا المقام يتوقف على أمرين:

أحدهما: رفض الباطل من الكفر و الفسق و العصيان.

ثانيهما: متابعة الحقّ بسبب التّوحيد و العمل الصّالح و هذان الأمران قد حصلا لي.

أمّا الأوّل: فأنّي قد رفضت و تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون باللّه الى آخره.

الثّانى: فأنيّ إتَّبعت ملّة آبائي إبراهيم و إسحاق و يعقوب و هم كانوا من الأنبياء الموحدّين ما كان لنا أن نشرك باللّه من شيءٍ و هذا أي الرّفض أولاً و الإقبال الى الحقّ ثانياً صار باعثاً على أن علّمني ربّي من العلوم.

فما قال بعض المفسّرين في المقام من أنّ يوسف أراد بذلك أن يعرّف شرف نسبه و أنّه من أهل بيت النبوة لتكثير رغبتهما في الإستماع منه لا يرجع الى محصّل و أن كان هذا المعنى يفهم من كلامه إلاّ أنّه ليس بمقصودٍ بالأصالة قطعاً لأنّ مجرّد كون الإنسان من بيت الشّرف و التّقوى لا يوجب التّقرب الى اللّه و إعطاءه العلوم البديعة أيّاه و ذلك لأنّ كثيراً من أولاد الأنبياء لولا أكثرهم لم يكونوا في هذا المقام و كيف كان فالمعنى واضح.

و أمّا قوله: **ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى ٱلنَّاسِ** الى آخر الأية، ففيه إشارة الى أمورٍ ثلاثة:

الأوّل: قوله **مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا**

الثّانى: قوله **وَ عَلَى ٱلنَّاسِ**

الثّالث: قوله **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.**

أمّا الأوّل: ففيه إشارة الى أنّ الإيمان باللّه و معرفة صفاته و الإنقياد له ظاهراً بالعمل و باطناً بالنيّة و الإعتقاد أنّما هو من فضل اللّه و عنايته و توفيقه للعبد و ذلك لأنّه من أحسن النِّعم و لا شيئ أفضل منه و أنّما يصل النّبي الى مقام النُّبوة

و الوَّصي الى مقام الوصاية و المؤمن الى مقام القرب ببركة الإيمان و ذلك من فضل اللّه علينا حيث إصطفانا و أختارنا من الخلق فهذا أوّل الفضل و أصله.

ثانياً: جعلنا من بيت النُّبوة و التّقوى ولم يجعلنا في بيوت غيرهم و ذلك أيضاً فضل منه علينا و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تبارك و تعالى قد منَّ علينا بفضله وكرمه حيث جعلنا كذلك.

أمّا المقام الثّانی: و هو قوله: **وَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ففيه إشارة الى أنّ فضله عميمٌ و لا يختّص بشخصٍ دون شخصٍ أو قومٍ دون قوم بل فضله و رحمته يشمل جميع النّاس لأنّهم عباده و هو خالقهم و أنّما المانع منهم لا منه تعالى فأنّه بعث الأنبياء اليهم لإرشادهم و هدايتهم و إيصالهم الى الكمال و إنّما أنكر من أنكر لخبث طينته و سوء سريرته وعناده فأنّهم لم يخلقوا عاجزين عن قبول الإيمان.

أمّا الثّالث: و هو قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** الشُّكر تصَّور النعّمة و إظهارها و قيل هو مقلوبٌ عن الكثر أي الكشف و يضّاده الكفرنسيان النِّعمة و سترها و هو على ثلاثة أقسام:

شكر القلب و هو تصَّور النِّعمة.

و شكر اللّسان و هو الثّناء على المنعم.

و شكر سائر الجوارح و هو مكافاة النّعمة بقدر إستحقاقه و هو من أفضل الأقسام و أحسنها بل هو الشُّكر و ذلك لما ثبت في العلوم العقليّة أنّ الأثار متَّرتبة على الوجود الخارجي و أمّا الوجود اللّفظي و الذّهني و الكتبي لا أثر لَه إلاّ الحكاية عن الواقع و حيث أنّ الشّكر العملي في الحقيقة عبارة عن إيجاد الشُّكر في الخارج في قالب العمل فالأثار من الثّواب و الأجر متَّرتبة عليه و لصعوبة هذا الشُّكر قال اللّه تعالیٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**[1] أي الشُّكر العملي و أمّا اللّفظي والقلبي فلا صعوبة فيه فقوله و لكن أكثر النّاس لا يشكرون، ناظرٌ الى هذا القسم الأخير أعني العملي منه.

١- سبا = ١٣

إن قلت اذا كان الشّكر عبادة عن تصوّر النّعمة و إظهارها، فأيّ نعمةٍ في المقام لا يشكرون عليها.

قلت نعمة الدّين فأنّ الّله تعالى بعث الأنبياء لذلك و لكنّ أكثر النّاس أعرضوا عنه و أنكروا الأنبياء و الكتب المنزلة و إنكار الحقّ و عدم الإلتزام به قولاً و عملاً كفران النِّعمة و هو ضدّ الشّكر و هو واضح لا خفاء فيه.

يٰا صٰاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللّٰهُ ٱلْوٰاحِدُ ٱلْقَهّٰارُ

قيل الإضافة بمعنى في، و التّقدير يا صاحبي في السِّجن و قيل معناه يا ملازمي السّجن و الصّاحب يقال للملازم لغيره على وجه الإختصاص بوجهٍ من الوجوه وهو خلاف ملازمة الإتّصال و لذلك يقال أصحاب الشّافعي و أصحاب مالك و أصحاب أبو حنيفة و أصحاب غير هؤلاء لمن يختَّص بمذهبهم و هكذا أصحاب النّبي لملازمتهم له و الكون معه في حروبه.

لمّا ذكر يوسف ما هو عليه من الدّين القويم و أنّه ممّن لم يشرك باللّه تلّطف في حسن الإستدلال على فساد ما عليه قوم الفئتين من عبادة الأصنام فناداهما بإسم الصُّحبة في المكان الشّاق الذّي يخلص فه المودّة و يتَّمحص فيه النَّصيحة فليس في إستعمال هذه الكلمة و خطاب الكافر بالصاحب فضيلة للصّاحب و ذلك لأنّ الكافر لا يكون صاحباً للمؤمن واقعاً و أنّما يطلق الصّاحب عليه من حيث المصاحبة في المكان أي كونهما في مكانٍ واحدٍ و العجب من أهل السنّة و لا سيّما علماءهم من الفقهاء و المفسرين كيف يستدّلون على صحّة خلافة أبي بكر بأية الغار بتقريب أنّ النّبي قال لأبي بكر لا تحزن أنّ اللّه معنا، بعد قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم اذ قال لصاحبه.

و قد قال إبن تيّمة الحنبلي و هو من أشهر علماءهم في كتاب الّذي سمّاه بإحياء السُنّة أنّ هذا الكلام أعني قوله اذ قال لِصاحبه الخ من أحسن الفضائل لأبي بكر كيف لا و هو صلّى الله عليه وآله وسلّم عدَّه صاحباً لنفسه و لم يعلم هو و أمثاله و أتباعه

أنّ إطلاق الصّاحب على شخصٍ لو كان من أحسن الفضائل و أنّه أليق بـمقامه من غيره لكان قول يوسف يا صاحبي السّجن، من أحسن الفـضائل لهـما مـع أنَّهما كافرين نعوذ باللّه من هفوات الشياطين و من المعلوم أنّ مرض العـناد لا دواء له و للبحث فيه مقام أخر.

و نقول الحمد للّه الّذي جعلنا من المتمسكين بولاية علّي بن أبي طـالب و الأئمّة المعصومين من ولده و عليها نموت إن شاء اللّه.

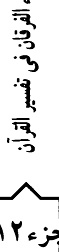
ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ أرباب جمع ربّ و الرَّب في الأصل التّربية و هو إنشاء الشّئ حالاً فحالاً الى حدّ التّمام يقال رَبَّه و رَبّاه و قيل لأن يُرَبّني رجلٌ من قريش أحبَّ إلَّي من يربّني رجلٌ من هوازنٍ فلارّب مصدرٌ مستعار للفاعل و لا يقال الرَّب مطلقاً إلاّ للّه المـتَّكفل لمـصلحة الموجودات بجميع شئونها قال اللّه تـعالىٰ: **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ** اذا ظَـهَر معنىٰ الرَّب و أنّ الرَّب المطلق هو اللّه تعالى فقوله: **ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ** قـيل في معناه أي أملاكٌ متّباينون خيرٌ أم المالك القاهر للجميع.

و عن الحسن أنّه قال متّفرقون من صغيرٍ و كبيرٍ و وسطٍ يعني الأوثان.

و قال قوم، معناه متَّفرقون بمباينةٍ كلّ واحدٍ للأخر بما يوجب النَّقصس نقل هذه الوجوه في التّبيان.

أقول الأحسن حمل المـتَّفرقين عـلى التَّـفرق الجـنسي و ذلك لأنّ الأصـنام التّي إتَّخذوها أرباباً لأنفسهم ثمّ عبدوها لم تكـن مـن مـادّةٍ واحـدة بـل كـانت مختلفة الموّاد من الخشب و الحديد و الذَّهب و الفضّة و غيرها.

إن قلت لا خير في الأرباب غير اللّه تعالى سواءٌ كانت مـتَّفرقين أم مـتَّفقين فما وجه تخصيصه بالذّكر لو لم يقل ءأربابٌ إتَّخذتموها خـير أم اللّـه الواحـد القهّار.

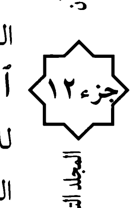


قلت التَّفرق في الأرباب من أدلّ الدلائل على بطلان الجميع لأنّ الرّب المطلق لا يصدق على الجميع و تخصيصه بواحدٍ منها ترجيح بلا مرَّجح ثمّ قال **أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** الإستفهام إنكارّي و المعنى أنّ اللّه الواحد القهّار خيرٌ و ذلك لأنّ الجماد و جوده و عدمه على حدٍّ سواء في هذا الباب و هكذا غيره من أقسام الموجودات فأنّ سوى اللّه كائناً ما كان مخلوق له و كلّ مخلوقٍ فقير و سيأتي البحث في هذا الباب مفصّلاً في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمٰآءً سَمَّيْتُمُوهٰآ أَنْتُمْ وَ اٰبٰآؤُكُمْ مٰآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ

ما، نافية و المعنى لستم تعبدون من دون اللّه إلاّ أسماء سمّيتموها، أي لا تعبدون إلاّ ما سمّيتموه ربّاً من عند أنفسكم أنتم و أباءكم الذّين تقتدون بهم في عبادة الأوثان و ذلك لأنّ الأسماء التّي سمّوا بها ألهتهم لا تصحّ معانيها فأنّها أسماء فارغة، خالية عن المعاني فكأنّهم أنّما يعبدون الأسماء مجرَّدةً عن المعاني من إلهٍ و ربٍّ.

و أن شئت قلت لا مصداق لها في الخارج تحت عنوان الرَّب و ما كان كذلك فلا وجود له أصلاً فصارت عبادتهم عبادة الألفاظ و الحروف **مٰآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ** أي لم ينزل على صحّة ما تدعونه حجّة و لا برهاناً من العقل فهي باطلة في حدّ أنفسها و لو كانت صحيحة لكان عليها دليل **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** إن، نافية أي ليس الحكم إلاّ له تعالى و أنّما قال للّه و لم يقل، له للإشارة الى أنّ كلمة، **اللّه**، علمٌ للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة من العلم و القدرة و الحياة و غيرها من الصّفات.



أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ أي أمر اللّه ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه و أنما لم يقل ألاّ تعبدوا غيره، و قال إيّاه لإفادة الحصر و أنّ المعبود منحصرٌ به و هذا أعني به

الإنحصار لا يستفاد من غيره اذ من الممكن أن لا يعبد الإنسان غيره و لا يعبد أيضاً و المراد بالأمر في المقام التّشريعي منه لا التّكويني اذ لو كان الأمر تكوينياً لزم الجبر.

ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ أي ذلك الدّين المستقيم الذّي لا عوج فيه و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون، لعدولهم عن الحقّ و النّظر و الإستدلال ثمّ أنّ الدّين المستقيم في جميع الأزمان واحد و هو التّوحيد و النّبوة و المعاد و أصول التكاليف المقررة و أنّما الإختلاف في الأديان بحسب الفروه و كيفيّة العبادات و يعبّر عن جميعها بدين الإسلام كما قال تعالى: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلاٰمُ**.

و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ الإختلاف في الأديان الإلهيّة بحسب الكميّة أو الكيفيّة أنّما هو لأجل التّفاوت الموجود و الإستعدادات المختلفة في الأمم و قد ثبت أنّ اللّه تعالى جعل الأديان في كلّ عصرٍ و زمانٍ على هذا الأساس كما هو مقتضى العدل و الحكمة.

قال بعض أهل التّحقيق أنّ ما سوى اللّه كائناً ما كان في معرض الزّوال و الفناء و العاقل لا يتبع الزّائل الفاني بل يتبع الباقي بعد فناء كلّ شئٍ و هو اللّه تعالى الذّي خلق الإنسان و جعله مظهراً لأسماءه و صفاته و حيث أنّ المتابعة و الإنقياد لخالقه لا يتّحقق إلاّ بإطاعة أوامره و نواهيه المعبّر عنها في لسان الشّريعة بالدّين فلا جرم ينبغي به التّعبد بأحكامه و العمل بمقتضاه خالصاً لوجه اللّه و التّجنب عن الشّرك الجلّي و الخفّي و هو الإخلاص التّام الباعث الى وصول العبد الى مقام القرب.



يٰا صٰاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمّٰآ أَحَدُكُمٰا فَيَسْقى رَبَّهُ خَمْرًا وَ أَمَّا ٱلْاٰخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذي فيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بما أجاب به يوسف للفئتين اللّذين سألاه عن الرُّؤيا فقال يا صاحبي السّجن أي يا صاحبي فيه أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً،

يعني سيّده و مالكه و هو الَّذي كان صاحب شرابه و قال له أنّي أراني أن أعصر خمراً كأنّه قال له أنت كذلك و فيه إشارة الى خلاصه من السّجن و إشتغاله بما كان مشتغلاً به قبله و هو سقاية الخمر للملك و أنّما أجرى عليه صفة الرّب لأنّه مضاف، لا مطلق كما يقال ربّ الدّار و ربّ الفرس قال عبد المطلّب لأصحاب الفيل، أنا ربّ الإبل و للبيت ربٌّ و أنّما قال أمّا أحدكما و لم يعيّنه لدلالة التَّعبير عليه.

و نقل أنّ يوسف قال له ما أحسن ما رأيت أمّا حسن الحبلة و هي أصل من أصول الكرم فهو حسن حالك و سلطانك و عزّك و أمّا القضبان الثّلاثة فثلاثة أيّام تمضي في السِّجن ثمّ يوّجه الملك اليك عند إنقضائهنّ فيردّك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن.

و أمّا الأخر و هو الخبّاز، فيصلب فتأكل الطّير من رأسه.

روي أنّه عليه السلام قال له بئس ما رأيت أمّا خروجك من المطبخ فخروجك من عملك و أمّا السّلال الثّالث فثلاثة أيّام تمُر ثمّ توّجه الملك اليك عند إنقضائهنّ فيصلبك فتأكل الطّير من رأسك.

روي أنّ صاحب الصَّلب قال ليوسف، ما رأيت شيئاً، فقال يوسف قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان و هذا يدلّ على أنّه كان ذلك بوحيٍ من اللّه فقوله، قضي الأمر، أي فرغ منه و أتَّم و أحكم و هو ما رأياه من الرُّؤيتين و قوله تستفتيان، أي تطلبان فتواه و تأويله، و بالجملة كان الأمر كما أخبر به يوسف حيث أخرج الملك صاحب الشّراب منه و ردَّه الى مكانه و خلع عليه و أحسن اليه لما تبَّين له حاله في الأمانة و أخرج الخبّاز و نزع ثيابه و جلَّده بالسيّاط حتّى مات لما ظهر عنده خيانته و صلبه على قارعة الطّريق و أقبلت طيور سود فأكلت من رأسه و هو أوّل من إستعمل الصَّلب ثمّ إستعمله فرعون موسى بعده.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

أي قال يوسف لصاحب الشّراب الذّي ظنَّ أنّه ناج منهما أي من الفئتين أذكرني عند ربّك، قيل الظّن هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى: **ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ**[1].

و قال قتادة الرُّؤيا الظّن، وقال غيره إلاّ رُؤيا الأنبياء فأنّها يقين، و الظّن هو ما قوي عند الظّان كون المظنون على ما ظنّه مع تجويزه أن يكون على خلافه، و النَّجاة هي السَّلامة و قوله عند ربّك، أي عند سيّدك و المعنىٰ أنّ يوسف قال للّذي علم أنّه ناجٍ من الفئتين و المراد به هو صاحب الشّراب أذكرني عند ربّك و سيّدك قيل أنّماً سأله أن يذكره عند سيّده بخيرٍ و يعرّفه علمه و ما حضّه اللّه من الفضل و العلم ليكون سبب خلاصه و الذِّكر حضور المعنى في النّفس.

فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ الظّاهر أنّ مرجع الضّمير في قوله، و أنساه، هو الشّرابي الّذي نجى من السِّجن فقال له يوسف عند خروجه ما قال و المعنى أنّ الشيطان أنساه بوسوسته و إلقاءه في قلبه أشغالاً تعوقه عن الذِّكر و إلاّ فالإنساء في الحقيقة للّه تعالى قيل والفاء في قوله: **فَأَنسَىٰهُ** للسَّببية أي كان سبب الإنساء، هو توّجه يوسف بغيره تعالى من المخلوق كأنّه قيل لم أنساه الشيطان، قيل لأجل التَّمسك و التَّوصل الى غير ربّه هذا و للأية تأويل أخر ذكره بعض المحقّقين.

و هو أنّ قوله: **ظَنَّ** أي ظنَّ النّاجي و ذلك لأنّ الرَّجلين السَّائلين ما كانا مؤمنين بنبّوة يوسف و رسالته و لكن كان إعتقادهما فيه حسناً و عليه فقول يوسف في تعبيره الرُّؤيا لم يعد في حقّهما إلاّ مجرّد الظّن و بعبارةٍ اخرى أنّ الفئتين لم يتّيقنا بتعبير يوسف لرؤياهما بل ظنّا بصحّته لحسن ظنّهما به

١- الحاقّة = ٢٠

فالمعنى قال يوسف للّذي ظنَّ بصداقة يوسف في تعبيره أنّه ناج من السِّجن أذكرني عند ربّك فالظّن تعلّق بالنّاجي لا بيوسف فلا نحتاج الى أن نقول إنّ الظَّن في المقام بمعنى العلم.

و قال في قوله: **فَأَنْسيٰهُ ٱلشَّيْطٰانُ** الضّمير في أنساه يرجع الى يوسف لا الى النّاجي أي أنّ الشّيطان أنسى يوسف عن درك ربّه حيث قال للنّاجي أذكرني عند ربّك ثمّ أنّه ذكر في إثبات ما إدَّعاه من كون الظّان هو الفتى و مرجع الضّمير في أنساه هو يوسف وجوهاً:

أحدها: أنّ مصلحته كانت في عدم رجوعه في تلك الواقعة الى أحدٍ من المخلوقين.

و أن يقتدي بجدّه إبراهيم حيث قال في جواب الملك أليك حاجة، أما اليك فلا و لمّا عدل يوسف عن طريقة جدّه الّتي هي طريقة جميع الأنبياء و لا جرم وصف اللّه ذلك بأنّ الشّيطان أنساه ذلك التّفويض و التّوحيد و دعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين فبقي لذل السّبب في السّجن بضع سنين، و حاصله أنّ رجوعه الى المخلوق صار سبباً لأمرين:

أحدهما: إستيلاء الشّيطان عليه حتّى أنساه ذكر ربّه.

الثّانى: أنّه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدّةً طويلة.

ثانيها: أنّه قال في إبطال عبادة الأوثان **ءَأَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللّٰهُ ٱلْوٰاحِدُ ٱلْقَهّٰارُ** ثمّ هاهنا يتّوسل الى غير اللّه الواحد القهّار و يثبت ربّاً غير الرّب بظاهر الأمر.

ثالثها: أنّه نفي الشّرك في قوله: **مٰا كٰانَ لَنٰآ أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ** و معنى نفيه على الإطلاق هو تفويض الأمور بالكليّة الى اللّه تعالى فقوله أذكرني عند ربّك كالمناقض له هذه خلاصة ما ذكره المستدلّ في المقام.

و نحن نقول ما ذكره المشهور من المفسّرين و نقلناه في صدر الآية أولى ممّا ذكره هذا القائل لوجوهٍ:

أمّا أوّلاً: فلأنّه خلاف ظاهر الآية فأنّ ظاهر الكلام هو أنّ الظّان هو يوسف و مرجع الضّمير في، أنساه هو النّاجي و هذا هو المشهور بين المفسّرين.

ثانيها: أنّ لازم ما ذكره المستدّل هو القول بجواز تسّلط الشيطان على الأنبياء و لا يقول به مسلمٌ عرف معنى العصمة فيهم و بعبارةٍ أخرى يستفاد من كلام القائل أنّ يوسف لمّا عدل عن طريقة جدّه إبراهيم في رجوعه الى المخلوقين فكأنّه عاقبه اللّه بتسليط الشيطان عليه حتّى أنساه ذكر اللّه تعالى و قد قال اللّه تعالى حكايةً منه: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**[1].

و هذا صريح في أنّ الشّيطان لا يقدر على إغواء المخلصين، و أيُّ مخلصٍ أخلص من النّبى:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ**[2].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا**[3].

قال اللّه تعالى: **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**[4].

فهذه الأيات و أمثالها كما ترى تنادي بأعلىٰ صوتها على أنّ الشيطان ليس له سلطان إلاّ على الغاوين و ليس له سُلطان على المخلصين و المتوكلين على اللّه و من المعلوم أنّ الأنبياء من جهة الخلوص و التّوكل في رأس البشر بل لا يقاس أحدٌ بهم فكيف يعقل أن يكون الشيطان مسلَّطاً على يوسف فأنساه ذكر اللّه و قد ثبت أنّه كان من الأنبياء و الحاصل أنّ صرف وسوسة الشّيطان الى ذلك الرّجل النّاجي أولى من صرفه الى يوسف النّبي حتّى نحتاج الى التّويلات الباردة التّي لا تقبلها العقول المستقيمة.

١- ص = ٨٢ / ٨٣
٢- الحجر = ٤٢
٣- الإسراء = ٦٥
٤- النّحل = ٩٩ / ١٠٠

و أمّا قوله: **فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** فأنّ البضع قطعة من الدَّهر و قيل البضع من الثّلاث الى العشر، و قيل هو التّسع و قيل السّبع و هكذا و أمّا اللبث في المكان هو الكون فيه.

قال بعض المفّسرين روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم:

أنّه قال رحم اللّه أخي يوسف لو لم يقل أذكرني عند ربّك لما لبث في السّجن سبعاً بعد الخمس انتهى.

و لذلك قالوا أنّه لبث فيه أثنتي عشرة سنة عدد حروف، أذكرني عند ربّك، فصاحباه اللّذان دخلا معه السّجن بقيا محبوسين فيه خمس سنين ثمّ رأيا رؤياهما قبل إنقضاء تلك المدّة بثلاثة أيّام و في هذا العدد كمال القوّة و التّأثير كالأئمّة الأثنى عشر على عدد البروج الأثنى عشر و ملائكة البروج الأثنى عشر أئمّة العالم و العالم تحت إحاطتهم و في الخبر إشارة الى قوّة هذا العدد معناً اذ أثني عشر ألفاً لن يغلب عن قلّةٍ أبداً و لا إله إلاّ اللّه، أثني عشر حرفاً وكذا محمّد رسول 'اللّه و لكلّ حرفٍ ألف بابٍ فيكون للتّوحيد أثني عشر ألف بابٍ حبس اللّه يوسف في السّجن أثني عشر عاماً لتكميل وجوده بكمالات أهل الأرض و السّماء ففي العدد المذكور إشارة اليه مع إخوته الأحد عشر فله القوّة الجمعيّة الكماليّة هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

و لتوضيح المقال و حسن الختام نذكر في الباب ما ورد في تفسيره من الأئمّة الأطهار عليهم سلام اللّه الملك القهّار فنقول:

فعن تفسير العيّاشي عن طربال عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال لمّا أمر الملك بحبس يوسف الى قوله ثمّ قال للّذي ظنَّ أنّه ناج منهما أذكرني عند ربّك، ولم يفزع يوسف في حاله الى اللّه فيدعوه فلذلك قال اللّه فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السِّجن بضع سنين، قال عليه السلام فأوحى اللّه الى يوسف في ساعته تلك، يا يوسف من أراك

الرُّؤيا التّي رأيتها فقال أنت ياربّي، قال فمن حبَّبك الى أبيك قال أنت ياربّي، قال فمن وجَّه السّيارة اليك قال أنت ياربّي، قال فمن علَّمك الدُّعاء الذّي دعوت به حتّى جعل لك من الجبّ فرجاً، قال أنت ياربّي، قال فمن جعل لك من كيد المرأة مخرجاً.

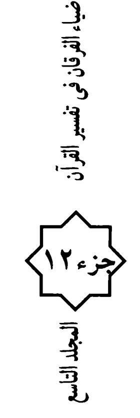
قال أنت يا ربّي، قال فمن أنطق لسان الصّبي بعذرك، قال أنت يا ربّي قال فمن ألهمك تأويل الرُّؤيا قال أنت يا ربّي، قال فكيف إستغثت بغيري ولم تستغث بي وتسألني أن أخرجك من السِّجن و إستغثت و أملت عبداً من عبادي ليذكرك عند مخلوق من خلقي و هو في قبضتي ولم تفزع إلّي إلبث في السّجن بذنبك بضع سنين بإرسالك عبداً الى عبدٍ انتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن شعيب العقرقوفي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال أنّ يوسف أتاه جبرئيل فقال له يا يوسف أنّ ربّ العالمين يقرؤك السّلام ويقول من جعلك أحسن خلقه قال عليه السلام فصاح يوسف و وضع خدّه على الأرض ثمّ قال أنت يا ربّ، ثمّ قال، و يقول لك من حبَّبك الى أبيك دون إخوتك، قال عليه السلام فصاح و وضع خدّه على الأرض وقا أنت ياربّ، قال، ويقول لك من أخرجك من الجبّ بعد أن طرحت فيها و أيقنت بالهلكة فصاح و وضع خدّه على الأرض ثمّ قال أنت يا ربّ، قال فأنّ ربّك قد جعل لك عقوبة في إستغاثتك بغيره فألبث في السِّجن بضع سنين، قال عليه السلام فلمّا إنقضت المدّة و أذن اللّه له في دعاء الفرج وضع خدّه على الأرض ثمّ قال اللّهم أن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فأنّي أتَّوجه اليك بوجه أبائي الصّالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ففرّج اللّه عنه.

قلت – جعلت فداك أندعوا نحن بهذا الدّعاء فقال عليه السلام أدع بمثله اللّهم أن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فأنّي أتّوجه اليك بنبيّك بنيّ الرَّحمة محمّد و علّي و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمّة عليهم السّلام انتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدرايّة و يستفاد منها أنّ لبثه في السّجن بضع سنين كان لأجل إستغاثته بغير اللّه و هو من الذّنوب في حقّ الأنبياء و الأوصياء لمكان عصمتهم و أنّ لم يعد من الكبائر في حقّنا و ذلك لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقربين فهو في حقّهم في الحقيقة من ترك الأولى و منشأه القصور لا التّقصير و على هذا يحمل في حقّهم في جميع الموارد و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

■



وَ قالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيَ أَرىٰ سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يآ أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُوني في رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قالُوٓا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلامِ بِعالِمينَ ﴿٤٤﴾ وَ قالَ ٱلَّذي نَجا مِنْهُما وَ ٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْويلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدّيقُ أَفْتِنا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأَبًا فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِٓ إِلّا قَليلًا مِمّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلّا قَليلًا مِمّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ ٱلنّاسُ وَ فيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَ قالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُوني بِهِ فَلَمّا جآءَهُ ٱلرَّسُولُ قالَ ٱرْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللّاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبّي بِكَيْدِهِنَّ عَليمٌ ﴿٥٠﴾ قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلّٰهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوٓءٍ قالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصّادِقينَ ﴿٥١﴾ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّي

لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخٰائِنِينَ ﴿٥٢﴾

◀ اللّغة

ٱلْمَلِكُ ملك بفتح الميم وكسر اللاّم القادر الواسع الّذي اليه السيّاسة و التدبير في أمور النّاس في المملكة.

بَقَرٰاتٍ بفتح الباء و القاف جمع بقرة.

سِمٰانٍ بكسر السّين جمع سمينة، نعتٌ لبقرات، والسّمن زيادة في البدن من الشّحم و اللَّحم.

عِجٰافٌ العجف يبس الهزال و الأنثى منه عجفاء و الجمع عجاف و القياس منه عجف لأنّ أفعل و فعلاء لا يجمع على فعال لكنّه حمل على نقيضه سمان، و العجف الهزال و الأعجف المهزول.

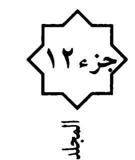
سُنْبُلاٰتٍ خُضْرٍ سنبلات بضمّ السّين و سكون النّون و ضمّ الباء جمع سنبل كذلك و قيل أنّها جمع، سنبلة، و خُضر، بضمّ الخاء و سكون الضّاد والرّاء جمع خضرة.

يٰابِسٰاتٍ واحدها يابسة يقال أيبس العود، زالت رطوبته فاليابس ضدّ الرّطب.

ٱلْمَلَأُ بفتح الميم و اللاّم الجماعة.

رُؤْيٰايَ الرُّؤيا ما يراه الإنسان في المنام.

أَضْغٰاثُ أَحْلاٰمٍ أضغاث بفتح الألف جمع ضغث بكسر الضّاد و سكون الغين و هو الحزمة من الحشيش أي قبضة منه مختلطة الرّطب باليابس و الأحلام جمع حلم، بضمّ اللاّم و سكونها و هي الرُّؤيا الكاذبة.



وَ ٱدَّكَرَ الإدّكار طلب الذّكر و مثله التّذكر و وزنه الإفتعال من الذّكر و أصله الإذتكار فقلبت التّاء ذالاً و أدغمت فيها الدّال على أصل إدغام الأوّل في الثّاني و يجوز، إذَّكر، على تغليب الأصلي على الزّائد.

أُمَّةٍ بضمّ الألف الجماعة.

أُنَبِّئُكُمْ من النّبأ و هو الخبر أي أخبركم.

تَزْرَعُونَ من الزَّرع و الزّراعة.

دَأَبًا الدّأب بفتح الدّال إستمرار الشّيئ و قيل معناه العادة يقال دأبه كذا أي عادته.

حَصَدْتُمْ الحصد قطع الزّرع.

فَذَرُوهُ أي إتركوه.

تُحْصِنُونَ الإحصان الإحراز يقال أحصنه إحصاناً اذا أحرزه.

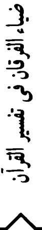
يُغَاثُ الغوث النَّفع الّذي يأتي على شدّة حاجةٍ ينفي المضّرة.

يَعْصِرُونَ أصل العصر عصر العنب و منه العصارة وهي ما يخرج بالعصر.

حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أي بان الحقّ يقال حصحص الأمر أي حصل على أمكن وجوهه.

أَخُنْهُ من خان يخون و الخيانة مخالفة العهد في السِّر و قيل مخالفة الحقّ و ضدّها الأمانة.

الْغَيْبِ بفتح الغين من غاب يغيب و الغيب مقابل الشّهود.



◀ الإعراب

سِمَانٍ صفة لبقرات و يجوز في الكلام نصبه نعتاً لسبع و يَأْكُلُهُنَّ في موضع جرّ أو نصبٍ على ما ذكرناه و مثله خُضْرٍ، لِلرُّؤْيَا قيل اللاّم فيه زائدة تقوية للفعل لما تقدَّم مفعوله عليه نَجَا مِنْهُمَا في موضع الحال من ضمير الفاعل و يجوز أن يكون حالاً من الّذي ٱدَّكَرَ أصله اذتّكر فأبدلت الذّال دالاً والتّاء دالاً

أيضا ثمّ أدغمت الأولى في الثّانية ليتّقارب الحرفان دَأَبًا منصوب على المصدر.

◀ التّفسير

حكى اللّه تعالى في هذه الآية ما رأه الملك و هو ملك مصر الّذي كان يوسف في حبسه في المنام و هو قوله تعالى: **وَ قَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ** أي قال الملك رأيت في المنام **سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ** أي بقرات تتّصف بالسّمن و هو ضدّ الهزال **يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ** أي مهازيل و رأيت أيضاً **سَبْعَ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ** أي جماعة الأشراف و العلماء **أَفْتُونِى** أي عبّروها و بيّنوا لي حكمهايؤل اليه من العاقبة **إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** أي تَعلمون التّعبير وهو الإنتقال من الصُّور الخياليّة المشاهدة في المنام ما هو صورة أمثلةٍ لها من الأمور الأفاقيّة و الأنفسيّة الواقعة في الخارج فالتعبير الجواز من صورة ما رأى الى أمرٍ أخر من العبور و هي المجاورة.

و قيل التّعبير و العبارة نقل معنى التّأويل الى نفس السّائل بالتّفسير و هي من عبور النّهر و غيره و منه المعبّر و أنّما دخلت اللاّم في قوله: **لِلرُّؤْيَا** مع أنّ الفعل يتّعدى بنفسه لأنّه اذا تقدَّم المفعول أضعف عمله فجاز إدخال حرف الإضافة لهذه العلّة و لا يجوز يعبرون للرُّؤيا لأنّه في قوّة عمله.

قال بعض المفسّرين و إعلم أنّ الرُّؤيا تطلب التّعبير لأنّ المعاني تظهر في الصُّور الحسيّة منزلة على المرتبة الخياليّة.

أقول روي أنّه لمّا دنى فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه التّي حكاها اللّه تعالى فنزل جبرئيل على يوسف و سلَّم عليه ثمّ بشَّره بالفرج و قال له أنّ اللّه مخرجك من سجنك و ممكنٌ لك في الأرض يذلّ لك ملوكها و يطيعك جبابرتها و معطيك الكلمة العليا على إخوتك و ذلك بسبب رؤيا رأها الملك و

هي كيت و كيت و تأويلها كذا و كذا فما لبث في السّجن أكثر ممّا رأى الملك الرُّؤيا حتّى خرج فجعل اللّه الرُّؤيا أوّلاً ليوسف بلاءً و شدّةٍ و جعلها أخراً بشرى روحمةً و ذلك أنّ الملك الأكبر الرّيان بن الوليد رأى في نومه كأنّما خرج من نهرٍ يابسٍ سبع بقرات سمان في أثرهنّ سبع عجاف أي مهازيل و قد أقبلت العجاف على السِّمان فأخذف بإذانهنّ فأكلنهنّ إلاّ القرنين، و رأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهنّ سبع يابسات فأكلنهنّ حتّى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيئ و هنّ يابسات و كذلك البقر كنّ عجافاً فلم يزد فيهنّ شيئ من أكلهنّ السِّمان فهالته الرُّؤيا فأرسل الى النّاس و أهل العلم منهم و البصر بالكهانة و النّجامة و العرّافة و السحر و أشراف قومه فقال يا أيّها الملاء أفتوني في رؤياي فقصَّ عليهم الرُّؤيا.

فقال القوم أضغاث أحلامٍ، و هي الكاذبة المخطئة من الرُّؤيا و قيل في معناه، أخلاط أحلام، و الضِّغث بكسر الضّاد في اللّغة الحزمة من الشّئ كالبقل و الكلاء و مات أشبههما أي ليست رؤياك ببيّنة و الأحلام الرُّؤيا المختلطة.

و قال مجاهد أضغاث الرُّؤيا أهوايلها.

و قال أبو عبيدة الأضغاث ما لا تأويل له و الى هذا المعنى أشير بقوله:

قَالُوٓا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ

نفوا عن أنفسهم علمً ما لا تأويل له لا أنّهم نفوا عن أنفسهم علم التّأويل مطلقاً.

و قيل أنّهم لم يقصدوا تفسيراً و أنّما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله و الحقّ أنّهم عجزوا عن تعبيرها لا أنّهم علموا و لم يعبّروها مع ما فيه من التّقرب و المكانة عند الملك ولم تكن الرّؤيا هائلةً موحشةً ليكتموها عن الملك و قد مرَّ في شرح اللّغات أنّ **الأحلام** جمع، **حُلم** بضمّ الحاء و هو ما يراه النّائم و أنّما قيل ذلك لأنّ النّوم حالة أناة و سكون ودعةٍ، و أصل الحلم الأناة.

وَ قَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ ٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ

وَ قَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا أي من الفتيين اللّذين دخلامعه السّجن أحدهما ساقي الملك و الأخر كان خبّازاً و السّاقي نَجا من السّجن و الخبّاز صلب ثمّ أنّ السّاقي و هو الّذي قال له يوسف أذكرني عند ربّك فأنساه الشّيطان كان حاضراً في مجلس الملك فلمّا رأىٰ عجز الملاء عن تعبير رؤياه، و إذّكر، أي تذكر حاجة يوسف و هي قوله أذكرني عند ربّك بعد أمّةٍ أي بعد حينٍ، و أصله الجملة من الحين و قيل الأمّة لا تكون الحين إلاّ على حذف المضاف و إقامة المضاف اليه مقامه كأنّه قيل بعد حين أُمّةٍ أو بعد زمن أمّةٍ و الأمّة الجماعة الكثيرة من النّاس.

قال الأخفش هو في اللّفظ واحد و في المعنىٰ جمع و كلّ جنسٍ من الحيوان أمّة و روي عن إبن عبّاس أنّه قَرأ بعد أمةٍ بفتح الهَمزة وتخفيف الميم بمعنى النّسيان و عليه فالمعنى فإدَّكر بعد نسيانٍ و منه قول الشّاعر:

أمهت و كنت لا أنسىٰ حديثاً كذاك الدَّهر نودي بالعقول

و قوله: **أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** أي قال السّاقي لهم أنا أُخبركم بتأويل رؤيا الملك فأرسلون أي فأبعثوني حتّى أبحث عنه و أخبركم به و أنّما قال ذلك لهم لأنّه كان عالماً بأنّ يوسف يعبّر الرُّؤيا كما هو حقّه.

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ

حكى اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن الّذي نَجا منهما و هو السّاقي أنّه جاء الىٰ يوسف في السّجن بعد أن قال لهم أبعثوني، وقال له يا يوسف، حذف حرف النّداء لأنّه إسم علم و الصِّديق بكسر الصّاد الكثير التّصديق بالحقّ للأدلّة عليه و كلّ نبيّ صدّيق بهذاالمعنى، أفتنا، أمرٌ من الإفتاء أي أخبرنا عن حكم هذه الرُّؤيا

في المنام قالوا الفتيا جواب عن حكم المعنىٰ و أمّا الجواب عن نفس المعنى فلا يسمّىٰ به و لذلك خصّ الفتوىٰ بالجواب عن الأحكام الشّرعية و المفتي بالفقهاء الواجدين لشرائط الفتوى فيقال هذا ما أفتىٰ به فلان، أو فتوى فلان.

و محصّل الكلام أنّ المفتي يبيّن أحكام اللّه تعالىٰ في الشّريعة على أساس إجتهاده و إستنباطه و لا يقول فيها عن نفسه ففي قوله ليوسف، أفتنا، دون أخبرنا، مع وحدة المعنى إشارة الىٰ ما ذكرناه و هو أنّ يوسف لا يخبرهم عن نفسه بل يخبرهم عن اللّه و ذلك لأنّ يوسف قال له ولصاحبه في تعبيررؤياهما، ذلكما مما علّمني ربّي، و قال في موضع أخر قضي الأمر الذّي فيه تستفتيان و فيه إشارة بل دلالة على أنّه كان يخبرهم عن اللّه و علىٰ هذا قال له أفتنا.

و من المحتمل أن يكون السّاقي ممّن أمن به سرّاً و لم يظهر إيمانه خوفاً من الملك و كيف لمّا طلب منه بيان حكم الرُّؤيا في سبع بقراتٍ يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلاتٍ خضرٍ و أخر يابسات ليرجع الى المَلاء أو جميع النّاس و يعلّمهم به أي بتعبير لارُّؤيا أو بمكانته و منزلته في العلم و إخباره عن الغيب أجاب به يوسف كما حكى اللّه عنه بقوله.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ

لمّا أعلمه السّاقي بالرُّؤيا جعل يوسف يفسّرها له فقال **تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ** الزّرع طرح الحبّ في الأرض بالدّفن مع التّعاهد له بالسّقي و سنين جمع سنة و كلّ سنةٍ أثني عشر شهراً و قوله: **دَأَبًا** أي مستمراً و ما، في ما حصدتم موصوله و الحصادة و الحصد قطع الزّرع.

و محصّل المعنى أنّ السّبع من البقرات السّمان و السُّنبلات الخضر سبع سنين، مخصبات، و أمّا البقرات العجاف و السُّنبلات اليابسات فسبع سنين، مجدبات فقوله: **تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا** أي متوالية متتابعة، فما حصدتم،



أي قطعتم من الزّرع فذروه في سنبله، أي إتركوه لئلا يتّسوس و ليكون أبقىٰ إلاّ قليلاً ممّا تأكلون، أي إستخرجوا ما تحتاجون اليه بقدر الحاجة و هذا القول منه أمرٌ:

الأوّل: خبر قال بعض المفسّرين هذه الآية أصلٌ في القول بالمصالح الشّرعية التّي هي حفظ الأديان و النّفوس و العقول و الأنساب و الأموال فكلّ ما تضّمن تحصيل شيءٍ من هذه الأمور فهو مصلحة و كلّ ما يفوّت منها شيئاً فهو مضّارة و دفعه مصلحة و لا خلاف أنّ مقصود الشّرائع إرشاد النّاس الى مصالحهم الدُّنيوية ليحصل لهم التّمكن من معرفة اللّه و عبادته الموصلتين الىٰ السّعادة الأخرّوية و مراعاة ذلك فضلٌ من اللّه عزّ وجّل و رحمةٌ رحم به عباده

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمّا تُحْصِنُونَ

هذا تمام حكاية ما فسَّر به الرُّؤيا يوسف و حاصله أنّه يجئ بعد هذه السّنين التّي زرعتم فيها و حصدتم سبع سنين أخر شداد و هي جمع شديدة يعني السسّنين المجدبات يعبّر عنها بالقحط، يأكلن أي يأكل أهلهنّ ما قدَّمتم، أي ما إدخرتم لهنّ و لأجلهنّ أضاف الأكل الىٰ السّنين لأنّها بمنزلة ما يأكل ذلك لوقوع الأكل فيها كما يكون الأكل في الأكل قال الشّاعر:

نهارك يا مغرور سهوٌ وغَفلةٌ ... وليلك نومٌ والرّديُ لَك لازمُ

و من المعلوم أنّ النّهار لا يسهو واللّيل لا ينام و أنّما يسهى في النّهار و ينام في اللّيل حكى بعضهم أنّ يوسف كان يضع طعام الأثنين فيقّربه الىٰ رجلٍ واحدٍ فيأكل بعضه حتّىٰ اذ كان يوم قَرَّبه له فأكله كُلّه فقال يوسف هذا أوّل يومٍ من السّبع الشّداد **إِلَّا قَلِيلًا مِمّا تُحْصِنُونَ** أي ممّا تحبسون لتزرعوا لأنّ في إستبقاء البذر، تحصين الأقوات و قيل معناه تدَّخرون، و قيل تحرزون و المأل في الكلّ واحد.

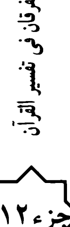
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ

قَرأ الكسائي، **تعصرُون** بالتّاء علىٰ اخطاب أي أنتم و الباقون بالياء علىٰ الرّجوع الىٰ النّاس، و المعنىٰ ثمّ يأتي على النّاس بعد السّبع الشّداد الفرج و ذلك لأنّ فيه، **يُغَاثُ ٱلنَّاسُ** أي يمطرون، فأنّ الغوث النَّفع الّذي يأتي علىٰ شدّة حاجةٍ ينفي المضّرة و الغيث المطر الّذي يجئ في وقت الحاجة و قوله يغاث، يحتمل أن يكون من الغيث و يحتمل أن يكون من الغوث و العام السّنة مأخوذ من العوم و الحاصل أنّ هذا الكلام حكاية ما بشَّر به يوسف المستفتي له أنّه يأتي بعد هذه السّنين الصّعبة عامٌ أي سنة فيها راحة النّاس من جهة المعيشة و فيه يعصرون، أي يعصرون الثّمار الّتي تعتصر في الخصب من العِنب و الزّيتون و السّمسم و قيل معناه تحلبون.

و قال بعضهم في قوله: **يَعْصِرُونَ** أي ما شأنه أن يعصر من الفواكه لكثرتها، و أنّما كرّر فيه، لأنّ الغيث و الغوث من فعل اللّه و العصر من فعل النّاس و أحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك و أنّما هي من جهة الوحي فبَّشرهم بها و هذا هو الذّي أخبر به يوسف حيث قال ذلكما ممّا علَّمني ربّي.

وأنا أقُول العبد و ما في يده كان لمولاه و اذا كان كذلك فينبغي أن يصرف ما في يده في طريق رضاه تبارك و تعالىٰ لأنّه المعطي و المفيض يعطي من يشاء ما يشاء و يمنع كذلك.

أزمّــةُ الأُمـور طـرّاً بـيَده   والكُل مُستّمدةُ من مَـدَده



وَ قَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

لمّا فسَّر يوسف رؤيا الملك للسّاقي فرجع الى الملك و أخبره بما قال له يوسف في تعبير رؤيّاه الّتي رأهاه في المنام و عجز المَلاء من تعبيره فلمّا سمعَ

الملك بذلك إستحسنه و علم أنّ ليوسف عِلماً و فضلاً يستحقّ به الإكرام و الإفضال فأراد أن يكرمه و يقرّبه و يستمع التّعبير المذكور من لسانه و لذلك قال للسّاقي إئتوني به أي أمر بإخراجه من السِّجن و إحضاره عند الملك **فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ** أي لمّا جاء رسول الملك و هو السّاقي اليه و قال له أنّ الملك يدعوك فأبى أن يخرج معه و قال له، إرجع الى ربّك، أي سيِّدك، فسأله، أي فأسأل الملك ليسأل و يتفحّص عن أصل القضّية و أنّما قال فأسله و لم يقل فأسألها تأدّباً و مراعاةً لحّقها أو إحترازاً عن مكرها حيث إعتَقد فيها أنّها مُقيمة في عدوة العداوة و أمّا النسوة فقد كان يطمع في صدّعهن بالحقّ و شهادتّهن بإقرارها بأنّها راودته عن نفسه فأستعصم.

قيل أنّما أبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السَّجن إلاّ بعد أن يتفحّص الملك عن حاله مع النّسوة لتكشف حقيقة الحال عنده لا سيّما عند العزيز و يعلم أنّه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد على تقبيح أمره و ليظهر كمال عقله و صبره و وقاره فأنّ من بقىٰ في السِّجن إثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك و أمره بإخراجه و لم يبادر على الخروج و صبر الىٰ أن تتبيَّن براءته من الخيانة في حقّ العزيز و أهله دلَّ ذلك على براءته من جميع أنواع التُّهم و على أنّ كلّ ما قيل فيه كان كذباً و بهتاناً و فيه دليل علىٰ أنّه ينبغي أن يجتهد في نفي التُّهمة و يتّقي مواضعها.

مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وأنّما رَدَّ الرّسول ولم يخرج من السِجن مَعه ليبيّن للملك براءته و أنّه حبس بظلم بغير بيِّنة و لا إعترافٍ بذنبٍ.

إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ أي أنّ اللّه عالمٌ بكَيد النّسوة.

و قيل المراد بالرّب هو العزيز و المعنى أنّ سيّدي العزيز عليمٌ بكيدهّن.

و الأوّل عليه أكثر المفسّرين و هو الظّاهر من الآية فأنّ العزيز لا يوصف بالعليم الّذي هو مبالغة في العلم بل لم نر أحداً يتصّف به في كلمات القوم ثمّ كيف يكون العزيز حليماً بكيدّهن و هو نفسه دخل في كيد إمرأته من حيث لَم يشعر به هذا ما قالوه في تفسير الآية.

وأعـلم أنّ العـامّة نـقلوا فـي تـفاسيرهم لهـذه الآيـة عـن أبـي هـريرة عـن النّبى ﷺ أنّه قال يرحم اللّه أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السِّجن ما لبـثه أحـببت الدّاعـي و لم ألتـمس العـذر انـتهىٰ رواه القـرطبي فـي تفسيره.

و روي أيضاً من طريق عبد الرّحمٰن بن القاسم صـاحب مـالك فـي كـتاب التّفسير من صحيح البُخاري.

و في رواية الطّبري، يرحم اللّه يوسف لو كنت أن المحبوس ثمّ أرسل إلَـي لخرجت سريعاً إن كان لحليماً إناة انتهىٰ.

وقال ﷺ لقد عجبت من يوسف و صبره و كرمه واللّه يغفر له حين سأل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتّىٰ أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حـين أتـاه الرّسـول ولو كـنت مكـانه لبادرتهم الباب انتهىٰ.

و قد نـقل الطّـبري قـبله هـذه الأخـبار فـي تـفسيره و هـكـذا غـيرهما مـن مُـفسريهم نـقلوها فـي كـتبهم راجـع تـفسير الكشّـاف للـزمخشري، و تـفسير البيضاوي، و تفسير الكبير للرّازي و تـفسير الألوسـي البـغدادي والدُّر المـنثور للسّيوطي و رُوح البيان و غيرها مـن تـفاسيرهم فأنّـهم نـقلوا هـذه الأحـاديث واحداً بعد واحدٍ من غير تدّبر فـيها و أنّـها مـن المكـذوبات و المـجعولات و المفتريات الّتي لا يقبلها العقل السّليم الخالي عن شوائب الأوهـام فـضلاً عـن المسلم المعتقد بمقام الرّسولِ و لتوضيح ذلك نقول لا شكّ أنّ رسول الإسلام أفضل الرُّسل لقوله ﷺ:

أنا سيّد وُلد آدَم ولا فَخر.

وقوله: **كنت نبّياً وآدم بين الماء والطّين.**

و قوله: **لو أدركني أخي موسىٰ ما وسعه إلاّ إتّباعي و غير ذلك ممّا ورد في الباب و عليه أي علىٰ أفضّلية الرّسول على جميع الأنبياء**

والمرسلين إجماع الأمّة و لا أظنّ فيه مخالفاً و اذا كان كذلك فيكف يقول ما نقلوه عنه أليس هذا دليلاً على كون يوسف أفضل منه صلّى الله عليه وآله وسلّم بإقراره وإذعانه.

و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ يوسف لم يكن من أولي العظم صاحب كتاب أو شريعة و أنّما كان نبيّاً من الأنبيا أمثال لوط و صالح و أبوه يعقوب و إسحاق و غيرهم و أين هذا من الّذي يقول لو أدركني أخي موسى ما وسعه إلاّ إتّباعي، و هو من أولي العزم، فاذا كان موسىٰ مع كوونه صاحب كتاب و شريعة ما وسعه إلاّ إتّباع رسول اللّه فما ظنّك بيوسف و أمثاله اذا ثبت هذا فنقول:

أمّا الحديث الذّي رواه أبو هريرة أنّه قال يرحم اللّه أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السّجن ما لبثه أجبت الدّاعي و لم ألتمس العذر، يلزم منه أن يكون يوسف أصبر من رسول اللّه و أعلم و ذلك لأنّه صبر و إلتمس و العذر و رسول اللّه يقول لو لبثت في السّجن ما لبثه أجبت الدّاعي و لم ألتمس العذر أي لو كنت مكانه لم أصبر و لازم ذلك كونه صبرٌ من رسول اللّه و من كان أصبر و أعلم فهو أفضل و لا يقول المسلم به فالحديث مجعولٌ كما هو شأن أبي هريرة فأنّه كان ماهراً متّخصصاً في جعل الحديث

و أمّا الّذي رواه من صحيح البخاري الّذي هو أصحّ كتاب في الإسلام بعد القرأن بزعمهم الفاسد حيث قالوا لو كنت أنا المحبوس ثمّ أرسل الّي لخرجت سريعاً أن كان لحليماً ذا أناة، فهذا الحديث أيضاً من المجعولات.

أمّا أوّلاً: فلأنّ ألفاظ الحديث تنادي بأعلى صوتها بأنّها ليست من كلام رسول اللّه الذّي يقول أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، كان له أنس بلغة العرب و فصاحة الكلام يقطع بأنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و هو هو لا يتكلّم بهذه الكلمات الّتي هي أشبه بكلمات المجانين و يدّلك على صحّة ما ذكرناه قوله و أن كان لحليماً، و الصّحيح أن يقال أنّه كان حليماً.

ثانياً: قوله لخرجت سريعاً، و من المعلوم أنّ يوسف لم يخرج سريعاً لأنّه كـان حليماً ذا أناةٍ، و مفهوم الكلام أنّه كان كذلك لحلمه و أما أنا لخرجت سـريعاً لعـدم حلمي و صبري و هذا كما ترى يدُّل على أنّه كان أفضل من النّبي لصبره و حلمه.

و أمّا الحديث الثّالث و هو قوله لقد عجبت من يوسف و صبره و كرمه واللّه يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكـانه لمـا أخـبرتهم حـتّى أشـترط أن يخرجوني و لقد عجبت منه حين أتاه الرّسول ولو كنت مكانه لبادرتهم البـاب فهو أيضاً من المجعولات.

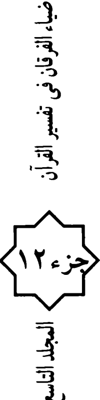
أمّا أوّلاً: فلأنّ صدر الحديث يدُّل علىٰ أنّ يوسف كـان أصـبر و أكـرم مـن رسول اللّه لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لقد عجبت من صبره و كرمه المعلوم أنّ من تعجب رسول اللّه من صبره و كرمه كان أصبر و أكرم منه صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن كان أصبر و أكرم فهو أفضل لا محالة و هو كما ترىٰ.

ثانياً: قوله واللّه يغفر له، أي ليوسف مـا مـعناه أليس هـذا الكـلام يـثبت له الذّنب و الخطيئة و أنّما قلنا ذلك لأنّ الغفران بعد ثبوت الخطأ و المفروض أنّه أي يوسف كان نبيّاً معصوماً.

ثالثاً: هذا التّعبير عن نبيٍّ في حقّ نبيٍّ أخر لا يصّح.

رابعاً: أنّ قوله لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتّىٰ أشـترط أن يـخرجوني، لا يخلو الحال لها أن يقال أنّ يوسف قد أخطأ حيث أجابهم و لم يشترط عليهم أن يخرجوه أو لم يخطأ، فأن أخطأ فـهو لم يكـن نـبيّاً لأنّ النـبي مـعصوم مـن الخطأ، و إن لم يخطأ فما معنى قوله لو كنت مكانه لِما أخبرتهم حتّى أشترط أن يخرجوني فأن كان الحديث من كلام رسول اللّه يـلزم مـنه تـخطئة يـوسف أو تخطئة الرّسول في قوله هذا حيث حكم بما حكم.

خامساً: أنّ قـوله و لقـد عـجبت مـنه حـين أتـاه الرّسـول ولو كـنت مكـانه لبادرتهم الباب، أيضاً غير معقول لما ذكرناه في الجملة السّـابقة مـضافاً الى أنّ قوله لبادرتهم الباب لا مـعنى له و الصّـحيح لبـادرت البـاب اذ لم يكـن هـناك



شخصاً أخر غير يوسف مأذوناً بالخروج حتّى يقال لبادرتهم الباب و الأحاديث كثيرة في تفاسيرهم بهذه المضامين كلّها مكذوبة مجعولة يتّنفر الطّبع منها و العجب من أمثال الرّازي و الزّمخشري و البيضاوي و أمثالهم ممّن يظنّ بهم الفضل كيف نقلوها و حكموا بصحّتها و لم يتوجّهوا الىٰ ما فيها من علائم الكذب و الإختلاف و جعلوها حجّة في تفسير كلام اللّه و لم يتّفطنوا أنّ هذه الأحاديث لتضعيف الدّين و تنقيص مقام النُّبوة و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ

قيل أنّ الملك أرسل الى النِّسوة و الى إمرأة العزيز و كان قد مات العزيز فدعاهنّ و **قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ** أي ما شأنكنَّ اذا راودتنَّ يوسف عن نفسه، أنّ كلّ واحدةٍ منهنّ كلَّمت يوسف في حقّ نفسها أو أراد قول كلّ واحدةٍ قد ظلمت إمرأة العزيز فكان ذلك مراودةٌ فيهنّ.

قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ حكاية عمّا أجابته به النِّسوة فأنهنّ قلن للملك على وجه التّنزيه حاش لِلّه أي عياذ باللّه و تنزيهاً من هذا الأمر ما علمنا من سوء فأنّاه كان منزّهاً عنه.

قٰالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصّٰادِقِينَ قلت إمرأة العزيز و هي زليخا في جواب الملك الأن حصحص الحقّ أي بان و ظهر قيل لمّا رأت زليخا إقرار النِّسوة ببراءة يوسف و خافت أن يشهدن عليها إن أنكرت فلا محالة أقرّت هي أيضاً و كان ذلك لطفاً من اللّه بيوسف، قالت أنا راودته عن نفسه و أنّه لمن الصّادقين، أقرّت على نفسها بالذّنب و ليوسف بالصِّدق و من المعلوم أنّ إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشّهادة عليه.

ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدي كَيْدَ ٱلْخآئِنينَ

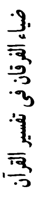
إختلف المفسّرون في قائل هذا الكلام فقال بعضهم أنّه من قول إمرأة العزيز و هو متّصل بقولها الأن حصحص الحقّ أي أقررت بالصدّق ليعلم، يوسف، أنّي لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه و لم أذكره بسوء و هو غائب بل صدقت و خرجت عن الخيانة ثمّ قالت و ما أبرئ نفسي الخ.

و قيل هو من قول يوسف و عليه فالمعنى، ذلك، يعني ذلك الأمر من فعلي من ردَّ الرّسول ليعلم العزيز أنّي لم أخنه بالغيب و أنّما قال يوسف ذلك لحَضرة الملك و قال: **لِيَعْلَمَ** توقيراً للملك و قيل قاله اذ عاد اليه الرّسول و هو في السِّجن.

وإعلم أنّ هذه الآية علىٰ ما قاله بعضهم تدُل على طهارة يوسف من لاذّنب من وجوهٍ كثيرة:

أحدها: أنّ الملك لمّا أرسل الى يوسف و طلبه فلو كان يوسف متَّهماً بفعل القبيح و قد كان صدر منه ذنبٌ لإستحال بحسب العرف و العادة أن يطلب من الملك أن يتَّفحص عن تلك الواقعة لأنّه يؤدّي الى الفضيحة في صورة كشف الخلاف و العاقل لا يَفعل ذلك فضلاً عن النّبي المعصوم العالم بعواقب الأمور بأذن اللّه تعالىٰ.

ثانيها: أنّ النِّسوة شهدن في المرّة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن حاش للّه ماهذا إلاّ بشر إن هو إلاّ ملكٌ كريم و في المرّة الثّانية أيضاً قلن حاشَ لِلّه ما علمنا عليه من سوء.



ثالثها: أنّ إمرأة العزيز و هي الأصل في تلك الواقعة قد أقرَّت في المرّة الأولى و الثّانية أيضاً بطهارته و أنّه من الصّادقين و قولها أنا راودته عن نفسه.

رابعها: قوله **لِيَعْلَمَ** أنّي لم أخنه بالغيب و المعصوم لا يقول إلاّ صدقاً وحقّاً و أن كانت الحشّوية يذكرون أنّه لمّا قال يوسف هذا الكلام قال جبرئيل عليه السلام و لا حين هممت.

و فيما نقله القرطبي و هو من الحشّوية أنّ جبرئيل قال له و لا حين حللت الازار و جلست مجلس الرّجل من المرأة، و هذا من رواياتهم الخبيثة و ما صحَّت هذه الرّواية و أمثالها في كتابٍ معتمدٍ بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعياً منهم في تحريف ظاهر القرأن.

خامسها: قوله: **أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ** أنّ صاحب الخيانة لابدّ و أن يفتضح و حيث لم أفتضح بل ثبت عليهم براءة ذمّتي و قداسة ساحتي من الذّنب و العيب فلم أكن خائناً و هو المطلوب.

هذا أخر ما أردناه إيراده في تفسير كلام اللّه في المجلّد الثّاني عشر و به تمّ الجزء الثّاني عشر من القرأن و يتلوه الجزء الثّالث عشر و هو قوله: (وما أُبّرئ نفسي) انشاء اللّه.

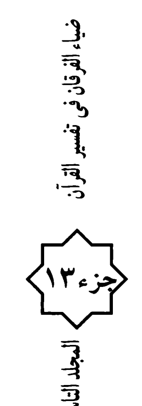
■



الجزء

الثالث عشر

وَ مٰآ أُبَرِّئُ نَفْسيِ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمّٰارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلّٰا
مٰا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۵۳﴾ وَ قٰالَ
ٱلْمَلِكُ ٱئْتُوني بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسي فَلَمّٰا كَلَّمَهُ
قٰالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنٰا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿۵۴﴾ قٰالَ
ٱجْعَلْني عَلٰى خَزٰآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ
﴿۵۵﴾ وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّٰا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ
مِنْهٰا حَيْثُ يَشٰآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰآءُ وَ لٰا
نُضيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿۵۶﴾ وَ لَأَجْرُ ٱلْاٰخِرَةِ خَيْرٌ
لِلَّذينَ اٰمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ ﴿۵۷﴾ وَ جٰآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ
﴿۵۸﴾ وَ لَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ قٰالَ ٱئْتُوني بِأَخٍ
لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلٰا تَرَوْنَ أَنّيَ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَ أَنَاْ
خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ ﴿۵۹﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُوني بِهِ فَلٰا كَيْلَ
لَكُمْ عِنْدي وَ لٰا تَقْرَبُونِ ﴿۶۰﴾ قٰالُوا سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ
أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ ﴿۶۱﴾ وَ قٰالَ لِفِتْيٰانِهِ ٱجْعَلُوا
بِضٰاعَتَهُمْ في رِحٰالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهٰآ إِذَا
ٱنْقَلَبُوٓا إِلٰىٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿۶۲﴾ فَلَمّٰا
رَجَعُوٓا إِلٰىٓ أَبِيهِمْ قٰالُوا يٰآ أَبٰانٰا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنٰآ أَخٰانٰا نَكْتَلْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ ﴿۶۳﴾



قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

◀ اللّغة

أُبَرِّئُ متكلّم وحدة من، برّأ، يُبرّأ والمصدر منه التّبرئة جعله بَريئاً يقال بَرَأ وبَرَاءةً من العيب أو الّدين، تَخَلّص وسلم منه.

لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ أي تنازع الىٰ السُّوء وتميل اليه والأمارّة مبالغة أي كثيرة الأمر بالشّي.

أَسْتَخْلِصْهُ الإستخلاص طلب خلوص الشّيء من شائب الإشتراك.

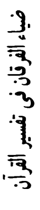
يَتَبَوَّأُ مِن تبوّأ أي يتّخذ من الأرض مباءةً ومنزلاً.

سَنُرَٰوِدُ المراودة المطالبة.

جَهَّزَهُمْ الجهاز فاخر المتاع الّذي يحمل من بلدٍ الى بلدٍ.

فِتْيَٰنِ جمع فتىٰ.

بِضَٰعَتَهُمْ البضاعة قطعة من المال الّتي للتّجارة.



◀ الإعراب

إِلَّا مَا رَحِمَ في، ما، وجهان:

أحدهما: هي مصدّرية و موضعها نصب.

الثّاني: أن تكون بمعنى، من، والتّقدير إلاّ لمن رحم ربّى.

يَتَبَوَّأُ حال من يوسف إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ في مَوضع نصب على المصدر (حافظاً) تمييز.

◀ التّفسير

وَ مَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

قيل أنّ النّفس مشتّقة من التّنفس لحصولها بطريق النّفخ في البدن و لها خَمس مراتب بإعتبار صفاتها المذكورة في القرآن.

الأولىٰ: الأمّارة بالسُّوء وهي الّتي تمشي علىٰ وجهها تابعة لهواها.

الثّانية: النّفس اللّوامة و قد أشير اليها بقوله تعالىٰ: **وَ لَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**[١] و هي الّتي لا تزال تلوم نفسها و أن إجتهدت في الإحسان و تلوم على تقصيرها في التّعدي في الدُّنيا و الآخرة.

الثّالثة: النّفس المطمئّنة و هي النّفس الآمنة الّتي لا يستفّزها خوفٌ و لا حزنٌ أو المطمئّنة الى الحقّ الّتي سكنها روح العلم و ثلج اليقين فلا يخالجها شكّ.

الرّابعة: الرّاضية و هي الّتي رضيت بما أوتيت.

الخامسة: المرضيّة و هي الّتي رضى عنها و بعضهم يذكر لها مرتبةً أخرى و هي الملهمة بضمّ الميم وكسر الهاء علىٰ المشهور والظّاهر فتح اللاّم لكونها مأخوذة من قوله تعالىٰ: **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَيٰهَا**[٢] و الملهم هو اللّه تعالىٰ وأمّا تجرّد النّفس و كيفيّة تعلّقها بالبدن و تصرّفها فيه فللبحث فيها مقام آخر وفي حديث كميل قال سألت أمير المؤمنين عليه السلام قلت أريد أن تعرّفني نفسي.

قال يا كميل أيّ نفسٍ تريد قلت يا مولاي هل هي إلاّ نفسٍ واحدة فقال،يا كميل إنّما هي أربع:

النّامية النّباتية، و الحسّية الحيوانّية، و النّاطقة القدسّية، و الكلّية الإلٰهيّة و لكّل واحدةٍ من هذه خمس قوىٰ و خاصّتان.

١- القيامة = ٢   ٢- الشمس = ٨

فالنّامية النّباتية لها خمس قوى، ماسكة، جاذبة، هاصمة، دافعة مربيّة و لها خاصّتان الزّيادة و النّقصان و إنبعاثها من الكبد و هي أشبه الأشياء بنفس الحيوان.

و الحسّية الحيوانّية، لها خمس قوىٰ، سمع، و بصر، و شمّ و ذوق، و لمس، و لها خاصتّان الرّضا و الغضب و إنبعاثها من القلب و هي أشبه الأشياء بنفس السّباع.

و النّاطقة القدسّية، لها خمس قوىٰ، فكر، و ذكر، و علم، و حلم، و نباهة و لها خاصّتان النّزاهة و الحكمة و ليس لها إنبعاث و هي أشبه الأشياء بنفس الملائكة.

و الكلمة الإلٰهّية (والكلّية الإلٰهية) لها خمس قوىٰ، بقاءٌ في فناء، و نعيمٌ في شقاء، و عزٌّ في ذلّ، و فقرٌ في غناء، و صبر في بلاء، و لها خاصّتان الحلم و الكرم و هذه مبدئها من اللّه واليه تعود.

لقوله تعالىٰ: **فَنَفَخْنٰا فيهِ مِنْ رُوحِنٰا**[١].

و أمّا عودها فلقوله تعالىٰ: **يٰآ أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ، اِرْجِعىٓ إِلٰى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً**[٢].

و العقل وسط الكلّ لكيلا يقول أحدكم شيئاً من الخير و الشّر إلاّ لقياس معقولٌ إذا عرفت هذا.

فنقول قوله: **وَ مٰآ أُبَرِّئُ نَفْسىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمّٰارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلّٰا مٰا رَحِمَ رَبّىٓ** إشارة الىٰ النّامية النّباتية الّتي هي أشبه شئ بنفس الحيوان هكذا قيل و الحقّ أنّه إشارة الى الحسيّة الحيوانّية الّتي تشبه نفس السّباع و كيف كان لا شكّ أنّ هذه النّفس تدعوا صاحبها الىٰ الشّرور و الآفات و لا تدعوه الى الخير و الصّلاح و ذلك لأنّها بمقتضى ذاتها و طبعها مائلة الى اللّذات، و المشتهيات

١- التحريم = ١٢
٢- الفجر = ٢٧ / ٢٨

الّتي لها سنخيّة معها كما أنّ الحيوان كذلك والسِّر فيه هو أنّها واقعة بين القّوة الشّهوانية و القُوّة العاقلة فبالأولى تحرص علىٰ تناول اللّذات البدنّية البهيميّة كالغذاء و السّفاد و التّغالب و سائر اللّذات العاجلة الفانية و بالأخرىٰ تحرص على تناول العلوم الحقيقّية و الخصال الحميدة المؤّدية الى السّعادة الباقية أبداً الأبدين و الى هاتين القوّتين أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **وَ هَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ**[1] و قوله: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[2] فأن جعلت الشّهوة منقادة للعقل فقد فزت فوزاً عظيما و أهتديت صراطً مستقيماً و أن سلَّطت الشّهوة على العقل و جعلته، منقاداً لها ساعياً في إستنباط الحيل المُؤّدية الىٰ مراودتها هلكت يقيناً و خسرت خسراناً مبيناً.

و أعلَم أنّ النَّفس إذا تابعت القوّة الشّهوية سمّيت بهيميّة، و إذا تابعت الغَّضبية سمّيت سبعّية و أن جعلت رذائل الأخلاق لها ملكة سمّيت شيطّانية و سمّى اللّه تعالىٰ هذه الجملة في التّنزيل نفساً أمّارة بالسُّوء إن كانت رذائلها ثابتة و إن لم تكن ثابتة بل تكون مائلة الىٰ الشَّر تارّةً و الى الخير أخرى و تندم على الشَّر و تلوم عليه سمّيت باللّوامة و أن كانت منقادة للعقل العلمي سمّيت مطّمنته و المعين على هذه المتابعات قطع العلائق البدنيّة كما قيل:

إذا شئت أن تحيى فمت عن علائق — من الحّس خمسُ ثمّ عن مدركاتها
وقابل بعين النَّفس مرآت عقلها — فتلك حياة النَّفس بعد مماتها

ثمّ أنّ هذه النَّفس الأمّارة بالسُّوء موجودة في جميع أفراد البشر لأنّ الإنسان حيوان ناطق، و الحيوان جنس و الناطّق فصل و يعبّر عن هذا التّعريف بالحَّد التّام فهو من حيث أنّه حيوان واجد للنّفس الأمّارة حيث أنّه ناطق واجد للنّفس النّاطقة القدسية و الأنبياء و الأوصياء أيضاً كذلك لأنّهم لم يكونوا من جنس الملائكة لقوله تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**[3]، وإذا كانوا كذلك فالنّفس

۱- البلد = ۱۰ ۲- الانسان = ۳
۳- الفصلت = ۶

الأمّارة كانت موجودة فيهم كما في غيرهم من أفراد البشر فقوله: **وَ مَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ** الخ لا ينافي عصمته بل يؤيدها و يثبّتها لأنّا لا نعني بالعصمة إلاّ من عصمه اللّه من الخطأ لا أنّ المعصوم خلق كذلك بحيث لا يقدر علىٰ العصيان لعدم قدرته أو لعدم وجود الأسباب من الشّهوة و الغضب و أمثالهما فيه و عليه فقوله: **وَ مَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ**، إشارة الىٰ ما ذكرناه من أنّ الإنسان بمقتضىٰ طَبعه البشري يعصي و يخطئ فلا يمكن له أن يقول أنا لا أعصي بل ينبغي له أن يقول و ما أبرّئ نفسي أي لست أتبرّها عن الخطأ وقوله: **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ**، إشارة الى أنّ العصمة تحتاج الى عناية الرّب هذا إذا قلنا أنّه من كلام يوسف كما هو أحد الإحتمالين اللّذين مرَّ ذكرهما و أمّا إذا قلّنا أنّه من كلام إمرأة العَزيز كما هو الإحتمال الثّاني فالأمر أسهل و أظهر و يستفاد من الآية أنّ الإنسان معصوماً كان أو غيره يحتاج في غلبته علىٰ النّفس الأمّارة بالسُّوء الى رحمة ربّه و عنايته و هو كذلك لأنّ النّفس الأمّارة في الحقيقة مظهر قدرة الشّيطان في البشر و لا مدخل له غيرها و لا شكّ أنّ الإنسان لا يقدر على منع الشّيطان و ردعه إلاّ بقوّةٍ ربّانية و هذا هو المراد بقوله: **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ**، وسنتكلّم في هذا الباب بوجهٍ أبسط فيما تأتي من الأيات الواردة إن شاء اللّه و قوله: **إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ**، فيه إشارة الىٰ أنّ باب التّوبة مفتوح لمن عصى ربّه فأنّه غفورٌ رحيمٌ، أي ساترٌ على التّائب ذنبه و رحيمٌ به فأنّ رحمته وسعت كلّ شيْءٍ وأعلم أنّ المشهور فسّروا الغفور بالسِّر و السّاتر و قالوا أنّه غفور أي ساترَ الذّنوب علىٰ عباده و قد أنكره بعض المحقّقين.

و قال مغفرة اللّه مفسّرةٌ بالعفو و الصَّفح علىٰ سبيل المجاز أي أنّ اللّه يعفو و يصفح عن الذّنب بعد التّوبة.

ثمّ قال وأمّا الغفور فهو أبلغ من الغافر لأنّ هذا البناء للمبالغة كالصَّفوح و الضَّحوك و القتول و الأكول، ثمّ أنّ الغفّار أبلغ من الغفور لأنّه وضع للتّكثير و معناه أنّه يغفر الذّنب بعد الذّنب أبداً و قد وصف اللّه نفسه بالغفور تارةً و

بالغافِرِ تارةً أخرى و بالغفّار أيضاً و سيأتي الكلام في وجه مناسبتها بحسب إختلاف المقامات و تكثّر الجهات في مواضعه إن شاء اللّه تعالىٰ.

قال بعض العرفاء في تحقيقاته خلقت النّفس على جبلّة الأمّارية بالسُّوء طبعاً حين خليت الى طبعها لا يأتي منها إلاّ الشّر و لا تأمر إلاّ بالسُّوء و لكن إذا رحمها ربّها و نظر اليها بنظر العناية يقلّبها من طبعها و يبدّل صفاتها و يجعل أمّاريتها مبدّلة بالمأمّورية و شريرتها بالخيريّة فإذا تنَّفس صبح الهداية في ليلة الظُّلمة البشّرية و أضاء أفق سماء القلب صارت النّفس تلوم نفسها علىٰ سُوء فعلها و ندمت على ما صدر منها من الأمّارية بالسُّوء فيتوب اللّه عليها فأنّ النّدم توبة.

و إذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النّفس ملهمة إذ هي تنّورت بأنوار شمس الهِداية و العناية فألهمها فجورها و تقوايٰها.

و إذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية و أشرقت الأرض بنور ربّها صارت النّفس مطّمئنة مستعدّة لخطاب ربّها بجذبة إرجعي راضيةً مرّضيةً انتهىٰ كلامه و للبحث فيه مقام آخر.

وَ قَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

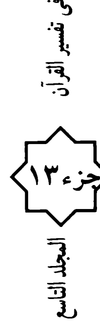
يظهر من هذه الآية أنّ يوسف لم يكن حاضراً في المجلس و أنّ الملك لمّا سمع جميع ذلك قال أئتوني به أي بيوسف أستخلصه لنفسي و على هذا يكون ما مضى من قوله و ما أبرئ نَفسي من قول المرأة لا من قول يوسف و كيف كان لما سمع الملك ما أجاب به يوسف من تعبير الرُّؤيا قال إئتوني به لأنّه أراد أن يسمع التّعبير من لسان يوسف و ذلك لأنّ في إستماع الكلام من لِسان المتكلّم حلاوةٌ و تأثير خّاص و لذلك أمر الملك بإحضار يوسف فأتوا به فلّما كلّمه يوسف أثّر كلامه فيه و علم الملك جودة رأيه و صفاء باطنه فال له يا

يوسف أنّك اليوم لدينا مكينٌ أمينٌ أي ذو مكانةٍ و منزلةٍ رفيعة و مؤتمن على كلّ شئ.

روي أنّ الملك لمّا قال إئتوني به جاء الرّسول و هو السّاقي الى يوسف في السِّجن فقال يا يوسف أجب الملك فخرج منه و ودَّع أهل السِّجن و دعىٰ لهم و قال اللّهم أعطف قلوب الصّالحين عليهم و لا تستر الأخبار عنهم فمن ثمّ تقع الأخبار عند أهل السِّجن قبل أن تقع عامّة النّاس و كتب على باب السِّجن هذه منازل البلوىٰ و قبور الأحياء و شماتة الأعداء و تجربة الأصدقاء ثمّ إغتسل و تنظَّف من درن السِّجن و لبس ثياباً جدداً.

روي أنّه لمّا دخل على الملك قال: اللّهم إنّي أسألك بخيرك من خيره و أعوذ بعزّتك و قدرتك من شرَّه، ثمّ سلَّم علىٰ الملك و دعا له بالعِّبرانية فلم يفهمها الملك و قال ما هذا اللّسان قال يوسف هذا لسان آبائي إبراهيم و إسحاق و يعقوب ثمّ كلَّمه بالعربيّة فلم يفهمها الملك و قال ما هذا اللّسان قال لسان عمّي إسماعيل ثمّ تكلّم معه بلسان أهل مصر ففهم و أستلّذ بكلامه من حيث البلاغة و الفصاحة فقال ليوسف أيّها الصدّيق إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي مِنك، فحكاها له و عبَّرها يوسف على وجهٍ بديع و أجاب لكّل ما سأل بإسلوبٍ عَجيب.

قيل أنّ الملك كان يتكلّم بجميع الألسن فكلّما تكلَّم بلسانٍ أجابه يوسف بذلك اللّسان فأعجب الملك أمره ثمّ أجلسه على سريره و قال أحبّ أن أسمع منك تأويل رؤياى فقال يوسف نعم أيّها الملك رأيت سبع بقراتٍ سمانٍ شهباً غرّاً حِساناً كشف لك عنهنّ النّيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافها لبناً فبينما أنت تنظر إليهنّ و تتعجّب من حسنهنّ إذ نضب النّيل فغار ماءه و بدا أُسّه فخرج من حمئه و وحله سبع بقراتٍ عجاف شعث غبر متعلّقات البطون ليس لهنّ ضروع و لا أخلاف لهنّ أنياب و أضراس و أكفّ كأكفّ الكلاب و



خراطيم كخراطيم السّباع فأختلطن بالسّمان فأفتر سنهنّ إفتراس السّباع فأكلن لحوفهنّ و مزقنّ جلودهنّ و حطمنّ عظامهنّ و مشمشن مخهنّ فبينما أنت تنظر و تتعجّب كيف غلبهنّ و هنَّ مهازيل ثمّ لم يظهر منهنّ سمن و لا زيادة بعد أكلهنّ إذا بسبع سنابل خضر طرّيات ناعمات ممتلئات حبّاً و ماءاً و الىٰ جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء و لا خضرة في منبتٍ واحدٍ عروقهنّ في الثّرى و الماء فبينما أنت تقول في نفسك أىّ شئٍ هذا هٰؤلاء خضر مثمرات و هٰؤلاء سود يابسات و المنبت واحد و أصولهنّ في الماء إذ هبتّ ريح فذرت الأوراق من اليابسات السُّود على الخضر المثمرات فأشعلت فيهنّ النّار فأحرقتهنّ فصرن سوداً مغبرات فأنتبهت مذعوراً أيّها الملك فقال الملك واللّه ما شأن هذه الرُّؤيا و أن كان عجباً بأعجب ممّا سمعت منك فما ترىٰ في رؤياي أيّها الصّديق.

فقال يوسف أن تجمع الطّعام و تزرع زرعاً كَثيراً في هذه المخمصة فأنّك لو زرعت على حجر أو مدر لبنت و أظهر اللّٰه فيه النّماء و البركة ثمّ ترفع الزّرع في قصبه و سنبله تبني له المخازن العِظام فيكون القصب و السُّنبل علفاً للدّواب و حبَّه للنّاس و تأمر النّاس فيرفعون من طعامهم الى أهرائك الخمس فيكفيك من الطّعام الّذي جمعته لأهل مصرحولها و يأتيك الخلق من النّواحي يتمارون منك و يجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلك فقال الملك و من لي بتدبير هذه الأمور و لو جمعت أهل مصر جميعاً ما طاقوا ولم يكونوا فيه أمينا.

فقال يوسف عند ذلك ما حكاه اللّٰه تعالىٰ عنه بقوله:



قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ

لمّا إستخلصه الملك لنفسه و قال له أنّك اليوم لدينا مكين أمين قال له يوسف **ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ**، أي أرضك أو أرض مصر و اللاّم للعهد قال المفسّرون أراد يوسف بذلك، الأرض الّتي هي ملكه و يجمع فيها

ماله و طعامه طلب منه ذلك ليحفظه عمّن لا يستحقّه و يوصله الى الوجوه الّتي ينبغي صرف الأموال لها فلذلك رغب الى الملك كما هو شأن الأنبياء إذ لا يجوز لهم أن يرغبوا في جمع الأموال إلاّ لما قلناه وفي قوله: **حَفِيظٌ عَلِيمٌ** إشارة الى أمرين لابدّ لولّي الأمر و الحاكم علىٰ النّاس من الإتّصاف بهما معاً:

أحدهما: الحفظ.

ثانيهما: العلم و ذلك لأنّ الأموال الموجودة في الخزائن و البيوت عند السُّلطان فهي في الحقيقة متعلّقة بالنّاس و الحاكم أَحدهم و أن شئت قلت أنّها من سنخ الأمانات واقعاً فلابدّ للحاكم المتولّي عليها من حفظها عن الآفات و الحوادث كما أنّ وظيفة الأمين حفظ الأمانة الّتي بيده فأن قصَّر في ذلك فهو ضامن شرعاً و عقلاً ثمّ بعد الحفظ تصل النَّوبة الى مصرفها فيما يجب و ينبغي بحيث يصل كلّ ذي حقٍّ الىٰ حقّه وهذا يحتاج الى العِلم بكيفيَّة المصرف و إيصال كلّ ذي حّقٍ الى حقّه إذ لو كان الوالي جاهلاً بذلك يصرفها علىٰ خلاف الحّق و فيه ظلمٌ على الرَّعية والذَّنب عليه فقوله: **إِنِّى حَفِيظٌ** إشارة الىٰ الأصل الأوّل و قوله: **عَلِيمٌ**، إشارة الى الأصل الثّاني و إذا كان الحاكم كذلك فهو مَرضّيٌ عند الخالق محبوبٌ عند الرّعية و في أمثال هذه الحكومات تنزل بركات السّموات و الأرض و لأجل ذلك قالوا في الآية دليلٌ على جواز طلب الولاية إذا كان الطّالب ممّن يقدر على إقامة العدل و إجراء الأحكام و نحن نقول أين هذا الطّالب فأنّ النّاس يطلبون الولاية و الحكومة لأجل الوصول الىٰ مشيتاتهم النَّفسانية و اللّذات الجسمّانية من الأطعمة و الأشربة و الظّلم و تضييع حقوق النّاس و إختصاصها بأقربائهم و متابعيهم والّذي لا يخطر، ببالهم فضلاً عن العمل به هو العدالة و إعطاء كلّ ذي حّقٍ حقَّه و ملّخص الكلام هو أنّ هذا الكلام أعني إنّي حفيظٌ عليمٌ، لا يقدر أحد على العمل به إلاّ الأنبياء و الأوصياء و أمّا غيرهم من الحكّام فكما ترىٰ و نرى في زماننا هذا و حكم

الأمثال واحدٍ فالسّابق كاللاحّق و اللاّحق كالسّابق و الحساب على اللّه يوم الفصل فأنّ يوم الفصل كان ميقاتاً.

روي عن إبن عبّاس أنّه قال لمّا انصرمت السَّنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجّه و ردّاه بسيفه و وضع له سريراً من ذهب مكلّلاً بالدُّر و الياقوت و ضرب عليه حلّةٍ من إستبرقٍ و كان طول السّرير ثلاثين ذراعاً و عرضه عشرة أذرع عليه ثلاثون فراشاً و ستُّون مرفقة ثمّ أمره أن يخرج فخرج يوسف مُتّوجاً لونه كالثَّلج و وجهه كالقمر يرىٰ النّاظر وجهه من صفاء لون وجهه فجلس على السَّرير و دانت له الملوك و دخل الملك بيته مع نسائه و فوَّض اليه أمر مصر و عزَّل قطيفر عمّا كان عليه و جعل يوسف مكانه.

قيل كان لفرعون ملك مِصر خزائن كثيرة غير الطّعام فسلّم سلطانه كلّه اليه و هلك قطيفر تلك اللّيالي، و قيل أنّه مات و يوسف في السِّجن.

قيل أنّ الملك بعد تفويضه الأمر الى يوسف زوَّج يوسف راعيل إمرأة العَزيز فلّما دخل عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين فقالت أيّها الصّديق لا تلمني فإنّي كنت إمرأةً حسناء ناعمة كماترى صاحبي لا يأتي النّساء كما جعلك اللّه من الحسن فغلبتني نفسى هذا ما ذكره بعضهم.

وقال وهب بن منبة إنّما كان تزويج يوسف زليخا بين دخلتي الإخوة و ذلك أنّ زريخا مات زوجها و يوسف في السِّجن و ذهب مالها و عمي بصرها بكاءاً على يوسف فصارت تتكفّف النّاس فمنهم من يرحمها و منهم من لا يرحمها و كان يوسف يركب في كلّ إسبوعٍ مرّةً في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه فقيل لها لو تعرّضتِ له لعَّله يسعفك بشئ، ثمّ قيل لها لا تفعلي فربّما ذكر بعض ما كان منك من المراودة و السِّجن فيسئ اليك فقالت أنا أعلم بخلق حبيبي منكم ثمّ تركته حتّىٰ إذا رككب موكبه قامت فنادت بأعلى صوتها سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم و جعل العبيد ملكوكاً بطاعتهم فقال يوسف ما

هذه فأتوا بها فقالت أنا التّي كنت أخدمك على صدور قدمَّي و أرجِّل جمَّتك بيدَّي و تربَّيت في بيتي و أكرمت مثواك لكن فرط ما فرط من جهلي و عتُّوي فذقت و بال أمري فذهب مالي و تضعضع ركني و طال ذلّي و عمى بصري وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرجومتهم أتكفّف النّاس فمنهم من يرحمني و منهم من لا يرحمني و هذا جزاء المفسدين فبكىٰ يوسف بكاءً شديداً ثمّ قال لها هلى بقيت تجدين ممّا كان في نفسك من حبّك لي شيئاً فقالت واللّه لنظرة الى وجهك أحبَّ إليّ من الدّنيا بحذافيرها لكن ناولني صدر سوطك فناولها فوضعته على صدرها فوجد للسَّوط في يده إضطراباً و إرتعاشاً من خفقان قلبها فبكىٰ ثمّ مضىٰ الى منزله فأرسل اليها رسولاً، إن كنت أيِّماً تزَّوجناك و إن كنت ذات بعلٍ أغنيناك فقالت للرّسول أعوذ باللّه أن يستهزئ بي الملك لم يردني أيّام شبابي و غناي و مالي و عزّتي أفيريدني اليوم و أنا عجوزٌ عمياء فقيرة فأعلمه الرّسول بمقالتها فلمّا ركب في الأسبوع الثّاني تعرّضت له فقال لها ألم يبلّغك الرّسول فقالت قد أخبرتك أنّ نظرةً واحدة الى وجهك أحبَّ إلَّي من الدّنيا و ما فيها فأمر بها فأصلح من شأنها و هيِّئت ثمّ زُفَّت اليه فقام يسوف يصلّي و يدعو اللّه و قامت وراءه فسأل اللّه تعالىٰ أن يعيد اليها شبابها و جمالها و بصرها فرَّد اللّه عليها شبابها و جمالها و بصرها حتّى عادَت أحسن ما كانت يوم راودته إكراماً ليوسف عليه السلام لمّا عفَّ عن محارم اللّه فأصابها فاذا هي عذراء فسألها فقالت يا نبيَّ اللّه أنّ زوجي كان غنَّياً لا يأتي النّساء و كنت أنت من الحسن و الجمال بما لا يوصف، فعاشا في خفض عيشٍ في كلّ يوم يجدَّد اللّه لهما خيراً و ولدت له ولدين، أفرأيئم و منشاء و فيما روي أنّ اللّه تعالىٰ ألقى في قلب يوسف من محبّتها أضعاف ما كان في قلبها فقال لها يوسف ما شأنك لا تحبيّنني كما كنت في أوّل مرّةٍ فقالت له لمّا ذقت محبّة اللّه تعالىٰ شغلني ذلك عن كلّ شيءٍ انتهى ما ذكروه في قصّة تزويج يوسف إيّاها واللّه أعلم.

و على تقدير صحّة القصّة أو عدمها أنّا نعلم أنّ اللّه تعالى لا يضيع أجر المحسنين كما أنّه يقبل التّوبة عن عباده المذنبين واذا وصل العبد الى مقام القرب و إشتعل نار محبّة اللّه في قلبه لا يلتفت الى ما سواه أبداً فيحبّ ما يحبّ للّه و يبغض ما يبغض له أيضاً فأنّ المحبّ الحقيقي يرى بعين البصيرة ما لا يراه لأنّ قلبه مشغوف بحبّه و لذلك يحبّه و يحبّ أثاره ألا ترى أنّ المجنون كان يقبّل الجدار و الأثار التّي كان محبوبه فيها كما قيل:

أمرُّ علىٰ جدار ديار سلمى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

فما حبّ الدّيار شغفن قلبي ... ولكن حبّ من سكن الدّيارا

وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَيْثُ يَشٰآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰآءُ وَ لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

أي و مثل هذه الأنعام الّذي أنعمنا على يوسف في إلقائِنا محبّتة في قلب الملك و إنجاءه من السّجن مكّنا له أي أقدرناه على ما يريد في الأرض من جميع الجهات و أنّما أسندت المشيّئة الى يوسف في ظاهر الكلام لما كانت بأمر اللّه و إرادته فأنّه لم يشاء إلاّ ما شاء اللّه و لم يرد إلاّ ما أراده فهو مِن قبيل قوله تعالىٰ مخاطباً لنبيّه: **وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ رَمىٰ**[١].

و أمّا على قراءة ابن كثير في قوله: **حَيْثُ يَشٰآءُ**، بالنّون فالأمر واضح و التّبوأ، إتّخاذ المكان أي مكّناه من التّصرف و المقام في الأرض حيث يشاء كيف يشاء.

و قيل المراد بالتّمكن هو ثوابه من اللّه على طاعته وإحسانه الّذي تقدّم منه في الدّنيا و أنت ترىٰ أنّ هذا التّفسير ليس بشئٍ لأنّ التّمكن لا يراد به الثّواب الّذي هو فعل اللّه في حقّ العبد بل التّمكن عبارة عن الإقدار على أنحاء التّصرفات و حيث أنّ الملك فوّض الى يوسف أرض مصر و خزائنها و جميع

١- الانفال = ١٧

ما كان متعلّقاً بها فصار يوسف قادراً متمكّناً في جميع الأمور و هـذا لا يـحتاج الىٰ التّأويل و صرف الكلام عن ظاهره.

و أمّا قوله: **نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَآءُ**، ففيه إشارة الىٰ أنّ رحـمة الحـقّ واسعة لا إختصاص لها بيوسف فقط بل كلّ من سلك مسلكه و حذى حـذوه في طريق الطّاعة و العبوديّة فالرّحمة تشمله كما قال اللّه تعالىٰ: **لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** و فيه إشارة الىٰ أنّ يوسف كان منهم لأنّه فعل ما فعل و ترك ما ترك لِلّه و لا نعني بالمحسن إلاّ هذا.

و قال بعض المفسّرين المراد بالمحسنين في الآيـة الصّـابرين لأنّ يـوسف صبر في الجبّ، و في الرِّق، و في السِّجن و صبر عن محارم اللّه عمّا دعته اليه المرأة و هكذا و نحن نقول لا نحتاج الى هذا التّأويل و صرف اللّفظ عن ظاهره و ذلك لأنّ المحسِن من يفعل حسناً و يترك قبيحاً و هذا عامّ يشمل الصَّبر على البلايا أيضاً لأنّ الصَّبر على المعصية أو على الطّاعة أو علىٰ البليّة أمرٌ حسـن و هو ظاهر.

و قوله: **لَا نُضِيعُ**، فيه إشارة الىٰ أنّ تضييع حقّ المحسن ظلمٌ و اللّه تعالىٰ منزّه عنه.

روي أنّ الملك لمّا فوَّض أمر الحكومة الىٰ يوسف تلَّطف بالنّاس و جـعل يدعوهم الى الإسلام حتّى أمنوا به و أقام فيهم العدل فأحـبَّه الرّجـال و النّسـاء فلمّا دخلت السّنون المخصبة أمر يـوسف بـإصلاح المـزارع و أمـر النّـاس أن يتوّسعوا في الزّراعة فلمّا أدركت الغلّة أمر بـها فـجمعت ثـمّ بـنى لهـا الإصـراء فجمعت فيها في تلك السنّة غلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ثمّ جـمع عـليه غلّة كلّ سنة كذلك حتّىٰ اذا إنقضت السّبع المخصبة و جاءت السّنون المجدبة نزل جبرئيل و قال يا أهل مصر جوعوا فأنّ اللّه سلَّط عليكم الجوع سبع سنين قيل للقحط علامتان:

أحدهما: أنّ النّفس تحبّ الطّعام أكثر مِن العادة و يسرع اليها الجُوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك و تأخذ الطّعام فوق الكفاية.

الثّانية: أن يفقد الطّعام فلا يوجد رأساً ويعزّ الى الغاية فإجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف فإنتبه الرّجال و النّساء و الصّبيان ينادون الجوع الجوع و يأكلون و لا شبعون و إنتبه الملك ينادي الجوع الجوع فدعا له يوسف فأبرأه اللّه منه ثمّ أصبح يوسف فنادى في أرض مصر كلّها معاشر النّاس لا يزرع أحد زرعاً فيضيع البذر و لا يطلع شئ و جات تلك السّنون بهولٍ عظيم لا يوصف فلمّا دخلت أوّل سنةٍ من سنّي القحط هلك فيها كلّ شئ أعدُّوه في السّنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطّعام من يوسف فباعهم أوّل سنةٍ بالنُّقود حتّى لا يبقى بمصر دينارٍ و لا درهم إلاّ قبضه.

في السّنة الثّانية: باعهم بالحلّي والجواهر حتّى لم يبق في أيدي النّاس منها شئ.

في السنّة الثّالثة: باعهم بالمواشي و الدّواب حتّى إحتوى عليها أجمع.

في السّنة الرّابعة: باعهم بالعبيد و الإماء حتّى إحتوى علىٰ الكلّ.

وباعَهم في السّنة الخامسة بالضّياع و العقار حتّى ملكها كلّها.

وباعَهم في السّنة السّادسة بأولادهم و نساءهم فإسترَّقهم جميعاً.

وباعَهم في السّنة السّابعة برقابهم حتّى لم يبق بمصر حرٌّ و لا عبدٌ إلاّ صار عبداً له فقال النّاس و اللّه ما رأينا ملكاً أجلّ و أعظم منه، فقال يوسف لملك مصر كيف رأيت صنع ربّي فيما خوَّلني و الأن كلّ هذا لك فما ترىٰ فيه فقال الملك فوَّضت اليك الأمر فإفعل ما شئت و أنّما نحن لك تبع و ما أنّا بالّذي يستنكف عن طاعتك فقال يوسف عليه السلام أنّي لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم و لم أجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء و أنّي أشهد اللّه و أشهدك إنّي أعتقت أهل مصر عن أخرهم و رددت عليهم أملاكهم و أموالهم ورددت عليك ملكَك بشرط ن تستَّنَ بسنّتي.

و يرویٰ أنّ يوسف كان لا يشبع من طعامٍ في تلك السّنين فقيل له أتجوع و بيدك خزائن الأرض فقال إنّي أخاف أن شبعت أن أنسى الجائع و أمر يُوسف طبّاخ المَلك أن يجعل غذاءه نصف النّهار حتّىٰ يذُوق المَلك طعم الجوع.

وَ لَأَجْرُ ٱلْاٰخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ

لمّا أشار اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة بأنّه لا يضيع أجر المحسنين قال في هذه الآية ولأجر الأخرة خير من الدّنيا و ما فيها لأنّ الدّنيا و لذّاتها فانية وأمّا الأخرة و لذّاتها فلا فناء فيها بل هي باقية دائمة و أنّما قال للّذين أمنوا وكانوا يتّقون، لأنّ الثّواب علىٰ العمَل اذا كان على أساس الإيمان و التّقوى فالدّار الأخرة و ما فيها للمؤمنين المتّقين.

و في الآية إشارة الى أنّ ما أعطاه اللّه في الدّنيا من الخروج عن الحبّ و السّجن و البلوغ الى مقام الحكومة علىٰ مصر بسبب طاعته و إنقياده و تركه معصية اللّه أنّما هي في جنب ما أعطاه اللّه في الأخرة من الثّواب والأجر قليلٌ جدّاً و لنعم ما قيل:

وأخـرُ فـاز بكـلتيهما ... قد جمع الدّنيا مع الأخرة.

و قال الأخر:

أما في رسول اللّه يوسف أسوةُ ... لمثلك محبوساً على الظُّلم والإفك

وقال الأخر:

أقام جميل الصَّبر في الحبس برهةً ... فأل به الصَّبر الجميل الى الملك

وقال الأخر:

وراء مضيق الخوف متَّسع الأمن ... و أوّل مفروجٍ به أخر الحزنِ

فلا تيأسن واللّه ملَّك يوسفاً ... خزائنه بعد الخروج من السِّجنِ

وقال الأخر:

اذا الحادثات بلغن النُّهىٰ ... وكادت تذوب لهنَّ المهج

وحلَّ البلاء وقلَّ العزاء ... فعند التّناهي يكون الفرج



وقال الأخر:

عس الكرب الّذي أمسيت فيه يكون وراءه فرجُ قريبُ

وَ جَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ لمّا أصاب النّاس القحط و الشّدة علىٰ ما مرَّ تفصيل الكلام فيه و سرى ذلك القحط بأرض كنعان أيضاً وأجدبت بلاد الشّام و غلت أسعارها جمع يعقوب بنيه و قال لهم يابنَّي أما ترون ما نحن فيه من القحط فقالوا يا أبانا و ما حيلتنا قال أذهبوا الى مِصر و إشتروا منها طعاماً من العزيز قالوا يا نبيّ اللّه كيف يطيب قلبك ترسلنا الى فراعنة الأرض و أنت تعلم عداوتهم لنا و لا نأمن من أن ينالنا منهم شرّ و كانت تسمّىٰ أرض مصر بأرض الجبابرة لزيادة الظّلم و الجور فقال لهم يا بنّي قد بلغني أنّه ولّي أهل مصر ملك عادل فإذهبوا اليه و إقرأوه منّي السّلام فأنّه يقضي حاجتكم ثمّ جهَّز أولاده العشرة و أرسلهم الى مِصر و بقىٰ عنده إبنه يامين بنيامين و كان أخاً ليوسف لأبيه و قيل لأبيهم خاصّة و أنّما لم يرسله معهم لأنّه كان بعد يوسف من أحبَّ أولاده عنده و لمّا فعلوا بيوسف ما فعلوا لم يرسله معهم فذلك قوله تعالىٰ: **وَ جَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ**، أي جاءوا ممتارين، قيل لمّا دنى الفرج بملاقاة يعقوب و تحوَّل الحال من الفرّقة الىٰ الوصلة و من الألم الىٰ الرّاحة إبتلى اللّه الخلق ببلاء القحط ليكون ذلك وسيلة و سبباً الىٰ خروج أبناء يعقوب لطلب المعاش و هو الى المعارفة و المواصلة و كانت بين كنعان و مصر ثماني مراحل لكن أبهم اللّه تعالى ليعقوب عليه السلام مكان يوسف و لم يأذن ليوسف في تعريف حاله الى مجيئ الوقت المسمّىٰ عند اللّه فجاءوا بهذا السّبب الىٰ يوسف في مصر **فَدَخَلُوا عَلَيْهِ** أي علىٰ يُوسف و هو جالس على سريره في زينةٍ و إحتشامٍ (فَعَرفهم) أي فعرفهم يوسف في بادئ الرّأي و أوّل النّظر لقوّة فهمه و شدّة فراسته و لعدم تغيَّر أحوالهم السّابقة لحالهم يومئذٍ لمفارقته إيّاهم و هم رجال و تشابه هيئاتهم و زيّهم في الحالين و لكون همّته مقعودةٌ بهم و بمعرفة أحوالهم لا سيّما في زمان القحط و قد أخبره

اللّه حين ألقوه في الجبّ لتنبّئنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون و الحقّ في وجه معرفته إيّاهم هو الوجه الأوّل الّذي ذكرناه و هو قوّة فهمه و شدّة فراسته لأنّه كان من الأنبياء و قد قال رسول اللّه: **إتّقوا فراسة المؤمن فأنّه ينظر بنُور اللّه،**

و اذا كان المؤمن في فراسته و دقّة نظره كذلك فما ظنّك بالنّبي الّذي هو في رأس المؤمنين و مع ذلك هو مؤيّدٌ من عند اللّه واللّه تعالىٰ قد خصّه بالعلم و الفهم ما لم يخصّ به غيره.

و الحاصل أنّ معرفة يوسف إيّاهم مطابق للأصل و لا غرو فيه و لا يحتاج الى التّأويل و المفروض أنّ علمه من علم اللّه و كيف يعقل أن لا يعرفهم و هم إخوته و هو الّذي أخبر الملك بتعبير رؤياه التّي عجز عن تعبيرها غيره.

و أمّا قوله: **وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** أي والحال أنّهم لم يعرفوه فهو أيضاً مطابق للأصل.

أمّا أوّلاً: فلِلفرق بين علمهم و علمه و فهمهم و فهمه و فراستهم و فراسته لأنّ يوسف كان نبيّاً و هؤلاء كانوا من العوام و هو كان مرتبطاً بعالم الغيب في علمه و هم لم يكونوا كذلك.

ثانياً: أنّهم تركوا يوسف حين ألقوه في الجبّ و هو صبّي والأن بلغ مبلغ الرّجال فقد قيل أنّه كان بين أن قذفوه في البئر و بين أن دخلوا عليه أربعون سنة فمفارقته إيّاهم كانت في سنّ الحداثة و لإعتقادهم أنّه قد هلك في البئر و لذهابه عن أوهامهم لقلّة فكرهم فيه و لبعد حاله التّي رأوها في صغره عن الحالة التّي رأوها و هو جالس علىٰ سرير الملك و غير ذلك من الأمور الّتي صارت باعثة على عدم معرفتهم إيّاه و إن شئت أن تطّلع علىٰ سرّه العرفاني فنقول:

أنّ يوسف عليه السلام كان نبيّاً و النّبي مظهر الحقّ لأنّه مع الحقّ و الحقّ معه و هؤلاء كانوا من مظاهر الباطل لأجل ما فعلوا به و قد ثبت و تحقّق عند أهل

الكشف أنّ أهل الحقّ يعرفون أهل الباطل و لا عكس لأنّ من كان على الباطل فهو بمنزلة الأعمىٰ الذّي لا يبصر ضوء النّهار فهو أيضاً لا يعرف الحقّ لعدم بصيرته و لذلك عرفهم يوسف بعين بصيرته و لم يعرفوه لعدم بصيرتهم و هذا هو الأصل في الباب هذا كلّه اذا حملنا الإنكار في قوله: **وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**، علىٰ معناه العامّ الشّامل لِلإنكار القلبي أيضاً بأنّ نقول و هم له منكرون قلباً ولساناً كما هو الظّاهر اذ لا دليل علىٰ تخصيص الإنكار باللّساني أو الظّاهري فقط.

و أمّا اذا قلنا بأنّ الإنكار في الآية و أن كان بحسب اللّغة عامّاً يشمل اللّساني و القلبي معاً إلاّ أنّ العرف يفهم من اللّفظ اللّساني فقط فاذا قيل فلان منكر أو أنكر يفهم منه أنّه أنكره لفظاً و لذلك يطلب من المنكر باللّسان اليمين في مقام الحكم.

و أمّا المنكر بالقلب و هو مقرٌّ باللّسان فيؤخذ بإقراره و لا يعتنى بقلبه قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم البيّنة على المدّعي و اليمين علىٰ من أنكر، أي من أنكر باللّسان و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلقائلٍ أن يقول هذه اللّفظة أعني بها الإنكار و أن يطلق بحسب اللّغة على القلبي أيضاً إلاّ أنّه منصرف الى الفرد الشّائع و هو اللّساني فقط و عليه فهم له منكرون ظاهراً وأن كانوا يعرفونه باطناً بقلوبهم إلاّ أنّهم لم يظهروا ذلك لما رأوا فيه من المصلحة هذا ممّا إختلج بالبال و لم أر من المفسّرين من تعرّض له واللّه تعالىٰ أعلم بحقيقة الحال.

وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ

الجهاز فاخر المتاع الذّي يحمل من بلد الىٰ بلد من أيّ جنسٍ كان و المراد به هنا الطّعام و جهاز العروس ما يحتاج اليه عند الإهداء الىٰ الزّوج.

و من المعلوم أنّه من فاخر المتاع و جوّز الكوفيون فيه كسر الجيم، قيل أنّه كان مع إخوج يوسف أحد عشر بعيراً و هم عشرة فقالوا ليوسف أنّ لنا أخاً

تخلّف عنّا و بعيره معنا فسألهم لم تخلّف فقالوا لحبّ أبيه إيّاه و ذكروا له أنّه كان له أخ أكبر منه فخرج الى البّرية فهلك فقال لهم يوسف أردت أن أرى أخاكم هذا الذّي ذكرتم لأعلم وجه محبّة أبيكم إيّاه و أعلم صدقكم.

و يروىٰ أنّهم تركوا عنده شمعون رهينة حتّىٰ يأتوا بأخيه بنيامين و قيل إبن يامين و هو الذّي كان أخاً له لأبيه و أمّه قالوا في وجه ذلك أنّ يوسف لمّا رأهم و كلّموه بالعبرانية قال لهم أخبروني من أنتم و ما شأنكم قالوا نحنُ قوم من أهل الشّام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلّكم جئتم عيوناً و جواسيس فقالوا معاذ اللّه ما نحن كذلك نحن إخوة بنو أبٍ واحدٍ و هو شيخ صديق نبيّ من الأنبياء إسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنّا أثنىٰ عشر فهلك منّا واحد قال فكم أنتم هاهنا قالوا عشرة قال فأيَن الأخر قالوا عند أبيه قال فمن يشهد لكم علىٰ صدقكم قالوا لا يعرفنا هاهنا أحد قال فدعوا بعضكم عندي رهينة و أئتوني بأخيكم من أبيكم حتّىٰ أصدّقكم.

و قيل قالوا قد عرَّفناك أنسابنا فبأيّ شيٍ تسكن نفسك الينا قال لهم يوسف أئتوني بأخيكم من أبيكم قيل فإقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون فخلّفوه عنده كما قال اللّه تعالىٰ حكايةً عنه، **قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ**.

ثمّ قال لهم **أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ** والمعنى ألا ترون أنّي أوفي الكيل و لا أبخسه و أزيدكم حمل بعير لأخيكم مع أنّه ليس فيكم وأنيّ خير المنزلين في الإحسان بكم و ضيافتكم و يحتمل أن يكون المراد بقوله أنّي أوفي الكيل، أي أرَّخص لكم في السِّعر فصار زيادةً في الكيل و كيف كان فالمعنىٰ واضح.

ثمّ قال لهم **فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرَبُونِ**

أي فأن لم تأتوني بالأخ، فلا كيل لكم عندي أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد لأنّه قد وفّاهم كيلهم في هذه الحال و قوله: **وَ لَا تَقْرَبُونِ**، أي لا تدخلوا بلادي

في المستقبل إن لم تأتوني به و قيل معناه لا أنزلكم عندي منزلة القريب و لم يرد أنّهم يبعدون منه و لا يعودون اليه لأنّه حثّهم على العود وطلب منهم رهينة حتّى يرجعوا فإرتهن شمعون عنده و قوله تقربون، في موضع جزم بالنّهي فلذلك حذفت منه الياء و الأصل و لا تقربوني، ولو كان خبراً لكان، تقربون، بفتح النّون هذا والّذي يقوّي في النّفس أنّ بعض ما ذكروه في المقام و نحن نقلناه عنهم من مخترعات أنفسهم فلا يمكن الحكم بصحّته كقولهم، لعلّكم جئتم عيوناً و جواسيس.

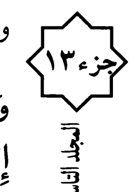
وكيف يقبل العقل السّليم أنّ يوسف قال لهم ذلك مع أنّه كان يعرف براءتهم من هذه التُّهمة فأنّ البهتان لا يليق بحال الصّديق واللّه أعلم بحقائق الأمور.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ

قال صاحب الكشّاف أي سنخادعه عنه و سنجتهد و نحتال حتّىٰ ننتزعه من يده و أنّا لفاعلون، أي لقادرون علىٰ ذلك أو أنّا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه و لا نتواني.

و قال الشّيخ في التّبيان في معنى الكلام أي و نحن نَفعل ذلك و المراودة المطالبة من قولهم راد يرود فهو رائد أي طلب و فلان يرتاد موضعاً أي يطلبه و في المثل الرّائد لا يكذب أهله إنتهىٰ.

أقول و عليه فالمعنىٰ سنطالبه عن أبيه و هذا هو الحقّ لأنّ التّعبير بالإحتيال و الإنتزاع من يد أبيه ليس في محلّه و الأمر سهل بعد وضوح المعنىٰ.



وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ يوسف أمر فِتيانه أي غلمانه أو مماليكه أن يَجعلُوا بضاعة الأُخوة في رحالهم و البضاعة قطعة من المال للتّجارة و الرّحال

جمع رحل و هو الشّئ المعدّ للرّحيل من وعاء المتاع أو مركّب من مراكب الجمال في القليل أرحُل بضّم الحاء و في الكثير رحال قيل جعلوا بضاعتهم أي متاعهم في رحالهم ليقوى دواعيهم في الرّجوع اليه اذا رأوا إكرامه إيّاهم وردّ بضاعتهم اليهم مع جدوب الزّمان و شدّته.

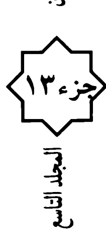
و قرأ أهل المدينة و أبي عمرو و عاصم و غيرهما، لفتيته و قرأ سائر الكوفيين، لفتيانه، و هي المشهورة بين المفسّرين و عليها المصاحف فعلاً.

قال الثّعلبي و هما لغتان جيدّتان مثل الصّبيان و الصِّبية ثمّ أنّ المراد بالبضاعة الّتي جعلوها في رحالهم أثمان ما إشتروا من الطّعام و قيل كانت دراهم ودنانير.

و عن إبن عبّاس هي النّعال و الأدم و متاع السّفر و يسمّى رحلاً.

أقول الظّاهر أنّ المراد بالبضاعة في المقام أثمان الطّعام و ذلك لأنّهم إشتروه بثمنٍ كغيرهم من النّاس فلمّا أرادوا الرّجوع قال يوسف لفتيانه أجعلوا أثمان الطّعام في رحالهم و جواليقهم و لا تأخذوا منهم شيئاً و أنّما فعل ذلك بعد أخَذ الأثمان و قبولها و إعطاء بدلها من الطّعام.

و قوله: **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنْقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ** يحتمل أن يكون المراد به معرفة حقّ التّكرم بإعطاء البدلين بعد رجوعهم الىٰ أبيهم و إطّلاعهم علىٰ أنّ ثمن الطّعام ردَّ اليهم و على هذا فالمعرفة حصلت لهم بعد الرّجوع و هم لم يعلموا بالرَّد قبله و يحتمل أن يكون ردَّ الثَّمن اليهم في حضورهم و أنّهم كانوا عالمين به و الإحتمال الأوّل أوفق بسياق الآية.



لقوله: **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنْقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ** أي أنّهم قبل الرّجُوع الى أهلهم لم يعلموا به وقوله: **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أي لكي يرجعوا واللاّم لام الغرض أي غرضنا من ذلك هو رجوعهم الينا و يؤيّد هذا الإحتمال أنّ يوسف كان عالماً بأنّهم لا يقبلون الطّعام إلاّ بثمنه فأخذ منهم الثّمن أوّلاً ثمّ فَعَل ذلك في غيابهم.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَآ أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

يأ فلمّا رجعوا من مصر الى أبيهم في كنعان قالوا يا أبانا منع منّا الكيل يأ مُنع منّا ذلك فيما بعد في المستقبل و الظّاهر أنّهم قالوا ذلك لأبيهم قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع، فقولهم منع منّا الكيل إشارة الى قول يوسف حيث قال لهم، فأن لم تأتوني به فلاكيل لكم عندي.

و من المعلوم أنّهم اذا أنذروا بمنع الكيل فقد منِعوا منه في الحقيقة و أنّما قالوا ذلك لأبيهم بعد ما شهدوا عنده بحسن سيرة ملك مِصر فقالوا له إنّا قدمنا علىٰ خير رجلٍ أنزلنا و أكرمنا بكرامٍ لو كان رجلاً من أل يعقوب ما أكرمنا كرامته و ذكروا أنّه إرتهن شمعون و لذلك قالوا**فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** أي فأرسل معنا أخانا بنيامين الىٰ مصر، نكتل، بسببه ما نشاء من الطّعام و إنّا له، أي لأخينا بنيامين، لحافظون من أن يصيبه مكروه أو يناله سُوء فلمّا قالوا ذلك لأبيهم و طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم الى مصر قال يعقوب كما حكى اللّه عنه.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ

هَل، إستفهام في معنىٰ الإنكار و النّفي و لا يبعد أن يكون الإستفهام علىٰ حاله.

فالمعنىٰ علىٰ الأوّل: لا أمنكم عليه.

علىٰ الثّاني: كيف أمنكم عليه و قد فعلتم بأخيه ما فعلتم فقوله: **ءَامَنُكُمْ**، فعل مضارع من أمِنَ يأمَن و الأصل أمن قلبت الهمزة الثّانية ألِفاً فصار أمن و أنّما قلّبت بها لثقل التّلفظ بها و كون ما قبلها مفتوحة و قوله أمنتكم، فعل ماضٍ أي كما أمِنتكم على أخيه يوسف من قبل ذلك و المقصود أنّكم قلتم في

يوسف، و أنّا لَه لحافظون، ثمّ فعلتم به ما يفعل الخائن و الأن أيضاً تقولون، و إنّا له لحافظون، و حيث أنّكم ختنتم بضمانكم في يوسف فما يؤمنني من مثل ذلك و مع ذلك إنّي أفوَّض أمري الىٰ اللّه وأقول.

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأرجو منه تعالىٰ أن يرحمني بحفظه فتوكّل علىٰ اللّه و وافقهم على إرساله معهم.

قيل لمّا قال يعقوب ذلك أي فوَّض أمره الى اللّه و توَّكل عليه قال اللّه تعالىٰ و عزّتي لأردَّن اليك كليهما بعد ما توَّكلت علَّي فينبغي أنّ يتوكّل العبد علىٰ اللّه في جميع أموره و يعتمد على حفظة دون حِفظ ما سواه فأنّ ما سواه محتاج في حفظ شيءٍ من الأشياء الى الأسباب والألات و اللّه تعالىٰ غنّي عنها بل هو مسّبب الأسباب مستغنٍ عن الوسائط في جميع الأمور ولذا حفظ يُوسف في الجبّ و كذا دانيال النّبي عليه السلام فأنّ بخت النَّصر طرحه في الجبّ و ألقى عليه أسدين فلم يضّراه فأتاه رسولٌ فقال يا دانيال فقال من أنت قال أنا رسول ربّك اليك أرسلني اليك بطعامٍ فقال دانيال الحمد للّه الذّي لا ينسى من ذكره.

ثمّ أنّ قوله حافظاً، منصوب على الحال أن كان على لفظ الفاعل و على التَّمييز أن لم يكن عليه فيرجع الى من يحفظ بأمره من الملائكة و الحفظة وكلا الوجهين لا بأس بهما و منهم من قَرأ اللّفظ بغير ألف فقال، حفظاً، و المأل الىٰ واحدٍ.

■

وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتٰاعَهُمْ وَجَدُوا بِضٰاعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قٰالُوا يٰآ أَبٰانٰا مٰا نَبْغِي هٰذِهِ بِضٰاعَتُنٰا رُدَّتْ
إِلَيْنٰا وَ نَمِيرُ أَهْلَنٰا وَ نَحْفَظُ أَخٰانٰا وَ نَزْدٰادُ كَيْلَ
بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قٰالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ
حَتّٰى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللّٰهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلّٰآ أَنْ
يُحٰاطَ بِكُمْ فَلَمّٰآ اٰتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قٰالَ ٱللّٰهُ عَلٰى مٰا
نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَ قٰالَ يٰا بَنِيَّ لٰا تَدْخُلُوا مِنْ
بٰابٍ واٰحِدٍ وَ ٱدْخُلُوا مِنْ أَبْواٰبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مٰآ
أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلّٰا لِلّٰهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَ
لَمّٰا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مٰا كٰانَ يُغْنِي
عَنْهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِلّٰا حٰاجَةً فِي نَفْسِ
يَعْقُوبَ قَضٰيهٰا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ وَ لٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلٰى
يُوسُفَ اٰوٰىٓ إِلَيْهِ أَخٰاهُ قٰالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلٰا
تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمّٰا جَهَّزَهُمْ
بِجَهٰازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقٰايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قٰالُوا وَ
أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مٰاذٰا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قٰالُوا نَفْقِدُ
صُواٰعَ ٱلْمَلِكِ وَ لِمَنْ جٰآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ
زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مٰا جِئْنٰا لِنُفْسِدَ
فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا كُنّٰا سٰارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قٰالُوا فَمٰا



جَزٰآؤُهُۥٓ إِنْ كُنْتُمْ كٰاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قٰالُوا جَزٰآؤُهُۥ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰآؤُهُۥ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعٰآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهٰا مِنْ وِعٰآءِ أَخِيهِ كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلّآ أَنْ يَشٰآءَ ٱللّٰهُ نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰآءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

◀ اللّغة

مَتٰاعَهُمْ المتاع بيع التّجار ممّا يصلح للمبادلة والمراد به هاهنا أوعية الطّعام.

بِضٰاعَتَهُمْ البضاعة قطعة من المال و المراد بها هاهنا ثمن الطّعام.

نَبْغِي البَغي الظُّلم و المراد به في المقام الكذِب و هو أيضاً ظلمٌ.

نَمِيرُ الميرة الأطعمة التّي تحمل من بلدٍ الى بلدٍ، نمير، أي نجلب لهم المَيرة.

مَوْثِقًا الموثق العقد المؤكّد بالقسم.

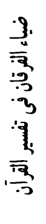
اٰوٰىٓ الإيواء ضمّ المحبُوب و تصييره الى موضع الرّاحة و منه المأوى المنزل الّذي يأوي اليه صاحبه للرّاحة فيه.

تَبْتَئِسْ أي لا تغتّم و هو مأخوذ مِن البؤس و معناه إختلاط البؤس بالحزن.

ٱلسِّقٰايَةَ صواع الملك الّذي كان يشرب فيه و أمّا في الأصل فهي الإناء الّذي يسقىٰ فيه.

مُؤَذِّنٌ المؤذَّن المنادي و الإيذان الإعلام.

أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ العِير بكسر العين القافِلة التّي فيها الإجمال و قيل قافلة الحَمير.



صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ الصُّواع مكيال الطّعامن و جمعه صيعان و أصواع.

◀ الإعراب

كَمَآ أَمِنتُكُمْ في موضع نصب على المصدر أي أمناً كأمني إيّاكم علىٰ أخيه خَيْرٌ حَٰفِظًا تمييزٌ أو حال و يقرأ، حفظاً، و هو تمييز لا غير مَا نَبْغِي ما، إستفهام في موضع نصب بنبغي و يجوز أن تكون نافية وفي نبغي وجهان:

أحَدهما: أنّه بمعنى نطلب و المفعول محذوف أي ما نطلب الظّلم.

الثّانى: أن يكون لازماً بمعنى ما نتعدّى.

لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ هو جواب قسم على المعنىٰ لأنّ الميثاق بمعنى اليمين إِلَّآ أَن يُحَاطَ هو إستثناء مِن غير الجنس ويجوز أن يكون من الجِنس و التّقدير لتأتنّني به علىٰ كلّ حالٍ إلاّ في حال الإحاطة بكم وَ لَمَّا دَخَلُوا في جواب لَمّا، وجهان:

أحدهما: هو، أواىٰ.

الثّانى: هو محذوف تقديره إمتثلوا أو قضوا حاجة أبيهم.

قَالَ إِنِّىٓ أَنَا هو مستأنف و هكذا كلّ ما إقتضى جواباً وذكر جوابه ثمّ جاءت بعده، قال، فهي مستأنفة.

◀ التّفسير

وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن إخوة يوسف بعد رجوعهم عن مصر الى أبيهم على ما مرَّ تفسيره في الأيات السّابقة فقال و لمّا فتحوا متاعهم الذّي حملوه من مصر و المتاع إسم مِن متع كالكلام والسّلام من كلم و سلم و هو في الأصل يطلق على كلّ ما إنتفع به و المراد به هاهنا أوعية الطّعام مجازاً إطلاقاً للكلّ على بعض مسمّياته و يسمّىٰ هذا المجاز في إصطلاح بعضهم بالحقيقة

القاصرة و البضاعة المال الّذي أعطوه الملك للمتاع ردَّت اليهم، أي ردَّت البضاعة اليهم تفضُّلاً و قد علموا بدلالة الحال فمعنى الكلام هو أنّ إخوة يوسف بعد رجوعهم من مصر الى أبيهم في كنعان لمّا فتحوا متاعهم أي أوعية طعامهم وجدوا بضاعتهم ردَّت اليهم أي وجدوا بضاعتهم التّي كانوا وزنوها بشري الطّعام في مصر، قد جعلت في وسط أمتعتهم فلمّا رأوا ذلك **قٰالُوا يٰآ أَبٰانٰا مٰا نَبْغِي** أي ما نطلب نباء على أن تكون إستفهامية و بعبارة أخرى معناه، أيُّ شئٍ نطلب، و أمّا علىٰ القول بأنّها نافية فمعنى الكلام، ما نكذب فيما أخبرناك عن ملك مصر و دليله أنّ بضاعتنا ردّت إلينا و أنّما قلنا ذلك لأنّ البغي في الأصل هو طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتحرّى فتارةً يعبّر في القدر الّذي هو الكمّية و تارةً في الوصف الّذي هو الكيّفية يقال بغيت الشّئ إذا طلبت أكثر ما يجب و هكذا إبتغيت و هو ممدوحٌ و مذمومٌ فالممدوح منه هو تجاوز العدل الى الإحسان و الفرض الىٰ التَّطوع و المذموم منه هو تجاوز الحقّ الى الباطل أو الى الشُّبه إذا عرفت معنى البغي و موارد إستعماله فنقول ما نبغي، إن كانت، ما، استفّهامية معناه أيُّ شئٍ نطلب و الحال أنّ بضاعتنا ردّت الينا واضح و أمّا أن كانت نافية فهي في الحقيقة تنفي الطَّلب أي لا نطلب أو لسنا نطلب شيئاً و بضاعتنا ردّت إلينا.

و أمّا قول بعض المُفسّرين أي ما نكذب فيما أخبرناك عن ملك مِصر فهو محمولٌ على أن يكون المراد بالبغي الظّلم و من مصاديقه الكذب و المعنىٰ لا نكذب أي لا نظلم في الإخبار و لا بأس به والمآل واحد.

وَ نَمِيرُ أَهْلَنٰا وَ نَحْفَظُ أَخٰانٰا وَ نَزْدٰادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ يقال ماره يميره ميراً إذا حمل له الطّعام الىٰ بلده قال الشّاعر:

بعثتك مائراً فمكثت حولاً   متىٰ يأتي غياثك من تغيثُ

و نحفظ أخانا، أي من الجوع و العطش و سائر المكاره و نزداد كيل بعيرٍ، أي و يعطينا الملك فضل كيل بعير لمكان أخينا و ذلك كيلٌ يسيرٌ، أي قليلٌ و

المقصُود أنّ ما يعطينا الملك لا يكفينا بل نحتاج أن نضيف اليه كيل بعير أخينا.

و قيل معناه أنّ ذلك متيسَّرٌ على من يكيل لنا و ليس بمتعسّرٍ عليه.

و ملّخص الكلام في معنى الآية هو أنّهم لمّا فتحوا متاعهم ورأوا من ردّ الملك بضاعتهم أي أثمان طعامهم في أمتعتهم قالوا لأبيهم يعقوب أيُّ شئ نطلب وراء هذا الإحسان الذّي رأيناه من ملك مصر حيث لم يأخذ منّا شيئاً في الحقيقة تفضّلاً منه علينا و نمير أهلنا في رجوعنا الى الملك و أخذ الطّعام منه بقدر ما يكفي الأهل و العيال و نحفظ في السَّفر الى مصر لأخذ الطّعام أخانا من الجوع و العطش و غيرهما من المكاره و الأفات و نزداد، أي نأخذ الزّيادة من الملك لأجل أخينا لأنّه كا يعطي بإسم كلّ رجلٍ حمل بعير، **ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسيرٌ** أي سهل و مشّقة فيه للملك، أو المعنىٰ أنّ المأخوذ منه بدون الزّيادة لأجل أخينا، لا يكفينا فكأنّه قيل لهم أيّ حاجة الىٰ الإزدياد فقالوا في الجواب، ما يحمله أباعرنا كيلٌ يسير أي قليل لا يكفينا فنحتاج الى الزّيادة و أنّما قالوا ذلك لترغيب يعقوب و تحريصه على إرسال أخيهم معهم لأنّهم كانوا غير مأمونين عند أبيهم بعد قضّية يوسف كما قال لهم هل آمنكم عليه كما آمنتكم علىٰ يوسف، و فيه إيماء الى أنّ سابقة السُّوء توجب سلب الإعتماد على صاحبها كما أنّ حسن السّابقة يوجب الإعتماد فكان حقّاً على يعقوب أن لا يعتمد عليهم لأنّه لم ينس ما فعلوا بيوسف و علم مكرهم و حذرهم و أنّهم يكذبون و لا يصدقون و من كان كذلك فالعقل السّليم يحكم بعدم الإعتماد عليه فأنّ من جرّب المجرّب حلّت به النّدامة، والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، أو لا يلسع المؤمن و اللّدغ و اللَّسع بمعنى واحدٍ و لأجل ذلك كان يعقوب خائفاً من أن يرسل بنيامين كما حكى اللّه عنه بقوله:

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتّٰى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللّٰهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللّٰهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

كلمة، **لَن**، لنفي الأبد أي قال يعقوب في جوابهم لن أرسله معكم أبداً بعد ما عاينت منكم في قصّة يوسف، **حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ** أي حتّىٰ تحلفولي باللّه لتجيئوني به و قيل في معناه أي عهداً موثوقاً به أي معتمداً مؤكدّاً بالحلف و ذكر اللّه و الموثق مصدر ميميٌّ بمعنى الشّقة أستعمل في الآية بمعنى إسم المفعول أي الموثوق به و أنّما قال من اللّه لأنّ العهود و تأكيدها مأذون فيه من اللّه تعالىٰ و قوله لتأتنّني به، جواب القسم إذا المعنىٰ حتّى تحلفوا باللّه لتأتنّني به في كلّ الأوقات و في جميع الأحوال، **إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ** موضع أن، نَصب بأنّه مفعول له و تقديره إلاّ لإحاطةِ بكم و المعنىٰ إلاّ أن يحال بينكم و بينه.

و قال بعض المفسّرين هو كناية عن كونهم مغلوبين، مقهورين بحيث لا يقدرون على إتيانه ألبّتة أو عن هلاكهم و موتهم و أصله من العدّو فأنّ من أحاط به العدّو يصير مغلوباً عاجزاً عن تنفيذ مراده أو هالكاً بالكليّة قالوا و لصدَّقت هذه القصّة المثل السّائر و هو قولهم البلاء موكّل بالمنطق فأنّ يعقوب عليه السلام قال أوّلاً في حقّ يوسف، و أخاف أن يأكله الذّئب فابتلىٰ من ناحية هذا القول حيث قالوا أكله الذّئب و قال هاهنا، لتأتنّني به إلاّ أن يحاط بكم، فإبتلى أيضاً بذلك و أحيط بهم و غلبوا عليه **فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ** أي عهدهم من اللّه حسبما أراد يعقوب في قوله: **حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا**، قال، أي قال يعقوب لبنيه **ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** وفيه إشارة الى أنّ التوكّل بعد التّوكيد قال بعضهم في الآية دليل على جواز التعلّق بالأسباب الظّاهرة من العهود و المواثيق مع صحّة التوكّل.

و الحاصل أنّ الأخوة لما أجابوه باليمين و حلفوا له و أشهدوا على أنفسهم بذلك قال يعقوب و اللّه على ما نقول وكيل أي حافظ و قيّمٌ به فأنّ الوكيل القيم بالتّدبير و القائم بالقسط فهو العدل في حكمه.

وَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَآ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أوصى بنيه بعد إنفاذه أخاهم معهم فقال لهم يا بنيّ، لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ، قيل كان لها أربعة أبواب و المعنى لا تدخلوا مِصر من باب واحد و أدخلوا من أبوابٍ متفرّقة، أي من طرقٍ شتّى قيل أنّه أمرهم بذلك لأنّه خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً و كانوا أهل جمالٍ و كمالٍ و بسطة و هم مع ذلك كانوا مشتهرين في مصر بالقربة عند الملك فخاف يعقوب عليهم إن إدخلوا جماعةً واحدة أن يصابوا بالعين ولم يوصهم بذلك في الكرّة الأولى لأنّهم كانوا مجهولين حينئذٍ مغمورين بين النّاس و كان الدّاعي اليها خوفه على بنيامين.

و قال الجبائي أنّه خاف عليهم حسد النّاس لهم و أن يبلغ الملك قوّتهم و شدة بطشهم فيقتلهم خوفاً على ملكه، و أنكر العين و قال لم تثبت بحجّةٍ و أنّما هو شئ يقوله جهّال العامّة انتهىٰ ما نقله في التّبيان عنه ثمّ قال والّذي قاله غير صحيح في أمر العين بل غير منكرٍ أن يكون ما قال المفسّرون صحيحاً.

وقد روي عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال العين حقّ، و أنّه صلى الله عليه و آله و سلم عوّذ الحسن و الحسين عليهما السلام وقال في عوذته، و أعيذكما من كلّ عينٍ لامّةٍ.

و قد رُويت فيه أخبار كثيرة و قد جرت العادة به و ليس يمتنع أن يكون اللّه تعالىٰ أجرى العادة لضربٍ من المصلحة أنّه متى ما ينظر إنسانٌ الى غيره على وجهٍ مخصوص إقتضت المصلحة إهلاكه أو إمراضه أو إتلاف ماله فالمنع من ذلك لا وجه له انتهى كلامه رفع مقامه.

و أنا أقول ماذكره الشّيخ قدس سره حقّ لا مرية فيه.

أمّا عُرفاً فلإطباق النّاس كلّهم عليه.

و أمّا عقلاً فلأنّ العقل لا يمنع منه و لا يحكم ببطلانه و ما كان كذلك فهو معقول.

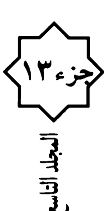
و أمّا نقلاً فالأخبار و الاثار الواردة في الباب بطُرق مختلفة و يكفينا في ذلك قوله تعالىٰ: **وَ إِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**[1] و سيجئ الكلام في موضعه إن شاء اللّه و قد إشتهر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال أنّ العين لتدخل الرّجل القَبر والجَمَل القِدر.

و قال في تعوّذه، أعوذ بكلمات اللّه التّامة من كلّ شيطانٍ و هامّة و من كلّ عينٍ لامّة، و لتفصيل الكلام فيه موضع آخر و أمّا قوله: **وَ مَآ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** ففيه إعترافٌ من يعقوب بأنّه لا يملك الأمر و لا يغني عمّن يريده اللّه بسوء و أنّ الأمور بيده تعالىٰ و الى هذا أشار بقوله: **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** اى ليس الحكم إلاّ لِلّه تعالىٰ فأنّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و لا يقدر أحَد علىٰ ردعه و منعه عمّا أراد.

أن قُلت إذا كان الأمور بيده و أنّه يفعل ما يشاء فأيّ فائدةٍ فيما أوصاهم حيث قال لا تدخلوا من بابٍ واحدة الى آخر ما قال و المفروض أنّه كان لا يغني عنهم من اللّه من شيئ.

قُلتُ كون الأمور بيد اللّه و بقدرته لا ينافي نصح الأب لأبنه أو المعلّم لتلميذه أو كلّ عاقلٍ عالم لغيره ممّن لا يعلم فأنّ النّصيحة لازمة و في بعض الموارد واجبة و عليها أساس تبليغ الأحام و الإرشاد و لا سيّما من الأب المُشفق علىٰ أبنه واضح.

و أمّا أنّ التّقدير من اللّه ما هُو فهو أمرٌ آخر لا يعلمه إلاّ اللّه و قوله: **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**، فهو من الأصول الإعتقادية الّتي ينبغي لكلّ مؤمنٍ الإعتقاد عليه بعد فراغه عن التشّبث بالأسباب الظّاهرة في عالم الأسباب لا قبله و ذلك لأنّ اللّه تعالى أبى أن يجرى الأمور إلاّ بأسبابها.



١- القلم = ٥١

و معناه ما ذكرناه فأنّ يعقوب عليه السلام قد تشبّث أوّلاً بالعهود و المواثيق و قال لهم حتّى تؤتون موثقاً.

ثانياً: بالنّصيحة و الموعظة فقال يا بنّي لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ ثمّ بعد ذلك إعترف بأنّه لا يغني عنهم شيئاً من اللّه أي من قضاءه و قدره.

ثالثاً: أقرّ و إعترف بأنّ الحكم للّه تعالى لا لغيره و بعد ذلك قال و عليه توكلت الخ.

فهو عليه السلام قد عمل بوظيفته في التّمسك بالأسباب الظّاهرة ثمّ توكّل على اللّه مشعراً بأنّ ذلك كلّه لا يدفع القضاء فالأحسن أن يفوّض العبد أموره اليه و لا نعني بالتّوكيل إلاّ هذا و أنّما كرَّر قوله، عليه مقدّماً على قوله توّكلت للتّأكيد على الأمر وأنّه من أهمّ الأمور في باب السّلوك و التّقديم يفيد الحصر أي أنّ التّوكل عليه تعالىٰ لا على غيره كما في قولك في الدّار زيدٌ فأنّه يفيد الحصر بخلاف قولك زيد في الدّار و لأجل هذه الدّقيقة لم يقل توّكلت عليه فليتوّكل المتّوكلون عليه لعدم إفادته الحصر و حيث إنجّر الكلام الى مقام التّوكل فلا بأس بالتّكلم فيه إجمالاً لأنّه من أهمّ الأمور في مقام العبودّية.

فنقول التّوكل هو إعتماد القلب في جميع الأمور أو حوالته جميعها علىٰ اللّه.

و قيل هو التبري من كلّ حولٍ و قوّةٍ و الإعتماد على حول اللّه و قوّته موقوفٌ علىٰ أن يعتقد جازماً بأنّه لا فاعل إلاّ اللّه و أنّه لا حول و لا قوّة إلاّ به وانّ له تمام العلم و القدرة على كفاية العباد فَمن إعتقد ذلك إتكّل قلبه لا محالة على اللّه وحده و لم يلتفت الى غيره و لا الى نفسه أصلاً فالتّوكل لا يتمّ إلاّ بقوّة القلب و قوّة اليقين جميعاً و يضعف أو يرتفع بضعف أحدهما أو رفع أحدهما وبذلك يظهر أنّ التّوكل من الفضائل المتعلّقة بقوّتي العاقلة و الغضّبية معاً ثمّ أنه قد ثبت أنّ عماد التّوكل و ما يبتني عليه هو المرتبة الثّالثة من التّوحيد و هي أن ينكشف للعبد بإشراق نور الحقّ أنّه لا فاعل إلاّ هو و أنّ ما

عداه من الأسباب و الوسائط مسخّرات مقهورات تحت قدرته الأزلية فطالب التّوكل يلزم عليه أن يحصّل هذه المرتبة من التّوحيد لتحصيل التّوكل و كيف كان فهو منزل من منازل السّالكين و مقامٌ من مقامات الموحّدين بل هو أفضل درجات الموقنين و لذا ورد في مدحه و فضلَه و التّرغيب اليه ما ورد من الكتاب و السُّنة أمّا الكتاب، قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**[1].

علَّقه علىٰ الإيمان مشعراً بأنّه مِن صفات المؤمنين و مفهومه أنّ غير المؤمن لا يتّوكل عليه، و قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**[2] دلّت الآية علىٰ أنّ المتوكّل محبوبٌ له تعالىٰ و هو من أعظم السّعادات و أنفع البركات و به قد تَمَّ سعادة الدّارين و حلاوة النشأتين، و قال: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[3] دلّت الآية علىٰ أنّ المتّوكل علىٰ اللّه لا يحتاج الى غيره تعالىٰ وقال: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**[4] أي عزيز لا يُذّل مَن إستجار به وحكيمٌ لا يقصر عن تدبير من توّكل على تدبيره والأيات كثيرة.

ومن الأخبار قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من إنقطع الى اللّه كفاه اللّه كلّ مؤنةٍ و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع الى الدّنيا و كلّه اللّه اليها انتهىٰ.

وقال الصّادق عليه السلام أوحىٰ اللّه الى داوود ما إعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحدٍ من خلقي عرفت ذلك من بيّنتّه ثمّ تكيده السّمٰوات و الأرض و من فيهنّ إلاّ جعلت له المخرج من بينهنّ انتهى والأخبار في مدحه أيضاً كثيرة من أراد الإطّلاع على أكثر ممّا ذكرناه فعليه بكتب الأخلاق والأخبار و لنعم ما قيل فيه.

١- المائدة = ٢٣
٢- آل عمران = ١٥٩
٣- الطلاّق = ٣
٤- الأنفال = ٥١

و ما ثمّ إلاّ اللّه في كلّ حالةٍ فلا تتكل يوماً على غير لطفه
فكم حالةُ تأتي ويكرهها الفَتىٰ وخيرته فيها على رغم أنفه

و قال الاخر.

توّكل على الرّحمٰن في الأمر كلّه فما خاب حقّاً من عليه توّكلا
وكن واثقاً بالله وأصبر لحكمه تفز بالّذي ترجوه منه تفضّلاً

و يكفيك في هذا ما تراه من قصّة يعقوب و يوسف في توكلّهما على اللّه و تفويض أمرَهما اليه وأنّ اللّه تعالى كيف أنجىٰ يوسف من كيد الأخوة و أجلسه على سرير الملك و أقَّر عين يعقوب بجمال يوسف بعد الفراق و المحنة كما سيجئ تفصيل الكلام فيه و لم يبق للخائنين الحاسدين إلاّ الحسرة و النّدامة و الخجلة فأعتبروا يا أولي الأبصار.

وَ لَمّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّاسِ لا يَعْلَمُونَ

أي و لمّا دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم من أبوابٍ شتّىٰ ما كان يغني عنهم من اللّه من شئٍ، إن أراد إيقاع مكروهٍ بهم و بعبارةٍ أخرىٰ لم يكن يعقوب يغني عنهم من اللّه أي من قضاءه و قدره شيئاً إلاّ حاجةً في نفس يعقوب قضاها من خوف العين عليهم أو الحسد على إختلاف القولين في وصّية يعقوب إيّاهم قالوا، إلاّ، بمعنى لكن، لأنّ ما بعدها ليس من جنس ما قبلها هكذا فسّروا الآية والذّي نفهم منها هو أنّ اللّه تعالى أخبر بهذه الآية عن نقطةٍ خفيت على المفسّرين و هي أنّ الدُّخول من بابٍ واحدٍ أو من أبوابٍ متفرّقة سيّان لا فرق فيهما و أن زعم يعقوب أنّ دخولهم من أبوابٍ متفرّقة أحسن من دخولهم من بابٍ واحد لِما فيه من إصابة العيد أو الحسد عليهم بخلاف الدُّخول من أبوابٍ متَّفرقة و يعقوب أيضاً كان عالماً بأنّ ما أوصاهم به لا يدفع

القضاء إن تعلّق مكروهٍ بهم و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ**[١] و لم يخف عليه شيئ و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون بأنّ القضاء لا يردُّه شيئ و يحتمل أن يكون المعنى أكثر النّاس لا يعلمون أنّ يعقوب لم أوصاهم بما و أصاهم مع علمه بأنّه لا يفع القضاء و أنّما أوصاهم لأنّ الأسباب و الإحتمالات لابدّ من مراعاتها لكلّ أحدٍ ثمّ بعد ذلك التّوكل على اللّه وتفويض الأمر اليه كما أنّ يعقوب فعل ذلك لعلمه بأنّ اللّه هو الحافظ لا غيره.

و قال بعض المفسّرين و أنّما إصابة العين لم تفع عليهم لكونهم غير مقدّرة لا لأنّها إندفعت بذلك و قال في قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**، أي لا يعلمون أسرار القدر و يزعمون أن يغني الحذر.

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ اٰوىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية دخولهم على يوسف و معرفتهم إيّاه فقال و لمّا دخلوا، أولاد يعقوب ويهم بنيامين علىٰ يوسف، أوىٰ اليه أخاه، أي أوىٰ يوسف أخاه اليه، والإيواء ضمّ المحبوب و تصييره الىٰ موضع الرّاحة ومنه المأوى و هو المنزل الّذي يوي اليه صاحبه للرّاحة فيه.

قال بعضهم أي ضمّه اليه و أنزله معه و قيل أوى اليه في الطّعام.

و قيل أمر يوسف أن ينزل كلّ أثنين في منزلٍ فبقي أخوه منفرداً فضَّمه اليه و قال أشفقت عليه من الوحدة ثمّ قال له سرّاً من إخوته، إنّي أنا أخوك فلا تبتئس أي فلا تحزن بما كانوا يعملون، فأنّ الإبتئاس و الإكتئاب و الإغتمام نظائر.

و قد ذكر بعضهم أنّ يوسف لمّا خلىٰ به قال له هل تزّوجت قال نعم ولي عشرة بنين إشتققت أسماءهم من إسم أخ لِي هلك.

١- يوسف = ٦٨

و قال الأخر أنّه قال في جواب يوسف رزقتُ ثلاثة أولاد ذكور قال يوسف فما أسماءهم قال إسم أحدهم ذئب فقال له يوسف أنت إبن نبيّ فكيف تسمّي ولدك بأسماء الوحوش فقال أنّ أخي لمّا أكله الذّئب بزعم إخوتي سمّيت إبني ذئباً حتّىٰ اذا صحت به ذكرتُ أخي فأبكي فبكىٰ يُوسف و قال ما إسم الأخر قال إسمه، دم، قال و لم سمّيت بهذا الإسم فقال أنّ إخوتي جاءوا بقميص أخي متَّضمخاً بالدّم فسَّميته بذلك حتّىٰ اذا صحت به ذكرت أخي فأبكي فبكى يوسف ثمّ قالإسم الثّالث قال يوسف سمّيتُ به حتّىٰ اذا صحت به ذكرت أخي فأبكي فبكى يوسف و قال في نفسه إلٰهي و سيّدي هذا أخي أراه بهذا الحزن فكيف يكون حال الشّيخ يعقوب اللّهم إجمع بيني و بينه قبل فراق الدّنيا ثمّ قال له أتحبّ إن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخاً مثلك و لكن لم يلدك يعقوب و لا راحيل فبكى يوسف وقام اليه و عانقه و تعرّف اليه و عند ذلك قال، إنّي أنا أخوك.

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و فيه إشارة الى أنّ اللّه تعالى لا يهدي كيد الحاسدين بل النَّصر الإلٰهي و التّأييد الرّباني مع القوم الصّالحين ألا ترى الىٰ ما فعل أولاد يعقوب في حقّ يوسف من الحسد و الأذى فما وصلوا الى ما أملوا بل اللّه تعالىٰ جمع بين الأخوين و لو بعد حين و كذا بين يعقوب و يوسف.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

الجهاز المتاع ومنه جهاز المرأة.

و قال بعضهم هو المتاع الفاخر و قيل كلّ ما ينتفع به و المراد به في المقام الطّعام بقرينة الحال و التّجهيز التّسريح و تنجيز و المعنىٰ لمّا كال كيلهم وأعطىٰ كلّ واحدٍ منهم حمل بعيرٍ قال لهم أتحبّون سرعة الرّجوع الى أبيكم قالوا نعم فأمرهم بالمسير قال له بنيامين بعد أن عرف أنّ يوسف أخاه على ما

مرًّ أنا لا أفارقك قال له يوسف قد علمت إغتمام والدي بي فاذا حبستك إزداد غمّه سبيل الى ذلك إلاّ أن أشهرك بأمرٍ فظيع قال لا أبالي فإفعل ما بدا لك قال أدسَّ صاعي في رحلك ثمّ أنادي عليك بأنّك سرقته ليتَّهيأ لي ردَّك بعد تسريحك معهم قال إفعل فلمّا جهزّهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه بينامين.

والسّقاية مشربة بكسر الميم أي إناء و يشرب منه جعلت صواعاً يكال به قيل كانت من ياقوتة حمراء تساوي مائتي ألف دينار و كان يوسف يشرب منها فلمّا جعلها في رحل أخيه و سارت الرَّكب حتّى إنفصلت من مِصر أرسل يوسف اليهم و إستوقفوهم فوقفوا ثمّ أذَّن أي أعلم مؤذّن أي نادى منادٍ من فتيان يوسف أو غلمانه و إسمه أفرايتم، أيّتها العير، و هي الإبل التّي عليها الأحمال لأنّها تعير أي تذهب و تجئ و المراد أصحاب الإبل كما في و إسأل القرية أي أهلها فهذا تفسير ألفاظ الآية علىٰ مذاق المفسّرين و لا خلاف فيه.

و أنّما الخلاف وقع بين المفسّرين في أمورٍ لابدّ لنا من الإشارة اليها:

أحدها: أنّ يوسف أمر المؤذّن أو أذَّن المؤذّن من قبل نفسه فقال بعضهم أنّ الأمر بذلك هو يوسف و قال الأخرون لم يأمره به.

الثّانى: أن يقال لِم جعل السّقاية في رحل أخيه.

الثّالث: نسبته السّرقة الى أولاد يعقوب كانت بأمر يوسف أو لا.

الرّابع: في جوازها و عدم جوازها و لا سيّما في حقّ يوسف النّبي الّذي إتَّفقوا على عصمته.

أمّا البَحث في المقام الأوّل: فإعلم أنّهم إختلفوا في ذلك فمنهم من ذهب الى أنّ يوسف أمر المؤذّن بالإيذان و منهم من قال أنّه قال ما قال من قبل نفسه.

فَعلىٰ الثّانى: لا يكون فيه إشكالاً و هو ظاهر و أمّا على القول الأوّل و هو أنّ يوسف أمره به فالإشكال فيه موجود و هو أنّه كيف أمر المنادي به و فيه نسبة



السِّرقة الى من لم يسرق فهو داخل في التُّهمة التّي هي أقبح من الكذب و الكذب و التُّهمة لا يليقان بشأن النّبي المعصوم و قد أجابوا عنه تارةً بأنّه أراد من السِّرقة أخذهم له من أبيه أي أنّكم أخذتم يوسف من أبيه علىٰ وجه الخيانة كالسُّراق و قد صدر التَّعريض و التَّورية من الأنبياء عليهم السّلام و عليه فمعنى الكلام أنّكم لسارقون يوسف من أبيه حين طرحتموه في الجبّ.

و أخرى بأنّه أراد بهذا الكلام ظاهر الأمر و هو أنّكم أيّتها العير حالكم حال السُّراق ظاهراً و ذلك لأنّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا المالك.

ثالثة: بأنّه كان حيلة لإجتماع شمله بأخيه و فصله عنهم اليه و هذا بناءً على بنيامين لم يعلم بدَّس الصّاع في رحله و لا أخبره بنفسه.

و قال بعضهم أنّ معنى الكلام الإستفهام أي أو أنّكم لسارقون و الغرض من هذه الاجوبة هو أن لا يعزى يوسف الى الكذب لعصمته و أمّا غيره من النّاس فلا إشكال فيه لعدم عصمتهم.

أمّا المقام الثّانى: و هو أنّه لم جعل السّقاية في رحل أخيه فالوجه فيه واضح اذ لو جعلها في رحل غيره لم يحصل المطلوب لأنّه أراد بذلك أن يأخذه عنهم ففي الحقيقة هو حيلة لإجتماع شمله بأخيه و حيث رأىٰ المصلحة فيه و أنّ الإجتماع به أهمَّ من الإفتراق أخذ به كما هو القاعدة العقليّة، و الشّرعية في دوران الأمر بين المهمّ و الأهمّ و هذا من المستثنيات و يجوز فيه الكذب و لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً.

أمّا الثّالث: و هو نسبة السِّرقة فقد ظهر الجواب عنه، و قلنا أنّه أراد بها سرقتهم يوسف من أبيه، أو أراد أنّ إنقاذه أخيه منهم أهمَّ فدخل الكذب في المستثنيات هذا كلّه مع إحتمال أن يكون ما صدر منه أنّما صدر بوحيٍ من اللّه اليه و على هذا فالأمر أوضح اذا عرفت هذا فنقول:

معنى الآية أنّ يوسف لمّا جهزّهم بجهازهم و أراد أن يمسك أخاه عنده بعد إمتناعه عن الخروج معهم إحتال فيه حيلة شرّعية عقليّة حتّى يمسكة

عنده ففعل ما فعل و الحقّ عندي بعد ذلك كلّه هو أنّ قوله: **إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ** ليس حكاية عن قول يوسف بل هو حكاية قول المؤذّن كما هو صريح الآية فإنّ اللّه يقول ثمّ أذّن مؤذّن أيّتها العير أنّكم لسارقون، و لم يقل أنّ يوسف قال كذلك أو أنّه أمر المؤذّن به.

نعم أنّه أمر المؤذّن أو أصحابه بكشف الحال و أخذ السّقاية من رحالهم و لم يقل أنّهم سرقوا و اذا كان كذلك فلا إشكال فيه و أمّا من يدّعي أنّ يوسف نسب السِّرقة اليهم أو أمر غيره بأن ينسبها اليهم فعليه بالاثبات و أنّى له بإثبات ذلك و الآية لا تدلّ على ما إدَّعوه و دليل العقل أيضاً حاكم ببطلانه لثبوت العصمة فيهم و ليس كلّما يقول به المأمور في كلماته كاشفاً عن رضاية الأمر به فضلاً عن أمره.

ألا ترىٰ أنّ الأمِر يقول لمأموره جئني بفلان مثلاً و هو يقول لفلان ما يقول بمقتضى عقله و فهمه عند أخذه فكيف يمكن أن يقال أنّ جميع كلمات المأمور ممّا أمر به الأمر و ما نحن فيه من هذا القبيل و عليه فالآية على ظاهرها و لا إشكال فيها أصلاً.

قٰالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مٰاذٰا تَفْقِدُونَ

لمّا أذّن المؤذّن فيهم و سمعوا ندائهم بأنّكم سارقون أقبلوا عليهم أي على أصحاب الملك و قالوا لهم ماذا تفقدون أي أيُّ شيءٍ فقدتموه.

قٰالُوا نَفْقِدُ صُوٰاعَ ٱلْمَلِكِ وَ لِمَنْ جٰآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ



أي قال لهم أصحاب يوسف أنّا فقدنا صواع الملك و من جاء به و ردَّه الينا فله حمل بعير من الطّعام وقوله: **وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ** لأنّ زعيم القوم متكلّم عنهم فكأنّه قد كلّم بذلك جميعهم و لذلك قال: **وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ** و لم يقل نحن و لا يبعد أن يكون القائل بهذا الكلام أعني به قوله و أنا به زعيمٌ، هو المؤذّن الّذي أذّن فيهم و قال أنّكم لسارقون و عليه فلا يحتاج الكلام الى التّأويل.

ثمّ أنّ الصُّواع بضمّ الصّاد مكيال الطّعام قيل كان كأساً للملك يشرب فيه و جمعه صيعان و أصواع، و الحمل بكسر الحاء على الظَّهر و بالفتح على البطن.

و في قوله: **وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** إشارة الىٰ أنّ من جاء به من عند نفسه قبل التَّفتيش فله حمل بعيرٍ من الطّعام و قيل معناه، و لمن دلَّ على سارقه كذا و كذا والمقصود واضح.

قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مٰا جِئْنٰا لِنُفْسِدَ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا كُنّٰا سٰارِقِينَ

هذا حكاية ما جاب به أهل العير لمّا سمعوا النّداء من أصحاب يوسف مِن فقد صواع الملك قالوا تاللّه، قسم فيه معنى التَّعجب ممّا أضيف اليهم و الجمهور على أنّ التّاء في تاللّه، بدل من الواو مختّصة بإسم اللّه تعالىٰ والمعنىٰ ما أعجب حالكم أنتم تعلمون علماً لا شكّ فيه أنّا من ديانتنا و أمانتنا بريئون ممّا تنسبون الينا فكيف تقولون لنا أنّكم لسارقون و مفسدون في الأرض و أنّما قالوا ذلك مع أنّ أصحاب يوسف لم يقولوا أنتم مفسدون لأنّ السِّرقة الّتي نسبوها اليهم من أعظم مصاديق الفساد في الأرض.

روي أنّهم كانوا لا ينزلون على أحدٍ ظلماً و لا يرعون ذرع أحدٍ و أنّهم جمعوا علىٰ أفواه إبلهم الأكمّة لئلا تعيث في زروع النّاس.

و الّذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ المقصود من قولهم لَقد علمتم الخ هو صحّة معاملتهم و شدّة توقّيهم لما لا يجوز لهم ممّا ينبّئ عن مقاصدهم و بعبارةٍ أخرى أصحاب يوسف لم يشاهدوا منهم إلاّ الخير و الصّلاح و الأدب و حسن الخلق و هو دليل على عدم فسادهم في الأرض فأنّ الأثر يدلّ على المؤثّر و يعبّر عنه بالبرهان الأنّ، فكيف قالوا لهم ما قالوا و لأجل ذلك **قٰالُوا تَاللّٰهِ**، و هو القسم الّذي فيه معنى التَّعجب و كيف كان لمّا نفوا عن أنفسهم السِّرقة و الفساد و أقسموا عَليه.

قٰالُوا فَمٰا جَزٰآؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كٰاذِبِينَ

أي فما جزاء الفاعل إن بأن كذبكم، كلمة، ما، إستفهاميّة فيها معنى التّهديد أي أنتم تقولون و تدّعون عدم السّرقة فأن ظهر كذبكم و ثبتت سرقتكم فما تقولون في جزاءه.

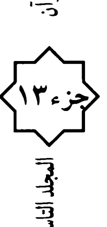
قَالُوا جَزٰآؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰآؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلظّٰالِمِينَ

قالوا أية قالت إخوة يوسف في جواب أصحاب يوسف، جزاءه أي جزاء الفاعل أن يستعبد و يستّرق، فجزاءه، مبتدأ و **مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ** خبره و التّقدير جزاءه إستعباد من وجد في رحله فهو كناية عن الإستعباد و في الجملة معنى التّوكيد كما تقول جزاء من سرق القطع فهذا جزاءه.

و قال بعض المفسّرين، قوله فما جزاءه على حذف المضاف أي فما جزاء سرقة الصُّواع عندكم أيّتها العير أو كيف الحكم في شريعتكم، إن كنتم كاذبين، في جحودكم و نفي كون الصُّواع فيكم، قالوا جزاءه من وجد، أي أخذ من وجد الصّواع.

في رحله، و إسترقاقه و كان حكم السارق في شرع يعقوب أن يستّرق السّارق سنة، بدل قطع اليد في شرعنا فقوله: **فَهُوَ جَزٰآؤُهُ** تقرير لذلك الحكم أي فأخذه جزاءه، **كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلظّٰالِمِينَ**، بالسّرقة هو تأكيد للحكم المذكور غبّ تأكيد و بيان بقبح السّرقة.

و ملّخص الكلام أنّهم أقرُّوا على أنفسهم بأنّ جزاء السّارق الإسترقاق و الإستعباد ثقةٍ بكمال براءتهم منها و هم عمّا فعل بهم غافلون.



فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعٰآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهٰا مِنْ وِعٰآءِ أَخِيهِ كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰاكٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلّآ أَنْ يَشٰآءَ ٱللّٰهُ نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰآءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

أوعية جمع وعاء و هو الظّرف و المراد بها أوعية الطّعام و إختلفوا فيمن بدأ.

فقال قوم بدأ يوسف بأوعيتهم أي بتفتيشها قبل وعاء أخيه و هو بنيامين.
وقال الأخرون بدأ المؤذّن أو الزَّعيم بأوعيتهم قبل وعاء أخيه.
فَعلىٰ الأوّل: أرجعوا العير الى يوسف للتَّفتيش.
علىٰ الثّاني: فتَّشوا الأوعية في المحلَّ بأمر يوسف.

و الّذي يستفاد من ظاهر الآية هو القول الثّاني لأنّ القول الأوّل موقوف علىٰ ثبوت الإرجاع و لا دليل عليه لا من الآية و لا من غيرها فالقول الثّاني هو المتَّبع وظاهر الآية يدلّ عليه لأنّ اللّه تعالى بعد ما حكى عن أصحاب يوسف أنّ مؤذَّنمنهم قال أيّتها العير أنّک لسارقون الى أخر ما قال حكايةً عنهم، قال فبدأ بأوعيتهم و هو ظاهر في أنّ المؤذّن أو غيره من أصحاب يوسف بدأ باوعيتهم و لذلك أتى بكلمة الفاء التّي تفيد التّرتيب الإتّصالي أي أنّ التّفتيش كان متَّصِلاً بجواب الإخوة حيث قالوا جزاءه من وجد في رحله.

و أمّا على القول الأوّل فيفصل بين الجواب و التَّفتيش لأنّهم أرجعوا العير الى يوسف و هو بدأ بأوعيتهم ولو كان كذلك لقال ثمّ بدأ بأوعيتهم لأنّ، ثمّ، يفيد التَّرتيب الإنفصالي.

و الحاصل أنّ المأمور بدأ بتفتيش أوعية أولاد يعقوب قبل تفتيش وعاء بنيامين لنفي التُّهمة.

روي أنّ أصحاب يوسف قالوا أنيخوا بتفتيش رحالكم فأناخوا واثقين ببراءتهم ففتَّشوا رحل الأخ الأكبر ثمّ الّذي يليه الى أن بلغت النَّوبة الى رحل بنيامين فلمّا فتحوا متاعه إستخروجوه منه و ذلك قوله ثمّ إستخرجها، أي الصُّواع لأنّه يذّكر و يؤنَّث، من وعاء أخيه، أي من وعاء أخي يوسف و هو بنيامين فلمّا وجد الصّاع مدسوساً في رحل بنيامين و إستخرج منه نكَّسوا رؤوسهم وإنقطعت و كلَّت ألسنتهم فأخذوا بنيامين مع ما معه من الصُّواع و ردُّوا الىٰ يوسف و أخذوا يشتمونه بالعبرانية و قالوا له يا لصّ ما حملك على سرقة صاع الملك و لا يزال ينالنا منك بلاء كما لقينا من إبن راحيل فقال

بنيامين بل ما لقى إبنا راحيل البلاء إلاّ منكم أمّا يوسف فقد علمتم ما به فعلتم و أمّا أنا فسَّرقتموني أي نسبتموني الى السّرقة قالوا فمن جعل الإناء في متاعك ألَيس قد خرج من رحلك قال أن كنتم سرقتم بضاعتكم الأولى و جعلتموها في رحالكم فكذا لك أنا سرقت الصّاع و جعلته في رحلي فقال روبيل واللّه لقد صدق و أراد بنيامين أن يخبرهم بخبر يوسف فذكر وصيّة له فسكت.

و قوله: **كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ** قالوا في تفسير الكيد، كدنا معناه صنعنا.

وقال الأخر، دبَّرنا، و قيل أردنا قال الشّاعر:

كادت وكدت و تلك خير إرادةٍ لو عاد من عهد الصَّبا ما قد مضى.

و قيل الكيد التّعريض للضّر بما خفي و قد يعبّر عن الجزاء على المعصية الكيد و منه قوله تعالى: **وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**[1] أي عقوبتي.

أقول الكيد لا يطلق على الجزاء بل يطلق على سببه و قوله: **وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** أي إمهالي إيّاهم و الإمهال سبب للمعصية و هي العقوبة.

و الأحسن أن يقال أنّ الكيد في الآية على ظاهرها و لا نحتاج الى ما ذكروه في معناه و ذلك لأنّه في الأصل ضربٌ من الإحتيال للوصول الى المطلوب و هو تارة يكون ممدوحاً و تارةً مذموماً و ما نحن فيه من قبيل الممدوح و توضيحه إجمالاً هو أنّ الإحتيال المعبّر عنه بالكيد أن كان لأجل التَّوصل الى الأغراض و المقاصد الشرعيّة و لا يكون نفس الإحتيال مخالفاً للشرع من حيث الحكم فهو ممدوحٌ بل مرَّغبٌ فيه و أن كان لغير ذلك مثل أن يكون الغرض فيه الوصول الى الباطل أو كان نفس الإحتيال مخالفاً للشّرع فهو مذمومٌ و من المعلوم أن ما نحن فيه من القسم الممدوح فأيُّ إشكالٍ فيه حتّى نحتاج الى التأويل فقوله تعالى: **كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ** معناه، كذلك علَّمنا يوسف أو

١- الاعراف = ١٨٣

أوحينا اليه طريق تخلّص بنيامين و يدلّ عليه قوله بعد ذلك: **مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ** و ذلك لأنّ حكم السّارق في دين ملك مصر كان ضرب السّارق أو تغريمه ضعف ما أخذ و سرق دون الإسترقاق و الإستبعاد كما هو شريعة يعقوب و على هذا فلم يكن يوسف متمكّناً من أخذ أخيه تحت عنوان السّرقة الّتي نسبوها اليه في حالٍ من الأحوال و الدليل على صحّة ما ذكر هو قول أولاد يعقوب في جواب أصحاب يوسف: **جَزٰآؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰآؤُهُ** أي يستبعد و يسترق، فثبت و تحقّق أنّ الكيد في الآية ليس معناه المذموم أعني به الإضرار على الغير لأجل الخدعة و الحاصل أنّ الحيلة الى المباح لإستخراج الحقوق الشرعيّة و العقليّة لا بأس بها اذا لم تكن فيه مخالفة للشّرع و قد علم اللّه تعالى أنّ في هذه الحيلة التّي لقنّها يوسف مصالح عظيمة و منافع كثيرة فجعلها سلّماً اليها فكانت حسنة جميلة و إنزاحت عنها وجوه القبح.

و أمّا قوله: **إِلاّٰ أَنْ يَشٰآءَ ٱللّٰهُ** قالوا أي إلاّ بأن يشاء اللّه أن يجعل السّقاية في رحله عذراً له و قيل معناه أنّ اللّه شاء أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل.

و قال صاحب الكشّاف أي ما كان يأحذه إلاّ بمشيّئة اللّه و اذنه فيه انتهى.

و أنا أقول عندي إحتمال أخر و هو أن يكون المعنى إلاّ أن يشاء اللّه بطريقٍ أخر غير ذلك الطّريق و ذلك لأنّ اللّه قادر على كلّ شئٍ إلاّ أنّه أبى أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها و قوله: **نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰآءُ** بما نرى من وجوه الصّواب في بلوغ المراد و هذا أيضاً ممّا لا شكّ فيه فأنّه تعالى يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء بيده الخير أنّه على كلّ شئٍ قدير.

ألا ترى أنّه تعالى كيف رفع درجاتٍ يوسف الى أن جعله والياً حاكماً على مصر رغماً لأنوف الحاسدين.

و قوله: **وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** قيل في معناه، فوق كلّ ذي علمٍ معلّمٌ عليمٌ، و هو اللّه الغنّي بنفسه عن التّعليم.

و قال بعضهم، و فوق كلّ ذي علم، ممّن رفعه اللّه، عليمٌ، قد رفعه بالعلم من وجهٍ أخر فهو أعلم بذلك الأمر الأخَر.

أقول لا نحتاج في تفسير الكلام الى هذه التأويلات فأنّ قوله: **وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** أصَلٌ من الأصول العقليّة و ذلك لأنّ المخلوق كما أنّه في وجوده محدودٌ متناه كذلك في صفاته من العلم و القدرة و الإرادة و غيرها محدودٌ متناه لأنّ الصّفات من لوازم الوجود و توابعه كما ثبت في العلوم العقليّة فالوجود المتناهي يقتضي الصّفة المتناهية و الصّفة المتناهيّة تقتضي أن يكون لها فوق اذا عرفت هذا فنقول:

من جملة الصّفات العلم و المفروض أنّه متناه و معنى التّناهي أن يكون فوقه علمٌ اذ لو لم يكن فوقه علم لم يكن متناهياً و هو خلف و هكذا القدرة و الإرادة و غيرهما من الصّفات، و هذا معنى قولنا أنّ قوله و فوق كلّ ذي علم عليمٌ، أصلٌ من الأصول العقليّة و على هذا فالأنبياء و أن كان علومهم فوقَ علوم غيرهم إلاّ أنّ فوق علومهم أيضاً علمٌ و هو علم اللّه تعالى الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً و لذلك قال اللّه تعالى: **كَذٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** اى علَّمناه ما ليس عالَماً به فأنّ فوق كلّ ذي علم عليم، ولو كان العالم نبيّاً و أنّما قال عليم ولم يقل عالم مثلاً، لأنّ العليم مبالغَة في العلم و هو لا يصدق إلاّ على من كان عالماً بجميع المعلومات و هو اللّه تعالى لا غيره و لذلك لا يطلق العليم على غيره تعالىٰ.

و يحتمل أن يكون الكلام إشارة الى أنّ علمه تعالى لم يؤخذ من غيره بل هو من ذاته و لذلك لا علم فوق علمه كما لا وجود فوق وجوده و لا قدرة فوق قدرته و أمّا غيره تعالى فعلمه من غيره فلا محالة فوقه علم أخر و كيف كان في الآية دلالة على أنّ العبد كما أنّه محتاج الى خالقه في وجوده حدوثاً و بقاءً كذلك محتاج اليه في صفاته و اللّه أعلم.

■

قٰالُوٓا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فى نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ قٰالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰانًا وَ ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَصِفُونَ ﴿۷۷﴾ قٰالُوا يٰآ أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنٰا مَكٰانَهُۥٓ إِنّٰا نَرٰيكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿۷۸﴾ قٰالَ مَعٰاذَ ٱللّٰهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلّٰا مَنْ وَجَدْنٰا مَتٰاعَنٰا عِنْدَهُۥٓ إِنّٰآ إِذًا لَظٰالِمُونَ ﴿۷۹﴾ فَلَمّٰا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قٰالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبٰاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ ٱللّٰهِ وَ مِنْ قَبْلُ مٰا فَرَّطْتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتّٰى يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللّٰهُ لِى وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحٰاكِمِينَ ﴿۸۰﴾ ٱرْجِعُوٓا إِلٰىٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يٰآ أَبٰانٰآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَ مٰا شَهِدْنٰآ إِلّٰا بِمٰا عَلِمْنٰا وَ مٰا كُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ ﴿۸۱﴾ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنّٰا فِيهٰا وَ ٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنٰا فِيهٰا وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ ﴿۸۲﴾ قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿۸۳﴾ وَ تَوَلّٰى عَنْهُمْ وَ قٰالَ يٰآ أَسَفٰى عَلٰى يُوسُفَ وَ ٱبْيَضَّتْ عَيْنٰاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿۸۴﴾ قٰالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّٰى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهٰالِكِينَ ﴿۸۵﴾ قٰالَ إِنَّمٰآ أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِىٓ إِلَى ٱللّٰهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ مٰا لٰا تَعْلَمُونَ

﴿٨٦﴾ يٰا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخيهِ وَ لٰا تَايْـَٔسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِنَّهُ لٰا يَايْـَٔسُ مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكٰافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمّٰا دَخَلُوا عَلَيْهِ قٰالُوا يٰآ أَيُّهَا ٱلْعَزيزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَ جِئْنٰا بِبِضٰاعَةٍ مُزْجيٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنٰآ إِنَّ ٱللّٰهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقينَ ﴿٨٨﴾ قٰالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخيهِ إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قٰالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قٰالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰآ أَخي قَدْ مَنَّ ٱللّٰهُ عَلَيْنٰآ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُضيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنينَ ﴿٩٠﴾ قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ اٰثَرَكَ ٱللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئينَ ﴿٩١﴾ قٰالَ لٰا تَثْريبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللّٰهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرّٰاحِمينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا بِقَميصي هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلٰى وَجْهِ أَبي يَأْتِ بَصيرًا وَ أْتُوني بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعينَ ﴿٩٣﴾ وَ لَمّٰا فَصَلَتِ ٱلْعيرُ قٰالَ أَبُوهُمْ إِنّي لَأَجِدُ ريحَ يُوسُفَ لَوْلآ أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قٰالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفي ضَلٰالِكَ ٱلْقَديمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمّآ أَنْ جٰآءَ ٱلْبَشيرُ أَلْقيٰهُ عَلٰى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصيرًا قٰالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ مٰا لٰا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قٰالُوٓا يٰآ أَبٰانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰآ إِنّٰا كُنّٰا خٰاطِئينَ ﴿٩٧﴾ قٰالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّيٓ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحيمُ ﴿٩٨﴾

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ اٰوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ اٰمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَآ أَبَتِ هٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَ جَآءَ بِكُمْ مِنَ ٱلْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴿١٠٠﴾

◀ اللّغة

فَأَسَرَّهَا أي أخفاها في نفسه.

وَ لَمْ يُبْدِهَا الإبداء الإظهار.

ٱسْتَيْـَٔسُوا من اليأس أي لمّا أيسوا.

نَجِيًّا أي متناجين في تدبير أمرهم.

فَرَّطْتُمْ التَّفريط التّقصير.

أَبْرَحَ يقال بَرَح براحاً وبُروحاً أي زال.

تَفْتَؤُا يقال فتئ يَفتَؤا فتئاً وفُتُوأً، أي فما زالت.

حَرَضًا الحرض ذو المرض و البلى و أصل الحرض فساد العقل.

بَثِّى البَثّ بفتح الباء تفريق الهمّ بإظهاره عن القلب.



◀ الإعراب

مَكَانًا منصوب على التّميز مَعَاذَ ٱللَّهِ مصدر و التّقدير من أن نأخذ نَجِيًّا حال من ضمير الفاعل في، خلصوا و هو واحد في موضع الجمع يَآ أَسَفَىٰ

الألف مبدلة من ياء المتكلّم و الأصل، أسفي ففتحت الفاء و صيّرت الياء ألفاً ليكون الصّوت بها أتّم **تَفْتَؤُا**١ أي لا تفتئوا فحذفت، لا، للعلم بها و**تَذْكُرُ** في موضع نصب خبر تفتئوا.

◀ التّفسير

قٰالُوٓا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ

أنّ الصّواع لمّا خرج من رحل بنيامين إفتضح الإخوة و نكّسوا رؤوسهم حياءً و لتبرءة ساحتهم **قٰالُوٓا إِنْ يَسْرِقْ**، بنيامين، فقد سرق أخٌ، كان له و هو يوسف، من قبل ذلك فأسّرها يوسف، أي أخفى هذه الكلمة يوسف في نفسه و قلبه ولم يبدها، أي لم يظهرها لهم.

و إختلف فيما أضافوا الى يوسف من السِّرقة فقيل كان أخذ في صباه صنماً كان لجدّه أبي أمّه لأنّه كان يعبد الأصنام بحرّان و هي بفتح الحاء المهملة و تشديد الرّاء٣قرية في جانب دمشق فقالت راحيل لإبنها يوسف خذ الصَّنم و أكسره لعلَّه يترك عبادة الصَّنم فاخذه يوسف و كسره و ألقاه بين الجيف في الطّريق.

وقد رووه فيه رواية عن النّبي ﷺ أنّه قال سرق يوسف صنماً لجدّه أبي أمّه من فضّة و ذهب فكسره و ألقاه على الطّريق انتهى

و عيَّره إخوته بذلك و نقل صاحب الكشّاف و القرطبي و غيرهما أنّ عمّة يوسف بنت إسحاق كانت أكبر من يعقوب و كانت صارت اليها منطقة إسحاق لسنّها لأنّهم كانوا يتّوارثون بالسِّن و هذا ممّا نسخ حكمه بشرعنا و كان من سرق أستعبد و كانت عمَّة يوسف حضنته و أحبَّته حبّاً شديداً فلمّا ترعرع و شبَّ قال لها يعقوب سلّمي يوسف إلَّي فلست أقدر أن يغيب عنّي ساعة فولعت به و أشفقت من فراقه فقالت له دعه أيّاماً أنظر اليه فلمّا خرج من

عندها يعقوب عملت الى منطقة إسحاق فخرَّقتها من تحت ثيابه ثمّ قالت لقد فقدت منطقة إسحاق فأنظروا من أخذها و من أصابها فالتمست ثمّ قالت أكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدت مع يوسف فقالت أنّه و اللّه لي سلم أصنع فيه ما شئت ثمّ أتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها أنت و ذلك أن كان فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته حتّى ماتت فبذلك عيَّره إخوته في قولهم إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل، قالوا و من هاهنا تعلَّم يوسف وضع السّقاية في رحل أخيه كما عملت به عمّته انتهى تفسير القرطبي[1].

أقول لا تعلم صدق هذا الحديث أو كذبه و العهدة عليهم و قال قومٌ في وجه نسبتة السّرقة اليه أنّه عليه السلام كان يسرق من طعام المائدة للمساكين وكيف كان فقد نسبوا السّرقة اليه و أمّا يوسف فأسَّرها أي أخفى الكلمة التّي قالوها و هي نسبة السَّرقة اليه ولم يبدها أي لم يظهرها لهم لا قولاً و لا فعلاً صفحاً عنهم و حلماً كأنّه قيل.

فماذا قال عند تضاعيف ذلك الإسرار فقيل: **قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا** أي منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم و اللّه أعلم بما تصفون، أنّه كذبٌ أي أنّ اللّه يعلم أنّكم تكذبون في قولكم فقد سرق أخٌ له و هو ظاهر.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

لمّا رأوا أن لا سبيل لهم الى تخليصه خضعوا و إلتمسوا و قالوا يا أيّها العزيز، الظّاهر أنّهم قالوا ذلك وهم لا يعرفونه و خاطبوه بالعزيز لأنّ العزيز الممتنع بقدرته من أن يضّام و العزّ منع الضّيم بسعة المقدور و السّلطان.

و قد ذكرنا سابقاً أنّ العزيز و هو قطفير قد مات و أقام الملك يوسف مقامه ثمّ جلس هو أيضاً في بيته وفوَّض جيمع الأمور الى يوسف.

١- ج ٩ ص ٢٣٩

إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا المراد به يعقوب النّبي فأنّه كـان أبـا أخـيهم كـبيراً السِّن، أو كبير القدر **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ** أي خذ منّا واحداً عبدًا بدله و مكانه أي بدل بنيامين، **إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**، و ذلك لما رأوا من إحسانه اليهم في جميع أفعاله.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ

هو من إضافة المصدر الىٰ المفعول به أي نعوذ باللّه معاذاً من **أَن نَّأْخُذَ** في موضع نَصب أي مِن أن نأخُذ **إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ** أي معاذ اللّه أن نأخذ البرئَ بالمجرم و نخالف ما تعاقدنا عليه **إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ** أي إن نأخـذ غيره مكانه يكون ظالماً لأنّ الظّلم عبارة عن وضع الشّئ في غير محلّه كـما أنّ العدل وضعه في محلّه.

و من المعلوم أنّ أخذ البرئ مكان المجرم من وضع الشّئ في غير مـحلّه و مَن فعل ذلك فهو ظالم قطعاً.

قال بعض المفسّرين **إِذًا** جـواب لهـم و جـزاء لأنّ المـعنى إن أخـذنا بـدله ظلمنا هذا ظاهره و أمّا بـاطنه فـهوو أنّ اللّـه أمـرني بـالوحي أن أخـذ بـنيامين لمصالح علمها اللّه في ذلك فلو أخذت غـيره لكـنت ظـالماً و عـاملاً بـخلاف الوحي و فيه إشارة الىٰ أنّ العمل بخلاف الوحي و الإلهام أيضاً ظلمٌ الى أخر ما قال و هو أوضح من أن يخفىٰ علىٰ أحدٍ.

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا



أي فلمّا يئسوا من يوسف و أنّه لم يقبل قولهم مِـن أخـذه أحـدهم مكـانه **خَلَصُوا نَجِيًّا**أي إنفردوا وليس هو معهم و قوله نجيّاً نصب عـلىٰ الحـال مـن المضمر في خلصوا و هو واحد يؤدّي عن جميع و يقع الواحـد أيـضاً كـقوله: **قَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا** وجمعه أنجيٰة قال الشّاعر:

إنّـي إذا مـا القـوم كـانوا أنـجيته وأضطرب القوم إضطرابـاً الأرشـية

و قرأ إبن كثير، إستأيئسوا، و المعنى واحد لأنّه من اليأس.

و قال بعضهم معنى الكلام أنّهم بعد اليأس إنفردوا و إعتزلوا عن النّاس خالصين لا يخالطهم غيرهم، نجيّاً، أي متناجين في تدبير أمرهم و أنّهم على أيّ صفةٍ يذهبون و ماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم **قَالَ كَبِيرُهُمْ** في السّن روبيل أو في العقل و هو يهودا أو رئيسهم و هو شمعون و كانت له الرّئاسة على إخوته كأنّهم أجمعوا عند التّناجي على الإنقلاب جملة و هو لم يرض فقال منكراً لهم **أَلَمْ تَعْلَمُوٓا** الإستفهام للإنكار أي علمتم يقيناً **أَنَّ أَبَاكُمْ** يعقوب **قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ ٱللَّهِ** أي عهداً وثيقاً من اللّه و هو حلفهم به في حفظ إبنه وردّه اليه **وَ مِنْ قَبْلُ** الواو للحال والتّقدير من قبل ذلك فحذف المضاف اليه و الضّمة بقيت لتدُّل عليه **مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ** قيل، ما، زائدة و قيل هو في محلّ نصب عطفاً على، أن، و المعنى ألَم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من اللّه و تعلموا تفريطكم في يوسف أي تقصيركم في شأنه و ذلك لأنّهم لم يحفظوا فيه عهد أبيهم مع أنّهم قالوا له و إنّا لناصحون، و إنّا لحافظون و مع ذلك فعلوا به ما فعلوا.

فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ أي لن أفارق أرض مصر ذاهباً منها حتّى يأذن لي أبي في العود اليه و كان إيمانهم كانت معقودة على عدم الرّجوع بغير إذن أبيهم، أو يحكم اللّه لي، بالخروج منها على وجه لا يؤدّي الى نقض الميثاق أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب و هو خير الحاكمين، إذ لا يحكم إلاّ بالحقّ و العدل.

و قال بعضهم أو يحكم اللّه لي بالممّر مع أخي فأمضي معه الى أبي.

و قيل المعنى أو يحكم اللّه لي بالسّيف فأحارب و آخذ أخي أو أعجز فأنصرف بعذرٍ و ذلك أنّ يعقوب قال، لتأتنني به إلاّ أن يحاط بكم، حارب و عجز فقد أحيط به و روي عن إبن عبّاس في المقام ما لا بأس بذكره و أن كان الإعتماد عليه مشكل و نحن ننقله عن تفسير القُرطبي و العلم عند اللّه.

قال إبن عبّاس كان يهوذا إذا غضب و أخذ السّيف فلا يردّ وجهه مائة ألف شعره في صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه و جاء في الخبر أنّه قال لأخوتِه و كان أشدَّهم غضباً إمّا أن تكفوني الملك و من معه أكفكم أهل مصر و أمّا أن تكفوني أها مصر أكفكم الملك و من معه قالوا بل إكفنا المَلك و من معه نكفك أهل مصر فبعث واحداً من إخوته فعدُّوا أسواق مِصر فوجدوا فيها تسعة أسواق فأخذ كلّ واحدٍ منهم سوقاً ثمّ أنّ يهوذا دخل على يوسف و قال أيّها الملك لأن لم تخل معنا أخانا لأصيحَّن صيحةً لا تبقي في مدينتك حاملاً إلاّ سقطت ما في بطنها و كان ذلك خاصّة فيهم عند الغضب فأغضبه يوسف و أسمعه كلمة فغضب يهوذا و إشتَّد غضبه و إنتفجت شعراته.

و كذا كان كلّ واحدٍ من بني يعقوب كان إذا غضب إقشعر حلده و إنتفخ جسده و ظهرت شعرات صدره و ظهره من تحت الثّوب حتّى تقطر من كلّ شعرة قطرة دمٍ و إذا ضرب الأرض برجله تزلزلت و تهدَّمت البنيان و أن صاح صيحة لم تسمعه حاملٌ من النّساء و البهائم و الطّير إلاّ وضعت ما في بطنها تماماً أو غير تمامٍ فلا يهدأ غضبه إلاّ أن يسفك دماً أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب فلمّا علم يوسف أنّ غضب أخيه يهوذا قد تمّ و كمل كلَّم ولداً له صغيراً بالقبّطية و أمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه ففعل و سكن غضبه و ألقى السَّيف فإلتفت يميناً و شمالاً لعلَّه يرى أحداً من إخوته فلم يره فخرج مسرعاً الى إخوته و قال هل حضرني منكم أحد قالوا لا قال فأين ذهب شمعون قالوا ذهب الى الجبل فخرج فلقيه و قد إحتمل صخرةً عظيمة قال ما تصنع بهذه قال إذهب الىٰ السّوق الّذي وقع في نصيبي أشد بها رؤوس كلّ من فيه قال فأرجع فردَّها أو ألقها في البحر و لا تحدثّن حدثاً فوا الّذي إتّخذ إبراهيم خليلاً لقد مسَّني كفٌّ من نسل يعقوب ثمّ دخلوا على يوسف أشدَّهم بطشاً فقال له يا معشر العبرّانيين أتظّنون أنّه ليس أحدٌ أشدّ منكم قوّةً ثمّ عمد الى حجرٍ عظيمٍ من حجارة الطّاحونة فركله برجله فدجا به

من خلف الجدار ثمّ أمسك يهوذا بأحدى يديه فصرعه فقال هات الحدّادين أقطع أيديهم و أرجلهم و أضرب أعناقهم ثمّ صعد على سريره و جلس على فراشه و أمر بصواعه، فوضع بين يديه ثمّ نقره نقرةً فخرج طنينه فألتَفت اليهم و قال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فأنّه يقول أنّه ليس على قلب أبي هؤلاء همٌّ غمٌّ و لا كربٌ إلاّ بسببهم.

ثمّ نقر نقرةً ثانية و قال أنّه يخبرني أنّ هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً فحسدوه و نزعوه من أبيهم ثمّ أتلفوه فقالوا أيّها العزيز أستر علينا ستر اللّه عليك و أمنن علينا منَّ اللّه عليك.

فنقرة نقرة ثالثة و قال أنّه يقول أنّ هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجبّ ثمّ باعوه بيع العبد بثمنٍ بخسٍ و زعموا لأبيهم أنّ الذّئب أكله.

ثمّ نقرة رابعة و قال أنّه يخبرني أنّكم أذنبتم ذنباً منذ ثمانين سنة لم تستغفروا اللّه منه و لم تتوبوا اليه.

ثمّ نقرة خامسة و قال أنّه يقول أنّ أخاهم الّذي زعموا أنّه هلك لن تذهب الأيام حتّى يرجع فيخبر النّاس بما صنعوا.

ثمّ نقر سادسة و قال أنّه يقول لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتم و لا عققتم و الدكم لأجعلنّكم نكالاً للعالمين، إيتوني بالحدّادين أقطع أيديهم و أرجلهم فتَّضرعوا و بكوا و أظهروا التّوبة و قالوا لقد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لنكونَّن طوع يده و تراباً يطأ علينا برجله فلمّا رأى ذلك يوسف من إخوته بكى و قال لهم أخرجوا عنّي قد خليّت سبيلكم إكراماً لأبيكم و لولا هو لجعلتكم نكالاً انتهىٰ.

ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يٰٓ أَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ

هذا إخبار منه تعالىٰ بما قال أحدهم المتخلّف بمصر و هو يهوذا علىٰ ما قيل و قيل غيره فأنّه قال لأخوته إرجعوا الى أبيكم فقولوا له يا أيبانا أنّ إبنك

سرق و هو بنيامين و يحتمل أن يكون حكاية عمّا قال إخوة يوسف بعضهم لبعضٍ فأنّهم قالوا أرجعوا الى أبيكم و ما شهدنا إلاّ بما علمنا معناه ما شهدنا إلاّ بما علمنا من الظّاهر.

و أمّا الغيب و باطن الأمر فلا يعلمه إلاّ اللّه و ما كنّا للغيب حافظين أي لا نعلمه و لا نحفظه قيل كأنّهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين حيث قال في جوابهم (دَسَّ هذا في رَحلي مَن دَسَّ لبضاعتكم في رحالكم) علىٰ ما مرّ بيانه.

و قيل المعنىٰ ما شهدنا عن يوسف بأنّ السّارق يسترق إلاّ بما علمنا من دينك و قيل في معنىٰ، **وَ مٰا كُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ**، أي لم نعلم وقت أخذناه منك أنّه يسرق فلا نأخذه.

و قال مجاهد و قتادة، أي ما كنّا نعلم أنّ إبنك يسترّق و ليصير أمرنا الى هذا و أنّما قلنا نحفظ أخانا فيما نطيق.

و قال إبن عبّاس يعنون أنّه سرق ليلاً و هم نيام و الغيب هو اللّيل بلغة، حمير، و عنه ما كنّا نعلم ما يصنع في ليله و نهاره و ذهابه و أيابه.

و قيل مادام بمرأى منّا لم يجر خلل فلمّا غاب خفيت عنّا حالاته.

و قيل معناه قد أخذت السِّرقة من رحله و نحن أخرجناها و ننظر اليها و لا علم لنا بالغيب فلعلّهم سرقوه و لم يسرق ذكر هذه الوجوه القرطبي في تفسيره.

أقول الإحتمالات كثيرة و لا نحتاج اليها و لا الىٰ ذكرها بعد وضوح المعنىٰ بحسب ظاهر الآية و هو أنّه سرق ظاهراً و أمّا أنّه سرق واقعاً فلا نعلمه لإنّا لا نعلم الغيب.

و أمّا الشّهادة فهي خبر عن مشاهدةٍ أو إقرارٍ أو حالٍ فقولهم و ما شهدنا إلاّ بما علمنا.

أرادوا به المشاهدة بالعين لأنّهم رأوا بأعينهم إستخراج الصوّاع من رحل أخيهم و عليه فقولهم علمنا أي علمنا ظاهراً لأنّ العلم كثيراً ما يوجد من طريق

الحوّاس كما يوجد من طريق الإدراك والتّفكر ثمّ أنّهم أي إخوة يوسف لمّا كانوا متّهمين عند أبيهم بسبب واقعة يوسف أمرهم كبيرهم الذّي تخلّف عنهم بمصر بأن يبالغوا في إزالة التُّهمة عن أنفسهم عند يعقوب و يقولوا لأبيهم.

وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ ٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَٰدِقُونَ

القرية بفتح القاف أصلها من قريت الماء أي جمعته ثمّ أستعملت في المكان الّذي فيه جمعٌ من النّاس كالبلدة و المدينة و لذلك قالوا القرية و البلدة و المدينة نظائر و لا خلاف عندهم أنّها بحذف المضاف و تقدير الكلام و أسأل أهل القرية فقال بعضهم المراد بها مدينة مصر.

و قال بعضهم قريةٌ من قراها و هي الّتي نزلوا بها و إمتاروا منها في خارج مصر و إحتمل بعضهم أنّ الكلام خرج مخرج الحقيقة و لا مجاز فيه و المسؤول عنه هو نفس القرية أي و أسأل نفس القرية و أن كانت جماداً فأنت نبّي اللّه و اللّه ينطق الجماد لك و على هذا فلا حاجة الىٰ إضمار.

ثمّ نقل عن سيبويه أنّه قال لا يجوز كلِّم هنداً و أنت تريد غلام هند لأنّ هذا يشكل و القول في العير كالقول في القرية سواء أي و أسأل أهل العير على المشهور أو نفس العير علىٰ الإحتمال الأخير.

أقول الحقّ هو القول المشهور أعني به حذف المضاف.

و أمّا نقله القائل عن سيبويه و هو أنّه لا يجوز كلِّم هنداً و أنت تريد غلام هند، ففيه أنّ القياس مع الفارق و ذلك لأنّ هنداً تقدر على الجواب فلا معنىٰ لحذقّف المضاف في الكلام و هذا بخلاف القرية فأنّها لا تقدر علىٰ الجواب و لهذا يقدّر فيه المضاف و هذا أي عدم قدرة القرية بنفسها على الجواب يعبّر عنه بالقرنية المصّححة للمجاز و أمّا قوله هو نبيّ اللّه واللّه تعالىٰ ينطق الجماد له، فهو أيضاً ممّا لا معنىٰ له فأنّ اللّه يقدر على كلّ شئٍ و هذا مما لا كلام فيه إلاّ أنّه أبىٰ أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، اللّهم إلاّ في بعضَ الموارد كالمعجزات الّتي صدرت من الأنبياء و ما نحن فيه ليس منها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ

لمّا شهدوا عند يعقوب بما شهدوا من سرقة إبنه و قالوا و أسأل القرية والعِير لتعلم صدق قولنا قال يعقوب في جوابهم بل سوَّلت لكم أنفسكم، أي زيَّنت أو سهَّلت و التَّسويل حديث النَّفس بما تطمع فيه و منه السّئول و المنى يقال أعطاك اللّه سئولك و المعنى بل سوَّلت أي زيَّنت لكم أنفسكم أمراً يظهر من هذا الكلام أنّ يعقوب لم يقبل قولهم أو كان شاكّاً فيه و الحقّ كان معه بظاهر الأمر لأنّهم كانوا عنده متّهمين بعد قضّية يوسف و لعلَّه لذلك، أتى بكلمة، بَل، الّتي للإضراب أي الإعراض عمّا قال و الإقبال الىٰ ما لم يقل، فإذا قلت جاءني زيد بل عمروٌ معناه أنّ زيدٌ لم يجئ بل جاء عمروٌ و هكذا فيما نحن فيه فأنّهم قالوا لأبيهم ما قالوا قال يعقوب بل سوَّلت لكم أنفسكم أي لا أقبل قولكم أو أنّه ليس بشئ عندي **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ** و بعبارةٍ أخرىٰ ليس الأمر كما ذكرتموه بل كذا وكذا.

و أمّا قوله: **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** مبتدأ و خبر، أي إذا كان الأمر على هذا المنوال فصبرٌ جميلٌ، و يمكن أن يكون إبتداء و خبره محذوف و تقديره فصبرٌ جميلٌ أمثل من غيره فأنّه مفتاح الفرج كما قيل:

عسى الكرب الّذي أمسيت فيه يكون وراءه فرجاً قريباً

و الصَّبر حَبس النَّفس عمّا تسارع اليه ممّا لا يجوز، و الجميل ما يتقبّله العقل و قد يسمّىٰ ما يتقبّله الطَّبع أيضاً جميل، و الأيات والأخبار الواردة في مدح الصّبر و حسنه و مدح الصّابرين كثيرة و لنشر الىٰ شطرٍ منها تيمّناً و تبرُّكاً.

فنقول من الأيات قوله تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ**[1] فبدأ بالصَّبر قبل الصّلاة ثمّ جعل نفسه مَع الصّابرين دون المصّلين.

١- البقرة = ١٥٣

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**[۱].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ**[۲].

قال اللّه تعالى: **وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**[۳].

و بالجملة فقد ذكر اللّه سبحانه و تعالى الصَّبر في كتابه العزيز في نَّيف و سبعين موضعاً و يكفينا في ذلك ما أقَّر اللّه به نبيّه قال: **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**[۴].

و قد روي عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: النَّصر في الصَّبر.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: بالصّبر يتوقّع الفرج.

و قال عليه السلام: الإناة من اللّه و العجلة من الشّيطان.

فمن هداه اللّه تعالىٰ بنور توفيقه ألهمه الصَّبر في مواطن طلباته والتثّبت في حزكاته و سكناته.

عن أبي سعيد الخدري عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال - ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وحسبٍ و لا هَّم و لا حزن و لا أذى و لا غَّم حتّىٰ الشّوكة يشّاكها إلاّ حطَّ اللّه به من خطاياه و عن إنس بن مالك قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد اللّه بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدّنيا و إذا أَراد اللّه بعبده الشَّر أمسك عنه بذنبه حتّىٰ يوافي به يوم القيامة وقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء و أنّ اللّه إذا أحَّب قوماً إبتلاهم فمن رضي.

فله الرّضا و من سخط فله السَّخط و هذه شطرٌ ممّا روته العّامة في فضيلة الصَّبر وأمّا من طريق الخّاصة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم :الصَّبر كنزٌ من كنوز الجنّة.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النّفوس.

۱- الزّمر = ۱۰
۲- الأنفال = ۴۶
۳- النّحل = ۱۲۶
۴- الاحقاف = ۳۵

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرَّأس من الجسد فلا جسد لمن لا رأس له و لا إيمان لِمن لا صبر له.

و سال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فقال صلى الله عليه وآله وسلم الصَّبر و السّماحة و هكذا و أن شئت الإطّلاع على تفصيل.

ما ورد فيه من الأخبار فعليك مراجعة الأخبار و ما نقلناه عن جامع السّعادات للنّراقى [1] و لنعم ما قيل فيه:

وإذا مسَّك الزّمان بضُرٍ ... عظمت دونه الخطوب وجلَّت
وأتت بعده نوائب أخرىٰ ... سئمت نفسك الحياة وملّت
فأصطبر وأنتظر بلوغ الأماني ... فالرّزايا إذا توالت تولّت
وإذا أوهنت قواك و جلَّت ... كشفت عنك جملة و تخّلت

و قال الآخر:

أنّ الأمور إذا سدَّت مسالكها ... فالصَّبر يفتح منها كلّ ما رتجا
لا تيأسَّن وإن طالت مطالبة ... إذا إستعنت بصبرٍ أن ترى فرجاً

و قال الآخر:

إذا ما أَتاك الدَّهر يوماً بنكبةٍ ... فأفرغ لها صبراً و وسِّع لها صدراً
فأنّ تصاريف الزّمان عجيبةٌ ... فيوماً ترى يسراً و يوماً ترى عسراً
وما مسَّني عسرُ ففوَّضتُ أمره ... الى الملك الجبّار إلاّ تيسّراً

و ما أحسَن ماقيل:

الدّهر لا يبقى علىٰ حالةٍ ... لابدّ أن يقبل أو يدبر
فأن تلّقاك بمكروهه ... فاصبر فأنّ الدّهر لا يصبر

و الأشعار كثيرة و محّصل الكلام هو أنّه لاشكّ في أنّ الصَّبر ممدوح و مع ذلك هو محمود العاقبة و لذلك قال يعقوب عليه السلام فصبرٌ جميلٌ ثمّ قال على ما حكاه اللّه.

١- ج ٣ ص ٢٨٣

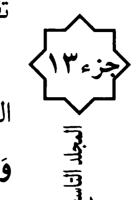
عنه: **عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا** يعني يوسف وبِنيامين، و روبيل و إنمّا قال عليه السلام ذلك لأنّ بالصَّبر يتوقّع الفرج من اللّه تعالىٰ كما قال: **إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ** أي أنّه عليمٌ بحسرتي علىٰ فقد أولادي، حكيمٌ بتدبيره في خلقه على أحسن الوجوه كما قيل:

إنّي رَأيتُ وفي الأيّام تَجربةٌ ... للصَّبر عاقبة مَحمودةُ الأثَر
وقَلَّ مَن جَدَّ في أَمرٍ يؤمله ... وأَستَصحَب الصَّبر إلاّ فازَ بالظَّفر

وَ تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَ ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

و تولّىٰ عنهم، أي أعرض عنهم بوجهه بعد ما سمع منهم ما سمع و رآىٰ منهم ما فعلوا بيوسف و ذلك لأنّه لمّا بلغه ما بلغه من خبر بنيامين إشتّد حُزنه و بلغ جهده و جدَّد اللّه مصيبته في يوسف فقال أسفا على يوسف، أي يا حَسرتاه و الأسف الحزن على ما فات و قيل هو أشدّ الحزن و إنّما خصَّ بالذّكر يوسف ولم يقل يا أسفا على بنيامين لأنّه أي يوسف كان أحَبّ أولاده اليه مضافاً الى أنّ مصيبة يوسف كانت هي الأصل في تلك الواقعة لا ما ذكره بعض المُفسّرين من أنّه نسي بنيامين فلم يذكره.

نقل بعضهم عن سعيد بن جبير أنّه قال لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الإسترجاع ولو كان عنده لما قال يا أسفا علىٰ يوسف، ذكره القرطبي في تفسيره.



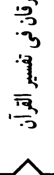
أقول ما ذكره ليس بصحيح و ذلك لأنّ كلمة الإسترجاع عند الموت لا عِند الفراق و يعقوب كان عالماً بأنّ يوسف لم يمت فكيف يصّح له أن يقول: **إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**، وإن كان المقصود أنّ ألفاظ هذا الكلام لم يكن عنده فالجواب أنّ لسانه كان عبرّياً و الحاصل أنّ مفاد هذا الكلام كان موجوداً عند جميع الأنبياء و هو أنّ المخلوق يرجع الى خالقه بالموت و لا بحث لنا في

الألفاظ و الحروف وقوله: **وَ ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ** فالإبيضاض هو إنقلاب الشّئ الى حال البياض و المعنى أنّ يعقوب عمي فلم يبصر شيئاً قيل لم يبصر بهما ستّ سنين و قيل قد تبيَّض العين و يبقى شئ من الرُّؤية واللّه تعالى أعلم بحاله و إنّما إبيَّضت عيناه من البكاء على يوسف و لكن سبب البكاء الحزن فلهذا قال من الحزن فأنّه موجب للبكاء و البكاء و العبرة إذا كثرت محقت سواد العين و قلّبته الى بياض و قد تعميها كما أخبر اللّه عن شعيب النّبي فأنّه بكىٰ مِن حبّ اللّه حتّىٰ عمي فردّ اللّه على بصره و كذا بكى يعقوب حتّى عمي و هو الأصّح لقوله تعالىٰ: **فَارْتَدَّ بَصِيرًا**.

روي أنّه ما جفَّت عينا يعقوب مِن يوم فراق يوسف الى حين لِقائه ثمانين سنة و قيل أربعين سنة أو أقلّ أو أكثر و ما كان على وجه الأرض يومئذٍ أكرم على اللّه من يعقوب و أمّا قوله: **فَهُوَ كَظِيمٌ** فالكظيم هو الممسك للحزن في قلبه لا يبثّه بما لا يجوز الى غيره قال تعالىٰ: **وَ ٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ**[١].

و قد روي في كتاب الخِصال عن الباقر عليه السلام أنّه قال لقد بكىٰ علّي بن الحسين عليه السلام علىٰ أبيه الحسين عشرين سنة ما وضع بين يديه طعام إلاّ بكىٰ حتّىٰ قال له مولى له يابن رسول اللّه أما آن لحزنك أن ينقضي فقال عليه السلام له ويحك أنّ يعقوب النّبي عليه السلام كان له إثني عشر إبناً فغَّيب اللّه عنه واحداً منهم فأبَّيضت عيناه من كثرة بكائه عليه و أحد ودب ظهره من الغَّم و كان إبنه حيَّاً في الدّنيا و أنا نظرت الىٰ أبي و أخي وعمّي و سبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني إنتهىٰ

و أنا أقول صدق إبن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و هذا دليل على كونهم أفضل من أنبياء السَّلف من آدم أبي البشر الىٰ آخر الأنبياء سوى جدّهم رسول



١- آل عُمران = ١٣٤

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأنّه قال أنا سيّد ولد آدم و لا فخر، و هو الّذي قال تعالىٰ له مخاطباً إيّاه: **(لَولاك لَما خَلقت الأفلاك)** فهو صلى الله عليه و آله و سلم أصل هذه الشّجرة الطّيبة المباركة الّتي قال اللّه تعالىٰ فيها: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ**[1] و أهل بيته فروعها و ثمراتها و كلّهم نورٌ واحد لقوله صلى الله عليه و آله و سلم **أنا وعليٌّ من نُورٍ واحدٍ**، و قال أمير المؤمنين عليه السلام **لا يُقاس بآل محمدٍ أَحَد** و هكذا، و كيف لا يكونون أفضل من يعقوب و غيره فهذا يعقوب يقول و أسفاً على يوسف **وَ ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** و هذا الحسين سيّد الشّهداء، روحي له الفداء أصاب من المصائب يوم الطّف بما عجزت الألسن عن بيانه و كلّت الأقلام عن ضبطه و ثبته من قتل إخوانه و بني أعمامه و أصحابه و أولاده و لا سيّما قرّة عينه علّي الأكبر الّذي قطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً وعلّي الأصغر الّذي قتلوه على ما هو مسطور في المقاتل و كلّ ذلك كان بمرآه ومَنظَره الىٰ غير ذلك من المصائب و لم يقل و أسفاً على ولدي علّي أو على أخي العبّاس بل كان يقول إلهي رضاً بقضائك تسليماً لأمرك لامعبود سواك ياغياث المستغيثين، فأين هذا الصَّبر من صبر النّبي على فقد أحد أولاده مع علمه بحياته أين التّراب و رّب الأرباب و هذا أي رِضاهم بقضاء اللّه و تسليمهم لأمر اللّه هو السَّر في كونهم أفضل من الأنبياء السَّلف.

قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّٰى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ

و لا تزال و حذفت، لالعدم الإلتباس.

قال الكسائي فتأت وفتئت، أفعل ذلك أي ما زلت و زعم الفّراء أنّ، لا، مضمرة أي لا أبرح و زعم الخليل و سيبويه أنّ، لا، تضمر في القسم لأنّه ليس فيه إشكال ولو كان واجباً لكان باللاّم و النُّون.

۱- الابراهيم = ۲۴

و قال بعض المفسّرين معنى الكلام، فَما زالت، حذفت، لا، من تفتواً لأنّه جواب القسم بمعنى المستقبل كما قال الشّاعر:

فقلتُ يَمين اللّه أبرح قاعداً ولو قطّعوا رأسي لديك و أوصالي.

و المعنى، قال له ولده تاللّه تفتؤا أي لا تزال تذكر يوسف حرضاً، أي تالفاً و الحرض، ذو المرض و البلى، و قيل الحرض مادون الموت و أصل الحرض فساد الفعل و الجسم للحزن و الحبّ قال الشّاعر:

سرى همّي فأمرضني وقدِماً زادني مرضاً
كذاك الحُبّ قبل اليوم ممّا يورث الحرضا

و قال الأخر:

أرىٰ المرء ذا لأذواد يصبح محرضاً كأحراض بكرٍ في الدّيار مريضُ

و قال الضّحاك معناه بالياً داثراً.

و عن الفراء: قال الحارِض الفاسد الجسم و العقل و كذا الحرض و قال إبن زيد الحرض الّذي قد ردَّ الى أرذل العمر و هكذا و كلّها متقاربة.

و قوله: **أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ** أي من الّذين، هلكوا أنفسهم بسبب الحزن و البكاء و حاصل الكلام أنّ أولاد يعقوب أقسموا باللّه و قالوا لأبيهم لا تزال تذكر يوسف و تبكي عليه حتّىٰ تكون حرضاً أي مريضاً تخفيفاً أو تكون من الهالكين أي تكون من الأموات من شدّة الحزن و البكاء و أنّما قالوا ذلك له علىٰ سبيل الملامة فكأنّهم لاموه على ما كان عليه و نهوه عن ذلك ضمناً فأنّ الملامة ترجع الىٰ النّهي فلا يبعد أن يكون مقصودهم من هذا الكلام لأبيهم نهيهم أيّاه عن تذكار يوسف و البكاء عليه لأنّ فيه ضعفه و مرضه أو هلاكه و مَوته فيرجع المعنى الى أنّهم قالوا له لا تذكر يوسف كثيراً و لا تبكي عليه بكاء الثكلىٰ فأنّ فيه إيذاءنا و هلاك نفسك و لعلّه لأجل ذلك قال يعقوب في جوابهم:

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

البثّ بفتح الباء أصعب الهَم الّذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّهُ الى النّاس أي ينشره، قال يعقوب في جوابهم إنّي لا أشكو ما بي اليكم أو الى غيركم من النّاس حتّى تتصدّوا للتّسلي و أنّما أشكو همّي و حزني الى اللّه، و الحزن أعمّ من البَّث فهو من ذكر العام بعد الخّاص فإذا عطف على الخّاص يراد به الأفراد و الباقية فيكون المعنى لا أذكر الحزن العظيم و الحزن القليل إلاّ مع اللّه هكذا قيل و كيف كان فالمقصود من هذا الكلام هو أنّ الشّكاية الى الخلق لا فائدة فيهما بل تضرّ بصاحبها و تسقطه عن مقامه لأنّه شكى الىٰ الخالق من خالقه و هو كما ترى مناف للتّوحيد الواقعي و دليل على ضعف إيمان الشّاكي وعدم تسليمه بقضاء اللّه و قدره و مقام النّبي أعلى و أرفع منه قال أشكو بثّي و حزني الىٰ اللّه، و بذلك يندفع الإشكال الّذي يخطر بالبال أحياناً و هو أنّ يعقوب قال فصبرٌ جميلٌ، فيما مضىٰ من قوله ثمّ قال وا أسفا على يوسف و قال أنّما أشكو بثّي و حزني الى اللّه، فكيف يكون الصّبر مع الشّكوىٰ، اليس هذا مناقضاً لصبره الّذي أقرَّ به.

و الحلّ أنّ يعقوب شكى الىٰ خالقه لا الىٰ غيره و الشّكاية الىٰ اللّه لا إشكال فيها ألا ترى أنّ أيّوب النّبي قال: **رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ**[١] و قال تعالىٰ مع شكواه الىٰ ربّه في حقّه: **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ ٱلْعَبْدُ**[٢] أي أنّ الشّكاية الىٰ اللّه لا تنافي الصَّبر فأنّه شكى منه اليه و بكى منه عليه فهو المعذور لديه لأنّ حقيقة الصَّبر و معناه الحقيقي هو حبس النّفس و منعها عن الشّكوى الىٰ الغير و ترك الرُّكون الى الغير و تحمّل الأذىٰ و الإبتلاء لصدوره من قضاءه و قدره و قد قيل بلسان الحقيقة:

كلّ شيٍ من المليح مليحُ   لكن الصَّبر عنه غير مليح

و قال الأخر:

والصَّبر عنك مذمومُ عواقبه   والصّبر في سائر الأشياء محمودُ

١- الانبياء = ٨٣   ٢- ص = ٤٤

و ذلك لأنّ المحبّ لا يصبر عن حضرة المحبوب فلا يزال يعرض حاله و إفتقاره الى حضرته و لسان العشق لسان التّضرع و الحكاية لا لسان الجزع و الشّكاية. فأفهم و لنعم ما قيل:

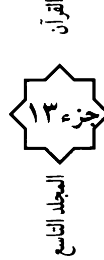
وقـفت عـلىٰ ربع لِميتته نـاقتي　　فما زلتُ أبكي عـنده و أخـاطبه
و أسـقيه حـتّىٰ كـاد مـمّا أبـثهُ　　يكـلّمني أحـجارهُ ومـلاعبهُ

و الحاصل أنّ شكاية العارف الواقف في صورة الشّكوىٰ حكاية حاله و تضرّعه و إفتقاره الىٰ حبيبه و المنّهي عنه هو الشّكوى الىٰ غيره تعالىٰ.

و أمّا اليه فلا منع فيه عقلاً و شرعاً و العبد المبتلى بالمصيبة إذا لم يتّضرع الى ربّه فإلى مَن يتضرّع و قد ثبت أنّ اللّه تعالىٰ يحبّ تضرُّع العبد و الشّكاية اليه بل عدّ ذلك من علل الإبتلاء وأمّا قوله: **وَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** أي أعلم من لطفه و عنايته و رحمته ما لا تعلمون، أو أعلم من إحسان اللّه إلَّى ما يوجب حُسن ظنّي به.

أو أعلم من اللّه سبب الوحي و الإلهام حياة يوسف.

قال بعض المُفسّرين و أنّما جاز على يعقوب و هو نبيّ أن يبكي حتّى تبيّض عيناه من الحزن لأنّ عظم المصيبة يهجم على النّفس حتّى لا يملك معه القرار بالصّبر حتّى يرتفع الحزن مع أنّه علىٰ ولد لا كالأولاد في جماله وعقله و عفافه و علمه و أخلاقه و برّه و مع هذا فلم يكن منه إلاّ ما يوجب الأجر العظيم و الثّواب الجزيل الكريم و البكاء ليس بممنوع منه شرعاً و أنّما الممنوع منه اللّطم والخدش و الجزّ و تخريق الثّياب و القول الّذي لا يسوغ و كلّ لم يكن منه عليه السلام انتهىٰ.



يٰا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخيهِ وَ لاٰ تَايْـَٔسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ يَايْـَٔسُ مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكٰافِرُونَ

التَّحَسُّس طلب الشّيئ بالحاسّة فأمّا طلبه بالدّعاء الىٰ فعله فلا يسمّىٰ **تَحسُّساً والتَّحَسُّس** بالحاء و **التَّجَسُس** بالجيم بمعنىٰ واحد، أخبر اللّه تعالىٰ عن

يعقوب أنّه قال لبنيه يا بنيَّ إذهبوا، أمرهم بالذّهاب الىٰ الأرض الّتي جاءوا منها و تركوا بها أخويهم بنيامين و المقيم بها و المراد بها أرض مصر و أمرهم بالتَّحسس و هو الإستقصاء و الطّلب بالحوّاس و يستعمل في الخير و الشّر، من يوسف و أخيه بنيامين و أنّما خصَّهما بالذّكر ولم يذكر من أقام بها لأنّ الّذي أقام فيها و قال فلن أبرح الأرض، أنّما أقام مختاراً، و لا تيأسوا من روح اللّه، أي تقنطوا من فرجه و تنفيسه، و أمّا على قراءة من قرأها بضمّ الرّاء فالمعنىٰ لا تقنطوا من رحمة اللّه الّتي تحيا بها العباد و قيل أي لا تقنطوا من حيٍّ معه روح اللّه الّذي وهبه فأنّ من بقي روحه يرجىٰ و هذا يصّح بناءً على أنّ يعقوب كان عالماً بحياة يوسف.

كما روي أنّه رأىٰ ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا هو حيٌّ فأطلبه.

قيل أنّهم قالوا في جواب أبيهم، أمّا بنيامين فلا نترك الجهد في أمره و أمّا يوسف فأنّه ميّت و إنّا لا نطلب الأموات فأنّه أكله الذّئب منذ زمانٍ فقال لهم يعقوب، **وَ لَا تَايْـَٔسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ** لعدم علمهم باللّه و صفاته و أمّا العارف به فلا يقنط من روحه في حالٍ من الأحوال و ذلك لأنّ مع العسر يسرا، و لكلّ شدّةٍ بعدها الفرج.

و في الحديث أنّ الفاجر الرّاجي الى اللّه أقرب من العابد القانط.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنط النّاس من رحمة اللّه ولم يؤيسهم من روح اللّه و لم يؤمنهم مكر اللّه

و في الحديث عن أبي عبد اللّه عليه السلام بعد أن ذكر الشّرك باللّه و بعده اليأس من روح اللّه قال أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول أنّه لا ييأس من روح اللّه إلاّ القوم الكافرون)

و يستفاد من الأخبار أنّ اليأس من الكبائر، فينبغي للعبد أن لا يقنط من روحه في جميع الأُمور.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَآ أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجيٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللّٰهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ

لمّا أرادوا الخروج الى أرض مصر علىٰ ما أمرهم أبوهم كتب يعقوب معهم كتاباً الى عزيز مصر يتعطّفه علىٰ نفسه و ولده و أوصاهم أن يبدأوا بدفع كتابه الىٰ عزيز مصر قبل دفع البضاعة اليه فكتب **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** الىٰ عزيز مِصر ومظهر العَدل ومُوفي الكيل من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللّه صاحب نمرود الّذي جمع لأبراهيم الحطب و النّار ليحرقه بها فجعلها اللّه عليه برداً و سلاماً و أنجاه منها، أخبرك أيّها العزيز إنّا أهل بيتٍ قديم لم يزل البَلاء سريعاً إلينا من اللّه ليبلونا بذلك عند السَّراء و الضّراء و أنّ مصائبي تتابعت عَلَّيَ منذ عشر من سنة أوّلها أنّه كان لي إبن سميّته يوسف و كان سروري من بين ولدي و قرّة عيني و ثمرة فؤادي و أنّ إخوته من غير أمّه سألوني أن أبعثه معهم يرتع و يلعب فبعثته معهم بكرةً و أنّهم جاؤني عشاءً يبكون و جاؤني بقميصه بدمٍ كذب فزعموا أنّ الذّئب أكله فإشتدّ لفقده حزني و كثر على فراقه بكائي حتّىٰ إبيّضت عيناي من الحزن و أنّه كان له أخٌ من خالته و كنت له معجباً عليه رفيقاً و كان لي أنيساً و كنت إذا ذكرت يوسف ضممته الى صدري فيسكن بعض ما أجدُ في صدري و أنّ إخوته ذكروا لي أنّك أيّها العزيز سألتهم عنه و أمرتهم أن يأتوك به منعتهم المهرة لنا من القمح من مصر فبعثته ليمتاروا لنا قمحاً فرجعوا إلّي و ليس هو معهم و ذكروا أنّه سرق مكيال الملك و نحن أهل بيت لا نسرق و قد حبسته عنّي و فجعتني به و قد إشتدّ لفراقه حزني حتّىٰ تقوّس لذلك ظهري و عظمت به مصيبتي مع مصائب متتابعات علّي بتخلية سبيله و إطلاقه من محبسه و طيّب لنا القمح و أسمح لنا في السِّعر و عجّل بسراح آل يعقوب انتهىٰ[١].

١- نُور الثّقيلن ج ٢ ص ٤٥٦

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَآ أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ لأنّهم كانوا يسّمون المَلك العزيز و العزيز في اللُّغة الواسع المقدور الّذي لا يهتضم المنيع بسعة مقدوره **مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا ٱلضُّرُّ** أي أصابنا الفقر و الحاجة بسبب القحط و كثرة العيال وقلّة الطّعام، **وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَيٰةٍ**، أي قليلة و قيل رديّئة و قيل كاسدة غير نافعة.

و روي أنّه كان معهم متاع البادية مِن الصّوف و الشّعر و السِّمن و الحبال البالية.

و قال بعضهم معناها مردودة مدفوعة يدفعها كلّ تاجرٍ رغبةً عنها و إحتقاراً لها مِن أزجيته إذا دفعته و طردته و كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفاً و سمناً، و قيل هي الصنوبر و الحبّة الخضراء و هي الفستق أو دراهم يوف لا تؤخذ إلاّ بنقصانها ثمّ قالوا له: **فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ** أي لا تنقصنا من كيلنا لنقصان بضاعتنا.

و قيل في معناه أعطنا بالزُّويوف كما تبيع بالدّراهم الجياد و لا تنقصنا شيئاً،**وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ** قيل في قوله: **تَصَدَّقْ عَلَيْنَآ** أنّهم سألوا التّفضل بترك النّقصان من السِّعر لأنّ الصدَّقة ما كانت تحلّ لهم، و قيل أنّهم سألوا الصدَّقة و هم أنبياء وكانت حلالاً لهم، قالوا الصَّدقة في الأصل العطّية للفقراء إبتغاء الأجر.

و قيل معناه تصدّ+ق علينا بالمسامحة والإغماض عن ردائة البضاعة.

و قال الزّمخشري و الظّاهر أنّهم طلبوا اليه أن يتصدّق عليهم و من ثمّ رقَّ لهم و ملكته الرَّحمة عليهم فلم يتمالك أن عرَّفهم نفسه وقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ** شاهد لذلك لذكر اللّه و جزاءه و الصدَّقة العَّطية الّتي تبتغي بها المثوبة من اللّه ومنه قول بعضهم لمن سمعه أن يقول اللّهم تصدّق علّى، لا تقل هذا، أنّ اللّه لا يتصدّق أنمّا يتصدّق الّذي يبتغي الثّواب قل اللّهم أعطني أو تفضّل علّى انتهىٰ كلامه.

و الحقّ أنّ الصدَّقة كما تطلق علىٰ ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة لأجل الثّواب كذلك تطلق علىٰ ما يتجافىٰ عنه الإنسان من حقّه و منه قوله تعالىٰ: **وَ اَلْجُرُوحَ قِصٰاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّٰارَةٌ لَهُ**[١] أي من تجافىٰ عنه.

و قوله: **وَ إِنْ كٰانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلىٰ مَيْسَرَةٍ**[٢] الىٰ أن قال: **وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ**[٣] فأنّه أجرى ما يسامح به المعسر مجرى الصّدقة و على هذا يحمل ما ورد عن النّبي، ما تأكله العافية فهو صدقة و على هذا قوله تعالىٰ: **وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا**[۴] فسمّي إعفاءه صدقة وهكذا و إذا كان كذلك فقوله: **وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنٰا** معناه تفضَّل علينا بالتسامح في بضاعتنا الرَّديئة كما يقال لولّي الدَّم تصدّق علّي بالعفو و الإغماض عمّا وقع فليس المال مأخوذاً في مفهوم التصدَّق أينما وجد حتّى يقال أنّ الصدّقة محرّمة على الأنبياء أو غير محرّمة مع أنّهم لم يكونوا من الأنبياء و قطعاً و حرمة الصدّقة على غير أولاد الرّسول لم تثبت.

قٰالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ

هذا حكاية ما أجاب به يوسف إخوته حين سألوه التصدّق عليهم و إيفاء كيلهم فرّق لهم بحيث لم يتمالك نفسه فقال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه، الإستفهام للتّوبيخ و التّذكير لهم بما فعلوه من إلقاءه في الجبّ بعد أن كانوا عزموا على قتله ثمّ بيعهم أيّاه عبداً للتّاجر الّذي حمله الى مصر و فعلوا بأخيه بنيامين ما عرضوه به للغم بأن أفردوه عن خيه لأبيه و أمّه مع جفاءهم له و إذلالهم إيّاه حتّىٰ لا يمكنه أن يكلّم أحداً منهم إلاّ كلام الذَّليل للعزيز و معنىٰ قوله: **إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ** أنّكم فعلتم ذلك في حال جهالة الصَّبي لا جهالة المعاصي و لولا ذلك لقال و أنتم جاهلون.

١- المائدة = ۴۵ ٢- البقرة = ٢٨٠
٣- البقرة = ٢٨٠ ۴- النساء = ٩٢

قيل لمّا خاطبهم بقوله: **هَلْ عَلِمْتُمْ** أدركوا أنّه لا يستفهم ملك لم ينشأ عندهم و لا تتّبع أحوالهم و ليس منهم فيما يظهر إلاّ و عنده علمٌ بحالهم فيقال أنّه كان يكلّمهم من وراء حجاب فرفعه و وضع التّاج من رأسه و تبسّم و كان يضئ ما حوله من نور تبسّمه أو رأوا لمعةً بيضاء كالشّامة في فرقة حين وضع التّاج و كان مثلها لأبيه وجدّه و سارة فتوسّموا أنّه يوسف و إستفهموه إستفهام إخبارٍ و قيل إستفهام تقرير لأنّهم كانوا فرفوه بتلك العلامات التّي سبق ذكرها.

و قال الزّمخشري فان قلت كيف عرفوه، قلت رأوا في رواءه و شمائله حين كلَّمهم بذلك ما شعروا به أنّه هو مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر إلاّ عن حنيفٍ مسلم من نَسل إبراهيم عليه السلام لا عن بعض أعزّاء مصر.

و قرأ قتادةً و إبن محيص و إبن كثير أنّك بغير همزة إستفهام و الظّاهر أنّها مرادة و يبعد حمله علىٰ الخبر المحض.

و قد قاله بعضهم لتعارض الإستفهام و الخبر إن إتّحد القائلون في القول الظّاهر.

و عن إبن عبّاس أنّه قال، لمّا قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف، فقالوا له على جهة الإستفهام، **أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ**، و كان يوسف اذا تبَّسم كأنّ ثناياه اللُّؤلؤ المنظوم فشبَّهوه بيوسف و كيف كان لمّا إنَّك لأَّنت يوسف، قال أنا يوسف و هذا أخي يعني إبن يامين أو بنيامين، من أبي و أمّي، قد منَّ اللّه عَلينا، بنعم قطعنا عن حال الشّدة.

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ أي من يتَّق عن المعاصي و يصبر على المصائب.
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ الصّابرين في بلاءه والقائمين بطاعته.

و قرأ إبن كثير، أنّه يتّقي بإثبات الياء و القراءة بها جائزة لا بأس بها علىٰ أن تجعل من، بمعنى الذّي و تدخل، يتّقي، في الصِّلة فتثبت الياء لا غير و على هذا فقوله: **يَصْبِرْ**، فيه وجهان:

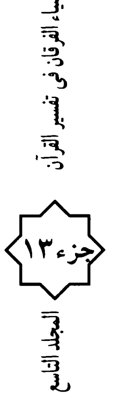
رفع، و جزم، فأن قلنا بشرطيّة، مِن، كما هو المشهور و عليه المصاحف فيجزم، يتّق و يصبر، و إن قلنا أنّها موصولة فتثبت الياء و الضّمة بمقتضى العطف و هو ظاهر و يظهر من الآية أنّ المحسن لا يطلق إلاّ علىٰ الصّابر المتّقي فمن صبر على المصائب و لا يتّقي لا يكون محسناً و بالعكس.

و أمّا أنّ اللّه تعالىٰ: **لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** فالوجه فيه أنّه عادل و تضييع الأجر ظلمٌ و هو تعالىٰ منزّه عنه إمّا أنّه عادلٌ فلا كلام فيه و أمّا قلونا تضييع الأجر ظلم فلأنّ المحسن بإحسانه يستحقّ الأجر و تضييع الأةر في الحقيقة يرجع الى تضييع الحقّ الّذي ثبت له بالإحسان.

و من المعلوم أنّ تضييع الحقّ ظلم لأنّه وضع الشّئ في غير محلّه و لا نعني بالظّلم إلاّ هذا و لا شكّ أنّ يوسف عليه السلام كان محسناً و لأنّه كان من المتّقين و الصّابرين و هو واضح.

و قد روي الصّدوق رحمه الله في كتاب كمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده الىٰ سُدير قال سمعتُ أبا عبد اللّه عليه السلام يقول في القائم عليه السلام شبه من يوسف.

قلتُ كأنّك تذكر خبره أو غيبته فقال لي ما تنكر هذه الأُمّة أشباه الخنازير أنّ إخوة يوسف كانوا أسباطاً و أولاد أنبياء تاجروا يوسف و بايعوه و هم إخوته أخوهم فلم يعرفوه حتّى قال لهم أنا يوسف فما تنكر هذه الأمّة أن يكون اللّه عزّ و جلّ في وقتٍ من الأوقات يريد أن يبيّن حجّته لقد كان يوسف ملك مصر و كان بينه و بين والده مسيرة ثمانية عشر يوماً فلو أراد اللّه عزّ وجلّ أن يعرّفه مكانه لقدر علىٰ ذلك واللّه لقد سار يعقوب و ولده عند البشارة مسيرة تسعة أيّام من بلدهم الى مصر فما تنكر هذه الأمّة أن يكوت اللّه عزّ وجلّ يفعل بحجّته ما فعل بيوسف أن يسير في أسواقهم و يطأ بسطهم وهم لا يعرفونه حتّىٰ يأذن اللّه عزّ و جلّ أن يعرّفهم نفسه كما أذن ليوسف حتّى قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه الىٰ قوله أنا يوسف و هذا أخي انتهىٰ.



قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ

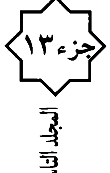
الإيثار في الأصل هو الأثر الجميل فيما يؤثر على غيره بمنزلة ما له أثر جميل و قيل هو إرادة التَّفضيل لأحد الشّيئين علىٰ الأخر و مثله الإختيار و المعنى أنّهم أي أولاد يعقوب بعد ما سمعوا إعتراف يوسف بأنّه يوسف و أنّ أخاهم الّذي إختبسه أخوه و أنّه منَّ عليهم بذلك قالوا، تاللّه، علىٰ وجه القَسَم لقد آثرك اللّه علينا أي فضَّلك و إختارك على أولاد يعقوب بالجمال و الجاه و المال **وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ** فيما فعلنا بك و الخطيئة إزالة الشّئ عن جهته الىٰ ما لا يصلح فيه و هذا إعتراف منهم بالخطيئة فيما فعلوا بيوسف من إيذاءه و ضربه و إلقاءه في الجبّ و بيعهم إيّاه بثمنٍ بخس و غير ذلك من أنواع الظُّلم.

و في قولهم: **لَخٰاطِئِينَ** إشارة الىٰ أنّ ما فعلوا بيوسف كان عن خطأ لا عن عمدٍ فلا معنى لقول بعض المفسّرين أنّهم كانوا صبياناً وقت ما فعلوا باخيهم و أنّهم سمُّوا أنفسهم خاطئين لأنّهم كانوا إبتداء فعلهم صبياناً ثمّ بلغوا مقيمين على كتمان الأمر عن أبيهم، و ذلك.

أمّا أوّلاً: فلأنّهم لم يكونوا حين إلقائم يوسف في الجبّ صبياناً.

ثانياً: أنّ الخطأ لا يصدق على الصَّبي فلا يقال أنّ الصّبي أخطأ في فعله بل الصّبي يفعل ما يفعل عن جهلٍ لأنّه لا يعرف الخطأ من العمد فالخطأ يطلق على البالغ العاقل الرّشيد و لذلك قالوا: **وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ** و لم يقولوا لجاهلين.

و أمّا قول بعضهم أنّ فيه إشعاراً بالتّوبة و الإستغفار، فلم نفهم معناه و لا نعلم أيّ إشعار فيه بالتّوبة و الإستغفار و هلى الإقرار بالذَّنب و الخطأ يكشف عن التّوبة لا أظنُّ أن يقول العاقل به.



قٰالَ لاٰ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللّٰهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرّٰاحِمِينَ

لمّا إعترفوا بأنّ اللّه فضله و إختاره عليهم و أنّهم خطأوا فيما فعلوه قال لهم يوسف، لا تثريب عليكم اليوم، أي لا بأس بما فعلتم في سالف الزّمان و التَّثريب في الأصل هو تعليق الضّرر بصاحبه من أجل جرمٍ كان منه.

و قال بعضهم معناه لا لوم و لا عقوبة عليكم اليوم أي في هذا الَوم الحاضر فأنّ ما مضى مضىٰ و الكريم لا يكون بصدد الإنتقام بل شأنه العفو و الإغماض عمّا سلف.

فقد روى في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال لمّا قدم رسول اللّه مكّة يوم إفتتحها فتح باب الكعبة وأخذ بعضادتي الباب فقال، لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ماذا تقولون وماذا تظنّون قالوا نظّن خيراً أخٌ كريم و قد قدرت قال صلى الله عليه وآله وسلم فأني أقول كما قالِ أخي يوسف، لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ والحديث طويل.

و قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ العفو في موضع القدرة من أحسن اللّذات.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال أولىٰ النّاس بالعفو أقدرهم علىٰ العقوبة وقال عليه السلام اذا قدرت على عدّوك فإجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

و قيل من عادة الكريم اذا قدر غفر و اذا رأى زلّةً ستر.

و قيل ليس من عادة الكرام سرعة الغضب و الإنتقام.

و قيل من إنتقم فقد شفي غيظه و أخذ حقّه فلم يجب شكره و لم يحمد في العالمين ذكره و العرب تقول: لا سؤددُ مع الإنتقام.

و لنعم ما قيل:

زعموا بأنّ الصَّقر صادف مرّةً عصفور برّ ساقه التَّقدير

فتكّلم العصفور تحت جناحه والصَّقر منقضٌ عليه يطير

أنّي لمثلك لا أتَّمم لقمةً ولئن شويت فأنّني لحقيرُ

فتهاون الصَّقر المدّل بصيده كرماً و أفلت ذلك العصفور

و الأحاديث و الأشعار و الأيات في فضيلة العفو كثيرة جدّاً.

يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ قيل إنّ يوسف دعا لهم بالمغفرة و عليه فيكون الوقف عند قوله و لا تثريب عليكم اليوم، ثمّ إبتدأ فقال: **يَغْفِرُ ٱللَّهُ** والحقّ أنّه لم يدع لهم بها بل أخبر بها في المستقبل بشرط التّوبة و ذلك لأنّ المغفرة بدون التّوبة لا تحصل لأحدٍ ففي ما ذكره إشعار بأنّ الظّلم الّذي صدر عنهم قابل للتّوبة و بعدها يغفر اللّه لهم اذا صفح عنهم المظلوم و هو يوسف و أبوه يعقوب.

ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

لمّا عرّفهم يوسف نفسه و عرفوه سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي قالوا أذهبت عيناه من كثرة البكاء عليك فأعطاهم يوسف قميصه و قال إذهبوا يا إخوتي بقميصي هذا أي إحملوا قميصي الّذي توارثه يوسف و كان في عنقه و كان من الجنّة أمره جبرئيل عليه السلام أن يرسله اليه فأنّ فيه ريح الجنّة لا يقع على مبتلي و لا سقيم إلاّ عوفي.

و قيل أنّه كان لإبراهيم عليه السلام كساه اللّه إيّاه من الجنّة حين خرج من النّار ثمّ لإسحاق ثمّ ليعقوب ثمّ ليوسف.

و روي عن أنس بن مالك عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال أنّ نمرود الجبّار لمّا ألقىٰ إبراهيم في النّار نزل اللّه جبرئيل بقميصٍ وطنفةٍ من الجنّة فألبسه القميص و أقعده علىٰ الطَّنفة و قعد معه يحدّثه فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق و كساه إسحاق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله في قصبةٍ من فضّةٍ و علقها أي للحفظ من العين وغيرها.

و قال بعضهم هو القميص الّذي قدَّ من دبرٍ أرسله ليعلم يعقوب أنّه عصم من الفاحشة و كيف كان فقد أمرهم يوسف بإلقاءه على وجه أبيه و قال لهم فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً.

يدّل هذا الكلام على أنّه أي يوسف علم أنّ يعقوب عمي من الحزن أمّا بإعلام الأخوة و إمّا بالوحي وقوله: **يَأْتِ بَصِيرًا** يظهر أنّه بوحيٍ و المعنى يأت إلّي حال كونه بصيراً أي ذاهباً بياض عينه و راجعاً اليها الضّوء.

و أمّا قوله: **وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** فمعناه أحملوا أهاليكم أجمع و جيئوني بهم بنسائكم و ذراريكم و مواليكم.

روي أنّ يهوذا حمل القميص و قال أنا أحزنته بحمل القميص الملّطخ بالدّم اليه فأفرحه كما أحزنته فحمله و هو حاف حاسرٍ من مصر الىٰ كنعان و معه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتّى أتاه و كانت المسافة ثمانين فرسخاً و معنى يأتِ، يأتيني و إنتصب بصيراً علىٰ الحال.

وَ لَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَنْ تُفَنِّدُونِ

الفعل القطع بحاجزٍ بين الشّيئين و نقيضه الوصل، و العير بكسر العين قافلة الحمير و أن كان فيها الجمال و كلّ جماعةٍ خرجت من بلدٍ الىٰ بلدٍ فهم قافلة يقال فصل من البلد فصولاً اذا انفصل منه و جاوز حيطانه و عمرانه و معنى فصلت العير إنفصلت من عريش مصر قاصدةً مكان يعقوب و كان قريباً من بيت المقدس و هو الصّحيح لأنّ قبورهم و أثارهم موجودة هناك الىٰ الأن، قال أبوهم أنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون أي لولا أن تسفهون.

و قيل لولا أن تهرمون، و قيل معناه تضّعفون و قيل تجهلّون، و قيل تكذبون و قيل معناه لولا أن تقولون ذهب عقلك و خرفت.

و قال أبو عبيدة لولا أن تضلّلون.

و قال الرّاغب في المفردات التّفنيد نسبة الإنسان الى الفند و هو ضعف الرّأي والإفناد أن يظهر من الإنسان ذلك و الفند شمراخ الجبل و به سمّي الرّجل فنداً.

قال إبن عبّاس وجد ريحه من مسير ثمانية أيّام و قال إبن جريح من ثمانين فرسخاً و كانت مدّة فراقه منه سبعاً و سبعين سنة و قيل أربعين سنة و قيل غير ذلك و أنّما قال يعقوب هذا القول لمن خضره من أهله و قرابته دون ولده لأنّهم كانوا غيبّاً عنه لم يصلوا اليه فيصير محصّل المعنىٰ أنّه قال إنّي لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون أي لولا أن تسنبوني الىٰ ضعف الرّأي و فساد العقل قال الشّاعر:

دع الدَّهر يفعل ما يشاء فأنّه اذا كلّف الإنسان بالدَّهر أفندا

أي أفسد.

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ

حكى اللّه تعالىٰ عمَّن كانوا حاضرين عند يعقوب من أهله و قرابته حين قال إنّي لأجدُ ريح يوسف، أنّهم قالوا له على وجه القسم تاللّه أي نقسم باللّه إنّك لفي ضلالك القديم و الضّلال هو الذّهاب عن جهة الصّواب.

و قيل الضّلال هنا لا يراد به ضدّ الهدى و الرّشاد و المعنى إنّك لفي خطأك و كان حزن يعقوب قد تجدَّد بقصّة بنيامين و لذلك يقال له ذو الحزنين.

و قال مقاتل الشّقاء و العناد، و قال إبن جبير الجنون و يعني واللّه أعلم غلبته المحبّة و قيل الهلاك و الذّهاب من قولهم ضلّ الماء في اللّبن أي ذهب فيه.

و قيل الحبّ و يطلق الضّلال على المحبّة.

و قال الزّمخشري لفي ذهابك عن الصّواب قدماً في إفراط محبّتك ليوسف و لهجك بذكره و رجاءك لقاءه و كان عندهم أنّه قد مات.

أقول الأقوال كلّها ترجع الىٰ شيءٍ واحد و هو أنّك الأن علىٰ ما كنت عليه في قصّة يوسف و يحتمل أن يكون مرادهم أنّك على محبّتك الّتي كنت عليه في حياة يوسف، و لم تعلم أو لم تذعن أنّه مات و كيف كان.

فَلَمَّآ أَنْ جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَيٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

البشير علىٰ وزن فعيل مبالغة من البشارة و لذلك يقال، البشير الذّي يأتي بالبشارة العظيمة و أكثر المفسّرين على أنّ البشير كان يهودا بن يعقوب و هو الّذي قال لإخوته قد علمتم إنّي ذهبت اليه بقميص القرحة فدعوني أذهب اليه بقميص الفرحة و هو الذّي ألقى قميصه على وجه يعقوب فارتًد بصيراً أي رجع يعقوب بعد العمى الى ما كان عليه قبله من رؤية البصر و الإلقاء إيقاع الشّيء علىٰ الشّيء و قد يكون بمعنى إيجاد الشّيء والإرتداد إنقلاب الشّيء الىٰ حالٍ كان عليه و هو الرّجوع بمعنى واحد فلمّا صار يعقوب **بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** قيل في معناه قولان:

أحدهما: إنّي أعلم من صحّة رؤيا يوسف و أنّ تأويلها سيكون علىٰ ما رأىٰ،**مَا لَا تَعْلَمُونَ**من تأويل الرُّؤيا.

الثّانى: إنّي أعلم من بلوى الأنبياء بالشّدائد و المحن الّتي يصبرون منها الى وقت الفرج،**مَا لَا تَعْلَمُونَ**.

وفي المقام قول ثالث: و هو أنّ معنى الكلام إنّي أعلم من إخبار ملك الموت إيّاي أنّ يوسف لم يمت لأنّه أخبرني أنّه لم يقبض روحه و يحتمل أن يشير الىٰ حسن ظنّه باللّه فقط.

و قال الزّمخشري، أي ألم أقل لكم إنّي لأجد ريح يوسف، أو قوله: **وَ لَا تَاْيْـَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ** وقوله: **إِنِّىٓ أَعْلَمُ** كلام مبتدأ لم يقع عليه القول.

و أنا أقول لا نحتاج الىٰ هذه التّأويلات و ذلك فأنّ قوله: **إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**، معناه إنّي أعلم بالوحي أو الإلهام منه تعالىٰ ما لا تعلمون و هذا لا خفاء فيه حتّى يحتاج الىٰ التّأويل لأنّ النّبي يعلم من اللّه ما لا يعلمه غيره.

و يظهر من هذا الكلام أنّ يعقوب كان عالماً بحياة يوسف و أنّه لم يمت و أنّما كان بكاءه عليه لأجل الفراق و عليه فهو دائماً كان ينتظر الفرج فلمّا ألقى البشير قميص يوسف علىٰ وجهه وصار بصيراً قال ما قال.

روي أنّ يعقوب سأل البشير كيف يوسف قال ملك مصر قال ما صنع بالملك و قال على أيّ دينٍ تركته قال على الإسلام قال يعقوب الأن تمَّت النِّعمة.

قيل لم يجد البشير عند يعقوب شيئاً يبيته به و قال ما خبَّرنا شيئاً منذ سبع ليالٍ و لكن هوَّن اللّه عليك سكرات الموت.

قال بعضهم رجع اليه بصره بعد العمى و القوّة بعد الضّعف و الشّباب بعد الهرم و السُّرور بعد الكَرب.

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ

قال بعض المفسّرين في الكلام حذف لأنّ تقديره أنّ إخوة يوسف وصلوا الى أبيهم بعد أن جاء البشير و ألقوا قميصه على وجهه و ردَّ اللّه بصره عليه فلمّا رأوه قالوا **يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** أي سل اللّه أن يسترها علينا و لا يُعاقبنا عليها فإنّا كنّا خاطئين فيما فعلناه بيوسف.

قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان بعد نقله ما نقلناه عنه من التّقدير ما هذا لفظه:

و متى قيل كيف سألوه الإستغفار مع أنّهم كانوا تابوا و التّوبة تسقط العقاب.

قلنا أمّا على مذهبنا فلأن التّوبة لا تسقط العقاب وجوباً و أنّما يسقطها اللّه تعالى عندها تفضّلاً و أمّا على مذهب مخالفنا فأنّهم سألوه ذلك لأجل المَظلَمة المتعلّقة بصفح المظلوم و سؤال صاحبه أن لا يأخذ بظلمه لابدّ أنّه توبة خاصّة منه.

ووجهٌ أخر و هو أن يبلغه منزلة بدعاءه يصير بمنزلة عالية لمكان سؤاله انتهىٰ.

أقول لم يثبت لنا أنّهم تابوا قبل ذلك نعم أنّهم قد أقرُّوا بخطأهم و ذنبهم كما في الآية و الإقرار بالذّنب و الخطأ قد يحصل من غير توبة بعده و نحن نرىٰ كثيراً من الخاطئين مصرّين بالخطأ مديمين عليه الىٰ أخر العمر و الحاصل أنّه لا ملازمة بين الإقرار بالذّنب و التّوبة لا عقلاً و لا نقلاً و اذا كان كذلك فليكن قولهم هذا أوّل توبتهم و أنّما سألوا أباهم أن يستغفر لهم لأنّ قبول التّوبة مشروط برضا المظلوم فيما اذا كان الظُّلم على الغير.

نعم في الظُّلم على النّفس لا يشترط و ما نحن فيه من الظُّلم علىٰ الغيريعقوب و يوسف فلا محالة قبول التّوبة مشروط برضاهما و لعلّه لأجل هذا قال في جوابهم.

سوف أستغفر لكم، و لم يستغفر لهم في الحال لأنّ المظلوم لم يكن هو وحده بل هُو و يوسف و الى هذا المعنىٰ أشير بقوله تعالىٰ: **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** أنّما قال سوف أستغفر و لم يقل سأستغفر لأنّ، سوف، أبلغ في التّنفيس من السّين.

هكذا قيل و الذّي يختلج بالبال في المقام أنّ السّين للمستقبل القريب و سوف للبعيد و ما نحن فيه من البعيد لا من القريب فما ذكره المفسّرون من أنّه أخّرَ الإستغفار لهم الىٰ السَّحر أو ليلة الجمعة أو الىٰ قيام اللّيل، أو اللّيالي البيض كلّ ذلك لا دليل عليه و ذلك لعدم ورود النّص فيه بما ذهبوا اليه و العقل أيضاً لا يحكم بصحتّه لأنّ دعاء النّبي مستجابٌ قطعاً سواء كان باللّيل أم بالنّهار أو في الجمعة أو في غيرها من الأيّام و السّاعات و أنّما أخرَّه الىٰ يوم لقاء يوسف و ذلك لأنّ ظلمهم على يوسف كان أشدَّ و أعظم منه على أبيهم يعقوب مضافاً الى إصالته فنيبغي أوّلاً الإستحلال منه ثمّ الإستغفار و لا يبعد أن يكون وجه تأخير الإستغفار هو هذا و لا شكّ أنّه من المستقبل البعيد و لذلك عبَّر بسوف دون السّين.

و إن شئت قلت إستغفار أبيهم لهم مع قطع النّظر عن موافقة يوسف أنّما ينفع لهم بالنّسبة الىٰ حقّه فقط و المفروض أنّ الغفران مترتّبٌ على رضاية الأب و الإبن معاً هذا ما نفهم من الكلام في وجه تأخير الإستغفار والإتيان بكلمة سوف و العلم عند اللّه.

و أمّا قوله: **إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** فمعناه واضح فأنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي يغفر الذّنب و يقبل التّوبة من عباده و قد وصف نفسه بذلك في كثير من الأيات كما لا يخفىٰ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ

أخبر اللّه في هذه الآية عن خروج يعقوب و أهله من كنعان و دخولهم علىٰ يوسف في مصر و ما جرى لهم في هذه الرُّؤية بعد الفراق.

روي أنّ يوسف وجه الى أبيه جهازاً كثيراً و مأتي راحلة و سأله أن يأتيه بأهله أجمعين فتّهيأ يعقوب للخروج الىٰ مصر فتوجّه مع أولاده و أهاليهم الى مصر علىٰ رواحلهم فلمّا قربوا من مصر أخبر بذلك يوسف فإستقبلهم يوسف و الملك الرّيان في أربعة ألاف من الجند أو ثلاث مائة فارس و العظماء و أهل مِصر بأجمعهم و مع كلّ واحدٍ من الفرسان جنّة من فضّة و راية من ذهب فتّزينت الصّحراء بهم و إصطّفُوا صفوفاً و كان الكلّ غلمان يوسف و مراكبه و لمّا صعد يعقوب تلاًّ و معه أولاده و حفدته أي أولاد أولاده و نظر الىٰ الصّحراء مملُوءة من الفرسان مزَّينة بالألوان نظر اليهم متعجّباً.

فقال له جبرئيل أنظر الى الهواء فأنّ الملائكة قد حضرت سروراً بحالكم كما كانوا محزونين مدّةً لأجلك ثمّ نظر يعقوب الى الفرسان فقال أيّهم ولدي يوسف فقال جبرئيل هو ذاك الّذي فوق رأسه ظلّة، فلم يتمالك أن أوقع نفسه من البعير فجعل يمشي مُوكّئاً علىٰ يهوذا فقال جبرئيل يا يوسف أنّ أباك

يعقوب قد نزل لك فأنزل له فنزل من فرسه و جعل كلّ واحدٍ منهما يعدو الى الأخر فلمّا تقرّبا قصد يوسف أن يبدأ بالسّلام فقال جبرئيل لا حتّى يبدأ يعقوب به لأنّه أفضل و أحقّ فإبتدأ به و قال السّلام عليك يا مذهب الأحزان و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

چه جورها كه كشيدند بلبلان أز دَى   بـبُوى آنكه دگر نو بهار باز آيد

فتعانقا و بكيا سروراً و بكت ملائكة السّموات و ماج الفرسان بعضهم في بعضٍ وصهلت الخيول و سبّحت الملائكة و ضرب بالطّبول فصار كأنّه يوم القيامة.

فقال يوسف يأ ابت بكيت علَّي حتّىٰ ذهب بصرك ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا فقال يعقوب بلى و لكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني و بينك نسأل اللّه الثّبات علىٰ الإيمان أنّه الكريم المنّان.

أقول روى في تفسير نور الثّقلين عن الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال أنّ يوسف لمّا قدم عليه الشّيخ يعقوب عليه السلام دخله عِزّ الملك فلم ينزل اليه فهبط جبرئيل فقال يا يوسف أبسط راحتك فخرج منها نور ساطع فصار في جوّ السّماء فقال يوسف يا جبرئيل ماهذا النُّور الذّي خرج من راحتي فقال نزعت النبوّة من عقبك لما لم تنزل الىٰ الشّيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبيّ انتهىٰ.

و عن كتاب علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام لمّا تلقىٰ يوسف يعقوب ترَّجل له يعقوب و لم يترجّل له يوسف فلم ينفصلا من العناق حتّىٰ أتاه جبرئيل فقال له يا يوسف ترجّل لك الصّديق و لم تترجّل له أبسط يدك فبسطها فخرج نور من راحته فقال له يوسف ما هذا قال لا يخرج من عقبك نبّي انتهىٰ.

و أيضاً بأسناده عنه عليه السلام لمّا أقبل يعقوب الى مصر خرج يوسف ليستقبله فلمّا رأه يوسف همَّ بأن يترّجل ليعقوب ثمّ نظر الىٰ ما هو

فيه من الملك فلم يفعل فلمّا سلَّم علىٰ يعقوب نزل عليه جبرئيل فقال له يا يوسف أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ يقول لك ما منعك أن تنزل الىٰ عبدي الصّالح ما أنت فيه أبسط يدك فبسطها فخرج من بين أصالبه نور فقال ماهذا يا جبرئيل فقال له أنّه لا يخرج من صلبك نبّي أبداً عقوبةً لك بما صنعت بيعقوب اذ لم تنزل اليه انتهىٰ.

و قد روى المجلسي قدس سره في البحار هذا الحديث ثمّ قال في بيانه ما لفظُه:

ما أنت إستفهام أي أمنعك ما أنت فيه من الملك ثمّ أنّه عليه السلام لعلّه راعى بعض مصالح الملك في ترك الترّجل و كان الأولىٰ و الأفضل ترك تلك المصلحة و تقديم تكريم الوالد عليه لا أنّه ترك واجباً أو فعل محرّماً لِما قد ثبت من عصمتهم عليهم السلام انتهىٰ.

و أمّا قوله: **اٰوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ** أي ضمّهما اليه و عانقهما و الظّاهر أنّهما أبوه و أمّه راحيل علىٰ قول من قال بحياة أمّه و قيل أنّها ما تَت من نفاس بنيامين و تزَّوج يعقوب أختها و هي خالة يوسف فأقامها مقام الأمّ و الأوّل حقيقة و الثّاني مجاز و الإيواء ضمّ القريب بالمحبّة لصاحبه كضمّ المأوىٰ يجمع شمله.

و قال بعضهم أبوه وجدّته أمّ أمّه و كيف كان فثّنى علىٰ لفظ الأب تغليباً للذّكر علىٰ الأُنثىٰ.

و قوله: **وَ قَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَآءَ ٱللّٰهُ اٰمِنِينَ** أي وقال لهم يوسف أدخلوا مصر، قيل أنّه قال لهم ذلك قبل أن يدخلوا مِصر و المعنى إدخلوا مصر إن شاء اللّه آمنين من الجوع و الخوف و سائر المكاره قاطبة لأنّهم كانوا قبل ولاية يوسف يخافون ملوك مصر و لا يدخلونها إلاّ باجازتهم لكونهم جبابرة و المشّيئة متعلّقة بالدّخول و الأمن معاً كقولك للغازي إرجع سالماً غانماً إن شاء اللّه فالمشّيئة متعلّقة بالسّلامة و الغنيم معاً و التّقدير إدخلوا مصر آمنين و ذو

الحال هو فاعل إدخلوا، و قيل أنّ يوسف خرج من البلد يستقبل يعقوب و معه أهل البلد فلمّا رجع قال إدخلوا مصر إن شاء آمنين.

و قيل أراد مصر مقيمين **إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ** و أنّما علّق ذلك علىٰ مَشيّئة اللّه لأنّ جميع الأمور بمشيّئته تعالىٰ و ما لا يشاء لا يكون و كانت عدّتهم إثنين و سبعين رجلاً و إمرأة و كانوا حين خروجهم منها مع موسىٰ عليه السلام ستّ مائة ألف و خمس مائة و بضعاً و تسعين أو سبعين رجلاً سوىٰ الذّرية والهرمي و كانت ذرّية يعقوب ألف ألف و مائتي ألَف

وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَآ أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَ جَآءَ بِكُمْ مِنَ ٱلْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ

العرش السّرير الرّفيع من قوله تعالىٰ: **خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**(١) أي على ما إرتفع من أبنيتها يقال عمل عريشاً إذا عمل رفيعاً و المعنى أنّ يوسف أجلس أبويه علىٰ سريره الّذي كان يجلس عليه تكرمةً لهما فوق ما فعله لأخوته فأنّهم إشتركوا في دخولهم دار يوسف لكنّهم تباينوا في الأيواء فأنفرد الأبوان بالجلوس معه على سرير الملك، و خرّوا له سجدّاً، أي إنحطّوا على وجوههم و الخرّ الإنحطاط على الوجه و منه قوله تعالىٰ: **خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ**(٢) و السُّجود في الأصل الذّل و في الشّرع خضوعٌ بوضع الوجه على الأرض سجدّاً، جمع ساجد كما أنّ السُّجود أيضاً جمعه قال الشّاعر:

ترى ألاكم فيها سجدّاً للحوافر

و قوله: **خَرُّوا لَهُ** أتى بضمير الجمع لأنّه يرجع الىٰ أبويه و إخوته جميعاً.

١- البقرة = ٢٥٩ ٢- الحجّ = ٣١

و قيل أنّه يرجع على إخوته فقط و لم يدخل في الضّمير أبواه بل رفعهما على سرير ملكه و الّضمير في (لَهُ) عائد على يوسف، و المعنىٰ أنّ يوسف أجلس أبويه على السّرير المختصّ به و هو العرش و أنحطّوا على وجوههم له و أختلفوا في معنىٰ سجودهم له و في وجه سجودهم له، فقال بعضهم معنىٰ السُّجود هو الذُّل في الأصل و هذا هو المراد في المقام و أمّا السّجود بالمعنى الشّرعي فلا يجوز إلاّ علىٰ اللّه تعالىٰ و قال بعضهم، كان السّجود منهم له تحّية لا عبادة.

و قال بعضهم أنّ السُّجود كان للّه في الحقيقة إلاّ أنهّم جعلوا يوسف قبلة كما تقول صلَّيت الىٰ الكعبة قال حسّان بن ثابت:

ما كنت أحسب أنّ الدّهر منصرفٌ   عن هاشمٍ ثمّ عنها عن أبي حسنٍ
أليس أوّل من صلّىٰ لقبلتكم   وأعرف النّاس بالأحكام والسُّنن

و قيل السّجُود هنا التّواضع والخُرور بمعنىٰ المُرور لا السّقُوط علىٰ الأرض و الدّليل عليه قوله تعالىٰ:

وَ ٱلَّذينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْيانًا[١].

أي لم يمرّوا عليها صمّاً و عمياناً، والّذي إتّفق عليه الكُلّ هو أنّ السّجُود في المقام ليس بمعناه المصطلح في الشّريعة و هو وضع الجبهة علىٰ الأرض يكفينا في المقام، و أمّا وجه السّجود فلا شكّ أنّه لتحقّق رؤياه كما أشير اليه بقوله: **وَ قالَ يآ أَبَتِ هٰذا تَأْويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبّى حَقًّا** و هي قوله:

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبيهِ يآ أَبَتِ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ[٢].

١- الفرقان = ٧٣
٢- يوسف = ٤

و قد مَّر الكلام في تفسير الآية و قلنا هناك أنّ الكواكب إخوته و الشّمس و القمر أبواه و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله: **قَدْ جَعَلَهَا** أي رؤياي، **رَبِّى حَقًّا** على رغم أنُوف الحاسدين و في قوله: **حَقًّا** إشارة الى أنّ رؤياه كانت صادقةً حيث رآى في اليقظة ما رآه في المنام طابق النّعل بالنّعل و ما كان كذلك لا باطل فيه و لغو و لا نعني بالحقّ إلاّ هذا و أن شئت قلت طابقت اليقظة المنام و من أصدق من اللّه قيلاً.

و قوله: **وَ قَدْ أَحْسَنَ بِىٓ رَبِّى إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَ جَآءَ بِكُمْ مِنَ ٱلْبَدْوِ** ففيه إشارة الىٰ لطفه تعالىٰ و عناية به، و الإحسان الإنعام على الغير يقال أحسن الى فلان و المشهور إستعماله بإلىٰ و قد يستعمل بالباء أيضاً كما قال تعالىٰ: **وَبِالْوٰالِدَيْنِ اِحسٰاناً** و قد يطلق الإحسان علىٰ الفعل كما إذا فعل فعلاً حسناً أو علم علماً حسناً و على هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام **النّاس أبناء ما يُحسَنون** أي يعملون، و قوله: **قَدْ أَحْسَنَ بِىٓ رَبِّى**، من الأوّل أي أنّه تعالى قد أحسن بي اذ أخرجني من السِّجن و جاء بكم من البدو، و البدو البادية خلاف الحضر لكون الصّحراء بادية على العين أي ظاهرة و المعنىٰ أنّه تعالىٰ جاء بكم من البادية و ذلك لأنّ يعقوب كان بأطراف الشّام ببادية فلسطين و كان ربّ إبلٍ وغنم.

و قيل كان تحّول الى بادية و سكنها فأنّ اللّه لم يبعث نبّياً من أهل البادية و في هذا الكلام إشارة الىٰ الإجتماع بأبيه و إخوته و زوال حزن أبيه و أنّ اللّه بدَّل الفراق بالوصال و الحزن بالسّرور بعد مدّةٍ طويلة و هو من أحسن النِّعم و لا يقدر عليه الاّ اللّه تعالى أنظر الى مكارم أخلاق يوسف و كرامة نفسه و حسن سريرته حيث لم يذكر الجُب و الخروج منه سالماً بقدرة اللّه و مشيئته و غير ذلك من الشّدائد و المحن و الضَّرب و الشّتم و حضّ بالذّكر هذين الأمرين أعني بهما الخروج من السِّجن و مجيئهم من البدو مع أنّ ما فعلوه به قبل



السِّجن كان أشَّد و أفجع من السِّجن لئلا يستحي إخوته ممّا فعلوه به و ذلك لأنّه من تمام الصَّفح و العفو أن لا يذكر ما تقّدم من الذَّنب و لنعم ما قيل:

سألزم نفسي الصَّفح عن كلّ مذنبٍ وإن عظمت منه علَّي الجرائم
فما النّاس إلاّ واحدُ من ثلاثةٍ شريفُ و مشروفُ و مثلُ مقاومُ
فأمّا الّذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحّق و الحّق لازمُ
و أمّا الّذي دوني فأن قال صنت عن إجابته نفسي وإن لامِ لائمُ
و أمّا الّذي مثلي فأن زلَّ اوهفا تفضّلت أنّ الحرّ بالفضل حاكمُ

مِنْۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِيٓ النَّزغ التَّحريش، بين الإثنين أي من بعد أن أفسد الشّيطان بيني و بين إخوتي و لقد بالغ في الإحسان حيث نسب ذلك الى الشّيطان قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**[1].

و في قول يوسف هذا إشارة الى أنّ ما فعلوه به من إلقائهم إيّاه في الجُّب و ضربه و بيعه بثمنٍ بخسٍ و غير ذلك من الأمور الشّنيعة كلّ ذلك كان بسبب وسوسة الّشيطان و إلاّ فالأخ لا يظلم على أخيه و لا يحسده أصلا.

و قوله: **إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ** أي لطيف التّدبير فأنّ اللّطف ما يدعوا الى فعل الواجب و يصرف عن القبيح و اللّه تعالىٰ يدعوا عباده الى فعل الواجب و ترك القبيح بسبب الأنبياء عليهم السّلام فهو لطيفٌ بعباده و هو العليم الحكيم أي أنّه عالمٌ بأحوال الخلق و ما يصلحهم و ما يفسدهم حكيمٌ في أفعاله لا يضيع الشّئ إلاّ في مَوضعه.

■

١- الأعراف = ١٩٩

رَبِّ قَدْ اٰتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحٰادِيثِ فٰاطِرَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْاٰخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَ مٰآ أَكْثَرُ ٱلنّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَ مٰا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلّٰا ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَ كَأَيِّنْ مِنْ اٰيَةٍ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ عَنْهٰا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّٰا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غٰاشِيَةٌ مِنْ عَذٰابِ ٱللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسّٰاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لٰا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ عَلٰى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي وَ سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ وَ مٰآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلّٰا رِجٰالًا نُوحِيٓ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرٰى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدٰارُ ٱلْاٰخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلٰا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتّٰى إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰآءَهُمْ نَصْرُنٰا فَنُجِّيَ مَنْ نَشٰآءُ وَ لٰا يُرَدُّ بَأْسُنٰا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كٰانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبٰابِ مٰا كٰانَ حَدِيثًا يُفْتَرٰى

وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

◀ اللّغة

فَاطِرَ الفطر الشّق عن أمرٍ بإختراعه عند إنشقاقه ومنه تفَّطر الشَّجر بالورق.
وَلِيِّي الوَّلي النَّصير بما يتولّى من المعاونة.
أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ الأنباء جمع نبأ و هو الخبر و الغيب ذهاب الشّيئ عن الحسّ.
نُوحِيهِ الإيحاء إنهاء المعنى الى النّفس.
يَمْكُرُونَ المكر فتل الحيل عن الأمر و أصله من قولهم ساق ممكورة أي مفتولة.
حَرَصْتَ الحرص طلب الشّيئ في إصابته يقال هو حريصٌ على الدّنيا اذا إشتدّ طلبه لها.
كَأَيِّنْ معناه كم، و الأصل فيها أيّ، فدخلت عليها الكاف للتّفخيم بالإبهام و تقديره كالعدد فهو أبهم من نفس العَدد لِما فيه من التّكثير و التّفخيم و غلبت علىٰ كَأَيِّنْ، من بعدها دون كم، لأنّ كأيّن، أشدّ إبهاماً فإحتاجت الى، من، لِتدّل علىٰ أنّ ما يذكر بعدها تفسير لها.
غَاشِيَةٌ الغاشية ما يتجلّل الشّيئ بإنبساطها عليه.
بَغْتَةً البغتة و الفجأة والغفلة نظائر.
ٱسْتَيْئَسَ الإستيئاس و اليأس إنقطاع الطَّمع.

◀ الإعراب

رَبِّ أصَله يا ربّي حذفت حرف النّداء ثمّ حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه مِنَ ٱلْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ قيل المفعول محذوف أي عظيماً من الملك و حظّاً من تأويل اأحاديث، و قيل، من، زائدة، و قيل هي

لبيان الجنس وَ ٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ الجمهور علىٰ الجرّ عطفاً علىٰ السّموات و الضّمير في عَلَيْهَا للآية و قيل للأرض و عليه فيكون يَمُرُّونَ حالاً منها و قد يُقرأ وَ ٱلْأَرْضِ بالنّصب أي و ليكون الأرض و فسرّه، يمرُّون، و يقرأ بالرّفع على الإبتداء و بَغْتَةً مصدر في موضع الحال أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مستأنف و قيل حال من الياء عَلَىٰ بَصِيرَةٍ حال أي مستيقناً وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي معطوف علىٰ ضمير الفاعل في، إدعوا، و يجوز أن يكون مبتدأ أي و من إتّبعني كذلك وِمِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ صفةٌ لرجال أو حالٌ من المجرور فَنُجِّيَ يُقرأ بنُونَينو تخفيف الجيم و يقرأ بنونٍ واحدةٍ و تشدّيد الجيم علىٰ أنّه ماضٍ لم يسمّ فاعله.

◄ التّفسير

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عمّا قاله يوسف في مقام الشّكر للّه تعالىٰ بما أعطاه بعد إجتماعه مع أبويه و إخوته و أهل بيته فقال ربّ، أي يا ربّي فحُذفت حرف النّداء والياء على ما أشرنا اليه، أتيتني من الملك، أي أعطيتني بعضاً منه و هو ملك مصر، إن كانت تبعيضيّة و أمّا على القول بأنّها لبيان الجنس فالمعنى أعطيتني الملك أي جنسه قلّ أو كثر ففيه إعتراف منه بأنّ اللّه تعالىٰ هو الذّي أنجاه من الجبّ و غيره من المصائب فهو تعالىٰ أعطاه النّعم الكثيرة و من جملتها الملك و السّياسة و التّدبير بين الخلق.

وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ أي صيَّرتني عالماً بها وهذه نعمة أخرى أنعمتني بها بل هي أفضل و أشرف من نعمة الملك.

و المراد بالأحاديث ليس الرُّؤيا فقط كما زعمه بعض المفسّرين بل المراد بها الإخبار عن حوادث الزّمان و يدخل فيه علم الرُّؤيا أيضاً قلنا ذلك أفضل من الملك لأنّ الملك يزول و العلم يبقىٰ وا لملك يحصل للكافر و المؤمن و هذا العلم لا يحصل إلاّ لمن إختاره اللّه و إصطفاه علىٰ الخلق و قلّما يتّفق

جمعهما أي جمع الملك و العلم لأحدٍ من النّاس ففمن جمع بينهما فهو من أولياء اللّه حقّاً و لعلّه لذلك خصَّهما بالذّكر من بين النِّعم الكثيرة الّتي لا تحصى و لا بأس بالإشارة الىٰ توضيح ذلك إجمالاً فنقول:

أنّ اللّذات على قسمين: جسمانيّة، و روحانيّة، وإن شئت قلت مادّية و عقليّة.

فالجسمانيّة منها ما يكون بقاء الجسم و إستمتاعه به كالمأكولات و المشروبات و المنكوحات و الملموسات و المشمومات و المذوقات و غير ذلك ممّا يرتبط به.

أمّا اللّذات الرُّوحانية فهي عبارة عمّا يكون بقاء الرُّوح و نشاطه و سروره به كالعدالة و السّخاوة و الشّجاعة و الأمانة و غير ذلك ممّا يستلذّ الرُّوح به و كما أنّ الجسم محتاج الى ما يتغذّىٰ به كذلك الرُّوح محتاج الى ما يتغذّىٰ به إلاّ أنّ التغذّية في كلّ واحدٍ منهما بحسبه و النّاس في المقام علىٰ أصنافٍ ثلاثة:

أحَدها: من يلتذّ باللّذات الجسمانيّة كيف يشاء و لا حظّ له من اللّذات الرُّوحانية و هم أبناء الثّروة و المكنة في دار الدُّنيا.

ثانيها: من يلتذّ باللّذات الرُّوحانية و لا حظّ له من اللّذات الجسمانيّة إلاّ قليلاً.

ثالثها: من جمع بينهما.

أمّا الصّنف الأوّل: ففي رأسهم الملوك و أبناء الملوك ثمّ الأغنياء و المتموّلين.

والصّنف الثّاني: في رأسهم العلماء إذ لا لذّة للرُّوح أحسن و أفضل من العلم لأنّ جميع الكمالات النّفسانية من العدالة و السّخاوة و الشّجاعة و الأمانة و غيرها بدون العلم لا يعدّ فضيلة واقعاً و أن أطلقت عليه ظاهراً و ذلك لأنّ أعمال الفضيلة و إيجادها في الخارج كما هو حقّه منوطٌ بالعلم و الجاهل بمعزلٍ عنه و لذلك نقول أنّ العلم رأس الفضائل بل نقول أنّ اللّذة في الحقيقة

ليست إلاّ لذّة الرُّوح و هي لا تتحقّق إلاّ بالعلم و أمّا اللّذات الجسمانيّة فهي مشتركة بين الإنسان و الحيوان.

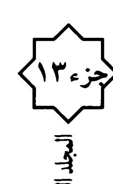
والصّنف الثّالث: من جمع بين اللّذتين و هو الّذي قد فاز فوزاً عظيماً و هو قليلٌ.

إذا عرفت هذا فنقول أنّ يوسف الصدّيق كان من الّذين فاز بكلتيهما فقوله: **رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ** إشارة الىٰ اللّذات الجسّمانية فأنّ حَظّ الملوك فيها أكثر و أوفر، و قوله: **وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** إشارة اللّذات الرُّوحانية فأنّ جميعها تحت العلم كما مرَّ فهو من حيث أنّه كان ملكاً و عالِماً كان جامعاً بين اللّذات بأجمعها ثبت أنّ شكر المنعِم واجب عقلاً فلذلك تصدّى للعمل بوظيفته العقّلية و الشّرعية فقال ما قال حمداً و شكراً لواهِب العطايا.

و قوله: **فَاطِرَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** ففيه إشارة الىٰ مقام الإيجاد الّذي هو مقدّم على جميع الأمور أي أنّ الّذي آتاني الملك و علّمني تأويل الأحاديث هو الّذي أوجد السّمٰوات و الأرض و أظهر الموجودات فيهما و أنا من جملتها فهو المستحقّ للولاية عليها و التّصرف فيها كيف يشاء كما قال: **أَنْتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةِ** والوّلي هو الأولى بالتّصرف في المولّى عليه في الدّارين، و أن كان الولّي بمعنى النّاصر كما ذهب اليه بعض المفسّرين فالمعنىٰ أنت ناصري و معيني في جميع أموري و ما توفيقي إلاّ باللّه عليه توكلتُ و اليه أنيب بل نقول أنّ الولاية أوّلاً و بالذّات ثابتة له وثانياً و بالعرض لغيره من الأنبياء و الأوصياء لأنّ ولايتهم منه تعالىٰ لا من قبل أنفسهم.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ**[1].

١- المائدة = ٥٥



أثبت اللّه في هذه الآية الولاية أوّلاً لِذاته ثمّ لنبيّه و ثالثاً لوصّيه و فيه إشارة الىٰ أنّها في حقّه ذاتّية و في غيره عرضيّة كما مرّ الكلام فيها عند تفسيرها و أنّما قال، أنت وليّي، و لم يقل وليّي أنت، لأنّ تقديم المسند اليه يفيد الحصر و حيث أنّه أراد حصر الولاية في اللّه تعالىٰ قال أنت وليّي بتقديم المسند اليه و هو كذلك حقّاً لأنّه تعالى هو الّذي نصره و أخرجه من الجبّ و أنجاه من أيدي الظلمة و أجلسه على سرير الملك و علّمه ما علّمه و بدّل فراقه بوصاله و من نصر عبده كذلك فحقيقٌ أن يقال أنت وليّي في الدّنيا و الأخرة إذ لا ولّي غيره **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** توفية الشّئ بذله وافياً و قد عَبَّر عن الموت بالتوفّي كما عبّر عنه به في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَتَوَفَّى اَلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ اَلَّذِي يَتَوَفّٰيكُمْ بِاللَّيْلِ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰيكُمْ**[3].

و غيرها منها وفي قوله: **مُسْلِمًا**، إشارة الى نكتةٍ و هي أنّ حسن العاقبة لا يكون إلاّ بالمَوت على الإسلام و أمّا قبل الموت فلا يحكم عليه بشئٍ فأنّ كثيراً من المسلمين يموتون علىٰ الكفر كما أنّ كثيراً من الكفّار يموتون علىٰ الإسلام.

و الحاصل أنّ الإنسان قبل موته لا حكم له أو عليه من هذه الجهة و لذلك ورد في الدُّعاء اللّهم إجعل عاقبة أمرنا خيراً و لذلك قال: **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**.

في مقام الدّعاء و قوله و ألحقني بالصّالحين فهو دعاء له عليه السلام لما بعد الموت أي أحشرني مع الصّالحين في الأخرة و المراد بالصّالحين الأنبياء و الأوصياء و من حذى حذوهم و هو أيضاً من أحسن الدّعاء.

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا أَيَّتُهَا اَلنَّفْسُ اَلْمُطْمَئِنَّةُ، اِرْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبٰادِي، وَ اُدْخُلِي جَنَّتِي**[4].

۱- الزّمر = ۴۲
۲- الأنعام = ۶۰
۳- النّحل = ۷۰
۴- الفجر = ۲۷ الى ۳۰

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ**[٢].

إعلم أنّ يوسف الصّديق في هذه الآية أشار الىٰ أمورٍ لا شئ أحسن منها في الدّنيا والأخرة.

أوّلها: الملك فأنّه من أحسن المناصب الدّنيوية.

ثانيها: العلم فأنّه من أحسن الفضائل النفّسانية.

ثالثها: وصفه بأنّه فاطر السّمٰوات و الأرض و ما فيهما من الموجودات.

رابعها: أنّه تعالى وليّه و ناصره في الدّنيا و الأخرة.

خامسها: طلب منه تعالى أن يتوّفاه مسلماً و هو من حسن العاقبة.

سادسها: طلب منه أن يلحقه بالصّالحين و هو من أحسن النِّعم الأخروية و من المعلوم أنّ دعاءه عليه السلام كان مستجاباً فهو أي يوسف ممّن جعله اللّه تعالى سعيداً في الدّارين و هو المطلوب.

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ

هذا خطاب من اللّه لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال، ذلك، أي ما أخبرناك من قصّة يوسف و غيرها ممّا سبق ذكره، من أنباء الغيب، و الأنباء الأخبار بما له شأن و منه قولهم، لهذا نبأٌ، أي شأنٌ عظيم و الغيب ذهاب الشّئ عن الحسّ.

و من المعلوم أنّ اللّه تعالىٰ هو العالِم بالغيب كما وصف نفسه به في قوله: **عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ**[٣] أي عالمٌ بما غاب عن الحوّاس وبما حضرها **نُوحِيهِ إِلَيْكَ** أي نلقيه اليك و الوحي إلقاء المعنى الى النّفس و فيه إشارة الى صدق

١- النّمل = ١٩ ٢- العنكبوت = ٩
٣- الأنعام = ٧٣

الأحاديث الّتي ألقيت من جانب الرّب الى رسوله فأنّ ماكان بالوحي يكون صدقاً قطعاً و من أصدق من اللّه قيلاً ثمّ قال تعالى مخاطباً لنبيه: **وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ**أي ما كُنتَ يا محمّد عند إخوة يوسف إذ أجمعوا و إتّفقوا، أمرهم، و هو إلقاءهم يوسف في الجبّ بقصد القتل حسداً منهم و بغياً و هم يمكرون في فعلهم هذا حيث قالوا لأبيهم بعد رجوعهم اليه أكله الّذئب، و كانوا كاذبين في أمر يوسف و أنّما مكروا في فعلهم هذا و لم يعلموا أنّ اللّه خير الماكرين حيث أنجى يوسف من الجبّ سالماً ثمّ راقبه و لطف به حتّى أجلسه على سرير الملك علىٰ ما مرّ تفصيل الكلام فيه.

قيل و أنّما قال ذلك لنبيّه لأنّه لم يكن ممّن قرأ الكتب و لا خالط أهلها و أنّما أعلمه اللّه تعالىٰ ذلك بوحيٍ من جهته ليدلّ على نبوّته، و في خاتمة البحث في قصّة يوسف نشير الىٰ بعض ما نقلوه في المقام.

حكي أنّ زليخا بعد ما توّفى قطفير إنقطعت عن كلّ شيءٍ و سكنت في خرابةٍ من خرابات مصر سنين كثيرة و كانت لها جواهر كثيرة جمعت في زمان زوجها فإذا سمعت من واحدٍ خبر يوسف أو إسمه بذلت منها محبّةً له حتّىٰ نفذت و لم يبق لها شيئ و قال بعضهم أصاب زليخا ما أصاب النّاس من الضّر و الجوع في أيّام القحط فباعت حلّيهاو حللها و جميع ما كانت تملكه و بكت بكاء الشوق ليوسف و هرمت ثمّ لمّا غيّرها الجهد و إشتّد حالها بمقاساة شدائد الخلوة في تلك الخرابة إتّخذت لنفسها بيتاً من القصب على قارعة الطّريق الّتي هي ممرّ يوسف و كان يوسف يركب في بعض الأحيان و له فرس يسمع صهيله على ميلين و لا يصهل إلاّ وقت الرّكوب فيعلم النّاس أنّه قد ركب فتقف زليخا علىٰ قارعة الطّريق فإذا مرَّ بها يوسف تناديه بأعلى صوتها فلا يسمع لكثرة إختلاط الأصوات فأقبلت يوماً على صنمها الّذي كانت تعبده و لا تفارقه و قالت به تبّاً لك و لمن يسجد لك أما ترحم كبري و عماي و فقري

وضعفي فأنا اليوم كافرة بك فآمنت بربّ يوسف و صارت تذكر اللّه صباحاً و مساءً فركب يوسف يوماً بعد ذلك فلّما صهل فرسه علم النّاس أنّ ركب فأجتمعوا لمشاهدة جماله ورؤية إحتشامه فسمعت زليخا الصّهيل فخرجت من بيت القصب فلمّا مرّ بها يوسف نادت بأعلى صوتها سبحان مَن جعل الملوك عبيداً بالمعصية و جعل العبيد ملوكاً بالطّاعة فأمر اللّه الرّيح فألقت كلامها في مسامع يوسف فأثّر فيه فبكى ثمّ إلتفت فرآها فقال لغلامه إقبض لهذه المرأة حاجتها فقال لها ما حاجتك قالت أنّ حاجتي لا تقضيها إلاّ يوسف فحملها الى دار يوسف فلمّا رجع يوسف الى قصره نزع ثياب الملك و لبس مدرعة من الشّعر و جلس في بيت عبادته يذكر اللّه تعالى فذكر العجوز و دعا بالغلام و قال له ما فعلت العجوز فقال أنّها زعمت أنّ حاجتها لا يقضيها غيرك فقال إئتني بها فأحضرها بين يديه فسلّمت عليه و هو منكسّ الرأس فرَّق لها وردَّ عليها السّلام و قال لها يا عجوز أنّي سمعت منك كلاماً فأعيديه فقالت أنّي قلت سبحان من جعل العبيد ملوكاً بالطّاعة و جعل الملوك عبيداً بالمعصية فقال نعم ما قلت فما حاجتك فقالت يا يوسف ما أسرع ما نسيتني فقال من أنت و مالي بك معرفة قالت أنا زليخا فقال يوسف لا إله إلاّ اللّه الّذي يحيي و يميت و هو حيٌّ لا يموت و أنت بعد في الدّنيا يا رأسّ الفتنة و أساس البَلية فقالت يا يوسف أبخلت علَّى في حياة الدّنيا فبكى يوسف و قال ما صنع حسنك و جمالك و مالك قالت ذهب به الّذي أخرجك من السِّجن و أورثك هذا الملك فقال لها ما حاجتك قالت أو تفعل قال نعم و حقّ مشيّئة إبراهيم فقالت لي ثلاث حوائج.

الأولىٰ والثّانية: أن تسأل اللّه يرّد على بصري و شبابي و جمالي فأنّي بكيت عليك حتّى ذهب بصري و نحل جسمي فدعا لها يوسف فردّ اللّه عليها بصرها و شبابها و حسنها قيل كان عمرها يومئذٍ تسعين سنة.

والحاجة الثّالثة: أن تتزّوجني فسكت يوسف و أطرق رأسه زماناً فأتاه جبرئيل و قال له يا يوسف ربّك يقرئك السّلام و يقول لك لا تبخل عليها بما طلبت فتزّوج بها فأنّها زوجتك في الدّنيا و الأخرة و نزلت عليه الملائكة تهنّئه بزواجه بها و قالوا هنأك اللّه بما أعطاك فهذا ما وعدك ربّك و أنت في الجبّ فقال يوسف الحمد للّه الّذي أنعم عًلي و أحسن و هو أرحم الرّاحمين فأرسل زليخا الى بيت الخلوة فأستقبلتها الجواري بأنواع الحلّي و الحلل فتزيّنت بها فلّما جنَّ اللّيل و دخل عليها يوسف قال لها أليس مّا كنت تريدين فقالت أيّها الصّديق لا تلمني فإنّي كنت إمرأةً حسناء ناعمة في ملك و دنيا و كان زوجي عنّناً لا يصل الى النّساء و كنت كما جعلك اللّه في صورتك الحسنة فلّما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها و فًك الخاتم فحملت من يوسف و ولدت له إبنين في بطنٍ أحدهما أفراييم و الأخر، ميثا و كانا كالشّمس و القمر في الحسن و البهاء و أحبَّ يوسف زليخا حبّاً شديداً.

و قال بعضهم ولدت له بعد الإبنين بنتاً تسمّى، حمة، و هي إمرأة أيّوب عليه السّلام و ولد لأفراييم نون ولنُون يوشع متى موسى و لمّا نزل يعقوب في قصر يوسف جاء أولاد يوسف فوقفوا بين يدي يعقوب ففرح بهم و قبَّلهم وحدًّثه يوسف بحديثه مع زليخا و ما كان منه و منها و أخبره أنّ هؤلاء أولاده منها، فإستدعاها يعقوب فحضرت و قبلّت يده و سألته زليخا أن ينزل عندها.

روي أنّ يعقوب أقام مع يوسف في مصر أربعاً و عشرين سنة و أوصى أن يدفنه بالشّام الى جنب أبيه إسحاق فنًقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج فوافق يوم وفاة عيص و هو أخو يعقوب في بطنٍ واحدٍ فدفنا في قبرٍ كما كان في بطنٍ واحدٍ و كان عمرهما مائة و سبعاً و أربعين سنة على ما قيل ثمّ عاد يوسف بعد دفن أبيه الى مصر و عاش بعد أبيه ثلاثاً و عشرين سنة و كان عمره حين الموت مائة و عشرين سنة فلمّا جمع اللّه شمله و إنتظمت أسبابه و

إطردت أحواله و رأى أمره على الكمال علم أنّه أشرف على الزّوال و أن نعيم الدنيّا لا يدوم علىٰ كلّ حالٍ كما قال الشّاعر:

اذا تمَّ أمرٌ دنا نقصه توّقع زوالاً اذا قيل تمّ

فسأل الموت بحسن العاقبة كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله: **رَبِّ قَدْ اٰتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** الىٰ قوله: **وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** و قد مرَّ الكلام فيه.

قيل أنّ زليخا ماتت قبل يوسف فحزن عليها و لم يتّزوج بعدها ولما دنت وفاة يوسف أوصى الى ولده افرايتم أن يسوس النّاس قالوا أنّ يوسف بعد ذلك خرج من مصر بأهله و أولاده و إخوته و من أمن معه و نزل عليه جبرئيل فخرق له من النّيل خليجاً الى الفيوم و لحق به كثير من النّاس و بنوا هناك مدينتين، و سمّوها الحرمين فكان يوسف هناك سنين الى أن مات فتخاصم المصريّون في مدفنه من جانبي النّيل كلّ طائفةٍ أرادت أن يدفن يوسف في جانبه و سمته تبّركاً بقبره الشريف و جلباً للخصب حتّى همُّوا بالقتال ثمّ تصالحوا على أن يدفن سنة في جانب مصر و سنة في جانب أخر من البدو فأخصب ذلك الجانب و أجدب الجانب الأخر المصري ثمّ إتّفقوا على دفنه في وسط النيل و قدَّروا ذلك بسلسلةٍ و عملوا له صندوقاً من مرمر فلمّا أمر اللّه موسى بالسير ببني إسرائيل أمره أن يحمل معه عظام يوسف و أن لا يخلفها بأرض مصر و أن يسير بها حتّى يضعها في الأرض المقدّسة أي وفاءً بما أوصى به يوسف فقد نقل أنّه لمّا أدركته الوفاة أوصى أن يحمل الى مقابر أباءه فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك فسأل موسى عمَّن يعرف موضع قبر يوسف فما وجد أحداً يعرفه إلاّ عجوزاً في بني إسرائيل فقالت لموسى يا نبّي اللّه أنا أعرف مكانه و أدُلّك عليه أن أنت أخرجتني معك و لم تخلفني بأرض مصر قال أفعل.

و قيل أنّها قالت بشرط أن أكون معك في الجنّة فكأنّه ثقل عليه فقيل له إعطها طلبتها فأعطاها و قد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم اذا طلع القمر فدعا ربّه أن يؤخّر طلوعه حتّى يفرغ من أمر يوسف ففعل فخرجت به العجوز حتّىٰ أرته إيّاه في ناحية من النّيل فقالت لهم إنضبوا عنها الماء أي إرفعوه عنها ففعلوا فقالت إحضروا فحضروا و أخرجوه و وجده في صندوق من حديد في وسط النّيل في الماء إستخرجه موسىٰ و هو في صندوقٍ من مرمر و هو داخل في الصّندوق الّذي من الحديد فإحتمله.

و في نقلٍ أخر أنّ موسى جاءه شيخ له ثلاث مائة سنة فقال يا نبيّ الّله ما يعرف قبر يوسف إلاّ والدتي فقال له موسى قم معي الى والدتك فقام الرّجل و دخل منزله و أتىٰ بقفّة فيها والدته فقال لها ألك علم بقبر يوسف قالت نعم و لا أدُلّك على قبره إلاّ أن دعوت اللّه أن يردّ علّي شبابي الى سبع عشرة سنة و يزيد في عمري مثل ما مضى فدعا موسى لها و قال لهكما عمرك قال تسع مائة سنة فعاشت ألفاً و ثمان مائة سنة فأرته قبر يوسف و كان في وسط نيل مصر ليمُّر النّيل عليه فيصل الى جميع مصر فيكونوا شركاء في بركته فأخصب الجانبان و كان بين دخول يوسف مصر الى يوم خروج موسى أربع مائة سنة و هو أي يوسف أوّل نبّي من بني إسرائيل ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر و لم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف و أباءه الى أن بعث اللّه موسى فنَّجاهم من الفراعنة.

أقول هذا ما ذكروه في قصّة يوسف و أنّما ذكرناها بطولها لانّها لا تخلو من الموعظة و أن كان في صحتها إشكالاً من حيث عدم إستنادها الى الوحي و ذلك لأنّ المستند الى الوحي هو الذّي ذكره تعالى في القرأن و أنت ترى أنّ القرأن خالٍ عمّا ذكروه من القصص التّي لا أصل لها و مع ذلك نقلناها بعنوان المنقول لا بعنوان التفسير و اللّه تعالى أعلم بحقائق الأمور.

وَ مَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

قيل أنّ كفّار قريش و جماعة من اليهود سألوا رسول اللّه ﷺ عن قصّة يوسف على سبيل التّعنت فلمّا أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا فحزن النبي ﷺ فقال اللّه و ما أكثر النّاس، من أهل مكّة و غيرهم، ولو حرصت، على إيمانهم وبالغت في إظهار الأيات و المعجزات لهم **بِمُؤْمِنِينَ** لعنادهم و لجاجهم و هذا في الحقيقة من أسرار القدر لأنّ عدم إيمانهم من مقتضيات إستعدادتهم الأزلية الغير المجعولة و أحوال أعيانهم الثّابتة هكذا قيل.

و أنا أقول أن كان عدم إيمانهم مستنداً بعدم إستعدادهم و أحوال أعيانهم الثّابتة الأزليّة فما ذنب الكافر الذّي لا يؤمن و المفروض عدم إستعداده للإيمان بمقتضى فطرته و خلقته و هل هذا إلاّ الجبر الذّي لا يقول به عاقل بل الحقّ أنّ عدم قبولهم الإيمان مسَّببٌ عن قساوة قلوبهم و خبث سريرتهم و عنادهم للحقّ و الباعث على هذه الأمور ليس إلاّ العصيان و الطغيان النّاشئ عنهم بإختيارهم فأنّ القلب بسبب المعصية و الإدامة عليها يصير قسيّاً لا يقبل الحقّ كما مرَّ البحث فيه مراراً.

وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلّٰا ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ

الخطاب للنّبي ﷺ و كلمة، ما، نافية و المعنىٰ إنّك لست تسألهم أي النّاس، على إبلاغك إيّاهم ما أوحى اللّه به اليك و لا على ما تدعوهم اليه من الإيمان و الإرشاد الى الحقّ، أجراً، إن هو، أي ليس القرأن إلاّ ذكرٌ للعالمين.

قال بعضهم فيه إشارة الى أنّ الدّعوة و الإرشاد و سائر أفعال الخير لا يطلب فيها المنفقة من النّاس فأنّها للّه و ما كان للّه لا يجوز أن يشوبه شئ من أعراض الدّنيا و الأخرة انتهى.

أقول الحقّ أنّ مرجع الضّمير في، عليه، و هو، واحد و المعنى إنّك لا تسألهم على الإنباء أو على تبليغ الأحكام من جرٍ، إن هو، أي ليس الإنباء و الإبلاغ إلاّ ذكرٌ للعالمين، و الذّكر حضور المعنى للنّفس و هو ضدّ السّهو و قد



يقال للقول الّذي يحضر المعنى للنّفس ذكرٌ و العالمون جمع العالم و العالم جماعة الحيوان الكثيرة التّي من شأنها أن تعلم لأنّه مأخوذ من العلم و منه معنى التَّكثير و في عرف المتكلمين عبارة عن الفلك و ما حواه عن طريق التَّبع للحيوان الّذي ينتفع به مجعول لأجله و المعنى ليس ما تؤديّه اليهم من القرأن و جميع ما ينزل اللّه من الأحكام إلاّ ذكرٌ للعالمين أي طريق الى العلم بما أوجب اللّه عليهم فذكر الدليل طريق الى العلم بالمدلول عليه و الفكر سببٌ مولد له فالذِّكر سببٌ و يحتمل أن يكون المراد ليس هذا القرأن إلاّ شرفاً للعالمين لو قبلوه و عملوا بما فيه قاله بعض المفسّرين.

و قال الرّازي في تفسير قوله: **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** أي هو حقّ تذكرة لهم في دلائل التّوحيد و العدل و النّبوة و المعاد و القصص و التّكاليف و العبادات و معناه أنّ هذا القرأن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ثمّ لا تطلب منهم مالاً جعلاً فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتَّمردوا انتهى.

أقول الذِّكر تارةً يقال و يراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ إلاّ أنّ الحفظ يقال إعتباراً بإحرازه و الذّكر يقال إعتباراً بإستحضاره.

و تارةً يقال لحضور الشّئ القلب أو القول و لذلك قيل الذِّكر ذكران، ذكرٌ بالقلب و ذكرٌ باللّسان و كلّ واحدٍ منهما ضربان، ذكرٌ عن نسيان و ذكرٌ لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ وكلّ قولٍ يقال له ذكرٌ.

فمن الذِّكر باللّسان و ما نحن فيه من هذا القبيل فالمعنى ليس الإنباء أو القرأن أو ما شئت فسمّه إلاّ ذكرٌ يجري على ألسنتهم بمعنى أنّهم يذكرون الأيات و القصص مثلاً إلاّ أنّهم لا يعتبرون بها.

و محصّل الكلام هو أنّ القرأن و ما فيه من المواعظ و القصص لا يتجاوز عن ألسنتهم أي لا يتأملون في أياتها و قصصها حتّى يعتبروا بها و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ اٰيَةٍ فِى اَلسَّمٰواٰتِ وَ اَلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ عَنْهٰا مُعْرِضُونَ

في الآية دلالة على صحّة ما حملنا الذّكر عليه و هو الذّكر اللّساني دون القلبي كما لا يخفى على المتأمل فيها.

نقل عن الجامي في شرح الكافية أنّه قال في، كأيّن، و أنّما بني لأن كاف التّشبيه دخلت على أيٍّ، و أيٌّ، كان معرباً لكنّه إنمحى عن الجزئيين معناهما الإفرادي فصار المجموع كإسم مفردٍ بمعنى، كم الخبريّة فصار كأنّه إسم مبنيّ على السّكون أخره نُون ساكنة كما في، من، لا تنوين تمّكن و لهذا يكتب بالياء و النُّون مع أنّ نُون التّنوين لا صورة لها في الحظّ.

و فيه قول أخر ذكرناه في شرح اللّغات و المشهورعندهم أنّه مرّكب من كاف التَّشبيه و من، أيٍّ و الأصل فيه، و كأيٍّ، و النُّون في أخره بدلٌ من التّنوين و لعلّه لأجل ثقل التّنوين على الياء وكيف كان لا شكّ أنّ معناه، كم، أي كم، من أيةٍ الخ.

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلسَّمٰواٰتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا**(١) أيات كثيرة تدّل علىٰ أنّ لها صانعاً مدّبراً حكيماً و أنّه لا يشبه شيئاً و لا يشبهه شيئ و لكن أكثر النّاس يمرُّون عليها أي ينظرون اليها و الحال أنّهم معرضون عنها أي لا يتّدبرون فيها.

قال بعض المحقّقين أنّ دلائل التّوحيد و العلم و القدرة و الحكمة و الرّحمة لابدّ و أن تكون من أمورٍ محسوسة و هي إمّا الأجرام الفلكيّة و إمّا الأجرام العنصريّة.

إمّا الاجرام الفلكيّة فهي قسمان، الكواكب، و الأفلاك.

و الأجرام الكواكبيّة تارةً يستدّل على وجود الصّانع بمقاديرها و أحيازها و حركاتها و تارةً بألوانها و أضواءها و تارةً بتأثيراتها في حصول الأضواء و الأظلال و الظُّلمات و النُّور.



١- ق = ٣٨

و الأجرام الفلكيّة قد يستدّل بمقاديرها المعيّنة على وجود الصّانع يستدّل بكون بعضها فوق البعض و تحته و قد يستدّل أنّ حركاتها مسبوقة بالعدم فلابدّ من محرّكٍ قادرٍ و قد يستدّل بسبب كيفيّة حركاتها في سرعتها و بطؤها.

و أمّا الأجرام العنصريّة فهي إمّا أن تكون مأخوذة من بسائط و هي عجائب البّر و البحر و إمّا من المواليد و هي أقسام:

أحدها: الأثار العلويّة كالرَّعد و البرق و السحاب و المطر و الثَّلج و الهواء و قوس قزح.

ثانيها: المعادن على إختلاف طبائعها و صفاتها و كيفيّاتها.

ثالثها: النّبات و خواصّها.

رابعها: إختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها و طباعها.

خامسها: تشريح أبدان النّاس و تشريح القوى الإنسانيّة و من هذا الباب أيضاً فقصص الأوّلين و حكايات الأقدمين و أنّ الملوك الّذين إستولوا على الأرض و خرّبوا البلاد و قهروا العباد ماتوا و لم يبق منهم في الدنيّا خير و لا أثر ثمّ بقي الوزر عليهم هذا ضبط أنواع الدّلائل انتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إلاّ أنّ الأيات الدّالة على وجود المؤثّر لا يمكن للبشر ضبطها و تحديدها و لنعم ما قال الشّاعر:

ففي كلّ شيءٍ له أيةُ تدُل على أنّه واحدُ

و قد ثبت أنّ المعلول رشحٌ من رشحات العلّة و ما سوى الّله كائناً ما كان معلول له لأنّه تعالى خالق كلّ شيءٍ و اذا كان كذلك فجميع الموجودات بأنواعها و أصنافها يدّلنا و يرشدنا الى الخالق المدّبر الحكيم.

نعم الأيات الدّالة على وجود الصّانع مع كثرتها متفاوتة من حيث المرتبة و المقام و أنّما خصّ بالذّكر من الموجودات السّموات و الأرض لأنّ جميع الموجودات داخلٌ فيها فذكرهما مغنٍ عن ذكر الجميع، أو لأنّهما من أكبر المحسوسات و أظهرها.

و في قوله: **يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ مُعْرِضُونَ**، إشارة الى أنّهم يرون الأيات بأعينهم و لا يتّفكرون فيها و لم يعلموا أنّ الرُّؤية بالعين من غير تدّبرٍ و تعَّقلٍ فيها ليست من الفضائل في الإنسان لأنّها موجودة في الحيوان أيضاً بل الفضيلة التّي توجب المزيّة على الحيوان هي التّعقل و التّدبر بعد الرُّؤية و هو من خوّاص الإنسان فمن لا يكون كذلك لا شرف له و لا فضيلة بل هو و الحيوان على حدٍّ سواء.

و الى هذه النُّكتة أشار بقوله: **وَ هُمْ مُعْرِضُونَ** كأن لم يروا شيئاً أردف كلامه هذا بقوله:

وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ

و هؤلاء هم الذّين أعرضوا عن الأيات بعد مرورهم عليها و مفهوم الآية أنّه يؤمن أقلّهم باللّه و هم الذّين لم يعرضوا عنها**وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِىَ ٱلشَّكُورُ**[١].

قال الحسن الآية في أهل الكتاب لأنّ معهم إيماناً و شركاً.

و عن إبن عبّاس أنّه قال، المعنى، و ما يؤمن أكثرهم باللّه في إقراره بأنّ اللّه خلقه و خلق السّموات و الأرض إلاّ و هو مشرك بعبادة الأوثان، و عليه فالتّقدير، ما يصدّقون بعبادة اللّه إلاّ و هم يشركون الأوثان معه في العبادة.

و قال بعضهم الآية دالّة على أنّ اليهودي معه إيمانٌ بموسى و كفرٌ بمحمّدٍ لأنّها دلّت على أنّه قد جمع الكفر و الإيمان و لا ينافي أن يؤمنوا باللّه من وجهٍ و يكفروا به من وجهٍ أخر كما قال تعالىٰ:

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزآءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذابِ[٢].



١- سبا = ١٣
٢- البقرة = ٨٥

و قال الرّازي أمّا قوله: **وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ** فالمعنى أنّهم كانوا مقّرين بوجود الإله بدليل قوله: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ**[1] إلاّ أنّهم كانوا يثبتون له شريكاً في المعبوديّة.

و عن إبن عبّاس أنّهم يشبّهون اللّه بخلقه و عنه أيضاً نزلت الآية في تلبية مشركي العرب لأنّهم كانوا يقولون لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه و ما ملكك.

و عنه أيضاً أنّ أهل مكّة قالوا اللّه ربّنا وحده لا شريك له و الملائكة بناته فلم يوحّدوا بل أشركوا.

و قال عبدة الأصنام ربّنا اللّه وحده و الأصنام شفعاءونا عنده.

و قالت اليهود ربّنا اللّه وحده و عزير إبن اللّه.

و قالت النّصارى ربّنا اللّه وحده لا شريك له و المسيح إبن اللّه.

و قال عبدة الشّمس و القمر ربّنا اللّه وحده و هؤلاء أربابنا.

و قال المهاجرون و الأنصار ربّنا اللّه وحده و لا شريك معه انتهىٰ.

أقول يظهر من كلامه أنّ المهاجرين و الأنصار كانوا موّحدين حقّاً و أمّا غيرهم فلا لأنّهم أشركوا به.

و لقائلٍ أن يقول الآية أجنبيّةٌ عمّا قالوا في تفسيرها من اليهود قالت كذا و النّصارى قالت كذا و عبدة الشّمس و غيرها قالت كذا فأنّها في المنافقين الّذين كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و ذلك لأنّ التّوحيد من الأمور القلبيّة و المعنى أنّه لا يؤمن أي لا يعتقد بقلبه أكثرهم باللّه و برسوله في الباطن و أن كان مقرّاً بلسانه فهم مؤمنون في الظّاهر مشركون في الباطن لعدم إعتقادهم بما يقولون بألسنتهم.

و أن شئت قلت أنّهم يتّظاهرون بالإيمان و يعملون عمل الكفّار فقول الرّازي في أخر كلامه و قال المهاجرون و الأنصار ربّنا اللّه وحده و لا شريك

۱- اللقمان = ۲۵

معه و تخصيصه التّوحيد بهم لا معنى له فأنّ أكثرهم كانوا منافقين لم يؤمنوا باللّه قلباً طرفة عين و يدّل على ذلك أعمالهم الشّنيعة فأنّ أبا سفيان و معاوية و إبن العاص و مروان بن الحكم و إبن أبى سرح و أمثالهم كانوا من المهاجرين و لا شكّ أنّهم كانوا أضرَّ على الإسلام و الموَّحدين من كلّ مشركٍ و للبحث فيه مقام أخر.

و محصّل الكلام هو أنّ اللّه أخبر بهذه الآية أنّ المؤمنين الموّحدين ظاهراً و باطناً قليلون جدّاً و هو حقّ.

أَفَأَمِنُوٓا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غٰاشِيَةٌ مِنْ عَذٰابِ ٱللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسّٰاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لٰا يَشْعُرُونَ

الإستفهام للإنكار و فيه توبيخٌ و تهديد و الغاشية نقمةٌ تغشّاهم أي تغطّيهم و المعنى أفأمنوا هؤلاء الكفّار أن تأتيهم نقمة من عذاب اللّه.

قيل هي الصّواعق و القوارع و قيل غير ذلك و الحقّ أنّها عامّة تشمل كلَ نقمةٍ و عذابٍ و إتيان الغاشيّة يعني في الدنيّا و ذلك لمقابلته بقوله أو تأتيهم السّاعة أي يوم القيامة بغتةً أي فجأةً في الزّمان من حيث لا يتَّوقع و هم لا يشعرون، أي لا يعلمون بمجيئه فلذلك كان بغتةً و الشُّعور إدراك الشّئ بما يلطف كدّقة الشَّعر و منه إشتقاق الشّاعر لدّقة فكره و المقصود أنّ السّاعة تأتيهم و هم في غفلةٍ عنها أو أنّهم لإشتغالهم بأمور دنياهم في غفلةٍ عنها.

و الحاصل أنّ الإنسان ينبغي أن يكون مواظباً على أعماله و أقواله و إعتقاداته و جميع حركاته و سكناته و يعلم أنّ اللّه تعالى ليس بغافلٍ عمّا يعمل الظّالمون و في القرون السّالفة و الأمم الماضية كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم لعبرة لمن إعتبر بهم و ليس بين اللّه و بين أحدٍ قرابة و حكم الأمثال واحد فأن أمهل اللّه قوماً في دار الدُّنيا بحسب مصلحةٍ رأها فيه ليس معناه أنّه غفل عنهم بل ليزدادوا إثماً و من وراءهم عذابٌ غليظ ولنعم ما قيل:

فكم من صحيحٍ بات للموت أمناً أتته المنايا رقدةً بعد ما هجع
فلم يستطيع اذا جاءه الموت بغتةً فراراً و لا منه بحيلةٍ إنتفع
فأصبح تبكيه النّساء مكّفناً ولا يسمع الدّاعي اذا صوته رفع
و قرَّب من لحدٍ فصار مقيله و فارق ما قد كان بالأمس قد جمع

قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَ مَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

السَّبيل الطّريق و هما يذكّران و يؤنثّان و لذلك قال هذه سبيلي و المشار اليه هو السَّبيل و المراد به دينه الّذي دعا اليه من توحيد اللّه وعد له و العمل بشرعه و توجيه العبادة اليه، أدعوا الى اللّه، أي أدعوا النّاس الى طاعته و إتّباع سبيله **عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا** أي على معرفةٍ منّي بذلك و حجّة معي اليه **وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي** أي من تابعني من النّاس **وَ سُبْحَانَ ٱللَّهِ** أي تنزيهاً للّه من أن يعبد معه إلهٌ غيره و أن يضاف اليه ما لا يليق به **وَ مَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** أي لست أنا منهم بل أنا من الموّحدين الذّين لا يشركون مع اللّه في عبادته.

و إعلم أنّ الآية خطاب للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم أمره اللّه تعالى أن يقول لهؤلاء المشركين أو المنافقين الذين أمنوا ظاهراً و أشركوا باطناً، أنّ ديني الإسلام و أدعوا اليه و أنّما عبَّر عن الإسلام بالسَّبيل أي لم يقل هذا ديني أدعوا اليه مثلاً لأنّ الإسلام هو السّبيل من حيث أنّه طريق الى الثّواب لمن عمل به.

و في قوله: **أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ** إشارة الى إخلاص النّبي في دعوته و أنّه لا يدعو الى غيره و ذلك لأنّ الدُّعاة ثلاثة:

داعٍ الى نفسه، و داعٍ الى غيره، و داعٍ الى ربّه.

فالأوّل: مثل فرعونٍ و نمرود و كلّ من إدَّعى أو يدّعي الألوهيّة لنفسه فأنّه يدعو النّاس الى نفسه لا الى غيره و لا الى اللّه تعالى، بل يقول مثلاً أنا ربّكم الأعلى، هذا فيمن يدّعي الألوهيّة لا خفاء فيه.

و أمّا في غيرها من المناصب الإجتماعيّة اذا لم يكن المدّعي أهلاً لها فهو أيضاً كذلك فأنّ الدَّعوة الى النَّفس لها مراتب مختلفة تختلف شدَّةً و ضعفاً و نقصاً و كمالاً و الجامع هو الدّعوة الى النّفس لا الى اللّه و لا الى غيره و منشأها حبّ الجاه و الرّئاسة على النّاس و من هذا القبيل من يدّعي النُّبوة و الإمامة كذباً فأنّ مدّعي النّبوة و الإمامة و أن كان في ظاهر الأمر يدعو الى اللّه و لكنّه يعلم أنّه كاذبٌ في دعواه و أن لا يعلم ما في باطنه غيره من أحاد النّاس فلا فرق في هذه الدَّعوة بين فرعون و نمرود، و مسيلمة الكذّاب و أمثاله ممّن إدَّعى النّبوة، و بين معاوية بن أبي سفيان و غيره من الحكّام بعد رسول اللّه لأنّهم إدَّعوا الإمامة و دعوا النّاس اليها مع علمهم بعدم لياقتهم لها و أنّما كان غرضهم من الدَّعوة الرّئاسة على النّاس فقط.

و محصّل الكلام في هذا القسم من الدَّعوة هو أن يكون الدّاعي محبّاً للرّئاسة و الحكومة على النّاس من غير طريق الشّرع.

القسم الثّاني: و هو الّذي يدعو الى غيره من النّاس و هو في الحقيقة حمّال الخطايا لغيره أكثر من القسم الأوّل و ذلك لأنّ الدَّعوة الى النفس لا تسمع من كلّ أحدٍ بل لابدّ للدّاعي الى نفسه أن يكون له في النّاس شأن أو شهرة أو قدرة أو مال و غيرها من الأسباب المعدّة للإيصال الى المقصود.

و من المعلوم أنّ الفقير و الضعيف و الجاهل و أمثالهم لا يسمع منهم كلّ ما يدّعونه و أمّا من يدعو الى غيره فلا شرط فيه غير الحماقة و الضّلالة و الخباثة و الرّذالة و هم أكثر النّاس الّذين يطلبون في الدّنيا صيداً ليصطادوه و لا صيد لهم أحسن ممّن باع دينه بدنياه و إدّعى لنفسه ما ليس له فيجتمعون حوله و يدعون النّاس اليه ليأكلوا النّاس به و أنّما قلنا أنّهم أكثر لأنّهم همج رعاء أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح و لا يستضيئون بنور الإيمان و هم أكثر أفراد الجامعة و قد وصفهم اللّه بعدم العقل تارةً فقال أكثرهم لا يعقلون، و بعدم

العلم أخرى قال **أَكثِرهُم لاٰ يَعْلَمُون**، وبعدم الشّكر ثالثة فقال أكثرهم لا يشكرون و هكذا فهذا القسم من الدعّاة على كثرتهم لا خير فيهم بل شرورهم واصله الى غيرهم آناً فآناً و حيث انّ دائهم الجهل لم يقدر أحدٌ حتّى الأنبياء و الأوصياء علىٰ إصلاحهم و أنّما مثلهم مثل الذُّباب حول الطّعام.

فنقول لعنة اللّه عليهم أجمعين كما قيل بالفارسيّة:

أهل دنيا أز كهين و أز مهين لعنة اللّه عليهم أجمعين

نعوذ باللّه من شرورهم و آفاتهم.

أمّا القسم الثّالث: و هو الدّاعي الىٰ اللّه فقط كالأنبياء و الأوصياء و العلماء العاملين على حسب مراتبهم، فهو الحقّ الحقيق بالإتّباع هو المراد بالآية فقوله أدعوا الى اللّه، نصٌّ فيما ذكرناه.

قال الإمام الهادي في زيارة الجامعة، السّلام على الدُّعاة الى اللّه و الإدّلاء على مرضاة اللّه و المستقرين في أمر اللّه و التامين في محبّة اللّه و المخلصين في توحيد اللّه الخ.

فقوله عليه السلام السّلام على الدُّعاة الى اللّه، نصّ على أنّ الأئمة المعصومين كانوا كما كان جدّهم رسول اللّه بل نقول أنّ الدُّعاة الى اللّه واقعاً منحصرة بالمعصومين عليهم السّلام إذ غيرهم كائناً من كان لا يخلو في دعوته الى اللّه من شائبة الرّياء ولو قليلاً فالدّعوة خالصاً لوجه اللّه منحصرة بالمعصوم.

و أمّا قوله: **عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي** ففيه إشارة الى أنّ دعوتي الى اللّه أنّما نشأت من معرفتي باللّه و بصيرتي في ديني بمعنى أنّ الّذي ينبغي أن يدعى اليه هو اللّه تعالى لا غيره و في قوله: **وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي** إشارة الى أنّ التّابعين له صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً كذلك أي أنّهم على بصيرةٍ في دينهم بحسب إستطاعتهم و فهمهم لا أنّهم قلّدوا في دينهم شخصاً آخر من غير علم فأنّ من تبع الرّسول عرفه أوّلاً ثمّ تبعه إذ المتابعة بغير المعرفة لا أثر لها بل تضرّ بالّدين و الدنيّا أحياناً.

و المراد بالإتّباع في قوله: **وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي**، هو العمل بسنتّه لا مجرّد القول بالشّهادة لفظاً كالمنافق، **وَ سُبْحَانَ ٱللَّهِ** أي أنزّهه عن إشتراك الغير بل هو الدّاعي الى ذاته.

و قال بعضهم **وَ سُبْحَانَ ٱللَّهِ** داخل تحت قوله، قل، أي قل هذه سبيلي أدعو الى اللّه، و قل سبحان اللّه أي و تبرئة اللّه من الشّركاء و لمّا أمره اللّه تعالى بأن يخبر عن نفسه أنّه يدعو هو و من إتّبعه الى اللّه و أمر أن يخبر أنّه ينزّه اللّه عن الشرّكاء بقوله سبحان اللّه، أمر أن يخبر أنّه في خاصّة نفسه منزّهٌ عن الشّرك و أنّه ليس ممّن أشرك و هو نفي عام في الأزمان لم يكن منهم و لا في وقتٍ من الأوقات إلاّ رجالاً حصر في الرّسل دعاة الى اللّه.

وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيٓ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ

قرأ أبو بكر، **يُوحىٰ**، بالياء وفتح الحاء و قرأ حفص بالنّون وكسر الحاء، و لعَل الوجه في القراءة بالنّون:

قال اللّه تعالى: **إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ**(١).

و قراءة الياء:

قال اللّه تعالى: **وَ أُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ**(٢).

قال اللّه تعالى: **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ**(٣).



والحاصل أنّ لكلّ من القرائتين وجهٌ وجيه وفي الأيةإخبار من اللّه تعالىٰ أنّه لم يبعث من الأنبياء و المرسلين الى عباده إلاّ رجالاً يوحي اليهم بكتبه و أحكامه و الآية خطاب للنبي ﷺ و فيها ردٌّ على جهّال قريش فأنّهم قالوا أنّ

١- النّساء = ١۶٢ ٢- هود = ٣۶
٣- الجنّ = ١

اللّه لو شاء أن يرسل إلينا ملكاً فبيَّن هاهنا أنّه لم يرسل فيما مضى إلاّ رجالاً من البشر، من أهل القرى، لا من أهل البادية و ذلك لأنّ أهل القرى و أعلم و أحلم و ألين قلباً من أهل البادية فأنّهم أي أهل البادية قليل نبلهم و لم يبعث اللّه قَطّ منهم رسولاً الىٰ الخلق و لا من النّساء و لا من الجنّ و قوله ما أرسلنا من قبلك يا محمّد إلاّ رجالاً، ينفي الملك و النّساء و قوله:**مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ** ينفي أهل البادية فيحصل لنا أنّ الرّسول لم يكن من جنس الملك و لا من النّساء و لا من الجنّ لعدم صدق الرّجال عليه قال الشّاعر في سجاح الّتي إدَّعت النبّوة.

أمست نبيّتنا أنثى نطيف بها و لم نزل أنبياء اللّه ذكراناً
فلعنة اللّه و الأقوام كلّهم على سجاح و من بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذّاب لا سقيت أصداؤه ماء مزنٍ أينما كانا

و قوله:**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ** فالإستفهام للتّوبيخ و التّقريع و الضّمير في يسيروا، عائد على من أنكر إرسال الرسّل من البشر و المعنى أفلم يسيروا هؤلاء المنكرين في الأرض لينظروا أنّ الرّسول لا يكون إلاّ من جنس الرّجال فلا وجه لإنكار قريش نبّوة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنّه من الرّجال كما لا وجه لإنكار غير قريش من الأمم السّالفة و ذلك لأنّ المكذّب بسبب تكذيبه يستّحق للعقاب.

و الى هذا المعنى أشار بقوله:**فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** بسبب إنكارهم الرسّل كقوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و أمثالهم:**وَلَدَارُ ٱلْأٰخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** من تكذيب الرسّل و إعتقدوا نبوّتهم و عملوا بأحكامهم الّتي جاؤوا بها من عند اللّه فأنّ التّقوى عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرّمات بحسب الإصطلاح و أمّا بحسب اللّغة فهي عبارة عن الإجتناب عمّا لا ينبغي فعله و في قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ**، إشارة الى أنّ العاقل لا يقول بمقالة الجاهل فالإستفهام إنكاريّ أي أنّهم عقلاء ولكنّهم رأوا تصديق الرسّل و إتّباعهم على خلاف أميالهم و أهواءهم النفسانيّة فقالوا ما قالوا حفظاً

لمنافعهم الدنيويّة و يسّمى هذا القسم من الإنكار بالعناد و في قوله: **وَ لَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** إشارة الى أنّ الأخرة خير من الدنيّا لمن إتّقى و أمّا من عصى فليس كذلك بل الأخرة شرٌّ له من الدنيّا لشّدة عذابها و دوامها قال رسول اللّه ﷺ **الدّنيا سجن المؤمن وجَنّة الكافر**، أي هي جنّته بالقياس الى آخرته.

حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نَشَآءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ

الإستيئاس من اليأس و هو قطع الرَّجاء و قرأ أهل الكوفة، كذبوا، خفيفة بضمّ الكاف و الباقون مشدّدة بضمّ الكاف أيضاً و قرأ عاصم و إبن عامر **فَنُجِّىَ مَنْ نَشَآءُ** بنون واحدة و تشديد الجيم و فتح الياء و الباقون بنُونَين على الإستقبال و الأوّل أشهر و عليه المصاحف.

ثمّ أنّ من قرأ، كَذبوا، خفيفةً فالمعنى أنّ الأمم ظنّنت أنّ الرسّل كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر اللّه أيّاهم و إهلاك أعداءهم و هو قول إبن عبّاس و إبن مسعود و سعيد بن جبير و مجاهد و من قرأ بالتشديد حمل الظّن على العلم و المعنى أيقن الرسّل أنّ الأمم كذبوهم تكذيباً عمّهم حتّى لا يفلح أحد منهم.

وهو قول الحسن و قتادة قاله الشيّخ في التبّيان.

وقال القرطبى **وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** بفتح الذّال المشدّدة أي أيقنوا أنّ قومهم كذّبوهم و في قراءة التّخفيف معناه، ظَّن القوم أنّ الرسّل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب و يظهر من صاحب الكشّاف أنّ بعضهم قرأ بالتّخفيف على البناء للفاعل.

أقول يحصل لنا من مجموع الأقوال أنّ قوله تعالى: **قَدْ كُذِبُوا** فيه أقوال ثلاثة:

أحدها: كذبوا، خفيفة بضمّ الكاف على البناء للمفعول.

ثانيها: فيتح الكاف على البناء لفاعل.

ثالثها: ضمّ الكاف و تشديد الذّال المفتوحة على البناء للمفعول من التّكذيب و لذلك ترى الأقوال في تفسير الآية مختلفة و الآراء متشتّتة.

فقال الطّبري في تفسيره لها ما هذا لفظه يقول تعالى ذكره و ما ارسلنا من قبلك رجالاً يوحي اليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلنا اليهم فكذّبوهم و ردّوا ما أتوا به من عند اللّه حتّى إذا إستيأس الرسّل الّذين أرسلناهم اليهم منهم أن يؤمنوا باللّه و يصدّقوهم فيما أتوهم به من عند اللّه و ظّن الّذين أرسلناهم اليهم من الأمم المكذّبة أنّ الرّسل الّذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن اللّه من وعده أيّاهم نصرهم عليهم جاءهم نصرنا و ذلك قول جماعة من أهل التأويل انتهى كلامه.

و قال الزّمخشري (حتّى) متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام كأنّه قيل، وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً فتراخى نصرهم حتّى إذا إستيأسوا عن النّصر وَ **ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** أي كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنّهم ينصرون و المعنى أنّ مدّة التّكذيب و العداوة من الكفّار و إنتظار النّصر من اللّه و تأميله قد تطاولت عليهم و تمادت حتّى إستشعروا القنوط و توّهموا أن لا نصر لهم في الدنيّا فجاءهم نصرنا فجأةً من غير إحتساب و ساق الكلام الى أن قال و قرئ، كذّبوا، بالتّشديد على معنى، و ظنّ الرسّل أنّهم قد كذّبتهم قومهم فيما و عدوهم من العذاب و النّصرة عليهم و قرأ مجاهد، بالتخفيف على البناء للفاعل و المعنى و ظّن الرسّل أنّهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النُّصرة انتهى كلامه.

و ذهب بعض المفسّرين من المعاصرين الى الفرق بين اليأس و الإستيئاس مع أنّ المعنى فيهما واحد و هو أنّ الإستيئاس هو الإقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئة الإستفعال و هو ممّا يعدّ يأساً عرفاً و ليس باليأس القاطع حقيقةً.

ثمّ قال و قوله: **حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ** الخ متعلّق الغاية بما يتحصّل من الآية السّابقة و المعنى تلك الرسّل الّذين كانوا رجالاً أمثالك من أهل القرى و تلك قراهم البائدة دعوهم فلم يستجيبوا و أنذروهم بعذاب اللّه فلم ينتهوا حتّى إذا إستيأس الرسّل من إيمان أولئك النّاس و ظّن النّاس أنّ الرسّل قد كذبوا أي أخبروا بالعذاب كذباً جاء نصرنا فنجّي بذلك من نشاء و هم المؤمنون و لا يردّ بأسنا و شدّتنا عن القوم المجرمين ثمّ إستشهد ﷺ بما ذكره في تفسير الآية بالأيات[١].

أقول هذا ما رأيناه في تفاسيرهم و نقلناه بعين عباراتهم حفظاًللأمانة و أنت ترى أنّها لا ترجع الى محصّلٍ و لعلّنا لا نفهم كلماتهم فتدبّر فيها لعّلك تفهم ما لا نفهم.

والّذي يختلج بالبال في تفسير الآية هو أنّ الآية مرتبطة بما قبلها و المعنى أنّ المشركين لمّا تطاولت عليهم مدّة التّكذيب و العداوة سبب إمهال اللّه أيّاهم في دار الدنيّا و لذلك أخرَّ اللّه تعالى النّصر الّذي وعده برسله، فظّنوا أنّهم أي الرسّل قد كذّبوا من جانب اللّه أي ظنّوا أنّ اللّه وعدهم بالنَّصر كذباً هذا إذا كان الفعل مبنيّاً للمفعول و أمّا إذا كان مبنيّاً للفاعل فالمعنى ظّنوا أنّهم أي الرسّل قد كذبوا في وعدهم النّصر و إهلاك أعداءهم و على هذين الإحتمالين فالضّمير في قوله: **وَ ظَنُّوٓا** الى أتباع الأنبياء

و محصّل الكلام أنّ إمهال الكفّار وتأخير النّصر للأنبياء و صار باعثاً لوجود هذا الظّن في أتباعهم من المؤمنين و أمّا على قراءة التشديد في، كذّبوا، من التّكذيب فالمعنى أنّهم أي الرُّسل ظنُّوا أي إستيقنوا بأنّهم كذّبوا من جانب الأمم أي أنّ الأمم كذَّبوهم تكذيباً فيما أخبروهم من الوعد و النَّصر و كيف كان فلمّا يئسوا من النَّصر جاءهم نصرنا من حيث لم يحتسبوه هذا ما فهمناه من الآية.

١- الميزان ج ١١ ص ٢٧٩

و علىٰ التّقدير الأخير فالضّمير في، ظنُّوا، الىٰ الرُّسل و على الأمرين الىٰ الأمم.

و أمّا قوله: **فَنُجِّيَ مَنْ نَشٰآءُ** فمنهم من قرأ اللّفظ مشّدداً على لفظ الماضي المجهول و عليه المصاحف و منهم من قرأه بالتّخفيف على لفظ المبني للفاعل من نجى ينجو، و منهم من قرأه مشدّداً من، **نَجَّىٰ يُنّجي** ومنهم من قَرأه مخفّفةً بالنّونين من، **أَنجىٰ يُنَجىٰ** فالقراءات فيه أربعة:

أولّها: و هو الأشهر ضمّ النّون الواحدة و كسر الجيم المشدّدة علىٰ صيغة المجهول.

ثانيها: فتح النّون و تخفيف الجيم.

ثالثها: بلانُّونين والجيم المشدّدة.

رابعها: كذلك مخفَّفة و لكلٍّ من القراءات وجه و المأل الىٰ واحدٍ.

و قوله: **مَنْ نَشٰآءُ** معناه، واضح لأنّ النّجاة من العذاب بيد اللّه و بمشيّئته إن شاء يعذّب و إن شاء ينجي.

وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ أي لا يقدر أحد على دفع البأس و العذاب من المجرمين الظّالمين و ذلك لأنّ الدّافع لابدّ من أن يكون أقدر من اللّه و هو محال فأنّ ما سواه كائناً من كان تحت قدرته و هو واضح.

و محصّل الكلام في الآية أنّ الرُّسل لمّا يئسوا من فلاح القوم و إنقطع طمعهم عن إيمانهم أتاهم نَصرنا بإهلاك من كذّبهم و لم يقدر أحدٌ على دفع البأس منهم فأنّه تعالىٰ علىٰ كلّ شيٍ قديرٌ.

لَقَدْ كٰانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبٰابِ مٰا كٰانَ حَدِيثًا يُفْتَرىٰ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

القَصّ، بفتح القاف و تشدّيد الصّاد في الأصل تتّبع الأثر يقال قصصت أثره و القصص الأثَر.

و قيل القصص الأخبار المتّبعة أخبر اللّه في هذه الآية أنّ في قصص الأمم الماضين التّي ذكرها في القرأن دلالة لذوي العقول علىٰ تصديق الأنبياء و مع ذلك فيها عبرة لمن إعتبر بها.

مٰا كٰانَ حَدِيثًا يُفْتَرٰى أي ما أخبرناك به من القصص لم يكن حديثاً كذباً، و لكن تصديق الذّي بين يديه، أي و لكن فيه تصديق الكتب الّتي قبل القرأن من التّوراة و الإنجيل و غيرهما من كتب اللّه و أنّما قال بين يديه لأنّه قريب منه كقرب ما كان بين يَدي الإنسان (وتفصيل كلّ شيءٍ) يحتاج اليه في أمور الدّين و الدُّنيا من الحلال و الحرام و غيرهما.

و في قوله: **هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** أي أنّ الكتاب و ما فيه من الأحكام و القصص هدايةٍ في الدُّنيا و سببٌ لحصول الرّحمة في الأخرة و خصَّ المؤمنون بذلك لأنّهم هم الذّين ينتفعون به كما قال تعالىٰ: **هُدىً لِلْمُتَّقِينَ** هذا تفسير ألفاظ الآية و لا بأس بالإشارة الى ما فيها و غيرها من الأيات المذكورة في هذه السُّورة من النّكات و الدّقائق و المواعظ بحسب الإجمال فنقول:

إعلم أنّ الضّمير في قصصهم عائد علىٰ الرسّل، أو على يوسف و أبويه و إخوته أو عليهم و علىٰ الرّسل جميعاً، ثلاثة أقوال إختاره الزّمخشري.

قال و ينصره قراءة من قرأ قصصهم بكسر القاف و إختار بعضهم الثّاني لأنّ الآية في آخر السُّورة و الأقرب يمنع الأبعَد فالضّمير يرجع الىٰ ما ذكر فيها.

الثّالث: أقوى الأقوال و هو المختار لأنّ الجمع مهما أمكن أولى من الطَّرح و اللّفظ يحمل علىٰ عمومه إلاّ أن يثبت التّقيد و إذ ليس فليس ثمّ أنّه إذا عاد الضّمير علىٰ يوسف و أبويه و إخوته فالإعتبار بقصصهم من وجوه إعزاز

يوسف عليه السلام بعد إلقاءه في الجبّ و إعلاءه بعد حبسه في السِّجن و تملّكه مِصر بعد إستبعاده و إجتماعه مع والديه و إخوته علىٰ ما أحَّب بعد الفرقة الطّويلة و الإخبار بهذه القِصص إخبارٌ عن الغيب و الإعلام باللّه تعالى من العلم و القدرة و التّصرف في الأشياء علىٰ ما لا يخطر علىٰ بالٍ و لا يجول في فكرٍ و أنّما خصّ أولوا الألباب لأنّهم هم الّذين ينتفعون بالعبر و من له لبٌّ و أجاد النظّر ورأىٰ ما فيها من إمتحانٍ و لطفٍ و إحسان علم أنّه أمرٌ من اللّه تعالىٰ و من عنده و الظّاهر أنّ إسم، كان، مضمر يعود على القصص أي ما كان القصص حديثاً مختلقاً بل هو حديث صدق ناطقٌ بالحقّ جاء به من لم يقرأ الكتب و لا تتلّمذ لأحدٍ و لا خالط العلماء فمحالٌ أن يفتري هذه القصّة بحيث تطابق ما ورد في التّوراة من غير تفاوتٍ.

و قيل يعود الضّمير علىٰ القرآن أي ما كان القرآن الّذي تضمّن قصص يوسف و غيره حديثاً يختلق و لكن تصديق الكتب الإلٰهّية وتفصيل كلّ شيءٍ واقع ليوسف و أبويه و إخوته.

و أمّا موارد العبرة في قصّة يعقوب و يوسف فكثيرة جدّاً ينبغي للعاقل أن يتدّبر فيها ثمّ إعتبر بها كما قال تعالىٰ: **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّآئِلِينَ**(١) والّذي جعل لنا منها أمور.

أحدها: أنّ يعقوب عليه السلام كان محبّاً ليوسف أكثر من حبّه لأخوته مع أنّ الجميع كانوا أولاده و هذا ممّا لا إشكال فيه فأنّ المحبّة من الأمور القلبية المسّببة عن أسباب خاصّة كما أنّ العداوة و البعض أيضاً كذلك فإذا كان لبعض الأولاد متّصفاً بالكمالات النّفسانية و الأداب و الخصال الحسنة من الّدين و العفّة و الصدّق و الإطاعة فلاجرم يكون أحبّ الىٰ أبيه و أمّه ممّن لا يكون كذلك و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً إلاّ انّ إظهار المحبّة من بين الإخوة

١- يوسف = ٧

الى بعضهم يوجب إشتعال نائرة الحسد في سائر الأولاد كما نرىٰ في قصّة يوسف فكتمان المحبّة في أمثال هذه الموارد أولى و أصلح من إظهارها رغماً لأنوف الغير.

ثانيها: أنّ البلّية إذا نزلت ينبغي للإنسان أن يصبر عليه فأنّ الصّبر مفتاح الفرج كما أنّ يعقوب صبر على فراق يوسف ثمّ أتى من جانب اللّه الفرج بأحسن وجهٍ هذا مضافاً الىٰ ما أعدَّه اللّه له في الأخرة.

ثالثاً: ينبغي أن يفوّض العبد أمره الىٰ اللّه فأنّه تعالىٰ نعم المعين، وقال قال: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[1] و هذا كما أنّ يوسف فوّض أمرَه اليه و صبر على بلاءه واللّه تعالىٰ أنجاه من المهالك و الشدّائد و أجلسه على سرير الملك بعد أن شروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة.

رابعاً: ينبغي للعبد أن يعفو عمَّن ظلمه فأنّ العفو من أحسن الخصال كما أنّ يوسف عفىٰ عن إخوته.

خامساً: أن يكون شاكراً لربّه فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و قد قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**[2] كما أنّ يوسف كان كذلك حيث قال: **رَبِّ قَدْ اٰتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ**.

سادساً: أن لا نغتَّر بنعم الدّنيا لأنّها في معرض الزّوال والفناء و يتوجّه الىٰ الأخرة لأنّها دار لا زوال لها و لا فناء و هكذا و هكذا فأنّ المواعظ فيها كثيرة لِمن يتعظّ بها.

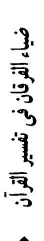
قال أمير المؤمنين عليه السلام: **ما أكثَر العِبَر وأقَلّ الإعتبار**

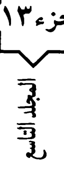
و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ اللّه تعالىٰ لم يقصد في نقل قصّة يوسف و غيرها من القصص الموجودة في القرآن إلاّ هذا أعني الإعتبار بها و الإتّعاظ لها كما قال في أوّل السّورة **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ**[3] وفي

١- الطلاق = ٣ ٢- ابراهيم = ٧
٣- يوسف = ٣

آخرها قال: **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ** وليس المقصود من نقل القصص ذكر ما وقع في سالف الزّمان فقط ألا ترى أنّه تعالى يقول: **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ** أي أنّما نقلناها لذلك لتعتبروا بها حقّ الإعتبار و تستيقظوا من نوم الغفلة فأنّها منبع الشُّرور و الأفات في الدّنيا والأخرة والحمد لِلّه ربّ العالمين.

* * *

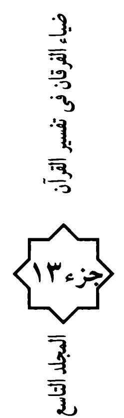




سُورَةُ الرَّعد

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرٰ تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ وَ ٱلَّذيٓ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللّٰهُ ٱلَّذي رَفَعَ ٱلسَّمٰواٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ ٱسْتَوٰى عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْاٰيٰاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقٰآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَ هُوَ ٱلَّذي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فيهٰا رَواٰسِيَ وَ أَنْهٰارًا وَ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَراٰتِ جَعَلَ فيهٰا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهٰارَ إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَ فِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِراٰتٌ وَ جَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخيلٌ صِنْواٰنٌ وَ غَيْرُ صِنْواٰنٍ يُسْقٰى بِمٰآءٍ واٰحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهٰا عَلٰى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذٰا كُنّٰا تُراٰبًا أَءِنّٰا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ ٱلْأَغْلاٰلُ فيٓ أَعْنٰاقِهِمْ وَ أُولٰئِكَ



أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فيهٰا خٰالِدُونَ ﴿٥﴾ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلاٰتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّٰاسِ عَلىٰ ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَديدُ ٱلْعِقٰابِ ﴿٦﴾

◀ اللّغة

عَمَدٍ بفتح العين و الميم جمع عَمُود و هو ما يقوم عليه البيت.

ٱسْتَوٰى الإستواء الإستيلاء.

مَدَّ المَّد البسط و هو ضّد القبض.

رَوٰاسِيَ بفَتح الرّاء جمع راسية و هي الثّبات يقال جبال راسيات أي ثابتات.

قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ قِطع بكسر القاف وفتح الرّاء جمع قطعة وهي الجُزء ومُتجاورات أي مُتلاصقات قريب بعضها من بعضٍ.

أَعْنٰابٍ جمع عِنَب و هو الكَرم.

وَ نَخيلٌ بفتح النّون وكسر الخاء شَجر التّمر.

صِنْوٰانٌ بكسر الصّاد صفة النَّخل والصِنّو بكسر الصّاد وقيل بَفتحها الغُصن الخارج عن أصل الشّجرة يقال هما صِنوا نَخلَةٍ وفلان صِنو أَبيه.

قال الرّاغب، تَثنيته صَنوان و جمعه صِنوان.

ٱلْأَغْلاٰلُ جمع غُل بضّم الغين و هو طَوقٌ يُقَّيد به اليَد في العُنَق.

أَعْنٰاقِهِمْ جمع عُنُق.

◀ الإعراب

تِلْكَ مبتدأ آيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ خبره وقيل، الخَبر، آلمرا، و قوله آيات الكتاب بَدَل أو عطف بيان وَ ٱلَّذيٓ أُنْزِلَ هو في موضع رَفع علىٰ الإبتداء ٱلْحَقُّ خبره

وقيل، والّذي، صفة للكتاب وأُدخلت الواو في الصّفة **بِغَيْرِ عَمَدٍ** الجار والمجرور في موضع نَصب علىٰ الحال تقديره خالية عن عَمَد وهي جمع عمود أو عماد **مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ** فيه وجوه:

أحدهما: أن يكون متعلّقاً بجعل الثّانية والتّقدير و جعل فيها زوجين إثنين من كلّ الثّمرات.

الثّانى: أن يكون حالاً من إثنين و هو صفة له في الأصل.

الثّالث: أن يتعلّق بجعل الأولىٰ و يكون جعل الثّاني مستأنفاً.

يُغْشِى ٱلَّيْلَ يجوز أن يكون حالاً من ضمير إسم اللّه **وَ فِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ** الجمهور علىٰ الرّفع بالإبتداء **فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ** قولهم مبتدء و عجبٌ خبر مقدّم العجب هنا بمعنى المُعجب.

◄ التّفسير

الٓمٓرٰ هذه الحروف المقطّعة في القرآن كلّ واحدٍ منها إسمٌ، فألف إسمٌ يعبّر به عن مثل الحرف الّذي في، قال، ولام يعبّر بها عن الحرف الأخير في قال و كذلك ما أشبهها و الدّليل على أنّها أسماء أنّ كلّاً منها يدّل علىٰ معنىٰ في نفسه و هي مبنّية لإنّك لا تريد أن تخبر عنها بشيٍ و أنّما يُحكىٰ بها ألفاظ الحروف الّتي جعلت أسماء لها فهي كالأصوات نحو، غاق، في حكاية صوت الغراب و كيف كانت لا يعلم معناها في القرآن إلاّ اللّه تعالىٰ.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَ ٱلَّذِىٓ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

في المُشار اليه لقوله: **تِلْكَ** أقوال:

أحدها: أنّ الإشارة هنا بتلك هي الىٰ حروف المعجم و المراد بالكتاب هو القرآن و يصّح أن يراد به التّوراة و الإنجيل، (وآلمر ا) علىٰ هذا مبتدأ وتلك

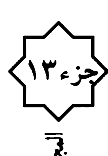
مبتدأ ثان و آيات خبر الثّاني و الجملة خبر الأوّل و الرّابط إسم الإشارة وهـو، تلك.

الثّاني: أن يكون الإشارة **بتلك** الىٰ ما قصّ اللّه على نبيّه مـن أبـناء الرسّـل المُشار اليها بقوله، تلك من أنباء الغيب، و الثّالث أن يكون الإشارة، بـتلك، الىٰ جميع كتب اللّه تعالى المنزلة و يكون المعنى تلك الأيات الّتي قصصت عليك خبرها هي آيات الكتاب الّذي أنزلته قيب هذا الكتاب الّذي أنـزلته اليك و أمّا قوله: **وَ ٱلَّذِىٓ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ**، فالمراد به القرآن قطعاً لا غيره لأنّ القرآن هو الّذي أنزله اللّه علىٰ نبيّه و قوله من ربّك الحّق، فقيل الحّق خبر لقوله الّذي و عليه فيقرأ بالرّفع و قيل هو أي الحّق صفة للرّب أو بيان له و عليه فيقرأ بالجرّ و المعنى والّذي أنزل اليك من ربّك الحقّ أعنّي به الرّب الّـذي لا سـبيل للبطلان اليه و قد ثبت في موضعه أنّ الحقّ المطلق هو اللّه تعالىٰ لأنّ غيره في معرض الفناء كما قيل.

ألا كلّ شيٍ ما خلا اللّه باطلُ　　　　وكـلّ نـعيم لا مـحالة زائِـل

و أمّا علىٰ قول من قال أنّ الحقّ عبارة عن الخبر الصِّدق الّذي يطابق الواقع فالمعنىٰ أيضاً واضح فأنّ القرآن حقّ بهذا المعنِى أيضاً و هو تعالىٰ أيضاً كذلك لأنّ إخباره صِدق مطابق للواقع وقوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** أي لا يصدّقون بأنّه كذلك بل يكفرُون بهإشارة الىٰ أنّ الحقّ دائماً مع الأقلّ و البـاطل مع الأكثر.

قال تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِىَ ٱلشَّكُورُ**(١).



ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.

إعلم أنّ الرَّفع قد يقال و يراد به رفـع الأجسـام المـوضوعة إذا أعـليتها مـن مقرّها كما قال تعالىٰ: **وَ رَفَعْنٰا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ**(٢) و ما نحن فيه من هذا القبيل، و

١- سباء = ١٣　　　٢- البقرة = ٦٣

قد يقال في البَناء إذا طوَلتَّه ومنه قوله تعالىٰ: **وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ اَلْقَوٰاعِدَ مِنَ اَلْبَيْتِ**[١] أي طوَلَّهما.

و قد يقال في الذِّكر إذا نوهّته و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَفَعْنٰا لَكَ ذِكْرَكَ**[٢].

و قد يقال في المنزلة إذا شرَّفتها و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ**[٣].

إذا عرفت موارد إستعمالات الرّفع فقد دريت أنّ المراد منه في الآية هو القسم الأوّل أعني به رفع الإجسام السّماوية فوق رئوسنا بقدرته الكاملة فأنّ سماء كلّ شئٍ أعلاه و يقال في جمعها سموات فالسّمٰوات في الحقيقة المرفوعات ففي الآية أخبر اللّه بما يدّل على وحدّانيته و كونه على صفات لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين و هو أنّه تعالى قادرٌ لنفسه على ما لا يقدر عليه غيره كيف و هو اللّه الّذي رفع السّمٰوات بغير عمدٍ ترونها،

قيل في معناه أي بغير عمدٍ مرّئية و عليه فقوله: **تَرَوْنَهٰا** صفة للعمد أي ليست لها عمد مرّئية و هذا لا ينافي أن يكون لها عمد لأنّ المنّفي هو العمد المرّئية لا مطلق العمد.

و قال بعضهم معنىٰ الكلام أنّه لا عمد لها أي أنّه تعالىٰ رفع السّمٰوات بغير عمدٍ ترونَها أنّه لا عمد لها فعلى الأوّل الضّمير في قوله: **تَرَوْنَهٰا** يرجع الىٰ العمد.

علىٰ الثّاني: الىٰ السّمٰوات أي أنتم ترون السّمٰوات بغير عمد و الأشهر بين المفسّرين هو القول الأوّل و يظهر من كلام الشّيخ في التّبيان أنّه إختار القول الثّاني و هو أنّه لا عمد لها أصلاً فأنّه قال ولو كان لها عمد لرأيت و مثله قول الشّاعر:

١- البقرة = ١٢٧
٢- الانشراح = ۴
٣- الزّخرف = ٣٢

علىٰ لا حب لا يهتدي لمناره، والمعنىٰ أنّه لا منار له ولقائل أن يقول لا ملازمة بين وجود العمد و الرّؤية بالعين إذ لا يبعد أن يكون لها عمد غير قابلٍ للرّؤية بها.

و الحاصل هو أنّ كلّ مرّئي موجود وليس كلّ موجودٍ قابل للرّؤية وإذا كان كذلك فلها عمد إلاّ أنّها غير قابل للرّؤية بالعين وقوله: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**[1] أي تسلّط و إستولىٰ علىٰ العَرش كما قال الشّاعر:

قد إستوىٰ بشرٌ علىٰ العراقِ — من غير سيفٍ ودَم مهراقِ

أي إستولى على العراق وقوله: **وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ** أي ذلّلهما لما يريد منهما و التّسخير سياقه الىٰ الغرض المختصّ قهراً و في الكلام إشارة الىٰ أنّ المسخِّر لهما هو اللّه الّذي خلقهما و من المعلوم أنّ كلّ مخلوقٍ مسخَّرٌ لخالقه: **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى** قال إبن عبّاس منازل الشّمس و القمر و هي الحدود الّتي لا تتعدّاها قدرّ لكلّ منهما سيراً خاصّاً الىٰ جهةٍ خاصّة بمقدارٍ خاصّ من السرّعة و البطؤ، و قيل الأجل المسّمىٰ هو يوم القيامة فعند مجيئه ينقطع ذلك الجريان و التيسير و الحقّ أنّ الأجل المسّمىٰ لا يعلمه إلاّ اللّه تعالىٰ فأنّ الأجل هو الوقت المضروب لحدوث أمرٍ وإنقطاعه و لا شكّ في أنّ المخلوق له أجل كما هو مقتضى الإمكانيّة و أمّا تعيينه فليس إلاّ لخالقه الّذي ضرب له الأجل.

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ تَدبير الأمر إنفاذه و إبرامه و عبّر بالتّدبير تقريباً للإفهام إذ التدّبير هو النّظر في إدبار الأمور و عواقبها و ذلك من صفات البشر و قيل التدّبير هو تصريف الأمور على ما يقتضيه مستقبل حاله في عاقبته و عليه فهو عبارة أخرىٰ عن القضاء و القدر و تدبير السّموات والأرض فيه دلالة على مدبّرٍ حكيم قد جعل جميع ذلك لما يصلح في عاقبته و عاجلته، هكذا قيل والحقّ أنّ قوله: **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** عَامٌ يشمل



١- الاعراف = ٥٤

تدبير جميع الأمور من إيجادٍ و إعدامٍ و إحياءٍ و إماتةٍ و إنزال وحيٍ و بعث الرسّل و غير ذلك والمراد من الأمر الأعمّ من التّكويني و التّشريعي و نعني بالأوّل الأمر الإيجادي المشار اليه بقوله: **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١].

بالثّاني: أوامره التّشريعية الّتي تتعلّق بالتّكاليف الشّرعية كالأمر بالصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها و يدلّ على ما ذكرناه قوله تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ**[٢] فقوله: **كُلُّهُ** أي كلّ الأمر تكوينّياً كان أو تشريعياً و قد يعبّر عنهما بعالم الخلق و الأمر قال اللّه تعالىٰ: **أَلا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَ ٱلْأَمْرُ تَبارَكَ ٱللّٰهُ رَبُّ ٱلْعٰالَمِينَ**[٣].

و حاصل الكلام هو أنّ تدبير الأمور بيده بل لا أمر في الحقيقة إلاّ له تعالىٰ.

أزمّـة الأمـور إلاّ بـيده والكُل مستمدةٌ من مـدده

و قوله: **يُفَصِّلُ ٱلْأٰيٰاتِ**، معناه يجعلها فصولاً مبيّنة مميّزاً بعضها من بعضٍ و الأيات هنا دلائله و علاماته في سمواته و في غيرها فأنّها تدّل على وحدّانيته و قيل المراد بها آيات القرآن أو الكتب المنزّلة وقوله: **لَعَّلَكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** أي لكي توقنوا لقاء ثواب اللّه على طاعته و لقاء عقابه علىٰ معصيته فسّمىٰ لقاء الثّواب و العقاب لقائه مجازاً و ذلك لأنّ لقاء اللّه علىٰ الحقيقة محال.

جزء ١٣

وَ هُوَ ٱلَّذي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ وَ أَنْهٰارًا

ذكر في الآية السّابقة أنّه هو الّذي رفع السّموات و سخّر الشّمس و القمر الخ.

١- يٰس = ٨٢
٢- هُود = ١٢٣
٣- الأعراف = ۵۴

و ذكر في هذه الآية أنّه تعالى هو الّذي مدَّ الأرض أي بسطها طولاً و عرضاً ليمكن التّصرف فيها و الإستقرار عليها و المدَّ في الأصل، الجَّر و منه المدّة للوقت الممتَّد و يستفاد من الكلام أنّ الأرض بسطها اللّه طولاً و عرضاً بعد ما لم تكن كذلك إذ لو كانت كذلك في بدء الخلق فقوله تعالىٰ: **مَدَّ ٱلْأَرْضَ** من تحصيل الحاصل و هو كما ترىٰ قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فيهٰا رَواسِيَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ**(٢).

و منه قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحيٰهآ**(٣).

أي بسطها من دحوت الشّئ دحواً بسطتة.

و قال الرّاغب، في المفردات أي أزالها عن مقرّها، و الحّق أنّ الدَّحو البسط وعليه أهل اللُّغة وفي الحديث يوم دحو الأرض أي بسطها من تحت الكعبة اليوم الخامس و العشرون من ذي القعدة.

قال الرّضا عليه‌السلام: هو يومُ نَشرت فيه الرّحمة ودُحيت فيه الأرض.

قال بعض الشّراح الحديث فيه إشكال و هو أنّ المراد من اليوم دوران الشّمس في فلكها دورة واحدة و قد دلّت الأيات علىٰ أنّ خلق السّموات و الأرض و ما بينهما في ستّة أيّام فكيف تتحقّق الأشهر في تلك المدّة.

و أجيب عنه بأنّ في بعض الأيات دلالة علىٰ أنّ الدّحو متأخّر عن خَلق السّموات و الأرض و اللّيل و النّهار و ذلك قول اللّه عزّ وجّل:

ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمٰآءُ بَنيٰهٰا، رَفَعَ سَمْكَهٰا فَسَوّيٰهٰا، وَ أَغْطَشَ لَيْلَهٰا وَ أَخْرَجَ ضُحيٰهٰا، وَ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحيٰهآ(٤).

ثمّ قال و هذا غير و افٍ بحّل الإشكال و التّحقيق أن يقال أنّ الظّاهر مِن

١- الحَجر = ١٩
٢- الإنشقاق = ٣
٣- النّازعات = ٣٠
٤- النّازعات = ٢٧ الى ٣٠

معنىٰ الدَّحو كونه أمراً زائداً على الخلق وفي كلام أهل اللّغة و التّفسير أنّه البسط و التّمهيد للسكّنى و تحقيق الأيّام و الشّهور بالمعنى الّذي ذُكر في الإيراد إنّما يتوقّف علىٰ خلق الأرض لا دحوها والتّقدير بالسّتة أيّام إنّما هو في الخلق أيضاً فلا ينافي تأخّر الدَّحو بما يتحقّق معه الأشهر و عن الباقرعليه السلام لمّا أراد اللّه تعالى أن يخلق الأرض أمر الرّياح فضربن متن الماء حتّى صار موجاً ثمّ أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثمّ جعله جبلاً من زبد ثمّ دحىٰ الأرض من تحته و هو قول اللّه عزّ وجّل: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبٰارَكًا**[١] فأوّل بقعةٍ خلقت من الأرض الكعبة و في الدّعاء (اللّهم داحي المَدحُّوات) و روي المدحيّات و المدحُّوات الأرضون من دحا يدحوا إنتهىٰ كلامه[٢].

أقول الأخبار الواردة في دحو الأرض كثيرة، و الأيات أيضاً تدّل عليه و أمّا كيفيّة الدَّحو فلا نعلمها قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أُوتيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَليلًا**[٣] واللّه تعالىٰ أعلم بحقيقة كلامه وأمّا قوله: **وَ جَعَلَ فيهٰا رَواسِيَ وَ أَنْهٰارًا** أي جعل اللّه في الأرض بعد مدّها و بسطها رواسي و هي جمع راسية بمعنى ثابتة فالرّواسي الثّوابت و منه قول الشّاعر:

به خالدات ما يرمن وهامدُ وأشعت أرسية الوليدة بالقهر

و المقصود منها الجبال الرّاسيات و إنّما لم يذكر الجبال في الآية لغلبته وصفها بالرّواسي فصارت الصّفة تغني عن الموصوف فجمع جمع الإسم كحائط و حوائط و كاهل و كواهل قيل والهاء في راسية للمبالغة و أنهار جمع نهر و المراد بها المياه الجارية في الأرض **وَ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَراٰتِ جَعَلَ فيهٰا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** لمّا ذكر الأنهار ذكر ما ينشأ عنها و هو الثّمرات و الزّوج هنا

١- آل عمران = ١٠٠
٢- نقلناه عن مجمع البحرين في، دَحا،
٣- الاسراء = ٨٥

الصِّنف الواحد الّذي هو نقيض الإثنين يعني أنّه حين مدَّ الأرض جعل ذلك ثمّ تكّثرت و تنوّعت.

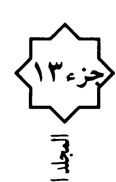
و قيل أراد بالزّوجين الأسود والأبيض و الحلو و الحامض و الصّغير و الكبير و ما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة.

و قال الكرماني، الزَّوج واحدٌ والزَّوج إثنان و لهذا قيد ليعلم أنّ المراد بالزَّوج هنا الفرد لا التَّثنية فيكون أربعاً قيل و خصَّ إثنين بالذَّكر و أن كان من أجناس الثّمار ما يزيد على ذلك لأنّه الأقّل إذ لا نوع تنقص أصنافه عن إثنين.

و قيل زوجين أي لونين من كلّ ما خلق من النّبات و قريش تقول للأنثى زَوج و للذّكر زوج قال اللّه تعالىٰ لآدم: **ٱسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ**[1] والثَّمر إسمٌ لكّل ما يتطّعم من أعمال الشّجر والواحدة ثمرة و الجمع ثمار و ثمرات و قد يطلق الثّمر علىٰ غير ما يتطَّعم به كما يقال ثمرة العلم العمل الصّالح و ثمرة العمل الصّالح الجنَّة و لكّنه مجاز وقوله: **يُغْشِى ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ** أي يجلل اللّيل النّهار و النّهار باللّيل و المعنىٰ أنّه يَذهب كلّ واحدٍ منهما بِصاحبه و مثله قوله تعالىٰ: **يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ**[2] و هذا من المحسوسات فإنّا نرىٰ إذا جاء اللّيل ذهب النّهار و بالعكس.

تنبيهٌ قوله: **زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** إنّما جيْ بإثنين بعد زوجين للتّأكيد و قيل أنّ الزّوجين قد يقع علىٰ الذّكر و الأُنثىٰ و على غيرهما فأراد أن يبّين أنّ المراد به هاهنا لونين أو ضربين دون الذّكورة و الأنوثة و ذلك فائدة لا يفيدها قوله زوجين بدون إثنين فلا تِكرار **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** و المعنى أنّ في مدَّ الأرض و جعل فيها رواسي و أنهار ألخ.

لآيات أي عَلامات تدّل علىٰ وجود الخالق و تدبيره و حكمته و علمه لقومٍ يتفَّكرون فيها و أمّا العوام الجُّهال فلا.



١- البقرة = ٣٥ ٢- الزّمر = ٥

وأعلم أنّ اللّه تعالىٰ أمرنا بالتَّفكر في الآثار الدّالة علىٰ وجود المؤثّر لأنّه أسهل طريقٍ الى معرفة اللّه الّتي هي الغاية في خلق الإنسان و إنّما قلنا أنّها أسهل لأنّ الآثار محسوب لكلّ أحدٍ و دلالة الأثر على المؤثّر أيضاً واضحة لا خفاء فيها فمن يرى الأرض و منافعها الّتي تترتّب على وجودها ممّا لا يحصيها إلاّ خالقها و يرى الجبال و الأنهار الجارية من المياه الّتي بها حياة الموجودات و أصناف الثَّمرات الّتي تنشأ من الأشجار و النّباتات و مجيئ اللّيل و النّهار علىٰ سبيل التَّعاقب و ما يترتّب عليهما لا يشكّ أنّها لم توجد من قبل أنفسها و ذواتها بل لها خالق عالمٌ حكيمٌ مدّبرٌ أوجدها على أحسن النّظام و إذا علم ذلك فلا مَحالة يحمده و يشكره فأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً والشّكر الحقيقي هو الشّكر العملي أعني به صرف العبد جميع ما أنعمه اللّه في طريق رضاه و لا نعني بالعبّودية إلاّ هذا.

وَ فِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

قلنا في شرح اللّغات أنّ قِطع بكسر القاف و فتح الطّاء جمع قطعة و هي الجزء و قوله: **مُتَجَاوِرَاتٌ** أي متلاصقات و هي مأخوذة من الجار و المقصود أنّ أجزاء الأرض و إن كانت متلاصقة متدانية قريبٌ بعضها من بعض لها طبيعة واحدة إلاّ أنّ آثارها متفاوتة فأنّ منها طيبّة و منها سنجة تنبت هذه و هذه الى جنبها لا تنبت و قيل في معنى الكلام يعني القرى المتجاورة وقيل متجاورة في المكان مختلفة في الصفة أي مخصبة الى مجدبة و صالحة للزّرع لا للشّجر و عكسها مع إنتظام جميعها في الأرضيّة و قيل في الكلام حذف معطوف و التّقدير و في الأرض قطعٌ متجاورات و غير متجاورات و المتجاورات المدن و ما كان عامراً، و غير المتجاورات الصّحاري كان غير عامرٍ و قوله: **وَ جَنَّاتٌ مِنْ**

أَعْنَٰبٍ فالجَّنة البستان الّذي يجّنه الشّجر و هي منفصلة من الرّوضة و الزّهرة و أعناب جمع عنب و هو ثمر الكرم يقع على أنواع كثيرة و المعنىٰ أنّ في الأرض بساتين من أعناب **وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ** قيل المراد بالزَّرع إلقاء الحَب للنّبات في الأرض و يقال لملقيه الزّارع **صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ** الصِّنوان المتلاصق وهي الفسيلة تكون في أصل النَّخلة يقال هو إبن أخيه صنو أبيه أي لصنو أبيه في ولادته و يقال، صنو بضّم الصّاد إذا كثرت و قيل الصّنوان النَّخلات الّتي أصلها واحد.

و قال الحسن الصّنوان النَّخلتان أصلهما واحد **يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ** أي يسقى ما ذكر بماء واحدٍ و قرأ الحسن وأبي جعفر وأهل مكّة، **تُسقىٰ**، بالتّاء أنثو لعود الضّمير على لفظ ما تقدَّم وفي قوله: **بِمَآءٍ وَٰحِدٍ** إشارة الى أنّ الماء لا تكثّر فيه فأنّ الجسم البارد السيّال المسمى بالماء في جميع أقطار الأرض واحد لأن صرف الحقيقة لا تكثُّر فيه و أنّما التكّثر بالظُّروف و المقصود أنّ الثّمرات المختلفة لوناً و طعماً و كمّاً و كيّفاً، كيف تنشأ من ماءٍ واحدٍ أليس هذا من العجائب **وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ** بضمّ الهمزَة المأكول و بفتحها المصدر و المعنى أنّ بعضها حلوٌ و بعضها حامضٌ و بعضها مرٌّ في الأكل و بعضها ليس كذلك فهذا التفضيل والمزيّة في الأثمار من حيث الطعم من آثار قدرة اللّه و إلاّ فالأرض واحدة و الماء واحد و الشّجر أيضاً من حيث الجنس واحد لأنّ جنسه الخشب و طبيعة الخشب واحدة فما الّذي أوجب هذه الإختلافات في الأثمار لوناً و طعماً و كمّاً و كيّفاً إلاّ قدرة اللّه تعالى ففي الآية تنبيةٌ على قدرته و حكمته و أنّه المدبّر للأشياء كلّها ألا ترى أنّ الشّجرة تخرج أغصانها و ثمراتها في وقتٍ معلومٍ لا تتأّخر عنه و لا تتقّدم ثمّ يتّصعد الماء في ذلك الوقت علواً علواً و ليس من طبعه إلاّ التّسفل يتفرّق ذلك الماء في الورق و الأغصان و الثّمر كلٌّ بقسطه و بقدر ما فيه صلاحه ثمّ تختلف

طعوم الثّمار و الماء واحد و الشَّجر جنس واحد كلّ ذلك دليل على مدَّبرٍ دبَّره و أحكمه لا يشبه المخلوقات ولنعم ما قيل في الباب:

و الأرض فـيها عـبرةٌ للـمعتبر تـخبر عـن صنع مـليكٍ مقتدرٍ
تسـقى بـماءٍ واحـدٍ أشـجارها و بـقعةٍ واحـدةٍ قـرارهـا
و الشَّمس و الهواء ليس يـختلف و أكـلها مـختلفٌ لا يأتـلف
لو أنّ ذا مـن عـمل الطّـبائع أو أنّـه صـنعة غـير صانعٍ
لم يـختلف و كـان شيئاً واحـداً هـل يشـبه الأولاد إلاّ الوالدا
الشّـمس و الهـواء يـا مـعاندا والمـاء و التّراب شيءٌ واحـدُ
فـما الّـذي أوجب ذا التّـفاضلا إلاّ حكـيمُ لم يـرده بـاطلاً

وقال الأخر:

تـفكّر فـي نـبات الأرض و أنـظر الىٰ أثـاره مـا صَـنَع المَـليك
فـفي رأس الزّبـرجـد شـاهداتُ بأنّاللّـه لَـيس له شـريكُ

و الإنصاف أنّ الخوض فى أثار صنعه يوجب الحيرة والدّهشة في العقول.

و في قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِـقَوْمٍ يَـعْقِلُونَ** إشارة الىٰ أنّ العقلاء يستدلّون بها على وحدّانية الصّانع القادر و أمّاً الجهّال و الغافلون فلا حظّ لهم من كأس المعرفة يمرّون علىٰ الأرض و يرون الأثار با أعينهم و لا يعتبرون بها أولئك كالأنعام بـل هـم أضـلّ، و لمّـا كـان الإستدلال فـي هـذه الآيـة بأشياء محسوسة في غايةالوضوح منمشاهدة تجاورالقطع و الجنّات وسقيها وتفضيلها جاء ختم الآية بقوله: **لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** بخلاف الآية التّي قبلها فأنّ الإستّدلال بها يحتاج الىٰ تأمّلٍ و مزيد نظرٍ جاء بقوله: **لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون** كما هو واضح.

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذاٰ كُنّا تُراٰبًا أَءِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

لمّا أقام اللّه الدّلائل علىٰ عظيم قدرته بما أودعه من الغرائب فـي مـلكوته التّي لا يقدر عليها سواه عجب الرّسول ﷺ من إنكار المشركين وحدّانيته و

توهينهم قدرته لضعف عقولهم أو عنادهم فنزلت هذه الآية و قال تعالىٰ مخاطباً لنبيَّه و إن تعجب أي من تكذيبهم إيّاك بعد ما كانوا حكموا عليك أنّك من الصّادقين فهذا أعجب.

و قيل في معناه و إن تعجب يا محمّد من عبادتهم ما لا يملك لهم ضرّاً و لا نفعاً بعد ما عرفوا الدّلائل الدّالة على التّوحيد فهذا أعجب.

و قال صاحب الكشّاف معناه، و إن تعجب من قولهم يا محمّد في إنكار البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجّب منه لأنّ من قدر على إنشاء ما عَدَّد عليك من الفِطر العظيمة و لم يعي بخلقهنّ كانت الإعادة أهون شئ عليه و أيسره فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب انتهىٰ.

أقُول يستفاد من الآية أنّهم أنكروا البعث و إنكار البعث منهم أعجب من إنكار الرَّسول أو إنكار ما ذكره اللّه في الأيات من عجائب الخلقة لأنّ إنكار البَعث يرجع الىٰ إنكار الوجود أوّلاً مع أنّ نبوته من المحسوسات و توضيحه أنّ منكر البعث في الحقيقة ينكر وجوده الّذي هو موجود به حسّاً و ذلك لأنّ حكم الأمثال واحد.

و الوجود الأوّل و الثّاني من سنخٍ واحدٍ فاذا كان الثّاني ممتنعاً فالأوّل أيضاً كذلك و المفروض أنّ الأوَّل قد وجدَ و المنكر موجودٌ به.

و إن شئت قلت الموجُد واحد والوجود واحد والقُدرة موجودة فكيف يوجد الأوّل و لا يمكن أن يوجد الثّاني و هذا معنى قولنا أنّ إنكار البعث يرجع الى إنكار المنكر وجوده الأوّل الذّي هو موجود به و إنكار الوجود للموجود من أعجب الأمور فقوله تعالىٰ: **وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذاٰ كُنّٰا تُرٰابًا** أي صرنا تراباً بعد الموت في القبر ءإنّا لفي خلقٍ جديدٍ بعد البعث.

وجه التَّعجب فيه ما ذكرناه و هو أنّه تعالىٰ يحييكم كما أحياكم أوّلاً و لا فرق بين الوجودين إلاّ بالتَّقدم و التّأخر الزّماني و هو ليس بمانعٍ و سيأتي الكلام في مسألة البعث مفصّلاً إن شاء اللّه.

وإعلم أنّ إبن عامر و أبو جعفر قَرأ **إذا** به **همزةٍ** واحد علىٰ الخبر و الباقون به هَمزَتين علىٰ الإستفهام و هو الأشهر و عليه المصاحف فعلاً و أمّا **إنّا** به همزة واحدة علىٰ الخبر نافع و الكسائي و يعقوب و الباقون به همَزَتين علىٰ الإستفهام و عليه المصاحف أيضاً و ليس هذا الإختلاف منهم منحصراً بهذا المقام بل أنّهم إختلفوا في الإستفهامين اذا إجتمعا في أحد عشر موضعاً و ما نحن فيه أحدها و هكذا في المؤمنين، وفي العنكبوت، وفي النَّمل و في السُّجدة و في الواقعة و في النّازعات و في بني إسرائيل في موضعين و كذا في و الصّافات و سيأتي الكلام في مواضعه إن شاء اللّه تعالىٰ.

أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولٰٓئِكَ ٱلْأَغْلاٰلُ فِيٓ أَعْنٰاقِهِمْ وَ أُولٰٓئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ لمّا حكى اللّه تعالىٰ عن هؤلاء الجهّال أنّهم توهّموا بزعمهم الفاسد أنّ الجسم اذا صار تراباً في القبر لا يمكن أن يصير حيواناً و لم يعلموا أنّ الذّي أنشأهم أوّل مرّةٍ قادر علىٰ أن يعيدهم ثانية، حكم عليهم بالعذاب و النّكال يوم القيامة فقال هؤلاء هم الذّين جحدوا نعم اللّه و كفروا بها و لم يشكروا عليها و كفروا بأياته و دلالاته فيحشرهم اللّه يوم القيامة و الأغلال في أعناقهم و الغُّل طوقٌ يقيّد به اليَد في العنُق.

و قال بعضهم أنّ المعنىٰ في ذلك أنّهم يؤاخذون بأعمالهم و هي الأغلال كما قال تعالىٰ: **إِذِ ٱلْأَغْلاٰلُ فِيٓ أَعْنٰاقِهِمْ**[1] فكأنّهم بمنزلة من كان الغُّل في عُنُقه لِما لزِمهم من الكفر به فقال: **وَ أُولٰٓئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** إخبار منه تعالىٰ أنّهم بعد الغُّل في أعناقهم يجعلون في النّار مؤبّدين فيها معذّبين بأنواع العذاب.

و قيل يحتمل أن يكون مجازاً أي هم مغلولون عن الإيمان فتجري اذاً مجرىٰ الطّبع و الختم على القلوب كما قال تعالىٰ: **إِنّٰا جَعَلْنٰا فِيٓ أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً**[2] و قال الشّاعر:

۱- غافر = ۷۱ ۲- يس = ۸

لهم عن الرُّشد أغلالٌ وأقيادُ

و قيل الأغلال هنا عبارة عن أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال و الأقوال المحتملة كثيره و الظّاهر أنّ عمل الكلام علىٰ معناه الحقيقي أولىٰ من حمله علىٰ المعنى المجازي كما هو الأصل في جميع الموارد.

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلٰتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ

لمّا كانوا متوعّدين بالعذاب أن أصَّروا على الكفر و كانوا مكذّبين بما أنذروا من العذاب سألوا و إستعجلوا بالطَّلب أن يأتيهم العذاب و ذلك علىٰ سبيل الإستهزاء كما قالوا: **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**(١).

قبل أن يسألوا الإحسان، و قد خلت من قبلهم المثلات، أي العقوبات و هي جمع مثلة نحو شجرة و صدقة على ثمرات و صدقات.

هكذا قال بعض المفسّرين و الحقّ أنّ **المَثُلات** جمع **مُثلة** بضّم الميم وسكون الثّاءو هي الأفة أو جمع **مَثُلة** بفتح الميم وضمّ الثّاء وهي التّنكيل وقد جاءت بمعنى ما أصاب القرُون الماضية من العذاب و هذا هو المراد في الآية بدليل قوله قد خلت من قبلهم أي مضت بإنقضاءها.

قال إبن عبّاس المثلات العقوبات المستاصلات كقطع الأنف و الأذن و غيرهما و قد يعبّر عنها بالمثلة قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم **إيّاكم والمُثلَة ولو بالكَلب العَقُور**، وهي قطع الأعضاء و الجوارح و ليس المراد في الآية هذا المعنى قطعاً اذ لم يقع شئ من هذه الأمور بهم بل المراد بها ما أصاب القرون الماضية من العذاب مثل قوم نوح و عاد و ثمود و أمثالهم و عليه فمعنى الكلام و يستعجلونك بالسّيئة قبل الحسنة أي يطلبون منك العقوبة و العذاب من قبل اللّه و الحال أنّهم سمعوا ما أصاب القرون الماضية من أنواع العذاب و هذا منهم عجيبٌ ألم يعلموا أنّ اللّه على كلّ شئٍ قدير.

١- الأنفال = ٣٢

قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَ ذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، الخ(۱)...

وقال عليه السلام: وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

اَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَاَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ!اَيْنَ الْفَرَاعِنَةِ وَاَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ اَيْنَ اَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الخ(۲).

وقال عليه السلام: وَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الخ(۳).

و في قوله: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ** إشارة الىٰ مقام التّوبة و أنّ اللّه يمهل العبد في الدّنيا لأجل التّوبة منه فأنّه تعالىٰ قد وَصَف نفسه في كثير من الأيات بأنّه غافر الذُّنوب و الخطيئات.

و في قوله: **عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ** إشارة الىٰ أنّ التّوبة لا تكون إلاّ من الظُّلم:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**(۶) والأيات كثيرة.

و قوله: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**.

إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ كما أنّه يغفر الذّنوب جميعاً كذلك يكون شديد العقاب لمن بقى على كفره و ظلمه و لم يرجع عمّا كان عليه فهو تعالى أرحم

۱- خ ۱۶۱
۲- خ ۱۸۲
۳- خ ۲۳۰
۴- الأنفال = ۳۸
۵- القصص = ۱۶
۶- المائدة = ۳۹

الرّاحمين في موضع العفو و الرّحمة و أشّد المعاقبين في موضع النّقمة و قد جمع اللّه تعالىٰ هاتين الصّفتين:

قال اللّه تعالىٰ: **إِعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَ قَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ**(٣).

و محصّل الكلام في الآية هو أن لا تطلبوا العذاب من اللّه بل توبوا اليه من سيّئات أعمالكم و أعلموا أنّ اللّه يغفر الذّنوب جميعاً و أمّا في صورة البقاء على الكفر و الظُّلم فأنّ اللّه شديد العقاب كما هو مقتضى العدل بعد إتمام الحجّة فأنّه تعالىٰ قد سبقت رحمته على غضبه.

■

١- المائدة = ٩٨
٢- الأعراف = ١٦٧
٣- غافِر = ٣

وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ ﴿٧﴾ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثٰى وَ مٰا تَغِيضُ ٱلْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ ﴿٨﴾ عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعٰالِ ﴿٩﴾ سَوٰآءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِۦ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سٰارِبٌ بِالنَّهٰارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذٰآ أَرٰادَ ٱللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلاٰ مَرَدَّ لَهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِۦ مِنْ وٰالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ ٱلسَّحٰابَ ٱلثِّقٰالَ ﴿١٢﴾ وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَ ٱلْمَلآٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَ يُرْسِلُ ٱلصَّوٰاعِقَ فَيُصِيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰآءُ وَ هُمْ يُجٰادِلُونَ فِى ٱللّٰهِ وَ هُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحٰالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِۦ لٰا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلّٰا كَبٰاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمٰآءِ لِيَبْلُغَ فٰاهُ وَ مٰا هُوَ بِبٰالِغِهِۦ وَ مٰا دُعٰآءُ ٱلْكٰافِرِينَ إِلّٰا فى ضَلاٰلٍ ﴿١٤﴾ وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْاٰصٰالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللّٰهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ



دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَاتُ وَ ٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَ هُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

◀ اللّغة

ءَايَةٌ الآية العَلامة.

تَغِيضُ الغيض النّقصان.

أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ أي أخفاه.

مُسْتَخْفٍ الإستخفاء طلب الإختفاء.

سَارِبٌ أي مستتر فأنّ السّرب الإستتار.

مُعَقِّبَاتٌ التَّعقيب في الأصل كَون شيئ بعد أخر فالمعقّبات المتناوبات و منه العقاب لأنّه يستحقّ عقيب المعصية.

وَالٍ هو فاعل من ولى يلي فهو وال و معناه النّاصر.

ٱلْبَرْقَ ما يَنقدح من السّحاب من اللّمعان كعمود النّار وجمعه، بروق، وفيه معنىٰ السُّرعة.

يُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ الإنشاء فعل الشّئ من غير سببٍ مولدٍ، والسّحاب هو الغيم و هي جمع سحابة والثّقال جمع ثقيل مثل كريم و كرام و شريف وشراف.

ٱلصَّوَاعِقَ جمع صاعقة و هي نار لطيفة من السّماء بحالٍ هائلة مِن شدّة الرّعد و عظم الأمر.

ٱلْمِحٰالِ الاخذ بالعقاب يقال ما حلت فلاناً اذا فتلته الىٰ هلكه و الميم أصليّة يقال محلّني يا فلان أي قوّني.

◄ الإعراب

قَبلَ الحَسَنة ظرف ليستعجلونك و قيل أنّه حال من السّيئة مقدّرة علىٰ ظلمهم حال من النّاس و العامل المغفرة وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ هو جملة مستأنفة و قيل هو خبر والمبتدأ محذُوف تقديره و هو لكلّ قومٍ عادٍ مٰا تَحْمِلُ فيه وجهان:

أحدهما: أنّ، ما، بمعنى الّذي، و موضعها نصب بيعلم.

الثّانى: هي إستفهاميّة فتكون منصُوبة بتحمل و الجملة في موضع نصب و مثله وَ مٰا تَزْدٰادُ و كلّ شيٍ عنده بمقدارٍ، عنده في موضع جرّ صفة لشيٍ أو في موضع رفع صفة، لكلّ و العامل فيه علىٰ الوجهين محذوف و خبر كلّ بمقدارٍ عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ خبر مبتدأ محذوف أي هو و يجوز أن يكون مبتدأ و ٱلْكَبِيرُ خبره سَوٰآءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ من مبتدأ و سواء خبر، و منكم، حال من الضّمير في سواء لأنّه في موضع مستّوٍ.

و قيل حال من الضّمير في أسَّر و جهر، و هو ضعيف لأنّه يلزم تقديم ما في الصّلة على الموصول أو الصّفة علىٰ الموصوف و تقديم الخبر على، منكم، و حقّه أن يقع بعده لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ واحدتها، معقبّة والهاء فيها للمبالغة مثل نسّابة معقبّة صفة للجمع ثمّ جمع على ذلك مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ صفة لمعقّبات و قيل ظرف أنّه حال من الضّمير الذّي فيه ويجوز أن يكون متعلّقاً بقوله، يَحْفَظُونَهُ أي معقبّات يحفظونه من بين يديه خلفه مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ من الجنّ و الإنس فتكون، مِن على بابها و قيل من، بمعنىٰ الباء أي بأمر اللّه خَوْفًا وَ طَمَعًا مفعول من أجله.

وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ قيل هو هو ملك، فعلى هذا قد سمّي بـالمصدر و قيل، الرَّعد، صوته ٱلْمِحَالِ بكسر الميم فعال من المحلّ و هو القوّة وفـيه لغـة أخرى و هي فتح الميم كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ و التّقدير إلاّ إستجابة كإستجابة باسط كَفيّه و المصدر في هذا التّقدير مضاف الیٰ المفعول و فاعل هذا المـصدر مـضمر و هو ضمير الماء أي لا يجيبونهم إلاّ كما يجيب الماء باسط كفيّه اليـه و الإجـابة هنا كناية عن الإنقياد لِيَبْلُغَ فَاهُ اللاّم متعلّقة، بـباسط و الفـاعل ضـمير المـاء أي ليبلغ الماء فاه و الكاف في، كباسط قيل أنّها حرف و قيل أنّها إسم فـعلیٰ الأوّل فيها ضمير يعود علیٰ الموصوف.

المحذوف و على الثّاني فلا ضمير فيها.

◀ التّفسير

وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ الكفّار و هم مشركوا العرب أو من أنكر نبوّته من مشركيهم و الكفّار و لم يعتدوا بالأيات الخارقة المنزلة كإنشقاق القمر و انـقياد الشَّجر و إنقلاب العصا سيفاً و نبع الماء من بين الأصابع و أمثال هذه فإقترحوا عناداً آيات كالتَّفجير للينبوع و الرّقي في السّماء و الملك و الكنز و نقل جـبال مكّة عن أماكنها لتتَّسع عـلیٰ أهـلها و إنـزال الكـتاب مـن السّماء الى الأرض يقرأون فيه الأمور التّي دعاهم اليها فقال اللّه تعالى لنبيّه ليس أمـر الأيـات اليك أنّما أمرها الى اللّه ينزلها على ما يعلمه مـن مـصالح العـبادذ و أنـما أنت مـنذرٌ تخوِّفهم من سوء العاقبة و ناصح كغيرك من الرُّسل و لكلّ قومٍ هادٍ يهديهم الى الحقّ و فيه أقوال:

أحدها: ما عن إبن عبّاس أنّ الهادي هو الدّاعي الى الحقّ.

الثّاني: ما عن مجاهد و إبن زيد و قتادة أنّه نَبيّ كلّ أمّةٍ.

الثّالث: عن إبن عبّاس في رواية أخرى و سعيد بن جُبير أنّ الهادي هو اللّه.

الرّابع: عن الحسن و عكرمة أنّه محمّد.

الخامس: ما روي عن أبى‌جعفر و أبى عبد اللّه أنّ الهادي هو إمام كلّ عَصرٍ معصوم يؤمن عليه الغَلط و تعمَّد الباطل ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال بعضهم، هادٍ، يحتمل أن يكون معطوفاً على منذر و فصّل بينهما بقوله: **وَ لِكُلِّ قَوْمٍ** و به قال عكرمة و أبو الضُّحىٰ فأن أخذت، هادٍ، علىٰ حقيقته فلكلّ قومٍ مخصوص أي و لكلّ قومٍ قائلين هاد، و إن أخذت علىٰ العموم فمعناه أنّه منذر وداعٍ الى الهدى كما قال بعثت الىٰ الأحمر والأسود هذا ما قالوه في تفسير الآية فنقول:

أمّا قوله: **وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِۦٓ** فمعناه هلاّ أنزل عليه أية من تفجير الأنهار و نقل جبال مكّة و هكذا فقال تعالىٰ: **إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ** و ليس إنزال الآية بيَدك و هذا ممّا لا خلاف فيه و أنّما الكلام في قوله: **وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ** هل هو الرّسول أو غيره و الظّاهر أنّه غير الرّسول و ذلك لأنّ المنذر هو رسول اللّه ﷺ بلا كلام فلو كان المراد بالهادي أيضاً رسول اللّه فحقَّ العبارة أن يقال أنّما أنت منذرٌ و هادٍ لكلّ قومٍ لئلا يفصل بين المنذر والهاد أعني المعطوف و المعطوف عليه و على مسلك القوم يلزم الفصل و هو لا يجوز إلاّ عند الضّرورة.

و عليه فالحقّ أنّ الكلام يتّم في قوله منذر و**الواو** في قوله و لكلّ قومٍ هاد ليس للعطف بل هي للإستئناف فقوله و لكلّ قومٍ هادٍ جملة مستأنفة و أمّا أنّ الهادي من هو، فنحن نقول أنّه الإمام المعصوم أوّلهم علّي بن أبي طالب عليه السلام و أخرهم المهدي الموعود و أنّما نقول به لأنّ الهادي في كلّ قومٍ لو لم يكن معصوما فهو كغيره من أحاد القوم فكيف يكون هادياً.

ثانياً: أنّ اللّه تعالىٰ جعل الهادي عدلاً للمنذر و المنذر يكون معصوماً قطعاً فكذا الهادى.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لا يَهِدِّيَ إِلّا أَنْ يُهْدٰى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**[1].

و ما ذكرناه في المقام في المراد بالهادي مؤيّد بالأخبار أيضاً، فمن العامّة:

ما رواه الحافظ الحسكاني في شواهد التّنزيل بأسناده عن سعيد بن جبير عن إبن عبّاس قال لمّا نزلت أنّما أنت منذر، و لكلّ قوم هادٍ، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّا المنذر و علّي الهادي من بعدي و ضرب بيده الىٰ صدر علّي فقال أنت الهادي بعدي يا علّي بك يهتدي المهتدون انتهىٰ.

و بأسناده عن حسن بن حسين به سواء قال لمّا نزلت أنت منذر قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنا يا علّي المنذر و أنت الهادي بك يهتدي المهتدون بعدي انتهىٰ.

و بأسناده عن سعيد بن جُبير عن إبن عبّاس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسري بي ما سألت ربّي شيئاً إلاّ أعطانيه و سمعت منادياً من خلفي يقول يا محمّد إِنَّمآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ، قلتُ أنّا المنذر فمن الهادي قال علّي الهادي المهتدي القائد أمّتك الىٰ جنّتي غرّاء محجّلين برحمتي انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي صالح عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ، قال هو علّي عليه السلام انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي برزة قلا سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إِنَّمآ أَنْتَ مُنْذِرٌ ثمّ يردّ يده الىٰ صدره ثمّ يقول و لكلّ قوم هادٍ، و يشير الى علّي بيَده انتهىٰ.

١- يونس = ٣٥

و بأسناده عن أبي هريرة في قوله أنّما أنت منذر يعني رسول اللّه و في قوله: وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ قال سألت عنه رسول اللّه فقال أنّ هادي هذه الأمّة علّي بن أبي طالب انتهىٰ[١].

اقول ذكر الحافظ الحسكاني في كتابه روايات كثيرة بطرق مختلفة أراد الاطّلاع على تفصيلها فعليه بمراجعة كتابه فأنّ الأخبار الواردة في الباب في حدّ التّواتر و أمّا المفسّرون فمن العامّة.

ماراوه الطّبري بعد نقله سائر الأقوال ما هذا لفظه.

و قال أخرون هو علّي بن أبي طالب.

حَدَّثنا أحمد بن يحيى الصوفي بأسناده عن سعيد بن جُبير عن إبن عبّاس قال لمّا نزلت إِنَّمٰآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ وضع صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يده علىٰ صَدره فقال أنا المنذر و لكلّ قومٍ هادٍ بيده الىٰ منكب علّيٍ فقال أنت الهادي يا علّي بك يهتدي المهتدون بعدي انتهىٰ.

و منهم السّيوطي في تفسيره المسمّىٰ بالدُّر المنثور بأسناده قال لمّا نزلت **إِنَّمٰآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ** و ساق الحديث كما نقلناه عن الطّبري.

و أيضاً بأسناده عن أبي برزة الأسلمي أنّه قال سمعت رسول اللّه يقول: إِنَّمٰآ أَنْتَ مُنْذِرٌ و وضع يده علىٰ صدر نفسه ثمّ وضعها علىٰ صدر علّيٍ و يقول لكلّ قومٍ هاد انتهىٰ.

و بأسناده أيضاً عن إبن عبّاس قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم المُنذر و لا هادي علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و قد أنكره بعض المعاندين من مفسّري العامّة أمثال البيضاوي و الأُلوسي، و مؤلّف تفسير روح البيان والزّمخشري في الكشّاف فأنّهم ذهبوا الى أنّ الهادي هُو اللّه و أخذوا ذلك من الزّمخشري حيث قال: **وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ** أي

١- شواهد التّنزيل ج ١ ص ٢٩٣

قادر علىٰ هدايتهم بالإلجاء و هو اللّه تعالىٰ و قال في معنى المنذر، فما عليك إلاّ أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم و لست بقادرٍ عليه.

أقُول أنظر الىٰ كلماتهم و تحقيقاتهم في تفسير كلام اللّه ثمّ قل لعنة اللّه علىٰ من فسرّ القرأن برأيه و كيف يقول العاقل أنّ قوله: **وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ** هو اللّه لأنّه القادر علىٰ هدايتهم بالإلجاء و زاد الألوسي في رُوح المعاني نغمةً أخرىٰ لا بأس بالإشارة اليه حتّى تعلم مبلغ علمه و فهمه و تقف علىٰ عناده و لجاجه قال ما هذا لفظه.

و إستّدل بذلك الشّيعة على خلافة علّي كرّم اللّه وجهه بعد رسول اللّه بل فصل و أجيب بأنّا لا نسلّم صحّة الخبر و تصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الإعتبار عند أهل الأثر و ليس في الآية دلالة علىٰ ما تضّمنه بوجهٍ من الوجوه على أن قصارى ما فيه كونه كرّم اللّه وجهه به يهتدي المهتدي بعد رسول اللّه و ذلك لا يستدعي إلاّ لثبات مرتبة الإرشاد و هو أمرٌ، والخلافة الّتي نقول بها أمرٌ لا تلازم بينهما عندنا.

و قال بعضهم أن صحّ الخبر يلزم القول بصّحة خلافة الثّلاثة حيث دلّ على أنّه كرّم اللّه وجهه على الحقّ فيما يأتي و يذر و أنّه الّذي يهتدىٰ به و هو قد بايع أولئك الخلفاء طوعاً و مدحهم و أثنى عليهم خيراً ولم يطعن في خلافتهم فينبغي الإقتداء به و الجري علىٰ سننه في ذلك ودُون إثبات خلاف ما أظهر خرط القتاد انتهىٰ كلامه.



أقُول انظّر الىٰ هذه الأراجيف الّتي لا يقول بها عاقل فضلاً عمّن يدّعي العِلم و الفضل ألا ترى أنّه يقول لا نسّلم صحّة الخبر و لا يقول صحّة الأخبار و المفروض أنّ الأخبار الواردة في الباب من الطّرفين كثيرة جدّاً.

ثانياً: أنّ إنكار شئٍ بغير دليلٍ يدّل على قلّة عقل منكره أو عِناده.

ثالثاً: قوله إنّ صحّ الخبر يلزم القول بصّحة خلافه الثّلاثة بدليل أنه عليه السلام

بايعهم طوعاً و مدحهم و أثنى عليهم الخ يدلّ على قلّة إطّلاعه بالآثار أو تعصّبه و عناده بالنّسبة الى أهل البيت و ما جرى عليهم من الخلفاء الغاصبين المطرودين و إلاّ فمن كان مطّلعاً و راعى جانب الإنصاف لا يقول ذلك و يعلم أنّ أمير المؤمنين لم يبايعهم إلاّ كرهاً و جبراً و لم يمدحهم أصلاً بل كان يذّمهم أشدّ الذّم لدى الفرصة و لم يثن عليهم أبداً و كيف يعقل أنّ أمير المؤمنين و هو هو يمدح أو يثني من يستحقّ الذّم أليس أمير المؤمنين عليه السلام يقول في الخطبة المعروفة بالشّقشقية:

أَمٰا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقَمصَّهَا ابْنُ اَبِى قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلِّى مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰى، يَنْحَدِرُ عَنِّى السَّيْلُ وَ لاٰ يَرْقٰى اِلَىَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهٰا ثَوباً وَطَوَيْتُ عَنْهٰا كَشْحاً، وَ طَفِقْتُ اَرْتَأى بَيْنَ اَنْ اَصولَ بِيَدٍ جَذّٰاءَ، أَوْأَصْبرَ عَلٰى طَخْيَتِهٖ عَمْيٰاءِ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَ يَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَ يَكْدَحُ فِيهَا مُؤمِنٌ حَتّٰى يَلْقٰى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلٰى هٰاتٰا اَحْجٰى، فَصَبَرتُ وَفِى الْعَيْنِ قَذىً، وَفِى الْحَلْقِ شَجَىً أَرٰى تُرٰثِى نَهْباً حَتّٰى مَضَى الاَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَاَدْلٰى بِهٰا اِلَى ابْنِ الْخَطّٰابِ[١].

(فلان) بعده فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لأخر بعد وفاته و ساق الكلام الىٰ أنّ قال في عثمان الىٰ أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله و معمتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال اللّه خضمة الإبل نبتته الرّبيع الى أن انتكث عليه فتله و أجهز عليه عمله كبت به بطنته، فهذا مدح علّى عليه السلام عن الخلفاء الثّلاثة فأن كان ما ذكره أمير المؤمنين في هذه الخطبة و غيرها مدحاً و ثناءً على الخلفاء فالحقّ مع الألوسي و أن كان ذمّاً فكيف يقول أنّه مدحهم و أثنى عليهم.

نعم للألوسي و أمثاله أن يقولوا بعدم إعتبار الخطبة أو الكتاب إذ لا دليل لهم علىٰ ردّ الحقّ سوى الإنكار و هو إستدلال العجائز و ضعفاء العقول و في

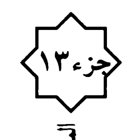
١- خ ٣

خاتمة الكلام نقول لعنة اللّه على الكاذبين المفترين و لولا مخافة الإطالة وخروج الكتاب عن موضوع التّفسير لقلنا في جوابه ما يليق به وأقمنا البراهين القاطعة من العقّلية و النّقلية علىٰ ردّه واللّه تعالى من وراء القصد.

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ.

قال الزّمخشرى، ما في ما تحمل و ما تغيض و ما تزداد أمّا موصولة و أمّا مصدّرية فأن كانت موصولة فالمعنىٰ أنّه يعلم ما تحمله الأنثىٰ من الولد على أيّ حالٍ هو، مِن ذكورةٍ و أنوثة و تمامٍ و خداج و حسن و قبح و طولٍ وصر و غير ذلك من الأحوال الحاضرة المتّرقبة و يعلم ما تغيضه الأرحام أي تنقُصه و ما تزداده أي تأخذه زائداً و ممّا تنقصه الرَّحم و تزداده عدد الولد فأنّها تشتمل علىٰ إثنين و ثلاثة و أربعة و منه جسد الولد فأنّ يكون تآماً و مخدجاً و منه مدّة ولادته فأنّها تكون أقلّ من تسعة أشهر و أزيد عليها الى سنتين عند أبي حنيفة و الىٰ أربع عند الشّافعي و الى خمس عند مالك و قيل أنّ الضّحاك ولد لسنتين و هرم بن أبي حبان بقىٰ في بطن أمّه أربع سنين و منه الدَّم فأنّه يقل و يكثر هذا أن كانت، ما، موصولة و أن كانت مصدّرية فالمعنى أنّه يعلم حمل كلّ أنثى و يعلم غيض الأرحام و إزديادها لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك و من أوقاته و أحواله و قال في قوله: **بِمِقْدَارٍ** بقدر واحد لا يجاوزه و لا ينقص منه كقوله: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**[1] الكبير، العظيم الشّأن الّذي كلّ شيءٍ دونه (المتعال) المُستعلي علىٰ كلّ شيءٍ بقدرته أو الّذي كبر عن صفات المخلوقين و تعالى عنها، انتهىٰ كلامه.

و قال القرطبي و إختلف العلماء في تأويل قوله: **وَ مَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ** فقال قتادة ما تسقط قبل التّسعة الأشهر و ما تزداد فوق التّسعة.



١- القمر = ٤٩

و كذلك قال إبن عبّاس، و قال مجاهد إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها فأن زادت على التسّعة كان تماماً لما نقص و عنه الغيض ما تنقصه الأرحام من الدَّم و الزّيادة منه.

و قيل الغيض و الزّيادة يرجعان الى الولد كنقصان إصبع أو غيرها و زيادة إصبع أو غيرها، و قيل الغيض إنقطاع دم الحيض و ما تزداد بدم النّفاس بعد الوضع انتهىٰ.

أقول يحصل من كلام القرطبي أنّ الغيض قد يقال و يراد به ما تسقط قبل التسّعة الأشهر، و قد يراد به ما تنقصه الأرحام من الدَّم، و قد يراد به نقصان العضو، و قد يراد به إنقطاع دم الحيض فالأقوال في معناه أربعة.

و قال الرّازي إختلفوا فيما تغيضه الرَّحم و تزداده علىٰ وجوهٍ:

الأوّل: عدد الولد فأنّ الرَّحم قد يشتمل على واحدٍ وإثنين و علىٰ ثلاثة و أربعة و يروىٰ أنّ شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمّه.

الثّاني: الولد قد يكون مخدجاً و قد يكون تامّاً.

الثّالث: مدّة ولادته قد تكون تسعة أشهر و أزيد عليها الى سنتين عند أبي حنيفة و الى أربع عند الشّافعي و الى خمس عند مالك.

الرّابع: الدَّم فأنّه تارةً يقلّ و تارةً يكثر.

الخامس: ما ينقُص بالسّقط من غير أن يتمّ و ما يزداد بالتّمام.

السّادس: ما ينقص بظهور دم الحيض و ذلك لأنّه اذا سال الدّم في وقت الحمل ضعف الولد و نقص و بمقدار حصول ذلك النّقصان يزداد أيّام الحمل لتصير هذه الزّيادة جابرة.

السّابع: أنّ دَم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فاذا إمتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت و خرجت وسالت من دواخل تلك العُروق انتهىٰ كلامه.

أقول أمّا قوله: **اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثىٰ** فلا خفاء فيه من حيث المعنى و ذلك لأنّ الخالق أعرف بحال مخلوقه منه نفسه واللّٰه تعالىٰ خالق كلّ

شيئ سواء كان في الأرحام أم في غيرها كالملائكة فلا محالة يعلم ما تحمل كلّ أنثىٰ حيواناً كان أو إنساناً و الحمل بفتح الحاء ما كان في البطن و بكسرها ما كان على الظَّهر و عليه فالمعنى أنّه تعالىٰ يعلم ما تحمل كلّ أنثى في بطنها من علقةٍ أو مضغةٍ و من ذكرٍ أو أنثىٰ أو ناقص أو كامل و بالجملة على جميع صفاته و حالاته و هو ظاهر.

و أمّا قوله: **وَ مٰا تَغِيضُ ٱلْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ** أي ما ينقص و ما يزداد من جهة الكمّ و الكيف فأنّ النّقص و الزّيادة تارةً يكون بحسب الكيفيّة و أخرى بحسب الكمّية و كلاهما مراد.

أمّا الكيفيّة فكما أن يكون الولد سعيداً أو شقيّاً بحسب علمه تعالى لا بحسب ذاته و أن يكون صبيحاً أو قبيحاً و أن يكون أبيضاً أو أسوداً و أمثال ذلك من الصّفات و الحالات.

و أمّا الكمّية فكما أن يكون ضعيفاً أو سميناً واحداً أو أثنين أو ثلاث، ناقصاً أو تماماً بحسب الجسم و غير ذلك كلّ ذلك يعلمه اللّه قبل و لادته و يدخل في النّقص و التّمام أنّ يولد لسّتة أشهر أو تسعة أشهر.

و الحاصل أنّ الغيض النّقصان و من المعلوم أنّ النّقص و الزّيادة مِن المتاضيفين و علىٰ هذا فمراتبهما مختلفة.

و أمّا قول العامّة أنّ الولد قد يكون في بطن أمّه سنتان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة علىٰ ما مَرَّ بيانه فأنّه لا يصّح قطعاً فأنّ أقلّ الحمل ستّة أشهر و أكثره تسعة.



و قد وردت رواية في السَّنة وهي شاذّة لا يعمل بها و أمّا أكثر من السَّنة فلا يكون قطعاً و لم يوجد أصلاً و من كان كذلك فهو من غير أبيه قالوا ذلك لأنّ الشّافعي ولد بعد موت أبيه بأربع سنة قالوا بقي تلك المدّة في بطن أمّه لأنّ أبا حنيفة كان حيّاً و نظير ذلك قالوا في مالك و غيرهما و للبحث فيه مقام أخر فليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

و قوله: **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ** ففيه قولان:

أحَدهما: أنّ جميع ما يفعله اللّه على مقدار ما تدعوا اليه الحكمة من غير نقصانٍ و لا زيادةٍ.

الثّاني: أنّ معناه **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ** في الرّزق و الأجل و المقدار مثال يقدّر به غيره و قيل المقدار يطلق علىٰ القدر وعلىٰ ما يقدّر به الشّيء و عموم قوله: **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ** أي بحدٍّ لا يتجاوز عنه و لا تقصير عنه.

و قال إبن عبّاس و كلّ شيءٍ من الثّواب و العقاب عنده بمقدارٍ أي بقدر الطّاعة و المعصية.

و قال الأخر معناه، من الغيض والإزدياد، و قيل صحّة الجنين و مرضه و موته و حياته و رزقه و أجله و هكذا غيرها من الأقوال و أنت ترىٰ أنّ حملها علىٰ التّمثيل أولى من حملها علىٰ التّخصيص الذّي لا دليل عليه.

أقُول الّذي يقوي في نفسي في معنىٰ الكلام هو أنّ الأصل في هذا الحكم، عدله تعالىٰ و توضيحه إجمالاً.

هو أنّ اللّه تعالى عادِلٌ و لا شكّ فيه عقلاً و نقلاً و العدل عبارة عن وضع الشّيء في محلّه كما أنّ الظُّلم وضعه في غير محلّه فمعنى قوله: **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ** أنّه تعالىٰ وضع كلّ شيءٍ في موضعه و لم يتجاوز عنه لأنّه ظُلم فالمراد بالمقدار هو الحدّ، بأنّ لكلّ شيءٍ حدّاً معيّناً.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزآئِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**[٢].

ففي هذا الكلام إشارة في الحقيقة الىٰ علمه و عدله لأنّ العدل بدون العلم لا يتحقّق و لعلّه لذلك قال بعد هذا الكلام **عالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهادَةِ ٱلْكَبِيرُ**

١- الطّلاق = ٣ ٢- الحجر = ٢١

ٱلْمُتَعٰالِ أي كيف لا يكون كلّ شيءٍ عنده بمقدار مع أنّه تعالىٰ عالم الغيب و الشّهادة لا يغيب عنه شيئ يَعلَم الموجود و المعدوم و الظّاهر و الباطن الكبير المتعال أي هو السَّيد المقتدر و المتعالىٰ المقتدر بما يستحيل أن يكون أعلىٰ منه في الإقتدار أو مساوياً له فهو أقدر من كلّ قادرٍ.

و قيل في معنىٰ المتعال أنّه المستعلى على كلّ شيءٍ بقدرته أو الذّي كبر عن صفات المحدثين وتعالىٰ عنها، و قيل المتعالىٰ عمّا يقوله المشركون فيه.

سَوٰآءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سٰارِبٌ بِالنَّهٰارِ

لمّا وصف اللّه تعالىٰ نفسه بأنّه الكبير المتعال علىٰ غيره بسعة قدرته أوضح ذلك بقوله: **سَوٰآءٌ مِنْكُمْ** من أسرَّ القول و من جهر به، أي علمه بالأشياء لا يختصّ بالظّواهر منها بل هو عالمٌ بها على إختلاف حالاتها فهو عالمٌ بما يسّر الإنسان في نفسه أي يخفيه أو يعلنه، أو يستتر باللّيل أو يسرب بالنّهار أي يظهر بالنّهار.

و قال مجاهد أي مستخّفٍ بالمعاصي، والفرق بين الإستخفاء و الإسرار هو أنّ الإستخفاء طلب الإختفاء و الإسرار إخفاء المعنىٰ في النّفس فالمعنىٰ أنّه تعالى عالمٌ بأسراركم كما أنّه عالمٌ بإعلانكم و عالمٌ بما تستخفونه باللّيل و ما تفعلونه بالنّهار ظاهراً و الحاصل أنّه بكلّ شيءٍ عليم لا يعزب عن علمه مثقال ذرّةٍ في السّموات و الأرضين فأنّه قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً و هو الكبير المتعال عن مشابهة المخلوقات و هو واضح بحمد اللّه عند أهله.



لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذٰآ أَرٰادَ ٱللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلاٰ مَرَدَّ لَهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وٰالٍ

إختلفوا في الهاء في قوله: **وَلَه**، الى من ترجع فقيل أنّها ترجع على إسم النّبي من قوله أنّما أنت منذرٌ.

و قيل على إسم اللّه في قوله عالم الغيب و الشّهادة، و قيل على من، في قوله من أسرَّ القول و من جهر فكأنّه قال للإنسان معقبّات و أكثر المفسّرين علىٰ أنّها ترجع علىٰ، من، و هو الأخير من الأقوال المذكورة و ذلك لِما تقدّم أنّ من أسرَّ القول و من جهر به و من إستخفىٰ باللّيل و سرب بالنّهار مستوفي في علم اللّه لا يخفى عليه من أحوالهم شيئ فذكر أنّ لذلك المذكور معقبّات أى جماعات من الملائكة تعقب في حفظه و كلاءته و معقّب وزنه مفعل من عقب الرّجل اذا جاء على عقب الأخر لأنّ بعضهم يعقب بعضاً أو لأنّهم يعقبون ما يتكلّمون به فكيتبونه.

و قال الزّمخشري و الأصل معتقباب و أدغمت التّاء في القاف كقوله وجاء المعذّرون يعني المعتذرون و يجوز معقبّات بكسر العين و لم يقرأ به إنتهىٰ.

و أورد عليه بأنّ التّاء لا تدغم في القاف و لا القاف في التّاء و أمّا تشبيهه بقوله و جاء المعذّرون فلا يتعيّن أن يكون أصله المعتذرون.

و أمّا قوله: **ويجوز مُعقبّات** بكسر العين فهو كذلك بناء علىٰ صحّة الإدغام و إلاّ فلا.

و قال الطَّبري إختلف أهل التّأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معناه، لِلّه تعالىٰ معقبّات قالوا، الهاء في قوله لَه، من ذكر إسم اللّه و المعقبّات التّي تتَّعقب علىٰ العبد و ذلك أنّ ملائكة اللّيل اذا صعدت بالنّهار أعقبتها ملائكة النّهار فاذا إنقضى النّهار صعدت ملائكة النّهار ثمّ أعقبتها ملائكة اللّيل و واحد الملائكة معقّب و جماعتها معقبّة ثمّ جمع جمعه أعني جمع معقّب بعد ما جمع معقبّة و قيل معقّبات كما قيل أبناوات سعد و رجالات بني فلان جمع رجال.

و قوله: **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ** يعني من قدّام هذا المستخفي باللّيل و سارب بالنّهار و من خلفه من وراء ظهره ثمّ ذكر في الباب أحاديث كثيرة دالّة على أنّ المراد بالمعقّبات الملائكة يحفظونه من أمر اللّه انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أمّا قوله: أنّ الهاء في قوله **لَه** ترجع الى اللّه فهو أحد الأقوال في المسألة و له وجهٌ و أمّا قوله أنّ معقبّة جمع معقب ثمّ جمعت على معقّبات فهي جمع الجمع كرجل و رجال و رجالات فليس الأمر كما ذكره و ذلك لأنّ معقبّة ليست جمع معقّب علىٰ التّحقيق بل الهاء في معقّبة للمبالغة فيكون كرجل نسّابة فالمعقبّات جمع معقبّة و هي الجماعة التّي تأتي بعد الأخرى جمعت بإعتبار كثرة الجماعات فقوله هي جمع الجمع لا وجه له.

و أمّا أنّ المعقبّات هي الملائكة الحفظة فهو حقّ و أنّما يقال لهم معقبّات لأنّهم يعقّبن أفعال العبد و أقواله فيكتبونها و قيل هم عشرة أملاك على كلّ أدّمي تحفظه من شرّ المهالك و المعاطب فاذا جاء القدر خلّوا بينه و بينه.

قال الرّاغب في المفردات، **لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ** أي ملائكة يتّعاقبون عليه حافظين له هذا ما قالوه في تفسير كلام اللّه.

و قال علّي بن إبراهيم في تفسير قوله: **لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ** الىٰ قوله: **مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ**.

أنّها قُرأت عند أبي عبد اللّه عليه السلام فقال عليه السلام لقارءها ألستم عرباً فكيف تكون المعقبّات من بين يَديه وأنّما المعقّب من خلفه فقال الرّجل جعلت فداك كيف هذا فقال عليه السلام أنّما نزلت، له معقّبات من خلفه ورقيب من بين يَديه يحفظونه بأمر اللّه، و من ذا الّذي يقدر أن يحفظ الشّئ من أمر اللّه و هم الملائكة الموكّلون بالنّاس.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ يقول بأمر اللّه من

أن يقع في ركّي جمع الرُّكية البئر ويقع عليه حائط أو يصيبه شئ حتّىٰ اذا جاء القدر خلُّوا بينه و بينهم يدفعونه الىٰ المقادير و هما ملكان يحفظانه باللّيل و ملكان بالنّهار يتعاقبانه انتهىٰ.

و قال الطّبرسي في مجمع البيان روي عن عليٍّ عليه السلام **يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ**.

و إختلف في المُعقبّات علىٰ أقوال:

أحدها: أنّها الملائكة يتعاقبون تعقّب ملائكة اللّيل ملائكة النّهار و بالعكس و هم الحفظة يحفظون على العبد عمله.

الثّاني: أنّهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتّىٰ ينتهوا به الىٰ المقادير فيخلُّون بينه و بينها عن عليّ عليه السلام انتهىٰ.

إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ ما، في قوله: **مٰا بِقَوْمٍ** كناية عن النِّعم و في قوله: **مٰا بِأَنْفُسِهِمْ** كناية عن النّيات و الأعمال الصّادرة من العباد و المعنىٰ أنّ اللّه تعالى لا يغيّر نعمه التّي أنعم اللّه بها علىٰ العباد سواء كانت من جنس المأكولات و المشروبات و الملبوسات أم كانت من قبيل المعنويات العقلّيات مثل التّوفيقات الإلٰهيّة علىٰ العبادات و أفعال الخيرات وراحة الجسم و الفكر و الأمنّية و الرّفاهية و النّشاط و أمثال ذلك حتّىٰ يغيّروا النّيات و الأعمال فاذا غيّروها و بدّلوها بالشّرور و الأفات و الفساد فاللّه تعالىٰ أيضاً يغيّرها فكأنّ النِّعم الإلٰهيّة بمنزلة المعلول و النّيات والأعمال بمنزلة العلّة.

و من المعلوم أنّ التّغيير في العلّة و السّبب مستلزم للتغيّير في المعلول و المسبب.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرىٰ آمَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**[1].

١- الأعراف = ٩٦

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ**[١].

و عن كتاب معاني الأخبار بأسناده الىٰ أبي خالد الكابلي قال سمعتُ زين العابدين عليه السلام يقول الذّنوب التّي تغيّر النِّعم، البغي علىٰ النّاس، والزّوال عن العادة في الخير، وإصطناع المعروف، و كفران النِّعم وترك الشُّكر قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ** الحديث.

و عن أُصول الكافي بأسناده عَن سُدّير قال سأل رجلٌ أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجّل: **فَقٰالُوا رَبَّنٰا بٰاعِدْ بَيْنَ أَسْفٰارِنٰا وَ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ**[٢] فقال عليه السلام هؤلاء قومٌ كانت لهم قُرىً متّصلة ينظر بعضهم الىٰ بعضٍ و أنهارٌ جارية و أموال ظاهرة فكفروا نعم اللّه عزّ وجلّ و غيَّروا ما بأنفسهم من عافية اللّه فَغيّر اللّه ما بهم من نعمة و إنّ اللّه لا يغيّر ما بقومٍ حتّىٰ يغيّروا ما بأنفسهم فأرسل اليهم سيل العرم فغرق قراهم وخَرب ديارهم و أذهب بأموالهم و أبدلهم مكان جنّاتهم **جَنَّتَيْنِ ذَوٰاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**[٣] ثمّ قال ذلك جزيناهم وهَل نجازي إلاّ الكفور انتهىٰ.

و عن أبي عمرو المدايني عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام أنّ أبي كان يقول أنّ اللّه قضىٰ قضاءً حتماً لا ينعم علىٰ عبده نعمة فيسلبها إيّاه قبل أن يحدث العبد ذنباً يستوجب بذلك الذّنب سلب تلك النِّعمة قول اللّه: **إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ** انتهىٰ.

١- الأنفال = ٥٣   ٢- سباء = ١٩
٣- سبا = ١٦

و ليس معنىٰ الآية أنّه ليس ينزل بأحدٍ العقوبة إلاّ بعد أن يتّقدم منه ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير.

قال بعض المفسّرين لمّا ذكر تعالى إحاطة علمه بخفايا الأشياء و جلاياها و أنّ الملائكة تعقب علىٰ المكلّفين لضبط ما يصدر منهم خيراً كان أو شرّاً ذكر بعد ذلك أنّ ما خوَّلهم فيه من النِّعم و أسبغ عليهم من الإحسان لا يزيله عنهم الى الإنتقام منهم إلاّ بكفر تلك النِّعم و إهمال أمره بالطّاعة و إستبدالها بالمعصية فكان في ذكر ذلك تنبيه علىٰ لزوم الطّاعة و تحذير لوبال المعصية و الظّاهر أن لا يقع تغيّر النِّعم بقومٍ حتّى يقع تغيير منهم بالمعاصي و هذا الموضع مؤوَّل لأنّه صحّ الخبر بما قدّرت الشّريعة من أخذ العّامة بذنوب الخّاصة و بالعكس و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَديدُ الْعِقابِ**[١].

و سؤالهم للرّسول أنُهلك وفينا الصّالحون، قال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم نعم إذا كثر الخبث في أشياء كثيرة فمعنىٰ الآية حتّى يقع تغيير منهم أو من النّاظر لهم أو ممّن هو تسبّب كما غيّر اللّه تعالىٰ المنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرّماة ما بأنفسهم الى غير هذا في أمثلة الشّريعة و في الحديث إذا رأوا الظّالم و لم يأخذوا يديه يوشك أن يعمّهم اللّه بعقابٍ و قيل هذا يرجع الىٰ قوله: **وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**[٢] فبيَّن اللّه تعالىٰ أنّه لا ينزل بهم عذاب الإستئصال إلاّ و المعلوم منهم الإصرار علىٰ الكفر و المعاصي و في، ما، إبهام لا يتغير المراد منها إلاّ بسياق الكلام، هذا.

و قوله: **وَ إِذا أَرادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ** كلمة السُّوء مبالغة في التّخويف و المعنى إذا أراد اللّه بقومٍ من الكفّار أو

١- الانفال = ٢٥
٢- الرعد = ٦

العصاة سوءً، أي عذاباً و نكالاً فلا مرَّد له أي لا يقدر أحد على دفعه و ليس لهم أي لهؤلاء المستّحقين للعذاب من دون اللّه، وال، أي ملجأ أو ليس لهم من ناصرٍ يمنع من عذابه أو يرفعه عنهم فأنّ اللّه تعالىٰ هو الغالب لكلّ شئٍ القاهر لمن يريد قهره، و الوالي فاعل من وليٰ يَلي فهو و ال و وليٰ مثل عالم و عليم و قيل معناه لا يتولاّهم أحد إلاّ اللّه.

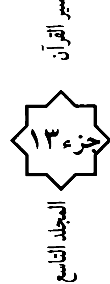
هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ

البرق لمعان السّحاب يقال في كلّ ما يلمع، نحو سيف بارق و يقال في العين إذا إضطربت و جالت قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ**[١] أي إضطربَت و جالَت من الخَوف، و السّحاب جمع و الواحدة، سحابة، و قد تجمع على سحب و سحائب أيضاً وأصل السُّحب الجرَّ كسحب الذَّيل و الإنسان على الوجه.

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ**[٣].

و السّحابة الغيم، و أنّما قيل للغيم السَّحابة لأنّ الرّيح يجرّه أو لجرَّه الماء و قوله ينشئ، الإنشاء إيجاد الشّئ و تربيته فقوله: **يُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ** معناه أنّه تعالى يوجد و يحدث الغيم في الهواء و معنى الآية هو الّذي يريكم البرق في الهواء خوفاً و طمعاً أي خوفاً للمسافر و طمعاً للمقيم.



أمّا المسافر فأنّه يخاف أذاه لما يناله من المطر و الهول و الصّواعق و أمّا الحاضر فأنّه يطمع أن يكون عقيبه مطر و خصب هكذا قيل و به رواية و الحقّ أنّ حمل الآية علىٰ العموم أولىٰ و ذلك لأنّ الخوف من البرق لا يختصّ بالمسافر فأن المقيم أيضاً قد يخاف منه كما أنّ الطَّمع أيضاً لا يختصّ بالمقيم.

١- القيامت = ٧
٢- القمر = ٤٨
٣- غافر = ٧١ / ٧٢

و الحاصل أنّ في البرق خوفٌ و طمعٌ و هذا ممّا لا ينكر، خوفٌ بالنسّبة الى بعضٍ و طمع بالنّسبة الىٰ بعضٍ آخر وقوله: **وَ يُنْشِئُ ٱلسَّحٰابَ ٱلثِّقٰالَ** يدّل علىٰ أنّ المنشئ و الموجد للسّحاب هو اللّه تعالىٰ و هو كذلك لدخولها في الحادثات كغيرها فيها و الحوادث كلّها تستند الى القديم بالذّات كما ثبت في محلّه و وصفها بالثّقال معناه أنّها ثقال بالماء الموجود فيها.

وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ ٱلْمَلاٰئِكَةُ مِنْ خيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ ٱلصَّواٰعِقَ فَيُصيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰآءُ وَ هُمْ يُجٰادِلُونَ فِى ٱللّٰهِ وَ هُوَ شَديدُ ٱلْمِحٰالِ

التَّسبيح تنزيه اللّه تعالى عمّا لا يجوز عليه و التَّنزيه له من كلّ صفةٍ نقصٍ تضاف اليه و أصله البراءة من الشّئ قال الشّاعر:

أقول لمّا جاءني فخرُه ... سُبحان من عَلقمة الغاضِر

أي براءةٌ منه، والرَّعيد قيل هو إصطكاك أجرام السّحاب بقدرة اللّه.

و قال الرّاغب هو صوت السّحاب والمآل واحد لأنّ الصَّوت ينشأ من إصطكاك الأجرام و قيل رعدت السّماء و برقت و أرعدت و أبرقت و يكنّىٰ بهما عن التَّهدد و قال بعضهم الرَّعد إسم مَلَكٍ يزجر السّحاب بالصّوت الّذي يسمع و هو تسبيح اللّه بما يذكره من تعظيمه تعالىٰ والقول الأوّل هو المتّبع إذ لم يثبت لنا ملك سمّي بالرَّعد و علىٰ هذا فالمراد تسبيحه تكويناً لا تشريعاً لأنّ التّسبيح التّشريعي لا يصدر إلاّ من ذوي العقول كتسبيحنا أيّاه و أمّا التّسبيح التّكويني فهو في غير ذوي العقول كالجمادات و الحيونات و النّباتات و منها الأجرام الفلكية ويدّل عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ**[١].

١- الإسراء = ٤٤

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صٰٓفَّٰتٍ**[1].

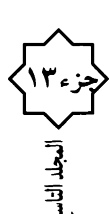
و لنعم ما قيل بالفارسية:

نطق آب و نُطق خاك و نُطق گل هَست محسُوس حواس أهل دل

ما سَميعيم و بصيريم و خوشيم با شما نامحرمان ما خامُشيم

فالمعنى و يسبّح الرَّعد بحمد اللّه كما يسبّح غيره تكويناً و معنى تسبيحه معرفة خالقه و أمّا قوله: **وَ ٱلْمَلٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** أي من خيفة اللّه أي من هيبته و إجلاله و قيل أنّ الضّمير في خيفته يرجع الى الرَّعد بناءً علىٰ كونه ملك فالمعنى أنّ ملك الرَّعد يسبّح بحمده تعالىٰ و الملائكة يسبّحون اللّه من خيفته أي من خوف الرَّعد و أنت ترىٰ أنّ هذا المعنىٰ لا معنى له و علىٰ المختار يرجع الضّمير علىٰ اللّه تعالىٰ أي أنّهم يسبّحونه من خيفته أي أي من خوف اللّه و الفرق بين الخوف و الخيفة أنّ الخيفة صفة للحال و بعبارة أخرىٰ الخيفة الحالة الّتي عليها الإنسان من الخوف من الدّهشة و الإضطراب وفي تخصيص لفظ الخيفة بالذّكر دون الخوف إشعارٌ بأنّ الخوف منهم حالة لازمة لا تُفارقهم وقوله: **وَ يُرْسِلُ ٱلصَّوٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ** فالصَّواعق جمع صاعقة و هي نار لطيفة تسقط من السّماء بحالٍ هائلة من شدّة الرَّعد و عظم الأمر يقال أنّها قد تسقط على النّخلة و سائر الأشجار و تحرقها و علىٰ الحيوان والإنسان فتقتلها.

أقول و في زماننا هذا كثيراً ما تنزل الصّاعقة و تقتل كثيراً من أفراد الإنسان و تحرق كثيراً من الأشجار أعاذنا اللّه منها و قوله: **فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ** أي نصيب بالصّاعقة من يشاء اللّه تعالى و ذلك لأنّ الصّاعقة أو غيرها من الهائلات السّماوية تحت قدرة اللّه فلا محالة يصيب بها من يشاء كما أنّ الزّلزلة أيضاً كذلك.



۱- النّور = ۴۱

وَ هُمْ يُجٰادِلُونَ فِى اَللّٰهِ وَ هُوَ شَدِيدُ اَلْمِحٰالِ قال بعض المفسّرين أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعث الىٰ جبّار من العرب ليسلم فقال أخبرني عن إلٰهة محمّد من لؤلؤ هو أم من ذَهب فنزلت عليه صاعقة و نزلت الآية فيه.

و قال مجاهد ناظر يهودي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبينما هو كذلك نزلت صاعقةً فأخذت قحف رأسه فنزلت الآية و قال إبن جريح سبب نزولها قصّة أربد بن ربيعة و عامر بن الطّفيل و ذكر قصّتها المشهورة و مضمونها أنّ عامراً توصَّد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا لم يجبه الىٰ ما طلب و أنّه و أربد راما الفتك به فعصمه اللّه تعالى و أصاب عامراً بغدّة فمات غريباً و أربَد بصاعقة فقتلته قال أخوه لُبيد و هو يرثي أخاه:

أخشىٰ علىٰ أربد الحتوف ولا أرهب نوء السّماك والأسد
فجعني البرق والصّواعق بالفا رس يوم الكريهة النّجد

و الحاصل أنّ هذه الأمور العجيبة أعني البرق، و إنشاء السّحاب الثَّقال و تسبيح الرَّعد و الملائكة و إرسال الصّواعق الّتي أشار اللّه اليها في الآية تدلّ على القدرة الباهرة و التّصرف التّام في العالم العلوي و السّفلي فالمتّصف بها و القادر علىٰ إنشائها و إيجادها ينبغي أن لا يجادل فيه فالضّمير في **وَ هُمْ يُجٰادِلُونَ** عائد علىٰ الكفّار المجادلين المكّذبين للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المنكرين للأيات الّذين يجادليون في قدرة اللّه علىٰ البعث و إعادة الخلق بقولهم: **مَنْ يُحْيِ اَلْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ** و في وحدّانيته بإتّخاذ الشّركاء و الأنداد و نسبة التّوالد اليه بقولهم الملائكة بنات اللّه فيصير محصّل معنىٰ الآية أنّ الّله عزّ وجلّ لإتّصافه بهذه الأوصاف الّتي لا يتّصف بها أحد ينبغي أن يوَّحد و ينفي الشّريك عنه.

و أمّا قوله: **وَ هُوَ شَدِيدُ اَلْمِحٰالِ** فالجملة حالّية من الجلالة أي والحال أنّه شديد المحال بكسر الميم و هو قراءة الجمهور.

فعن إبن عبّاس أنّه العداوة و عنه في روايةٍ أخرىٰ أنّه الحقد.

و عن مجاهد أنّه القوّة.

و عن قطرب الغضب و عن الحسن الهلاك بالمحلّ و هو القحط.

و قرأ الضّحاك و الأعرج المحال بفتح الميم و هو الحول و قيل الحيلة، و الحقّ نّه الأخذ بالعقاب و عليه فالمعنىٰ أنّه شديد العقاب واللّه أعلم.

و إعلم أنّ الميم في **المحال** أصليّة فهو من قولهم، **مَحَل** به **مَحَلاً** **ومحالاً** اذا أراده بسوء.

و أمّا من قال أنّه من الحول و الحيلة فالميم فيه زائدة.

لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبٰاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمٰآءِ لِيَبْلُغَ فٰاهُ وَ مٰا هُوَ بِبٰالِغِهِ وَ مٰا دُعٰآءُ ٱلْكٰافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاٰلٍ

الدَّعوة بفتح الدّال الدُّعاء إلاّ أنّها مختصّة بإدّعاء النّسبة وصلها للحالة الّتي عليها الإنسان نحو القعدة و الجلسة و الظّاهر أنّ قوله: **دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ** مبتدأ و **لَه** خبر قدّم عليه ليفيد الحصر نحو في الدّار زيدٌ فالمعنى أنّ دعوة الحقّ ينحصر به تعالىٰ و دعوة غيره كائناً ما كان باطلة عاطلة و ذلك لأنّ الدَّعوة إمّا للحقّ وإمّا للباطل و لا ثالث في المقام لإستحالة إرتفاع النَّقيضين.

و قد مرَّ الكلام في معنى الحقّ غير مرّةٍ و قُلنا أنّ الحقّ ما لا سبيل للبطلان اليه لأنّه ثابت لا يتغيّر و لا يتبدلّ و لذلك لا يطلق الحقّ بقول مطلق إلاّ علىٰ اللّه تعالىٰ اذ هو الموجود الّذي لا سبيل للبطلان اليه كما قيل:

ألا كلّ شيءٍ ما خَلا اللّه باطلُ   وكلّ نعيم لا محالة زائلُ



و اذا كان كذلك فكلّ دعوةٍ لغيره تعالىٰ باطل لأنّ الغيرً مخلوق و هو لا يقدر على شيءٍ من قبل نفسه و إن شئت قلت أنّه باطلٌ في ذاته و الىٰ ما ذكرناه أشير في الأيةً، له دعوة الحقّ أي للّه تعالىٰ: **دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** أي من دون اللّه كائناً ما كان باطلٌ لا يستجيبون لهم أي لهؤلاء الكفّار

بشئ لا يستجيبون لهم دعاء و لا يسمعون لهم نداء قالوا المراد به الأصنام و الأوثان الّتي كانوا يعبدونها ثمّ ضرب اللّه لهذا الحكم مثلاً فقال: **إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ** ضَرَبَ اللّه لهم هذا المَثل ليأسهم من الإجابة لدعاءهم لأنّ العرب تضرب لمن سعىٰ فيما لا يدركه مثلاً بالقابض بالماء باليد قال الشّاعر:

فصبحت فيما كان بيني وبينها ... مِن الوُّد مثل القابض الماء باليد

قيل في معنىٰ هذا المثَل ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّ الذّي يدعو إلٰهاً من دُون اللّه كالظّمأن الّذي يدعو الماء الىٰ فيه من بعيد يريد تناوله و لا يقدر عليه بلسانه و يشير اليه بيده فلا يأتيه أبداً لأنّ الماء لا يستجيب و ما الماء ببالغ اليه قاله مجاهد.

الثّاني: أنّه كالظّمأن الذّي يرىٰ خياله في الماء و قد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه و ما هو ببالغه لكذب ظنّه و فساد توهّمه قاله إبن عبّاس.

الثّالث: أنّه كباسط كفَّه الىٰ الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفَّه شئ منه.

و زعم الفرّاء أنّ المراد بالماء هاهنا البئر لأنها معدن للماء و أنّ المثل كمن مدَّ يده الىٰ البئر بغير رشاء و شاهده قول الشّاعر:

فأنّ الماء ماء أبي وجدّى ... وبئري ذو حفرت وذو طويت

و قد نقل القُرطبي بعد نقله ما نقلناه عنه، عن علّي عليه السلام أنّه قال في معنى المثل، هو كالعطشان علىٰ شفة البئر فلا يبلغ قعر البئر و لا الماء يرتفع اليه و معنىٰ إلاّ كباسط، إلاّ كإستجابة باسط كفَّيه الىٰ الماء فالمصدر مضاف الىٰ الباسط ثمّ حذف المضاف اليه و فاعل المصدر المضاف و هو الماء مرادٌ، المعنىٰ إلاّ كإجابة باسط كفَّيه الىٰ الماء واللاّم في قوله: **لِيَبْلُغَ فَاهُ** متّعلقة بالبسط و قوله: **وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ** كناية عن الماء أي و ما الماء ببالغ فاه ويجوز أن يكون كناية عن الفم أي ما الفَم ببالغ الماء والذّي نفهم من المثَل هو أنّه أي قوله: **إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ** الخ هو يأسهم من الإجابة لدعاءهم ما أنّ باسط كفَّيه

الى الماء ليبلغ فهو ببالغه، كذلك أي مأيوس من شُرب الماء واذا كان الماء لا يمكن تناوله فأيّ فائدة في وجوده للظّمأن إلاّ حسرة النَّظر و هكذا عبدة الأصنام و الأوثان بل كلّ من يدعوا غير اللّه فأنّ الغير لا يستجيب له بشيئ و لا ينفعه اذا إحتاج اليه فأيّ فائدة في وجوده بالنّسبة الىٰ الدّاعي فهو كالعدم و ما كان كذلك لا ينبغي للعاقل أن يتوجّه اليه و يعتني به فضلاً عن عبادته فمن عبد ما لا يستجيبه اذا دعاه كمن بسط كفَّيه الىٰ الماء و لم يصل الىٰ شربه مع أنّه يشير الى الماء بيده ليصل الى فمه و لكنّه لا يستجيب لأنه جماد لا يشعر ببسط كفَّيه و لا بعطشه و حاجته اليه.

هذا اذا قلنا أنّ المراد بقوله من دونه الأوثان و الأصنام، و أن قلنا بالعموم أي جميع ما سواه كذلك فهو أيضاً حقّ فأنّ رفع الحاجة و إستجابة الدَّعوة من شئون الواجب المتعال و لا يقدر أحد ممّا سواه عليه، فتخصيص الكلام بالأصنام و الأوثان لا وجه له اذ ليس الكلام في العبادة فقط بل الكلام في الدّعوة و الإستجابة مطلقاً و من المسلّم المقطوع عند العقلاء أنّ غيره تعالىٰ لا يقدر علىٰ قضاء الحوائج و لا علىٰ إستجابة الدَّعوات و رفع الحاجات.

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعٰآءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجٰابُوا لَكُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**[٥].

١- النّمل = ٦٢ ٢- فاطر = ١۴
٣- غافر = ٦٠ ۴- الأعراف = ١٩۴
٥- الأعراف = ١٩٧

و الأيات كثيرة و الأمر أوضح من أن يخفى على عاقلٍ، فالتّشبيه في الكلام من المرّكب التّمثيلي حيث شبّه حال الأصنام في عدم إستجابتها دعاء المشركين بحال الماء الواقع بمرأى من العطشان الذّي يبسط اليه كفّه يطلب منه أن يبلغ فاه وينفعه من إحتراق كبده و وجه الشّبه عدم إستطاعة المطلوب منه إجابة الدُّعاء و خيبة الطّالب عن نيل ما هو أحوج اليه من المطلوب و هذا كما ترىٰ منتزعٌ من عدّة أمور وذها يسمّىٰ بالمرّكب التّمثيلي.

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ مٰا دُعٰآءُ ٱلْكٰافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلاٰلٍ** أي ليس دعاءهم الأوثان من دون اللّه إلاّ الإضلال عن الحقّ و عدولاً عن طريقه و أنّه جارٍ مجرىٰ ما ذكره من باسط كفّيه الىٰ الماء و هو بعيدٌ منه من غير أن يتناوله و يدعوه الىٰ فمه فأنّ ذلك لا يصل اليه أبَداً و قد حكى اللّه تعاعفهم حيث قال: **أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا**(١).

و لمّا ذكر اللّه تعالىٰ في الآية أنّ لَه دَعوة الحقّ والذّين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئٍ الخ أشار الىٰ أنّ من له دعوة الحقّ هو الّذي ينبغي أن يُعبَد و يدعى و هو اللّه تعالىٰ فقال: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْآصٰالِ** اللّه عَلَم علىٰ الأصّح للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكمالّية و لهذا لا يطلق على غيره و اللاّم في، **لِلّٰه**، للإختصاص أي أنّ السُّجود مختّص به و هو في الأصل التّطامن و التذلّل و جعل ذلك عبارةٌ عن التّذلل و هو عامّ في الإنسان و الحيوان و الجماد و النّبات و ذلك ضربان، سجودٌ بإختيار و ليس ذلك إلاّ للإنسان و به يستحقّ الثّواب، و سجودٌ بالتّسخير و هو للإنسان و الحيوان و النّبات و الآية إشارة الىٰ هذا القسم من السّجود بدليل قوله كرهاً فهذا السّجود المشار اليه في الآية لا يختصّ بالإنسان بل هو عامٌّ لجميع الموجودات

١- الأعراف = ٣٧

السّماوية و الأرضيّة والوجه فيه هو أنّ جميع من في السّموات و الأرض مخلوقون له تعالى أخرجهم من العدم الىٰ الوجود و المخلوق خاضعٌ خاشعٌ لخالقه قهراً لأنّه رشحٌ من رشحات وجود الخالق محتاج اليه في جميع الشّئون فلا محالة يتّطامن و يتذلّل له علم به أو لم يعلم شاء أو لم يشاء لأنّه مسخّرٌ تحت قدرته مقهور في قاهرّيته و لا نعني بالتّذلل إلاّ هذا.

و حيث أنّ هذا الأصل أعني به الإحتياج و المسخّرية جارٍ في جميع الموجودات السّماوية و الأرضيّة فصَّح أن يقال: **لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا** أي بالإختيار كالإنسان أو بغيره كغيره و قد يعبّر عنه بالسّجود التّكويني كما يعبّر عن السّجود المختصّ بالإنسان بالسّجود التّشريعي أو التّكليفي و الىٰ ما ذكرناه في معنى السّجود التّسخيري.

أشار بعض المحقّقين حيث قال و هو الدّلالة الصّامتة النّاطقة المنّبهة على كونها مخلوقة و أنّها خلق فاعل حكيم.

و أمّا قوله: **وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْأٰصٰالِ** فالظّلال جمع ظلّ و هو ستر الشّخص ما بأزاءه و منه الظّلة لأنّها ساترة و الإصال جمع أصل و الأصل جمع أصِيل و هو العشّي و قيل هو ما بين العصر الىٰ الغروب، و ظلالهم، يجوز أن يكون معطوفاً علىٰ، من، و يجوز أن يكون مرفوعاً بالإبتداء و الخبر محذوف و التّقدير و ظلالهم سجّداً بالغدّو و الإصال، **والغُدّو** بضمّ الغين والدّال يجوز أن يكون مصدراً و يجوز أن يكون جمع غداة و هو الأقوىٰ فأنّها مقابلة الجمع الذّي هو الإصال اذا عرفت هذا فنقول:

معنىٰ الكلام أنّ ظلال الخلق ساجدة لِلّه تعالىٰ بالغُدّو والإصال لأنّها تبين في هذين الوقتين و تميل من ناحية الىٰ ناحيةٍ و ذلك تصريف اللّه إيّاها علىٰ ما يشاء و هو كقوله تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ ٱلشَّمٰآئِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ**[١].

١- النّحل = ٤٨

و قد أجمع المفسّرون علىٰ أنّ قوله: **وَ ظِلَالُهُمْ** الخ معطوف علىٰ من في السّموات والأرض أي وللّه يسجد من في السّموات و الأرض طوعاً و كرهاً و تسجد ظلالهم بالغدّو والإصال أمّا سجود من في السّموات والأرض تكويناً أو تسخيراً فواضح لا خفاء فيه كما بيَّناه.

و أمّا سجود ظلالهم بالغدّو و الإصال فلغموضه إختلفوا فيه فقال مجاهد ظلّ المؤمن يسجد طوعاً و هو طائع و ظلّ الكافر يسجد كرهاً و هو كارهٌ.

و قال إبن الأنباري، يجعل للظّلال عقول تسجد بها و تخشع بها كما جعل للجبال أفهام حتّى خاطبت و خوطبت.

و ردَّ عليه القيشري بأنّ الجبل عينٌ فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة و أمّا الظّلال فأثار و أعراض و لا يتصوّر تقدير الحياة لها و السّجود بمعنى الميل فسجود الظّلال ميلها من جانبٍ الىٰ جانبٍ يقال سجدت النَّخلة اذا مالت انتهىٰ.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير الكلام و أنت ترى أنّه لا يرجع الىٰ محصّلٍ.

أمّا أوّلاً: فلأنّا لا نفهم معنى السّجود في الظّل و المفروض أنّ الظّل تابعٌ لِذي الظِّل فاذا فرضنا تحقّق السّجود من صاحب الظِّل طوعاً أو كرهاً كما هو كذلك بنصّ الآية فلامحالة يتحقّق السّجود التّكويني للظِّل أيضاً و لا حاجة الى تخصيصه بالذّكر فأنّ الظّل ليس شيئاً قائماً بذاته بل هو تابع لغيره وجوداً و ما كان وجوده تابعاً لغيره فهو تابع له في جميع شئونه و بعبارةٍ أخرىٰ ما يحكم به علىٰ ذي الظِّل من القيام و القعود و الحركة و السُّكون و غيرها يحكم على الظّل بحكم المتابعة فاذا قال اللّه تعالىٰ: **لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا.**

فأن قلنا أنّ المراد بقوله: **مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** الموجودات الّتي لها جسم فالظِّل خارج عنها قطعاً و أن قلنا أنّ المراد به الأعمّ من الجسم و غيره فالظِّل داخل تحت العموم قطعاً فما وجه تخصيصه بالذّكر هذا كلّه مضافاً

الى أنّ المعطوف لابدّ أن يكون مغايراً للمعطوف عليه و إلاّ يلزم عطف الشّئ على نفسه و هو من تحصيل الحاصل و الظِّل لا يكون مغايراً للجسم إلاّ من جهة الجسميّة و مع قطع النَّظر عنها فهو هو بعينه.

و اذا كان كذلك فما تثبت للجسم ثبت للظِّل أيضاً و قد فرضنا بثبوت السّجود للجسم فهو ثابت للظِّل فما معنىٰ العطف أوّلاً و تخصيصه بالذّكر ثانياً.

و أمّا قولهم يجعل للظِّلال عقول تسجد بها كما جعل للجبال، فهو كلامٌ باطلٌ عاطلٌ لا يساعده العلم و لا ينبغي للعاقل أن يلتفت اليه و هكذا قول الحسن أمّا ظلّك فيسجد للّه و أمّا أنت فتكفر به، لا معنى له و أظنّ أنّ قائل هذا الكلام أيضاً لم يفهم ما قال.

و محصّل الكلام أنّ الظِّل ليس بشئٍ حتّىٰ يحكم عليه بالإستقلال يحكم عليه بما يحكم به على متبوعه و العجب من الرّازي حيث نقل هذه الأقوال المخالفة للعقول و لم يتعرّض لها بشئٍ من الجواب.

فقد نقل عن مجاهد أنّه قال ظلّ المؤمن يسجد للّه طوعاً و هو طائع و ظلّ الكافر يسجد كرهاً و هو كاره، و لم يتفكّر فيه أنّه كيف يعقل هذا و هكذا غيره من الأقوال الّتي إخترعوها من عند أنفسهم في تفسير كلام اللّه.

و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم **مَن فَسَّر القرأن برَأيه فليَتَبَوأ مَقعَده من النّار**، و هذا الّذي ذكروه من التّفسير بالرّأي و حيث إنجّر الكلام الىٰ اليأس عن حلّ الإشكال و لم أجد في التّفاسير من العامّة و الخاصّة من تعرّض للإشكال و أجاب عنه و أنّما نقلوا في تفاسيرهم ما لا يسمن و لا يغني كما عرفت لا بأس بالإشارة الىٰ ما حقّقه بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية تكميلاً للبحث و تثبيتاً لليأس قال.

و أمّا قوله: **وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ اَلْاٰصٰالِ** ففيه إلحاق ظلال الأجسام الكثيفة بها في السّجود فأنّ الظّل و أن كان عدمياً من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النُّور إلاّ أنّه له أثاراً خارجيّة و هو يزيد و ينقص في طرفي النّهار و يختلف



إختلافاً ظاهراً للحسّ فله نحوٌ من الوجود و أثاره يخضع في وجوده و آثار للّه و يسجد له و هي تسجد للّه سجدة طوع في جميع الأحيان و إنّما خَص الغدوة و الآصال بالذّكر لا لما قيل أنّ المراد بهما الدّوام و ساق الكلام الىٰ أن قال بل النّكتة فيه أنّ الزّيادة و النُّقيصة دائمتان للأظلال في الغداة و الأصيل فيمثّلان للحّس السّقوط علىٰ الأرض و ذلّة السّجود و أمّا وقت الظّهيرة و أوساط النّهار فربّما إنعدمت الأضلال فيها أو نقصت و كانت كالسّاكنة لا يظهر معنىٰ السّجدة منها ذلك الظّهور و لا شكّ أنّ سقوط الأظلال على الأرض و تمثيلها لحروز السّجود منظورٌ اليه في نسبة السّجود الى الأظلال في تَفَيأوها وليس النّظر مقصوراً علىٰ مجرّد طاعتها التّكوينية في جميع أحوالها و أثارها و الدّليل على ذلك قوله: **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ**[1].

فأنّ العناية بذلك ظاهرة فيه، انتهىٰ نقل موضع الحاجة من كلامه و أن أردت الإطّلاع على تفصيل ما ذكره فعليك بمراجعة تفسيره[2].

و أنت بعد التّأمل في كلامه تعلم أنّه‌ؒ لم يأت بشيٍ جديد في تفسير كلام اللّه فأنّ ما ذكره‌ؒ و حقّقه بزعمه ليس إلاّ ما ذكروه في تفاسيرهم و الفرق هو إختلاف العبادات و تغيير الألفاظ فأنّ قوله، فله نَحو من الوجود دو أثاره يخضع في وجوده و أثاره الخ فهو أوّل الكلام و على المدّعي الإثبات فأنّ ما ذكره ليس إلاّ مجرّد الدَّعوى و نحن نقول لا وجود له مستقّلاً فلا تثبت لها أثار فأنّ الوجود الظِّلي لا أثَر له إستقلالاً فهو في وجوده و أثاره تابع لغيره فاذا سجد الجسم سجد الظِّل ولَيس في المقام سجودان أحدهما للجسم و الثّاني للظِّل.

أن قلت فما معنىٰ الكلام.

قُلت معناه،لا أدَري واللّه تعالىٰ أعلم بما قال و الآية من المتشابهات التّي

١- النّحل = ٤٨
٢- الميزان ج ١١ ص ٣٢٢

أمرنا فيها بالرّجوع الى الرّاسخين في العلم و هم الائمّة الأطهار و لم نجد منهم نصّاً فيها بعد التّفتيش و التّفحيص.

و من المعلوم أنّ عدم الوجدان لا يدّل على عدم الوجود فلا يبعد أن يصل غيرنا الى ما لم نصل اليه أو فهم منها شيئاً لم نفهمه بعد التّأمل و التدبّر فكم ترك الأوّائل للأواخر فنحن في المقام من المتّوقفين والحمد للّه ربّ العالمين.

قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللّٰهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمٰى وَ ٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمٰاتُ وَ ٱلنُّورُ

قال الزّمخشري في قوله: **قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللّٰهُ** هو حكاية لإعترافهم وتأكيدٌ له عليهم لأنّه اذا قال لهم من ربّ السّموات والأرض لم يكن لهم، بدٌّ، من أن يقولوا اللّه، كقوله: **قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ ٱلسَّبْعِ وَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ**[1] و هذا كما يقول المناظر لصاحبه أهذا قولك، فاذا قال هذا قولي قال قولك إقراره تقريراً له عَليه ثمّ يقول له فيلزمك علىٰ هذا القول كيت و كيت ويجوز أن يكون تلقيناً أي أن عجزوا عن الجواب فلّقنهم فأنّهم يتّلقونه و لا يقدرون أن ينكروه انتهىٰ كلامه.

و قال بعضهم معناه قل يا محمّد للكفّار من ربّ السّموات والأرض إستفهام تقرير و إستنطاق بأنّهم يقولون اللّه فاذا قالوها قل اللّه أي هو كما قلتم.

و قيل فأن أجابوك و إلاّ قل اللّه اذ لا جواب غير هذا.

و قال البغوي روي أنّه لمّا قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا أجب أنت فقال قل اللّه.

و قال بعض المفسّرين هذا خطاب من اللّـه لنبيّه يأمره بأن يقول لهؤلاء

١- المؤمنون = ٨٦



الكفّار من ربّ السّموات و الأرض، أي من مدبّرهما و مصرّفهما علىٰ ما فيهما من العجائب فأنّهم لا يمكنهم أنّ يدّعوا أنّ مدّبر السّموات و الأرض الأصنام الّتي يعبدونها فاذا لم يمكنهم ذلك فقل لهم ربّ السّموات و الأرض و ما بينهما من أنواع الحيوان و النّبات و الجماد اللّه تعالىٰ، فاذا أقرُّوا بذلك فقل لهم على وجه التّكبيت لهم و التّوبيخ لفعلهم.

أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا هذاما قالوه في تفسير الكلام و لم يبيّنوا الوجه فيه و هو أنّه لم لابدّ لهم أن يقرُّوا بأنّ ربّهما هو اللّه اذ من المحتمل أن لا يقرُّوا بذلك و عليه فلا معنىٰ لقوله قل أفاتّخذتم من دونه أولياء، ضرورة أنّه يصّح هذا القول بعد الإقرار بأنّ الرَّب هو اللّه و المفروض عدم إقرارهم به اذا رفت هذا فنقول لا شكّ أنّ السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات على أقسامها وأصنافها لها وجود في الخارج وهو من المحسوسات فلا يحتاج الىٰ إقامة برهان لأنّ إنكاره يرجع الى إنكار المنكر وجوده في نفسه و من المعلوم أنّ الموجود لا ينكر وجوده فأنّ ثبوت الشّيءلنفسه ضروريٌّ.

فاذا ثبت وجود السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات فلا محالة لها موجدٌ و خالقٌ أخرجها من العدم الى الوجود و ذلك لأنّهما و ما فيهما من الممكنات و الممكن نسبته الى الوجود والعدم علىٰ حدٍّ سواءٍ فيحتاج في خروجه عن حدّ الإستواء الى الوجود الىٰ مخرج مرجّح اذ المفروض تساوي نسبته الىٰ الطّرفين فلو خرج بنفسه الى الوجود يلزم التّرجيح بلا مرّجح و هو غير معقول و نعبّر عن المخرج المرجّح بالخالق الموجد فثبت أنّ السّموات و الأرض و ما بينهما لإمكانهما لهما خالق أوجدهما ثمّ أنّ الخالق لا يمكن أن يكون من سنخ المعدومات لأنّ العدم لا يعقل أن يكون موجداً و لا من سنخ الممكنات لأنّ الكلام في الخالق الممكن هو الكلام في مخلوقه فيلزم التّسلسل الىٰ ما لا نهاية له و قد ثبت في العلوم العقليّة بطلانه.

و اذا لم يكن الخالق الموجد من سنخ المعدومات و لا من سنخ الممكنات فلا محالة يكون واجب الوجود و هو اللّه تعالىٰ و بعبارةٍ أخصر لو كان الخالق ممكناً يلزم التّسلسل الباطل فلا محالة يكون واجباً و هو اللّه تعالى و هو المطلوب و هذا هو الوجه في كونهم مقرّين بأنّ ربّ السّموات و الأرض و ما بينهما، اللّه تعالىٰ، و ليس لهم أن ينكروه لأنّ إنكارهم يرجع الى إنكار وجودهم لو كانوا يعقلُون.

و إن شئت قلت لابدّ لهم في مقام الجواب إمّا السّكوت، و إمّا الإقرار بأنّ الخالق هو اللّه و على هذا ينبغي أن يقال لهم.

أَفَاتَّخَذْتُم مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا

فالإستفهام للتّوبيخ و الإنكار و المعنى بعد ما علمتم أنّه تعالى هو ربّ السّموات و الأرض تتّخذون من دونه أولياء و تتركونه فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبباً للتّوحيد من علمكم و إقراركم عند التّأمل و الإجتناب عن العناد، سبباً لِلإشراك و هذا عجيبٌ.

ثمّ وصف اللّه تعالىٰ تلك الأولياء بصفة العجز وهي كونها لا تملك لأنفسها نفعاً و لا ضّراً و ذلك لأنّ جلب المنفعة أو دفع المضّرة يتوقّف على أمرين:

أحدهما: تشخيص المنفعة و المضّرة.

ثانيهما: القدرة على جلب المنفعة أو دفع المَضرة، و هٰؤلاء الأصنام و الأوثان لا عقل لها لأنّها جمادات فلا تشخيص لها لأنّه متفرّع علىٰ العقل و لا قدرة لها كذلك فإذاً ثبت و تحقّق أنّها لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضرّاً، فكيف يعقل أنّهم يملكون لمن يعبدهم نفعاً أو ضرّاً.

و قد ثبت أنّ معطي الشّيْ لا يكون فاقداً له، و من لا يملك لنفسه و لا لغيره نفعاً و لا ضّراً فهو كالمعدوم الّذي لا ينبغي أن يلتفت اليه فكيف يعبده من يدّعي العقل فأنّ العاقل لا يعبد من لا عقل له ثمّ أمر اللّه نبيّه أن يقول لهٰؤلاء الكفّار **هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَ ٱلنُّورُ**.



الإستفهام في الموضعين للإنكار، أي ليس كذلك والوجه فيه هو أنّ الأعمى و البصير و كذلك الظُّلمة و النُّور ضّدان فأنّ الأعمىٰ من لا بصر له و الظُّلمة ما لا نور له وهما لا يجتمعان أي لا يمكن أن يكون الشّيئ بصيراً و أعمى و لا ظلمة و نوراً و قد ثبت أنّ إجتماع الضّدين و النّقيضين محال و إذا كان كذلك فليسا بمتساويين بل يلزم من تحقّق أحدهما نفي الآخر إذا ثبت هذا فنقول ربّ السّموات و الأرض بصير و نور و ما يعبدونه من الأصنام أعمىٰ و ظّلمة، أمّا أنّه تعالىٰ بصيرٌ فلأنّه أعطى البصر لغيره و معطي الشّيئ لا يكون فاقِداً له فهو أيضاً بصير و قد وصف نفسه بذلك في كثير من الأيات كما لا يخفى و أمّا أنّه نور فلقوله.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَنْ يَشَآءُ**[2].

و عند حكماء الأشراق النُّور حقيقة الوجود و لذلك يعّبرون عن الواجب تعالىٰ بنور الأنوار و إنّما قالوا ذلك لوحدة خاصّيتها و هي الظُّهور بالذّات و المظهر للغير فكما أنّ حقيقة الوجود بذاته و غيرهما موجود بها كذلك حقيقة النُّور فأنّ النُّورانية ذاتّية لها و غيرها منوّرٌ بها و لعلّه لذلك فسرّ قوله: **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**ألخ بأنّه منوّر السّموات و سيأتي الكلام في تفسير أية النّور إنشاء اللّه فثبت و تحقّق أنّ ربّ السّموات و الأرض هو البصير و هو النّور، و أمّا الأصنام و الأوثان الّتي كان الكفّار يعبدونها فليست كذلك لأنّ الصَّنم لا يبصر و لا ينوّر و ما لا يبصر فهو أعمىٰو ما لا نور له فهو ظلمة و إلاّ يلزم إرتفاع الضّدين أو النَّقيضين و كلاهما محال واذا كان الصَّنم من مصاديق الأعمىٰ والظُّلمة فلا ينبغي أن يعبد لأنّهما أمران عدَّميان فأنّ الظّلمة عدم النُّور و الأعمى عدم البصر فلا وجود لهما في الخارج فمن عبد الصَّنم عبد العدم في الحقيقة هذا أوّلاً.

١- النّور = ٣٥
٢- النُّور = ٣٥

ثانياً: نقول لا شكّ أنّ الوجود خيرٌ و العدم شرّ فمن كان بصيراً فهو خير و من كان أعمىٰ فهو شرّ لعدم البصر فيه و لا شكّ أنّ الأثار مترتّبة علىٰ الوجود أمّا العدم فلا أثر له فالبصير خير من الأعمى و هكذا في النُور و الظّلمة و صورة القياس، أنّ اللّه تعالىٰ بصير عقلاً و نقلاً و كلّ بصير خيرٌ من أعمىٰ فهو خير من أعمىٰ.

و هكذا يقال اللّه تعالىٰ نور و كلّ نورٍ خير من ظلمة فهو خير فيها معنى قوله.

هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَ ٱلنُّورُ.

و من المعلوم أنّ العاقل يختار البصير لا الأعمىٰ والنُور لا الظّلمة التّي لا أثر لها.

■

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿۱۶﴾ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَ ٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿۱۷﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿۱۸﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴿۱۹﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ﴿۲۰﴾ وَ ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ﴿۲۱﴾ وَ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً وَ يَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿۲۲﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ ٱلْمَلَائِكَةُ



يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

◀ اللّغة

ٱلْقَهَّارُ مبالغة في القَهر أي يقهر كلّ قادرٍ سواه.

أَوْدِيَةٌ جمع وادى.

زَبَدًا الزَّبد و ضر الغليان و هو خبث الغليان ومنه زبد القدر و زبد البعير

جُفَآءً ممدود مثل الغثاء يقال ربا يربو فهو راب و منه الرّبا المحرّم.

يَدْرَءُونَ أي يدفعون يقال درأته عنه أي دفعته.

◀ الإعراب

أَوْدِيَةٌ جمع وادٍ بِقَدَرِهَا صفة لأودية عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ متعلّق بيوقدون ٱبْتِغَآءَ مفعول له او مَتَاعٍ معطوف على حلية زَبَدٌ مبتدأ و مِثْلُهُ صفة له والخَبَر ممّا يوقدُون وجُفَآءً حالٌ و همزته منقلبة عن واوٍ و قيل هي أصل لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا مستأنف و هو خبر لْحُسْنَى ٱلَّذِينَ يُوفُونَ يجوز أن يكون نصباً بإضمار أعني جَنَّاتُ عَدْنٍ هو بدلٌ من عقبىٰ و قيل هو مبتدأ و يَدْخُلُونَهَا الخبر وَ مَنْ صَلَحَ في موضع رفعٍ عطفاً علىٰ ضمير الفاعل و يجوز أن يكون نصباً بمعنىٰ، مَع سَلَامٌ أي يقولون سلامٌ.

◀ التّفسير

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ

أم، في قوله: أَمْ جَعَلُوا قيل هي منقطعة تتقدّر ببل والهَمَزة و التقدّير بل

أهل تستوي وهل، و أن نابت عن همزة الإستفهام في كثير من المواضع فقد جامعتها في قول الشّاعر:

أَهَل رأونا بوادي القَفر ذِي الأَكَم

و اذا جامعتها مع التَّصريح بها فلأن تجامعها مع أم المتَّضمنة لها أولىٰ وهل، بعد أم المنقطعة يجوز أن يؤتىٰ بها لشبهها بالأدوات الإسمّية التّي للإستفهام في عدم الإصالة فيه كقوله تعالىٰ: **أَمْ مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ**[1] ويجوز أن لا يؤتىٰ بها بعد أم المنقطعة لأنّ، أم، تتضَّمنها فلم يكونوا ليجمعوا بين أم والهَمزة لذلك و قال الشّاعر في عدم الإتيان بها بعد، أم، والإتيان بها بعدها:

هل ما علمت وما إستودعت مكتوم أم حبلها إذا نأتك اليوم مصرومُ

أم هل كبيرٌ بكى لم يقض عبرته إثر الأحبّة يوم البَين مشكومُ

ثمّ إنتقل من خطابهم الىٰ الأخبار غائباً إعراضاً عنهم و تنبيّهاً علىٰ توبيخهم في جعل شركاء للّه و تعجيباً منهم و إنكاراً عليهم و تضّمن هذا الإستفهام التَّهكم بهم لأنّه معلوم بالضّرورة أنّ هذه الأصنام ما إتخّذوها من دون اللّه أولياء و جعلوهم شركاء لا تقدر علىٰ خلق ذرّةٍ و لا إيجاد شئ ألبتّة والمعنىٰ أنّهم أي الشُّركاء هل خلقوا شيئاً حتّىٰ يستحقّوا العبادة، و جعلهم شركاء لِلّه أي جعلوا شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق اللّه فتشابه ذلك عليهم فيعبدونهم و من المعلوم أنّهم لا يقدرون علىٰ خلق شئٍ فكيف يشركون في العبادة.

و قال في التّبيان ما هذا لفظه، ثمّ قال هل جعلوا يعني هؤلاء الكفّار لِلّه شركاء في العبادة خلقوا أفعالاً مثل خلق اللّه من خلق الأجسام و الألوان و الطُّعوم و الموت و الحياة و الشّهوة و النفّار و غير ذلك من الأفعال الّتي تختصّ باللّه فإشتَّبه ذلك عليهم فظَّنوا أنّها تستحقّ العبادة لأنّ أفعالها مثل أفعال اللّه

١- يونس = ٣١

فإذا لم يكن ذلك شبيهاً بل كان معلوماً لهم أنّ جميع ذلك ليست من جهة الأصنام فقل لهم، اللّه خالق كلّ شئ أي هو خالق جميع ذلك يعني ما تقدّم من الأفعال الّتي يستحقّ بها العبادة انتهىٰ كلامه.

و قال البيّضاوي، **أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَآءَ** أي بل أجعلوا و الهمزة للإنكار و قوله خلقوا كخلقه، صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار، فتشابه الخلق عليهم، أي خلق اللّه و خلقهم و المعنىٰ أنّهم ما إتّخذوا لِلّه شركاء خالقين مثله حتّىٰ يتشّابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق اللّه فأستحقّوا العبادة كما إستّحقها و لكنّهم إتّخذوا، شركاء عاجزين لا يقدرون علىٰ ما يقدر عليه الخلق فضلاً عمّا يقدر عليه الخالق انتهىٰ كلامه.

أقول الحقّ أنّ الآية مرتبطة بما قبلها و لعلّهما آيةٌ واحدة إلاّ أنّهم لمّا وقفوا على قوله، و النُّور، جعلوها آيتين و حاصل المعنى أنّ الإستفهام إنكاريّ أي لا يستوي الأعمى و البصير و لا الظّلمات و النُّور و لا من خلق كمن خلق و حيث قد ثبت أنّ اللّه تعالىٰ هو البصير والنُّور و الخالق و الأصنام هي الّتي تتّصف بالعمىٰ و الظّلمة و المخلّوقية فلاجرم يكون المعبود الحقيقي هو اللّه تعالىٰ فقوله: **أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَآءَ** الخ معناه أنّ الشّركاء لم يخلقوا خلقاً حتّى تشابه الخلق علىٰ الكفّار و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلم إتخذّوها معبودين و في قوله: **قُلِ ٱللّٰهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ** إشارة الىٰ أنّ المعبود الحقيقي هو الّذي خلق جميع الأشياء و منها الأصنام و الكواكب و الشّمس و غيرها و لا يكون مخلوقاً لغيره و من كان كذلك فهو المعبود.

و أمّا المخلوق كائناً من كان فهو محتاج الى خالقه فكيف يكون معبوداً:

قال اللّه تعالىٰ: **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ**[2].



١- الأعراف = ١٩١ ٢- النّحل = ٢٠

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**[٣].

و أمثال هذه الأيات كثيرة ويستفاد من جميعها أنّ المخلوق لا يكون معبوداً و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهّارُ** فالقهّار مبالغة في القهر و الغلبة أي هو الّذي يقهر كلّ قادرٍ سواه لا يقدر على إمتناعه منه و الواحد هو الّذي لا ثاني له و المعنى أنّ اللّه تعالىٰ هو الواحد الّذي لا ثاني له ذاتاً و صفةً و هو القاهر الغالب على كلّ ما سواه ففي هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ الّذي يستحقّ أن يكون معبوداً، ينبغي أن يكون متّصفاً بصفة الخالّقية و القّاهرية و هو منحصر به تعالى و أمّا غيره فهو مخلوق و مقهور أي محتاجٌ و ضعيف و هو كما ترىٰ.

وأعلم أنّ الشّيخ‌ قدس‌سره ذكر في تفسيره لهذه الآية عن القائلين بالجبر ما هذا لفظه قال، و من تعلّق من المجبّرة بقوله: **قُلِ اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** علىٰ أنّ أفعال العباد مخلوقة للّه تعالىٰ، فقد أبعد، لأنّ المراد بذلك ما قدّمناه من أنّه تعالى خالق كلّ شيٍ يستحقّ بخلقه العبادة دون ما لا يستحقّ به ذلك ولو كان المراد ما قالوه لكانَ فيه حجّة للخلق علىٰ اللّه تعالى و بطل التّوبيخ الّذي تضمّنته الآية الىٰ من وجّه عبادته الىٰ الأصنام لأنّه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو اللّه علىٰ قول المجبّرة فلا توبيخ يتوجّه علىٰ الكفّار و لا لوم يلحقهم بل لهم أن يقولوا أنّك خلقت فينا ذلك فما ذنبنا فيه و لم توّبخنا على فعلٍ فعلته فتبطل فائدة الآية انتهى موضع الحاجة من كلامه.

١- الفرقان = ٣
٢- النّحل = ١٧
٣- الحجّ = ٧٣

و الأحسن في الجواب أن يقال أن كان مرادهم بقولهم أفعال العباد مخلوقة للّه تعالىٰ، أنّها مخلوقة له تعالىٰ بلا واسطة العبد فمن المعلوم أنّه ليس كذلك ضرورة أنّ الفعل فعل العبد بشهادة العقل و العرف ألا ترىٰ أنّ القاتل يحكم عليه بالقصاص ولم يقل أحد بأنّ اللّه هو القاتل و هكذا في جميع الأفعال الصّادرة من العبد، و إن، كان مرادهم أنّها مخلوقة بواسطة العبد بمعنى أنّ اللّه خلق العبد و العبد فعل كذا و كذا ففعل العبد فعله بواسطة العبد إذ لو لم يخلق العبد لما فعل و أن شئت قلت خالق السّبب هو خالق المسَّبب في الواقع.

فنقول هذا يتّم أن يكن بين العبد وفعله واسطة و هي الإختيار كما إذا كان الفعل من لوازم وجود العبد بحيث لا يمكن إنفكاك الملزوم عن اللاّزم و من المعلوم أنّ الأمر ليس كذلك هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول أنّ قوله تعالىٰ: **قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ** المراد بالخالّقية، هُو أنّه تعالىٰ خالق كلّ شيٍ علىٰ وجه الإختراع و الإبتداع و الخالقّية بهذا المعنىٰ تنحصر فيه، و أفعال العباد ليست مخلوقة له تعالىٰ بهذا المعنى كما مرّ بيانه.

أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

أي أنزل اللّه تعالىٰ من السَّماء ماءً و المراد بالماء قيل هو الأمطار و الغيوث النّازلة من السَّماء علىٰ الأرض و المنزل هو اللّه تعالىٰ و الأودية جمع واديالموضع الّذي يسيلُ فيه الماء ومنه سمّي المفرج بين الجبلين وادياً أودية مثل نادٍ و أندية و ناج و أنجية و معنى قوله: **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**أي بقدر مياهها.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَكُمْ**[١].

١- البقرة = ٢٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**[١].

و أمّا قوله: **فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا** فالإحتمال رفع الشّيئ علىٰ الظّهر بقوّة الحامل له و الحقّ أنّ إحتمل بمعنى حمل كإقتدر و قدر أي و حمل السَّيل زبداً رابياً، و الزبد و ضر الغليان و هو خبث الغليان و منه زبد القدر و زبد السَّيل، و قوله: **رَابِيًا** أي منتفخاً عالياً علىٰ وجه السَّيل ومنه الرَّبوة والرّبا في الأصل الزّيادة و الزَّبَد بالفارسية (كَف) رابياً، يعني كف روي آب فالمعنىٰ أنّ السَّيل يحمل زبداً عالياً ثمّ أنّه تعالىٰ ضرب مثلاً آخر وقال: **وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ** الإيقاد جعل النّار تحت الشّيئ ليذوب، و في النّار، حال من الضّمير في عليه و من الّذي يوقد النّاس عليه حال كونه ثابتاً في النّار و هو يعمّ الفلزّات و الفلّز بكسر الفاء و اللاّم و تشدّيد الزّاي جوهر الأرض قيل هي الأجساد السّبعة المعدّنية الّتي تذاب و هي الذّهب، و الفضّة، و الحديد، و الآنك، و الزّئبق، و الصفّر و قيل غير ذلك و المقصود كلّ ما يذّاب وقوله: **ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ** مفعول له أي طلب زينةٍ فأنّ أكثر الزّين من الذّهب و الفضّة، أو متاع، عطف علىٰ حليةٍ و هو ما يتّمتع به أي ينتفع به كالنّحاس و الحديد و الرّصاص يذّاب فيتّخذ منه الأواني و آلات الحروب و الحرث، زبدٌ مثله، قوله: **مِثْلُهُ** صفة زبد أي و منه ينشأ زبدٌ مثل زبد الماء يعلو عليه إذا أذيب و هو لاخبث علىٰ أن تكون، من، إبتّدائية، أو بعضه زبد مثله علىٰ أن تكون تبّعيضة **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَ ٱلْبَاطِلَ** قوله: **كَذَٰلِكَ** في محلّ النّصب أي مثل ذلك الضّرب و البيان والتّمثيل يضرب اللّه الحقّ و الباطل، أي يبيّنهما و يمثلهما **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً** الجُفاء بضمّ الجيم كغراب و معناه الباطل، أي فيذهب باطلاً.

١- البقرة = ١٦٤

و قيل أي جموداً و قال أبو عبيدة قال أبو عمرو، تقول العرب أخبأت القدر إذا غلت فأنصب زبدها و سكنت فلا يبقىٰ منه شئ و الجفاء ممدود مثل الغثاء و أصله الهمز وَ **أَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ** كالماء والفِلّز **فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ** أي يبقىٰ و لا يذهب فينتفع به النّاس: **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ** لإيضاح المشتبهات و الأمثال جمع مثل و هو القول الدّائر بين النّاس و التّمثيل أقوىٰ وسيلةٍ الىٰ تفهيم الجاهل هذا تفسير ألفاظ الآية.

وأعلم أنّ اللّه تعالىٰ في هذه الآية مَثّل الحقّ في الثّبات والنّفع بالماء النّافع و بالفلّز الّذي ينتفعون النّاس به في صوغ الحلي منه و إتّخاذ الأمتعة المختلفة و شبّه الباطل في سرعة زواله و قلّة نفعه بالزَّبد الضّائع أي بزبد السَّيل الّذي يرمى به و بزبد الفلّز الّذي يطفو فوقه إذا أذيب فالزّيد و أن علا الماء فهو يفنىٰ و ينمحق و كذا الباطل و أن علا الحقّ في بعض الأحوال فأنّ اللّه سيمحقه ويُبطله و يجعل العاقبة للحقّ و أهله كما قيل للحقّ دولة و للباطل جولة،صولة.

قال صاحب الكشّاف هذا مثل ضربه اللّه للحقّ و أهله و الباطل و حزبه كما ضَرَب الأعمىٰ و البصير و الظّلمات و النّور مثلاً لهما فمثّل الحقّ و أهله بالماء الّذي ينزله من السَّماء فتسيل به أودية النّاس فيحيون به و ينفعهم أنواع المنافع و بالفلّز الّذي ينتفعون به في صوغ الحلي و إتّخاذ الأواني و الآلات المختلفة و لو لم يكن إلاّ الحديد الّذي فيه البأس الشّديد لكفى به، و أنّ ذلك ماكث في الأرض باقٍ بقاءٌ ظاهراً يثبت الماء في منافعه و تبقى آثاره في العيون و الآبار و الجيوب و الثّمار الّتي تنبت به ممّا يدخّر و يكنز و كذلك الجواهر تبقىٰ أزمنةً متطاولةً، و شبَّه الباطل في سرعة إضمحلاله و إنسلاخه على المنفعة بزبد السَّيل الّذي يرمىٰ به و بزبد الفِلز الّذي يطفو فوقه إذا أذيب انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.



و قال بعضهم هذا مثل ضربه اللّه للقرآن و ما يُدخل منه في القلوب فشَّبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه وشبّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخُل في الأودية بحسب سعتها وضيقها.

قال صاحب سوق العروس إن صحّ هذا التّفسير فالمعنىٰ فيه أنّ اللّه تعالىٰ مثل القرآن بالماء و مثّل القلوب بالأودية و مثَّل المحكم بالصّافي و مثّل المتشابه بالزَّبد نقله القرطبي في تفسيره.

و قال الشّيخ في التّبيان وقوله: **كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ** أي يضرب اللّه مثل الحقّ و الباطل بالماء الّذي ينزل من السَّماء و بجواهر الأرض فأنّ لهما جميعاً زبداً، هذا عند سيله و جريه، و هذا عند إذابته بالنّار و هو و سخه و خبثه فالحقّ الثّابت كالماء الّذي يبقى في الأرض ينبت به الزَّرع و الشّجر و كالجواهر الّتي في أيدي النّاس تصبر علىٰ النّار فلا تبطل فينتفعون بها و الباطل كزبد هذين يذهب لا منفعة فيه بعد أن يرىٰ له حركة و إضطراب و في ذلك تنبيهٌ لمن تقدّم ذكره من المشركين الّذين سألوا الأيات علىٰ سبيل التّكذيب و العناد انتهىٰ.

أقول لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ ضرب في الآية مثلين.

أحدهما: للحقّ و الآخر للباطل و الدّليل عليه قوله: **كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَ ٱلْبَاطِلَ** فجعل الماء الصّافي الّذي يبقىٰ في الأرض و ينتفع النّاس به و الجواهر الّتي في أيدي النّاس للإنتفاع بها مثلاً للحّق و الزّبد الطّاري علىٰ الماء في جريان السَّيل و علىٰ الجواهر بعد الإذابة، للباطل فكما أنّ الزّبد لا دوام له و لا بقاء بل لا وجود له في قبال وجود الماء و الجوهر واقعاً و أن كان موجوداً ظاهراً كذلك لا دوام للباطل بل لا وجود له واقعاً و في نفس الأمر إذ هو في معرض الفناء و الدّثور فالباقي هو أصل الماء والجوهر كما أنّ الباقي هو الحقّ فقط و لذلك فسّروا الحقّ بالثّابت العين الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل أو ما لا

سبيل للبطلان اليه و الحقّ المطلق هو اللّه تعالىٰ و ما سواه باطل عاطل، كما قيل:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا اللّه باطلُ وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ،وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً**[٤].

و غيرها من الأيات الدّالة على أنّ الحقّ يبقىٰ و الباطل يفنىٰ إذا ثبت هذا فنقول الحقّ بقولٍ مطلق هو اللّه تعالى لأنّه الثّابت الّذي لا يتغّير و لا يتبدّل و هو الّذي لا زوال له و هكذا كلامه أعني به القرآن و دينه و هو الإسلام و بالجملة كلّ ما ينتسب اليه تعالىٰ فهو حقّ و ما ليس كذلك فهو باطل و حيث أنّه تعالىٰ أنزل الماء و أوجد الجوهر فهما أيضاً داخلان في الحقّ و لذلك ضرب اللّه المثل بها نعم أنّهما منسوبان للحقّ و أمّا بحسب ذاتهما فهما باطلان لأنّهما في معرض الفناء.

و مُحصّل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالىٰ حَقٌّ و ما سواه باطل بحسب الذّات فلا موجود في عالم الوجود واقعاً إلاّ هو و ما سواه كالزّبد الطّاري علىٰ الماء و الجوهر فالدّنيا و ما فيها من النّعم كلّها لا بقاء لها فلا يعتمد عليها والىٰ هذه الدّقائق أشار اللّه بقوله في آخر الآية **كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثالَ** و أن شئت قلت كما أنّ الموجود في الخارج هو الماء والجوهر والزّبد طارٍ عليهما كذلك أصل الموجود للحقّ و الباطل طارٍ عليه والطّاري يفنى لحدوثه و المطرُّو عليه يبقىٰ لوجوبه و ثبوته هذا ما فهمناه من الآية واللّه أعلم.

١- الرّحمٰن = ٢٦ / ٢٧
٢- لقمان = ٣٠
٣- الأنفال = ٨
٤- الإسراء = ٨١

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمِهَادُ

الحسنىٰ بضمّ الحاء ضدّ السُّوآي، العاقبة الحسنة.

قال في المفردات و الفرق بين الحسن و الحسنة و الحسنى أنّ الحسن يقال في الأعيان و الأحداث و كذلك الحسنة إذا كانت وصفاً وإذا كانت إسماً فمتعارفٌ في الأحداث، و الحسنى لا يقال إلاّ في الأحداث دون الأعيان انتهىٰ.

أقول وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال المرء المسلم البريئ من الخيانة ينتظر من اللّه إحدىٰ الحسنيين أي إحدىٰ العاقبتين اللّتين كلّ واحدةٍ منهما حسنى العواقب و هما النّصر و الشّهادة.

و قال المفسّرون أراد اللّه تعالىٰ بالحسنى الجنَّة و الخلود في نعيمها، فمعنىٰ قوله: **لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ** أنّ الّذين يجيبون دعاء اللّه الى طرق التّوحيد و العمل بشريعته و تصديق نبيّه و يطلبون مرضاته في أفعالهم و أقوالهم، لهم الحسنىٰ أي لهم حسن العاقبة أو لهم الجنّة و ذلك لأنّهم أطاعوا ربّهم في أوامره و نواهيه فتختم عاقبتهم بالخير و الّذين لم يستجيبوا له أي لم يجيبوا داعي اللّه فلم يقرّوا بتوحيده و شريعته **لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَ مِثْلَهُ** أي لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ملكاً لهم و يضيفوا اليه مثله في الكثرة لأفتدوا بجميع ذلك أنفسهم من عذاب النّار و طلبوا به الخلاص منه لو قبل ذلك منهم و الإفتداء جعل أحد الشّيئين بدلاً من الآخر على وجه الإتقاء به فهؤلاء لا يَقيهم من عذاب اللّه شئ، و لهم سوء الحساب.

قيل في معناه هو مؤاخذة العبد بذنبه لا يغفر له شئ.

و قيل أخذه به علىٰ وجه التّوبيخ و التّقريع و الحساب إحصاء ما علىٰ العبد و له: **وَ مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمِهٰادُ** المهاد الفراش الّذي يوّطأ لصاحبه و المعنىٰ مكانهم النّار و بئس الفراش هو.

و قال صاحب الكّشاف في قوله: **لِلَّذِينَ ٱسْتَجٰابُوا** اللاّم متعلّقة بيضرب في قوله: **كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللّٰهُ ٱلْأَمْثٰالَ** أي كذلك يضرب اللّه الأمثال للمؤمنين الّذين إستجابوا لرّبهم و للكافرين الّذين لم يستجيبوا أي هما مثلاً الفريقين و الحُسنىٰ صفة لمصدر إستجابوا أي إستجابوا الإستجابة الحسنىٰ و قوله: **لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ** كلام مبتدأ في ما أعدَّ لغير المستجيبين و قيل قد تمّ الكلام عند قوله: **كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللّٰهُ ٱلْأَمْثٰالَ** و ما بعده كلام مستأنف و الحسنى مبتدأ، خبره للّذين إستجابوا و المعنىٰ لهم المثوبة الحسنىٰ و هي الجنّة انتهى كلامه.

أقول المشهور عن المفسّرين هو الوقف علىٰ الأمثال وقوله: **لِلَّذِينَ ٱسْتَجٰابُوا** الخ كلام مستأنف فما ذكره في تفسير الآية لا يعتمد عليه مضافاً الىٰ أنّ قوله تعالىٰ: **لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ** الخ لا يناسب ما ذكره.

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰٓ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ

الإستفهام في قوله: **أَفَمَنْ يَعْلَمُ** للإنكار أي ليس كذلك أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ المؤمن باللّه و رسوله و هو الّذي يعتقد أنّ الكتاب المنزّل على الرّسول أعني به القرآن حقّ لا مرية فيه ليس كمن هو أعمىٰ أي أعمى القلب و هو كناية عن الكفر و الإنكار و الحاصل أنّ المؤمن ليس كالكافر قطعاً أنّما يتذّكر ذلك و يفّكر فيه و يستدّل به ذوو العقول و المعرفة و الألباب جمع لُبّ و هو العقل الخالص عن شوائب الأوهام.

قال بعضهم أنّما شبّه العلم بالبصر و الجهل بالعمىٰ لأنّ العلم يهتدي به الىٰ طريق الرّشد من الغيّ كما يهتدي بالبصر الىٰ طريق النّجاة من طريق الهلاك و عكس ذلك الجهل و الغيّ قيل أنّها نزلت في حمزة و أبى‌جهل و قيل في عمّار و أبى جهل و كيف كان ففي الآية إشعار بل دلالة علىٰ أنّ العالِم بالشّئ لا يكون كالجاهل به فالمراد بالأعمىٰ، ليس فاقد البصر بل المراد فاقد البصيرة و لذلك قابله بالعلم و نظائرها كثيرة في القرآن:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ ٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كانَ فاسِقًا لا يَسْتَوُونَ**[٢].

وأعلم أنّ الذّكر يقال و يراد به هيئة لِلنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ إلاّ أنّ الحفظ يقال إعتباراً بإحرازه والذّكر يقال إعتباراً بإستحضاره و هو قد يكون عن نسيانٍ و قد يكون لا عن نسيانٍ بل عن إدامة الحفظ و أنّما خصّ الذّكر في الآية بأولي الألباب لأنّ التّذكر لا يكون إلاّ لذي لبّ قد خلص من قشر غواشي النشّأة كما أنّ النسّيان أنّما يحصل بسبب الغواشي و لذلك قال بعض العرفاء في معنىٰ قوله: **إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ** أي لا يقبل نصح القرآن و لا يعمل به إلاّ ذوو العقول الصّافية من معارضة الوهم أعني بهم من إستخرجت عقولهم من قشور آفات الحوّاس و الوهم و الخيال المؤّيدة بتجلّي أنوار الجمال و الجلال فأنّ طالب الحقّ لابدّ له في التذكّية، مِن، التفّكر ثمّ التّذكر و بينهما فرق فأنّ التذّكر فوق التّفكر لأنّ التّفكر طلب و التّذكرة وجود يعني أنّ التّفكر لا يكون إلاّ عند فقدان المطلوب و أمّا التّذكر فعند رفع الحجاب و خلوص الخلاصة الإنسّاينة من قشور صفات النّفس والرّجوع الى الفطرة الأولىٰ فيتذّكر ما إنطبع في النّفس في الأزَل من.

التّوحيد و المعارف بعد النّسيان انتهىٰ كلامه.

١- الزّمر = ٩

٢- السّجدة = ١٨

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثٰاقَ

قوله: **ٱلَّذِينَ** في موضع الرّفع لأنّه صفة لأولي الألباب فكأنّه قال **إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ، ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللّٰهِ وَ لا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثٰاقَ**

العَهد حفظ الشّيء و مراعاته حالاً بعد حالٍ و سمّي الموثق الّذي يلزم مراعاته عهداً و أمّا عهد اللّه فقد يقال أنّه عبارة عمّا ركزه اللّه تعالىٰ في عقولنا و تارةً يكون بما أمرنا به، بالكتاب و بالسنة رسله و تارةً بما نلتزمه في أصل الشّرع كالنذُّور و ما يجري مجراها و لأجل ذلك إختلفوا في تفسير قوله **بِعَهْدِ ٱللّٰهِ**.

فقال بعضهم أنّه ما عهد اليهم في القرآن.

و قال قتادة ما عهد اليهم في الأزل و هو قوله: **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ** وقال القفال ما في جبّلتهم وعقولهم من دلائل التّوحيد والنُّبوات.

و قيل في الكتب المتقدّمة والقرآن، و قيل المأخوذ علىٰ ألسنة الرُّسل، الإيمان باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر الىٰ غير ذلك من الأقوال الّتي لا فائدة في نقلها بعد وضوح المعنى فأنّ الظّاهر هو إضافة العهد الىٰ الفاعل أي بما عَهد اللّه و الظّاهر عموم العهد و تخصيصه بما ذكروه لا دليل عليه بعد ما ثبت وجوب العمل به في أصل الشّرع:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلاً**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ ٱتَّقىٰ فَإِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيّٰاىَ فَارْهَبُونِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: وَ ٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا[٥] **والأيات كثيرة جدّاً يستفاد منها وجوب الوفاء بالعهد بقولٍ مطلق فقد ورد في الخبر أنّه**

١- الإسراء = ٣٤
٢- النّحل = ٩١
٣- آل عمران = ٧٦
٤- البقرة = ٤٠
٥- البقرة = ١٧٧

قيل لعلّي بن الحسين عليه السلام أخبرني بجميع شرائع الدّين فقال عليه السلام قولٌ بالعدل و الوفاء بالعهد للبّر والفاجر هذه جميع شرائع الدّين.
و قال الصّادق عليه السلام ثلاثة لم يجعل اللّه تعالى لأحدٍ مِن النّاس فيهنّ رخصة منها الوفاء بالعهد للبّر والفاجر ثمّ أنّ المراد بعهد اللّه هنا أعمّ من النّذر واليمين و العهد المصطلح بل يندرج في ذلك جميع ما عهد اللّه تعالىٰ الىٰ خلقه من التّكاليف.
و قد ورد في عدّة أخبار كثيرة أنّه لمّا أمر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم النّاس بالسّلام علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام بإمرة المؤمنين فقال له أبو بكر حين أمره صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، منِ اللّه أو مِن رسوله فقال له النّبي صلى الله عليه وآله وسلم نِعم مِن الّه ومن رسوله ثمّ قال له صلى الله عليه وآله وسلم عمر، من اللّه أو من رسوله فقال له صلى الله عليه وآله وسلم من اللّه و من رسوله فقاما و سلّما فخرجا و هما يقولان لا و اللّه لا نسّلم له أبداً فأنزلت أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها[١].

و قد وصف اللّه المؤمنين بقوله: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ**[٢] و المقصود أنّ الآية المبحوثة عنها في المقام لا تختصّ بالمشركين فقط كما زعم القوم فأنّ خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى كيف رأينا أكثر المسلمين نقضوا عهد اللّه و عهد رسوله في غدير خمّ فمن وفى بعهد اللّه فهو من أُولي الألباب الذّين يوفون بعهد اللّه مثل سلمان و مقداد و أبىذرّ و من لم يف كأكثر المسلمين المنافقين فهم لم يكونوا من أولي الألباب و سيأتي تفصيل الكلام في العهد و الميثاق في موضعٍ أخر إن شاء اللّه.

وَ ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مٰآ أَمَرَ ٱللّٰهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسابِ

١- النحل = ٩٢
٢- المومنون = ٨

الواو للعطف فهذه الآية معطوفة على الأولى و هي أيضاً من صفات المؤمن أي أنّهم يوفون بعهد اللّه و لا ينقضون ميثاقه و مع ذلك يصلون ما أمر اللّه به أن يوصل الخ ففي الآية وصفهم اللّه بأوصاف ثلاثة:

أحدها: **يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ**.

ثانيها: أنّهم **يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**.

ثالثها: **يَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ**

أمّا الوصف الأوّل: فقد ذهب بعض المفسّرين الىٰ أنّ المراد به صِلة الأرحام.

و قيل المراد به صلة الرّسول بالإيمان به.

و قيل صلة الإيمان بالعمل.

و قيل صلة قرابة الإسلام بإنشاء السّلام و عيادة المرضى و شهود الجنائز و مراعاة حقّ الجيران و الرّفقاء والأصحاب والخدم.

و قيل المراد نصرة المؤمنين و الحقّ أنّ المراد به كلّ ما أمر اللّه به في كتابه و على لسان نبيّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و التّخصيص لا دليل عليه، و الوصل ضدّ الفصل يقال وصله وصلاً و أوصله إيصالاً و إتّصل إتّصالاً و هو في الأصل ضمّ الثّاني الىٰ الأوّل من غير فاصلةٍ.

نعم ما ذكروه في تفسير الكلام من مصاديق العامّ و لا بأس به فأنّ صلة الأرحام و عيادة المريض و مراعاة حقوق الإنسان و أمثالها ممّا أمر اللّه به أن يوصل بل نقول يدخل في الآية جميع الواجبات و المستّحبات و يخرج منها جميع المحرّمات و المكروهات فأنّ الأحكام الشّرعية لا تخلو من هذين القسمين أعني بهما الفعل و التَّرك.

و أمّا قوله: **يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** أي أنّهم يخافون ربّهم و الفرق بين الخوف و الخشية أنّ الخشية خوفٌ يشوبه تعظيمٌ و أكثر ما يكون ذلك من علمٍ بما

يخشىٰ منه و لذلك خصّ العلماء بها في قوله: **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَآ** و لذلك يطلق الخوف علىٰ الحيوان و الإنسان و أمّا الخشية فلا تطلق إلاّ علىٰ الإنسان و قد مدح اللّه تعالىٰ المؤمنين الّذين يخشون ربّهم في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ ٱللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَآ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشٰى**(٤).

و غيرها من الأيات والّذي ينبغي الإلتفات اليه هو أنّ الخشيّة للمؤمن لا تتّحقق إلاّ عن المعرفة فأنّ من لا يعرف اللّه لا يخشىٰ منه فمن عرف اللّه خشيه لا يخشىٰ من غيره اذ لا عظمة لغيره تعالىٰ حتّى يخاف منه لعظمته و اذا كان كلذلك فالعبد لا يخشىٰ إلاّ ربّه والىٰ هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَخْشَى ٱلنَّاسَ وَ ٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰيهُ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلاٰ تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَ ٱخْشَوْنِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِاٰيَاتي ثَمَنًا قَليلاً**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ**(٧) وهكذا.

و ذمّ اللّه تعالىٰ من خشِي النّاس كخشية اللّه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِذاٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**(٨).

١- البيّنة = ٨
٢- النُّور = ٥٢
٣- فاطر = ٢٨
٤- النّازعات = ٢٦
٥- الأحزاب = ٣٧
٦- المائدة = ٤٤
٧- الأحزاب = ٣٩
٨- النّساء = ٧٧

و أمّا قوله: **يَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ** أي يخافون مناقشة الحساب و قيل هو مؤاخذة العبد بذنبه لا يغفر له شئ منه و أنّما قال و يخافون سوء الحساب و لم يقل و يخشون سوء الحساب لما ذكرناه في الفرق بين الخوف و الخشية و أنّ العظمة مخصوصة به تعالىٰ و ما سواه كائناً ما كان لا عظمة له في جنب عظمته.

وَ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ

هذه الآية أيضاً عطف علىٰ ما سبق و فيها أيضاً مدح اللّه المؤمنين بأُمورٍ:

أحدها: الصَّبر.

ثانيها: إقامة الصّلٰوة.

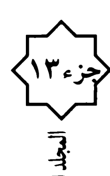
ثالثها: الإنفاق.

رابعها: رفع السّيئات بالحَسَنات.

خامسها: أنّ لهم عقبىٰ الدّار.

فأشار الىٰ الأوّل: و هو الصَّبر بقوله: **وَ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**

الصَّبر الإمساك في ضيقٍ يقال صبرتُ الدّابة حبستها بلا علف و هو في الإنسان حبس النّفس على ما يقتضيه العقل و الشّرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه فالصَّبر لفظٌ عامّ و ربّما خولف بين أسماءه بحسب إختلاف مواقعه فأن كان حبس النّفس لمصيبةٍ سمّي صبراً على المصيبة و يضادّه الجزع و أن كان حَبس النّفس علىٰ الطّاعة والإنقياد.



سُمّي صبراً علىٰ المعصية و أن كان في محاربةٍ سمّي بشجاعة و أن كان في إمساك الكلام سمّي كتماناً و أن كان في نائبةٍ مضجرة سمّي رحب الصَّدر و هكذا و قد سمّى اللّه تعالىٰ كلّ ذلك صبراً و لا شكّ في مدحه بأقسامه و

الأيات والأخبار الواردة في الباب كثيرة لا نحتاج الىٰ ذكرها والإشارة اليها لوضوحها و أنّها لا تخفى علىٰ أحدٍ و قد فسَّره علماء الأخلاق بثبات النّفس و عدم إضطرابها في الشّدائد و المصائب بأن تقاوم معها بحيث لا تخرجها عن سعة الصَّدر و ما كانت عليه قبل ذلك من السُّرور و الطُّمأنينة فيحبس لسانه عن الشّكوى و إغصاءه عن الحركات الغير المتعارفة و يظهر من ذلك أنّ أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصَّبر و لذلك لمّا سأل رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الإيمان قال صلّى الله عليه وآله وسلّم هو الصَّبر لأنّه أكثر أعماله و أشرفها كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم الحجّ عزمٌ، و قد عرّف مطلق الصَّبر بأنّه مقاومة النّفس مع الهوى و بعبارةٍ أخرى أنّه ثبات باعث الدّين في مقابلة الهوى.

و المراد بباعث الدّين هو العقل النَّظري الهادي الى طريق الخير و الصّلاح و العقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدّية الىٰ الفوز و الفلاح.

و المراد بباعث الهوى هو قوّة الشّهوة الخارجة عن إطاعة العقل، و القتال دائماً بين الباعثين قائمٌ و الحرب بينهما أبداً سجال، و قلب العبد معركته و مدد باعث الدّين من الملائكة و مدد باعث الهوى مِن الشّياطين ثمّ أنّ الصَّبر متىٰ تيَّسر و صار ملكة راسخة أورث مقام الرّضا و اذا أدام مقام الرّضا أورث مقام المحبَّة.

قال بعض العارفين أهَل الصَّبر على ثلاث مقامات:

الأوّل: ترك الشّكوى و هذه درجة التّائبين.

الثّاني: الرّضا بالمقدّر و هذه درجة الزّاهدين.

الثّالث: المحبّة لما يصنع به مولاه و هذه درجة الصّديقّين.

و من المعلوم أنّ هذا الإنقسام مخصوص بالصَّبر على المكروه من المصائب و المحن ثمّ أنّ الباعث على الصَّبر إمّا إظهار الثُّبات و طمأنينة القلب عند النّاس ليكون عندهم مرضّياً موصوفاً بالصَّبر كما نقل عن معاوية أنّه أظهر البشاشة و ترك الشّكوىٰ في مرض موته ليعدّ عند أهل الشّام من الصّابرين فقال:

وتــجَّلدي للشّــامتين أُريــهم أنّي لريب الدَّهر لا أتـضعضع

و هذا صبر العوامّ و هم الذّين يعملون ظاهراً مـن الحـياة الدّنـيا و هـم عـن الأخرة هم غافلون.

أو توَّقع الثّواب و نيل الدَّرجات الرّفيعة في دار الأخرة و هذا صبر الزّهاد و المتَّقين، أو الإلتذاذ و الإبتهاج بورود المكـروه مـن اللّـه سـبحانه و أن كـان مـا يؤذيه إبتلاءً و إمتحاناً له و هذا صبر العارفين اذا عرفت الصَّـبر و أقسـامه و مـا يترتّب عليه من المدح عقلاً و نقلاً فقد علمت أنّ الصَّبر اذا لم يكن للّه و كـان لأجل حصول بعض الأغراض والدَّواعي فهو خارج عن البحث.

و الى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالىٰ في الآية بقوله: **وَ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** فأنّ الإبتغاء الطّلب و المعنى والّذين صبروا بجميع أقسام الصَّبر و كانوا يطلبُون به رضا الرَّب لا غيره من الأغراض و هذا هو المقصود في المقام و المعدود مِن أوصاف المؤمنين.

وأمَا الوَصف الثّانى: لهم فقد أشار اليه بقوله: **وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ** قيل المراد بإقامة الصّلاة إتيانها بجميع شرائطها و بعبارةٍ أخرىٰ أقـاموها بـحدودها و قـيل معناها أداموا علىٰ فعلها و الأوّل أولى و أصَّح كما هو واضح عند التّأمل.

و أنّما خصّ الصّلاة بالذّكر دُون غيرها منها لأنّها عمود الدّين إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردَّ ما سواها، و لأنّـها مـعراج المـؤمن و لأنّـها تـنهى عـن الفحشاء و المنكر و لأنّ الصّلاة من المفروضات الّتي لا تسقط بحالٍ لا في سفرٍ و لا في حضر و لا في صورة نسيان و لا في صحّةٍ و لا في مرضٍ حتّى الغريق و المطارد فلا يتركاها بل يأتيان بها كيف تيَّسر وكذا لا تسقط عـن الشّيخ الكـبير بخلاف غيرها من المفروضات فأنّها قد تسقط فـي بـعض الأحـوال كـالصّوم بالنّسبة الىٰ الشّيخ الفاني و الحجّ و الزّكاة فأنّهما من المفروض المشروط.

و قد ورد من ترك الصّلاة عمداً فقد كفر، و مع ذلك فـهي أوّل واجبٍ مـن

المفروضات في الشّريعة علىٰ ما قيل و الأخبار في فضلها و ما يترتّب عليها من الأثار في الدّنيا و الأخرة كثيرة و للبحث فيها مقام أخر.

وأمّا الوَصف الثّالث: و هو الإنفاق فقد أشار اللّه تعالىٰ اليه بقوله: **وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً** قال الرّاغب في المفردات، نفق الشّئ مَضىٰ و نفذ، و الإنفاق في الحقيقة الإنفاذ و هو ممدوحٌ عقلاً و شرعاً فأنّ ضدّه البخل و الإمساك و هو مذموم بلاكلام و قد ثبت أنّ الأشياء تعرف بأضدادها فاذا كان البُخل مذموماً فالإنفاق الّذي ينشأ من الجود ممدوح و كفى في إثباته أطباق العقلاء من جميع الفرق على حسنه و مدحه مضافاً الى الأيات و الأخبار الواردة فيه ثمّ أنّ الإنفاق مترتّب علىٰ الجود و السّخاء بل هو من ثمراتهما و هو أي الجود و السّخاء من ثمرات الزُّهد كما أنّ البخل من ثمرات حبّ الدّنيا و عليه فينبغي لكلّ سالكٍ لطريق الأخرة أن يكون حاله القناعة إن لم يكن له مالٌ.

و السّخاء و إصطناع المعروف أن كان له مال و لا ريب أنّ الجود و السّخاء من شرائف الصّفات و معالي الأخلاق و هو أصلٌ من أصول النّجاة و أشهر أوصاف النّبيين وأعرف أخلاق المرسلين.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم السّخاء شجرة من شجر الجنّة أغصانها متّدلية الىٰ الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن الىٰ الجنّة.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم **أنّ السّخاء من الإيمان و الإيمان في الجنّة.**

و قال صلى الله عليه و آله و سلم **أنّ من موجبات المغفرة بذل الطّعام و إفشاء السّلام و حُسن الكلام الىٰ غير ذلك من الأخبار.**

ثمّ أنّ الإنفاق قد يكون في المال و قد يكون في غيره و قد يكون سرّاً وقد يكون جهراً و الآية بعمومها تشمل جميع مصاديق الإنفاق و يدخل فيه الإيثارأن يجود بالمال مع الحاجة اليه قال تعالىٰ:

وَ يُؤْثِرُونَ عَلىٰٓ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْكانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ[١].

و ينبغي في جميع مراتب الإنفاق أن يراعي حدّ الوسط بين الإقتار و الإسراف لقوله تعالىٰ لنبيّه:

قال اللّه تعالى: **وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ ٱلْبَسْطِ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ إِذآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً**[٣].

فالإنفاق و الجود وسط بين الإقتار و الإسراف وبين البسط و القبض و هو تقدير البذل و الإمساك بقدر الواجب اللاّئق.

و الوصف الرّابع، و هو رفع السّيئة بالحسنة فقد أشار اللّه اليه بقوله: **وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ** الدَّرء الرَّفع و منه قولهم أنّ الحدود تدرء بالشُّبهات أي ترفع عند الشُّبهة و المقصود أنّهم يرتفعون أو يدفعون بفعل الطّاعات المعاصي.

قال اللّه تعالى: **وَ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهارِ وَ زُلَفًا مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئاتِ ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّاكِرِينَ**[٤].

قال اللّه تعالى: **إِلّا مَنْ تابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا فَأُولٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللّٰهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا**[٥].

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتّٰى عَفَوْا**[٦].

فمعنىٰ قوله: **يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ** هو أن يعملوا أعمالاً صالِحة تبطل ما قدَّموه من الإساءة.

و قيل هو أن يعفوا تعالىٰ عن سيّئاتهم و يحتسب بحسناتهم.



١- الحشر = ٩
٢- بني إسرائيل = ٢٩
٣- الفرقان = ٦٧
٤- هُود = ١١٤
٥- الفُرقان = ٧٠
٦- الأعراف = ٩٥

إذا ثبت لهم هذه الأوصاف المذكورة من الصَّبر و إقامة الصّلاة و الإنفاق و درء السّيئات بالحسنات فلهم الجَّنة و الىٰ ذلك أشار بقوله: **أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدّٰارِ** أي عاقبة الدّار و هي الجَّنة الّتي وعد اللّه الصّابرين بها:

قال اللّه تعالىٰ: **سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدّٰارِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أُكُلُهٰا دٰآئِمٌ وَ ظِلُّهٰا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ عُقْبَى ٱلْكٰافِرِينَ ٱلنّٰارُ**[٢].

يقول العبد (اللّهم إجعلنا منهم آمين ربّ العالمين).

جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبٰآئِهِمْ وَ أَزْواٰجِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ وَ ٱلْمَلآٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بٰابٍ

هذه الأوصاف ثابتة للدّار المشار اليها بقوله: **عُقْبَى ٱلدّٰارِ** و المراد بها الجَّنة كأنّه قيل و ما أوصاف الدّار، فقال تعالىٰ: **جَنّٰاتُ عَدْنٍ** و الجَّنات البساتين الّتي يحّفها الشَّجر واحدها جنَّة و أصله السَّتر يقال جنَّه إذا ستره ومنه.

قوله تعالىٰ: **جَّن عليه اللّيل**، أي ستر و العدن بفتح العين و سكون الدّال والنّون الإقامة الطّويلة يقال عدن بالمكان إذا أقام به مدّة طويلة منه المعادن الّتي يخرج منها الذّهب و الفِّضة و غيرهما، و الهاء في، يدخلونها، يرجع الى جنّات عدنٍ الّتي هي بدل من عقبىٰ الدّار و يحتمل أن يكون قوله: **جَنّٰاتُ عَدْنٍ** خبر إبتداء محذوف أي هي جنّات عدنٍ.

و قرأ النَّخعي، جنّة عدنٍ بالأفراد كما قرأ عيسىٰ الثَّقفي و ذّريتهم بالتّوحيد و الجمهور بالجمع **وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبٰآئِهِمْ وَ أَزْواٰجِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ** أي و يدخلون فيها أيضاً من صلح من آباء المؤمنين و ذرّياتهم لوجود الملاك

١- الرّعد = ٢٤ ٢- الرّعد = ٣٥

الإتّصاف بالأوصاف المذكورة فيهم لا لأنهّم يدخلونها للابوة أو لكونهم ذرّياتهم إذ لا منافاة بين كَون الأنباء في الجَّنّة و الآباء في النّار أو الآباء في الجَنّة و الذرّيات في النّار و ذلك لأنّ الجنّة مقام المتّقين و الأبرار و النّار مقام الكافرين و الأشرار فالمراد بالصّلاح في قوله: **وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبَآئِهِمْ** هو إستقامة الحال الى ما يدعوا اليه العقل و الشّرع و المصلح من يفعل الصّلاح و الصّالح المستقيم الحال في نفسه **والذُرّية** بضّم الذّال وكسر الرّاء المشدّدة في الأصل الصّغار من الأولاد و أن كان قد يقع علىٰ الصّغار و الكبار معاً في التّعارف و يستعمل للواحد و الجمع و أصله الجمع و هو مشتّق مِن ذرأ اللّه الخلق فترك همزه نحو روّية و برّية، و قيل أصله ذروية، و قيل هو فعلّية من الذَّر نحو قُمرّية و قوله: **وَ اَلْمَلآَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بٰابٍ** أي يدخلون عليهم بالتّحية و الكرامة و فيه تعظيم الذّكر للملائكة وقوله: **مِنْ كُلِّ بٰابٍ** أي أبواب الجنّة فأنّ لها أبواب كثيرة.

قال بعض المفسّرين أي باب الصّلاة وباب الزّكوٰة وباب الصَّبر ألخ.

أقول و الأصل فيه هو قوله تعالىٰ في وصف الجنّة حيث قال: **هٰذاٰ ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَاٰبٍ، جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ اَلْأَبْوٰابُ**[1] وأبواب الجنّة ثمانية و أبواب جهّنم سبعة كما يأتي تفصيل الكلام فيها في سورة الزّمر و غيرها.

و عن كتاب الخصال في إحتجاج عليّ عليه السلام علىٰ النّاس يوم الشّورىٰ.

قال عليه السلام نشدتكم باللّه هل فيكم أحد قال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مَن سَّره أن يحيَي حياتي و يموت مماتي و يسكن جنّتي الّتي وعدني اللّه ربّي جنّات عدنٍ قضيب غرسه اللّه بيده ثمّ قال له كن فكان فليوال علّي بن أبي طالب و ذرّيته مِن بعده فهم الأئمّة و هم الأوصياء أعطاهم اللّه علمي و فهمي لا يدخلونكم في باب ضلالٍ و

١- ص = ٤٩ / ٥٠

لا يخرجونكم مِن باب هدى لا تُعلّموهم فهم كعلم منكم يزول الحّق معهم أينما زالوا، غيري قالوا اللّهم لا إنتهىٰ.

و عن علّيٍ عليه السلام أنّه سئله بعض اليهود فقال أَين يسكن نبّيكم من الجَنّة.

قال عليه السلام: في أعلاها درجةً و أشرفها مكاناً في جنّات عدنٍ، قال صدقت واللّه أنّه بخّط هارون و إملاء موسىٰ عليه السلام إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبان بن تغلب قال سمعت أبا عبد اللّه يقول قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مَن أراد أن يحيى حياتي و يموت ميتتي و يدخل جنّة عدنٍ الّتي غرسها اللّه بيده فليتوال علّي بن أبي طالب وليتّول ولّيه و ليعاد عدّوه و ليسلم للأوصياء من بعده فأنّهم عترتي من لحمي ودمي أعطاهم اللّه فهمي و علمى الىٰ اللّه أشكو من أمّتي المنكرين لفضلهم القاطعين فيهم صلتي و أيم واللّه لتقتُلن إبني لا أنالهم اللّه شفاعتي إنتهىٰ.

و عن كتاب من لا يحضره الفقيه في خبر بلال عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم الّذي يذكر فيه صفة الجنّة قال فقلت لبلال هل وسطها غيرها قال نعم جنّة عدنٍ وهي في وسط الجنان و أمّا جنَّة عدنٍ فسورها ياقوت أحمر و حصاها اللّؤلؤ انتهىٰ.

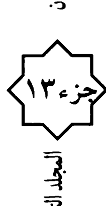
و عن كتاب ثَواب الأعمال عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال من أطعم ثلاثة نفر من المؤمنين أطعمه اللّه من ثلاث جنّات، ملكوت السّماء، الفردوس، و جنَّة عدنٍ، و طوبى و هي شجرة من جنّة عدنٍ غرسها ربّي بيده انتهىٰ.

سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ

أي يقولون سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ و القول محذوف لدلالة الكلام عليه والعُقبىٰ بضّم العين الإنتهاء الذّي يؤدّي اليه الإبتداء من خيرٍ أو شرٍّ فعقبىٰ المؤمن الجَنَّة

فهي نعم الدّار و عقبىٰ الكافر النّار و هي بئس الدّار، و ما، في قوله: **بِمَا صَبَرْتُمْ** بمعنىٰ المَصدر فكأنّه قال بصَبركم و قيل بمعنىٰ، الّذي، كأنّه قال بالّذي صَبرتم علىٰ فعل طاعاته و تجّنب معاصيه و السّلام التّحية بالكرامة علىٰ إنتفاء كلّ أمرٍ يشوبه من مضّرة.

في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام عن النّبي في حديثٍ طويل يصف فيه حال المؤمن اذا دخل جنّته و غرفه و فيه، ثمّ يبعث اللّه لَه ألف ملك يهنّونه بالجنّة و يزّوجونه بالحوراء فينتهون الىٰ أوّل بابٍ من جنانه فيقولون للملك الموّكل بأبواب الجنان إستأذن لنا علىٰ ولّي اللّه فأنّ اللّه قد بعثنا مهنّين فيقول الملك حتّىٰ أقول للحاجب فيعلمه مكانهم فيدخل الملك الى الحاجب و بينه و بين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي الى أوّل بابٍ فيقول للحاجب أنّ على باب العرصة ملك أرسلهم ربّ العالمين جاءوا يهنّئون ولّي اللّه و قد سألوا أن أستأذن لهم عليه، و ساق الحديث الىٰ أن قال، فيؤذن لهم فيدخلون على ولّي اللّه و هو في الغرفة و لها ألف باب و على كلّ بابٍ من أبوابها ملكٌ موكّلٌ فاذا أذن للملائكة بالدّخول على ولّي اللّه فتح كلّ ملكٍ بابه الّذي قد وكّل به فيدخل كلّ ملكٍ مِن بابٍ من أبواب الغرفة فيبلّغونه رساله الجبّار و ذلك قول اللّه وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ يعين من أبواب الغُرفة، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار انتهىٰ.



و الأحاديث كلّها رويناها مِن تفسير نُور الثّقلين[١] وسيأتي تفصيل الكلام في المستقبل إن شاء اللّه.

■

١- ج ٢ ص ٤٩٧ الىٰ ص ٥٠٠

وَ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ وَ
يَقْطَعُونَ مٰا أَمَرَ ٱللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلدّٰارِ
﴿٢٥﴾ اَللّٰهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يَقْدِرُ وَ
فَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا فِى
ٱلْاٰخِرَةِ إِلّٰا مَتٰاعٌ ﴿٢٦﴾ وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلآ
أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ
يَشٰآءُ وَ يَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ ﴿٢٧﴾ اَلَّذِينَ اٰمَنُوا
وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللّٰهِ أَلٰا بِذِكْرِ ٱللّٰهِ تَطْمَئِنُّ
ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ
طُوبٰى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَاٰبٍ ﴿٢٩﴾ كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِىٓ
أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٰآ أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ
أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ
رَبِّى لآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتٰابِ
﴿٣٠﴾ وَ لَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبٰالُ أَوْ قُطِّعَتْ
بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتٰى بَلْ لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ
جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا أَنْ لَوْ يَشٰآءُ
ٱللّٰهُ لَهَدَى ٱلنّٰاسَ جَمِيعًا وَ لٰا يَزٰالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دٰارِهِمْ
حَتّٰى يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُخْلِفُ ٱلْمِيعٰادَ
﴿٣١﴾ وَ لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ ﴿٣٢﴾



◀ اللّغة

يَنْقُضُونَ نقض العهد هو العمل بخلاف موجبه والنَّقض في الأصل إنـتشار العَقد من البناء و الحبل والعقد و هو ضدّ الإبرام و مـن نـقض الحـبل و العـقد أستعير نقض العهد.

مِيثٰاقِهِ أصله مِوثاق، بدّلت الواو ياء لأنّه من الوثُوق و ميثاق العَهد تَـوثيقه بأوكد ما يكون.

يَبْسُطُ البسط التَّوسعة أي يوَّسع الرّزق علىٰ من يشاء.

فَرِحُوا الفرح السُّرور.

مَتٰاعٌ أي قليل ذاهب و منه التَّمتع.

أَنٰابَ الإنابة الرّجوع الىٰ الحقّ بالتّوبة.

مَآبٍ المأب المرجع يقال أبَ يؤُب أوَباًاذا رجع.

مَتٰابِ المتاب بفتح الميم و التّوبة مصدران يقال تاب يَتُوب توبةً ومَتاباً.

قٰارِعَةٌ القارعة الدّاعية الدّاهية المهلكة.

ٱلْمِيعٰادَ بكسر الميم مصدر أصله موعاد لأنّه من وَعَد يَعد بـدَّلت الواو يـاء كما في الميثاق.

فَأَمْلَيْتُ أي أخرّت عقابهم يقال أملى يملي و أصـله طـول المـدّة و قـيل معناه الإمهال و المأل واحد.

◀ الإعراب



بِذِكْرِ ٱللّٰهِ يجوز أن يكون مفعولاً به أي الطّمأنينة تـحصل لهـم بـذكر اللّـه ويجوز أن يكون حالاً من القلوب أي تطّمئن و فيها ذكر اللّه ٱلَّـذِينَ اٰمَـنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ مبتدأ و طُوبىٰ لَهُمْ مبتدأ ثانٍ وخبر في موضع الخَبر الأوّل و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هُم الّذين أمنوا، فيكون، طوبى لهـم،

حال مقدّرة و العامل فيها أمنوا و عملوا، و يجوز أن يكون بدلاً من أناب أو بإضمار، أعني وَ حُسْنُ مَآبٍ معطوف علىٰ، طوبى، اذا جعلتها مبتدأ وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا جواب لو، محذوف أي لكان هذا القرأن.

و قال الفرّاء جوابه مقدّم عليه أي و هم يكفرون بالرَّحمٰن أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتىٰ الوجه في حذف التّاء من الفعل حيث لم يقل، كلّمت، مع إثباتها في الفعلين قبله و هما، سيّرت و قطعت، هو أنّ الموتىٰ يشتمل علىٰ المذكر الحقيقي والتّغليب له فكان حذف التّاء أحسن و الجبال والأرض ليسا كذلك أَنْ لَوْ يَشَآءُ في موضع نصب بييأس، لأنّ معناه أفلم تبيَّن و يعلم أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا فاعل تحلّ ضمير القارعة و قيل هو للخطاب أي أو تحلّ أنت يا محمّد قريباً منهم بالعقوبة فيكون موضع الجملة نصباً عطفاً علىٰ، تصيب.

◀ التّفسير

وَ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مٰا أَمَرَ ٱللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلدّٰارِ

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ حال الذّين يوفون بعده و أنّ لهم عقبى الدّار، ذكر في هذه الآية عاقبة أمر الّذين ينقضون عهد اللّه ثمّ أردف كلامه بذكر من يقطع ما أمر اللّه به أن يوصل، و المفسدين في الأرض و حكم بأنّ لهم اللّعنة و سوء الدّار فالبحث في الآية في ثلاث فصُول:

الفصل الأوّل: وَ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ.

قال بعض العرفاء العهد عهدان، عهدٌ على المحبّة و هو للخوّاص، و عهدٌ علىٰ العبّودية و هو للعوام فأهل عهد المحبّة ما نقضوا عهودهم أبداً و أهل عهد العبّودية من كان عهدهم مؤكّداً بعد المحبّة ما نقضوه و من لم يكن كذلك نقضوه و عبدوا غيره و أشركوا به الأشياء و أحّبوها للهوى إنتهىٰ.

قال الطّبرسي ﷺ في عهد اللّه و ميثاقه، أي يؤدّون ما عهد اللّه اليهم و ألزمهم إيّاه عقلاً و سمعاً فالعهد العقلي ما جعله في عقولهم من إقتضاء صحّة أموره فساد أمور أخر كإقتضاء الفعل للفاعل و أنّ الصّنايع لابّد أن يرجع الى صانعٍ غير مصنوع و إلاّ أدّىٰ الىٰ ما لا يتناهى و أنّ للعالم مدّبراً لا يشبهه شئ و العهدَ الشّرعي ما أخذه النّبي على المؤمنين من الميثاق المؤكّد باليمين أن يطيعوه يعصوه و لا يرجعوا عمّا إلتزموه من أوامره و نواهيه و إنّما كرّر ذكر الميثاق و إن دخل جميع الأوامر و النّواهي في لفظ العهد لئّلا يظنّ ظانّ ذلك خاصّ فيما بين العهد و ربّه فاخبر أنّ ما بينه و بين العباد من المواثيق كذلك في الوجوب و اللّزوم و قيل أنّه كررّة تأكيداً إنتهىٰ كلامه.

أقول قد تكلّمنا في العهد و نقضه و قلنا أنّ نقض العهد من علائم النّفاق فأنّ المؤمن لا ينقض عهده سواء كان العهد بينه و بين اللّه أم بينه و بين النّاس و قلنا أنّه لا يبعد أن يكون المراد بعهد اللّه النّذر و اليمين بقرنية قوله من بعد ميثاقه و هكذا تكلّمنا في قوله: **أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ** و نقلنا الأقوال فيه فلا نعيد الكلام بذكرهما مخافة التّطويل و الّذي ينبغي أن نذكره هو أن جمهور المفسّرين من العامّة قالوا أنّها نزلت في أهل الكتاب من اليهود و النصارى و ليت شعري ما الدّليل لهم علىٰ ذلك و الظّاهر من الآية هو أنّ اللّه تعالى ذكر في الآية حكم النّاقضين للعهد و القاطعين لما أمر اللّه به أن يوصل و المفسدين في الأرض.

و أمّا أهل الكتاب فلِكفرهم و عنادهم و عدم إيمانهم باللّه و رسوله فهم خارجون عن البحث خروجاً تخصّصياً لا تخصيصيّاً و الحاصل أنّ المخاطبين بهذه الآية هم المسلمون لا غيرهم.

وأمّا المقام الثاني: و هو قوله: **يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ** قيل معناه يعملون في الأرض بمعاصي اللّه و الظّلم لعباده و إخراب بلاده.



أقول الفساد في الأصل خروج الشّيء عن الإعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً و يضّاده الصّلاح و يستعمل ذلك في النّفس و البدن و الأشياء الخارجة عن حدّ الإستقامة و قد ورد في ذمّه من الأيات و الأثار ما لا يخفى على أحد:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ**[١].

إِنَّمَا جَزَآؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوَا أَوْ يُصَلَّبُوَا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَ ٱللّٰهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَ لا فَسَادًا وَ ٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**[٧].

و الأيات في ذمّ الفساد و الإفساد كثيرة جدّاً و لا نحتاج في إثبات المدّعي الى ذكر الأخبار بعد تصريح الأيات بحيث لا نحتاج الىٰ التّأويل و كفىٰ في ذمّه أنّ اللّه تعالىٰ جعل المفسد في الأرض بمنزلة المحارب للّه و رسوله و جعل الحكم و الجزاء فيهما واحداً في الدّنيا و الأخرة فاذا كان المفسد في الأرض في حدّ المحارب للّه فهو من أعظم الذّنوب و الكبائر بعد الشّرك و هذا ممّا لا خلاف فيه عند جميع المسلمين إلاّ أنّ الكلام في تشخيص المفسد و تعيينه و بعبارةٍ أخرىٰ مفهومه من أظهر الأشياء و كنهه في غاية الخفاء.

١- الفَجر = ١٢
٢- المائدة = ٣٣
٣- المائدة = ٦٤
٤- القصص = ٨٣
٥- البقرة ٦٠
٦- الأعراف = ٨٦
٧- يُونس = ٨١

و لذلك ترى كثيراً من النّاس يطلقون المفسد على من ليس به واقعاً بل يطلقونه علىٰ المصلح الواقعي و يطلقون على المصلح الواقعي المفسِد و ليس ذلك إلاّ لخفاء مصداقه كما حكىٰ اللّه تعالىٰ عنهم بقوله:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قالُوٓا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَ لٰكِنْ لاٰ يَشْعُرُونَ(١).

ثمّ أنّ خفاء المصداق على أكثر العوامّ صار باعثاً و سبباً لتمسّك الحكّام في قتل مخالفيهم بعنوان الفساد و أنّه كان من المفسدين و المفروض خلافه و أنّما قلنا لخفاء المصداق على العوام و لم نقل لخفاءه علىٰ الحكّام مع أنّه قد يكون كذلك لأنّ كثيراً من الحكّام و عمّالهم لولا أكثرهم يعلمون أنّ المحكوم ليس بمفسدٍ بل يكون مصلحاً و مع ذلك يحكمون بقتله فهذا ليس من خفاء المصداق بل هو من التّلبيس و التّدليس و قتل المخالف تحت عنوان المفسد و أظنّ أنّ أكثر المقتولين و المحكومين تحت عنوان المفسد قبل ظهور الإسلام و بعده الى يومنا هذا من هذا القبيل والأصل في ذلك أنّ الحاكم في كلّ زمانٍ لا يرىٰ لمن يخالفه أو لا يوافقه في حكومته حقّ التّعيش و الحياة فلو أمر بقتل المخالف بعنوان أنّه مخالف يعدّ ظالماً منفوراً عند النّاس فيأمر بقتل المخالف و يتّهمه بالفساد أو الإفساد و يستند حكمه الىٰ الإسلام و يقول هذا حكم اللّه في حقّه هذا إذا كان الحاكم مسلماً و أمّا إذا كان كافراً فلا يستند حكمه الىٰ الإسلام بل يستنده الىٰ القانونأنّ المفسد محكومٌ بالقتل في جميع الأديان و المذاهب و المسالك و قد قتل بجرم الفساد و الإفساد خلق كثير خارج عن حدّ الإحصاء و أكثرهم من الصلّحاء و العلماء و الأولياء بل ندّعي أنّ المفسدين الواقعي لم يقتلوا و لن يقتلوا إلاّ في بعض الأحيان لم ندّع جزافاً ألا ترىٰ أنّ معاوية إبن أبي سفيان كان يدّعي الإصلاح و يحارب علّياً تحت عنوان الفساد



١- البقرة = ١١ / ١٢

و هكذا عائشة و الزّبير و طلحة يدّعون الإصلاح في حرب الجمل و يتّهمون عليّاً بالفساد و هكذا الخوارج ثمّ بعد معاوية لمّا جلس يزيد علىٰ سرير الحكومة أمر بقتل الحسين و أصحابه و أولاده و حكم شريح القاضي بأمره بأنّ الحسين خرج عن دين الإسلام و أفسد في الأرض فيجب قتله ونظائره كثيرة و لنعم ما قيل:

إذا كان الغُراب دليل قوم — سَيهديهم سبيل الهالكين

و للبحث فيه مقام آخر و كيف كان لا شكّ لأحدٍ من العقلاء فضلاً عن المؤمنين و الصلّحاء أنّ المفسد في الأرض ملعون مذموم كما قال تعالىٰ: **أُولٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ.**

ٱللّٰهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلَّا مَتٰاعٌ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه هو الّذي يبسط الرّزق لِمن يشاء و يقدر و المعنى أنّه تعالىٰ يوسّع الرزّق علىٰ من يشاء من عباده و يضيّقه بحسب ما يعلم من مصلحته و فيه إشارة الىٰ أنّ الرِّزق بيده:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مِنْ دٰابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللّٰهِ رِزْقُهٰا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ ٱللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ**[4] وغيرها من الأيات.

و قوله: **وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا** معناه و سرّوا بها و الظّاهر أنّ هؤلاء الّذين فرحوا بها هم من بسط لهم الرّزق كما هو مقتضى السُّرور و الفرح في الدّنيا إذ

١- هُود = ٦
٢- يُونس = ٣١
٣- فاطر = ٣
٤- الملك = ٢١

لو كان الإنسان فقيراً محتاجاً الىٰ غيره لا يفرح بحياته و لا يحبّها غالباً بل يتمنى المَوت والسِّر في ذلك هو أنّ بسط الرّزق و كثرة النِّعم و الرّفاهية و التَّعيش و أمثال ذلك ممّا يتوقّف على المال و الثّروة كثيراً مّا يوجب الطّغيان و التَّمرد و الغفلة عن فناء الدّنيا و بقاء الأخرة و لذلك يفرح المتنعّم في الدّنيا و لا يتمّنى الموت و أمّا الفقير فهو بالعكس و هذا هو الوجه في إختصاص المتنّعم بالفرح دون الفقير.

و قال بعض المفسّرين كأنّ الآية جوابٌ عن سؤال مقدّر و هو أنّ الكفّار لو كانوا أعداء اللّه لما فتح اللّه عليهم أبواب النّعم و اللّذات في دار الدّنيا فأجاب اللّه عنه بهذه الآية و هو أنّ بسط الررّزق و ضيقه لا تعلّق لهما بالكفر و الإيمان فقد يوجد الكافر موسّعاً عليه دون المؤمن و بالعكس فالدّنيا دار إمتحانٍ و إبتلاء فالغنّي بغناه و الفقير بفقره بل قد يكون بسط الرّزق موجباً لشدّة العذاب و العقاب في الأخرة كما أشار اللّه تعالىٰ اليه بقوله:

وَ لا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذينَ كَفَرُوٓا أَنَّما نُمْلى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلى لَهُمْ لِيَزْدادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهينٌ[1].

و قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِىَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَىَّ ٱلْمَصيرُ**[2].

و قال تعالىٰ في المؤمن: **فَالَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَريمٌ**[3].

و قد ورد في الأحاديث أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقول اللّهم أرزقني بقدر الكفاف، أي حدّ الإعتدال، و لا شكّ أنّ خير الأمور أوسطها و لولا في بسط الرّزق إلاّ الفرح بالحياة الدّنيا الكاشف عن حبّها لكفى في ذمّه: **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ** أي ليست الدّنيا و ما فيها في جنب الأخرة و

١- آل عمران = ١٧٨ ٢- الحجّ = ٤٨
٣- الحجّ = ٥٠

بالأضافة اليها، إلاّ متاعٌ، أي قليلٌ لا يعبأ به لأنّ هذه نافية و الأخرة باقية دائمة لا فناء فيها و لا شكّ أنّ الباقي خيرٌ من الفاني،عبَّر عن حياة الدّنيا، بمتاع، لأنّ المتاع ما يقع من الإنتفاع به في العاجلة و أصله التَّمتع هو التلذّذ بالأمر العاجل و هو ممّا لا بقاء له بل نقول أنّ الفناء قد أُخِذ في مفهوم التَّمتع ألاتى أنّه يقال للعقد المؤقت المتعة أي أنّ التَّمتع بالرّؤية المنقطعة قليلٌ زماناً.

وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰآءُ وَ يَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ

قال في التّبيان، حكىٰ اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن الكفّار الّذين وصفهم أنّهم يقولون لولا أنزل على محمّد آية، يعني علامة و معجزة و المعنى هلاّ أنزل عليه آيةٌ من ربّه يقترحونها و يعلمون أنّها أنزلت من ربّه و ذلك لما لم يستدّلوا فيعلموا مدلول الأيات الّتي أتىٰ بها لم يعتّدوا بتلك الأيات فقالوا هذا القول جهلاً منهم فأمر اللّه نبيَّه أن يقول لهم أنّ اللّه يضّل من يشاء بمعنىٰ أنّه يحكم على من يشاء بالضّلال إذا ضلَّ عن طريق الحقّ و يجوز أن يكون المراد، يضّل من يشاء، عن طريق الجنّة بسوء أفعالهم و عظم معاصيهم و لا يجوز أن يراد بذلك الإضلال عن الحقّ لأنّ ذلك سفهٌ لا يفعله اللّه تعالىٰ انتهىٰ.

و قال صاحب الكشّاف هو كلام يجري مجرى التَّعجب من قولهم أنّ الأيات الباهرة المتكاثرة الّتي أوتيها رسول اللّه لم يؤتها نبيٌّ قبله وكفىٰ بالقرآن وحده آية وراء كلّ آية فإذا جحدوا و لم يقتدوا بها و جعلوه كأنّه لم ينزل عليه قطّ كان موضع التَّعجب و الإستنكار فكأنّه قيل لهم ما أعظم عنادكم و ما أشدّ تصميمكم علىٰ كفركم أنّ اللّه يضّل من يشاء فمن كان علىٰ صفتكم من التّصميم و شدّة التّسليم في الكُفر فلا سبيل الىٰ إهتداءكم و إن نزلت كلّ آيةٍ و يهدي اليه من كان علىٰ خلاف صفتكم، انتهىٰ.

و قال الجبائي معناه يضّل من يشاء عن رحمته و ثوابه و عقوبةً له على كفره و يهدي اليه من أناب أي الي جنّته انتهىٰ.

أقول أمّا قوله: **وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ** فلا خفاء فيه و ذلك لأنّ الكفّار طلبوا منه مثل آيات الأنبياء الماضين قيل و الملتمس ذلك هو عبد اللّه بن أبي أميّة و أصحابه و قد مرَّ نظير ذلك في سورة يونس:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقُولُونَ لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِ**(٢).

و قد عَلِم اللّه تعالىٰ أنّهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم كما حكى اللّه عنهم.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ اٰيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهٰا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ جٰاءَتْهُمْ كُلُّ اٰيَةٍ حَتّٰى يَرَوُا ٱلْعَذٰابَ ٱلْأَلِيمَ**(٤).

تكلّمنا في هذه الأيات و فسرّناها فلا نعيد الكلام بذكره ثانياً.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰآءُ وَ يَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ** فلا شكَ أنّ الإضلال عن الحقّ محالٌ في حقّه تعالىٰ لأنّ الضّلال هو العدول عن الطّريق المستقيم واللّه تعالىٰ يأمر به أي بالطّريق المستقيم فكيف يعدل عنه و على قول من يقول الضّلال يقال لكلّ عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً فهو أيضاً في حقّه محال و هو ظاهر لأنّ العدول يستلزم الظُّلم بل هو هو بعينه إذ لا نعني بالظُّلم إلاّ العدول عن الحقّ و هو تعالىٰ منزّه عنه فثبت و تحقّق أنّ الإضلال في الآية ليس بمعنى الإضلال عن الحقّ و إذا كان كذلك فما معناه فنقول إضلال اللّه للانسان يتصوّر علىٰ وجوهٍ:

أحدها: أن يكون سببه الضّلال و هو أن يضلّ الإنسان بسبب معاصيه بإختياره فيحكم اللّه عليه بذلك في الدّنيا و يعدل به عن طريق الجنّة الى النّار

١- يُونس = ٢٠
٢- الرّعد = ٧
٣- الأعراف = ١۴۶
۴- يُونس = ٩٧

في الأخرة و ذلك إضلال هو حقٌّ و عدلٌ فالحكم علىٰ الضّال بضلاله و العدول به عن طريق الجنّة الى النّار عدلٌ و حقٌّ.

الثّاني: من إضلال اللّه هو أنّ اللّه تعالىٰ وضع جبلة الإنسان على هيئةٍ إذا رأى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه و إستطابه و لزمه و تعذّر صرفه و إنصرافه عنه و يصير ذلك كالطّبع الّذي يأبى علىٰ التّأمل و لذلك قيل العادة طبعٌ ثان و هذه القوّة في الإنسان فعلٌ إلهيٌ وإذا كان كذلك ذكر في غير هذا لموضع أنّ كلّ شئٍ يكون سبباً في وقوع فعلٍ صحّ نسبته ذللك الفعل اليه فصّح أن ينسب ضلال العبد الىٰ اللّه من هذا الوجه فيقال أضلّه اللّه لا علىٰ الوجه الّذي يتصوّره الجهلة و لعلّه لما قلناه جعل الإضلال المنسوب الىٰ نفسه للكافر و الفاسق دون المؤمن بل نفىٰ عن نفسه إضلال المؤمن:

وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ(۱).

في الكافر والفاسق:

قال اللّه تعالىٰ: **فَتَعْسًا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ اَلْفٰاسِقِينَ**(۳).

و علىٰ هذا النّحو تقليب الأفئدة و الختم على القلب و زيادة المرض في القلوب و أمثالها ممّا أشير اليه في الكتاب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ**.

قال اللّه تعالىٰ: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** الىٰ غير ذلك.



الثّالث: أن يكون المراد بإضلال اللّه العبد هو إيكاله الىٰ نفسه ورد في الدعاء اللّهم لا تكلنا الىٰ أنفسنا طرفة عينٍ أبداً و ذلك لأنّ العبد إذا و كله اللّه الىٰ نفسه فالشيّطان يسلّط عليه قهراً شاء أو لم يشاء و لا نعني بالإضلال إلاّ هذا

۱- التّوبة = ۱۱۵ ۲- محمّد = ۸
۳- البقرة = ۲۶

و إذا كان حمل الإضلال فيالأيات على أمثال هذه المحامل الصَّحيحة ممكناً فلا ينبغي حمله علىٰ ما لا يقبله العقل السّليم و سنّة سيدّ المرسلين و الحمد للّه ربّ العالمين.

و أمّا قوله: **وَ يَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** فالإنابة الىٰ اللّه تعالىٰ الرّجوع اليه بالتّوبة و إخلاص العمل و هي مأخوذة من النّوب و هو الرّجوع مرّةٍ بعد أخرى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوٓا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنَا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ:**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ**(٥).

و أمثال هذه الأيات الّتي تدلّ على أنّ الإنابة الى اللّه حسنٌ مطلوبٌ بل هي من الواجبات العقليّة فأنّ العبد لا يستغني عنها في مدّة حياته في الدنيّا.

و أعلم أنّ الفرق بين التّوبة و الإنابة مع إشتراكهما في المعنى و هو الرجوع الى اللّه هو أنّ التَّوبة رجوع عن المخالفة الى الموافقة أي عن المعصية الى الطّاعة فهي لا تتحقّق في غير العاصي و أمّا الإنابة فهي الرّجوع الى اللّه تعالى و لا شكّ أنّ الرّجوع الى اللّه أولى من الرّجوع الى طاعته بعد المعصية أمّا أوّلاً فلأنّ الرّجوع الى اللّه هو الأصل فأنّ من رجع الى اللّه رجع الى طاعته قهراً.

ثانياً: أنّ رجوع التّائب عن المخالفة الى الموافقة و هذا بخلاف الإنابة لصدقها على من لم يعص و أناب أفضل ممّن عصى و تاب ثمّ أنّ الإنابة تتحقّق بثلاثة أشياء:

١- الزّمر = ١٧
٢- الممتحنة = ۴
٣- هُود = ٨٨
۴- الشّورىٰ = ١٠
۵- الزُّمر = ۵۴

أحدها: الرّجوع الى الحّق إصلاحاً كما رجع اليه إعتذاراً.

الثّانى: الرّجوع اليه وفاءً كما رجع اليه عهداً.

الثّالث: الرّجوع اليه حالاً كما رجع اليه إجابةً و محصّل الكلام هو أنّ التّوبة عهد و الإنابة وفاء، أمّا الرّجوع اليه إصلاحاً فهو يتحقّق بثلاثة أشياء:

أحدها: الخروج عن التّبعات.

ثانيها: التَّوجع للعثرات.

ثالثها: إستدراك الفائتات.

وأمّا الرّجوع اليه وفاءً فهو أيضاً بثلاثة أشياء:

أحدها: بالخلاص من لذّة الذّنب.

ثانيها: بترك إستهانة أهل الغفلة.

ثالثها: بالإستقصاء في رؤية علل الخدمة.

والرّجوع اليه حالاً أيضاً يتَّحقق بثلاثة أشياء:

أحدها: بالأياس من عملك.

ثانيها: بمعاينة إضطرارك.

ثالثها: شيم برق لطفه بك و لتفصيل الكلام و توضيح هذه الكلمات موضع أخر.

و الضّمير في قوله: **وَ يَهْدِيٓ إِلَيْهِ** يرجع الى اللّه و هو واضح اللّهم أجعلنا من التّائبين المنيبين و لا تجعلنا من الغافلين بحقّ محمّدٍ و أله الطّاهرين.

جزء ١٣

اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ أَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.

قوله: **اَلَّذِينَ** صفة لأناب في قوله من أناب كأنّه قيل من الّذي أناب قال تعالى: **اَلَّذِينَ اٰمَنُوا** الخ و عليه فموضع الذّي نصب و تقدير الكلام و يهدي اللّه الذّين أنابوا الى اللّه، الذّين أمنوا و تطّمئن قلوبهم بذكر اللّه، فالمعنىٰ أنّ الذّين أنابوا الى اللّه هم الذّين أمنوا به و تطّمئن قلوبهم بذكره.

و قيل، **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** بدلٌ من أناب و إطمئنان القلب سكونه بعد الإضطراب من خشيته و ذكر اللّه ذكر رحمته و مغفرته أو ذكر دلائله علىٰ وحدانيّته.

و قيل المراد تطّمئن القلوب بالقرأن لأنّه أعظم المعجزات تسكن به القلوب و تنتبه و قيل تطّمئن قلوبهم بذكر اللّه، أي تسكن قلوبهم و تأنس بذكره الّذي معه إيمان به لما في ذلك من ذكر نعمه التّي لا تحصى و أياديه التّي لا تجازى مع عظم سلطانه و بسط إحسانه، ثمّ أنّ الذّكر حضور المعنى في النّفس و قد يسمّى العلم ذكراً و القول الّذي فيه المعنى الحاضر النّفس يسمّىٰ ذكراً هذا معنى ألفاظ الآية على ما ذكره القوم و لتوضيح المقال نقول يقع البحث في مقامين:

المقام الأوّل: في الذّكر و المراد به.

المقام الثّاني: في الإطمئنان.

أمّا المقام الأوّل: فنقول الذّكر بكسر الذّال مصدر يقال ذَكر يذكُر ذكراً و هو يقال تارةً بإعتبار إستحضار ما يقتنيه من المعرفة في النّفس و أخرى بإعتبار حضور الشّئ القلب أو القول و لذلك قيل الذّكر ذكران ذكرٌ بالقلب و ذكرٌ باللّسان و كلّ واحدٍ منهما ضربان.

ذكرٌ عن نسيان و ذكرٌ لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ فكلّ قولٍ يقال له ذكرٌ.

فمن الذّكر باللّسان اذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** ليس المراد به الذّكر اللّساني ضرورة أنّه ليس ممّا تطّمئن به القلوب ألا ترى أنّ المنافق و الجاهل بالمعنى يقول لا إله إلاّ اللّه، سبحان اللّه، والحمدُ للّه و أمثال ذلك من الإذكار في طول عمره و حياته و لا يطّمئن قلبه أصلاً.

أمّا المنافق فلنفاقه و أمّا الجاهل فلجهله بالمعنى و عدم التّوجه الى ما يقول و هذا واضح بل محسوسٌ لا خفاء فيه لأحدٍ فالمراد بالذّكر في الآية ذكر

القلبي قطعاً و هو الذّي يوجب إطمئنان القلب و قد قيل في تعريفه هو التَّخلص من الغفلة و النسيان.

قال أهل السّلوك المراد بالذِّكر هو وجدان المذكور و حضوره بالقلب لا ذكره باللّسان وحده مع غفلة القلب و أوّل مراتب الذّكر بهذا المعنى نسيان الغير و إستدلّوا عليه بقوله تعالى في سورة الكهف **وَ اْذْكُرْ رَبَّكَ إِذاْ نَسِيتَ**(١) يعني اذا نسيت غيره و نسيت نفسك في ذكرك ثمّ نسيت ذكرك في ذكرك ثمّ نسيت في ذكر الحّق إيّاه و بيَّنوا له ثلاث درجات:

الأولىٰ: الذّاكر الظّاهر من ثناءٍ أو دهاءٍ أو رعاءٍ أي الظّاهر مع حضور القلب و وجدان المذكور و الثّناء:

قال اللّه تعالى: **سُبحٰانَ اللّه وَالْحَمدُ لِللّه وَلاٰ اِله الاّ اللّه وَلاٰ حَولَ وَلاٰ قُوَّةَ الِاّ بِاللّه.**

لأنّها كلمات في كلّ واحدةٍ منها ثناء و الدّعاء:

قال اللّه تعالى: **رَبَّناٰ لاٰ تُؤاٰخِذْنآٰ إِنْ نَسِينآٰ أَوْ أَخْطَأْناٰ**(٢).

قال اللّه تعالى: **رَبَّناٰ لاٰ تُزِغْ قُلُوبَناٰ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَناٰ**(٣).

قال اللّه تعالى: **رَبَّناٰ عَلَيْكَ تَوَكَّلْناٰ وَ إِلَيْكَ أَنَبْناٰ وَ إِلَيْكَ اَلْمَصيرُ**(٤) و أمثالها.

و الرّعاء و هو المراعات عندهم، فكالصّلاة مع حضور القلب فأنّها مع كونها ذكرا فيها مراعاة الشّرع و رعاية حقوق اللّه وكذا سائر العبادات و تلاوة كلام اللّه.



الدّرجة الثّانية الذّكر الخَفى: أي الذّكر بالقلب بدوام الحضور و المراقبة و التّوجه الى المذكور في جميع شئونه و المراقبة في أعماله و أوراده.

١- الكهف = ٢٤
٢- البقرة = ٢٨٦
٣- آل عمران = ٨
٤- الممتحنة = ٤

و **الدّرجة الثّالثة الذّكر الحقيقى**: و هو شهود ذكر الحّق إيّاك و التخلّص من شهود ذكرك و في هذه المرتبة يتحد الذّاكر و المذكور و الذّكر فإذا كان ذكر اللّه كذلك فهو يوجب إطمئنان القلب و إلاّ فلا.

المقام الثّانى: في الإطمئنان أعني به الطمّأنينة و قد فسّروها بالسّكون الّذي يقويه آمنٌ صحيحٌ شبيه بالعيان فهي تفضّل على السكينة بهذه التّقوية و أن شئت قلت هي كمال للسكينة و مقام فوق مقامها لأنّ الأمن الصّحيح لا يكون إلاّ من التعيين التّام و إلاّ لم يكن صحيحاً ثمّ أنّ طمأنينة القلب بذكر اللّه لها ثلاث درجات:

الأولىٰ: طمأنينة الخائف الى الرّجاء بمعنى أنّ العبد إذا كان خائفاً من وعيده فغلب عليه الخوف و أستوحش أنزل اللّه عليه السكينة من وعده و غلبه الرّجاء و أمن فأطّمأن الى الرّجاء و هذا معنى طمأنينة الخائف الىٰ الرّجاء.

الثّانية: طمأنينة الضّجر الى الحكم و هي أنّ العبد إذا سئم و ملَّ من التّكاليف و تضَّجر من الصَّبر على المجاهدة أو الفقر و الجوع أنزل اللّه عليه برحمته السكينة من مشاهدة الحكم و فتح عليه باب اليقين فأطّمأن الى حكم اللّه فيه فسكن اليه و رضى بالحكم فأستراح.

الثّالثة: طمأنينة المبتلى الى المثوبة فأنّه إذا إبتلى بمرضٍ أو نوع من المكاره و عيل صبره من مقاساة الضُّر أنزل اللّه عليه السّكون من مشاهدة الثّواب على الصَّبر و أجر البلاء و كونه كفّارة لذنوبه إطمّأن اليه و هذا كمن يشرب الدّواء المُّر و هو على يقين من نفعه هذا كلّه في طمأنينة القلب الّتي أشار اللّه تعالى اليها في الآية و أمّا طمأنينة الرّوح، و طمأنينة شهود الحضرة الى اللّطف فلا كلام لنا فيهما فعلاً لخروجهما عن البحث فثبت و تحقّق من جميع ما ذكرناه في معنى الذّكر و الإطمئنان أنّ الذّكر الّذي يوجب الإطمئنان القلبي هو توجّه

العبد في أقواله و أعماله الى اللّه و أنّ ما سواه كائناً ما كان في معرض الدّثور و الفناء و أنّ ما حكم اللّه في حّقه بقضائه و قدره له لا عليه واقعاً و أنّه يرجع الى ربّه الكريم فإذا كان الذّكر ينتهي الى ما ذكرناه فهو ذكر اللّه واقعاً و هذا هو المراد بقوله: **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** فإذا وصل العبد في مقام السّلوك الى هذا المقام يصير مصداقاً لقوله تعالى حين الموت:

يٰآ أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ، ٱرْجِعيَ إِلىٰ رَبِّكِ راٰضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلي في عِباٰدي، وَ ٱدْخُلي جَنَّتي[١].

ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّاٰلِحاٰتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَاٰبٍ

يحتمل أن يكون قوله: **ٱلَّذينَ اٰمَنُوا** في موضع نصب بأن يكون من صفة، الّذين، في الآية الأولى و التّقدير يهدي اليه من أناب و هم **ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ** الآية **ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّاٰلِحاٰتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَاٰبٍ** و يحتمل أن يكون موضعه الرّفع على الإبتداء و كيف كان فقد أخبر اللّه في هذه الآية أنّ المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات في دار الدنيّا طوبى لهم أي أنّ الّذين يؤمنون باللّه و يعترفون بوحدانيّته و يصدّقون نبيّه و ما أنزل عليه و يعملون بما أوجبه اللّه تعالى عليهم من الطّاعات و يجتنبون ما نهاهم عنه من المعاصي فهؤلاء مع إتّصافهم بهذه الصّفات إعتقاداً و عملاً طوبى لهم.

و إختلفوا في معناه فقيل طوبى لهم بطيب العيش و قيل، فرحٌ لهم تقّر به أعينهم و قيل معناه، الحسنى لهم و قيل المراد به الجنّة.

و قيل طوبى شجرة في الجنّة و أنت ترى أنّ الأقوال متقاربة المعنى و الأحسن أن يقال أنّ طوبى كلّ مستطابٍ في الجنّة من بقاءٍ بلا فناء و عزّ بلا زوالٍ و غنى بلا فقرٍ.

١- الفجر = ٢٧ الى ٣٠

و إعلم أنّ المستفاد من الآية و أمثالها أنّ الإيمان المجّرد عن العمل الذّي يعبّر عنه بالإعتقاد لا ينفع اذا لم يقارن بالعمل و الدّليل عليه قوله و عملوا الصّالحات و ذلك لأنّ الإعتقاد المجّرد عن العمل أمرٌ ذهنيّ لا وجود له في الخارج و الوجود الذهني لا أثر له و الأثار مترتبة على الوجود الخارجي فالثّواب و العقاب لا يتّرتبان على ما في الذِّهن ما لم يوجد في الخارج و هذا هو السِّر في تقارن الإيمان بالعمل و منه يظهر أنّ الإيمان بلا عمل لا أثر به و هذا معنى قول الرّضا عليه السلام لمّا سأل عن إشتراط الإيمان بالعمل، و هل الإيمان كلّه إلاّ العمل.

و عليه فقوله: **طُوبٰى لَهُمْ** أي طوبى لمن أمن و عمل به و أمّا قوله: **وَ حُسْنُ مَاٰبٍ** فالمأب المرجع يقال أب **يَؤُب** أوَباً اذا رجع و سمّي المثوى في الأخرة مأباً و منقلباً لأنّ العباد يصيرون اليه فالمعنى أنّ لهم طوبى و لهم حسن مأبٍ.

في تفسير علّي بن إبراهيم عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل، وفيه يقول صلى الله عليه وآله وسلم دخلت الجنّة و اذا شجرة لو أرسل طائراً في أصلها ما دارها سبع مائة عام وليس في الجنّة منزل إلاّ وفيها شجر منها فقلت ما هذه يا جبرئيل فقال هذه شجرة طوبى قال اللّه تعالى: طُوبٰى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَاٰبٍ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال طوبى شجرة في الجنّة في دار أمير المؤمنين وليس أحدٌ من شيعته إلاّ و في داره غصنٌ من أغصانها و ورقة من أوراقها يستّظل تحتها أمّةٌ من الأمم انتهى.

و عنه، قال عليه السلام كان رسول اللّه يكثر تقبيل فاطمة فأنكرت ذلك عائشة فقال رسول اللّه يا عائشة أنّي لمّا أسري بي الى السّماء دخلت الجنّة فأدناني جبرئيل من شجرة طوبى و ناولني من ثمارها أكلت فحوَّل اللّه ذلك ماءً في ظهري فلمّا هبطت الى الأرض

واقعت خديجة فحملت بفاطمة فما قبلّتها قطّ إلاّ و وجدت رائحة شجرة طوبى منها انتهىٰ[١].

و في تفسير نور الثّقلين بأسناده عن الرّضا عن أبيه عن أباءه عن علّي بن الحسين قال:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم يا علّي أنت المظلوم بعدي و أنت صاحب شجرة طوبى في الجنّة أصلها في دارك و أغصانها في دار شيعتك و محبيك و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة انتهىٰ.

و عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام طوبى هي شجرة تخرج من جنّة عدنٍ غرسها ربّنا بيده انتهى.

و عن كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام من أطعم ثلاثة نفر من المؤمنين أطعمه اللّه من ثلاث جنان، ملكوت السّماء الفردوس و جنّة عدنٍ و طوبى و هي شجرة من جنّة عدنٍ غرسها ربّنا بيده انتهىٰ[٢].

و الأحاديث في الباب كثيرة.

ثمّ أنّ ما ذكرناه من أنّ طوبى شجرة أصلها في دار النّبي أو دار علّيٍ عليه السلام لا يختّص بنقل الشّيعة بل العامّة أيضاً نقلوا هذه الأحاديث في تفاسيرهم.

فقد نقل القرطبي و هو من أعيان العامّة مع كمال تعصّبه في مذهبه و مخالفته للشيعة في تفسيره هذه الأحاديث بأسناد مختلفة و عبارات متغايرة.

ما نقله عن أبي هريرة أنّه قال في الجنّة شجرة يقال لها طوبى الحديث.

و عن أبي إمامة الباهلي أنّ أصلها في قصر النّبي صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمّ تنقسم فروعها على منازل أهل الجنّة الى أن قال و الصّحيح أنّها شجرة للحديث المرفوع الذّي ذكرناه و هو صحيح على ما ذكره السّهيلي



١- تفسير القمّي ج ١ ص ٣٦٥

٢- ج ٢ ص ٥٠٦

ذكره أبو عمرو في التمهيد و منه نقلناه و ذكره أيضاً الثّعلبي في تفسيره.

و ذكره أيضاً المهدوي و القشيري عن معاوية بن قرّة عن أبيه أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال، طوبى شجرة في الجنّة غرسها اللّه بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلّي و الحلل و أنّ أغصانها لترى من وراء سور الجنّة

ثمّ قال القرطبي ومن أراد زيادةً على هذه الأخبار فليطالع الثّعلبي ثمّ قال:

و قال إبن عبّاس طوبى شجرة في الجنّة أصلها في دار علّيٍ وفي دار كلّ مؤمنٍ منها غصنٌ.

و قال أوبو جعفر محمّد بن علّي سأل النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عن قوله تعالى: **طُوبٰى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَاٰبٍ** قال شجرة أصلها في داري و فروعها في الجنّة ثمّ سأل عنها مرّةً أخرى فقال شجرة أصلها في دار علّي و فروعها في الجنّة فقيل له يا رسول اللّه، سئلت عنها فقلت أصلها في داري و فروعها في الجنّة ثمّ سئلت عنها فقلت أصلها في دار علّي و فروعها في الجنّة فقال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ داري و دار علّيٍ غداً في الجنّة واحدة في مكانٍ واحدٍ انتهى.

و قال السّيوطي في الدّر المنثور و أخرج إبن أبي حاتم عن إبن سيرين قال شجرة في الجنّة أصلها في حجرة علّيٍ وليس في الجنّة حجرة إلاّ و فيها من أغصانها انتهىٰ.

أقول يظهر من هذه الأحاديث المرويّة من طريق الخاصّة و العامّة أنّ طوبى شجرة في الجنَّة في دار رسول اللّه أو في دار علّي عليه السلام و دارهما واحد على ما ذكره القرطبي و اذا كان الأمر على هذا المنوال و قد إعترف الخصم به فما عذر القرطبي والسيوّطي و غيرهما من العامّة الّذين رووا هذه الأحاديث في كتبهم

و تفاسيرهم غداً يوم القيامة في تركهم عليّاً و متابعتهم لأبي بكر و عمر أليس من تكون شجرة طوبى في داره و داره مع دار رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم واحداً أولى بالإتّباع من غيره فأعتبروا يا أولي الأبصار ثمّ أقول يستفاد من الآية و الأخبار الواردة فيها أنّ من تابع غير علّي في دينه فهو ليس بمؤمن أصلاً و توضيحه أنّ اللّه تعالى جعل أصل الشّجرة في دار علّي على ما نطقت به الأخبار و أغصانها في دار شيعته و محبّيه فمن لا يكون من شيعته و محبّيه ليس له نصيبٌ منها و من كان كذلك فليس بمؤمن لأنّ اللّه تعالى يقول: **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ** فمن ليس له طوبى ليس بمؤمنٍ حقّاً و بعبارةٍ أخرى، طوبى، ثمرة شجرة الإيمان و هذه الشَّجرة مع ثمرتها في دار علّي فالإيمان لا يوجد إلاّ بولايته و متابعته و هذا هو المراد بقول الشيعة أنّ الإيمان لا يحصل إلاّ بولاية علّي و الأئمة بعده لأنّهم مع سول اللّه جميعاً من نورٍ واحدٍ فالإسلام يحصل بالرّسالة و الإيمان بها و بالولاية فتعالى اللّه.

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابِ

إختلفوا في التشبيه في قوله و كذلك، على قولين:

أحدهما: أنّ المعنى إنّا أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك.

الثّاني: أنّ النّعمة على من أرسلناك اليه كالنعمة على من تقدّم ذكره بالثّواب في، حسن مآبٍ، و المعنى إنّا أرسلناك يا محمّد، و في أمّةٍ قد مضت، من قبلها أُممٌ، و غرضي أن تتلوا أي تقرأ عليهم ما أوحينا اليك من الأمر و النّهي و الوعد و الوعيد ذكر هذين الوجهين في التّبيان.

أقول المعنى الأوّل، هو الصّواب و المعنى كإرسلنا الرُّسل من قبلك أرسلناك أيضاً، في أمّةٍ، أي الى أمّةٍ قيل أنّما عدّىٰ الإرسال، بفي، و حقّه أن

يعدّى، بالى، لأنّ الأمّة موضع الإرسال كما في قوله تعالى: **فَرَدُّوٓا أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ**[١] أي الى أفواههم، قد خلَت، أي قد مضت و تقدَّمت، كما قال تعالى: **وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ**[٢] **من قبلها** الضّمير يرجع الى الأمّة أي من قبل الأمّة أممٌ، لتتلوا عليهم الّذي أوحينا اليك، أي لتقرأ على الأمّة ما أوحينا اليك من القرآن و ما فيه من شرائع الإسلام من الأوامر و النّواهي و بالجملة جميع الأحكام، و هم يكفرون بالرّحمن، **الواو** للحال أي و الحال أنّهم يكفرون بالرّحمن و يقولون لا ندري ما الرّحمن، قل هو ربّي لا إله إلاّ هو، أي قل لهم يا محمّدٍ هو أي الرّحمن الّذي لا تعرفونه ربيّ لا إله إلاّ هُو عليه توكلّت في جميع أحوالي و اليه متاب أي مرجعي.

قيل أنّها نزلت في صلح الحديبيّة حين أرادوا أن يكتبوا الصُّلح فقال النّبي ﷺ لعلّي عليه السلام أكتب بسم اللّه الرّحمن الرّحيم فقال سهيل بن عمر و و المشركين ما نعرفُ الرّحمن إلاّ صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذّاب، أكتب بأسمك اللّهم، و هكذا كان أهل الجاهليّة يكتبون فقال النّبي ﷺ لعلّي أكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول اللّه فقال مشركو قريش لأن كنت رسولَ اللّه ثمّ قاتلناك و صددناك لقد ظلمناك ولكن أكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد اللّه ﷺ فقال أصحاب النّبي دعنا نقاتلهم فقال ﷺ لا و لكن أكتب ما يريدون فنزلت و قال إبن عبّاس نزلت في كفّار قريش حين قال لهم النّبي ﷺ إسجدوا للرّحمن، قالوا و ما الرّحمن فنزلت قل يا محمّد ﷺ لهم الّذي أنكرتم هو ربّي لا إله إلاّ هو و لا معبود سواه.

و قال بعضهم سمع أبو جهل رسول اللّه يدعو في الحجر و يقول يااللّه يا رحمن فقال.

فقال كان محمّد ينهانا عن عبادة الآلهة و هو يدعو آلهين فنزلت هذه الآية هذا ما قالوه في تفسير الآية و شأن نزولها و الّذي يستفاد منها هو أنّ إرسال

١- ابراهيم = ٩ ٢- آل عمران = ١٤٤

الرُّسل و إنزال الكتب السّماويّة ممّا لابدّ له عقلاً و نقلاً و حيث أنّ المشركين تعجبّوا من قول رسول اللّه أنّي رسول اللّه اليكم فقال تعالى: **كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَآ أُمَمٌ**

أي أنّه ليس أوّل الرُّسل و لا أنتم أوّل الأمم بل هذه سيرةٌ مستمرةٌ من بَدو خلق آدم و ذلك لأنّ البشر محتاج الى الرّسول ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ وخليفة الرّسول و قال **لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ** و فيه إشارة الىٰ أنّ النّبي تابعٌ للوحي يقول إلاّ بما أوحي اليه كما قال تعالى: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْيٌ يُوحىٰ**(١) و لذلك لا يجوز الرَّد عليه و لا مخالفته فمن ردَّ عليه أو خالفه فقد ردَّ على اللّه و خالفه كما ثبت عقلاً و نقلاً في محلّه و لعلَّ البحث فيه يأتي في المستقبل إن شاء اللّه.

وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبٰالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا أَنْ لَوْ يَشٰآءُ ٱللّٰهُ لَهَدَى ٱلنّٰاسَ جَمِيعًا وَ لٰا يَزٰالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دٰارِهِمْ حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُخْلِفُ ٱلْمِيعٰادَ

القرآن، بضمّ القاف في الأصل مصدر نحو كفران و رجحان و قد خصّ بالكتاب المنزل على محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فصار له كالعلم كما أنّ التّوراة لما أنزل على موسى و الإنجيل لما أنزل على عيسى.

قال بعض المحقّقين تسمية هذا الكتاب قرأنا من بين كتب اللّه لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى اليه بقوله: **تِبْيٰانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَ لٰا رَطْبٍ وَ لٰا يٰابِسٍ إِلّٰا فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ** قيل في نزول الآية أنّ نفراً من مشركي مكّة معهم أبو جهل بن هشام و عبد اللّه بن أميّة قالوا يا محّمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم إن يسُّرك أن نتبعك فيَّسر لنا بقرأنك الجبال عن حوالي مكّة

١- النجم = ٣ / ٤

فأنّها ضيّقة حتّى تتّسع لنا الأرض فنتّخذ البساتين و المحارث و شقّق الأرض و فجّر الأنهار و العيون كما في أرض الشّام و أحي رجلين أو ثلاثة ممّن مات من آبائنا منهم قصّي بن كلاب ليكلّمونا و نسألهم عن أمرك أحقّ ما تقول أم باطل فلّما أقترحوا عليه ﷺ هذه الأيات نزل قوله: **وَ لَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ اَلْجِبٰالُ**.

و قال إبن عبّاس و مجاهد و غيرهما أنّ الكفّار قالوا للنبي ﷺ سيّر جبلي مكّة فقد ضيّقا علينا و أجعل لنا أرضاً قطعاً غراساً و أحيِ لنا آبائنا و أجدادنا و فلاناً و فلاناً فنزلت معلّمةً أنّهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كلّه و لّما ذكر تعالى علّة إرساله و هي تلاوة ما أوصاه اليه ذكر تعظيم هذا الموحي و أنّه لو كان قرأناً تسير به الجبال عن مقرّها أو تقطّع به الأرض حتّى تتزايل قطعاً قطعاً أو تكلّم به الموتى فتسمع و تجيب، لكان هذا القرآن، لكونه غاية في التّذكير و نهايةً في الإنذار و التّخويف.

كما قال تعالىٰ: **لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا اَلْقُرْاٰنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اَللّٰهِ وَ تِلْكَ اَلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**(١).

فجواب، لو، في قوله: **وَ لَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ** ألخ محذوف أي لو أنّ قرآناً كان كذلك لكان هذا القرآن، و قد إتفّقوا على أنّ حذف جواب، لو، بعد دلالة المعنى عليه جائز و قيل تقديره، لما آمنوا به.

كقوله تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰآ إِلَيْهِمُ اَلْمَلاٰئِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ اَلْمَوْتىٰ وَ حَشَرْنٰا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوٓا**(٢).

و قال الفّراء يجوز أن يكون جواب، لو، لكفروا بالرّحمن لتّقدم ما يقتضيه.

و قال البلخي يجوز أن يكون قوله: **وَ لَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا** ألخ معطوفاً على قوله: **وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ** في الآية السّابقة فكأنّه قال و هم يكفرون بالرّحمٰن و لو أنّ

١- الحشر = ٢١
٢- الانعام = ١١٠

قرآناً سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتى، و عليه فيستغنى بذلك عن الجواب و هذا كما تقول هو يشتمني ولو أحسنت اليه و هو يؤذيني ولو أكرمته.

و أمّا حذف التّاء من الفعل في قوله أو كلّم به الموتى مع إثباتها في الفعلين قبله و هما قطّعت و سيّرت، فلأنّ الموتى يشتمل على المذكر الحقيقي و التغليب له فكان حذف التّاء أحسن و الجبال و الأرض ليسا كذلك.

و أمّا قوله: **بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا** فمعناه أنّ جميع ما ذكر من تسير الجبال و تقطيع الأرض و إحياء الموتى و كلّ تدبير يجري هذا المجرى فهو للّه لأنّه لا يملكه و لا يقدر عليه سواه.

و قال صاحب الكشّاف بل للّه الأمر جميعاً على معنيين:

أحدهما: للّه القدرة على كلّ شئٍ فهو قادرٌ على الأيات التّي إقترحوها لولا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة.

الثّاني: بل للّه أن يلجئهم الى الإيمان و هو قادرٌ على الإلجاء لولا أنّه بنى أمر التّكليف على الإختيار و يعضده قوله تعالى: **أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنْ لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ** مَشيّئة اللّه الإلجاء و القسر لهدى النّاس جميعاً انتهىٰ.

أقول اليأس القنوط في الشّئ و هو هنا في قول الأكثر بمعنى العلم كأنّه قيل ألم يعلم الّذين أمنوا.

و قيل هو لغة هوازن قال شاعرهم:

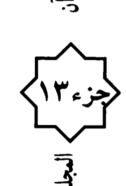
ألم ييأس الأقوام أنّي أنا إبنه و أن كنت عن أرض العشيرة نائياً

و قال الأخر:

أقول لهم بالشّعب اذ يأسروننى الم ييأسوا أنّي إبن فارس زهدم

أي ألم يعلموا.

و قال الفرّاء معناه أفلم ييأس الّذين أمنوا أن ينقطع طمعهم من خلاف هذا علماً بصحّته كما قال لبيد:



حتّى اذا يأس الرّماة فأرسلوا عصفاً دواجن قافلاً أعصامها

معناه، حتّى اذا يأسوا من كلّ شيءٍ إلاّ الّذي ظهر أي يأسوا من خلاف ذلك لعلمهم بصحته و العلم بالشّيءِ يوجبُ اليأس من خلافه انتهى.

و قال السيّد المرتضى في أماليه ما هذا لفظه.

إعلم أنّ من عادة العرب الإيجاز و الإختصار و الحذف طلباً لتقصير الكلام و إطّراح فضوله و الإستغناء بقليله عن كثيره ويعدُّون ذلك فصاحة و بلاغة و في القرأن من هذه الحذوف و الإستغناء بالقليل من الكلام عن الكثير مواضع كثيرة نزلت من الحسن في أعلى منازله و لو أفردنا لما في القرأن من الحذوف الغريبة و الإختصارات العجيبة لكان واجباً فمن ظاهر ذلك قوله تعالى: **وَ لَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتٰى** الخ. ولَم يأت بجواب، لو، صريحاً في الكتاب و أنّما أراد **لَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ** الخ لكان هذا.

و مثل هذا الحذف ما روي عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم من قوله: **لو كتب هذا القرأن في أهاب و طرح في النّار ما أحرقته النّار**، و المراد و كانت النّار ممّا لا يحرق جسماً لجلالة قدره ما أحرقته، فحذف ذلك إختصاراً لدلالة الكلام عليه و مثل هذا قوله تعالى:

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا[1].

و تقديره أنّ السّموات و الأرض و الجبال لو كنَّ ممّا يأبى و يشفق، و عرضنا عليهنّ الأمانة لأبين و أشفقن و جعل المعلوم بمنزلة الواقع فقال عرضنا، من حيث علم أنّ ذلك المشروط لو وقع شرطه لحصل هو انتهى.

أقول ما ذكره من أنّ جواب، لو، محذوف ممّا لا كلام فيه و أمّا الكلام في الآية التّي إستدّل بها على مدّعاه فسيأتي في محلّه.

١- الأحزاب = ٧٢

و أمّا قولهم في اليأس فالحقّ أن يراد به العلم فقوله: **أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا**، معناه أفلم يعلموا و ليس معنى هذا الكلام أنّ اليأس جاء بمعنى العلم أو هو موضوع في كلامهم للعلم و من قال أنّه لغة هوازن فهو على فرض صحتّه لغة شاذّةٌ مطرودة لا يمكن حمل كلام اللّه عليه كما هو ثابت في محلّه.

فإذاً قولهم ألم ييأسوا أي ألم يعلموا، معناه أنّهم قصدوا أنّ يأس الّذين أمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل بعد العلم بإنتفاء ذلك فثبوت بأسهم يقتضي ثبوت حصول علمهم فيصير حاصل معنى الكلام أنّ المؤمنين قد علموا أن لو يشاء اللّه لهدى النّاس جميعاً و لكنّه لم يشاء ذلك لمنافاته الإختيار الّذي بني عليه التكليف هذا.

و إن شئت قلت قوله: **أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا** الإستفهام فيه للإنكار أي يأس الّذين أمنوا عن هداية النّاس جميعاً و اليأس عن الهداية يلزم العلم بعدم الهداية فصَّح أن يقال بأنّهم علموا ذلك أي علموا أنّ اللّه لا يفعل ذلك لكونه منافياً للإختيار.

و أمّا قوله: **وَ لَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ** فالقارعة هي الداهيّة المهلكة و هي من القرع و هو ضرب شيءٍ على شيءٍ و منه قولهم قرعته بالمقرعة.

قيل معناه تصيبهم بما صنعوا من كفرهم و سوء أعمالهم قارعةٌ و داهيةٌ تقرعهم بما يحلّ اللّه بهم في كلّ وقتٍ من صنوف البلايا و المصائب في أنفسهم و أولادهم و أموالهم أو تحلّ القارعة قريباً منهم فيفزعون و يضطربون و يتطاير اليهم شرورها و تتعدى اليهم حتّى يأتي وعد اللّه و هو موتهم أو القيامة.

و قال بعضهم أنّ كفّار قريش و العرب لا تزال تصيبهم قوارع من سرايا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و غزواته.

و قوله: **حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ** أي يأتي وعده بفتح مكّة و الحقّ في معناه حتّى يأتي يوم القيامة.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ** فهو مسلَّمٌ لا كلام فيه عند من أمَن باللّه و رسوله و اليوم الأخر و قد مرَّ الكلام في خلف الوعد و أنّه مذموم عقلاً و شرعاً بل هو من علائم النّفاق و اللّه تعالى منّزه عنه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**(٥).

و الأيات كثيرة و الأمر واضح لا خفاء فيه.

وَ لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

اللاّم في قوله: وَلَقَد، لام القسم و معنى الكلام أنّ اللّه تعالى أقسم أنّه لقد إستهزئ برسلٍ من قبلك يا محمّد و الإستهزاء طلب الهزء و هو إظهار خلاف الإضمار للإستضعاف فيما يجري من عبث الخطاب و فيه إشارة الى أنّ ما طلبوه منك من تسيير الجبال و تقطيع الأرض و إحياء الموتى كان على سبيل الإستهزاء لا على سبيل الجدّ لعلمهم بأنّه لا يكون ولو كان، لم يؤمنوا، و أنّما قالوا ذلك على سبيل السخرية و الإستهزاء و هذا ليس مختصّاً بك فأنّ الكفّار و

١- النّساء = ١٢٢
٢- يُونس = ٥٥
٣- الكهف = ٩٨
٤- الرّوم = ٦
٥- لقمان = ٣٣

المعاندين المستهزئين بالرُّسل و الأديان كانوا قبلك أيضاً موجودين و كانوا يستهزؤن بالرُّسل كما يستهزؤن بك فلا تغتّم به.

فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ الإملاء الإمداد و منه قيل للمدّة الطّويلة ملاوةٌ من الدّهر يقال عشت مليّاً أي طويلاً، و المعنى أخرت عقابهم و إهلاكهم و أمهلتهم مدّةً في دار الدنيّا ثمّ أخذتهم أي أخذت هؤلاء الكفّار و أنزلت عليهم عذابي فكيف كان عقاب، إستفهام معناه التّعجب بما حلَّ و في ضمنه وعيدٌ لمعاصري الرّسول ﷺ من الكفّار:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**(٤).

و غيرها من الأيات فكأنَّ هذا الكلام منه تعالى تسلية للنّبي ﷺ.

■



١- الحجّ = ٤٤
٢- الحجّ = ٤٨
٣- الأعراف = ١٨٣
٤- أل عمران = ١٧٨

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ
شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
ٱلْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ
ٱللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيٰوةِ
ٱلدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ
مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ
عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ عُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾
وَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ
مِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ ٱللّٰهَ وَ لَآ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ
﴿٣٦﴾ وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللّٰهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ
قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللّٰهُ مَا يَشَآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ
أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَ إِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ
﴿٤٠﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا وَ ٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ

سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

◀ اللّغة

تُنَبِّئُونَهُ أي تخبرونه من الإنباء و هو الإخبار.

صُدُّوا الصَّد المنع.

واقٍ إسم فاعل من وَقَىٰ يَقي و المواقي المانع.

مَآبِ المآب المرجع، والباقي واضح.

◀ الإعراب

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ معطوف على كسبت و يحتمل أن يكون مستأنفاً مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ مبتدأ و الخبر محذوف أي و فيما يتلى عليكم مثل الجنَّة فعلى هذا تَجْرِي حال من العائد المحذوف في وعد نَنْقُصُهَا حال من ضمير الفاعل أو من الأرض وَ مَنْ عِنْدَهُ موضعه الرَّفع على موضع إسم اللّه، أي كفى اللّه و كفى من عنده و يحتمل أن يكون موضعه الجرّ عطفاً على لفظ إسم، اللّه و على هذا عِلْمُ ٱلْكِتَابِ مرفوع بالظّرف.

◀ التّفسير

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

الإستفهام للإنكار و كلمة، من، موصولة صلتها ما بعدها و هي مبتدأ و الخبر

محذوف تقديره أفمن هو قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت كمن ليس كذلك من شركاءهم التّي لا تضُر و لا تنفع كما حذف من قوله:

أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ(١).

تقديره كالقاسي قلبه الذّي هو في ظلمةٍ ودلّ عليه قوله تعالىٰ: **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ** كما دلَّ على القاسي قوله: **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** و يَحسُن حَذف هذا الخبر و قد جاء مثبتاً كثيراً كقوله تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ**(٢) أفَمَن يعلم كمن هو أعمى و الظّاهر أنّ قوله و جعلوا للّه شركاء إستئناف إخبارٍ عن سوء صنيعهم و كونهم أشركوا مع اللّه ما لا يصلح للألوهيّة و معنىٰ الكلام أفمن هو قائم بتدبير النّفوس و جزاءها على ما كسبت من خيرٍ أو شرٍّ كمن ليس بهذه الصِّفة و أنّما حذف الخبر لدلالة الكلام عليه و معلومٌ أنّ المراد بالقيام على النّفوس ليس القيام الّذي هو ضدّ القعود بل هو بمعنى التَّولي لأمور الخلق كما يقال قام فلان بالأمر أو قام بشغلٍ كذا و ذلك لأنّ البارئ تعالى هو المحيط بأحوال النّفوس جليها و خفيّها فأنّه خالقها و موجدها.

و قد ثبت أنّ العلّة الموجدة لا يخفى عليه شئ من شئون المعلول خصَّ الكسب بالذِّكر وقال بما كسبت ليتّفكر الإنسان فيما يكسب من خيرٍ و شرٍّ و ما يتَّرتب على الكسب في الجزاء **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ** الواو للإستئناف و هو الظّاهر من الكلام و قيل الواو للحال أي أو قد جعلوا و قيل معطوف على أستهزئ، أي إستهزؤا و جعلوا للّه شركاء و الأصَّح أنّه للإستئناف أي و جعلوا للّه شركاء في العبادة فعبدوا الأصنام و الأوثان **قُلْ سَمُّوهُمْ** أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار سمُّوهم أي أذكروهم بأسماءهم و المعنى أنّهم ليسوا ممّن يذكر و يسمّى من هو ينفع و يضُّر و لذلك قال بعضهم أنّما يقال ذلك في الشّئ

١- الزّمر = ٢٢

٢- النحل = ١٦

المستحقر الذّي يبلغ في الحقارة الى أن لا يذكر و يسمّى و لكن أن شئت أن تضع له إسماً فإفعل فكأنّه قال سمّوهم بالألهة على جهة التّهديد.

و حاصل المعنى سواءٌ سميتموهم بهذا الإسم أم لم تسمُّوهم فأنّهم في الحقارة بحيث لا يستّحق أن يلتفت العاقل اليها.

و قال بعض المفسّرين معنى الكلام، سمُّوهم بما يستّحقون من الأسماء التّي هي صفات ثمّ أنظروا هل تدلّ صفاتهم على أنّه يجوز أن يعبدوا أم لا إنتهى.

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أم في قوله، أم تنبّئونه منقطعة إستفهام توبيخ.

قال الزّمخشري أي بل أتنبّئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض و هو العالم بما في السّموات و الأرض فاذا لم يعلمهم اللّه علم أنّهم ليسوا بشئٍ يتعلّق به العلم و المراد نفي أن يكون له شركاء، و نحوه قوله تعالى: **قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ**(١) انتهى.

فجعل الفاعل في قوله: **بِمَا لَا يَعْلَمُ** عائداً على اللّه تعالى و الظّاهر أنّ، أم، في قوله: **أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ** أيضاً مُنقطعة أي بَل أتُسمُّونهم شركاء بظاهرٍ من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة و بعبارةٍ أخرى إنّكم تنطقون بتلك الأسماء و تسمونها ألهة و لا حقيقة لها إذا أنتم لا تعلمون أنّها لا تتَّصف بشئٍ من أوصاف الألوهيّة فهو كقوله تعالى:

مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمٰآءً سَمَّيْتُمُوهٰآ أَنْتُمْ وَ اٰبآؤُكُمْ(٢).

و قوله: **إِلَّآ أَسْمٰآءٌ سَمَّيْتُمُوهٰآ أَنْتُمْ وَ اٰبآؤُكُمْ**(٣).

و قيل، أم، متصلّة و التقدير أم تنبّئونه بظاهرٍ من القول لا حقيقة له.

كقوله تعالىٰ: **ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ**.

١- يُونس = ١٨
٢- يوسف ۴٠
٣- النّجم = ٢٣

بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ قرأ مجاهد زيَّن، على البناء للفاعل و مكرهم بالنَّصب و الجمهور على البناء للمفعول و مكرهم بالرّفع و عليه المصاحف أي كيدهم للإسلام بسبب شركهم و ما قصدوا بأقوالهم و أفعالهم من مناقضة الشّرع، و قال بعضهم، أي زيَّن ذلك لهم أنفسهم و غواتهم من شياطين الإنس و الجنّ و صدّوا عن السَّبيل، أي منعوا عن طريق الحقّ بالإغواء و المنع و قيل أي أعرضوا عن طريق الجنّة.

و الحاصل أنّ مكرهم صار باعثاً لذلك **وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ** قيل في معناه أنّ من حكم اللّه عليه بأنّه ضالّ على وجه الذّم فأنّه لا ينفعه هداية أحدٍ.

و قال بعض المفسّرين معناه من يضلّه عن طريق الجنّة الى النّار فلا هادٍ يهديه اليها و لا يجوز أن يكون المراد من يضلّه عن الإيمان لأنّ ذلك سفه لا يفعله اللّه تعالى.

و أنا أقول إضلال اللّه العبد إيكاله الى نفسه أي إخراجه عن حيطة لطفه و عنايته بسبب معصيته و من المعلوم أنّ من وكله اللّه الى نفسه سلَّط عليه الشّيطان قهراً و لا نعني بالضّال إلاّ هذا و قد مرَّ نظير هذا غير مرّةٍ و تكلَّمنا في معناه بما لا مزيد عليه.



لَهُمْ عَذٰابٌ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ لَعَذٰابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ واقٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ لهؤلاء الكفّار الذّين وصفهم في الأيات السّابقة عذابٌ في الحياة الدنيّا و عذابٌ في الأخرة، و لعلَّ المراد بالعذاب في الدنيّا هو ما يصيبهم بسبب كفرهم من القتل و الأسر و النّهب و الذلّة و الحروب و البلايا في أجسامهم و غير ذلك ممّا يمتحن به الكفّار.

و أمّا عذاب الأخرة فهو الخلود في جهنّم والإحراق بالنّار فيها دائماً كلّما نضجت جلودهم بدَّجلناهم جلوداً غيرها و لا شكّ في أنّه أشقّ أي أصعب من عذاب الدّنيا كمّاً و كيفاً بل لا يقاس أحدهما بالأخر كما لا يقاس الدنيّا بالأخرة فأنّ الدُّنيا و ما فيها فانية و الأخرة و ما فيها باقية.

و أمّا قوله: **وَ مٰا لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ واٰقٍ** أي ليس لهم من يمنعهم منه لأنّ حكم الأمثال واحدٌ.

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ أُكُلُهٰا دٰآئِمٌ وَ ظِلُّهٰا

إرتفع مثل، على الإبتداء في مذهب سيبويه و الخبر محذوف أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنّة.

و قوله: **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ** تفسير لذلك المثل تقول مثّلت الشّئ إذا وصفته و قرّبته للفهم و أنكر أبو علّي أن يكون، مثل، بمعنى صفة قال إنّما معناه التنبيه، و قيل أنّه تعالى شبّه الجنّة و الخبر محذوف تقديره، مثل الجنّة الّتي هي الأنهار مشبه الجنّة الّتي وعد المتّقون بالجنّة الّتي هي الأنهار فكأنّه قال مثل هذه كما قال تعالى[١] و قال قوم معناه صفة، فالجنّة الّتي وعد المتّقون صفة جنّةٍ تجري من تحتها الأنهار وكيف كان فالجنّة البستان الّذي يجّنه الشّجر و المراد هاهنا جنّة الخلد الّتي أعّدها اللّه للمتّقين جزاءً لهم على طاعاتهم و إنتهائهم عن معاصيه و المتّقي هو الّذي يتّقي عقاب اللّه بفعل الواجبات و ترك المقبحات.

و قوله: **أُكُلُهٰا دٰآئِمٌ وَ ظِلُّهٰا** أي إنّ ثمارها لا تنقطع و قيل معناه النّعيم بها لا ينقطع بموتٍ و لا بغيره من الآفات و ظلّها، معطوف على أكلها أي و ظلّها أيضاً دائمٌ لا نفاد له إذ ليس لها حَر الشّمس، ثمّ أنّ الأُكُل بضم الألف والكاف، ما

١- النّحل =٦٠

يؤكل فيها و معنى دوامه عدم إنقطاعه ثمّ قال تعالى: **تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ عُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ** العُقبىٰ بضّم العين على وزن فعلى، معناه آخر كلّ شئٍ و هو الآخرة و قيل معناه جزاء الأمر و المآل فيهما الى واحدٍ لأنّ الجزاء آخرُ العمل، أخبر اللّه تعالى أنّ عاقبة أمر هؤلاء و هؤلاء الى الجنّة و النّار فعاقبة المتّقين الخلود في الجنّة و الإلتذاذ بنعمها الّتي لا تفنى و أمّا عاقبة الكفّار الجاحدين المنكرين (النّار) أعاذنا اللّه منها بمحمّدٍ و آله.

وَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ أهل الكتاب من اليهود و النّصارى يفرحون بما أنزل على رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من القرآن إذ فيه تصديق كتبهم و ثناء على أنبيائهم و أحبارهم و رهبانهم الّذين هم على دين موسى عليهما السّلام و رُدّ هذا القول بأنّ همَّهم به أكثر من فرحهم بل لا يعقل لهم فرح و لو كان لا يعقل به و أيضاً فأنّ اليهود و النّصارى ينكرون بعضهم و قد قذف تعالى بين الّذين ينكرون بعضه و بين الّذين آتيناهم الكتاب و لذلك قال بعض المفسّرين أنّها نزلت في مؤمني أهل الكتابين و أختاره صاحب الكشّاف فقال نزلت فيمن أسلم من اليهود كعبد اللّه بن سلام و كعب الأحبار و أصحابهما، و من أسلم من النّصارى و هم ثمانون رجلاً أربعون من نجران و ثمانية من اليمن و إثنان و ثلاثون من الحبشة، و قوله: **وَ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ** يعني و من أحزابهم و هم كفرتهم الّذين تحَّزبوا على رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف و أصحابه و السّيد و العقب أسقفي نجران و أشياعهما من ينكر بعضه لأنّهم كانوا لا ينكرون، الأقاصيص و بعض الأحكام و المعاني ممّا هو ثابت في كتبهم غير محّرف و كانوا ينكرون ما هو لغة رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ونعت الإسلام ممّا حرَّفوه و بدَّلوه و الفرح في الأصل إنشراح الصَّدر الصَّدر بلَّذةٍ عاجلة و أكثر ما يكون ذلك في اللّذات البدنية.

و قوله: **وَ مِنَ ٱلْأَحْزٰابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ** فالأحزاب جمع، حزب، بكسر الحاء و هم الجماعة التّي تقوم بالنّائبة يقال تحّزب القوم تحّزباً و حزّبهم الأمر يخرجهم اذا نالهم بمكروهه، و المقصود أنّ المؤمنين الّذين أمنوا باللّه و رسوله كانوا يفرحون بما أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بعض الأحزاب من أهل الكتاب أنكروا رسالته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّ القرأن أنزل على الرّسول.

و ملخصّ الكلام أنّ أهل الكتاب من اليهود و النّصارى منهم من أمن و فرح بإيمانه و منهم من لم يؤمن و أنكر الحقّ.

قُلْ إِنَّمٰآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللّٰهَ وَ لآَ أُشْرِكَ بِهِٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَاٰبِ أي قل لهم يا محمّد أنّي أعبد اللّه الذّي لا إله إلاّ هو و لا أشرك به تعالى لا شرك الألوهيّة و لا شرك العبادة بل أقول هو الّذي تفّرد بالألوهيّة و ما سواه كائناً ما كان مخلوق له اليه أدعوا، أي الى اللّه تعالى أدعوا النّاس لا الى غيره كما أمر اللّه تعالى:

قال اللّه تعالىٰ: **أُدْعُ إِلٰى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلا يُنٰازِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَ ٱدْعُ إِلٰى رَبِّكَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمٰآ أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْوٰآءَهُمْ**[3].

و غيرها من الأيات التيّ أمر اللّه نبيّه بأن يدعو النّاس اليه و هذا أي دعوة النّاس اليه تعالى لم يكن مختصّاً بالنّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل جميع الأنبياء كانوا كذلك بل الدَّعوة الى اللّه هي الغرض من بعث الأنبياء و جعل الأحكام و الشّرائع في جميع الأزمنة.

و أمّا قوله: **وَ إِلَيْهِ مَاٰبِ** أي الى اللّه تعالى مرجعي و مصيري كما يكون مرجع الكلّ اليه:

۱- النّحل = ۱۲۵

۲- الحجّ = ۶۷

۳- الشّورىٰ = ۱۵

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيهِ إِلَى ٱللّٰهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**[٤].

و الأيات الدّالة على هذا المعنى كثيرة مضافاً الى حكم العقل بذلك كما يأتي الكلام فيه إن شاء اللّه.

وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوٰآءَهُمْ بَعْدَ مٰا جٰآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لٰا واقٍ

إختلفوا في وجه التشبيه في قوله و كذلك على أقوالٍ:

أحدها: أنّه تعالى شبّه إنزاله حكماً عربيّاً بما أنزل على من تقدّم من الأنبياء أي كما أنزلنا الكتب السّابقة بلسان من نزلت عليه كما قال تعالى: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**[٥] كذلك أنزلنا القرأن بلسانك و لسان قومك أعني به لسان العرب.

و المراد بالحكم ما يفصل بين الحقّ و الباطل و القرأن كذلك عبّر عنه بالحكم.

الثّاني: أنّه تعالى شبّه إنزاله حكماً عربيّاً بإنزاله كتاباً تبياناً في أنّه منعم بجميع ذلك على العباد و الحكم فصل الأمر على الحقّ.

الثّالث: قال بعضهم، كما يسّرنا لهؤلاء الفرح و لهؤلاء الإنكار لبعضٍ كذلك أنزلناه حكماً عربيّاً، و إنتصب حكماً على الحال من ضمير النّصب في أنزلناه و الضّمير عائد على القرأن.

١- العَلَق = ٨
٢- البقرة = ٢٨١
٣- فصّلت = ٢١
٤- الحديد = ٥
٥- ابراهيم = ٤

قال بعض المحقّقين في قوله: **حُكْمًا** يعني يحكم القرأن في كلّ شيءٍ يحتاج اليه العباد على مقتضى الحكمة و الصّواب فالحكم مصدر بمعنى الحاكم و لمّا كان جميع التّكاليف الشرعية مستنبطاً من القرأن فهو للحكم فأسند اليه الحكم إسناداً مجازيّاً ثمّ جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة و يقال حكماً أي محكماً لا يقبل النّسخ و التّغيير انتهى كلامه.

أقول لا نحتاج في تفسير الحكم الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ الحكم بالشّئ أن تقضي بأنّه كذا أو ليس بكذا سواءٌ ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّآ أَنْزَلْنآ إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِمآ أَراكَ اللّهُ**[٢].

و أمّا تسميّته القرأن بالحكم في قوله: **وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْمًا** فلأنّه سَبَبٌ للحكم لأنّ الحاكم يحكم بسببه ذلك لأنّ الكتاب هو الأصل و السنّة و العقل و الإجماع تابع له و لذلك تعرض السنّة على الكتاب و لا يعرض الكتاب عليها و توضيح ذلك إجمالاً.

هو أنّ الأدلّة في إستنباط الأحكام الشرعيّة أربعة، الكتاب، و السنّة، و الإجماع، و العقل، و الأصل فيها هو الكتاب و أمّا السنّة و الإجماع و العقل فهي من الأدلّة اذا لم تخالف الكتاب.

و أمّا في صورة المخالفة فلا يعبأ بها فهو الأصل و ما سواه من الأدلّة الثلاثة فرعٌ عليه فالحكم في الحقيقة ينشأ منه لا من غيره و لذلك سمّي حكماً.

ألا ترى أنّ الخبرين المتعارضين يعرضان على الكتاب فما وافقه يؤخذ به و ما خالفه يترك وتحقيق البحث في الأصول و الحكم بهذا المعنى أعني به الأصل قد يطلق على اللّه تعالى أيضاً.

١- النّساء = ٥٨

٢- النّساء = ١٠٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللّٰهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ اٰثِمًا أَوْ كَفُورًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ ٱلْحاسِبِينَ**[٤].

و أمثال هذه الأيات كثيرة فالحكم في الأصل للّه تعالى بقولٍ مطلق و إطلاقه على الكتاب بإعتبار أنّه كلام اللّه و هذا واضح بحمد اللّه و أنّما و صفه بالعربيّة فقال حكماً عربيّاً، لأنّه نزل بلسان العرب و هو ظاهر: **وَ لَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ مٰا جٰاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لٰا واقٍ** أي لأن إتّبعت يا محمّد هؤلاء الكفّارالخطاب له ﷺ و المراد منه الأمّة بعد أن جاء العلم لأنّ ما آتيناك من الدّلالات و المعجزات للعلم مالك أي ليس لك من اللّه من ولّيٍ و لا ناصرٍ يعينك عليه و يمنعك من عذابه و لا واق، أي و لا من يحفظك عنه فأنّ الوقاية الحفظ و منها التّقوى لأنّها تمنع الإنسان عن الذّنب و تحفظها عن العذاب في الأخرة.

و أعلم أنّ المفسّرين في هذه الآية و أمثالها ذهبوا الى أنّ الخطاب للرّسول في ظاهر الأمر و المراد منه الأمّة و إستدلّوا على ذلك التأويل بأنّ الرّسول لا يتّبع أهواءهم قطعاً لعصمته و إذا كان كذلك فالمراد منها الأمّة، و لم يعلموا أنّ العصمة ممّا أعطاه اللّه فأنّ المخلوق بحسب ذاته لا يكون معصوماً و أنّما يكون معصوماً بتوفيقٍ من اللّه و عنايته الخاصة و لذلك قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنّٰاسِ**[٥] فكما أنّ اللّه يَعِصم النّبي من النّاس كذلك يعصمه من الذّنب والخطأ و بعبارةٍ أخرى الإنسان لو خلّي و طبعه مع قطع النظّر عن لطف اللّه و عنايته يعصي و يخطئ بمقتضى الشّهوة المودّعة في جبّلته و مع النظّر

١- المائدة = ٥٠ ٢- الإنسان = ٢٤

٣- الممتحنة = ١٠ ٤- الأنعام = ٦٢

٥- المائدة = ٦٧

اليه لا يعصي و لا يخطئ و هذا ممّا لا كلام فيه و إذا كان كذلك فصَّح أن يقال و لأن إتَّبعت أهواءهم الخ و كان الخطاب للنّبي و المراد منه أيضاً هو النّبي إصالتاً و الأمّة تبعاً و حيث أن المشروط منتفٍ بإنتفاء شرطه و المتابعة لم تتَّحقق فالمشروط كذلك و بعبارة أخرى المنافي للعصمة هو تحقّق المتابعة في الخارج و المفروض عدم حصولها فظهر و تحّقق أنّ حمل الآية على ظاهرها لا إشكال فيه و هو المطلوب.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ

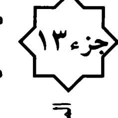
أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن أمورٍ أربعة:

أحدها: أنّ النّبي صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم يكن أوّل الأنبياء بل أرسل اللّه تعالى رسلاً من قبله و هو ممّا لا شكّ فيه لأنّ نبّي الإسلام كان خاتم الانبياء.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَ خاتَمَ النَّبِيّينَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**[2] وهكذا.

ثانيها: قوله: **وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجًا وَ ذُرِّيَّةً** وفيه إشارة الى أنّ الرّسول الّذي أرسله اللّه الى الخلق في جميع الأزمنة كان من جنس البشر لا من جنس الملك الّذي لا يأكل و لا يشرب و لا شهوة له فلا ينكح و إذا كان من البشر فله ماله من القوّة البشريّة الّتي منها الشّهوة الجنسيّة و لازم ذلك النّكاح و يوجد منه الأولاد و الذريّة و أنّما قال اللّه ذالک لأنّ الكفّار كانوا أنكروا تزويج النّبي بالنّساء فرَّد اللّه تعالى عليهم بما قال و بيَّن أنّ الأنبياء قبله كان لهم أزواجاً و ذريّة فكذلك النّبي صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.



۱– الأحزاب = ۴۰
۲– آل عمران = ۱۴۴

الأمر الثّانى: أنّ الرّسول لا يأتي بآيةٍ أي معجزة إلاّ بإذن اللّه تعالى و أنّه لا يقدر على الإتيان بها من قبل نفسه و الوجه فيه ظاهر لأنّ الإعجاز و خرق العادات من شئون الرّب الّذي يقدر على كلّ شيٍ و هو الّذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و أمّا المخلوق فهو تابع لخالقه في جميع حركاته و سكناته و أفعاله و أقواله بمعنى أنّه من حيث ذاته ممكن الوجود و قد يثبت أنّ الممكن من ذاته أن يكون ليساً و من علّته أن يكون آيساً أي موجوداً و من كان موجوداً من غيره و الوجود هو الأصل بالنسبة الى الصّفات فلا محالة في جميع شئونه تابع لغيره و الى هذه النكتّة أشير بقوله:

يآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرٰآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَميدُ(١).

فالعقل السّليم يحكم بأنّ المخلوق كائناً ما كان لا يقدر على شيٍ من قبل نفسه.

و أمّا النّقل فقد قال اللّه تعالى في قصّة عيسى عليه السلام:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْني فَتَنْفُخُ فيها فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْني وَ تُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَ ٱلْأَبْرَصَ بِإِذْني وَ إِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتىٰ بِإِذْني**(٢).

بل نقول لا يوجد شيٌ إلاّ بإذن اللّه:

قال اللّه تعالىٰ: **ما قَطَعْتُمْ مِنْ لينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قآئِمَةً عَلىٰٓ أُصُولِها فَبِإِذْنِ ٱللّٰهِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ ذَا ٱلَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُمْسِكُ ٱلسَّمآءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**(٦).

١- فاطر = ١٥
٢- المائدة = ١١٠
٣- الحشر = ٥
٤- البقرة = ٢٥٥
٥- هُود = ١٠٥
٦- الحجّ = ٦٥

و إذا كان الإيمان و التّكلم و الشّفاعة و غيرها من الأمور بـإذنه فـالمعجزات بطريقٍ أولى.

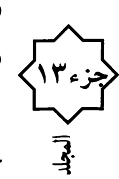
و محصّل الكلام هو أنّ المخلوق و لو كان نبيّاً مرسلاً أو ملَكاً مقرّباً لا يقدر على شيئ من عند نفسه و هذا ثابت بالعقل و النّقل.

الرّابع: قوله: **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** قيل في معناه أي لكلّ أجلٍ قـدره كـتابٌ أثبت فيه فلا تكون آية إلاّ بأجلٍ قد قضاه اللّه في كتابٍ على مـا تـوجبه صحّة تدبير العباد قيل فيه تقديم و تأخير و تقديره، لكلّ كتابٍ أجلٌ كما قال تعالى: **وَ جَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ**(١) و المعنى جاءت سكـرة الحـقّ بـالموت و هـي قراءة أهل البيت و أنّما قال اللّه تعالى ذلك في هذا المقام للإشارة الى أن الآيـة أي المعجزة تأتي في وقتها و زمانها على حسب المصلحة.

يَمْحُوا ٱللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتٰابِ

قيل في وجه إتصّال هذه الآية بما تقدّم هو أنّه لمّا قال: **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** إقتضىٰ أن يدخل فيه أعمال العباد فبيَّن اللّه تعالى أنّ يمحو مـا يشـاء و يـثبّت لئّلا يتّوهم أنّ المعصية مثبتةٌ بعد التّوبة كما هي قبل التّوبة و قيل أنّما يـمحى و يثبت النّاسخ و المنسوخ و قيل يثبت ما يشاء أي مـمّا يـثبته المـلكان لأنّـه لا يثبت إلاّ الطّاعات و المعاصي دون المباحات.

و قيل معناه يمحو ما يشاء من معاصي من يريد التّفضل عليه بإسقاط عقابه و يثبت من يريد عقابه و الحسنة يثبتها اللّه قبل فعلها بمعنى أنّـهم سيعملونها فإذا عملوها أثبتها بأنّهم عملوها فلذلك أثبت في الحالين و الوجه في إثباتها ما يكون فيها من المصلحة و الإعتبار لمن يفكر فيه بأنّ ما يحدث عـلى كـثرته و عظمته قد أحصاه اللّه و كتبه و ذلك لا سبيل اليـه إلاّ مـن جـهة عـلاّم الغيوب الّذي يعلم ما يكون قبل أن يكون نقل هذه الوجوه في التّبيان.



١- ق = ١٩

و قال بعض المفسّرين من العامّة هذا أي المحو و الإثبات عام في الرّزق و الأجل و السعادة و الشقاوة و نقل في تفسيره عن إبن عبّاس أنّه قال: **يَـمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ** من أمور عباده إلاّ السعادة و الشقاوة و الآجال فأنّه لا محو فيها.

وقال الحسن و فرقة هي آجال بني آدم تكتب في ليلة القدر و قيل في ليلة نصف شعبان و قيل في العاشر من رجب، و قيل يمحو كفر التّائبين و معاصيهم بالتّوبة و يثبت إيمانهم و طاعتهم و الأقوال كثيرة نقلها في تفسير بحر المحيط.

أقول روي علّي بن إبراهيم في تفسيره بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام إذا كانت ليلة القدر نـزلت المـلائكة و الرّوح والكـتبة الى سماء الدنيّا فيكتبون ما يكون من قضاء اللّه تبارك وتعالى في تلك السّنة فإذا أراد اللّه أن يقدّم أو يؤّخرأو ينقص شيئاً أو يزيده أمر اللّه أن يمحو ما يشاء ثمّ أثبت الّذي أراد.

قلت وكلّ شئٍ عنده بمقدار مثبت في كتابه قال: نعم قلت فأيّ شئٍ يكون بعده قال سبحان اللّه ثمّ يحدث اللّه أيضاً ما يشاء تبارك و تعالى انتهى.

و أيضاً عنه عليه السلام قال في هذه الآية يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ و هل يمحي إلاّ ما كان ثابتاً و هل يثبت إلاّ ما لم يكن انتهى.

و عن تفسير العيّاشي عن عمّار بن موسى عن أبي عبد اللّه عليه السلام حيث سئل عن الآية قال ذلك الكتاب كتابٌ يمحو اللّه فيه ما يشاء و يثبت فمِن ذلك الّذي يردّ الدّعاء القضاء و ذلك الدّعاء مكتوب عليه الّذي يردّ به القضاء حتّى اذا صار الى أمّ الكتاب لم يغن الدّعاء فيها شيئاً انتهى



و عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام كان علّي بن الحسين يقول لولا أية في كتاب اللّه لحدَّثتكم بما يكون الى يوم القيامة فقلت له أيّة

أية قال عليه السلام قول الله يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُۥٓ أُمُّ اَلْكِتٰابِ انتهى.

و عن أبي حمزة الثّمالي قال قال أبو جعفر و أبو عبد اللّه عليهما السّلام يا حمزة إن حدَّثناك بأمرٍ أنّه يجئ من هاهنا فأنّ اللّه يصنع ما يشاء و أن حدَّثناك اليوم بحديثٍ وحدَّثناك غداً بخلافه فأنّ اللّه يمحو ما يشاء و يثبت انتهى.

و عن إبن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام أنّ اللّه يقدّم ما يشاء و يؤخّر ما يشاء و يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء و عنده أمّ الكتاب و قال عليه السلام لكلّ أمرٍ يريده الّه فهو في علمه قبل أن يصنعه و ليس شيْءٌ يبدو له إلاّ و قد كان في علمه أنّ اللّه لا يبدو له من جهلٍ انتهى.

و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن أبي الحسن الرّضا قال قال أبو عبد اللّه و أبو جعفر و علّي بن الحسين و الحسين بن علّي عليهم السّلام و اللّه لولا أية في كتاب اللّه لحدَّثناكم بما يكون الى أن تقوم السّاعة و هي قوله: يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُۥٓ أُمُّ اَلْكِتٰابِ انتهى.

و الأخبار الواردة في الباب كثيرة جدّاً و ما نقلناه عن تفسير نور الثّقلين[١].

و قد أورد فيه أخباراً كثيرة إن شئت فراجه و الذّي نقول في معنى الآية هو أنّ اللّه تعالى يقضي و يقدر و هذا ممّا لا خلاف عليه بل عليه إجماع المسلمين و الدّليل عليه بعد الأدلّة العقليّة هو نصُّ الكتاب العزيز:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ اَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذٰا قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُضِيَ اَلْأَمْرُ وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ**[٤].

١- ج ٢ ص ٥١٠

٢- الأنعام = ٢

٣- غافر = ٦٨

٤- البقرة = ٢١٠

و هكذا قد مرَّ منّا الكلام في القضاء و القدر و قلنا أنّ القضاء الحكم و القدر حدَّ الحكم و هذا ظاهر فقد ثبت أنّ للّه قضاء و قدر.

ثمّ أنّ القضاء تابع للمصلحة و المفسدة و هذا أيضاً لا كلام فيه عند العدليّة فأنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعيّة الّتي لا يعلمها إلاّ هو.

ثمّ أنّ المصلحة و المفسدة تختلفان بحسب مقتضيات الزّمان و المكان و الأشخاص و الأحوال فقد يكون الحكم ذا مصلحةٍ أو ذا مفسدةٍ في بعض الأوقات و في بعض الأمكنة و في بعض الحالات و ذلك مثل أكل الميتة فأنّه في حال الإختيار لا يجوز لأنّ فيه مفسدة و في حال الإضطرار يجوز بل قد يجب اذا كان حفظ النّفس متّوقفاً عليه لأنّ فيه مصلحة، و هكذا شرب الخمر فأنّه حرام في حال الإختيار و حلالٌ في حال الإضطرار، و التقيّة فأنّها تجب في بعض الأمكنة و تحرم في بعضٍ أخر و نظائرها كثيرة اذا عرفت هذا.

فإعلم أنّ قوله: **يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُۥٓ أُمُّ اَلْكِتٰابِ** معناه أنّه تعالى يمحو الحكم في بعض الموارد و يثبته في موردٍ أخر و بالعكس و ذلك لأنّه عالمٌ بعواقب الأمور و لا يخفى عليه شئ فاذا رأى المصلحة في إثبات الحكم يثبته أي يحكم به و اذا رأى المصلحة في تركه بمعنى أنّ في وجوده مفسدة ينهى عنه هذا بالنسبة الى الأحكام ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً بل هو من المحسوسات.

و أمّا بالنسبة الى المقدّرات من الأجال و الأرزاق فهو أيضاً لا إشكال فيه و الأصل في ذلك هو أنّ اللّه تعالى فاعل مختار يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و حيث أنّ المسألة من أهمّ المسائل الإعتقاديّة و لذلك صارت معركة الأراء بين المحققين من الفلاسفة و المفسّرين و المحدّثين لا بأس بتفصيل الكلام فيها بحسب ما يقتضيه المقام فنقول:

أصل الإشكال الّذي صار باعثاً لتحيّر القوم في تبيين المراد هو أنّه قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ اللّه تعالى عالم بكلّ الأشياء حاضرها و غائبها ظاهرها و

باطنها ما مضى منها و ما يأتي و بالجملة لا يخفى عليه شئ وقد ثبت أيضاً أنّ علمه تعالى عين ذاته لا أنّه عارضٌ على الذّات فذاته علمه و علمه ذاته و هكذا بالنّسبة الى غير العلم من الصّفات الثبوتيّة كالقدرة و الحياة و غيرهما و أنّما قالوا ذلك لأنّه تعالى حقيقته الوجود فهو بسيط الحقيقة فلو كان العلم أو القدرة مثلاً من العوارض في حقّه تعالى لزم أن يكون معلولاً كما هو مقتضى العروض و الى هذه الدقيقة أي أنّ العروض يقتضي المعلوليّة أشار السبّزواري قدّس سرّه في منظومته:

الحقّ ماهيّة إنّيّته إذ مقتضى العروض معلوليّة

و قال أمير المؤمنين عليه السلام **وكمال الإخلاص نفي الصّفات عنه**، أي نفي الصّفات الزّائدة على الذّات العارضة عليه لا نفي الصّفات بمعنى أنّه لا صفة له تعالى كما زعمه بعض شرّاح كلامه و قد تكلّمنا فيه مفصّلاً في شرحنا على نهج البلاغة بما لا مزيد عليه، و إذا كان العلم عين ذاته كما هو كذلك و هو عالمٌ بكلّ الأشياء يخفى عليه شئ فما معنى المحو و الإثبات أليس معناه أنّه يثبت شيئاً ثمّ يظهر له خلافه فيمحوه أو يمحو شيئاً ثمّ يظهر له خلافه فيثبته و لازم ذلك هو التّغير و التّبدل في علمه و هو محالٌ.

أمّا أوّلاً: فلأنّ التّغير و التّبدل من الحوادث و لازم ذلك أن يكون علمه حادثاً لأنّ محلّ الحوادث حادث و إذا كان علمه حادثاً فكيف يكون الذّات قديماً و المفروض أنّه محلّ الحوادث فعلى هذا لا معنى للمحو و الإثبات و حيث أنّه ثبت في الكتاب العزيز فما معناه و لذلك أي و لصعوبة الطّريق لم يفسّر أحدٌ من المفسّرين هذه الآية بل قنعوا بتفسير ألفاظها ولم يبيّنوا المراد منها.

قال الرّازي و هو من فحول علماء أهل السُّنة و تفسيره من أحسن التّفاسير و إدّقها من بين تفاسيرهم ما هذا لفظه.

المسألة الثّالثة: المحو ذهاب أثر الكتابة محاه يمحوه محواً إذا ذهب أثره و

قوله: **وَ يُثْبِتُ** قال النّحويون أراد و يثبته إلاّ أنّه إستغنى بتعديّة الفعل الأوّل عن تعدية الثّاني و هو كقوله تعالىٰ: **وَ ٱلْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ ٱلْحٰافِظٰاتِ**(١) انتهىٰ.

أقول هذا أوّل الخبط في كلامه و ذلك لأنّ زلام ما ذكره أن يكون التّقدير و يثبت ما يشاء كما مثّل بقوله: **وَ ٱلْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ ٱلْحٰافِظٰاتِ** أي والحافظات فروجهن فقوله قال النّحويون، أراد و يثبته، لا معنى له ولم يقل نحويٌ هذا و أنّما قال ما قال من عند نفسه و أنّما عبّرنا عنه بالخبط، لوجود الفرق بين قولنا و يثبته و قولنا و يثبت ما يشاء، فأنّ المستفاد من قوله يثبته أي يثبت ما محاه.

و أمّا قولنا و يثبت ما يشاء معناه يثبت شيئاً آخر مكان الشّئ الّذي أمحاه و بين المعنيين بونٌ بعيد.

ثمّ قال الرّازي في هذه الآية قولان:

الأوّل: أنّها عامّة في كلّ شئ يقتضيه ظاهر اللّفظ قالوا أنّ اللّه يمحو من الرّزق و يزيد فيه و كذا القول في الأجل و السّعادة و الشّقاوة و الإيمان و الكفر و هو مذهب عمر و إبن مسعود و القائلون بهذا القول كانوا يدعون و يتّضرعون الى اللّه في أن يجعلهم سعداء لا أشقياءالتأويل رواه جابر عن رسول اللّه.

و القول الثّانى: أنّ هذه الآية خاصّة في بعض الأشياء دون البعض و على هذا التّقرير في الآية وجوه.

الأوّل: المراد من المحو و الإثبات نسخ الحكم المتّقدم و إثبات حكم آخر بدلاً عن الأوّل، و ساق الكلام الى الوجه العاشر و حيث أنّ الوجوه المذكورة ممّا لا ينبغي أن يلتفت اليه أعرضنا عن نقلها إن شئت الإطّلاع عليها فعليك بكتابه و أنت ترى إذا تأمّلت فيما ذكرناه و حقّقناه سابقاً من أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعية و هي تختلف بحسب الزّمان و المكان و الأحوال و لذلك قد تقتضي المصلحة إثبات الحكم و قد تقتضي إمحاءه و كذلك المفسدة قد تقتضي في بعض الأحيان إمحاءه و قد لا تقتضي لعلمت أنّ

١- الاحزاب = ٣٥

المحو و الإثبات ممّا لا محيص عنه وليس معناه أنّ اللّه قد يعتقد كذا أو يظهر له كذا و قد يعتقد خلافه فأنّ هذا في حقّه محال للزومه و الجهل في حقّه تعالى نعوذ باللّه منه.

بل نقول أنّ اللّه تعالى يثبت شيئاً و هو يعلم أنّه لا يبقى إلاّ مدّة معيّنة ثمّ يمحوه و يمحو شيئاً و هو يعلم أنّ المحو لا يبقى إلاّ مدّةً ومعيّنة في علمه ثمّ يثبت مكانه شيئاً آخر فهو عالمٌ بما يمحوه قبل محوه كما أنّه عالمٌ بما يثبته قبل إثباته و ليس المحو الإثبات في حقّه تعالى كالمحو و الإثبات بالنسبة إلينا كما هو واضح.

و محصّل الكلام هو أنّه تعالى عالم بما يمحو و يثبت قبل محوه و إثباته و لكن يمحو و يثبت لما فيه من المصلحة و المفسدة بالنسبة الى العبد كما إذا قال المولى لعبده إفعل هذا و هو يعلم أنّه سيمنعه عنه أو قال لا تفعل هذا و هو يعلم أنّه سيأمره به هذا إذا قلنا أنّ المحو و الإثبات في شيٍ واحدٍ.

و أمّا إذا قلنا أنّ المحو في شيٍ و الإثبات في شيٍ آخر بمعنى أنّه تعالى يمحو ما يشاء من الحكم ثمّ يثبتُ مكانه حكماً آخرَ على أساس المصلحة فالأمر أسهل و أوضح إذ ليس كلّ حكم ذا مصلحة في جميع الأوقات كما لا يكون ذا مفسدة في جميع الأوقات و الظّاهر أن المراد من الآية هذا المعنى لا ما زعمه بعضهم من أنّه تعالى يمحو ما يشاء و يثبت أي يثبت ما أمحاه أوّلاً إذ لو كان معنى الكلام ما زعموه لقال يمحو اللّه ما يشاء و يثبته ولم يقله بل قال و يثبت أي يثبت حكماً آخر مكانه.

و أمّا **أُمُّ ٱلْكِتٰابِ** فمعناه أصل الكتاب لأنّ أمّ الشّيْ أصله و قوله: **وَ عِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتٰابِ** أي أصل الكتاب الّذي يقع فيه المحو و الإثبات و هو يرجع الى علمه تعالى إذ لا أصل للكتاب إلاّ علمه بما فيه.

و قيل هو الكتاب الّذي يكتبه الملائكة على الخلق و هو محلّ المحو و الإثبات.

و قيل هو اللّوح المحفوظ و قيل غير ذلك و الحقّ ما ذكرناه لأنّ كتاب اللّوح المحفوظ هو الّذي يقع فيه المحو و الإثبات فكيف يكون هو أمّ الكتاب و لنختم الكلام في هذا المقام فأنّ المسألة من المسائل الغامضة الّتي لا تصل اليها الأفهام و لا تدركها العقول الضّعيفة و الحمد للّه وحده.

وَ إِنْ مٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ ٱلْبَلاٰغُ وَ عَلَيْنَا ٱلْحِسٰابُ

قيل، ما، زائدة و التّقدير و إن نرّينك و المشهور بين المفسّرين إثباتها و إدغام النّون فيها و التّقدير، فإمّا نريّنك و لا فرق في ذلك من حيث المعنى و معنى الأية، و إمّا نريّنك يا محمّد بعض الّذي نعدهم أي لقد هؤلاء الكفّار من العذاب و قيل من نصر المؤمنين عليهم بتمكينك منهم بالأسر و القتل و إغتنام الأموال، أو نتوفيّنك، أي نقبضك الينا قبل أن نريك ذلك فبيّن بهذا أنّه يكون بعض ذلك في حياته صَلَّىٰ اللّٰه عَلَيه وَآلِه وَسَلَّم و بعضه بعد وفاته أي فلا تنتظر أن يكون جميع ذلك في أيّام حياتك و أن يكون ممّا لا بدّ أن تراه.

و محصّل الكلام هو أنّ ما وعدنا هؤلاء الكفّار من العذاب في الدنيّا فهو واقع لا محالة سواء كان في حياتك أم بعد مماتك أو بعضه في حياتك و بعضه بعد موتك و كيف كان فهو حاصل قطعاً ثمّ بيَّن اللّه تعالى وظيفة الرّسول و قال: **فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ ٱلْبَلاٰغُ** أي تبليغ الأحكام و علينا يوم القيامة و فيه إشارة أنّ وظيفة الرّسول ليست إلاّ البلاغ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ ٱلْبَلاٰغُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمٰا عَلٰى رَسُولِنَا ٱلْبَلاٰغُ ٱلْمُبِينُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ**[٣].



١- آل عمران = ٢٠
٢- المائدة = ٩٢
٣- المائدة = ٩٩

قال اللّه تعالىٰ: **فَهَلْ ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاغُ ٱلْمُبِينُ**[۱] والأيات كثيرة.

و أمّا قوله و علينا الحساب فهو مسلّمٌ لا خلاف فيه عقلاً و نقلاً.

أمّا العقل فلأنّ اللّه تعالى هو الّذي كلّف العباد بالتّكاليف الشّرعية فلا محالة حسابهم عليه أيضاً إذ لا يعقل أن يكون حساب المأمور على غير الآمر أو من يأمره الأمر به ففي الكلام دلالة على أنّ اللّه تعالى لم يفوّض حساب العباد الى أحدٍ.

و أمّا النّقل:

قال اللّه تعالىٰ: **ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَىْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَىْءٍ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ حِسابُهُمْ إِلّا عَلىٰ رَبّى لَوْ تَشْعُرُونَ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ إِلَيْنآ إِيابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَفىٰ بِاللّهِ حَسيبًا**[۵].

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ ٱللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَريعُ ٱلْحِسابِ

يقول اللّه تعالى، **أَوَ لَمْ يَرَوْا**، هؤلاء الكفّار، إنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، أي ننقص الأرض من أطرافها، إختلفوا في المراد بهذا النّقص على أقوالٍ:

أحدها: ما فتح على المسلمين من أرض المشركين.

ثانيها: ننقصها بموت أهلها.

و قيل بموت العلماء.

۱- النّحل = ۳۵
۲- الأنعام = ۵۲
۳- الشّعراء = ۱۱۳
۴- الغاشية = ۲۶
۵- النّساء = ۶

و قيل بخرابها فهذه الأقوال الأربعة ذكرها في التّبيان و قيل المراد هلاك من أهلك من الأمم قبل قريش و هلاك أرضهم بعدهم، و قيل المراد ذهاب فقهاءها و خيار أهلها، و الأقوال كثيرة و المشهور عند المفسّرين هو القول الأوّل أي ما فتح اللّه على المسلمين من أرض المشركين و نقل عن الزّجاج أنّه قال علم اللّه تعالى أنّ بيان ما وعد المشركون من قهرهم قد ظهر و المعنى أفلا يخافون أن نفتح لمحمّدٍ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أرضهم كما فتحنا له غيرها و هذا القول إختاره القاضي و توضيحه إنّا نفتح ديار الشّرك بمحمّدٍ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين به، فما زاد في بلاد الإسلام بإستيلائهم عليها جبراً و قهراً، نقص من ديار الكفرة و اللّه تعالى إذا قدّر على بعض ديار الكفرة للمسلمين فهو قادر على أن يجعل الكلّ لهم أفلا يعتبرون هؤلاء الكفّار ممّا يرونه من النَّقص في أرضهم بسبب غلبة المسلمين عليهم ثمّ قال تعالى: **وَ ٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** تقديم المسند اليه يفيد الحصر أي أنّ الحكم مختّص به تعالى لا معقّب لحكمه، أي و لا أحد يعقّب حكمه و لا يقدر عليه و التَّعقيب ردَّ الشّيْ بعد فصله و منه عقَّب العقاب على صيده قال لبيد:

حتّى تهَّجر في الرّواح وهاجه   طلب المعَقب حقّه المظلوم

و إذا لم يقدر أحد على تعقيب حكمه تعالى فما حكم به يكون خالياً عن المعارض و المناقض فإذا حكم للإسلام بالغلبة على الكفّار فهو كائنٌ لا يمكن تغييره و لا تبديله، و هو سريع الحساب، يوم القيامة و السُّرعة عمل الشّئ في المدّة القليلة.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**(٣).

١- الأنعام = ٦٢   ٢- غافر = ١٧

٣- آل عمران = ١٩

وَ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكفّار الّذين كانوا قبلهم مكروا بالمؤمنين و أحتالوا في كفرهم و **المَكر** بفتح الميم وسكون الكاف والرّاء مصدر تقول **مَكَر يَمكُر مَكراً** فهو ماكرٌ و هو الفتل عن البغية بطريق الحيلة و قيل المكر ضررٌ ينزل بصاحبه من حيث لا يشعر به.

قال الرّاغب في المفردات المكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ ضربان، مكرٌ محمودٌ و هو أن يتّحرى بذلك فعل جميل.

و مذموم و هو أن يتّحرى بذلك فعل قبيح إنتهى.

أقول فعلى هذا المكر من الإنسان تارّةً يكون محموداً و أخرىٰ مذموماً و أمّا المكر من اللّه تعالى لا يكون إلاّ محموداً لتّنزهه تعالى عن القبائح.

و قال بعضهم المكر من اللّه هو إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدنيّا و على هذا المعنى حمل قول عليّ عليه السلام على ما نقل عنه عليه السلام حيث قال: **من وسّع عليه دنياه ولم يعلم أنّهٗ مكر به فهو مخدوعٌ عن عقله)** و لعلّه الى هذا المعنى أشير.

بقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا** ثمّ أنّ المراد بِمَكر هٰؤلاء الكفّار قبل قريش واضح لا خفاء فيه لأنّ المكر من عادات الكفّار و المنافقين في جميع الأزمنة إذ لا حيلة لهم غير المكر و الخدعة في بلوغهم الى مقاصدهم و أمّا قوله: **فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا** حيث نسب اللّه تعالى جميع المكر الى نفسه فأختلفوا في معناه فقال قومٌ قد جعل اللّه تعالى مكرهم كلا مكر إذ أضاف المكر كلّه له تعالى و معنى مكره تعالى عقوبته إيّاهم سمّاها مكراً إذ كانت ناشئة عن المكر و ذلك على سبيل المقابلة ثمّ فسّر قوله: **فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا** بقوله: **يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** و المعنى يجازي كلّ نفسٍ بما كسبت ثمّ هدَّد الكافر بقوله: **وَ سَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ.**

و قال بعضهم مكر اللّه جميعاً، هو إهلاكهم من حيث لا يشعرون.

و قال الواحدي معناه أنّ جميع مكر الماكرين له و منه أي هو حاصل بتخليصه و إرادته لأنّه ثبت أنّ اللّه هو الخالق لجميع أعمال العباد و أيضاً فذلك المكر لا يضّر إلاّ بإذن اللّه و لا يؤثّر إلاّ بتقديره و فيه تسلية للنّبي ﷺ و أمانٌ له من مكرهم كأنّه قيل لهم إذا كان حدوث المكر من اللّه تعالى و تأثيره في الممكور به أيضاً من اللّه وجب أن لا يكون الخوف إلاّ من اللّه تعالى و أن لا يكون الرّجاء إلاّ منه تعالى و أستدلّ على ما أدّعاه بقوله بعد ذلك، تكسب كلّ نفسٍ بتقرير أنّ أكساب العباد بأسرها معلومة للّه تعالى و خلاف المعلوم ممتنع الوقوع و إذا كان كذلك فكلّ ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع و كلّ ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع و إذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل و التّرك فكان الكلّ من اللّه تعالى نقله الرّازي عن الواحدي في تفسيره و أرتضاه لأنّه مطابقٌ لمذهبه و مذهب الجبريين.

و نحن نقول ما ذكره الواحدي في تفسير كلام اللّه هو من أظهر مصاديق قول النّبي ﷺ من فسَّر القرآن برأيه فليتّبوأ مقصده من النّار و مع ذلك نقول في جوابه قوله أنّ مكر جميع الماكرين له و منه أي هو حاصل بتحلقه و إرادته لأنّه ثبت أنّ اللّه هو الخالق لجميع أعمال العباد.

ففيه أمّا أوّلاً: أنّه يلزم منه أن لا يكون للخلق فعلّ أصلاً لأنّه تعالى هو الخالق لجميع أفعال العباد فالعبد لا يزني و لا يسرق و لا يشرب الخمر و لا يظلم بل اللّه تعالى هو الزّاني، و السّارق و شارب الخمر و الظّالم نعوذ باللّه من هذه الأراجيف بيان الملازمة أنّه إذا فرضنا أنّ أعمال العباد مخلوقة للّه تعالى و أنّ العبد لا يقدر على شئ فما الفرق بين المكر و الكذب مثلاً و هكذا سائر الأعمال فإذا كان المكر في الإنسان فعل اللّه في الحقيقة فكذلك الكذب و السّرقة و الظُّلم وأمثالها إذالمفروض أنّ أعمال العباد جميعاً مخلوقة له تعالى و هو كما ترى خارجٌ عن طور العقل و الشّرع و لا يقول العاقل بهذه المقالة فضلاً عن المسلم.

ثانياً: قوله ثبت أنّ اللّه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد.

يقال له أين ثبت هذا و من أثبته و أيّ دليل أقيم على إثباته.

نعم أنّ اللّه تعالى خالق لجميع الموجودات من الجِّن و الإنس و الملائكة و الجماد و الحيوان و الإنسان و النَّبات و هذا ممّا لا كلام فيه و من جملة الموجودات الإنسان فأن كان مراد المستدلّ من خلق الأعمال خلقها بواسطة الإنسان بمعنى أنّه تعالى خلق الإنسان و الإنسان خلق الفعل و العمل فاللّه تعالى خالق الفعل في الواقع إذ لولم يخلق الإنسان لم يوجد الفعل فهذا صحيحٌ إلاّ أنّ خلق الفعل بواسطة العبد من حيث أنّ العبد سبب وجود الفعل ليس من فعل اللّه بلا واسطة فبإسناده الى اللّه مجاز لا حقيقة بل الفعل مخلوق للعبد حقيقةً وللّه مجازاً و مع الواسطة و اذا كان كذلك فالفعل الصّادر عن العبد لا ينسب الى اللّه بل ينسب الى فاعله و اذا كان منسوباً الى فاعله فالمكر مثلاً ينسب الى الماكر العبد فأن قال القائل أنّ الفعل و أن كان منسوباً الى فاعله و هو العبد إلاّ أنّه كان مجبوراً على فعله من قبل اللّه تعالى.

نقول في الجواب ما الدّليل على كونه مجبوراً في فعله و مجرّد كون الدّاعي على الفعل ممّا أوجده اللّه في الفاعل لا يسمن و لا يغني بعد ثبوت الإختيار بينه و بين الفعل حسّاً.

و أمّا إستدلاله بقوله تعالىٰ: **يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** فهو ممّا تضحك به الثّكلى لأنّ العلم الأزلّي لا يكون علّة لوجود الفعل اذ ليس فعل العبد معلولاً لعلمه مع أنّه لو كان كذلك فلا ذمّ على الكافر بكفره لأنّه تعالى كان عالماً بكفره قبل خلقه و المفروض أنّ العلم علّة للكفر فالكافر لا يقدر على الإيمان بمقتضى هذه القاعدة فأيّ ذنبٍ أو قدحٍ له في كفره ثمّ أيُّ عقابٍ له يوم القيامة و هكذا الأمر في جميع المعاصي فقوله يريد أنّ أكساب العباد بأسرها معلومة للّه تعالى لا كلام لنا فيه لأنّه تعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً فهو بكلّ شيءٍ عليم إلاّ أنّ قوله خلاف المعلوم ممتنع الوقوع، كلمة حقٍّ يراد بها الباطل فأنّ إمتناع

الوقوع ليس معلولاً للعلم بل هو معلول للعبد بمعنى أنّه تعالى يعلم بعلمه الأزلّي أنّ أبا جهل يموت على الكفر و لا يؤمن باللّه و رسوله بسوء سريرته و إختياره لا أنّه لا يؤمن لتّعلق العلم بعدم إيمانه و الفرق بين المقامين واضح و كذلك قوله فكلّ ما علم اللّه وقوعه فهو واجب الوقوع و كلّ ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع.

فأنّ ما ذكره يتّم بناءً على كون العلم الأزلّي علّة لوقوع الفعل شاء الفاعل أو لم يشاء و أنّى له و لهم بإثبات ذلك و الّذي يختلج بالبال هو أنّهم لم يفرقوا بين العليّة و الكاشفيّة فأنّ العلم كاشف عن الواقع لا أنّه علّة لوجود الفعل.

فقولنا أنّ اللّه يعلم كلّ شيئٍ معناه أنّ حقائق الأشياء عنده منكشفة لا يخفى عليه منها شيئ و ليس معناه أنّ علمه بها علّة و موجدٌ لها فتّأمل فأنّه دقيقٌ.

إن قلت فما معنى قوله: **فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا**.

قلت يحتمل أن يكون الكلام على سبيل حذف المضاف و التّقدير فللّه جزاء المكر أو جزاء مكرهم جميعاً لأنّهم لمّا مكروا بالمؤمنين بيَّن اللّه أنّ وبال مكرهم عليهم بمجازاة اللّه لهم.

و يحتمل أن يكون المكر هنا بمعنى الإستدراج أي إستدراجه العبد من حيث لا يعلم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـاٰيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**[1].

و في المقام إحتمال ثالث، و هو أن يكون اللّفظ على ظاهره و المعنى أنّ تعالى يعلم جميع أقسام المكر إلاّ أنّه لا يمكر بأحدٍ إلاّ بالماكر:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ**[2].

قال اللّه تعالى: **وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنَا مَكْرًا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ**[3].

١- الأعراف = ١٨٢ ٢- أل عمران = ٥٤
٣- النّمل = ٥٠

و على هذا فمعنى الكلام و قد مكر الّذين من قبلهم و لم يعلموا أنّ اللّه أسرع مكراً و أقدر في الدُّعاء اللّهم أمكر لي و لا تمكر بي، أراد بمكر اللّه إيقاع بلاءه بأعداءه دون أولياءه.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في الدُّعاء، و لا تمكر بي في حيلتك، و الحاصل أنّ اللّه تعالى عالم بجميع أقسام المكر المحمود و لا يخفى عليه شئ لأنّه يعلم ما تكسب كلّ نفسٍ من خيرٍ أو شرٍّ.

وَ سَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ فيه تهديد للكفّار بأنّهم سوف يعلمون لمن تكون عاقبة الجنّة للمطيعين أو العاصين هكذا قيل و لا يبعد أن يكون المراد بالدّار هو الدُّنيا و بالعقبى الأخرة و الأمر سهل.

وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكفّار أنكروا رسالة النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و قالوا له لست مرسلاً من عند اللّه قل لهم كفى باللّه شهيداً، أي شاهداً على صدق رسالتي بيني و بينكم عنده علم الكتاب الظّاهر أنّ الواو عاطفة أي كفى باللّه شهيداً و هكذا من عنده علم الكتاب.

أمّا شهادة اللّه برسالته فلا كلام فيه و ذلك لأنّه أرسله الى خلقه:

قال اللّه تعالى: **لٰكِنِ ٱللّٰهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ**[٢].

و هذا ممّا لا خلاف فيه عند المفسّرين و أنّما الخلاف في معنىٰ قوله: **وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ** و أنّه ما المراد بقوله: **وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ** و هو

١- النّساء = ١٦٦
٢- الأنعام ١٩

شـاهد عـلى رسـالته صلى الله عليه وآله وسلم فـقيل المـراد بـالكتاب القـرأن و مـن عـنده عـلم الكتاب، يعني من عرف ما ألف فيه مـن المـعاني الصَّـحيحة و النَّـظم المـعجز الفائت لقدر البشر يشهد بذلك.

و قيل المراد بالكتاب التّوراة و الإنجيل و الذّي عنده علم الكتاب من أسلم من علماءهم لأنّهم يشهدون نعته في كتبهم كعبد اللّه بن سلام و تميم الدّاري.

و قال مجاهد يريد عبد اللّه بن سلام خاصّة.

و قيل المراد به جبرئيل و المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ.

و قيل المراد به هو اللّه تعالى و به قال الحسن و سعيد بن جبير.

قال الحسن لا و اللّه ما يعني إلاّ اللّه و المعنى كفى بالّذي يستحقّ العـبادة و بالّذي لا يعلم علم ما في اللّوح إلاّ هو شهيداً بيني و بينكم.

أقول كأنّ هذا القائل لم يعلم أنّ عطف الصفة على الموصوف لا يجوز و من أجازه إعترف بأنّه مستَّهجن فلا يقال شهد زيدٌ و الفقيه بل يقال شهد بـه زيـد الفقيه.

و أمّا عندنا فالحقّ أنّ المراد بقوله: **وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ** هـو أمـير المؤمنين علّي بن أبي طالب و الأئمّة المـعصومين مـن ولده عـليهم السّـلام و ذلك لأنّ علم الكتاب لا يوجد إلاّ عندهم و يمكن أن يستدلّ عليه بوجوهٍ مـن العقل و النّقل.

أمّا العقل فلأنّ علم الكتاب ليس من العلوم الكسبيّة التّي تحصل عند النّاس بسبب التَّعلم عـن غـيره بـل هـو مـن العـلومٌ اللـدينة التّـي يـعبّر عـنها بـالعلم الحضوري الإلهامي من عند اللّه على قلب من يشـاء و لا شكّ أنّ العـلم بـهذا المعنى مختّص بالأنبياء و الأوصـياء و حـيث قـد ثـبت عـندنا كـونهم أوصـياء الرّسول عقلاً و نقلاً فهذا العلم مختص بهم بعد الرّسول و هو المطلوب.

ثانياً: أنّ الرّسول قد صرَّح في الحديث المشهور عند الفريقين أنّـهم عـدل الكتاب.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي فا إن تمّسكتم بهما لن تضّلوا أبداً لن يفترقا حتّى يردا علّي الحوض.

كيفيّة الإستدلال هو أنّ النّبي جعلهم عدلاً للكتاب فقال كتاب اللّه و عترتي، و لازم ذلك هو كون العترة عالماً به ضرورة أنّ المراد بالتّمسك بهما هو التّمسك العلمي للعمل و بعبارةٍ أخرى ليس المراد بالتَّمسك بهما إلاّ فهم الكتاب من طريق العترة و من كان كذلك فعلم الكتاب عنده لأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له.

ثالثاً: إتّفق الكلّ على أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلّي عليه السلام **أنا مدينة العلم وعَلّيٌ بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها.**

تقريب الإستدلال أنّ الرّسول مدينة العلم و المراد بالعلم هو علم الكتاب اذ جميع العلوم يستنبط منه و جعل الرّسول عليّاً باب المدينة أي باب مدينة علم الكتاب أي لا يمكن لأحدٍ الوصول الى علم النّبي إلاّ من طريق علّي عليه السلام و اذا كان علم الكتاب عنده صلى الله عليه وآله وسلم و الباب الّذي يوصل المتّعلم الى ذلك العلم هو علّيٌ عليه السلام فلا محالة عنده علم الكتاب أيضاً و لو كان علم الكتاب عند غير علّي لما قال الرّسول ما قال و هو واضح بل يستفاد من الكلام أنّ علم الكتاب فيهما واحد لا فرق فيه.

رابعاً: أنّ عليّاً عليه السلام لم يسأل أحداً بعد موت الرّسول عن علم الكتاب و هم أي أصحاب الرّسول كانوا يسألونه فلو كان عندهم علم الكتاب لم يسألوه قطعاً و كفى في ذلك قول عمر بن الخطّاب في موارد كثيرة لولا علّي لهلك عمر.

و عبد اللّه بن عبّاس كان يفتخر بأنّ علمه منه و أنّه لم يأخذ تفسير كلام اللّه إلاّ منه و هو أعلم الصحابة بالكتاب و السنّة بعد أمير المؤمنين.

و أمّا النّصوص الواردة في الباب الدالّة على أنّ علم الكتاب عنده و هو المراد بقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ** فكثيرة جدّاً من العامّة و الخاصّة.

ما رواه محمّد بن مسلم و أبو حمزة الثّمالي و جابر بن يزيد عن الباقر عليه السلام و علّي بن فضال و الفضيل بن يسار وأبو بصير عن الصّادق عليه السلام و أحمد بن محمّد الحلبي و محمّد بن الفضل عن الرّضا عليه السلام وقد روي عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام و زيد بن علّي و محمّد بن الحنّفية و سلمان الفارسي وغيرهم أنّهم جميعاً قالوا في قوله تعالىٰ: **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** هو علّي بن أبي طالب عليه السلام انتهى.

الثّعلبي في تفسيره بأسناده عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن إبن عبّاس و روي عن عبد اللّه بن عطا عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قيل لهما زعموا أنّ الذّي عنده علم الكتاب عبد اللّه بن سلام قال ذاك علّي بن أبي طالب عليه السلام انتهى.

ما روي أيضاً أنّه سئل سعيد بن جبير عن قوله تعالى و من عنده علم الكتاب، عبد اللّه بن سلام قال لا فكيف وهذه سورة مكّية.

و قد رُي عن إبن عبّاس أنّه قال لا و اللّه ما هو إلاّ علّي بن أبي طالب لقد كان عالماً بالتّفسير و التّأويل و النّاسخ و المنسوخ و الحلال و الحرام.

و روي عن محمّد بن الحنفيّة أنّه قال علّي بن أبي طالب عليه السلام عنده علم الكتاب الأوّل والأخر.

قال إبن شهر آشوب في المناقب بعد نقله ما نقلناه عنه و من المستحيل أنّ اللّه تعالى ليستشهد بيهودّي و يجعله ثاني نفسه (أقول لا إشكال فيه عندهم فأنّ اليّهودي عندهم أفضل من الشيعة فلا محالة عبد اللّه بن سلام يكون أفضل عندهم من علّي).

ثمّ قال صاحب المناقب قوله: **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** موافق لقوله كلاّ أنزل في أمير المؤمنين علّي عليه السلام، و عدد حروف كلّ واحد منهما ثمان مائة و سبعة عشر انتهى.

قول النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم اذا إختلفتم في شئٍ فكونوا مَع علّي بن أبي طالب.

النّقاش في تفسيره عن إبن عبّاس أنّه قالَ علّيٌ علم علماً علّمه رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم و رسول اللّه عَلَّمه اللّه فعلم النّبي من علم اللّه و علم علّي من علم النّبي و علمي من علم علّي و ما علمي و علم أصحاب محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم في علم علّيٍ عليه السلام إلاّ كقطرةٍ في سبعة أبحرٍ انتهى.

و روي الضّحاك عن إبن عبّاس أنّه قال أعطي علّي بن أبي طالب عليه السلام تسعة أعشار العلم و أنّه لأعلمهم بالعشر الباقي.

قال الحميري في علمه.

و علّيٌ خازن الوحي الذّى | كان مستودع أيات السُّور

و قال العوني:

ومَن عنده علم الكتاب و علم ما | يكون وما قد يكون علماً مكتّماً

و قال الأخر:

ومن حوى علم بالكتاب كلّه | علم الّذي يأتي و علم ما مضى

أفلا يكون أعلم النّاس بالكتاب و كان مع النّبي في البيت و المسجد يكتب وحيه و مسائله و يسمع فتاويه و يسأله.

و روي أنّه كان النّبي اذا نزل عليه الوحي ليلاً لم يصبح حتّى يخبر علياّ و اذا نزل عليه الوحي نهاراً لم يمّس حتّى يخبر به علياّ و الأخبار و الأشعار في الباب كثيرة أنظر المناقب لإبن شهر آشوب[١].

و أمّا احاديث الواردة في تفسير الآية من طريق أهل البيت فهي أيضاً كثيرة و نحن نشير الى شطرٍ منها تيّمناً و تبّركاً بها فنقول:

روي في تفسير نور الثّقلين عن سليم بن قيس قال سأل رجلٌ علّي بن أبي طالب فقال له عليه السلام و أنا أسمع أخبرني بأفضل منقبةٍ لك قال عليه السلام ما أنزل اللّه في كتابه، قال و ما أنزل اللّه فيك قال عليه السلام قوله: وَ يَقُولُ

١- ج ٢ ص ٢٨ الىٰ ص ٥٧

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا إيّاي عني، بمن عنده علم الكتاب انتهى.

و عن أصول الكافي بأسناده عن بريد بن معاوية قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ قال عليه السلام إيّانا عنى و عليٌّ أوّلنا و أفضلنا و خيرنا بعد النّبي صلى الله عليه و آله و سلم انتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال الذّي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين عليه السلام، و سئل عن الّذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الّذي عنده علم الكتاب فقال عليه السلام ما كان الّذي عنده علم من الكتاب عند الّذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذه البعوضة بجناحها من ماء البحر انتهى.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام ألا أنّ العلم الّذي هبط به أدم من السّماء الى الأرض و جميع ما فضلّت به النَّبيّون الى خاتم النّبيّن في عترة خاتم النَّبيّن انتهى.

و عن أمالي الصّدوق بأسناده عن أبي سعيد الخدري قال سألت رسول اللّه عن قول اللّه جلّ ثناءهقُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ قال صلى الله عليه و آله و سلم ذاك أخي علّي بن أبي طالب انتهى.

و عن عبد اللّه بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ فقال نزلت في علّي بعد رسول اللّه وفي الأئمّة بعده وعلّيٌ عنده علم الكتاب انتهى.

و عن عُمر بن حَنظَلَة عن أبي عبد اللّه عن قول اللّه: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ فلمّا رأني أَتَتَّبَعُ هذا و أشباهه من الكتاب قال عليه السلام حسبك كلّ شيءٍ في الكتاب من فاتحته الى خاتمته فهو الأئمّة عني به انتهى.

وعن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتٰابِ قال عليه السلام نزلت في علّي أنّه عالم هذه الأمّة بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم انتهىٰ.

و عن أبي سعيد الخدري قال سألت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن قول اللّه عزّ وجلّ: قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا قال صلى الله عليه وآله وسلم ذاك أخي علّي بن أبي طالب عليه السلام انتهى.

و الأحاديث كثيرة جدّاً و لولا مخافة خروة الكتاب عن موضوعه لأشبعنا الكلام فيه هذا كلّه اذا قلنا أنّ المراد بالكتاب في قوله و من عنده علم الكتاب هو القرأن كما هو المشهور بين المفسّرين.

و أمّا اذا قلنا أنّ المراد بالكتاب جنسه الشّامل لجميع الكتب السّماوية من التّوارة و الإنجيل و الزبور و القرأن و غيرها فهذا القول و أن كان ضعيفاً لم يقل به من يعتنى بقوله إلاّ أنّه من الإحتمالات التّي لابدّ لنا من الجواب عنها فنقول:

أن كان المراد بالكتاب جنسه فهذا لا ينطبق أيضاً بعد رسول اللّه إلاّ علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام.

أمّا أوّلاً: فلأنّ العالم بالقرأن عالم بجميع الكتب السماويّة لأنّ كلّ ما فيها من العلوم و الأحكام موجود في القرأن لقوله تعالى: **وَ لٰا رَطْبٍ وَ لٰا يٰابِسٍ إِلّٰا فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ**[1].

ثانياً: هذا منصوص فعن روضة الواعظين قال الباقر عليه السلام و من عنده علم الكتاب علّي بن أبي طالب عليه السلام عنده علم الكتاب الأوّل و الأخر انتهى.

و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[2] و لنختم الكلام في تفسير الآية فعلاً و الحمد للّه ربّ العالمين.

* * *

۱- الانعام = ۵۹
۲- ج ۲ ص ۵۲۱

سُورَةُ ابراهيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرٰ كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنّٰاسَ مِنَ
ٱلظُّلُمٰاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلٰى صِرٰاطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مٰا فِي
ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكٰافِرِينَ
مِنْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيٰوةَ
ٱلدُّنْيٰا عَلَى ٱلْاٰخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ
يَبْغُونَهٰا عِوَجًا أُولٰٓئِكَ فِي ضَلٰالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَ مٰآ
أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ يَشٰآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ وَ هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسٰى بِاٰيٰاتِنٰآ
أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمٰاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ
ذَكِّرْهُمْ بِأَيّٰٓ ٱللَّهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِكُلِّ
صَبّٰارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَ إِذْ قٰالَ مُوسٰى لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجٰيكُمْ مِنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذٰابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ



يَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلَآءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَ قَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوٓا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَاهِهِمْ وَ قَالُوٓا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

◀ اللّغة

وَيْلٌ الويل القبح و قد يستعمل على التّحسر.

يَصُدُّونَ الصَّد المنع.

وَ يَبْغُونَهَا البغي الطَّلب.

عِوَجًا العوج العطف عن حال الإنتصاب.

يَسُومُونَكُمْ السَّوم أصله الذّهاب في إبتغاء الشّيء فهو لفظٌ لمعنى مرّكب من الذّهاب و الإبتغاء.

◀ الإعراب

كِتَابٌ خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتابٌ و أَنْزَلْنَاهُ صفة للكتاب و ليس بحالٍ لأنّ كتاباً نكرة بِإِذْنِ رَبِّهِمْ في موضع نصب على أنّه مفعول به أي بسبب الإذن و قيل أنّه حال من النّاس أي مأذوناً لهم أو من ضمير الفاعل أي مأذوناً لك إِلَىٰ صِرَاطِ بدل من قوله، الى النّور بإعادة الجارّ ٱللَّهِ ٱلَّذِي يقرأ بالجرّ على البدل و بالرّفع على لإبتداء و ما بعده الخبر، و على الخبر و المبتدأ محذوف أي هو اللّه و الّذي، صفة، و قيل هو مبتدأ و، الّذي، صفة و الخبر محذوف وَيْلٌ مبتدأ ولِلْكَافِرِينَ خبره مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ في موضع رفع صفة لويل بعد الخبر جائز ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ في موضع جرَّ صفةٍ للكافرين أو في موضع نصب بإضمار أعني أو في موضع رفع بإضمار، همّ، إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ في موضع نصب على الحال أي إلاّ متكلّماً بلغتهم و قرئ في الشّاذ (بلّسن قومه) بكسر اللاّم و إسكان السّين و هي بمعنى اللّسان فَيُضِلُّ بالرّفع و لم ينتصب على العطف على، ليبيّن، لأنّ العطف يجعل المعطوف كمعنى المعطوف عليه و الرُّسل أرسلوا للبيان لا للضّلال أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ أن بمعنى أي فلا موضع له و قيل أنّها مصدريّة و التقدير، بأن أخرج.

◀ التّفسير

الٓرٰ قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة غير مرّةٍ و قلنا لا يعلم المراد فيها إلاّ اللّه تعالى لأنّها في الحقيقة من الرمّوز.

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ

لا شكّ أنّ المراد بالكتاب القرآن أي هذا كتابٌ أنزلناه اليك و النُّزول في الأصل هو إنحطاطٌ من علوٍ يقال نزل عن دابته حطَّ رحله فيه و الإنزال منه

تعالى تارةً يكون في نعمه و أخرى في نقمه على الخلق و إعطاءهم أيّاها و ذلك إمّا بإنزال الشّئ نفسه كإنزال القرآن.

و أمّا بإنزال أسبابه و الهداية اليه كإنزال الحديد و اللباس، في.

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا اَلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ**(١).

قال اللّه تعالى: **يَا بَنِيٓ اٰدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءٰتِكُمْ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ اَلْمَنَّ وَ اَلسَّلْوٰى**(٣).

و من إنزال النِّقمة و العذاب:

قال اللّه تعالى: **إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هٰذِهِ اَلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ اَلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**(۴).

و الفرق بين الإنزال و التّنزيل في وصف القرآن و الملائكة هو أنّ التّنزيل يختصّ بالموضع الّذي يشير اليه إنزاله مفرّقاً و مرّةً بعد أخرى و الإنزال عـاًم و كيف كان فقوله **أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** يدلّ على أنّ الكتاب منزّل من اللّه تعالىٰ و قد صرَّح بذلك في كثير من الأيات فأنّ الكتب السّماوية شأنها كذلك ثمّ أشار اللّه تعالى الى سبب الإنزال و أنّه لأيّ شيءٍ أنزله اللّه على رسوله.

فقال: **لِتُخْرِجَ اَلنَّاسَ مِنَ اَلظُّلُمَاتِ إِلَى اَلنُّورِ**، فاللاّم في قوله: **لِتُخْرِجَ** للتعليل أو للغاية و المعنى هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمّد لتخرج النّاس من ظلمات الكفر و الضّلالة الى نور الإيمان و الهداية.

و قال قتادة من الظلمات الى النّور أي من الضلالة الى الهدى ففيه إيماء الىٰ أنّ النّاس قبل ذلك كانوا في الضّلالة و هو كذلك و الدليل على ذلك قوله تعالى: **وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ**(٥) ثمّ أنّ النُّور والظُّلمة مُتقابلان لا يجتمعان في شيءٍ واحدٍ و الحقّ أن تقابلهما تقابل عدمٍ و الملكة لا تقابل

١- الحَديد = ٢٥
٢- الأعراف = ٢۶
٣- البقرة = ٥٧
۴- العنكبوت = ٣۴
٥- آل عمران = ١۶۴

السّلب و الإيجاب و لا تقابل التّضاد و ذلك لأنّ الظّلمة عدم النُّور الّذي من شأنه أن يصير نوراً و كلّ واحدٍ منهما على ضربين حسّيٌ و معنويّ، فالنُّور الحقّ كنور الشّمس و القمر و الكواكب و المصابيح و المعنوي منه كنور العلم و المعرفة و العقل و غير ذلك و الظّلمة الحسيّة كظلمة اللّيل و المعنويّة العقليّة كظلمة الجهل والكفر و الضّلالة و الحسيّة منهما لا كلام لنا فيها لأنّ الأنبياء لم يبعثوا لإخراج النّاس من اللّيل الى النّهار مثلاً و أنّما بعثوا لإخراجهم من ظلمة الكفر الى الإيمان.

و هاهنا بحث لم سعيرّضوا له في المقام و لا في غيره من المقامات و هو أنّ الظلمات بصيغة الجمع في جميع الموارد و النُّور بصيغة المفرد:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَ ٱلنُّورَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَاتُ وَ ٱلنُّورُ**(۴) وغيرها من الأيات.

و حاصل الكلام إنّا لم نجد في الأيات تقابل الظُّلمة و النُّور و لم نجد في التّفاسير من تعرَّض لدفع الإشكال و بيَّن وجه الأفراد في النُّور و الجمع في الظّلمات و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ النُّور المعنوي حقيقة واحدة لها مصاديق كثيرة بحسب الإضافات و صدقها على المصاديق ليس مثل صدق الكلّي المتواطئ على أفراده كالإنسان الصّادق على زيد و عمرو و بكر و الرّسول و الوصّي و الكافر و المؤمن و غير ذلك من المصاديق سواء كان

١- البقرة = ٢٥٧

٢- المائدة = ١۶

٣- الأنعام = ١

۴- الرّعد = ١۶

النُّور الحقيقي المعنوي بمعنى الّدين أو القرآن أو المعرفة أو العلم أو ماشئت فسمّه و بعبارةٍ أخرى حقيقة الإيمان من حيث أنّه نور، واحدة إلاّ أنّ مراتب الإيمان متفاوتة فالرّسول مؤمن و الموصّي مؤمن و أباذر مؤمن و نحن أيضاً مؤمنون إن شاء اللّه و لكن مراتب الإيمان في الأمّة متفاوتة شدّةً و ضعفاً و كمالاً و نقصاً و هكذا.

و أمّا الظُّلمة فليست كذلك لأنّ مصاديقها مختلفة متباينة فأنّ ظلمة الحسد غير ظلمة البخل و هي غير ظلمة الكفر و هي غير ظلمة الجهل و هكذا و لعلّه لذالك جيئت الظّلمة بصيغة الجمع و النُّور بصيغة المفرد مشعراً بأنّ المطلوب خروج الإنسان عن جميع الظُّلمات الىٰ نور الإيمان واللّه أعلم بحقيقة كلامه.

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ لمّا ذكر اللّه تعالى عِلّة إنزال الكتاب و هي قوله: **لِتُخرِج** أشار بأنّ ذلك الإخراج لا يمكن إلاّ بتسهيل مالكهم النّاظر في مصالحهم فقال: **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** و ذكر الرّب هنا تنبيهٌ علىٰ منّة المالك و كونه ناظراً في حال عبيده و لذلك لم يقل بإذن اللّه مثلاً و علىٰ هذا فقوله: **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** متعلّق بقوله، لتخرج أي لتخرجهم من الظُّلمات بتسهيل الرّب لأمور:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدي مَنْ يَشٰآءُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللّٰهُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَحْرِصْ عَلٰى هُدٰيهُمْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدي مَنْ يُضِلُّ**(٤).

و أمثالها من الأيات الدّالة علىٰ أنّ الأمور كّلاً بيده تعالىٰ كثيرة و العقل أيضاً يؤّيد هذا الحكم و فيه إشارة الىٰ أنّ الأنبياء و أن بعثوا الىٰ إرشاد الخلق و

١- القصص = ٥٦
٢- يونس = ٤٣
٣- النّساء = ٨٨
٤- النّحل = ٣٧

هدايتهم إلاّ أنّ إرشادهم و هدايتهم لم يؤّثر في جميع النّاس لعدم تسّلطهم علىٰ قلوب بني آدم و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ**[١].

ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكٰافِرِينَ مِنْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ

قرأ نافع وإبن عامر، اللّه، بالرّفع و عليه فالتّقدير هو اللّه الّذي له ما في السّموات و الأرض فهو خبر مبتدأ محذوف و قرأ المشهور بالجّر علىٰ البدل في قول بعضٍ و علىٰ عطف التبيان في قول آخر و الأوّل أقوىٰ كأنّه قيل و من العزيز الحميد قيل هو اللّه الّذي له كذا و أمّا علىٰ البدلّية فالمعنى أنّ العزيز الحميد اللّه الّذي له ما في السّموات والأرض و عليه فقوله، اللّه يبيّن المراد بقوله: **ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ** و عليه الجمهور.

و أمّا قوله: **ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ**.

فاللاّم في، لَه، للملك أو الإختصاص و فيه إشعار بأنّ الّذي له ما في السّموات و الأرض يليق بأن لا يُوجد في عالم الوجود شئ إلاّ بإذنه.

و قوله: **وَ وَيْلٌ لِلْكٰافِرِينَ مِنْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ** أي وَيل للكافرين الّذين يجحدون نعم اللّه و لا يعترفون بوحدّانيته و الإقرار بنبيّه مع وجود المعجزات و الكرامات الدّالة علىٰ صدقهم، إستكباراً منهم و عناداً و العذاب الشدّيد هو ما تتضاعف ألامه.

و قيل أنّ الويل إسم وادٍ في جهنّم.

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجًا أُولٰئِكَ فِي ضَلٰالٍ بَعِيدٍ

الإستحباب الإيثار و الإختيار و هو إستفعال من المحبّة لأنّ المؤثّر للشّئ على غيره كأنّه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ اليها و أفضل عندها من الأخر و

١- المائدة = ٩٩

يجوز أن يكون إستفعل بمعنى أفعل كإستجاب و أجاب و لمّا ضمن معنىٰ الإيثار عدّى بعلى وقوله: **اَلَّذِينَ** في موضع جرّ لأنّه نعتٌ للكافرين و تقدير الكلام و ويلٌ للكافرين الذّين يستحبُّون الحياة الدّنيا علىٰ الأخرة أي يختارونها علىٰ الأخرة و هذا أي إختيار الحياة الدّنيا و ترجيحها علىٰ الأخرة من شئون الكفر فأنّ المسلم لا يكون كذلك بل يَختار الأخرة علىٰ الدّنيا لأنّه يعلم أنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة.

و المراد بإختيار الحياة الدّنيا و ترجيحها عليها هو الوصول الىٰ الدُّنيا و زخارفها بأيّ نحوٍ كان و فيه خطرٌ عظيمٌ علىٰ فاعله.

و في قوله: **وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** إشارة الىٰ أنّهم أي الكفّار لا يقنعون بكفرهم و ضلالتهم عن الحقّ بل يمنعون النّاس أيضاً من إتّباع سبيل اللّه و يبغونها عوجاً، أي يطلبون الطّريق عدولاً عن إستقامته فأنّ العوج خلاف الميل الى الإستقامة.

ثمّ قال تعالىٰ: **أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** أي أنّهم في عدولهم عن الحقّ و منعهم غيرهم من إتّباع سبيل اللّه و طلبهم الإعوجاج عن الطّريق بعيدون عن الإستقامة.

أقُول والذّي يظهر لي من الآية هو أنّ الذّين يستحبُّون الحياة الدّنيا علىٰ الأخرة بقولٍ مطلق يلزمهم الصّد عن الحقّ وطلب العوج في الطّريق المستقيم اذ مع قطع النّظر عن هذين الأمرين لا يمكن لهم الوصول الىٰ مقاصدهم و أمالهم في الدّنيا و ذلك لا يختصّ بالكفّار المنكرين للّه تعالىٰ بل قد يكون المسلم أيضاً كذلك فتخصيص الآية بالكفّار المشركين لا دليل عليه بل يغلب علىٰ ظنّي أنّ المراد بقوله و للكافرين عذابٌ شديد هو جميع أقسام الكفر فالمسلم الّذي يقرّ بالتّوحيد والنبوّة و المعاد و يستَّحب الحياة الدّنيا علىٰ الأخرة و يصدّ عن سبيل اللّه الخ فهو أيضاً في ضلالٍ بَعيدٍ وله الويل من عذابٍ شديد.

و أنّما قلنا ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ جعل في الآية ملاك الويل و العذاب الشدّيد و الضّلال البعيد، إستحباب الحياة الدّنيا على الأخرة و الصَّد عن سبيل اللّه و طلب العوج فهذه الأمور الثّلاثة هي الباعثة على العذاب الشدّيد و المفروض أنّها موجودة في بعض المسلمين أكثر من المشركين فما الدّليل علىٰ إختصاص الآية بالكفّار و خروج المسلمين منها.

فهذا معاوية بن أبي سفيان و هو من المقّرين بالتّوحيد و النبوّة و المعاد ظاهراً بل هو خال المؤمنين بزعمهم و هو من أظهر مصاديق الآية و هذه الصّفات كانت موجودة فيه بنحو الأتّم و الأكمل فلم لا يكون الويل والعذاب الشّديد والضّلال البعيد ثابتاً له و هكذا جميع حكّام المسلمين بعد رسول اللّه الىٰ يومنا هذا سوىٰ من كان معصوماً منهم، يشملهم الحكم لوجود الملاك فيهم و أنّما قلنا حكّامهم و لم نقل كلّ مسلم كان كذا فهو داخل في الحكم لأنّ الحكّام لقدرتهم على الصَّد عن سبيل اللّه و طلب العوج من أظهر مصاديق الآية و إلاّ فالحكم يشمل جميع المتّصفين بهذه الصّفات سواء كانوا من الكافرين أم من المسلمين و لبسط الكلام فيه موضع أخر.

نعم زعم كثير من جهلة العامّة و الخاصّة أنّ اللّه تعالىٰ خلق جهنّم للكافرين فقط و أمّا المقّرون بالتّوحيد فمأواهم الجنَّة و لم يعلموا أنّ الإقرار اللّساني اذا لم يكن مقارناً للعمل لا يغني و لا يثمر فأنّ اللّه تعالى خلق الجنّة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشّياً و خلق النّار لمن عصاه و لو كان سيّداً قريشّياً هذا.

جزء ١٣ **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ يَشٰآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ**

ما، في ما أرسلنا، نافية و الإستثناء من النّفي يفيد الإثبات علىٰ وجه الإنحصار و من الإثبات بالعكس فاذا قلت ما جائني إلاّ زيد يفيد حصر المَجئ علىٰ زيد و اذا قلت جائني القوم إلاّ عمرو يفيد حصر عدم المجئ علىٰ عمرو

ففي الآية وقع الإستثناء بعد النّفي و المعنىٰ يرجع الىٰ أنّ كلّ رسولٍ أرسلناه الىٰ قومه كان بلسانهم.

ثمّ علّل ذلك بقوله: **لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** أي لقومه أحكام اللّه تعالى والوجه فيه واضح لأنّ الرّسول اذا لم يتكلّم بلسان قومه المبعوث اليهم تنتفي فائدة البعثة و هي الإرشاد و الدّعوة الىٰ سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة.

و أنّما قلنا تنتفي فائدة البعثة لأنّ قبول الدّعوة من الرّسول يتوقّف علىٰ فَهم كلامه و فهم الكلام يتّوقف على وحدة اللّسان بين المتكلّم و المخاطب بمعنىٰ أن يتكلّم المتكلّم بلسان مخاطبه فلو كان المتكلّم متكلّماً بلسانٍ أي بلغةٍ لا يَعرفها المستمع بطل فائدة التّخاطب و هي الإفادة و الإستفادة و هو ظاهر لا يحتاج الىٰ الإثبات و لأجل ذلك لم يرسل اللّه رسولاً الىٰ قوم إلاّ بلسان القوم.

إن قُلت أليس ذلك دليلاً على أنّ القوم الذّين أرسل اليهم الرَّسول هم المأمورون بمتابعة الرّسول لا غيرهم ممّن لا يكون لسانهم لسان الرّسول.

قلتُ لا يدّل الكلام علىٰ هذا و القوم كغير القوم في وجوب متابعة الرّسول و أنّما خصَّهم بالذّكر لأنّ إبتداء الدّعوة يكون منهم ثمّ تسري الىٰ غيرهم لقوله تعالىٰ: **وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ**(١) هذا أوّلاً.

ثانياً: بقول أنّ المراد بقوله تعالىٰ: **بِلِسٰانِ قَوْمِهِ** يحتمل أن يكون كناية عن معرفة القوم إيّاه بمعنىٰ أنّه منهم و ذلك لأنّ بعض الأقوام أو كلّهم لتعصّبهم لا يقبلون قول الغير و لا يتبعونه لعدم معرفتهم بحاله كان فهو معلّل بقوله: **لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**.



أي ليبيِّن الرّسول لقومه ما أمره اللّه بتبليغه لهم من الأحكام الشّرعية و الأصول الإعتقادّية:

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ**(٢).

١- الشعراء = ٢١۴
٢- الزّخرف = ۶٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**[١].

و أمّا قوله: **فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** حيث نسب الضّلالة و الهدى الى نفسه لا الى العبد فقد مَّر الكلام فيه غير مرَّةٍ و قلنا المراد بإضلال اللّه العبد هو أن يكله الىٰ نفسه كما أنّ الهداية و الإرشاد منه تعالىٰ عنايته و توجّهه الى العبد بإعطاء التّوفيق إيّاه بسبب إنقياده و طاعته و من المعلوم أنّ الطّاعة و المَعصية أمران إختياران فكذلك ما يترتّب عليهما و هو الضّلالة والهداية:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[٢].

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه أرسل موسىٰ الىٰ قومه من بني إسرائيل و أمره أن يخرجهم من ظلمات الشّرك الىٰ نور الإيمان فقال: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَآ** وهي المعجزات الجارية على يد موسىٰ بإذن اللّه و هي تسعة على المشهور و قيل المراد بها آيات التّوراة و التّقدير، كما أرسلناك يا محّمد بالقرآن بلسان عرّبي و هو آياتنا كذلك أرسلنا موسىٰ بالتّوراة بلسان قومه و أن، في قوله: **أَنْ أَخْرِجْ** يحتمل أن تكون تفسَّيرية و أن تكون مصدّرية و أمّا القول بأنّها زائدة كما قيل فلا وجه له و أختلفوا في أنّ موسىٰ عليه‌السلام كان مبعوثاً الى جميع الخلق أو كان مبعوثاً الىٰ قومه و هم بني إسرائيل أو اليهم و القبط على أقوالٍ ثلاثة:

فمن قال أنّه كان مبعوثاً الىٰ جميع الخلق إستّدل عليه.

أمّا أوّلاً: بكونه عليه‌السلام من أولى العظم.

ثانياً: بقوله تعالىٰ حيث قال: **يَا مُوسَىٰ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي**

١- النّحل = ٤٤

٢- الإنسان = ٣

وَ بِكَلامي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ[١] و أنت ترىٰ أنّ الدَّليلين عَليلين.

أمّا الأوّل: فلأنّ كونه من أولىٰ العِظَم لا يدّل على المدّعي بل يدّل على أنّه كان صاحب كتاب و أن شئت قلت من كان له كتاب فهو من أولىٰ العظم و أمّا الآية فلا تدّل على أنّ اللّه إصطفاه و أختاره علىٰ النّاس بالرّسالة و هذا ممّا لا كلام فيه و اللّه أعلم.

وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ اللّهِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ أمَر اللّه تعالىٰ موسىٰ بأن يذّكر لقومه أيّام اللّه قيل في أيّام اللّه قولان:

أحدهما: ذكّرهم بنعم اللّه.

ثانيهما: ذكرهم بنعم اللّه لعاد و ثمود و غيرهم من الأمم الضّالة قال عمر بن مكثوم:

وأيّـــامُ لَـــنا غـرٌّ طـوالٌ عصينا الملك فيها أن نـدينا

و لذلك قيل النِّعم و النّقم من أعدائنا وقال قوم أراد خوفهم بهذا كما يقال خذه بالشدّة و اللّين والّذي يختلج بالبال في المراد بأيّام اللّه هو أنّ الأيّام ثلاثة:

يوم الولادة، و يوم الموت، و يوم البعث و الدّليل عليه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**[٢].

فالمراد بقوله تعالىٰ: **وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ اللّهِ** لا يبعد أن يكون ما ذكرناه من الأيّام الثّلاثة و أن كان جميع الأيّام أيّام اللّه و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ التّذكير بهذه الأيّام الثّلاثة له فوائد كثيرة ليست في غيرها في الوصول الىٰ مقام العبودّية و الخروج عن الكفر و المعصية.

فنقول أعلم أنّ التذّكر باعث على التّفكر و ذلك لأنّ التَّفكُر عبارة عن إحضار ما في القوّة الحافظة و كثيراً ما يكون الإنسان غافلاً عنه فيحتاج الىٰ مذّكرٍ و منّبه و الىٰ هذه الدّقيقة أشاره:



١- الأعراف = ١٤٤
٢- مريم = ٣٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرٰى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنْتَ مُذَكِّرٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَكِّرْ بِالْقُرْاٰنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَكِّرْ بِهِۦٓ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ ٱلذِّكْرٰى**[٥].

أي قد نفعت الذّكرى و هذا هو السِّر في كون الأنبياء مأمورين بالتَّذكر فأنّ التّوحيد من الأمور الفطّرية إلاّ أنّ الإنسان بحسب إنغماره في المادّيات و إستتاره تحت غواشي الطّبيعة يغفل عنه و يحتاج الى من يذّكره و هو النّبي في أوّل الأمر اذا عرفت هذه المقدّمة نرجع الى ما نحن بصدد إثباته و هو التَّذكر بأيّام اللّه أعني بها يوم الولادة و يوم الموت و يوم البعث فأنّ التَّفكر المنبعث عن التَّذكر في هذه الأيّام موجب للوصول الىٰ السّعادة في الدّنيا والأخرة.

أمّا يوم الولادة و هو يوم خروج الإنسان من عالم الرَّحم الىٰ الدُّنيا و هو في هذا الحال لا يقدر و لا يعلم فاذا تفكَّر الإنسان فيه يعلم أنّه لم يوجد نفسه جسمه بل هو مخلوق لغيره موجودٌ به فأنّ كلّ مخلوقٍ له خالق لا محالة لإستحالة تحقّق المعلول بدون العلّة ثمّ يتَّفكر في الخالق فيَرىٰ أنّه ليس مِن سنخ المخلوق لأنّه يوجب التَّسلسل.

و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ كلّ موجودٍ بالغير لابدّ من أن ينتهي الىٰ الموجود بالذّات دفعاً للتَّسلسل ثمّ يظهر له أنّ الموجود بالذّات عالم قادر مريدٌ متكلّم سميع بصير الىٰ غير ذلك من الصّفات و ذلك لأنّ المتفكّر يجد في نفسه أنّه متَّصفٌ بها و أنّها من غيره و قد ثبت أنّ معطي الشّيئ لا يكون فاقداً له فالخالق حيٌّ مريدٌ عالمٌ قادرٌ و هكذا فثبت أنّ الإنسان مخلوق خلقه الخالق المتّصف بتلك الصّفات.

١- الذّاريات = ٥٥
٢- الغاشية = ٢١
٣- ق = ٤٥
٤- الأنعام = ٧٠
٥- الأعلىٰ = ٩

ثمّ أنّ العقل السّليم يحكم بأنّ شكر المنعِم واجب عقلاً و الشّكر عبارة عن معرفة الخالق و العمل بأوامره و نواهيه و لا نعني بالعبوديّة إلاّ هذا فثبت و تحقّق أنّ التوجّه و التفكّر في الولادة يوجب الوصول الى مقام العبوديّة و هو المطلوب.

و أمّا يوم الموت، فالتّفكر فيه يوجب الإعراض عن الدّنيا الفانية و زخارفها لأنّ الإنسان اذا علم أنّه يموت و لا يبقى في الدّنيا لا ينظر اليها بنظر الإستقلال بل ينظر اليها بنظر العبور منها الى عالم أخر فلا يحرص على جمع المال و الوصول الىٰ المقام و النِّعم الدُّنيوية لعلْمه بموته و خروجه عنها لا محالة كما قيل:

أنّما الدّنيا كظلٍّ زائلٍ — أو كضيفٍ بات فيها وإرتحل

و حينئذٍ يعرف صدق قوله تعالىٰ حيث قال:

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ،وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ، وَ نَعْمَةٍ كٰانُوا فِيهٰا فٰاكِهِينَ،كَذٰلِكَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْمًا اٰخَرِينَ،فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ اَلسَّمٰآءُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ[١].

و اذا علم هذا و علِم أنّ الموت ممّا لابدّ منه لكلّ مخلوق و حكم الأمثال واحد يصير معرضاً عنها بالكلّية و لا يحبّها بالإصالة و هذا ظاهر.

و أمّا يوم البعث للحساب و الكتاب فالتّفكر فيه يوجب أن يراعىٰ أعماله و أقواله في الدّنيا فلا يكذب و لا يسرق و لا يظلم و لا يزني و بالجملة لا يعصي ربّه لعلمه بأن الأقوال و الأعمال تضبط و تكتَب و يترتّب عليها الثّواب و العقاب إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً فينبغي في عمله و قوله أن لا يخالف ربّه و لا يعصيه في حياته خوفاً من عقابه و اذا كان كذلك فلا خوف عليه و هذا هو المطلوب.

١- الدّخان = ٢٥ الى ٢٩

فظهر لك إنّ أيّام اللّه التّي صار الأنبياء مأمورين بتذكرها هو هذه الأيّام الثّلاثة و إلاّ فجميع الأيّام أيّام اللّه هذا ما إستفدناه من الآية و لا ندّعي أنّ المراد بالأيّام ليس إلاّ هذا و لعلّ اللّه تعالى أراد بها شيئاً أخرنقول.

هذه الأيّام الثّلاثة هي أصول الأيّام و ما ذكره المفسّرون في تفسير الآية راجع الىٰ ما ذكرناه فأنّهم لم يأتوا في المقام بشيءٍ أحسن ممّا ذكرناه واللّه أعلَم بحقيقة كلامه.

و أمّا قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** فالصبّار كثير الصَّبر و الشّكور الكثير الشّكر و المعنى أنّ فيما ذكرناه من إخراج موسى بسبب أياتنا الخ لأياتٍ لكلّ صبّارٍ شكورٍ أي أنّ فيها علائم و دلالات علىٰ وحدانيّته تعالىٰ و أنّه هو الّذي أنعم على عباده بالنِّعم ظاهرة و باطنة و من أفضل النّعم و أشرفها إرسال الرُّسل و إنزال الكتب بواسطة الأنبياء و ذلك لأنّ النّعم المادّية تؤثّر في تكامل الجسم و النِّعم العقليّة المعنّوية التّي تجمع في الدّين تؤثّر في تكامل الرُّوح فكما أنّ الرُّوح أفضل من البدن بل قد يقال بأنّ الإنسان في الحقيقة هو الرُّوح كما ثبت في محلّه كذلك ما يوجب تكامل الرُّوح و هو المعنّويات أفضل من المادّيات و لذلك مَنَّ اللّه تعالىٰ علىٰ المؤمنين بإعطاء المعنّويات دون المادّيات.

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ اَللّٰهُ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ اَلْكِتَابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**(١).

و كلام اللّه من أقوىٰ الدّلائل علىٰ ما ذَكرناه و من المعلوم أنّ فيها أيات و علائم علىٰ وحدّانيته تعالىٰ و أنّه هو المنعم بها إلاّ أنّ أكثر النّاس غفلوا عن هذه الدّقيقة و لم يتفطّنوا أنّها مقدّمة للشّكر أعني به معرفة الخالق و العمل بأوامره و نواهيه.

١- أل عمران = ١٦٤

و أمّا قوله: **لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ** ففيه إشارة الىٰ أنّ الصّبر علىٰ النِّعمة مشكلٌ جدّاً و المراد بالصّبر عليها هو صرف العبد جميع ما أعطاه اللّٰه من النِّعم في طريق الحقّ أي في طريق الطّاعة لا في طريق المعصية و هذا بعينه الشّكر على النِّعمة و نعبّر عنه بالشّكر العملي و حيث أنّه من المكروهات النّفسانية فالعامل به يحتاج الى الصَّبر أعني به حبس النَّفس على ما تكره و العمل على خلاف ما تشتهيه و لعلَّه هو المراد بقوله: **لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ** أي أنّ الإعتبار بالأيات لا يحصل إلاّ لمن صبر و شكر عملاًكقوم موسىٰ على ما ياتى بيانه.

وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجٰيكُمْ مِنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ اَلْعَذٰابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰآءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلآٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

أشار اللّٰه تعالىٰ بهذه الآية الىٰ أوّل ما أنعم اللّٰه عليهم في دار الدّنيا و هو أنّه تعالىٰ أنجاهم من أل فرعون الّذين كانوا يعذّبونهم بأنواع العذاب مِن القتل و الضَّرب و ذبح أطفالهم و إستحياء نساءهم و غير ذلك من الامور الشّنيعَة القبيحة على ما مرَّ تفصيل الكلام فيه في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: **إِذْ أَنْجٰيكُمْ مِنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ اَلْعَذٰابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰآءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلآٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** الآية بعينها و الفرق أنّه قال هناك إذ نجّيناكم و قالها هنا إذ أنجاكم و المعنىٰ واحد و قال هناك و إذ نجّيناكم و في المقام حكىٰ عن موسىٰ أنّه قال لقومه ما قال و لعلّ هذا وجه التّكرار فيها.

و قد أشرنا هناك الىٰ قصّة فرعون و ذبحه الأطفال و إستحياءه النّساء مفصّلاً فلا وجه لإعادته هاهنا.

و أمّا قوله: **وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلآٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** فقد قيل في تفسيره أي في ذلكم نعم من ربّكم عظيمة إذ أنجاكم منها و البلاء قد يكون نعماً و عذاباً يقال

فلان حسن البلاء عندك أي حسن الإنعام عليك و يحتمل أن يكون بمعنى العذاب و في الصّبر علىٰ ذلك العذاب إمتحانٌ من ربّكم عظيم قاله الشّيخ في التّبيان.

و عندي أنّ البلاء بمعنىٰ الإختبار و الإمتحان و المعنى أنّ في تلك النّجاة إختبارٌ عظيمٌ لكم من ربّكم هل تشكرون عَليه أو تكفرون به والدّليل علىٰ ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك.

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ

و هذه الآية عطف علىٰ الأولى أي و إذكروا إذ تأذّن ربّكم أي أعلمكم لئن شَكرتم على النِّعمة نزيد عليها و لئن كفرتم بها نعذّبكم في الدّنيا و الأخرة.

أمّا في الدّنيا فنسسلبها عنكم و أمّا في الأخرة فنعذّبكم على ترك الشّكر و الكفران بها في الدّنيا.

إن قُلت أمّا سلب النّعمة في الدّنيا ممّن يكفر بها فله وجه فما وجه العذاب في الأخرة.

قُلتُ لأنّ شكر المنعم من المستقلاّت العقليّة الّتي يحكم به كلّ عقلٍ سليم و قد إتّفقت الفلاسفة على أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و إذا كان الشُّكر واجباً عقلاً فالكفران مذموم و قد تكلّمنا في معنىٰ الشّكر و أقسامه الثّلاثة من اللّساني و الحالي و العملي فيما مضى و قلنا هناك أنّ حكم الشّارع بوجوب الشّكر تأييد لحكم العقل فأنّ العقل يحكم بحسنه و وجوبه العقلي قبل حكم الشّارع بوجوبه و ما كان كذلك فالثّواب على فعله و العقاب علىٰ تركه ممّا لا كلام فيه.

نعم الزّيادة و النّقصان فيه من الآثار الوضّعية كما أنّ الثّواب و العقاب من الآثار الشّرعية و هذا حكمٌ كلّي يجري في جميع النّاس في أيّ زمانٍ كان و ليس مختصّا بقوم دون قوم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَ ٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، وَ لَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ، فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَ ٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**[1].

و ليعلم أنّ ثمرة الشّكر و فائدته ترجع الىٰ الشّاكر في الدّنيا و الأخرة لا الىٰ اللّه تعالىٰ و ذلك لأنّه غنّي عن كُلّ ما سواه و لذلك قال حكاية عن موسىٰ.

وَ قَالَ مُوسَىٰٓ إِنْ تَكْفُرُوٓا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ

و الدّليل العقلي عليه هو أنّ اللّه لو كان محتاجاً الى شكر الشّاكرين لزم أن يكون ناقصاً في ذاته إذ لا نعني بالإحتياج إلاّ النّقص و هو من شئون الممكن لأنّه ناقص في ذاته من حيث إحتياجه الى الخالق في وجوده المحتاج في الوجود الىٰ غيره محتاج اليه في جميع صفاته لأنّ الصّفات من توابع الوجود و شئونه و أمّا الواجب الوجود بالذّات فهو منزّه عن النّقص مطلقاً فالشّكر و الكفران بالنّسبة اليه على حدّ سواء و هذا لا يختصّ بالشّكر فقط بل جميع العبادات من هذا القبيل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَىَّ**[3].

١- النّحل = ١١٢ / ١١٣ / ١١٤ ٢- النّمل = ٤٠
٣- الأحقاف = ١٥

و الأيات في الباب كثيرة و مع ذلك فأنّ الشّاكر قليل و الكافر بأنعم اللّه كثير و السِّر في ذلك هو أنّ الإنسان بمتضى طبعه و جبلته أسير الشّهوات النّفسانية فإذا وقع في النعّمة و الخمر في اللّذات الجسمانيّة يصير عقله تابعاً لهواه فينسى ربّه و من نسي ربّه نسي ما أعطاه من النِّعم.

و اذا كان كذلك فلا يشكر و عدم الشّكر هو الكفران بعينه قال اللّه تعالىٰ: **كَلّآ إِنَّ ٱلْإِنْسٰانَ لَيَطْغىٰ،أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنىٰ**(۱) و لذلك يقال أنّ الصّبر على النّعمة مشكل جدّا بل هو أصعب من الصَّبر على المصيبة ترىٰ المتنعّمين المرفّهين من حيث المال و المقام من أظهر مصاديق الكفران على النِّعم في جميع الأزمنة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ ٱلشَّكُورُ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لا يَشْكُرُونَ**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ**(۴).

و قال في المتنعّمين الذّين طغوا في البلاد:

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذا وَ إِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالُوا يا وَيْلَنٰآ إِنّٰا كُنّٰا طٰاغِينَ**(۶).

و الطّغيان هو الخروج عن الحدّ و من يكفر بأنعم اللّه فقد خرج عن الحدّ.

و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالى غنّى عمّا سواه و ما سواه محتاج اليه ثابت عقلاً و نقلاً.

جزء۱۳

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ ٱلَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لٰا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللّٰهُ

۱- العَلَق = ۶ / ۷
۲- سبأ = ۱۳
۳- البَقَرة = ۲۴۳
۴- يُونس = ۶۰
۵- ص = ۵۵
۶- القَلم = ۳۱

الظّاهر أنّه من قول موسى لقومه.

و قال الجبائي الخطاب متوجّه الىٰ أمّة النّبي و الحقّ ما ذكرناه إلاّ أنّ المعنىٰ عامّ يشمل جميع النّاس و منهم أمّة النّبي لأنّ خصوصّية المورد لا تنافي عموم المعنى و حكم الأمثال واحدٌ.

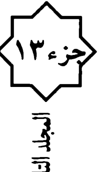
والهَمَزة للإستفهام الإنكاري أي أتاكم نبأ الذّين من قبلكم و وجه الرّبط بما قبلها من الأيات واضح و هو أنّه أعلم في الآية السّابقة أنّ الشّكر على النّعمة يوجب إزديادها و الكفران يوجب العذاب في الأخرة و أنّه لا يضّر اللّه شيئاً لأنّه غنّي حميد.

ثمّ أفاد في هذه الآية أنّ لما ذكرناه من الكفران بأنعم اللّه و إنزال العذاب عليهم في الدّنيا مصاديق كثيرة في الأمم الماضية فقال: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** على سبيل الإستفهام الإنكاري أي إن تنكروني فيما قلت لكم و أخبرتكم عن ربّكم في الشّكر و الكفران فإنظروا الىٰ الأمم السّالفة الذّين أنعم اللّه عليهم بوجود الأنبياء و الشّرائع و جعلهم في نعمةٍ و رفاه فكفروا بأنعُم اللّه بدل الشّكر عليها و أنكروا رسله و شرائعه فوقع بهم ما وقع من أنواع العذاب على ما مرَّ بيانه في قصّة نوح و عاد و ثمود.

وَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أي من نوح و عاد و ثمود من سائر الأمم **لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ** أي لا يَعلم تفاصيل أحوالهم و أفعالهم و ما فعلوه و ما وقع بهم من العذاب كمّاً و كيفاً إلاّ اللّه تعالىٰ.

ثمّ أشار الىٰ علّة نزول العذاب وقال: **جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ** من المعجزات و الكرامات و خوارق العادات **فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَاهِهِمْ** أي الى أفواه الانبياء تكذيباً لهم و ردّاً لما جاءوا به.

و قيل أنّهم عضّوا أناملهم تغيّظاً عليهم في دعاءهم الىٰ اللّه كما قال تعالىٰ: **عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ**[١].



١- أل عمران = ١١٩

و قيل ردّوا نعمتهم بأفواههم في قول مجاهد.

و قال إبن مسعود و إبن زيد أي جعَوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم ليعضُّوها غيظاً ممّا جاءت به الرُّسل.

و قال إبن عبّاس لمّا سمعوا كتاب اللّه عجبوا و رجعوا بأيديهم الىٰ أفواههم.

و قال أبو صالح لما قال لهم رسول اللّه أنا رسول اللّه اليكم أشاروا بأصابعهم الى أفواههم أن أسكت تكذيباً له ورداً لقوله.

و قيل ردُّوا أيديهم في أفواههم ضحكاً و إستهزاء كمن غلبه الضّحك فوضع يده على فيه و الأقوال في معنى المراد كثيرة في التّفاسير لأنّها من الإستظهارات الشّخصية التّي لا دليل عليها من العقل و الشّرع فقالوا في معنىٰ المراد ما قالوا و نحن أيضاً نحتمل في معنىٰ الكلام أنّ الكفّار رَدّوا أيدي الأنبياء الى أفواه الأنبياء بمعنى أنّ الرّسول اذا قال لهم أنّي رسول اللّه اليكم أخذوا بيده و ردُّوها الىٰ فيه و هو كناية عن إسكت و لا تتكلّم بهذا الكلام.

و كيف كان أنّهم أي الكفّار أنكروا علىٰ الأنبياء ولم يقبلوا قولهم و هذا هو الجامع بين الأقوال.

وَ قَالُوٓا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ أي إنّا لا نقبل قولكم في الرّسالة **وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ** الرّيب أخبث الشكّ المتّهم و هو الّذي يتي بما فيه التُّهمة أي أنّه يوجب تهمة ما أتيتم به من الدّعاء الىٰ الّله وحده و توجيه العبادة اليه فقالت لهم رسلهم حينئذٍ.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

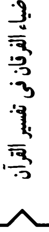
الهَمزة للإستفهام الإنكاري أي ليس فيه شكّ لمن يعقل و ذلك لأنّ السّموات والأرض و ما فيهما من العجائب لابدّ لها من خالقٍ مدّبر حكيم و

أنتم أيضاً من جملة ما في السّموات و الأرض فالشكّ في خالقها يرجع الىٰ أنّه لا خالق لكم أيضاً وهذا غير معقول لأنّ المخلوق لابدّ له من خالقٍ و لا يعقل أن يكون الموجود خالقاً لنفسه و بعبارةٍ أخرىٰ لا شكّ في أنّكم من الموجودين و كلّ موجود أمّا إن لا يكون مسبوقاً بالعدم و أمّا أن يكون مسبوقاً به.

فالأوّل هو الواجب تعالى فأنّه لعدم مسبوقيته بالعدم لا يحتاج الى علّة مخرجة إيّاه من العدم الى الوجود.

و أمّا الموجود الذّي لم يكن ثمّ كان فلابدّ له من مخرج من العدم الى الوجود و ذلك لأنّه قبل الوجود كانت لنسبته الى الوجود و العدم على حدٍّ سواء كما هو شأن الممكن و الخروج عن حدّ الإستواء يحتاج الى مرَّجح خارج عن ذاته و إلاّ يلزم التَّرجيح بلا مرَّجح و هو محال المرَّجح لا يكون إلاّ اللّه تعالىٰ المطلوب.

و اذا ثبت هذا في كلّ واحدٍ منكم فقد ثبت في جميع المخلوق فكيف تشكّون في فاطر السّموات و الأرض و الحال أنّ الشكّ فيهما يرجع الى الشكّ في أصل وجودكم و العاقل كيف يشكّ في وجوده و هو موجود على الفرض لانّ المعدوم لا شكّ له فمن شكّ فهو موجود و كيف يشكّ الموجود في وجوده و هل هذا إلاّ تناقض في الكلام فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه و أثبتناه أنّ لكم خالقاً أوجدكم.



و اذا ثبت وجوده و كونه خالقاً لكم فالخالق يحبّ مخلوقه و يلطف به بمعنى أنّه يريد إيصال الخير دائماً الى خلقه و لا يريد به الشّر كما هو مقتضى قاعدة اللّطف الّتي صارت باعثة علىٰ إرسال الرّسل و إنزال الكتب.

و الى هذا المعنىٰ أشير بقوله: **يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ** بواسطة الأنبياء المرسلين اليكم أليس الرّسول يدعوكم الى اللّه.

يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى يعني لا يؤاخذكم بعاجل العذاب أيضاً اشارة الىٰ عنايته بعباده ولُطفه بهم فأنّ تأخير العذاب عنهم دليل علىٰ ذلك و حاصل الكلام أنّه تعالىٰ لا يريد إهلاك العباد بل يريد إصلاحهم و إرشادهم الىٰ ما هو خير لهم في الدّارين.

قَالُوٓا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أي فقال لهم قومهم إن أنتم إلاّ بشر مثلنا، إن نافية بمعنى أي لستم إلاّ مثلنا و مثل غيرنا من البشر، أنّما قالوا ذلك لأنّهم رأوا أنّ الأنبياء مثلهم بحسب الظّاهر يأكلون و يشربون و ينكحون و ينامون يمشون في الأسواق و المزارع و بالجملة يفعلون و يقولون كغيرهم من أفراد البشر فزعموا هؤلاء الكفّار أنّه لا فرق بينهم و كيف يكون البشر مرسلاً من اللّه الىٰ خلقه و لم يعلموا أنّ التّشابه في الصُّورة لا يلازم التّشابه في المعنى و ذلك لأنّ الإنسان موجود مرّكب من الجسم و الرُّوح و الأجسام متشاكلة و الأرواح متفاوتة متغايرة فجميع أفراد البشر من حيث الجسم و ما فيه من الأعضاء و الجوارح و القوى الحيوانيّة المودّعة فيه من شهوة الأكل و الشّرب و الشّهوة الجنسّية و غير ذلك من الشّهوات و الأميال و الحواسّ من الشّامة و الذّائقة و اللاّمسة و الباصرة و السّامعة و غير ذلك ممّا يتعلّق بالبدن علىٰ حدٍّ سواء لا فرق فيهم من هذه الجهات.

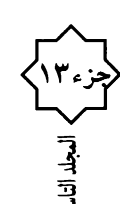
و أمّا من حيث الرُّوح و النّفس النّاطقة القدسّية فالأمر ليس كذلك ثبت في العلوم العقليّة أنّ حقيقة الإنسان هي النّفس و الرُّوح و لا تجد في عالم الوجود إنسانين أو بشرين كانا من هذه الجهة أي من جهة النّفس أو الرُّوح أو ما شئت فسّمه متساويين فضلاً عن وحدة النّفس فيهما من حيث الأثار.

ألا ترى أنّ نفس النّبي مستعدّة لقبول الوحي و ليست كذلك فينا فلو كان التّشابه الصُّوري يكفي في المثلّية فلِم لا يوحى الينا.

و الىٰ هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالى في قوله: **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**[۱] وسيأتي الكلام فيه في موضعه و الى هذا المعنىٰ ينظر قول أمير المؤمنين عليه‌السلام لا يُقاس بأل محمّدٍ من هذه الأمّة أحد.

و أمّا قوله: **تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا** الخ فهو متّفرعٌ علىٰ ما ذهبوا اليه من إثبات المثليّة و لمّا بطل الأصل بطل الفرع و لكن هؤلاء الكفّار لمّا أنكروا رسالة الرُّسل و زعموا أنّهم مثلهم قالوا لهم تريدون أن تصدّونا أي تمنعونا عمّا كان يعبد آباءنا من الأصنام و الأوثان و في هذا الكلام إشعار بأنّهم كانوا مقلّدين لأباءهم في الشّرك و الكفر و عبادة الأصنام و لم يعلموا أنّ التّقليد في الإعتقادات باطل بحكم العقل لإتفاق جميع العقلاء على بطلانه و هو أي تقليد الأباء و الأسلاف موجود الآن في أمّة الإسلام أيضاً فكأنّه سيرة مستمرّة في أكثر النّاس في جميع الأزمنة ألا ترى أن قاطبة المسلمين يقلدّون أسلافهم في خلافة الرّسول و ليس لهم دليل على إثبات خلافة أبي بكر و عمر و من بعدهم إلاّ عمل الأصحاب و بيعتهم لأبىبكر كيف كانت و هذا التّقليد في أصل الخلافة سرى الى تقليدهم في الفروع عن الأموات أمثال الشّافعي و أبوحنيفة و أحمد بن حنبل و غيرهم و لم يعلموا أنّ التّقليد في الإمامة بعد الرّسول عن الأسلاف باطل لكونها من المسائل الإعتقادية و التّقليد في الفروع من الأموات أيضاً باطل و لا دليل لهم علىٰ ما ذكرناه إلاّ عمل آباءهم و أسلافهم أعاذنا اللّه منه.

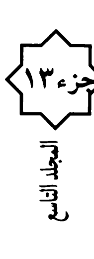
و أمّا قوله: **فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ** أي فأتونا بحجّةٍ واضحة على ما تدعونه و بطلان ما نحن عليه من عبادة الأصنام و لم يبيّنوا هؤلاء الكفّار أنّ الحجّة الواضحة المعبّر عنها بقوله: **بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ** ما هي أليست المعجزات الجارية علىٰ أيدي الأنبياء من الحجّة الواضحة اليس إحياء الموتى و إبراء



۱- الكهف = ۱۱۰ ؛ فُصّلت = ۶

الأكمه و الأبرص و غيرها ممّا أتى به عيسى عليه‌السلام و اليد البيضاء و العصاء و فلق البحر و غيرها ما جرى على يد موسى حجّة واضحة دالّة على صدق نبوتّهما و هكذا الأمر في جميع الأنبياء مرض العناد لا دواء له إلاّ العذاب في الدّارين و الذِّلة و النّكبة في النشأتين و أنّما قلنا مرض العناد و لم نقل مرض الجهل لأنّ الجهل إذا لم يقترن بالعناد و اللّجاج لا إشكال فيه لأنّه يرتفع بسهولةٍ و أمّا العناد فليس كذلك و ظّني أنّ أكثر المنكرين للحقّ في جميع الأزمنة من المعاندين واقعاً لأنّهم يعرفون الحقّ بقلوبهم و ينكرونها بألسنتهم حفظاً لمنافعهم الدّنيوية.

■



قٰالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلّٰا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَمُنُّ عَلٰى مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ مٰا كٰانَ لَنٰا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰانٍ إِلّٰا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَ مٰا لَنٰا أَلّٰا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰينٰا سُبُلَنٰا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلٰى مٰا آذَيْتُمُونٰا وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِي وَ خٰافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَ ٱسْتَفْتَحُوا وَ خٰابَ كُلُّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرٰائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقىٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَ لٰا يَكٰادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرٰائِهِ عَذٰابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ كَرَمٰادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عٰاصِفٍ لٰا يَقْدِرُونَ مِمّٰا كَسَبُوا عَلٰى شَيْءٍ ذٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلٰالُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

وَ ٱسْتَفْتَحُوا۟ الإستفتاح طلب الفتح بالنّصر.

خَابَ يقال خابَ يَخيب خَيبَة وضدّه النّجاح.

عَنِيدٍ مبالغة في العناد.

صَدِيدٍ هو قيحٌ يسيل من الجرح و القيح دمٌ مختلط بمدة.

يَتَجَرَّعُهُ أي جُرعة جرعة و أصل التَّجرع تناول المشروب جُرعةً جُرعةً علىٰ الإستمرار.

يُسِيغُهُ الإساغة إجراء الشّراب في الحلق علىٰ تقَّبل النّفس.

ٱشْتَدَّتْ الإشتداد الإسراع بالحركة علىٰ عِظم القوّة.

عَاصِفٍ أي شديد الرّيح و هذا كما يقال يومٌ ماطر أي كثير المطر.

◀ الإعراب

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ في موضع الحال يَتَجَرَّعُهُ صِفة للماء و قيل حال من الضّمير في، يسقىٰ، و قيل أنّه مستأنف مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مبتدأ و الخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الّذين أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ جملة مستأنفة أي مثلهم مثل أعمالهم و، كرماد، على هذا خبر مبتدأ محذوف أي هي كرماد.

◀ التّفسير

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

إن، نافية، أي ما نحن إلاّ بشر مثلكم و كأنّه جواب عن قولهم في الآية الّتي قبلها حيث قالوا إن أنتم إلاّ بشر مثلنا، فقالت الرسّل في جوابهم.

نعم نحن أيضاً من البشر و لسنا من جنس الملك نأكل و نشرب كما تأكلون و تشربون وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فأصطفانا و بعثنا أنبياء

و هذا هو الفرق بيننا و بينَكم و ذلك لأنّ إصطفاء اللّه كاشف عن إستعداد المصفىٰ و لياقته فأنّ اللّه لا يختار إلاّ الأصلح و لا يشتبه عليه الأمر و لا يخطئ أبداً وفي قوله: **يَمُنُّ** إشارة الى أنّ هذا المنصب من أعلى المناصب و أشرفها و أفضلها يليق بأنّ اللّه منّ به علىٰ عبده:

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ**(٢).

أي منّنا عليهما بالنبوّة و كما أنّ اللّه تعالى منّ على العباد بإرسال الرّسول اليهم كذلك منّ على الرّسول بإعطاءه منصب الرّسالة إذ لا مقام أعلى منها بعد مقام الرُّبوبية فمقام النّبي فوق مقام المخلوق و دون مقام الخالق و السّر في ذلك أنّ الرّسول أقرب الخلق الى ربّه و لا مقام فوق مقام القرب.

وَ مَا كَانَ لَنَآ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ هذا الكلام أيضاً جواب عن قولهم فأتونا بسلطانٍ مُبين)، و في الجواب إشارة الى نقطةٍ دقيقة و هي أنّ الرّسول و أن كان من المقّربين عند اللّه إلاّ أنّه لم يخرج بذلك عن مقام الفقر و الإحتياج الى خالقه فلا يقدر على الإتيان بشيءٍ مِن المعجزات و الكرامات إلاّ بإذن اللّه علىٰ أساس المصلحة الّتي لا يعلمها إلاّ هو فلا تطلبوا منّا ما ليس في وجوده مصلحة.

و في قوله: **وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** أي المصدّقون به و بأنبياءه إشارة الى أنّ المؤمن يتوكّل على اللّه الّذي أمن به لعلمه بأنّ من يتوكّل علىٰ اللّه فهو حسبه و يحتمل أن يكون في هذا الكلام في هذا المقام إشارة بأنّ هؤلاء لو كانوا مؤمنين معتقدين باللّه لم يطلبوا من الأنبياء ما ليس تحت قدرتهم و لا من اللّه تعالىٰ ما ليس فيه مصلحة.



١- آل عمران = ١۶۴ ٢- الصّافات = ١١۴

و يحتمل أن يكون المراد إنّا معاشر الأنبياء لا نبالي من عدم إيمانهم بالله بعد تمّامية الحجّة عليهم اذ ليس علينا إلاّ البلاغ و نتوكّل في جميع أمورنا علىٰ الله الّذي أرسلنا اليهم فهو حسبنا و نعم الوكيل نعم المولىٰ و نعم النَّصير.

وَ مٰا لَنٰآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰينٰا سُبُلَنٰا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلٰى مٰآ اٰذَيْتُمُونٰا وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ

أخبر الله تعالىٰ الرُّسل قالوا ما لنا أي أيُّ شئٍ لنا أن لا نتوّكل عليه أو لم لا نتَّوكل عليه و الحال أنّه تعالى قد هدانا و أرشدنا الى طريق الحقّ و وفَّقنا به و لا يقدر على هذا أحد غيره فينبغي أن يتوكّل عليه و أيضاً نصبر على ما أذيتمونا من إستهزاؤكم بنا و إنكاركم علينا و على الله فليتوكّل المتوكّلون، أي من يريد التوكّل على غيره لا يتوكّل إلاّ على الله لأنه يعلم أنّ التوكّل على غير الله لا يفيد و إعلم أنّ التوكّل يقال على وجهين:

أحدهما: بمعنى التَّولية يقال توكّلت لفلان بمعنى تولّيت له و يقال و كلّته فتوكّل لي.

الثّاني: بمعنىٰ الإعتماد يقال توكّلت عليه بمعنى إعتمدته و التوكّل على الله بمعنىٰ الإعتماد عليه في جميع الأمور لأنّه عالمٌ بمصالح العباد و السِّر العلمي في حسن التوكّل عليه هو أنّ الله تعالى عالم بكلّ شئٍ قادر على كلّ شئٍ محيطٌ بكلّ الأشياء غنّي بذاته حكيم في أفعاله و بالجملةً هو تعالىٰ منبع كلِّ الخيرات و مجمع جميع الكمالات.

و لا شكّ أنّ المخلوق كائناً ما كان ضعيف في ذاته و صفاته فقيرٌ محتاج الى الله في جميع شئونه و لذلك لابدّ له من معتمد يعتمد عليه المعتمد لا يخلو أمّا أن يكون من الخلق أو الخالق.

والأوّل: لا سبيل اليه عقلاً لأنّ حكم الأمثال واحد فكلّ مخلوق يعتمد عليه هو مثل المعتمد في الضّعف و الحقارة و الجهل و غيرها فالإعتماد عليه لا يفيد لأنّه من سنخ إعتماد الفقير على الفقير والضّعيف على الضّعيف.

و إن شئت قلت من قبيل ضمّ المعدوم الى المعدوم و هو كما ترى لغو و عبث لا فائدة فيه و اذا كان الإعتماد علىٰ الخلق هذا حاله فينبغي أن يعتمد على موجود قادرٍ حكيمٍ و ليس هو في عالم الوجود إلاّ اللّه تعالى و بعبارة أخرى الإنسان أمّا أن لا يتوكّل على غيره أو يتوكّل.

أمّا الأوّل: فلا سبيل اليه عقلاً لأنّ الموجود الضّعيف لابدّ له من التوكّل شاء أو لم يشاء كان ملتفتاً اليه أو لم يكن فلابدّ له من الإعتماد علىٰ معتمدٍ و هو أمّا المخلوق أو الخالق أمّا المخلوق فلا يفيد كما فصّلناه فيبقي الإعتماد على الخالق و هو المطلوب.

و هذا معنى قوله: **وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** علىٰ وجه الحصر و لذلك لم يقل فليتوكّل المتوكّلون عليه وقال وعلىٰ اللّه بتقديم الجارّ ألا ترى أنّهم إتّفقوا على أنّ قولنا في الدّار زيد يفيد الحصر بخلاف قولنا زيدٌ في الدّار فإفهم و إغتنم و لأجل هذه الدَّقيقة أمر اللّه تعالى به في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصيرُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ حَسْبِيَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللّٰهُ لآ إِلٰهَ إِلّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**[5].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلّا لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**[6] والأيات كثيرة.

١- الممتحنة = ٤
٢- أل عمران = ١٦٠
٣- الزّمر = ٣٨
٤- الطّلاق = ٣
٥- التّوبة = ١٢٩
٦- يوسف = ٦٧

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ

حكى اللّه تعالى في هذه عن الكفّار أنّهم قالوا لرسلهم إنّا لنخرجنّكم من أرضنا و بلادنا إلاّ أن تدخلوا في أدياننا و مذاهبنا و تعبدون الأصنام و الأوثان فأوحى اللّه تعالىٰ اليهم أي الىٰ الرّسل لنهلكنَّ الظّالمين، أي لا تخافوهم و لا تحزنوا بما قالوا لكم فإنّا نهلكم لظلمهم و في هذه الآية نقاط لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

الأُولىٰ: أنّ الرّسول وظيفته إبلاغ الحكم الى المرسل اليه لأنّه مأمور من جانب اللّه تعالىٰ و المرسل اليه مختار في قبول الحكم و عدمه:

قال اللّه تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**(٢).

و على هذا فتهديد الرّسول بالإخراج من البلد خارج عن طور العقل و هو من أفحش أقسام الظُّلم.

الثّانية: قَولهم: **مِنْ أَرْضِنَآ** من هفوات الظّالمين و ذلك لأنّ الأرض أرض اللّه يسكن فيها جميع ما خلق اللّه فقولهم من أرضنا كذب محض و هذا ظلمٌ أخر.

الثّالثة: قولهم: **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** هذا أيضاً ظلم أخر لأنّه من الأخبار في الإعتقاد و هو غير معقول و لأجل هذه الأمور الّتي يحكم العقل بقبحها قال اللّه تعالى لرسلّهم إنّا نهلكهم لظلمهم و فيه أي في هذا التّعليل إشعار بأنّ الإهلاك متوقّف على الظّلم لا على الكفر قال لنهلكنّ الظّالمين مع أنّهم كانوا كافرين و يستفاد من هذا التّعليل أنّ الظّلم على الغير أقرب الى الهلاك من الكفر و لذلك لم يهلك اللّه قوماً لكفرهم اذا لم يتعدّ الىٰ الظّلم و الى هذا المعنىٰ أشار النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم **المُلك يبقىٰ مَع الكُفر ولا يبقىٰ مَع الظُّلم**.

١- البقرة = ٢٥٦

٢- الإنسان = ٣

إن قُلت الكفر أيضاً من أقسام الظّلم بل رأسها و رئيسها و أيّ ظلم أقبح منه.

قُلتُ لا شكّ أنّ الكفر ظلم و لكنّه ظلم على نفس الكافر بمعنى أنّ الكفار بكفره يظلم علىٰ نفسه و أمّا الظّلم على الغير فهو داخل في التعدّي بحقوق الغير و لذلك يعبّر عنه بالطّاغي و لا يعبّر عن الكفر به.

و قد ورد في حديث الرّسول أنّ الظُّلم ثلاثة:

ظلم على اللّه و ظلمٌ علىٰ النّفس و ظلمٌ علىٰ الغير فالكافر ظالم على اللّه و ظالم على نفسه و لا يتعدّى ظلمه الى غيره و لأجل ذلك يمهله اللّه في الدّنيا.

و أمّا الظّالم علىٰ الغير و هو الذّي تجاوز عن حدّه و دخل في حدود غيره بل سلب بظلمه الحريّة و الرّفاه عن غيره و ضيَّق عليه الحياة و التعيّش في الدّنيا فهو أقبح من الكافر الذّي لا يظلم و أن كان الظّالم مسلماً و المظلوم كافراً و هذا هو الأصل في الباب.

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْزَلْنٰا عَلَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ اَلسَّمٰاءِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ اَلسَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَظْلِمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تِلْكَ اَلْقُرىٰ أَهْلَكْنٰاهُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنٰا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خٰاوِيَةً بِمٰا ظَلَمُوٓا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذآ أَخَذَ اَلْقُرىٰ وَ هِىَ ظٰالِمَةٌ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ كٰانَتْ ظٰالِمَةً وَ أَنْشَأْنٰا بَعْدَهٰا قَوْمًا آخَرِينَ**(٧).

١- البقرة = ۵۹
٢- الأعراف = ۱۶۲
٣- الكَهف = ۵۹
۴- النّمل = ۵۲
۵- الزّخرف = ۶۵
۶- هُود = ۱۰۲
٧- الأنبياء = ۱۱

قال اللّه تعالىٰ: **فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ**[١] والأيات كثيرة جدّاً.

اذا عرفت هذا فقد عَلمت أنّ سببِ الإهلاك هو الظّـلم و هـذا مـعنىٰ قـوله: **فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ اَلظّٰالِمِينَ.**

وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِي وَ خٰافَ وَعِيدِ

بعد أن وحى اللّه اليهم ربّهم بـما أوحـىٰ وعـدهم بأنّ الأرض يـرثها عـباده الصّالحون و المعنىٰ أنّا نهلكهم ثمّ نجعلكم مكانكم على رغم أنوفهم ليـعلموا أنّ الأرض للّه تعالى لا لهم و لأتباعهم من الظّلمة و قوله ذلك لمن خاف مقامي و خاف وعيد، معناه ذلك جزاء لمن خاق مقامي أي حيث يقيمه اللّه بين يديه و أضافه الىٰ نفسه كما قال: **وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**[٢] أي رزقي إيّاكـم قال و العرب تُضيف أفعالها الىٰ أنـفسها والىٰ مـا وقـعت عـليه تـقول سـررت برؤيتك، و سررت برؤيتي إيّاك و ندمت على ضربك و ضربي إيّاك.

هكذا قيل في معنى الكلام والذّي نفهم مـن كـلام اللّـه هـو أنّ قـوله، ذلك، إشارة الىٰ توريث الأرض الأنبياء و من أمن بـهم بـعد إهـلاك الظّـالمين ثـمّ أنّ الأنبياء و من أمن بهم هم الّذين يخافون مقام اللّـه و وعـيده و أمّـا الكـافر فـلا يخاف مقامه وعيده لعدم إيمانه بـاللّه فـمعنىٰ الكـلام أن تـوريث الأرض بـعد إهلاك الظّالمين مختصّ بالمؤمنين:

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّ اَلْأَرْضَ يَرِثُهٰا عِبٰادِيَ اَلصّٰالِحُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.**

قال بعضهم، و مقامي يحتمل المصدر و المكان.

و قال الأخر مـقامي مـصدر أضـيف الى الفـاعل أي قـيامي عـليه بـلاحفظ لأعماله و مراقبتي إيّاه.

١- الحجّ = ٤٥ ٢- الواقعة = ٨٢
٣- الانبياء = ١٠٥

و قال الزّجاج مكان وقوفه بين يديه للحساب و المعنى واضح لا يحتاج الى هذه التّأويلات والله أعلم.

ٱسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، مِنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَىٰ مِنْ مَآءٍ صَدِيدٍ

إختلفوا في مرجع الضّمير في قوله و إستفتحوا، على قولين:

أحدهما: أنّه يرجع الى الأنبياء أي إستنصروا الله على أعداءهم:

قال الله تعالىٰ: **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ**[١].

قال الله تعالىٰ: **وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**[٢].

الثّاني: أنّه عائد علىٰ الكفّار أي و إستفتح الكفّار على نحو ما قالت قريش:

قال الله تعالىٰ: **عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ**[٣].

و قول أبي جهل اللّهم إقطعنا للرّحم.

و الحقّ عندي أنّ الضّمير عائد على الكفّار لكن لا بالمعنى الّذي نقلناه عنهم بل المعنى و إستفتح الكفّار العذاب الّذي توعّدهم به الأنبياء على جهة التّكذيب لهم و يؤيّد هذا المعنى قوله: **وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**،و ذلك لأنّ الخيبة الخسران أي خسر كلّ متكبّرٍ معاندٍ مجانبٍ للحقّ دافعٍ له.

و أنّما قلنا يؤيّده لأنّهم طلبوا العذاب الّذي توّعدهم به الأنبياء ولم يعلموا أنّ هذا خسران لهم.



و قال الرّاغب في المفردات، الخيبة فوت الطّلب و عليه فالمعنىٰ فات طلب كلّ جبّارٍ عنيد و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه لأنّ الخسران فوت الطّلب.

و قد ورد في الأخبار **ما خابَ مَن تَمَّسك بكم**، أي ما خسر:

١- الأنفال = ١٩
٢- البقرة = ٨٩
٣- ص = ١٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَدْ خٰابَ مَنِ اَفْتَرىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰيٰهٰا**[٢].

والجَبّار، بفتح الجيم وتشديد الباء مبالغة و هو في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بإدّعاء منزلةٍ من التّعالي لا يستحقّها و هذا لا يقال إلاّ على طريق الذّم.

و أمّا في صفة اللّه فلا يكون إلاّ مدحاً اذ ليس له تعالى نقيصة قالوا اذا وصف العبد بأنّه جبّار كان ذمّاً و اذا وصف اللّه به كان مدحاً، فمن الذّم:

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بَرًّا بِوٰالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبّٰارًا شَقِيًّا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تُرِيدُ إِلاّٰ أَنْ تَكُونَ جَبّٰارًا فِى اَلْأَرْضِ**[٥].

و من المدح أنّه تعالىٰ وصف نفسه به:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ اَلْمَلِكُ اَلْقُدُّوسُ اَلسَّلاٰمُ اَلْمُؤْمِنُ اَلْمُهَيْمِنُ اَلْعَزِيزُ اَلْجَبّٰارُ اَلْمُتَكَبِّرُ**[٦].

و أمّا العنيد فقيل هو المعاند كالخليط بمعنى المخالط.

و قال الرّاغب العنيد المعجب بما عنده.

نقل المؤرّخون أنّ وليد الفاسق أحد خلافاء بني المروان تفأل بالقرأن يوماً من الأيّام فجاءت هذه الآية فألقى القرأن و رماه بالسّهام و قال:

أتوعدني بجبّارٍ عنيدٍ   فها أنا ذاك جبّارٌ عنيدُ

اذا ما جئتَ ربّك يوم حشرٍ   فقل ياربّ خرّقني الوليد

لعنة اللّه عليه و على من مهد له ذلك الفراش من الغاصبين الظّالمين قبله و أنّما وصف اللّه الكفّار بالعنيد لأنّهم أو أكثرهم كانوا معاندين واقعاً و إلاّ فالحقّ واضح لا خفاء فيه و بعد ما وصفهم اللّه بما وصف قال.

١- طه = ٦١
٢- الشّمس = ١٠
٣- غافر = ٣٥
٤- مَريم = ٣٢
٥- القصص = ١٩
٦- الحَشر = ٢٣

مِنْ وَرٰآئِهٖ جَهَنَّمُ وَ يُسْقٰى مِنْ مٰآءٍ صَدِيْدٍ أي أنّ الخسران نصيبهم في الدّنيا والأخرة فقوله: **مِنْ وَرٰآئِهِم** أي من بعدهم أي بعد موتهم و قيل من وراءهم أي من إمامهم و هو معنى قول الزّمخشري من بين يديه كما قال الشّاعر:

عسى الكرب الذّي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريبٌ.

أقُول الحقّ أنّ وراء من الأضداد و به قال أبو عبيدة و الأزهري و قيل ليس من الأضداد و قال ثعلب إسمٌ لما توارى عنك سواء كان أمامك أم خلفك.

و أنّما قلنا أنّه من الأضداد لقول الشّاعر:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء اللّه للمرء مهربُ

و قال الأخر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتى وقوم تميم والفلاة ورائياً

و عليه فقوله تعالىٰ: **مِنْ وَرٰآئِهٖ جَهَنَّمُ** أي من أمامهم و من خلفهم فأنّ جهنّم أمامهم من حيث أنّهم يسعون اليها و خلفهم من حيث أنّهم يدخلونها بعد موتهم و كلا المعنيين لا إشكال فيهما.

و أمّا قوله: **وَ يُسْقٰى مِنْ مٰآءٍ صَدِيْدٍ** أي و يسقى الجبّار العنيد ماءً صديداً يأ الماء الّذي هو صديد و قيل هو نعتٌ لماء كما تقول هذا خاتم صديد و ليس بماء لكنّه لمّا كان بدل الماء في العرف عندنا أطلق عليه الماء.

و قال الزّمخشري صديد عطف بيان لماء قال و يسقى من ماء فأبهمه ثمّ بيَّنه بقوله: **صَدِيْدٍ** انتهىٰ.

أقُول هذا على مذهب الكوفّيين حيث جوَّزوا عطف البيان في النّكرات.

و أمّا على مذهب البصريّن فلا يجوز لعدم تجويزهم ذلك و كيف كان هو ما يسيل من أجساد أهل النّار و قيل هو غسالة النّار في النّار و قيل هو ما يسيل من فروج الزّناة و الزّواني أعاذنا اللّه منه.

يَتَجَرَّعُهُ وَ لٰا يَكٰادُ يُسيغُهُ وَ يَأْتيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرٰآئِهِ عَذٰابٌ غَليظٌ

أشار اللّه تعالى بهذه الآية الى كيفيّة شرب ذلك الصّديد فقال يتجرّعه أي يشرب الصّديد جرعةً جرعة فأنّ التَّجرع هو تناول المشروب جرعة جرعة على الإستمرار و قوله و لا يكاد يسيغه أي لا يقاربه و أنّما يضّطر اليه.

قال الفّراء، لا يكاد يستعمل فيما يقع و فيما لا يقع، فما يقع هو هذالم يقع مثل قوله: **لَمْ يَكَدْ يَرٰيهٰا** لأنّ المعنى لم يرها، و الإساغة هي إجراء الشّرب في الحّلق على تقبل النَّفس و يقال لها بالفارسّية (گُوارا)يضطّر اليه و لذلك قال لا يكاد يسيغه.

و قد روي عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال وما يتجرّعه يقرّب اليه فيتكرّهه، فاذا أدنىٰ منه شوي وَجهه و وقعت فروة رأسه واذا شربه قطع أمعاءه حتّىٰ يخرج من دبره:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سُقُوا مٰآءً حَميمًا فَقَطَّعَ أَمْعٰآءَهُمْ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَسْتَغيثُوا يُغٰاثُوا بِمٰآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرٰابُ**(۲).

قال بعض المفسّرين يَتَجَّرعه يتكلّف جرعه و لا يكاد يسيغه أي و لا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة و بعبارة أخرى الظّاهر من الآية هو إنتفاء مقاربة إساغته أيّاه و إذا إنتَفت إنتَفت الإضافة فيكون كقوله: **يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرٰيهٰا**(۳).

أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها و الحديث ظاهر في الشُّرب فأن صحّ الحديث كان المعنى و لا يكاد يسغه قبل أن يشربه ثمّ شربه كما جاء، فذبحوها و ماكادوا يفعلون، أي و ماكادوا يفعلون قبل الذّبح انتهىٰ.

۱- محمّد = ۱۵
۲- الكهف = ۲۹
۳- النّور = ۴۰

و قوله: **وَ يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** قال بعضهم أي من الجهات السِّت و ذلك لفظيع ما يصيبه من الآلام.

و قال الأخفش أراد البلايا الّتي تصيب الكافر في الدّنيا سمّاها موتاً.

أقُول الموت أنواعٌ بحسب أنواع الحياة فكلّ حياةٍ له موت بحسبه.

الأوّل: الموت يقال بإزاء القوّة النّامية الموجودة في الإنسان و الحيوانات و النّباتات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَانْظُرْ إِلىٰ آثارِ رَحْمَتِ ٱللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(٤).

الثّانى: يطلق الموت على زوال القوّة الحاسّة ومنه.

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذٰا**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **أَءِذٰا مٰا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**(٦).

الثّالث: يطلق علىٰ زوال القوّة العاقلة وهي الجهالة ومنه قوله قوله تعالىٰ

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنّٰاسِ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعٰاءَ**(٨).

الرّابع: الحُزن المُكدِّر للحياة ومنه:

قوله تعالىٰ: **وَ يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ**

١- الرّوم = ١٩
٢- النّحل = ٦٥
٣- الرّوم = ٢٤
٤- الرّوم = ٥٠
٥- مريم = ٢٣
٦- مَريم = ٦٦
٧- الأنعام = ١٢٢
٨- النّمل = ٨٠

الخامس: المنام فقيل النَّوم موت خفيف و الموت نومٌ ثقيل و هو الّذي سمّاه بالتوّفى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفّيكُمْ بِاللَّيْلِ**(١).

إذا عرفت أنواع الموت بحسب أقسام الحياة فقد علمت أنّ قوله: **وَ يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ** أي يأتيه الحزن المكدِّر للحياة فعبّر عن الحزن و شدّة الغمّ بالموت كما عبرّ عن السُّرور المفرّح للحياة بالحياة في قوله: **وَ لا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ أَمْوٰاتًا بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**(٢) و الى هذا المعنى أشار من قال أنّ موت كلّ شئٍ بحسبه و على ما قرّرناه فقوله: **مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ** إشارة الى كلّ مكانٍ في جهنّمً أي أنّه ينظر الىٰ المعذّبين بحسب مراتبهم شدَّةً وضعفاً فيزيد على حزنه آناً فآناً.

و محصّل الكلام أنّه لا يرى فيها إلاّ الحزن المكدِّر للحياة و ما هو بميّت واقعاً لأنّه يشعر و يدرك العذاب و هذا كما تقول الجاهل ميَّت و ليس بميّت أي ميَّتٌ روحاً وحي جسماً **وَ مِنْ وَرٰآئِهِ عَذٰابٌ غَلِيظٌ**.

قلنا أنّ الوراء من الأضداد أي من أمامه و خلفه عذابٌ غليظ أي أنّ العذاب لا ينقطع عنه و قال بعضهم معناه من بعد عذابه هذا له عذاب غليظ.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ كَرَمٰادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عٰاصِفٍ لٰا يَقْدِرُونَ مِمّٰا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلٰالُ ٱلْبَعِيدُ.

قيل إرتفاع، مثل، على الإبتداء و خبره محذوف و تقديره عند سيبويه، فيما يتلي عليكم، أو يقصّ عليكم، و المثل مستعار للصّفة الّتي فيها غرابة وقوله: **أَعْمٰالُهُمْ كَرَمٰادٍ** جملة مستأنفة على تقدير سؤال كأنّه قيل كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرمادٍ، و قيل مثل، رفع بالإبتداء، و أعمالهم، بدل من مثل بدل إشتمال و كرمادٍ الخبر.

١- الأنعام = ٦٠
٢- آل عمران = ١٦٩

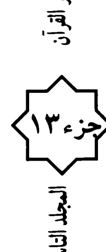
أقول الحّق أنّ مثل مبتدأ و أعمالهم مبتدأ ثانٍ و كرمادٍ خبر للثّاني و الجملة خبر الأوّل شبَّه اللّه تعالىٰ في هذه الآية أعمال الكّفار في أنّه لا محصول لها و لا فائدة بها يوم القيامة بالرّماد و هو بالفارّسية (خاكستر) الّذي يشتدّ فيه الرّيح العاصف الشدّيد فأنّه لا بقاء لذلك الرّماد فكذلك أعمال الكفّار لا يقدرون منها على شيئ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَنْثُورًا**[1] فالمشّبه الأعمال و المشّبه به الرّماد، و وجه الشَّبه عدم البَقاء و أداة التّشبيه الكاف فقد تمّت الأركان الأربعة في التّشبيه و فيه إشعار بأنّ العمل إذا لَم يكن على وجه الإخلاص الموقوف على الإيمان لا أثر له أصلاً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

الرّؤية في الآية رؤية العلم لا رؤية البصر و أن شئت قلت المراد بهاهاهنا العلم أي ألم تعلم يا محمّد أنّ اللّه خلق السّموات و الأرض بالحقّ و حيث أنّ الهمزة للإستفهام الإنكاري فالمعنى أنّك تعلم قطعاً و عليه المفسّرون بالإتّفاق و لكن لم ينّبيؤا الوجه فيما ذكروه إذ لقائلٍ أن يقول ما الدّليل علىٰ أنّ الرُّؤية هاهنا بمعنى العلم و ليست بمعنى الإدراك بالبصر و المعنى ألم تنظر أنّ اللّه خلقهما.

و الجواب أنّ قوله: **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ** دليلٌ على أنّ المراد بها العلم لأنّ خلق الشّئ مقّدم على وجوده في الخارج و بعبارةٍ أخرى وجود الشّئ موقوف على خلقه و لا عكس والّذي يدرك بالبصر هو الموجود في الخارج و أمّا أنّه مخلوق لغيره فهو لا يدرك إلاّ بالعلم و لذلك لم يقل ألم تر الى السّموات و الأرض و قوله: **بِالْحَقِّ** قيل أي بالحكمة و الغرض الصّحيح و الأمر العظيم و لم يخلقهما عبثاً و لا شهوةً.



١- الفرقان = ٢٣

قاله الزّمخشري و قيل بالحّق أي بما يحقّ من جهة مصالح عباده و إنفاذ سابق قضائه و لَدلّ عليه و على قدرته.

و قيل أي بقوله وكلامه و قيل بالحّق حال أي مُحّقاً أقول الحّق في الأصل المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقّه لدورانه على إستقامةٍ و هو أي الحقّ يقال على أوجهٍ:

الأوّل: يقال الموجد الشّيٰ بسبب ما يقتضيه الحكمة و لهذا قيل في اللّه تعالىٰ هو الحقّ و هو ظاهر.

الثّاني: يقال للموجد بسبب مقتضى الحكمة و لهذا يقال فعل اللّه حقّ كلّه.

الثّالث: في الإعتقاد للشّيٰ المطابق لما عليه ذلك الشّيٰ في نفسه كقولنا إعتقاد فلان في البعث و الثّواب و العقاب و الجنّة و النّار حقّ.

الرّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب و بقدر ما يجب و في الوقت الذّي يجب كقولنا فعلك حقٌّ اذا عرفت وجوه الحقّ.

فقوله تعالىٰ: **بِالْحَقِّ** إشارة الىٰ أنّ فعله حقٌّ لأنّ خلق السّموات و الأرض فعل اللّه و لا شكّ أنّ اللّه تعالى حقٌّ في ذاته و صفاته و من كان حقّاً فيهما فهو حقٌّ في فعله أيضاً اذ لا يصدر الباطل عن الحقّ المطلق.

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلًا سُبْحٰانَكَ فَقِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلًا**(٢).

و السِّر فيه أنّ ضدّ الحقّ يكون باطلاً فاذا لم يكن خلقهما بالحقّ فلا محالة يكون باطلاً لإستحالة إرتفاع النّقيضين و الباطل العبث و فاعل العبث جاهل سفيه تعالىٰ اللّه عنه و إن شئت قلت لا شكّ في وجود السّموات و الأرض و هذا ممّا لا كلام فيه.

ثمّ نقول أمّا أن يكون خلقهما بالحقّ أو بالباطل أو بهما جيمعاً أو لا بهما و الأوّل هو المطلوب.

١- أل عمران = ١٩١ ٢- ص = ٢٧

الثّاني: لا سبيل اليه لأنّ الباطل لا يصدر إلاّ من الباطل.

الثّالث: مستلزم لإجتماع النّقيضين.

الرّابــع: يسـتلزم إرتـفاعهما و هـما مـحالان فـثبت و تـحقّق أنّ خـلقهما بالحقّ المطلوب.

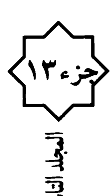
و أمّا قـوله: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَـدِيدٍ** فـمعناه **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ** أي يميتكم و يفنيكم و يأت بخلق جديدٍ بعدكم و هذا ممّا لا يحتاج الىٰ الإثبات فأنّ من إعتقد أنّ اللّه خلقه و خلق غيره من من المخلوقات يعتقد قهراً بأنّه قادر علىٰ خَلق أخر كما هو قادر علىٰ إذهاب الخلق و ذلك لأنّ القدرة بحالها و حكم الأمـثال واحـد فـلو لم يـقدر عـلىٰ خـلقٍ أخـر فـهو ضـعيف و المفروض أنّه على كلّ شئٍ قدير.

و الحاصل أنّ الخالق كما يقدر على الخلق يقدر علىٰ الإماتة بقولٍ مطلق و في هذا الكلام أيضاً إشعار بأنّه تعلىٰ مختار في أفعاله و الفـاعل المـختار له أن يختار ما يشاء و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله:

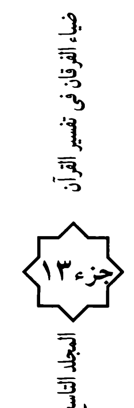
وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ بِعَزِيزٍ

أي بممتنع و لا متعذّرٍ عليه تعالى لأنّه هو القادر علىٰ ما يشاء كيف يشاء و هو واضح لا خفاء فيه بعد ثبوت القدرة المطلقة له و هي ثابتة له عـقلاً و نـقلاً فالمطلوب ثابت.

■



وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَينَا ٱللّٰهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَ قَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّآ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ مَآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَ أُدْخِلَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ ٱللّٰهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِي ٱلْاٰخِرَةِ وَ يُضِلُّ ٱللّٰهُ ٱلظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ ٱللّٰهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى



ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ ٱلْبَوارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ ٱلْقَرارُ ﴿٢٩﴾ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنّارِ ﴿٣٠﴾

◀ اللّغة

وَ بَرَزُوا البُروز الظُّهور و الخروج عمّا كان ملتبسا به.

ٱلضُّعَفٰٓاءُ جمع ضعيف و الضَّعف نقصان القوّة.

مُغْنُونَ يقال أغنى عَنّي اذا دفع عنّي و الإغناء نفي الحاجة بما فيه كفاية.

مَحِيصٍ أي مهرب يقال حاص يحيصُ حيصاً وحاد يحيد حيداً و الحيد الزَّوال عن المكروه.

بِمُصْرِخِكُمْ يقال إستصرخني فأصرخته أي إستغاثني فأغثته و الإصراخ الإغاثة.

ٱجْتُثَّتْ الإجتثاث الإستئصال و الإقتلاع.

أَنْدٰاداً الأنداد جمع ندّ و هم الأمثال المناؤون.

◀ الإعراب

تَبَعًا قيل هو جمع تابع مثل خادم و خدم، و غايب و غيب و قيل هو مصدر فيكون في موضع إسم الفاعل أو يكون التّقدير ذوي تبع مِنْ عَذابِ ٱللَّهِ في موضع نصب على الحال لأنّه في الأصل صفة لشيْ تقديره من شئ من عذاب الله إِلَّآ أَنْ دَعَوْتُكُمْ إستثناء منقطع لأنّ دعاءه لم يكن سلطاناً أي حُجّةً بِمُصْرِخِيَّ بفتح الياء و هو جمع مصرخ فالياء الأُولىٰ ياء الجمع و الثّانية ضمير المتّكلم و فتحت الياء لئلا يجتمع الكسرة والياء ان بعد كسرتين بِمٰآ

أَشْرَ كْتُمُونِ ما، بمعنىٰ الذّي أي الّذي أشركتموني به و قيل مصدرّية أي بإشراككم إيّاي مع اللّه عزّ وجلّ و مِنْ قَبْلُ يتعلّق بأشركتمون و قيل هي متعلّقة، بكفرت، أي كفرت من قبل إشراككم فلا أنفعكم شيئاً وأُدْخِلَ معطوف علىٰ برزوا تَحِيَّتُهُمْ يجوز أن يكون المصدر مضافاً الىٰ الفاعل أي يحيى بعضهم بعضاً بهذه الكلمة و أن يكون مضافاً الى المفعول أي يحييهم اللّه أو الملائكة كَلِمَةً بدل من مثل كَشَجَرَةٍ نعت لها تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا نعت للشّجرة مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ الجملة صفة لشجرة أو حال من الضّمير في، أجتثت فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا يتعلّق بيثبت و قيل بالثّابت كُفْرًا مفعول ثانٍ لبدلّ وجَهَنَّمَ بَدَل من دار البوار يَصْلَوْنَهَا يجوز أن يكون موضعه حالاً من جهنّم.

◀ التّفسير

وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعًا

أي ظهروا من قبورهم الى جزاء اللّه و حسابه و قوله: **جَمِيعًا** يعنى التّابع و المتبوع أعني الضّعفاء و المستكبرين **فَقَالَ ٱلضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** الضّعفاء جمع ضعيف و الضّعف نقص القوّة و هو تارةً يكون في الجسم فيقال فلان ضعيف أي لا قوّة له و تارةً في النّفس و الرُّوح مثل الجهّال و ضعفاء العقول و لسّفهاء و أمثالهم و بالجملة من لا يدرك خيره و شرّه و هم أكثر النّاس في كلّ زمانٍ و هذا هو المراد في المقام.

و المستكبر من طلب التّكبر و هو رفع النّفس فوق مقدارها في الوصف و المراد بهم في الآية قيل هم علماء بني إسرائيل و الحقّ أنّ المراد كلّ مستكبرٍ إستكبر و أظهر تعظيم نفسه و يحتمل أن يكون المراد بالمستكبرين الذّين أنكروا الرُّسل و أعرضوا عن إتّباعهم فالمعنى لمّا برزوا للّه جميعاً يوم الحساب يقول الضُّعفاء للمستكبرين إنّا كنّا لكم تبعاً أي تابعين في الحياة الدُّنيا

و كنتم فيها ساداتنا و كبرائنا فهل أنتم تقدرون على دفع ما لا نقدر دفعه من عذاب اللّه.

و الظّاهر أنّ كلمة، من، تبعيضيّة أي بعضاً من عذاب اللّه أي إن لم تقدروا على دفع العذاب كلاًّ فهل تقدرون على دفع بعضه.

و من المعلوم أنّ الجواب منّفي اذ لا يقدر أحدٌ على ذلك فأجابهم المستكبرون بأنّه لو هدانا اللّه الىٰ طريق الخلاص لهديناكم اليه كما قال تعالىٰ:

قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ

قال صاحب الكشّاف في تفسير هذا الكلام ما لفظه.

قُلتُ الذّي قال لهم الضُّعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على إستتباعهم و إستغواءهم.

و قولهم فهل أنتم مغنون عنّا بعض شئ هو بعض عذاب اللّه.

فأن قلت فما معنى قوله، لو هدانا اللّه لهديناكم.

قلت الذّي قال لهم الضُّعفاء كان توبيخاً لهم و عتاباً و قولهم فهل أنتم مغنون عنّا من باب التّكبيت لأنّهم قد علموا أنّهم لايقدرون على الإخفاء عنهم فأجابوا معتذرين عمّا كان منهم اليهم بأنّ اللّه لو هداهم الى الإيمان لهدوهم ولم يضُّلوهم.

أمّا موكورين الذّنب في ضلالهم و إضلالهم على اللّه كما حكى اللّه عنهم.

(و قالوا لو شاء اللّه ما أشركنا و لا أباءونا لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شئٍ) و يقولون ذلك في الأخرة كما كانوا يقولونه، في الدنيّا و يدلّ عليه قوله تعالىٰ حكايةً عن المنافقين: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ**[١] و إمّا أن يكون المعنى لو كنّا من أهل اللّطف فلطف بنا ربّنا و إهتدينا لهديناكم الى الإيمان.



١- المجادلة = ١٨

و قيل معناه لو هدانا اللّه طريق النّجاة من العذاب لهديناكم، أي لأغنينا عنكم و سلكنا بكم طريق النّجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة انتهى كلام صاحب الكشّاف.

قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام قال إبن عبّاس معناه لو أرشدنا اللّه لارشدناكم.

قال الواحدي معناه أنّهم دعوهم الى الضّلال لأنّ اللّه أضلّهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم الى الضّلال ولو هداهم لدعوهم الى الهدى.

ثمّ نقل عن صاحب الكشّاف أنّه قال، لعلّهم قالوا ذلك مع أنّهم كذبوا فيه ويدلّ عليه قول المنافقين: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ**

ثمّ قال و إعلم أنّ المعتزلة لا يجوّزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفاً لأصول مشايخه فلا يقبل منه انتهى كلامه.

أقول ما نقله الرّازي عن صاحب الكشّاف (مع أنّهم كذبوا فيه) ثمّ أورد عليه بأنّ هذا القول مخالف لأصول مشايخه فلا يقبل منه، ليس في تفسير الكشّاف الذّي هو موجود عندنا و اللّه أعلم.

و قال القرطبي في قوله: **قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ** أي لو هدانا اللّه الىٰ الإيمان لهديناكم اليه و قيل لو هدانا اللّه الى طريق الجنّة لهديناكم اليها.

و قيل لو نجّانا اللّه من العذاب لنَّجيناكم منه انتهى كلامه.

أقول أقوالهم في معنى الكلام متقاربة المعنى و أن كانت مختلفة بحسب اللّفظ

و قال الرّازي المعنى لو خلّصنا اللّه من العقاب و هدانا الى طريق الجنّة لهديناكم اليه و الدّليل على أنّ المراد من الهدى هذا الّذي ذكرناه أنّ هذا هو الّذي إلتمسوه و طلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى انتهى ما ذكره و إرتضاه في المقام.

و أنا أقول لابدّ لنا أوّلاً تحقيق معنى الهداية في الآية و أنّه ما المراد منها و هل هي حصلت في حقّ المستكبرين الذّي قالوا بهذه المقالة أم لا.

و إعلم أنّ هداية اللّه تعالى للإنسان علىٰ أربعة أوجه:

الأوّل: الهداية التّي عمَّ بجنسها كلّ مكّلفٍ من العقل و الفطنة و المعارف الضروريّة التّي أعمَّ منها كلّ شئ بقدرٍ فيه حسب إحتماله:

قال اللّه تعالىٰ: **رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ**(١).

الثّانى: الهداية التّي جعل للنّاس بدعاءه إيّاهم على ألسنة الأنبياء و إنزال القرأن ونحو ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرٰاتِ**(٣).

الثّالث: التّوفيق الّذي يختّص به من إهتدى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدًى وَ اٰتيٰهُمْ تَقْويٰهُمْ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَه**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا**(٧).

الرّابع: الهداية في الأخرة الى الجنَّة المعنّى:

قال اللّه تعالىٰ: **سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ**(٨).

١- طه = ٥٠
٢- السّجدة = ٢٤
٣- الأنبياء = ٧٣
٤- محمّد = ١٧
٥- التّغابن = ١١
٦- يُونس = ٩
٧- العنكبُوت = ٦٩
٨- محمّد = ٥

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذي هَديٰنا لِهٰذا وَ ما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَديٰنَا اَللّٰهُ**[١].

ثمّ أنّ هذه الهِدايات الأربع متّرتبة فأنّ من لم يحصل له الأولى لا تحصل له الثانيّة بل لا يصحّ تكليفه و من لم تحصل له الثانيّة لا تحصل له الثالثة و الرابعة و من حصل له الرابع فقد حصل له الثّلاث التّي قبلها و من حصل له الثّالث فقد حصل له اللّذان قبله ثمّ ينعكس الأمر فقد تحصل الأولى و لا يحصل له الثّاني و لا الثّالث ولا الرّابع و الإنسان لا يقدر أن يهدي أحداً إلاّ بالدُّعاء و تعريف الطُّرق دون سائر أنواع الهدايات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّكَ لَتَهْديٓ إِلٰى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ**[٢].

و الى سائر الهدايات التّي لا يقدر عليها إلاّ اللّه اشار:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ**[٣] اذا عرفت معنى الهداية وأقسامها.

فإعلم أنّ كلّ هدايةٍ نفاها اللّه عن النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و عن البشر و ذكر أنّهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المُختّص من الدّعاء و تعريف الطّريق كإعطاء العقل و التّوفيق و إدخال الجنَّة و بما ذكرناه في معنى الهداية و أقسامها تقدر على الفرق بين هداية اللّه و هداية البشر و أنّه لم:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَهْدي مَنْ يَشٰآءُ**[۴].

فقد ظهر لك المعنى المراد بقوله تعالىٰ: **قٰالُوا لَوْ هَديٰنَا اَللّٰهُ لَهَدَيْنٰاكُمْ** و ذلك لأنّ مفهوم الكلام أناًّ اللّه لم يهدهم الى طريق الجنَّة.

و من المعلوم أنّه كذبٌ محض فأنّ الهداية قد حصلت لهم كما حصلت لغيرهم اذ لا نعني بالهداية إلاّ الإرشاد الى طريق الحقّ على ألسنة الأنبياء و إنزال القرأن و هي كانت حاصلة لهم و لغيرهم.

١- الأعراف = ۴٣
٢- الشّورىٰ = ۵٢
٣- القصص = ۵۶
۴- القصص = ۵۶

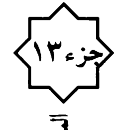
نعم الهداية بمعنى التّوفيق لم تحصل لهم لأنّ الهداية بهذا المعنى لا تحصل إلاّ لمن إهتدى فأنّ طالب الهدى و متحريه هو الّذي يوَّفقه اللّه و يهديه الى طريق الجنَّة لا من ضادّه فيتَّحرى طريق الضّلال و الكفر قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ**[1] و الكاذب الكفّار هو الذّي لا يقبل هذاية اللّه و من لم يقبل هدايته لم يهده فأنّ شرط تأثير العلّة في المعلول إستعداد المعلول و قابليّته للتّأثر فالنقص ليس من جانب العلّة بل هو من جانب المعلول كما تقول من لم يقبل هدّيتي لم أهد له و من لم يقبل عطّيتي لم أعطه و من رغب عني لم أرغب فيه.

فثبت و تحقّق أنّ عدم هدايتهم أنّما هو لأجل عدم إهتداءهم فالذّنب عليهم لا على اللّه تعالىٰ: **سَوٰاءٌ عَلَيْنٰآ أَجَزِعْنٰآ أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ** أي أنّهما سيّان في حقّنا فما لنا مخلصٌ و لا مهربٍ من عذاب اللّه.

وَ قٰالَ ٱلشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مٰاكٰانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلآّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ مٰآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنّي كَفَرْتُ بِمٰآ أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ ٱلظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ

قرأ حمزة وحده **بِمُصرخيّ** بكسر الياء و الباقون بفتحها فعلى قراءة حمزة حذفت الياء اللاّحقة للياء و أقرّت الكسرة التّي كانت تلي الياء المحذوفة فبقيت الياء على ما كانت عليه من الكسرة و المشهور هو فتح الياء و عليه الجمهور و عليه المصاحف و هو الحقّ.

لمّا حكى اللّه تعالى في الآية السّابقة ما وقع بين الضُّعفاء و المستكبرين من السّؤال و الجواب حكى في هذه الآية ما وقع بين الشيّاطين و أولياءه الذّين



١- الزّمر = ٣

إتَّبعوه فقال تعالى: **وَ قَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ** أي لمّا قطع الأمر و فرغ عنه الحساب فحكم اللّه في النّاس بما حكم فدخل أحد الفريقين الجنّة و الأخر النّار و الأصل في القضاء هو أنّه بمعنى فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً و كلّ واحدٍ منهما على وجهين:

إلهيّ و بشريٌّ فمن الإلهي قول اللّه تعالى: **وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ**[1] أي أمر بذلك و من الفعل الإلهي قوله تعالى: **وَ ٱللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ**.

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ قال صاحب الكشّاف و روي أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في الأشقياء من الجنّ و الإنس فيقول ذلك، أنّ اللّه وعدكم وعد الحقّ، و هو البعث و الجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم، و وعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم.

وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَٰنٍ من تسلُّطٍ و قهرٍ فأقسركم على الكفر و المعاصي و ألجأكم اليها انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قيل في وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لمّا ذكر محاورة الأتباع لرؤوساءهم الكفرة ذكر محاورة الشيطان و أتباعه من الإنس لإشتراك الرُّؤوساء و الشّياطين في التّلبس بالإضلال و الشّيطان هنا إبليس.

و في حديث الشّفاعة من حديث عقبة بن عامر أنّ الكافرين يقولون وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذّي أضلّنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فأنّك أضلّلتنا فيثور من مجلسه أنتن ريح شمّه أحد و يقول عند ذلك أنّ اللّه وعدكم الأية.

و عن الحسن يقف إبليس خطيباً في جهنّم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعاً فيقول أنّ اللّه وعدكم وعد الحقّ يعني البَعث و الجنّة و النّار و

١- الاسراء = ٢٣

ثواب المطيع و عقاب العاصي فصدقكم وعده و وعدتكم لا بعث و لا جنّة و لا نارٍ و لا ثواب و لا عقاب فأخلفتكم انتهى.

أقول هذه الأخبار ممّا لا مستند لها فلا يمكن التّعول عليها في تفسير كلام اللّه و لا نحتاج اليها أيضاً فأنّ الأمر أوضح من أن يخفى على ذي مسكةٍ من أنّ وعد اللّه حقٌّ و وعد الشّيطان باطلٌ فالحقّ من اللّه تعالى و اليه يعود و الباطل من الشّيطان و اليه يعود و هذا من الأصول المسلّمة العقليّة فضلاً عن النقليّة.

ومحصل الكلام هو أنّ الحقائق تنكشف يوم تبلى السّرائر.

وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّآ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي إشارة الى أنّ الشّيطان لم يخبرهم و لم يقهرهم على متابعتهم أيّاه لعدم تسلّطه عليهم بهذا المعنى هذا إذا كان المراد بالسلطان في الآية الغلبة و التسليط و القدرة.

و أمّا على القول بأنّه بمعنى الحجّة و البرهان و البنيّة فالمعنى ما كان لي عليكم فيما ألقيت اليكم من حجّةٍ و لا برهانٍ بل أنما هو كان من جنس الوسوسة و هي ليست من جنس السلطّان بمعنى الحجّة و البرهان فعلى هذا المعنى الأخير يكون الإستثناء منقطعاً لأنّ دعاءه أيّاهم ليس من جنس السلّطان و على الأوّل و هو أن يكون السّلطان بمعنى الغلبة فالإستثناء متّصلٌ و هذا هو الّذي إختاره الرّازي و إستدلّ عليه بأنّ القدرة على حمل الإنسان على الشّئ تارةً يكون بالقهر من الحامل و تارةً يكون بتقوية الداعيّة في قلبه و ذلك بإلقاء الوسواس اليه فهذا نوعٌ من أنواع التّسليط فكأنّه قال ما كان لي تسلُّطٌ عليكم إلاّ بالوسوسة لا بالضّرب و نحوه.

أقول لا شكّ أنّ مجرّد الدّعوة وسوسةٌ كانت أو بتوّسط الألفاظ لا يعدّ سلطاناً على المدّعو و من إدّعى غير ذلك فعليه الإثبات.

نعم ربما إنبعثت من المدّعو ميلٌ بسبب الوسوسة أو اللّفظ فينقاد للدّعوة و يسلّط الدّاعي بذلك على نفسه لكنّه في الحقيقة تسليط من المدّعو لا تسلطٌ

من الدّاعي و بعبارةٍ أخرى هي سلطة يملكها المدّعو من نفسه فيملكها الدّاعي و ليس الدّاعي يملكها عليه من نفسه و إبليس أنّما ينفي التّسلط الّذي يملكه من نفسه لا ما يسلطّونه على أنفسهم بالإنقياد و الطّاعة بقرنية قوله: **فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ** و لعلّ هذا هو التّسلط الّذي يثبته اللّه في قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ،إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغٰاوِينَ**[٢].

و لإنتفاء سلطانه عليهم قال: **فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ** الفاء للتّفريع أي إذا لم يكن لي عليكم سلطان فلا يعود إلّي شيٌ من اللّوم بل اللوم عائدٌ اليكم من جهة الشّرك و المعصية فلا يحقّ لكم أن تلوموني بل الواجب عليكم أن تلوموا أنفسكم لأنّ لكم السلطان على عملكم لا لي هذا ما قيل أو يقال في تفسير الكلام.

و أمّا قوله: **مٰآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ** فالإستصراخ الإستغاثة و المعنى ما أنا بمغيثكم و ما أنتم بمغيثي و أنّما قال ذلك لأنّهم إتّبعوه في الدنيّا بإختيارهم و إرادتهم إذ المفروض أنّه لم يكن له عليهم سلطانٌ أجبرهم على الإتّباع **إِنِّي كَفَرْتُ بِمٰآ أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ** أي إنّي كفرتُ بشرككم باللّه و متابعتكم لي قبل هذا اليوم قيل المراد بالإشراك المنّفي الإشراك بالطّاعة دون الإشراك في العبادة **إِنَّ ٱلظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ** قيل المراد بالظّالمين الكافرين و الحقّ أنّ اللّفظ بمعناه فأن الكفر داخل في الظّلم و قوله: **لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ** أي مؤلمٌ شديد الألم.

١- النّحل = ٩٩ / ١٠٠   ٢- الحجر = ٤٢

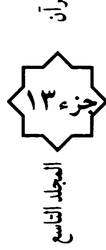
قال بعضهم في الآية دلالة على أنّ الشيطان لا يقدر على الإضرار بـالإنسان أكثر من إغواءه و دعاءه الى المعاصي و أمّا بغير ذلك فلا يقدر عليه لأنّه أخبر بذلك و يجب أن يكون صادقاً لأنّ الآخرة لا يقع فيها من أحدٍ قبيح و الكذب قبيحٌ لكونهم ملجئين الى تركه هذا ملّخص ما ذكروه في تفسير الأية.

أقول قال أمير المؤمنين عليه السلام إتخذّوا الشّيطان لأمرهم ملاكـاً، و إتّـخذهم له أشراكاً، فباض و فرخ في صدورهم و دبَّ و درج في حجورهم فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم، فركب بهم الزلَّل و زيَّن لهم الخطل فعل من قد شركه الشـيطان في سلطانه و نطق بالباطل على لسانه انتهىٰ[1] تكـلّمنا فـيها فـي شـرحـنا عـلى النّهج بما لا مزيد عليه.

أُدْخِلَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَـحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ المؤمنين المـصدّقين بـالتّوحيد و النُّـبوة و جميع الأحكام و العاملين بها يدخلون الجنّة الّتي تجري تحتها الأنهار خالدين فيها فلا يخرجون منهاأبداً بـإذن ربّـهم الّـذي عـبدوه و أطـاعوه فـي دار الدنـيّا تحيَّتهم فيها سلامٌ أي تحيَّة بعضهم لبعضٍ فـي الجـنّة سـلامٌ، و التَّـحية التّـلقي بالكرامة في المخاطبة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰآ أَوْ رُدُّوهٰآ**[2].



أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَ فَرْعُهٰا فِي ٱلسَّمٰآءِ، تُؤْتِيَ أُكُلَهٰا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا وَ يَضْرِبُ ٱللّٰهُ ٱلْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

١- الخطبة السّابعة من نهج البلاغة ٢- النّساء = ٨۶

قيل أنّ، ضرب، بمعنى جعل و قوله: **مَثلاً** مفعول الأوّل و كلمةً مفعوله الثّاني و قيل أنّ، ضرب، بمعناه و مثلاً مفعول و قوله: **كلمة** بدل من مثلاً، و المثل بفتح الميم والثّاء عبارة عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولاً في شيءٍ آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر و يصوّره نحو قولهم في الصّيف صنّعت اللّبن فأنّ هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك و على هذا الوجه ما ضرب اللّه تعالى من الأمثال.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَضْرِبُ ٱللّٰهُ ٱلْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ وَ ٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**[٢].

الظّاهر أنّ الرّؤية هاهنا بمعنى العلم وليس المراد بها رؤية البصر و المعنى ألم تعلم يا محمّد كيف ضرب اللّه مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أي كيف شبّه اللّه تعالى كلمةً طيّبةً بشجرةٍ طيّبةٍ أصلها أي أصل الشّجرة ثابت، في الأرض، و فرعها في السّماء، مبالغة له في الرُّفعة فالأصل سافل و الفرع عال إلاّ أنّه من الأصل يوصل الى الفرع و الأصل في باب العلم مشبه بأصل الشّجرة الّتي تؤّدي الى الثّمرة الّتي هي فرع ذلك الأصل و يشبه بأصل الدّرجة الّتي يترّقى منها الى أعلى مرتبةٍ ثمّ أنّهم إختلفوا في المراد منها فقال بعضهم الكلمة الطيّبة هي لا إله إلاّ اللّه و قال بعضهم هي الإيمان،

و قيل هي المؤمن نفسه و قيل القرآن و قيل دعوة الإسلام و قيل الثّناء على اللّه أو التّسبيح و التّنزيه و أمّا الشّجرة الطيّبة فقيل هي المؤمن و قيل جوزة الهند و قيل شجرة في الجنّة و قيل النّخلة و عليه أكثر المتأوّلين فقد ذكروا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ذكر الآية فقال أتدرون ما هي فوقع في نفسي أنّها النّخلة الحديث.

١- الحشر = ٢١ ٢- النّور = ٣٥

و قال أبو العالية أتيت أنس بن مالك فجئ بطبقٍ عليه رطب فقال أنس كل يا أبا العالية فأنّها الشّجرة الطيّبة الّتي ذكرها اللّه في كتابه ثمّ قال أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بصاع بسر فتلا هذه الآية.

و قال الزّمخشري كل شجرةٍ مثمرةٍ طيّبة الثّمار كالنّخلة و شجرة التيّن و العنب و الرُّمان و غير ذلك، و الأقوال كثيرة و الّذي يحصل من جميعها هو أنّ اللّه تعالى شبَّه الكلمة الطيّبة أعني بها لا إله إلاّ اللّه و أمثال ذلك من الأذكار بالشّجرة الطيّبة و هي النّخلة أو شجرة التيّن أو شجرة في الجنّة و أمثالها.

و لقائلٍ أن يقول أيّ مناسبةٍ بين قولنا لا إله إلاّ اللّه مثلاً و بين النخّلة أو شجرة التيّن و غيرهما فأنّ التّشبيه لابدُّ له من وجه شبهٍ بين المشّبه و المشّبه به و إلاّ لا يصحّ التشبيه فأن قالوا وجه الشَّبه بينهما هو ثبوت أصلهما فأنّ الإيمان مثلاً ثابت في القلب و الشّجرة ثابت في الأرض يقال له أن كان هذا هو وجه الشَّبه فالأحسن أن يقال أنّ كلمة الطيّبة كالجبال و ذالک لأنّ أصل الجبل أثبت في الأرض من أصل الشّجرة و أن قالوا وجه الشَّبه هو أنّ فرعهما في السَّماء أي جهة العلو على قولهم أنّ هذا في المشبّه غير موجود و إن قالوا وجه الشّبه هو الثَّمرة فالجواب أن تشبيه الثّمرة المعنويّة الّتي في لا إله إلاّ اللّه مثلاً بالرَّطب أو التيّن و أمثالهما ممّا لا نفهم معناه و لا يقبله العقل إذا عرفت هذا فنقول الغرض من التشبيه ليس إلاّ تفهيم معنى المشّبه للمخاطب فإذا أردت أن تبيّن للمخاطب شجاعة زيد أو أنّه في أعلى مراتب الشّجاعة تقول زيدٌ كالأسد يعني أنّه في الشّجاعة كالأسد و أمّا أنّ الأسد أعني به المشّبه به موجودٌ أو معدومٌ حين التَّشبيه فهو أمر خارجٌ عنه و بعبارةٍ أخرى لابدّ في التّشبيه من وجه الشّبه و المشّبه به ولو كان فرضاً يشترط وجوده خارجاً فلو شبّهنا شيئاً محسوساً موجوداً في الخارج بشيءٍ معقولٍ أو مفروضٍ لا وجود له في الخارج حين التَّشبيه أو دائماً لا إشكال فيه و هو من تشبيه المحسوس بالمعقول الّذي

هو من أحسن أنواع التَّشبيه و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ اللّه تعالى شبّه كلمةً طيّبةً بشجرةٍ طيّبةٍ أصلها كذا وكذا و قصد بذلك الإعلام بأنّ الكلمة الطيّبة شأنها كذا و هي كشجرة كذا وكذا فشبَّه المحسوس بالمعقول أن قلنا أنّ الكلمة الطيّبة مِن المحسوسات أو شبّه المعقول بالمحسوس الفرضي أن قلنا بكونها من المعقولات و على التّقديرين لا وجود للمشّبه به خارجاً.

نعم له وجود عقلاً أو فرضاً و هذا القدر يكفي في تحقّق التّشبيه فالقول بأنّ المراد بالشّجرة النّخلة أو شَجرة التيّن أو غيرهما من الأشجار لا معنىٰ له و لا دليل عليه بل العقل يحكم ببُطلانه إذ لا تُوجد بل لن تُوجد في عالم الوجود شجرة أصلها ثابت في الأرض و فرعها في السَّماء أي الملاء الأعلى.

و قولهم أنّ المراد بالسَّماء مطلق جهة العلو لا دليل عليه بل لفظ السَّماء في الآية منصرفٌ عنه و الدّليل على ما ذكرناه هو أنّهم إتّفقوا في علم المعاني و البيان على أنّ وجه الشُّبه لابدّ أن يكون في المشبّه به أقوى منه في المشبّه كما في قولنا زيدٌ كالأسد و هذا ممّا لا كلام فيه و على هذا فلو كان المراد بالشَّجرة النَّخلة مثلاً و بالسّماء مطلق جهة العلو يصير معنى الكلام أنّ الكلمة الطيّبة كالشَّجرة الّتي لها فرع طويلاً كان الفرع أو قصيراً و هذا خلاف ما قصد بالآية قطعاً لأنّ المقصود منها هو تفهيم أنّ الكلمة الطيّبة لها فرعٌ أو فروعٌ يمتدّ الى غير النّهاية.

كما قال تعالىٰ: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**[1].

و ما كان كذلك لا يشبّه بالنخلة الّتي ليست كذلك بل لابدّ أن يشبّه بالشّجرة الّتي لها فرع الى غير النهاية و بعبارةٍ أخرى بالشجرة الّتي لها أصل ثابت في الأرض و فرعها في الملاء الأعلى من العرش و الكرسي و اللَّوح و غير ذلك و من المعلوم أنّ هذه الشجرة لم يوجد و لا يوجد إلاّ فرضاً فثبت و تحقّق أنّ



١- فاطر = ١٠

المراد بالشّجرة ليس شجرة معيّنة موجودة في الخارة و هو المطلوب هذا كلّه بناءً على أنّ المراد بالكلمة في الآية التّشريعي منها نحو لا إله إلاّ اللّه، و أستغفر اللّه، و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه و أمثال ذلك من الكلمات المركبّة من الحروف للدّلالة على المعنى التّشريعي.

و أمّا إذا قلنا أنّ المراد منها الكلمة التكوينية أو الأعمّ منها ومن التشريعية كما هو المحتمل أيضاً لو لم يكن أقوى فالمراد بالكلمة الكلمة التّامة الوجوديّة الّتي نعبّر عنها بالإنسان الكامل الّذي له فطّهرية الصّفات في عالم الوجود.

و توضيحه أنّ الكلمة أعني بها كلمة اللّه تشريعية و تكوينية.

فالتشريعية عبارة عن كلّ كلمةٍ دًلت بحسب حروفها على معنى المراد شرعاً و جميع أوامر اللّه و نواهيه و بالجملة كلّ ما يتعلّق بحكم من الأحكام الشّرعية من هذا القبيل بل نقول جميع الكتب السماويّة من التوراة و الإنجيل و القرآن كلمات اللّه الدالّة على أحكام الشريعة ممّا لا كلام لنا فيه.

و أمّا الكلمات التكوينيّة فهي الموجودات في عالم الإمكان قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١] فكُلّ مخلوقٍ في عالم الوجود داخل في هذا القسم و أنّما عبَّروا عنها بكلمات اللّه مع أنّها ليست من سنخ الحروف لأنّه لا فرق بين قولنا أنّ اللّه تعالى أوجد الحروف و الكلمات و قولنا أوجد الموجودات فكما أنّ كلمات القرآن مثلاً يقال بأنّها كلمات اللّه أو كلام اللّه كذلك المخلوق يقال بأنّه كلام اللّه و كلمة اللّه إلاّ أنّ الأوّل تشريعي و الثّاني تكويني إيجادي و كما أنّ الكلمات التشريعية مختلفة لفظاً و معنى و نقصاً و كمالاً فكذلك التّكوينيات مختلفة متفاوتة فمنها النّبي و منها الوصّي و منها العالم و منها الجاهل و منها الحيوان و الجماد و النّبات و غير ذلك فأكملها النّبي ثمّ الوصّي ثمّ العالم ثمّ الجاهل ثمّ الحيوان ثمّ النبات و الجماد ففي



١- النّحل = ٤٠

التشريعات كلمة اللّه هي العليا، و في التكوينيات النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فضلاً عن غير المؤمنين و محصّل الكلام هو أنّ الإختلاف من حيث المرتبة موجود في كليا الكلمتين فالإنسان أشرف المخلوقات كما أنّ لا إله إلاّ اللّه أشرف الكلمات و إنّما عبّر عن الموجودات بالكلمات و عن الإنسان الكامل بأفضلها و أتّمها لكونه مظهراً كاملاً لخالقه ذاتاً وصفةً.

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ**[١].

و هي عيسىٰ عليه السلام:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ**[٣].

و قد روي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال نحن الكلمات التّامات، فإطلاق الكلمة عيل الإنسان الكامل ليس معناه حصر الكلمة فيه بل معناه أنّ الكلمة التّامة ليست إلاّ الإنسان الكامل و إذا عرفت هذا فلا تشكّ في أنّ الإنسان الكامل هو الكلمة الطيّبة الوجوديّة الّتي أصلها ثابت و فرعها في السّماء، أي أصلها ثابت في الأرض أو في أراضي القلوب و فرعها أي ثمرتها في الملاء الأعلى أي أنّه في الملاء الأعلى أشهر منه في هذا العالم و عليه فالمراد بالشّجرة في الآية هو شجرة وجوده وإن أبيت إلاّ عن حمل قوله كلمة طيّبة، على التّشريعي منها فالمشبّه به هو ما ذكرناه أعني به شجرة وجود الإنسان الكامل فيصير المعنى أنّ لا إله إلاّ اللّه مثلاً، كشجرةالنُّبوة الّتي أصلها ثابت في الأرض و فرعها في الملاء الأعلى فوق السّموات و الأرضين.

١- آل عمران = ٣٩
٢- آل عمران = ٤٥
٣- النّساء = ١٧١

و أن أذعنت بأنّ الإنسان الكامل هو الكلمة الطيّبة في عالم الوجود تكويناً فالمعنى أنّ الإنسان الكامل كشجرةٍ طيّبةٍ الى آخر الآية فتكون الشّجرة فرضيّة أي لو فرضنا شجرةً كذلك فالإنسان الكامل مثلها هذا ما فهمناه من الآية الشّريفة و نشير الى بعض ما يؤيّدنا من الأخبار منها.

ما عن أصول الكافي بأسناده عن عمرو بن حريث قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه: كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ فقال عليه السلام رسول اللّه أصلها و أمير المؤمنين فرعها و الأمّة من ذرّيتهما أغصاناً.

و علم الأئمّة ثمرها و شيعتهم المؤمنون ورقها هل فيها فضل.

قال قلت لا و اللّه قال عليه السلام و اللّه أنّ المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها و أنّ المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها إنتهىٰ.

ما عن الخصال عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم خلق النّاس من شجرةٍ شتّى و خلقت أنا و عليّ (وابن أبي طالب) من شجرةٍ واحدة، أَصلي علّي و فرعي جعفر إنتهى.

عن كمال الدّين و تمام النعمة بأسناده الى عبد الرحمن بن عماد عن عمر بن صالح السّابري قال سألت أبا عبد اللّه عن هذه الآية أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ قال أصلها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وفرعها أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين عليه السلام ثمرها، و تسعةٌ من ولد الحسين أغصانها و الشّيعة ورقها، و اللّه أنّ الرّجل منهم ليموت فتسقط ورقة من تلك الشّجرة قلت قوله: تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، قال عليه السلام ما يخرج من علم الإمام اليكم في كلّ سنة من كلّ فجٍّ عميقٍ انتهى.

ما عن كتاب معاني الأخبار بأسناده عن جابر الجعفي قال سألت أبا جعفر عليه السلام محمّد بن علّي الباقر عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجّل كشجرةٍ طيّبةٍ أصلها ثابت و فرعها في السّماء، قال عليه السلام أمّا الشّجرة فرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وفرعها علّيٌ عليه السلام وغصن الشّجرة فاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وثمرها أولادها عليهم السّلام و ورقها شيعتنا ثمّ قال أنّ المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشّجرة ورقة و أنّ المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشّجرة ورقة إنتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و يظهر منها أنّ المراد بالشّجرة شجرة النُّبوة، و فرعها الإمامة لا شجرة النّخلة و أمثالها و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إختلفوا في معنى الحين فقيل أنّه ستّة أشهر و قيل سنة كاملة شهران و قيل غدوة و عشيّة، و قيل ثمانية أشهر، و هو في الأصل قطعة من الزّمان و المعنى تأكل من الشّجرة أي من ثمرها كلّ حينٍ أي كلّ زمانٍ بإذن ربّها.

فأن كانت الشّجرة نخلة تأكل رطباً و أن كانت الشّجرة شجرة الزيتون تأكل زيتوناً و هكذا.

أقول الحين في أخبارنا ستّة أشهر إلاّ أنّه يحمل على معناه الأصلي و هو قطعة من الزّمان اذ لا دليل على التّخصيص و المعنى تؤتي الهً كلّ زمانٍ بإذن ربّها و على ما ذكرناه في معنى الشّجرة فالمعنى ما يفتون به الأئمّة شعيتهم بعد الرّسول فأن ثمرة شجرة النّبوة و الولاية ليست إلاّ المعارف الحقّة و الأحكام الشرعيّة الصادرة عن أهل بيت الرسالة الذّين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً.

إن قلت ما ذكرت في المقام ليس تفسيراً للأية بل هو تأويلٌ لها حيث أوّلت الشّجرة بشجرة النّبوة و الإمامة.

قلت ما ذكره أيضاً تاويلٌ لها لأنّ اللّه تعالى لم يبيّن في الآية ما هو المراد من الشّجرة بل قال كشجرة طيّبةٍ و حملها على شجرة النّخلة و أمثالها لا دليل عليه و أمّا ما ذكرناه فهو مؤيّد بالأخبار كما عرفت.

و في قوله: **وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** إشارة الى أنّ المقصود الأصلي من الأمثال في القرأن هو التّذكر و التّفكر في الأيات فأنّ القرأن كلام اللّه و هو بحرٌ عميق، لا يمكن إستخراج حقائقه إلاّ بالتّأمل و العناية منه تعالىٰ.

وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ

لمّا ضرب اللّه تعالى المثل في الآية السّابقة للكلمة الطَّيبة بالشّجرة الطيّبة ضرب اللّه في هذه الآية المثل للكلمة الخبيثة بالشَّجرة الخبيثة التّي أجتُثّت و إقتلعت من فوق الأرض ما لها من قرارٍ فيها، الإجتثاث الإستئصال للشّئ و إقتلاعه من أصله و الكلام في الكلمة الخبيثة كالكلام في الكلمة الطيّبة إلاّ أنّ الخبيثة ضدّ الطيّبة فقوله مثل كلمةٍ خبيثة كشجرةٍ خبيثة بناءً على تفسير القوم معناه أنّ كلمة الكفر مثلاً كشجرة خبيثة و المراد بها أي الشّجرة هو شجرة الثوم على قولٍ و شجرة الكشوت و هي التّي لا ورق لها على قولٍ أخر و شجرة الحنظل على قول مجاهد و أنس و شجرة الرّمان و أمثال ذلك من الأقوال.

و على هذا فمعنى الكلام أنّ الكلمة الخبيثة و هي كلمة الكفر مثلاً كشجرة الحنظل و الثّوم و الّرمان و أمثال ذلك ممّا لا ورق لها و الأصل فلا محالة للإقرار لها في الأرض فوجه الشّبه هو عدم القرار و الثّبات لهما و لقائل أن يقول انّ وجه الشّبه و هو عدم القرار و الثّبات في كلمة الكفر أقوى منه في الشّجرة الخبيثة و هو على عكس قاعدة التَّشبيه هذا أوّلاً.

أمّا ثانياً: فليس في عالم الوجود من الأشجار ما لا أصل لها و لا قرار في الأرض و هو محسوس فضلاً عن كونه معلوماً.

ثالثاً: ما ذنب شجرة الثّوم التّي خلقها اللّه حتّى تعدّ من الخبائث مع أنّ المنافع و الأثار و الخواصّ المتّرتبة على الثّوم و البصل كثيرة جدّاً.

رابعاً: لا تطلق عليها الشّجرة في العرف و اللّه تعالى مثل بالشَّجر فهذه الأقوال لا فائدة فيها و لا يعقل حمل كلام اللّه تعالى على هذه الموهومات فالحقّ في المقام هو أنّ الكلمة كما مرَّ البحث فيها على قسمين:

تشريعي و إيجادي، فأن حملنا الكلمة في المقام على التَّشريعي فمعنى الكلام أنّ كلمة الكفر مثلاً بحسب الشّرع خبيثة كشجرةٍ كانت كذا وكذا و ليس معناه أنّ الشّجرة موجودة بل المعنى أنّ مثل كلمة الكفر في عدم البقاء و القرار مثل شجرةٍ لا قرار لها و لا أصل.

و أن حملنا الكلمة على الإيجادي فالمعنى أنّ الموجود الخبيث و هو الكافر و المنافق مثله مثل الشّجرة الخبيثة في عدم النَّفع و عدم القرار في الأرض لو وجدت و هذا كأبي سفيان و معاوية و أبي جهل و أبي لهب و أمثالهم من المنافقين و الكفّار فأنّهم لا أصل لهم و لا قرار في أراضي القلوب كما أنّ الشّجرة المفروضة كذلك فكما أنّ الكلمة الطيّبة تحمل على الإنسان الكامل في الإنسانيّة كذلك كلمة الخبيثة تحمل على الفاسق و الكافر و الشَّرور و كما أنّ الشّجرة الطيّبة هي شجرة النُّبوة و الولاية فالشّجرة الخبيثة هى ضدّها.

و محصلّ الكلام في الأيتين هو أنّ الحقّ يدوم و الباطل لا يدوم و الحقّ يبقى و الباطل يفنى و الحقّ مفيد و الباطل مضّر و هذا معنى قول رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال **للحقّ دولة وللباطل دولة**، و الدّليل على ذلك بعد حكم العقل و الشَّرع هو أنّا نرى بالحسّ و العيان أنّ شجرة النّبوة و الإمامة باقية و شجرة الكفر و الظُّلم فانية لأنّ شجرة النّبوة لها أصل ثابت و شجرة الكفر ليس

لها أصل و هكذا تكون الكلمة الطيّبة فأفهم و إغتنم فأنّك لا تجد ما ذكرناه في تفسير الآية في غير هذا السِّفر الجليل و الحمد للّه.

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيا وَ فِي ٱلْأٰخِرَةِ وَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ ٱللَّهُ مٰا يَشٰآءُ

قيل المراد بالقول الثّابت هو الإيمان و المراد بثبوته في الأخرة هو مسألة القبر و عليه فالمعنى أنّ اللّه تعالى يوّفق المؤمن الّذي أمن باللّه و رسوله حقّاً بالقول الثّابت في الدّارين أي لا يضطرب في إيمانه و لا يتزلزل.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المؤمن كالجبل الرّاسخ لا تحرّكه العواصف، و فيه إشارة الى أنّ حفظ الإيمان أصعب و أشدّ من تحصيله و هو لا يمكن إلاّ بعناية اللّه و توفيقه قال مخاطباً لنبيّه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْلآ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰآءِ ٱلرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِيَرْبِطَ عَلىٰ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدٰامَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ**(٥).

و قوله: **فِي ٱلْأٰخِرَةِ** يمكن أن يراد به المسألة في القبر كما ذكره المفسّرون و عندي أنّ المراد به هو حال الإحتضار و هو أن يموت على الإيمان و هو أوّل منزلٍ من منازل الأخرة فيصدق عليه الأخرة بإعتبار تحقّق وقوعها.



١- الإسراء = ٧٤
٢- هُود = ١٢٠
٣- الأنفال = ١١
٤- النّحل = ١٠٢
٥- محمّد = ٧

و من المعلوم أنّ من دخل في الأخرة مع الإيمان فقد فاز و سعد،قلنا ذلك لأنّ الأخرة ليست بدار التّكليف فمن ورد على اللّه مؤمناً فهو مؤمنٌ أبداً فلا يمكن زوال الإيمان عنه و هذا بخلاف الدنيّا فأنّ المؤمن فيها على خطرٍ عظيم و السِّر في ذلك هو وجود الشّيطان و عدمه فيها.

و أمّا قوله: **وَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظّٰالِمِينَ وَ يَفْعَلُ ٱللَّهُ مٰا يَشٰآءُ** فالمعنىٰ أنّه تعالى يسلب عنهم التّوفيق بظلمهم فيكلهم الى أنفسهم و قد تقدَّم الكلام في هذا المعنى مراراً و قيل معناه أنّه تعالى يحكم بضلالهم أو يضلّهم عن طريق الجنّة الى طريق النّار.

و قوله: **وَ يَفْعَلُ ٱللَّهُ مٰا يَشٰآءُ** معناه واضح اذ لا إعتراض عليه تعالى في أفعاله فهو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ ٱلْبَوٰارِ

الرُّؤية هاهنا بمعنىٰ العلم أي ألم تعلم يا محمّد و يحتمل أن تكون بمعنى حاسّة البصر أي ألم تنظر الى هؤلاء و ذلك لأنّ تبديلهم النّعمة بالكفر كان محسوساً و لكنّ المفسّرين على الأوّل.

و كيف كان لمّا ذكر اللّه تعالى في الأيات السّابقة حال المؤمنين و هداهم و حال الكافرين و ضلالهم ذكر السَّبب في ضلالتهم و قال: **ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا** أي جعلوا الكفر بالنّعمة مكان شكرها فأنّ التَّبديل جعل الشّئ مكان غيره و أحلُّوا قومهم دار البوار و الإحلال وضع الشّئ في محلّ أمّا مجاوره أن كان من قبيل الأجسام أو مداخله أن كان من قبيل الأعراض و البوار الهلاك ثمّ فسَّر اللّه تعالى دار البوار فقال:

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا وَ بِئْسَ ٱلْقَرٰارُ

أي بئس المستّقر و المأوى قيل أنّ الآية نزلت في عامّة المشركين الّذين بدَّلوا بنعمة الإيمان الكفر.

و قال مجاهد هم أهل مكّة أنعم اللّه تعالى عليهم ببعثه رسولاً منهم يتلو عليهم أياته و يزّكيهم و يعلّمهم أمر دينه و شرّفهم به و أسكنهم حرمه و جعلهم قوّام بيته فوضعوا مكان شكر هذه النّعم كفراً.

و قيل، المراد بهم كفّار قريش و هم بنو المغيرة و بنو المغيرة فأبادهم اللّه يوم بدر و أمّا بنو أميّة فقد أهملوا الى يومٍ ما.

و قال قتادة هم القادة من كفّار قريش و نقلوا عن عمر أنّه قال هما الأفجران من قريش بنو المغيرة و بنو أميّة على ما مرّ بيانه هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

أقول ما ذكروه في تفسيرها لا بأس به اذ لا يبعد أن يكون شأن النّزول ما ذكروه من بني أميّة و بني مخزوم و جميع كفّار قريش إلاّ أنّ المراد بالآية معناه العامّ الشامل للكافر و المسلم الى يوم القيامة.

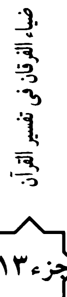
و على هذا فالرُّؤية بمعنى العلم و المعنى ألم تعلم يا محمّد الى الّذين بدَّلوا نعمة اللّه في كلّ عصرٍ و زمانٍ كفراً و أحلُّوا قومهم دار البوار جهنّم يصلونها و بئس القرار.

إن قلت قوله: **بَدَّلُوا** بصيغة الماضي يدّل على أنّه أمرٌ وقع في الماضي فكيف ينطبق على المستقبل.

قلت المستقبل اذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي و أنّه تعالى كان عالماً بأنّ هذا سيقع من هذه الأمّة أيضاً و لذلك أتى بالماضي ليشمل الكلام الماضي و المستقبل معاً، فلو قال، يبدّلون، مكان، بدَّلوا، لم يشمل المستقبل و نظير ذلك في الكتاب كثير:

قال اللّه تعالى: **وَ أُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي**.

قوله تعالى: **وَ قَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ** ومِن المعلوم أنّه لم يقل ذلك بل سيقول في المستقبل.



و قال تعالى: **وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعًا فَقٰالَ اَلضُّعَفٰآءُ** ومن المعلئوم أنّ برُوزهم يوم البعث و أمثال ذلك من الأيات فما نحن فيه من هذا القبيل و السِّر العلمي فيما ذكرناه من التَّعميم هو أن اللّه تعالى بيَّن في الآية العلّة و السَّبب لذلك و هي تبديلهم النّعمة بالكفر فقال بدَّلوا نعمة اللّه كفراً و لا شكّ أنّ العلّة اذا وجدت وجد المعلول أيضاً فكلّ من بدَّل نعمة اللّه كفراً يدخل في الآية الى يوم القيامة بلاكلامٍ و المراد بالكفر في الآية ليس الشّرك و الإرتداد بل المراد به كفران النِّعمة:

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ**[٢].

فقوله، يبدلّ بصيغة المضارع دليلٌ على ما ذكرناه فأنّ القرأن يفسّر بعضه بعضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَبِنِعْمَةِ اَللّٰهِ يَجْحَدُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اَللّٰهِ يَكْفُرُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَشْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ**[٦].

و غيرها من الأيات الدّالة على أنّ إنكار النِّعمة و الكفر بها مذمومٌ و فاعله مستّحقٌ للعقاب.

و في قوله: **وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ اَلْبَوٰارِ** إشارة الى أتباعهم و أشياعهم و أنّ هؤلاء الكفرة بأنعم اللّه هم الذّين أضلّوا أتباعهم و أحلُّوهم دار البوار و فيه

١- إبراهيم = ٧
٢- البقرة = ٢١١
٣- النّحل = ٧١
٤- العنكبوت = ٦٧
٥- النّمل = ٨٣
٦- النّحل = ١١٤

إيماء الى أنّ التقليد في الإعتقادات محكومٌ عقلاً فالمقلّد يستّحق العقاب بتقليده و المقَّلد يستحق العقاب بتضليله إيّاهم و اللّه تعالى أعطى الإنسان العقل ليختار ما هو خيرٌ له اذا عرفت هذا.

فإعلم أنّ المسلمين بعد رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أكثرهم كفروا بما أنعم اللّه عليهم من نعمة الرّسالة و نعمة الولاية و إتّبعوا أصحاب السقيفة في مسألة الولاية و الخلافة فأنكروا الولاية و الإمامة و لم يعلموا أنّ إنكار الولاية هو إنكار الرّسول في الحقيقة و لا نعني بالكفر بنعمة اللّه إلاّ هذا و أيُّ فرقٍ بين من أنكر قول الرّسول في التّوحيد و النّبوة و المعاد و بين من أنكر قوله في الولاية و الخلافة بعد فكيف يحكمون بأنّ الآية نزلت في كفّار قريش خاصّة أو بالمشركين خاصّة و أيُّ ذنبٍ كان لهم غير إنكارهم قول الرّسول و تكذيبهم إيّاه و المفروض أنّه ثابت في حقّ أكثر المسلمين أيضاً فتخصيص الآية بالكفّار و تبرءة المسلمين عن الذّنب الّذي هو الكفر بنعمة اللّه تحكّمٌ لا دليل عليه بل الدليل من العقل و النّقل على خلافه و لتفصيل الكلام فيه موضع أخر.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ

الظّاهر أنّ **الواو** للعطف أى و جعلوا هؤلاء الكفّار للّه أنداداً و أمثالاً من الأصنام و الأوثان ليضّلوا، النّاس عن سبيله أي عن سبيل اللّه قل يا محمّد لهم، تمتَّعوا و إنتفعوا بما تهوون من عاجل هذه الدنيّا فصورته صورة الأمر و المراد به التهديد بدليل قوله فأنّ مصيركم الى النّار أي مرجعكم و مألكم اليها.

قال الرّاغب في المفردات نديد الشّئ مشاركه في جوهره و ذلك ضربٌ من المماثلة فأنّ المثل يقال في أيّ مشاركةٍ كانت فكلّ ندٍ مثلٌ و ليس كلّ مثلٍ ندّاً انتهى.

و لنشر الى بعض ما ورد من الأخبار في الباب.

عن أصول الكافي بأسناده عن الأصبغ قال قال أمير المؤمنين عليه السلام ما بال أقوامٍ غيّروا سنّة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و عدولوا عن وصيّه لا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب ثمّ تَلا هذه الأية: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثمّ قال عليه السلام نحن النّعمة الّتي أنعم اللّه بها على عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة انتهى.

و بأسناده عن عبد الرّحمن بن كثير قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفراً قال عليه السلام عني قريشاً قاطبةً الّذين عادوا رسول اللّه و نصبوا له الحرب و جحدوا وصيّه انتهى.

وعن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن عثمان بن عيسىٰ عليه السلام عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ قال عليه السلام نزلت في الأفجرين من قريش بني أميّة وبني المغيرة الى أن قال عليه السلام ونحن و اللّه نعمة اللّه التّي أنعم بها على عباده بنا يفوز من فاز انتهى.

وعن تفسير العياشي عن الأصبغ بن نباتة في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفراً،قال نحن نَعمة اللّه التّي أنعَم اللّه بها علىٰ عباده (علىٰ العباد) انتهىٰ وأمثال ذلك من الأحاديث كثيرة ولا يُنافي هذا أن يكون النزول خاّصاً فأن خصوصيّة المورد لا تنافي عموم المعنى ولا ينافي ما ذكره أيضاً قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدادًا.

حيث أنّ جعل الأنداد كان مختّصاً بالكُّفار فقط و يحتمل أن يراد بجعل الأنداد أيضاً معناه العاّم الشّامل لعبدة الأوثان و الأصنام و عبدة الحكّام و الخلفاء الجور في معصية اللّه فأنّ من أطاع غيره في معصية اللّه فقد عبده و من

أصغى الى ناطقٍ لا يقول من اللّه و عمل به فقد عبده و لفظة الصَّنم و الوثـن لا خصوصيّة لها و لا يبعد أن تكون الواو للإستئناف لا العطف و عليه فالآية لا ربط لها بما قبلها هى حكمٌ مخصوصٌ بـالكفّار و المشـركين و اللّـه أعـلم بـحقائق الأمور فأنّ القرآن بحرٌ عميق لا يدرك قعره و أنّما يـفهم مـنه المـفسّر بـحسب إستعداده و فهمه و أين التَّراب و ربّ الأرباب خصوصاً بعد قوله: **وَ مٰآ أُوتيتُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ إِلّا قَليلًا**[1].

■

١- الاسراء = ٨٥

قُلْ لِعِبادِيَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَ لا خِلالٌ ﴿٣١﴾ اَللّٰهُ ٱلَّذي خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّماۤءِ ماۤءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهارَ ﴿٣٢﴾ وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ داۤئِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهارَ ﴿٣٣﴾ وَ اٰتيكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لا تُحْصُوهاۤ إِنَّ ٱلْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ ﴿٣۴﴾ وَ إِذْ قالَ إِبْراهيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ اٰمِنًا وَ ٱجْنُبْني وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنامَ ﴿٣۵﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثيرًا مِنَ ٱلنّاسِ فَمَنْ تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنّي وَ مَنْ عَصاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴿٣۶﴾ رَبَّناۤ إِنّيۤ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقيمُوا ٱلصَّلٰوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنّاسِ تَهْويۤ إِلَيْهِمْ وَ ٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّناۤ إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفىٰ عَلَى ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لا فِي ٱلسَّماۤءِ ﴿٣٨﴾ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذي وَهَبَ لي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْماعيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبّي لَسَميعُ ٱلدُّعاۤءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْني مُقيمَ



ٱلصَّلَوٰةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَ لِوَٰلِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

◀ اللّغة

ٱلْفُلْكَ السَّفينة.

دَآئِبَيْنِ الدَّوب مرور الشّيء في العمل على عادةٍ جاريةٍ فيه و المعنى لا يفتران.

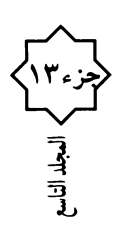
لَظَلُومٌ كَفَّارٌ مبالغة في الظُّلم و الكفران.

وَٱجْنُبْنِي أي بعدّني و أصرفني.

أَفْـِٔدَةً جمع فؤاد و هو القلب.

تَهْوِيٓ أي تميل.

◀ الإعراب



سِرًّا وَ عَلَانِيَةً مصدران في موضع الحال دَآئِبَيْنِ حال من الشَّمس و القمر كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ما، بمعنى الّذي ءَامِنًا مفعول ثانٍ و البلد، وصف المفعول الأوّل وَ مَنْ عَصَانِي شرط في موضع رفع و جواب الشّرط فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ والعائد محذوف أي، له مِنْ ذُرِّيَّتِي المفعول محذوف أي ذريّة من ذريّتي عِنْدَ بَيْتِكَ صفة لوادٍ تَهْوِيٓ مفعول ثان لأجعل عَلَى ٱلْكِبَرِ حال من الياء في، لِي.

◀ التّفسير

قُلْ لِعِبادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ يُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَ لا خِلالٌ

قل، يا محمّد، لعبادي الّذين آمنوا، باللّه و رسوله و اليوم الأخر **يُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ** إقامة الصّلاة الإتيان بها بشرائطها **وَ يُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ** بإتيانهم الزّكاة و الصدّقات **سِرًّا وَ عَلانِيَةً** أي في الخفاء و العلن **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَ لا خِلالٌ** و هو يوم القيامة الّذي لا بيع فيه و لا شراء، أمر اللّه تعالى نبيّه أن يأمر المؤمنين بأمرين:

أحدهما: أن يقيموا الصّلاة و هي الإتيان بها بشرائطها المقرّرة في الشريعة و هي من أهمّ الواجبات بعد المعرفة باللّه و رسوله و عليها يتفرّع قبول سائر الأعمال لقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: **إن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها**، و هي معراج المؤمن لقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: **الصّلاة معراج المؤمن**، أي بها يتّقرب العبد الى ساحة قدس الرُّبوبي و هي الّتي تنهى عن الفحشاء و المنكر لقوله تعالى: **إِنَّ ٱلصَّلٰوةَ تَنْهىٰ عَنِ ٱلْفَحْشاءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ**[1] و هي أوّل واجبٍ أجبه اللّه في الشَّرع، و هي الّتي قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، **الصّلاة خير موضوعٍ مَن شاء إستقّل ومن شاء إستكثر**، و هي الّتي من تركها عمداً فقد كفر و الأيات في فضلها كثيرة جدّاً و قد مضى شطراً منها فيما مضى و سيأتي تفصيل الكلام في موضعه إن شاء اللّه.

ثانيهما: الإنفاق ممّا رزقهم اللّه تعالى.

قال المفسّرون المراد به الزّكاة المفروضة و هي الّتي أمرنا بها و أمّا غيرها من الصدّقات المندوبة فلا وجوب فيها و الحقّ أنّ المراد بالإنفاق معناه العامّ الشّامل للواجب و المستحب و ذلك لأنّ البحث ليس في الواجبات و ليس كلّ



۱- العنكبوت = ۴۵

ما أمرنا به النّبي من اللّه تعالى واجباً فأنّ الأوامر المندوبة أكثر من أن تحصىٰ مضافاً الى أنّه لا أمر في الآية و أنّما أمر اللّه نبيّه أن يقول للمؤمنين أن يقيموا الصّلاة و ينفقوا ممّا رزقهم اللّه كان فالأمر سهل بعد وضوح المقصود و هو مطلوبيّة الإنفاق سواء كان واجباً أو مستحباً سرّاً كان أو علانيةً و قوله: **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَ لا خِلالٌ.**

و هو يوم القيامة و الخلال قيل أنّه جمع خلّة مثل قلّة و قلال و ظلّة و ظلال معناه المخالة و هي إضفاء الموّدة.

اَللّٰهُ اَلَّذي خَلَقَ اَلسَّمٰواتِ وَ اَلْأَرْضَ

أخبر اللّه تعالى أنّه إخترع السّموات و الأرض و أنشأهما بلامعينٍ و لا مشير و قد مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ و قلنا أنّ خلقهما كان إبداعيّاً ثمّ ذكر اللّه تعالى في هذه الآية شطراً من النِّعم الّتي أنعمها على عباده ليشكروا عليها فقال.

وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ اَلثَّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ الظّاهر أنّ مفعول، أخرج، هو رزقاً لكم و من، للتّبعيض و لمّا تقدّم على النّكرة في موضع الحال و يكون المعنى أنّ الرزّق هو بعض جني الأشجار و يخرج منها ما ليس برزقٍ كالمجرد للمضرات و يجوز أن تكون، من، لبيان الجنس و عليه فكأنّه قال فأخرج به رزقاً لكم هو الثّمرات و هذا ليس بجيّدٍ لأنّ، من، التّي لبيان الجنس أنّما تأتي بعد المبهم الّذي تبيّنه و المراد بالماء الّذي أنزل من السّماء هو الغيث و المطر و إخراج الثّمرات بسبب الماء ممّا لا خفاء فيه فأنّ حياة الأشجار و النّباتات بالماء الّذي به حياة كلّ موجودٍ حيّ فبالماء يخرج النّبات من الأرض ثمّ يثمر و هو أمرٌ محسوسٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذي نَزَّلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**[١].



١- الزّخرف = ١١

قال اللّه تعالىٰ: **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنا أَنْعامًا وَ أَناسِيَّ كَثِيرًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلسَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ اَلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْ نَباتٍ شَتّىٰ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنا مِنَ اَلْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**(٥).

و الأيات كثيرة و المراد بالثّمرات كلّ ما يتطّعم من أعمال الشّجر و الواحدة ثمرة و الجمع ثمار و ثمرات هكذا قيل و الحقّ أنّ الثمر إسمٌ لكلّ ما يستفاد من الأشجار و النّباتات سواء كان مأكولاً أم غير مأكولٍ فأنّ بعض الأشجار ثمره خشبه و من المعلوم أنّ ثمرة كلّ شيءٍ بحسبه و قوله: **رِزْقًا لَكُمْ** إشارة الى إنتفاع الإنسان بالثّمرات كيف يشاء و لا نعني بالرزّق إلاّ هذا.

وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي اَلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ الفُلك بضّم الفاء قال بعضهم هي جمع فلك و لذلك قال تعالى: **لِتَجْرِيَ** و لو كان مفرداً لقال، ليجري، و قال الرّاغب في المفردات الفلك السّفينة و يستعمل ذلك للواحد و الجمع و في قوله: **سَخَّرَ لَكُمُ** إشارة الى أنّ اللّه، تعالى جعلها تحت إختياركم فأنّ التّسخير سياقةٌ الى الغرض المختّص قهراً فالمسّخر هو المقّيض للفعل:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ ما فِي اَلْأَرْضِ**(٦).

١- الفرقان = ٤٩ ٢- البقرة = ١٦٤
٣- الأنعام = ٩٩ ٤- طٰه = ٥٣
٥- الأنبياء = ٣٠ ٦- لقمان = ٢٠

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ اَلَّذي سَخَّرَ لَكُمُ اَلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ اَلْفُلْكُ فيهِ بِأَمْرِهِ**[١].

وقال في قصّة سليمان النبى عليه السلام:

قال اللّه تعالىٰ: **فَسَخَّرْنا لَهُ اَلرّيحَ تَجْري بِأَمْرِهِ رُخٰآءً حَيْثُ أَصٰابَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اَللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ**[٣].

قوله: **فِى اَلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ** أي بإرادته و مشّيئته و المراد بالأمر هو التّكويني منه **سَخَّرَ لَكُمُ اَلْأَنْهٰارَ** الّتي تجري بالمياه الّتي ينزلها من السّماء و يجريها في الأودية و ينصّب منها في الأنهار و يحتمل أن يكون المراد بتسخير الأنهار جريانها و تفجيرها للإنتفاع بها.

وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ دٰائِبَيْنِ

أي حال كونها دائبين في سيرهما و إنارتهما و إصلاحهما ما يصلحان من الأرض و الأجسام و النّبات و قيل معناه دائبين في طاعة اللّه و معنى دائبين أي مستّمرين لا يفتران في صلاح الخلق و النّبات يتّرتب على سيرهما من المنافع **وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ** في تعاقبهما خلفه للمنام و المعاش:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فيهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِرًا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَحَوْنآ اٰيَةَ اَللَّيْلِ وَ جَعَلْنآ اٰيَةَ اَلنَّهٰارِ مُبْصِرَةً**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّٰهَ يُولِجُ اَللَّيْلَ فِى اَلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِى اَللَّيْلِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ سَميعٌ بَصيرٌ**[٧].

١- الجاثية = ١٢
٢- ص = ٣٦
٣- الحجّ = ٣٧
٤- يونس = ٦٧
٥- النّحل = ١٢
٦- الإسراء = ١٢
٧- الحجّ = ٦١

و إعلم أنّ المراد بالتّسخير فميا ذكرناه ليس أنّ الشّمس و القمر و الغيث و المطر و اللّيل و النّهار و الفلك التّي تجري في البحر تحت إرادتكم بمعنى إن شئتم تجري هذه الأمور و إلاّ فلا بل المراد به هو أنّ الّه جعلها لإنتفاعكم بها:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **سَخَّرْنٰاهٰا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**[۲].

و أنّما قلنا ذلك لأنّ تسخير الشّئ بمعنى كونه مطيعاً لمن سخّره لا يعقل إلاّ للخالق فأنّ المخلوق مطيع لخالقه و لكنّ الخالق جعلها و خلقها لأجل أن تنتفعوا بها و حيث أنّ منافعها ترجع الى الإنسان بالأخرة و في العاقبة قال تعالىٰ: **وَ سَخَّرَ لَكُمُ** فالمسخّر في الحقيقة هو اللّه تعالى و هذا كما تقول لغيرك سخّرت حماري أو داري لك أي جعلتها تحت إختيارك لأجل الإنتفاع بها و الدّليل عليه قوله تعالى في قصّة سليمان النّبي عليه السلام: **إِنّٰا سَخَّرْنَا ٱلْجِبٰالَ مَعَهُ**[۳].

و قوله: **فَسَخَّرْنٰا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ**[۴] فالتّسخير في جميع هذه الموارد أنّما هو من إعطاء اللّه و نعمه التّي أنعم اللّه بها على عباده ليشكروا له فأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً و لذلك قال لعلّكم تشكرون، ففي هذه الأيات في الحقيقة تذكارٌ للتّيقظ عن نوم الغفلة و توّجه العبد الى معبوده الحقيقي و لذلك.

وَ آتٰيكُمْ مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰآ

أي أنّ عطيّات الحقّ و نعمه لا تنحصر بما ذكرناه في هذه الأيات بل اللّه تعالى أتاكم من النِّعم ما لا تحصوها أي لا تقدرون على عدّها و إحصائها لكثرتها و مضافاً الى ذلك جعل لكم الدُّعاء لتسألوا ربّكم عن جميع ما تحتاجون اليه فالخالق الذّي خلقكم و أعطاكم هذه النِّعم الكثيرة هو الذّي

۱- لقمان = ۲۰
۲- الحجّ = ۳۶
۳- ص = ۱۸
۴- ص = ۳۶

يستّحق أن يعبد و لا يغفل العبد عنه في جميع شئونه لا الأصنام و الأوثان و كلّ موجودٍ غير اللّه تعالى فمن ترك معرفته و عبادته و إتّخذ معبوداً سواه و الحال هذه فهو خارج عن طور الإنسانيّة و داخل في صنف الجماد و الحيوان بل هو أضلّ و العجب أنّا نرى كثيراً من النّاس كذلك كما أشار اللّه تعالى اليه فقال: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** أي ظالمٌ كافرٌ بأنعم اللّه و الإتيان بصيغة المبالغة إشارة الى أنّ ظلمه و كفرانه كثيرٌ لا قليلٌ.

أن قلت كيف حكم اللّه تعالى بذلك على الإنسان و منهم من ليس كذلك كالأنبياء و الأوصياء و الصُلحاء و بالجملة المؤمن الحقيقي بل الحقّ أن يقال أنّ بعض الإنسان أو أكثرهم كذلك لا جميع أفراده.

قلت لا إشكال فيه و ذلك لأنّ اللاّم في قوله: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ** إمّا للجنس و الإستغراق، أو للعهد.

فَعلىٰ الأوّل: يصير المعنىٰ أنّ جنس الإنسان أو كلّ الإنسان بمقتضى طبعه و جبلّته كذلك و هذا لا ينافي أن يكون بعض أفراده بإختياره الإيمان و متابعة النّبي في أحكام الشّريعة على خلاف طبعه و جبّلته لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **حُفّت الجَنّة بالمَكاره وحُفّت النّار بالشّهوات.**

و المراد بالمكاره المكروهات النّفسانية الّتي هي موجودة في جميع أفراد البشر بمقتضى النّفس الأمّارة بالسُوء الّتي في جبلّة كلّ إنسانٍ و طبعه البشري خرج عنه ما خرج بعنوانه الثّانوي.

و إن شئت قلت بطبيعة ثانية و على هذا فالحكم جامع شاملٌ لجميع أفراد الإنسان بمقتضى جبليّة هذا أنّ قلنا أنّ اللاّم للجنس أو الإستغراق.



و أن قلنا أنّ اللاّم فيه في المقام للعهد فالمعنى أنّ الإنسان المعهود و هو الّذي منغمرٌ في الشّهوات لا يتّوجه الى معبوده و خالقه و لا الى نعمه و إحسانه فهو ظلومٌ كفّار و هو أيضاً كثير و لذلك أتى بصيغة المبالغة أي كثير الظُّلم و الكفران.

و محصلّ الكلام هو أنّ بعض أفراد الإنسان شاكرٌ و بعضه غير شاكرٍ المعهود من الإنسان بقرنية السياق لا جميع أفراد الإنسان هذا و لنا في المقام جواب أخر.

و هو أنّ الحكم لا يجب أن يكون كليّاً بمعنى كونه مستوعباً لجميع أفراد الموضوع بل يكفى في صدق الحكم له لبعض أفراده أو أكثرها فاذا قلنا أنّ العلماء ورثة الأنبياء، ليس معناه أنّ كلّ فردٍ من أفراد العلماء كذلك لأنّا نرى بعضهم ورثة الشيطان لا ورثة الأنبياء و مع ذلك صحَّ الحكم لأنّه صدر بإعتبار الأعمّ و الأغلب و هكذا في جميع الأحكام فأنّه لا يضّره خروج بعض أفراد الموضوع من تحت الحكم و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ اللّه حكم بالظُّلم و الكفران على الإنسان بإعتبار أنّ أكثر أفراد الإنسان كذلك و لا يضُّره خروج المؤمنين الحقيقي عن شمول الحكم إيّاهم.

و كيف كان ففي قوله: **لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** بصيغة المبالغة إشارة الىٰ سعة ظلمهم و كفرهم و أنّ كفرهم لا يختصّ بنعمةٍ واحدة بل يكفرون بجميع النِّعم يشكرون:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَليلٌ مِنْ عِبادِيَ ٱلشَّكُورُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ**[٢].

و هذه الآية هي منشأ الحكم في قوله إنّ الإنسان لظلومٌ كفارٌ.

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ اٰمِنًا وَ ٱجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنٰامَ

إتَّفق المفسّرون على أنّ المراد بالبلد في المقام هو مكّة المكرمة و ما حولها من الحرم وقوله: **اٰمِنًا** يعني يأمن النّاس فيه على نفوسهم و أموالهم فأنّ الأمن سكون النَّفس الى زوال الضّرر و هو نقيض الخوف.

١- سبأ = ١٣ ٢- الأعراف = ١٧

و قوله: **وَ ٱجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنٰامَ** أي أصرفني و أولادي عن عبادة الأصنام و دعاء الأنبياء لا يكون إلاّ مستجاباً، قيل في وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه تعالى لمّ ذكر التّعجب من الذّين بدّلوا نعمة اللّه كفراً و جعلوا للّه أنداداً و هم قريش ومن تابعهم من العرب الّذين إتّخذوا ألهة من دون اللّه و كان من نعم اللّه عليهم أنّه تعالى أسكنهم حرمه أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم و أنّه عليه السلام دعا اللّه تعالى أن يجعل مكّة أمنة و دعا بأنّ يجيب بينه عبادة الأصنام هذا.

أقول المراد بإبراهيم في الآية هو إبراهيم الخليل عليه السلام و هو على ما قاله الجوهري إسمٌ أعجّمي و فيه لغات، إبراهيم، إبراهام، إبراهم بحذف الياء.

و عن معاني الأخبار، معنى إبراهيم، همٌ فبَّر و هو من الأنبياء العظام و هو جدّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من جانب إسماعيل فأنّ الرّسول من أولاد إسماعيل الذّبيح لا من أولاد إسحاق و سيأتي الكلام فيه.

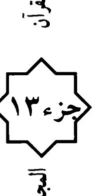
و الى هذا المعنى أشار الرّسول بقوله: **أنا إبن الذّبيحين.**

أحدهما: عبد اللّه و الأخر إسماعيل و قد مضى في سورة البقرة نسبه و ولادته ما يلحق بذلك فلا نحتاج الى الإعادة.

فنقول أنّ إبراهيم دعا ربّه أن يجعل مكّة و ما حولها من الحرم أمناً، من الشّرور و الأفات و البليّات ليأمن النّاس فيها على أموالهم و نفوسهم و الظّاهر أنّ الدُّعاء كان بعد قصّة الذّبح و بناء البيت على ما مرَّ الكلام فيه في سورة البقرة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثٰابَةً لِلنّٰاسِ وَ أَمْنًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذٰا بَلَدًا اٰمِنًا وَ ٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرٰاتِ**(٢).



١- البقرة = ١٢٥ ٢- البقرة = ١٢٦

و أمّا أنّ دعاءه كان مستجاباً:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**[٣].

فظهر أنّ اللّه تعالى جعل مكّة و ما حولها من الحرم أمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام و هو المطلوب.

ثمّ انّ المراد بكون البلد أمناً أي أمن قال إبن عبّاس لا يصاد طيره و لا يقطع شجره و هكذا.

ثمّ دعا ربّه ثانياً أن يصرف عنه و عن بنيه عبادة الأصنام و أنّما أخرَّ هذا الدُّعاء و جعله في المرتبة الثانيّة مشعراً بأنّ العبادة تحتاج الى الأمنيّة وفراغ البال و سكون النّفس فلو لم يكن البلد أمناً لا يمكن العبادة اللائقة بجنابه تعالىٰ و أنّما قدَّم نفسه على بنيه فقال و أجنبني و بنّي لأنّ رسول اللّه عليه السلام كان اذا دعا دعا أوّلاً بنفسه و السّر فيه أنّ الرّسول مقرّبٌ عند اللّه و دعاءه يكون مستجاباً قطعاً فاذا بدأ بنفسه الشريفة فالدّعاء مستجابٌ في حقّه أوّلاً و بالذّات و في حقّ غيره ثانياً و بسببه و لذلك قدَّم إبراهيم عليه السلام نفسه في الدُّعاء.

و يستفاد من هذا الكلام أنّ معرفة اللّه و الخضوع له من أحسن النِّعم و أفضلها و أشرفها و لو كان في عالم الوجود شيئ أفضل من عبادة اللّه لذكره و سأله.

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

١- العنكبوت = ۶۷
٢- القصص = ۵۷
٣- أل عمران = ۹۷

ربِّ بكسر الباء و الأصل فيه، ربّي، فحذفت الياء لدلالة الكسرة عليه و يحتمل أن يكون تقدير الكلام، يارِبِّ، فحذفت الياء لأجل النّداء و القول الأوّل أحسن و أتّقن، و مرجع الضّمير في، إنّهن، هو الأصنام أي أنّ الأصنام و الأوثان أضللن كثيراً من النّاس، و المقصود أنّ هذه الأصنام ضلَّ كثيرٌ من النّاس بها حتّى عبدوها فكأنّها أضَّلتهم كما يقول القائل فتنتني فلانة أي فتنت بها و بعبارةٍ أخرى أنّ الأصنام صارت سبباً للإضلال فنسب الإضلال اليهم مجازاً.

ثمّ قال عليه السلام فمن تبعني، في عبادة اللّه و ترك عبادة الأصنام فأنّه منّي و على ديني و من عصاني في ذلك و عبد مع اللّه غيره فأنّك، يا اللّه غفورٌ رحيمٌ، إن تابوا و أعرضوا عمّا هم عليه من الكفر وفي هذا الكلام إشارة الى أنّ ذريّة إبراهيم من كان تابعاً له في توحيده و دينه و سلك مسلكه.

و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله حيث قال:

رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَ ٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

لمّا دعا إبراهيم عليه السلام ربّه في الآية السابقة بما دعا من جعل البلد أمناً الى أخر ما دعا شرع ثانياً بالدّعاء و قال ربّنا أنّي أسكنت من ذريّتي، أي جعلت مأواهم و مقّرهم الّذي يسكنون اليه و يقرّون فيه **بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** و الوادي سفح الجبل العظيم و منه قيل للانهار العظام أودية.

و قوله: **غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** أي لا زرع في هذا الوادي أي لا نبات فيه لأنّه لا يصلح للزّراعة و أنّما قال منْ ذريّتي و لم يقل ذريّتي لأنّه لم يسكن جميع ذريّته فيه فأنّ بعض الذريّة و هو إسماعيل كان فيه مع أُمّه هاجر.

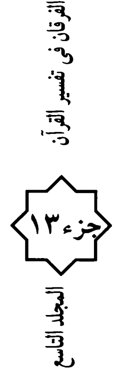
و قال بعضهم أنّ المراد بالذّرية هنا لسماعيل و أمّه هاجر حين أسكنه وادي مكّة و هو الأبطح و الحقّ أنّ المراد بها أي بالذُّرية هو جماعة الولد من حين يظهر

الى أن يكبر و أنّما قال من ذريّتي لأنّ من ذريّته إسحاق أيضاً و هو لم يسكن فيه كما يأتي في الحديث قريباً رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ بتمام أجزاءها و شرائطها.

فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ و تميل اليهم و الأفئدة جمع فؤاد القلب و المعنى فإجعل قلوب النّاس مائلة اليهم و أنّما قال من النّاس ولم يقل أفئدة النّاس للدّلالة على أنّ قلوب جميع النّاس لا تميل الى شخصٍ واحدٍ أو شئٍ واحدٍ لأنّ ذلك يوجب إختلال النّظام مضافاً الى الجبر و لذلك ترى أنّ اللّه تعالى لم يجعل قلوب جميع النّاس مائلة الى ذاته فمنهم من يحبّه و منهم من ينكره و اذا كان الأمر على هذا المنوال الذّي هو أساس الإختيار النّاشئ عن الحبّ و البغض الذّاتين بمقتضى الفطرة البشريّة فكيف يسأل عنه تعالى أن يجعل قلوب جميع النّاس تهوي الى إبراهيم و ذريّته ولم يجعل اللّه ذلك لنفسه لا لعدم القدرة عليه بل لعدم المصلحة فيه و لذلك أتى إبراهيم بكلمة، من، وال: مِنَ ٱلنَّاسِ أي بعض النّاس لا جميعهم لعلمه بأنّه دعاءٌ لا يستجاب لما مرَّ (و أرزقهم) أي و أرزق الذريّة من الثّمرات في هذا البلد على مرور الأوقات لكي يشكروه على نعمه هذا تفسير ألفاظ الآية.

و حيث أنّ إبراهيم دعا ربّه بهذا الدُّعاء بعد إسكانه إسماعيل و أمّه هاجر في هذا البلد فاللاّزم علينا بيان أصل القصّة أوّلاً ثمّ نردفه بما يوضح تفسير الآية بوجهٍ أبسط فنقول:

روى المجلسي رحمه الله في البحار عن أبي النَّضر عن هشام عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام أنّ إبراهيم كان نازلاً في، بادية الشّام فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل إغتمّت سارة ذلك غمّاً شديداً لأنّه لم يكن له منها ولد وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر فشكى ذلك إبراهيم الى اللّه عزّ وجلّ فأوحى اللّه اليه أنّما مثل المرأة مثل الضِّلع العوجاء إن تركتها إستمتعت بها و أن أقمتها كسّرتها ثمّ أمره اللّه أن يخرج إسماعيل و أمّه عنها فقال ياربّ الى أيّ مكانٍ قال تعالى الى حرمي



و أمني و أوّل بقعةٍ خلقتها من الأرض وهي مكّة فأنزل اللّه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر و إسماعيل و إبراهيم و كان إبراهيم لا يمُّر بموضع حسن غير شجر و نخل و زرع إلاّ و قال يا جبرئيل الى ها هنا الى هاهنا فيقول جبرئيل لا إمض إمض حتّى وافى به مكّة فوضعه في موضع البيت وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتّى يرجع اليها فلمّا نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر فألقت هاجر على ذلك الشَّجر كساءً كان معها فإستظلّوا تحته فلمّا سرع بها و وضعها و أراد الإنصراف عنهما الى سارة قالت له هاجر يا إبراهيم لم تدعنا في موضعٍ ليس فيه أنيسٌ و لا ماءٌ و لا زرع فقال إبراهيم الذّي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو حاضر عليكم ثمّ إنصرف عنهما فلمّا بلغ كدي و هو جبل بذي طوى إلتفت اليهما إبراهيم فقال: رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ثمّ مضى و بقيت هاجر فلمّا إرتفع النّهار عطش اسماعيل و طلب المَاء فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى فنادت هل في الوادي من أنيس فغاب إسماعيل عنها فصعدت على الصَّفاء و لمع لها السَّراب في الوادي و ظنَّت أنّه ماء فنزلت في بطن الوادي وسعت فلمّا بلغت المسعى غاب عنها إسماعيل ثمّ لمع لها السّراب في ناحية الصَّفاء فهبطت الى الوادي تطلب الماء فلمّا غاب عنها إسماعيل عادت حتّى بلغت الصَّفاء فنطرت حتّى فعلت ذلك سبع مرّات فلمّا كانت في الشّوط السّابع وهي على المرّوة نظرت الى إسماعيل و قد ظهر الماء من تحت رجليه فعادت حتّى جمعت حول رجليه رملاً فأنّ الماء كان سائلاً فزّمته بما جمعت حوله فلذلك سمّيت زمزم وكانت قبيلة جرهم نازلة بذي المجاز و عرفات فلمّا ظهر الماء بمكّة عكفت الطّير و الوحش على الماء فنظرت جرهم الى

تعكّف الطّير والوحش على ذلك المكان و إتّبعوها حتّى نظروا الى المرأة و الصّبي النّازلين في ذلك الموضع قد إستظّلا بشجرةٍ و قد ظهر الماء لهما فقالوا لهاجر:

من أنت و ما شأنك و شأن هذا الصّبي قالت أنا أمّ ولد إبراهيم خليل الرّحمن و هذا إبنه أمره اللّه أن ينزلنا هاهنا فقالوا لها فتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكم قالت لهم حتّى يأتي إبراهيم فلمّا زارهم إبراهيم يوم الثّالث قالت هاجر يا خليل اللّه أنّ هاهنا قوماً من جرهم يسألونك أن تأذن لهم حتّى يكونوا بالقرب منّا أفتأذن لهم في ذلك فقال إبراهيم نعم فأذنت هاجر لجرهم فنزلوا بالقرب منهم و ضربوا خيامهم فأنست هاجر و إسماعيل بهم فلمّا زارهم إبراهيم في المرّة الثانيّة نظر الى كثرة النّاس حولهم فسّر بذلك سروراً شديداً فلمّا ترعرع إسماعيل و كانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحدٍ منهم شاة و شاتين فكانت هاجر و إسماعيل يعيشان بها فلمّا بلغ إسماعيل مبلغ الرّجال أمر اللّه إبراهيم أن يبني البيت فقال يا ربّ في أيّ موضع بقعة.

قال في البقعة التّي أنزلت على أدم القبّة فأضاء لها الحرم فلم تزل القبّة التّي أنزلها اللّه على أدم قائمة حتّى كان أيّام الطُّوفان أيّام نوح فلمّا غرقت الدّنيا رفع اللّه تلك القبّة و غرقت الدنيّا إلاّ موضع البيت فسمّيت البيت العتيق لأنّه أعتق من الغرق فلمّا أمر اللّه عزّ وجلّ إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أي مكانٍ يبنيه فبعث اللّه جبرئيل فخطّ له موضع البيت فأنزل اللّه عليه القواعد من الجنّة وكان الحجر الذّي أنزل اللّه على أدم أشدَّ بياضاً من الثّلج فلمّا مسّته أيدي الكفّار إسوّد فبنى إبراهيم البيت و نقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في السّماء تسعة أذرع.

ثمّ دلّه على موضع الحجر فإستخرجه إبراهيم و وضعه في موضعه الّذي كان فيه و جعل له ما بين بابا الى المشرق و باباً الى المغرب و الباب الّذي يلي من المغرب يسمّىٰ المستجار ثمّ ألقى عليه الشّجر و الأذخر و ألقت هاجر على بابه كساء كان معها و كانوا يكنّون تحته فلمّا بناه و فرغ منه حجَّ إبراهيم و إسماعيل و نزل عليهم جبرئيل يوم التَّروية لثمان من ذي الحجّة فقال: يا إبراهيم قم فأرتو من الماء لأنّه لم يكن بمنى و عرفات ماء فسميّت التَّروية لذلك ثمّ أخرجه الى منى فبات بها ففعل به ما فعل بأدم فقال إبراهيم لمّا فرغ من بناء البيت و الحجّ ربّ اجعل هذا البلد أمناً و أرزق أهله من الثَّمرات من أمن منهم باللّه و اليوم الأخر قال عليه السلام من ثمرات القلوب أي حبَّهم الى النّاس انتهى[١].

أقول أنظر أيّها القارئ الى هذه الآية و تأمّل فيها فأنّك تجد فيها من المواعظ التّي تحيى بها القلوب و تسكن اليها النّفوس ما يكفيك في باب العبوديّة و الطّاعة للّه تعالى فهذا خليل اللّه سكن بأمر اللّه ولده العزيز الّذي هو ثمرة فؤاده في وادٍ غير ذي زرعٍ كما دلّ عليه الحديث و الآية و رجع الى سارة كما أمره اللّه به و فوَّض أمره و أمر ولده الى اللّه كيف هيأ لهم أسباب الخير و هذا معنى قوله عليه السلام اذا أراد اللّه بعبدٍ خيراً هيأ له أسبابه: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[٢] و: **حَسبي اللّه ونِعمَ الوَكيل.**

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مٰا نُخْفِي وَ مٰا نُعْلِنُ وَ مٰا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لٰا فِي ٱلسَّمٰآءِ

هذا أيضاً ممّا دعى إبراهيم به فقال ربّنا أنّك تعلم ما نخفي في قلوبنا، و ما نعلن، و نظهر به و ما يخفي، ما نافية، أي ليس يخفى على اللّه شئ في الأرض

١- بحار الأنوارج ٥ ص ١٣٩ ط كمباني ٢- الطلاّق = ٣

و لا في السّماء، لأنّه تعالى عالم بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها و لا فرق في ذلك بين السّماء و الأرض فأنّ جميع ما سواه مخلوق له و الخالق محيط بالمخلوق في جميع شئونه و السّر فيه هو أنّ العلم مقّدم على الإيجاد لأنّه تعالى علم ثمّ أوجد فلو كان جاهلاً بشيءٍ من الأشياء لزم أن لا يكون مخلوقاً له و هو خلاف الفرض مضافاً الى أنّ الجهل نقصٌ و هو من شئون الممكن و الواجب منّزه عنه فأنّ كلّ ناقصٍ محتاج في رفع نقصه الى غيره و كلّ محتاج مخلوق فثبت و تحقّق أنّه عالم بجميع الأشياء بجميع الأنحاء و هو المطلوب و أنّما دعى إبراهيم ربّه بذلك مشعراً بأنّ العبد وظيفته الدّعاء وليس معناه أنّه تعالى لا يعلم حاجة العبد قبل سؤاله بل معناه أنّ اللّه يحبّ دعاء العبد و تضّرعه إذ يتحّقق معنى العبوديّة من جانب العبد و بإستجابة اللّه إيّاه يتحّقق معنى المعبوديّة من جانب الرَّب و لذلك قال إبراهيم ربّنا أنّك تعلم ما نخفي و ما نعلن الى آخر الآية أي ليس دعائي إيّاك لتعلم بل دعائي لما ذكرناه و لذلك وردت الأيات و الأخبار بالتّرغيب.

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعٰآءِ

الظّاهر أنّ هذه الجمل الّتي تكلّم بها إبراهيم، لم تقع منه في زمانٍ واحدٍ و إنّما حكى اللّه عنه ما وقع في أزمانٍ مختلفة يدلّ على ذلك أنّ إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه إذ ترك هاجر و الطّفل بمكّةً و على هذا فحمده للّه تعالى على هبة ولديه كان بعد وجود إسحاق و على الكبر يدلّ على مطلق الكبر ولم يتّعرض لتعيين المدّة الّتي وهب اللّه له فيها ولداه و روي أنّه ولد له إسماعيل و هو إبن تسع و تسعون و ولد له إسحاق و هو إبن مائة و إثنتي عشرة سنة و قيل إسماعيل لأربع و ستين و إسحاق لتسعين و عن إبن جبير لم يولد له إلاّ بعد مائة و سبع عشرة سنة و إنّما ذكر حال الكبر لأنّ المنّة فيها بهبهة الولد أعظم من

حيث أنّ الكبر مظنّة اليأس من الولد فأنّ مجيئ الشّئ بعد الأياس أحلى في النَّفس و أبهج لها و على الكبر في موضع الحال لأنّه قال و أنا كبير، و على، على بابها من الإستعلاء لكنّه مجاز و كأنّه لمّا آسىٰ و كبر صار متعليّاً على الكبر.

و قال الزّمخشري، على، بمعنى، مع، كقول الشّاعر:

إنّي على ما ترَّين من كبرى   أعلم من حيث يؤكل الكنف

قيل قوله: **إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ** كفاية عن الإجابة و التّقبل و كان قد دعى اللّه أن يهبه ولداً بقوله ربّ هب لي من الصّالحين فحمد اللّه على ما وهبه من الولد و أكرمه من إجابة الدّعاء و السَّميع مبالغة أضيف الى المفعول و هو الدَّعاء و هو دليل على أعمال فعيل الّذي للمبالغة في المفعول على ما ذهب اليه سيبويه و خالفه في ذلك جمهور البصّريين.

رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَآءِ

قد مرّ الكلام في وجه الكسرة في ربّ، و قلنا أصله، ربّي، فحذفت الياء إمّا بتقدير حرف النّداء، أي يا ربّ، و أمّا لدلالة الكسرة على حذفها دعى إبراهيم عليه السلام ربّه أن يجعله مقيم الصّلاة، ليكون من المصلّين مع أنه عليه السلام كان مقيمها قطعاً و لعلّ المراد بذلك الدَّيمومة قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ**[١] أو المحافظة عليها كما.

قال اللّه تعالىٰ: **و ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**[٣].

و قوله: **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي** الواو للعطف أي ربّ إجعلني مقيم الصّلاة و ذريّتي كذلك، و كلمة، من، للتبعيض لأنّه كان عالماً بأنّ من ذريّته من يكون كافراً أو من يهمل إقامتها و أن كان مؤمناً فقوله دعاء، أي تقّبل دعائي فهو مجذومٌ بالأمر.

١- المعارج = ٢٣
٢- المعارج = ٣٤
٣- الأنعام = ٩٢

رَبَّنَا ٱغْفِرْلِي وَ لِوالِدَىَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسابُ.

دعى إبراهيم عليه السلام لنفسه أوّلاً و لوالديه ثانياً و للمؤمنين ثالثاً أمّا أنّه عليه السلام بدأ بنفسه.

في الدُّعاء فلما ذكرناه و هو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان إذا دعى بنفسه (بدأ بنفسه) أوّلاً ثّم لغيره فهكذا إبراهيم عليه السلام بدأ بنفسه و الوجه فيه معلومٌ و هو أنّ دعاء النّبي مستجابٌ قطعاً في حقّه ذاتاً و لغيره بالعرض.

إن قلت أنّكم تقولون بعصمة الأنبياء و معنى العصمة أنّ المعصوم لا يذنب و لا يخطئ صغيراً كان الذّنب أو كبيراً و إذا كان كذلك فما معنى قوله: **ٱغْفِرْلِي** و هل الغفران إلاّ للعاصي و بعبارةٍ أخرى لا غفران لمن لا معصية له.

قلت طلب المغفرة من المعصوم ناش عن قصوره في العبادة التي يستّحقها اللّه تعالى و القصور من شئون الإمكانيّة فأنّ المخلوق الممكن لا يقدر على عبادة اللّه كما هو حقّه لأن العبادة الكاملة تتّوقف على المعرفة الكاملة و معرفة اللّه كما هي حقّه تعالى لا تحصل للمخلوق قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: **ما عرفناك حقّ معرفتك و قال في موضع آخر ما عبدناك حقّ عبادتك** و إذا كان كذلك فالمخلوق كائناً من كان قاصرٌ و عاجزٌ عن معرفة ربّه ذاتاً وصفةً فهو عاجز عن عبادته أيضاً كذلك لما ذكرناه و هذا هو الّذي يسّمى بالذنب عندهم و لذلك قيل أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

و هذا بخلاف غيرهم من آحاد النّاس فأنّ الذّنب منهم ناشٍ عن تقصيرهم في العبوديّة لتسُّلط الشّيطان عليهم فلا محالة طلب المغفرة فيهم غير طلب المغفرة في الأنبياء فقول إبراهيم عليه السلام: **رَبَّنَا ٱغْفِرْلِي** كأنّه إقراراً و إعتراف منه عليه السلام بالعجز عن العبوديّة اللاّئقة بجنابه تعالى و لذلك طلب منه المغفرة و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً بل هو في الحقيقة متّممٌ و مكمّلٌ للعبوديّة و قد مرّ الكلام في هذا الباب غير مرّةٍ و لعلّه يأتي البحث فيه بوجهٍ أبسط فإنتظر.

و أمّا قوله: **وَ لِوالِدَيَّ** أي ربّنا إغفر لوالدّي أيضاً و المراد بها هو أبوه و أمّه، فأنّ الوالدين لا يطلق على غيرهما حقيقةً و هذا الكلام منه عليه‌السلام نصٌّ صريحٌ على أنّ أبويه كانا مؤمنين لأنّهما لو كانا كافرين لما قال ذلك و هذا هو الموافق لإصول مذهبنا فأنّ النّبي و الوصّي لا يولدان من الكافر و لذلك نقول في الزيّارة أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشّامخة و الأرحام المطهرة الخ.

و هذا الأصل جارٍ في جميع الأنبياء و الأوصياء و أمّا على مذهب العّامة فالأمر ليس كذلك لتجويزهم ولادّة النّبي فضلاً عن الوصّي عن الكافر و الكافرة و لذلك يقولون أنّ النّبى صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولد من الكافرين، عبد اللّه أبوه و آمنة أمّه و إذا قالوا في نبيّ الإسلام ذلك فما ظّنك بغيره من الأنبياء و لذلك صرّحوا في كلماتهم بالإتّفاق على أنّ إبراهيم كان آذر أباه كافراً و هكذا أمّه على قول أكثرهم و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

قال الزّمخشري فأن قلت كيف جاز أن يستغفر لأبويه و كانا كافرين.

قلت هو من تجويزات العقل لا يعلم إمتناع جوازه إلاّ بالتّوقيف انتهى كلامه.

و قال الرّازي إن قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه و كانا كافرين فالجواب عنه من وجوه:

الأوّل: أنّ المنع منه لا يعلم إلاّ بالتوقيف فلعلّه لم يجد منه منعاً فظّن كونه جائزاً.

الثّانى: أراد بوالديه آدم و حواء.

الثّالث: كان ذلك بشرط الإسلام انتهى.



و قال القرطبي قيل إستغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنّهما عدّوان للّه.

و قال القشيري لا يبعد أن تكون أمّه مسلمة لأنّ اللّه ذكر عذره في إستغفاره لأبيه دون أمّه قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه عنه و على هذا قراءة سعيد بن

جـبير، ربّ إغـفر لي ولوالدي، يـعني أباه، و قـيل إسـتغفر لهـما طـمعاً فـي إيمانهمابشرط أن يسلما، و قيل أراد آدم و حوّاء و قيل أنّه أراد ولديه إسماعيل و إسحاق و كان إبراهيم النَّخعي يقرأ، لولدَّي، يعني إبنيه.

ثمّ قال و قد روي أنّ العبد اذا قال اللّهم أغفر لي ولوالدَّي و كان أبواه قد ماتا كافرين إنـصرفت المـغفرة الى أدم و حـوَّاء لأنـهما والدا الخـلق أجـمع انـتهى كلامه.

و أمّـا غير هـؤلاء مـن مـفسّريهم أمـثال الألوسـي و المـنار و الطّـنطاوى.و السُّيوطي و غيرهم من المقلّدين لرؤوسائهم فقالوا ما أبقوا لهم من الأباطيل في هذا الباب و لم يزيدوا على ما قالوه شيئاً لأنّهم وجدوا أباءهم عـلى ذلك كـما هو دأبهم و ديدنهم في جميع الموارد و السّر فيه هـو أنّ المـقلّد أسير التّـقليد دائماً فما قاله الزّمخشري مثلاً أخذه الرّازي و ما قال الرَّازي أخذه من بعده من مفّسريهم فكأنّهم عن التّفكر و التَّدبر بمعزولين الى أن يموتوا.

و ليت شعري ما الباعث على إصرارهـم فـي كـفر أبـاء الأنـبياء و أمّـهاتهم وليس لهم في ذلك نفعٌ في الدُّنيا مضافاً الى كونه خلاف العقل السَّليم و أنّـي كنت متَّفكراً في ذلك برهةً من الزّمان و لم أجد الى حـلّ الإشكـال سـبيلاً ولم يتَّبين لي وجه تعَّصبهم في إثبات هذا الأصل الى أن ظهر لي بحوله و قوّته أنّهم أصرُّوا على ذلك لتـصحيح أمـر الخـلافة بـعد النّـبي و إثـبات خـلافة الخـلفاء الغاصبين بعد رسول اللّه كان صحيحاً مطابقاً للأصول و توضيح ذلك إجمالاً:

أنّه لو قلنا بأنّ النّبي لا يولد من كافر و كافرة و لابدّ أن يكون أبواه مـؤمنين مسلمين فلابدّ لنا من سريان الحكم في حقّ وصيّه و خليفته أيضاً و حـيث أنّ أبا بكر و عمر و عثمان و معاوية لم يكونوا كذلك فكيف نحكم بصحّة خلافتهم للنّبي و أنّهم قاموا مقامه و سلكوا مسلكه و المفروض أنّهم ولدوا من الكافرين و لم يكونوا بمعصومين فحكموا بأنّ هذا الأصل لا نحتاج اليه حـتّى فـي حـقّ



النّبي فضلاً عن خليفته و اذا كان النّبي ولد من الكافرين و مع ذلك كان صالحاً للنّبوة و الرّسالة فيكف لا يكون من قام مقامه صالحاً للخلافة و لأجل ذلك قالوا بنفي العصمة في حقّ النبي قبل البعثة و بعدها أيضاً إلاّ في تبليغ الأحكام الشّرعية فجعلوا النّبي كغيره من الأفراد.

و اذا قلنا بعدم إشتراط العصمة و طهارة المولد في حقّ النّبي ففي حقّ غيره أولى هذا ما فهمناه من أصلهم الباطل و فيه تضييع للنبوة و الرّسالة لتصحيح خلافة أبي بكر و عمر فإقض ما أنت قاض و لنرجع الى أصل البحث.

فنقول ظاهر الآية الشّريفة يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام طلب المغفرة من اللّه لوالديه و هو من أدلّ الدّلائل على أنّهما كانا مؤمنين اذ لو كانا كافرين لم يصحّ منه الإستغفار لهما لعلمه عليه السلام بأنّ الكافر الذّي مات على كفره لا يغفر له أبداً لقوله تعالى مخاطباً لنبيّه:

اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اَللّٰهُ لَهُمْ[1].

قال اللّه تعالىٰ: **سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اَللّٰهُ لَهُمْ**[2].

و اذا ثبت أنّ الإستغفار للكافر لا يفيد و أنّه لا يغفر له أبداً و نرى أنّ إبراهيم إستغفر لهما بصريح الآية فأمّا أن نقول بكفرهما حين الإستغفار و أمّا أن نقول بإيمانهما فأن كان الأوّل فأمّا إن يكون إبراهيم عالماً بأن اللّه لا يغفر لهما أو لا يكون عالماً به لا سبيل الى الثّاني لإستلزامه نسبة الجهل اليه و هو كما ترى لا يليق بشأن النّبي و لا سيّما خليل اللّه.

و لا سبيل الى الأوّل أيضاً لأنّ الدّاعي اذا علم بعدم المغفرة و مع ذلك يدعو فهو من العبث و الإستهزاء و كيف يعقل أن يدعو النّبي لمن كان كافراً و

١- التّوبة = ٨٠
٢- المنافقون = ٦

هو عالم بأنّه لا يغفر له و حيث أنّا نرى أنّه دعا لهما فنكشف منه عدم كفرهما المطلوب.

و اذا ثبت عدم كفرهما ثبت إيمانهما لعدم الواسطة بين الإيمان و الكفر المطلوب.

و أمّا القول بالتّوقيف كما ذهب اليه الزّمخشري فهو حقّ لمن لا عقل له فأنّ العاقل لا يقول بالتّوقيف في أمثال هذه الموارد و أمّا بأنّ المراد بها أدم و حوّاء أو إسماعيل و إسحاق أو تغيير القراءة في والدّي، الى، والدي فقط و أمثال ذلك من الأباطيل و المختلقات فهو ممّا لا يسمع و لا يعقل فأنّ الشّرع لم يرّخص لنا أن نفّسر القرأن بأراءنا و نقول فيه كيف نشاء بل قال من فسّر القرأن برأيه فليتّبوء مقعده من النّار.

و حيث أنّ ظاهر الآية يدلّ على ما ذكرناه نأخذ به و على المخالف الإثبات.

و أمّا قوله: **لِلْمُؤْمِنِينَ** فالظّاهر أنّه عليه السلام دعا لجميع المؤمنين الى يوم القيامة و تخصيصه بقوم خاصّ أو أمّه خاصّة لا دليل عليه و هو ظاهر وفي قوله: **يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ** إشارة الى يوم القيامة فأنّ أثر الغفران يظهر في ذلك اليوم أعاذنا اللّه منه.

و حيث قد فرغنا من تفسير الآية لا بأس بذكر ما نقله صاحب تفسير روح البيان عن الدّميري في كتاب حياة الحيوان في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه.

قال في حياة الحيوان في الحديث، يلقى إبراهيم أباه أذر يوم القيامة و على وجه أذر قترة و غبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعص فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم ياربّ أنّك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأيّ خزيٍ أخزى من أبي أن يكون في النّار فيقول اللّه تعالى أنّي حرّمت الجنّة على

الكافرين ثمّ يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فاذا هو بذبح متَّلطخ، و الذِّبح بكسر الذّال ذكر الضّباع الكثيرة الشّعر فيؤخذ بقوائمه و يلقى في النّار و الحكمة في كونه فسخ ضبعاً دون غيره من الحيوان أنّ الضّبع لمّا كان يغفل عمّا يجب التَّيقظ له وصف بالحمق فلمّا لم يقبل أذر النَّصيحة من اشفق النّاس عليه و قبل خديعة الشّيطان أشبه الضَّبع الموصوفة بالحمق لأنّ الصيّاد اذا أراد أن يصيدها رمى في حجرها بحجرٍ فتَّجسه شيئاً حتّى تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك و لأن أذر لو فسخ كلباً أو خنزيراً كان فيه تشويه لخلقه فأراد اللّه إكرام إبراهيم بجعل أبيه على هيئةٍ متَّوسطة.

قال في المحكم يقال ذيَّخته أي ذلَّلته فلمّا خفض إبراهيم له جناح الذُّل من الرَّحمة لم يحشر بصفة الذُّل يوم القيامة انتهى كلامه.

أقول أنظر الى الحديث الذّي رواه الدَّميري و أضحك منه ثمّ إلعن قائله و راويه فهو أي الدَّميري لم يقل من أين نقل هذا الحديث و إنّي أظنّ أنّه من أحاديث أبي هريرة و أنس و كعب الأحبار اليهودي و أمثالهم من الكذّابين الملعونين المتّخصصين لجعل الأحاديث و دسَّها في أحاديث المسلمين ليشوهوا بذلك وجه الأنبياء و الدّين كلّ ذلك لإمتثالهم أوامر حكّام الجور و الخلفاء الظالمين الغاصبين لأجل وصولهم الى حطام هذه الدنيّا الدَّنية ولم يخافوا يوم الحساب لعدم إعتقادهم به و أعجب منه أنّ قوماً أخذوا منهم هذه الأكاذيب و دوَّنهما في كتبهم من غير تعقُّلٍ و لا تدّبرٍ و لم يعلموا أنّ ألفاظ هذا الحديث و أمثاله مشعرة بكذبه لو كانوا يعقلون و هذا يكفي في غوايتهم و ضلالتهم و الحساب على اللّه تعالى كما قال تعالى:



وَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ

هذا خطاب للنّبي صلی الله علیه و آله وسلم نهاه اللّه، و المراد به الأمّة أن يظّن أنّ اللّه غافل عن أعمال الظّالمين و المقصود من هذا الكلام هو أنّ اللّه تعالى بمرصدٍ لهم أمهلهم في الدنيّا و أخّر عذابهم لا لأنّه غفل عنهم و نسيهم لأنّه تعالى منّزه عن الغفلة و النسيان بل أخّر عذابهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار و هو يوم القيامة و شخوص البصر أن تبقى العين مفتوحة لا تنطبق لعظم ذلك اليوم.

و قال بعض المفسّرين معناه لا تحسبنّ اللّه يعاملهم معاملة الغافل عمّا يعملون و لكن معاملة الرَّقيب عليهم المحاسب علىٰ النَّقير و القمطير ثمّ قال تعالىٰ:

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ

الإهطاع الإسراع فقوله مهطعين أي مسرعين.

و قال إبن عبّاس المهطع الدّائم النّظر لا تطرف عليه.

و قال إبن زيد المهطع الذّي لا يرفع رأسه و أمّا قوله: **مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ** أي رافعي رؤوسهم و ذلك لأنّ إقناع الرّأس رافعه قال الشّاعر:

يباكرن العضاة بمقنعات نواجذهنّ كالحُداء الرَّقيع

أي يباكرن العضاة بمقنعات أي برؤوسٍ مرفوعات اليها ليتناول منها يصف إبلاً له ترعىٰ الشّجر و أنّ أسنانه مرتفعة كالفؤس و منه قيل مقنعة لإرتفاعها.

و قال الحسن وجوه النّاس يومئذٍ الى السّماء لا ينظر أحدٌ الى أحدٍ.

و قيل معناه، ناكِسي رؤوسهم والآية محتملة الوجهين.

و قال المبّرد القول الأوّل أعرف في اللّغة قال الرّاجز:

أنغض نحوي رأسه وأقنعا كأنّما أبصر شيئاً أطمعا.

و قوله: **لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** فالإرتداد الرّجُوع أي لا ترجع اليهم أبصارهم من شدّة النّظر فلا يطبقونها و أفئدتهم أي قلوبهم هواء أي منحرفة لا تغني شيئاً من شدّة الخوف.

و قيل معناه، خالية من كلّ خيرٍ.

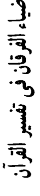
و قال بعضهم، معناه خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم.

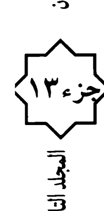
أقُول الهواء في اللُّغة المجوّف الخالي فقوله أفئدتهم هَواء أي خاوية خربة ليس فيها خيرٌ و لا عقل ومنه قول حسّان:

ألا أبلغ أبا سُفيان عنّى فأنت مجوَّفُ نخبُ هواءُ

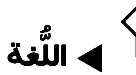
و الحاصل أنّ الظّالم يكون بهذه الحالة يوم القيامة و هذا شطرٌ من نكاطه و سيأتي تفسير ذلك في المستقبل أعاذنا اللّه منه و يستفاد من الأيات و الأخبار أنّ عذاب بعض الظّالمين من المسلمين و غيرهم يكون أشدَّ من عذاب الكفّار يوم القيامة و هو كذلك.

■





وَ أَنْذِرِ ٱلنّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنآ أَخِّرْنآ إِلىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ ﴿۴۴﴾ وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ ٱلْأَمْثالَ ﴿۴۵﴾ وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ ٱللّٰهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبالُ ﴿۴۶﴾ فَلا تَحْسَبَنَّ ٱللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُٓ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقامٍ ﴿۴۷﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلسَّمٰواتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ ٱلْواحِدِ ٱلْقَهّارِ ﴿۴۸﴾ وَ تَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفادِ ﴿۴۹﴾ سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنّارُ ﴿۵۰﴾ لِيَجْزِيَ ٱللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسابِ ﴿۵۱﴾ هٰذا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ ﴿۵۲﴾



◀ اللُّغة

أَقْسَمْتُمْ أي حلفتم.

ذُو ٱنْتِقامٍ النّقمة العقوبة يقال نقمت الشّيء و نقمته اذا أنكرته إمّا بـاللّسان و إمّا بالعقوبة.

تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ التَّبديل و التَّبدل جعل شئٍ مكان أخر و قد يقال للتَّغيير مطلقاً و إن لم يأت ببدله (بَرَزُوا) البروز الظُّهور.

مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ الأصفاد جمع صفد و هو الغُل الذّي يقرن به اليد الىٰ العُنُق وقوله: مُقَرَّنِينَ أي قرن بعضهم لبعضٍ.

سَرَابِيلُهُمْ السّرابيل القميص واحدها سِربال.

قَطِرَانٍ بفتح القاف وكسر الطّاء و قيل بتسكين الطّاء و كسر القاف و يجوز فتحها و هو الّذي تهنأ به الإبل.

تَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ أي تجّللها والباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ الإعراب

يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ مفعول ثانٍ لأنذر و التّقدير عذاب يوم، وليس ظرفاً لأنّ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم كَيْفَ في موضع نصب بفعلنا و لا يجوز أن يكون فاعل، تبَّين لأنّ الإستفهام لا يعمل فيه ما قبله وَ عِنْدَ ٱللّٰهِ مَكْرُهُمْ أي علم مكرهم أو جزاء مكرهم فحذف المضاف لِتَزُولَ مِنْهُ يُقرأ بكسر اللاّم الأولىٰ و فتح الثّانية و هي لام، كي، و، إن، بمعنىٰ ما أي ما كان مكرهم لإزالة الجبال و هو تمثيل أمر النّبي ﷺ و قيل أنّها مخفّفة من الثّقيلة و المعنى أنّهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال في الثّبوت مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ الرُّسُل مفعول أوّل والوعد مفعول ثانٍ و إضافة المخلف الىٰ الوعد إتّساع و الأصل مخلف رسله وعده يَوْمَ تُبَدَّلُ يوم هنا ظرفٌ لإنتقام أو مفعول فعلٍ محذوف أي أذكر يوم و لا يجوز أن يكون ظرفاً لمخلف و لا لوعده لأنّ ما قبل، إن، لا يعمل فيما بعدها وَ ٱلسَّمٰوٰتُ تقديه غير السّموات فحذف لدلالة ما قبله عليه وَ بَرَزُوا مستأنف أي و يبرزون أو حال من الأرض، وقد، معه مراودة قطعاً سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ الجملة حال من المجرمين أو من الضّمير في مقرّنين وَ تَغْشَىٰ حال أيضاً

لِيُنْذَرُوا بِهِ المعنىٰ القرأن بلاغٌ للنّاس والإنذار فتتعلّق اللاّم بالبلاغ أو بمحذوف اذا جعلت للنّاس صفة و يجوز أن يتعلّق بمحذوفٍ تقديره و لينذروا به أنزل أو تلىٰ واللّه أعَلم.

◀ التّفسير

وَ أَنْذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذابُ

أمر اللّه نبيّه أن ينذر النّاس و يخوّفهم من عقابه و يحذّرهم يوم يجيئهم العذاب الّذي لا مرّد له و هو يوم القيامة المراد به يوم هلاكهم بالعذاب الأجل أو يوم موتهم معذّبين بشدّة السّكرات ولقاء الملائكة، بلا بشرىٰ.

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنآ أَخِّرْنآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قيل الأجل القريب هو الرّد الى الدّنيا اذ الإمهال الى أمدٍ وحدٍّ من الزّمان قريب و ذلك لتدارك ما فرّطوا من إجابة الدّعوة و إتبّاع الرُّسل فهو كقوله تعالىٰ حكاية عنهم **رَبِّ ٱرْجِعُونِ،لَعَلّيَ أَعْمَلُ صٰالِحًا فيمٰا تَرَكْتُ**[١].

نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أي ردّنا الىٰ الدّنيا و أجعل ذلك مدّةً قريبة نجب دعوتك فيها و نتّبع رسلك فيما يدعوننا اليه فيقول اللّه تعالى في جوابهم.

أَوَ لَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ هو علىٰ إضمار القول و التّقدير فيقال لهم أو لم تكونوا و القائل هو اللّه تعالىٰ أو الملائكة و في هذا الجواب توبيخٌ لهم فأنّهم يوَّبخون به و يذّكرون مقالتهم في إنكار البعث و إقسامهم علىٰ ذلك كما قال تعالىٰ: **وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لا يَبْعَثُ ٱللّهُ مَنْ يَمُوتُ**[٢] فالمعنى أو لم تكونوا أقسمتم في دار الدّنيا علىٰ إنكار البعث.

و قيل أنّهم أقسموا في دار الدّنيا أنّه ليس لهم إنتقال من الدّنيا الى الأخرة.

١- المؤمنون = ١٠٠ ٢- النّحل = ٣٨

و قوله: **مٰا لَكُمْ مِنْ زَوٰالٍ** أي أقسمتم أنّكم باقون في الدُّنيا لا تزولون منها بالموت و الفناء.

و قيل معنى الكلام ما لكم من زَوالٍ أي من زوال العذاب أي أنّ العذاب لا يزول عنكم و في الكلام إحتمال ثالث.

و هو أن يكون المعنىٰ في قوله: **مٰا لَكُمْ مِنْ زَوٰالٍ** ما لكم من زوال الحياة أي أنّكم خالدون فيما أنتم عليه ثمّ أنّه تعالىٰ زادهم تقريعا أخر فقال:

وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسٰاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنٰا بِهِمْ وَ ضَرَبْنٰا لَكُمُ ٱلْأَمْثٰالَ

يقول اللّه تعالىٰ لهؤلاء الكفّار الذّين أقسموا من قبل في دار الدّنيا لا زوال فيما كانوا عليه من النَّعيم، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوالٍ ممّا أنتم عليه من النِّعيم و الحال أنتم سكنتم في مساكن الّذين ظلموا أنفسهم، بإرتكاب المعاصي و كفران نعم اللّه فأهلكهم اللّه و ضربنا لكم الأمثال.

قيل معناه مثلكم كمثلهم في الإهلاك اذا أقمتم على ما أقاموا عليه من الفساد و التّتابع في المعاصي، و المقصود من الآية هو أنّ من شاهد هذه الأحوال و علم بأنّ الظّالم مصيره الى العذاب في العاجل والأجل وجب عليه عقلاً أن يعتبر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ!أَيْنَ الْفَرَاعِنَةِ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَاوُا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْيَوا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ!

وقال عليه السلام: رَحِمَ اللهُ أمْرَءً تفكَّرَ فاعْتَبَرَ، فَأبصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزِلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ.(١)

١– خ ١٠٣

و قال عليه السلام: وَاعْتَبِروُا بِما قَدْ رَأَيتُمْ مِن مَصارِعِ الْقُروُنِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزايَلَتْ أَوْصالُهُمْ، وَزالَتْ أَبْصارَهُمْ وَأَسْماعَهُمْ، وَ ذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُروُرُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْاَوْلادِ فَقْدَها، الىٰ أخر كلامه عليه السلام[1].

و محصّل الكلام في الآية هو أنّكم لو صدقتم في الدُّنيا حيث أنكرتم البعث و الموت و إدَّعيتم البقاء في الدُّنيا و أقسمتم عليه فكيف سكنتم بيوت الظّالمين من قبلكم أليس هذا ردّاً علىٰ مقالتكم بالحسّ و العيان و أنتم تموتون كما مات من قبلكم من الظّالمين المنكرين الملحدين أتزعمون أنّ الموت كان لهم و ليس لكم ألم تعلموا أنّ حكم الأمثال واحد.

وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كٰانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبٰالُ

قرأ الكسائي، **لَتَزُول**، بفتح اللاّم الأولىٰ و ضمّ الثّانية و الباقون بكسر الاولىٰ و فتح الثّانية فعلى الأوّل تكون، إن، هي المخفّفة عن الثّقيلة.

علىٰ الثّاني: تكون، إن، بمعنىٰ، ما، أي أنّها نافية، فمعنى الآية على قول الكسائي أي قد كان مكرهم من الكبر و العظم بحيث يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في الإمتناع على من أراد إزالته و مثله في تعظيم الأمر قول الشّاعر:

ألم تر صدعاً في السّماء مبيّناً   على إبن لَبيني الحارث بن هشام

و قال الأخر:

بكى حارث الجولان من موت ربّه   وحوران منه خاشع متضائلُ

و قال أوَس:

ألم تكسف الشّمس شمس النّهار   مع النَّجم والقمر الواجب

فهذا كلّه علىٰ تعظيم الأمر وتفخيمه.

١- خ ١٦١

و أمّا علىٰ قول الجمهور فـالمعنىٰ و مـا كـان مكـرهـم لتـزول و قـد مكـروا مكرهم و عند اللّه مكرهم أي جزاء مكرهم فحذف المضاف كما حـذف مـن قوله: **تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ**[١] أي جزاءُه واقع بهم و المعنى قد عرف اللّه مكرهم فهو يجازيهم عليه و ما كـان مكـرهـم لتـزول مـنه الجبال.

قيل المراد بالجبال القران و أمر النّبي و إعلامه و دلالاته أي مـا كـان ليـزول منه ما هو مثل الجبال في إمتناعه ممّن أراد إزالته و أمّا الضّمير فى قوله: **وَ قَـدْ مَكَرُوا** فقيل أنّها يرجع الىٰ الّذين سكنوا في مساكن الذّيـن ظـلموا أنـفسهم، قالوا الصّحيح لأنّ الأقرب يمنع الأبعد.

و قيل أنّه عائد الى الّذين ظلموا أنفسهم.

قولٌ ثالث: و هو أن يكون المراد به قوم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما قال تعالىٰ: **وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**[٢].

القول الثّانى: هو الأقوى فأنّ المراد أنّهم مكـروا قـبلكم مكـراً عـظيماً و لم يقدروا على شئ بل رأوا جزاء مكرهم فأنتم أيضاً كذلك لا تقدرون على دفـع المَوت عن أنفسكم لأنّكم لستم أمكر و أقوى مـمّن سـبقكم مـن الظّـالمين و العلم عند اللّه.

و على هذا فقوله: **وَ عِنْدَ ٱللّٰهِ مَكْرُهُمْ** أي و عند اللّه جزاء مكرهم وصلوا اليه بعد موتهم و أنتم أيضاً كذلك فإعتبروا قبل أن تـندموا و تـيقّظوا عـن نـوم الغفلة قبل أن تموتوا.



فَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ

قالوا في تفسير الكلام أي لا تظنّه مـخلف وعـده رسـله مـن الظّـفر بـهم و الظّهور عليهم فأنّه لا يخلف ما وعد رسله به.

١- الشّورىٰ = ٢٢ ٢- الأنفال = ٣٠

أقول تفسير الحسبان بالظّن لا وجه له و ذلك لأنّ الحسبان أن يحكم لأحد النّقيضين من غير أن يخطر ببال الحاكم لكنّ الظّن أن يخطر النّقيضين بباله فيغلب أحدهما على الأخر و الخطاب للرّسول و المراد الأمّة نفى اللّه تعالىٰ في هذه الآية خلف الوعد عن ذاته و ذلك لأنّه تعالىٰ وعد رسله النّصر و الغلبة على أعداءهم في أيات كثيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَنْصُرَكَ ٱللّٰهُ نَصْرًا عَزِيزًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ ٱللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِيٓ**(٣).

و إذا كان كذلك فخلف الوعد منه تعالىٰ غير معقول و لا مشروع و ذلك لأنّ منشأ الخلف أمّا الضّعف و العجز و هو في حقّه تعالى محال لأنّه على كلّ شيٍ قدير ثبت أنّه تعالى قادر على كلّ شيٍ عالمٌ بكلّ شئ محيطٌ بكلّ شيٍ و هكذاً و أمّا يكون منشأ الخلف عدم المبالاة بقبحه و هو أيضاً لا يعقل في حقّه تعالىٰ و ذلك لأنّ العقل السّليم حاكمٌ بقبح الخلف و اللّه تعالىٰ منزّه عن إرتكاب القبائح و إذ ثبت أنّه قادر على كلّ شيٍ منزّه عن فعل القبيح ثبت أنّه لا يخلف وعده.

ثانياً: أنّ خلف الوعد منه تعالى يساوق الكذب و ذلك لأنّه تعالىٰ وعد رسله بالنّصر و الغلبة على أعدائهم و هذا ممّا لاشكّ فيه بِصريح الأيات.

فلو لم ينصرهم مع قدرته و تنزّهه من القبائح يلزم أن يكون كاذباً في وعده إيّاهم تعالىٰ عنه و قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ** أي قادر على إنجاز وَعد بالإنتقام من أعدائهم فأثبت في هذا الكلام قدرته و أنّه منتقمٌ من الظّالمين.

فكأنّ هذا الكلام تعليلٌ لما ذكره أوّلاً من أنّه لا يخلف وعده.

١- غافر = ٥١
٢- الفتح = ٣
٣- المجادلة = ٢١

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلسَّمٰوٰتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ ٱلْوٰاحِدِ ٱلْقَهّٰارِ

تُبَّدل بضّم التّاء و فتح الباء والدّال على ما لا يسمّ فاعله و المعلوم منه **تُبَّدل،** بكسر الدّال و مصدره التَّبديل، والتَّبديل قيل هو التغيّير برفع الشّئ الى بدل و لذلك قال بعضهم تبديل الأرض بغيرها هو رفع الصّورة الّتي كانت عليها الىٰ صورةٍ غيرها.

و قال إبن عبّاس و مجاهد و إبن مسعود و غيرهم يبدلّ اللّه هذه الأرض بأرضٍ بيضاء كالفضّة لم يعمل عليها خطيئة و هكذا القول في السّموات لأنّها معطوفة على الأرض حذف الفعل و هو، تبدلّ، لدلالة الكلام عليه و التّقدير و يوم تبدلّ السّموات.

و قال بعضهم، تبديل الأرض بتسيير الجبال و تفجير بحارها و كونها مستوية و تبديل السَّموات إنتشار كواكبها و إنفطارها و تكوير شمسها و خسوف قمرها.

و قال محمّد بن كعب و إبن جبير تبدلّ بأرضٍ من خبز يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم، و قيل تصير الأرض ناراً و الجنّة من ورائها ترى أكوابها و كواعبها.

و قال أبّي، تصير السّموات حقاباً و قال الرّازي و أعلم أنّه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الأرض و السّموات هو أنّه تعالىٰ يجعل الأرض جهَّنم.

و يجعل السّموات الجنّة إنتهىٰ.

و أعترض عليه بأنّ لازم ذلك أنّ الجنّة و النّار غير مخلوقتين و ظاهراً القرآن و الحديث أنّهما خلقتا و رسول اللّه إطَّلع عليها ورآهما و هذا لا يكون إلاّ بعد خلقيهما.



أقول الإنصاف أنّ الآية من العويصات الّتي لا تصل الى كنهها العقول و لذلك ترى المفسّرين إختلفوا في معنىٰ التَّبديل فيهما و ذلك لأنّ التّبديل في

أصل اللّغة لا خفاء فيه و أصل التّبديل فيهما أيضاً لا كلام فيه لدلالة نصّ الكتاب عليه و إنّما الكلام في كيفيّة التّبديل و أنّ الأرض و السموات بأيّ شئٍ تبدّلان و كيف يكون تبديلهما و الأقوال الّتي نقلناها عنهم لا مستند بها لا من العقل و لا من الشّرع و إنّما قالوا بما شاءوا و تخيّلوا و لذلك لا نقول في كيفيّة التّبديل شيئاً و نكتفي بما قاله المفسّرون.

و إن شئت قلت أصل التّبديل ممّا لا كلام فيه و أمّا كيفيته فالعلم بها عند اللّه تعالىٰ هذا.

و قوله: **وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ ٱلْواٰحِدِ ٱلْقَهّٰارِ** فالبروز الظّهور و المعنى يظهرون من قبورهم للحساب بأمر اللّه الواحد القهّار و قيل معنى للّه، أي لحكم اللّه أو لموعوده من الجنّة و النّار وجيئ بهذين الوصفين وهما الواحد القهّار، لأنّ الواحد هو الذّي لا شريك له في ألوهيّته و فيه تنبيهٌ علىٰ أنّ ألهتهم في ذلك اليوم لا تنفع، و القهّار و هو الغالب على كلّ شيٍ تنبيه على أنّه لا يقدر أحد على منعه عمّا أراد لأنّ الملك ملكه و النّاس عبيده و العبد و ما في يده كان لمولاه ألا ترىٰ أنّه تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلّٰهِ ٱلْواٰحِدِ ٱلْقَهّٰارِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **سُبْحٰانَهُ هُوَ ٱللّٰهُ ٱلْواٰحِدُ ٱلْقَهّٰارُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا مُنْذِرٌ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللّٰهُ ٱلْواٰحِدُ ٱلْقَهّٰارُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ ٱللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ ٱلْواٰحِدُ ٱلْقَهّٰارُ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **ءَأَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللّٰهُ ٱلْواٰحِدُ ٱلْقَهّٰارُ**(٥).

ثمّ أنّ القَهّار بفتح القاف مبالغة في القهر و هو الغلبة و الإستيلاء و قد ورد في الدُّعاء.

١- غافر = ١٦
٢- الزّمر = ٤
٣- ص = ٦٥
٤- الرّعد = ١٦
٥- يوسف = ٣٩

الحَمدُ للّه الذّي علا فقهر، أي إرتفع فقهر عباده بالغلبة و القدرة فهم تحت قدرته فلا يمكن لأحدٍ الفرار من حكومته.

وَ تَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ

الخطاب لرسُول اللّه والرُّؤيا بمعنى العلم أو بمعنى الإبصار أي و تعلم أنّ المجرمين كذا و كذا أو ترى ببصرك و هو الأشبه و أراد بالمجرمنى الّذين فعلوا المعاصي من الكفر و جحد النِّعم مقرّنين في الأصفاد أي قرنت أيديهم بالغلّ الى أعناقهم.

و قيل معناه، قرن بعضهم ببعضٍ و الأصفاد جمع صفد و هو الغلّ الذّي يقرن به اليد الى العنق و قيل مقرّنين أي مشدّودين في القرن أي مقرون بعضهم مع بعضٍ في القيود و الأغلال أو مع شياطينهم أنو تَقرن أيديهم الىٰ أرجلهم مغلّلين و الظّاهر تعلّق في الأصفاد بقوله مقرّنين أي يقرنون في الأصفاد و يجوز أن يكون في موضع الصّفة لمقرّنين وفي موضع الحال فيتعلّق بمحذوفٍ كأنّه قيل مستّقرين في الأصفاد.

ثمّ وصفهم اللّه بوصف أخر و هو قوله:

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ

السّرابيل جمع سربال و هو القميص و قوله، **قَطِران**، بفتح القاف وكسر الطّاء و قرأ من، قطران أي من نحاسٍ مذّابٍ قد أني حرّها و يدلّ عليه قوله تعالىٰ: **اٰتُونىِ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**[١] أي نحاساً مذّاباً، و قولهم أني حَرّها، فالأني الذّائب الحارّ الّذي قد تناه حرّه و المعنى أنّ الظّالمين الّذين في الأصفاد لباسهم من قطران أي من نحاسٍ مذّاب و أنّما جعلت سرابيلهم من قطران لأنّ النّار تسرع اليها.

١- الكَهف = ٩٦

و قوله: **تَغْشىٰ وُجُوهَهُمُ اَلنّٰارُ** هذا أي النّصب في وجوههم قراءة الجمهور و التّقدير تغشى النّار و جوههم و على هذا فالغشيان على بابه كقوله: **وَ اَللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰاهٰا**(١) و أمّا علىٰ قراءة الرّفع في وجوههم فعلى التّجوز جُعل ورود الوجه علىٰ النّار غشياناً أعاذنا اللّه منه.

لِيَجْزِيَ اَللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ

قيل، ليجزى، متعلّق بمحذوف تقديره و يفعل اللّه بالمجرمين ما يفعل من العذاب ليجزي كلّ نفسٍ مجرمة بما كسبت في الدُّنيا أو كلّ نفسٍ مجرمة كانت أو مطيعة بما كسبت و ذلك لأنّه تعالى اذا عاقب المجرمين لأجل جرمهم علم منه أنّه يثيب المطيعين لطاعتهم و ظاهر الآية يقتضي العموم لأنّه لم يقل ليجزي اللّه كلّ نفسٍ مجرمة بل قال كلّ نفسٍ و هو يدلّ على أنّ الجزاء ثابت للعاصي و المطيع.

و قيل متعلّق بقوله، أي الخلق كلّهم و الجملة من قوله: **تَرَى** معترضة.

أقول لا يبعد أن يكون اللاّم في قوله: **لِيَجْزِيَ** لام الغاية أو لام الغرض و المعنى أنّ الغرض و الغاية من بعثهم هو أن تجزى كلّ نفسٍ بما كسبت و كيف كان لا شكّ أنّ الجزاء ثابت إن خيراً فخيراً و ان شرّاً فشرّاً و قد دلَّ عليه العقل و النّقل.

أمّا العقل فلا شكّ أنّ اللّه تعالى عادلٌ و العدل عبارة عن وضع الشّئ في محلّه و هو يقتضي أن يكون جزاء المطيع غير جزاء العاصي و حيث أنّ الدُّنيا ليست بدار الجزاء فلاجرم يكون دار الجزاء بعد الموت أعني بها الأخرة.

وأمّا النّقل فالأيات الواردة في الباب كثيرة جدّاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**(٢).

١- الشمس = ۴

٢- البقرة = ۴٨

قال اللّه تعالىٰ: **سَنَجْزِى ٱلَّذينَ يَصْدِفُونَ عَنْ اٰياتِنا سُوٓءَ ٱلْعَذابِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِما صَبَرُوٓا أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفآئِزُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمينَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلظّالِمينَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**[٥]

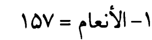
وغيرها من الأيات.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسابِ** أي لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة أخرين كما هو كذلك في أرزاقهم أيضاً فمن يقدر على الخلق يقدر على الحساب أيضاً فأنّ المعلول رشحٌ من رشحات العِلّة و فيضٌ من فيوضاتها فكيف يغيب منه شى على علّته وخالقه والأصل في ذلك هو علم العلّة بجميع مراتب المعلُول فلا يخفىٰ عليها شئ و هو ظاهر.

هٰذا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ

قيل، هذا، إشارة الى القرأن ففيه بلاغٌ للنّاس، و قيل إشارة الى السُّورة و الحقّ أنّه إشارة الى جميع ما ذكره اللّه بواسطة نبيّه فأنّ المبلّغ هو الرّسول.

قيل معنى بلاغ، كفاية في التّفكير و الوعظ و الأحسن أن يقال معناه إتمام الحجّة علىٰ الخلق قال اللّه تعالىٰ: **ما عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاغُ**[٦]أي إبلاغ الحكم عن قبل اللّه الىٰ خلقه و به قد تمّت الحجّة عليهم.



١- الأنعام = ١٥٧
٢- المؤمنون = ١١١
٣- الأعراف = ٤٠
٤- الأعراف = ٤١
٥- النّحل = ٩٧
٦- المائدة = ٩٩

و في قوله: **وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ** إشارة الىٰ أنّ القرآن أو فيما ذكرناه بيان عن الإنذار و التّخويف كما أنّه بيان عمّا يوجب الإخلاص بما ذكر من الإنعام الّذي لا يقدر عليه إلاّ اللّه وقوله: **وَ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّما هُوَ إِلٰهٌ واٰحِدٌ** فيه إرشاد الىٰ التّوحيد و التجنّب عن الشّرك، و ليذّكر أولو الألباب، أي و ليتّعظ و يراجع نفسه بما سمع من الوعظ و الإنذار من كان له لبّ أي عقل خالصّ من شوائب الأوهام و فيه إيماء الى أنّ أولي الألباب كذلك لا يشكّون في التّوحيد و النّبوة و المعاد و يعتبرون في موارد العبرة و يتّعظون بمواعظ اللّه و قد مدحهم اللّه في كتابه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يَقُولُونَ اٰمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ يٰٓا أُولِى ٱلْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ كٰانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبٰابِ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَدَّبَّرُوٓا اٰياٰتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ**(۵) وغيرها من الأيات.

الدّالة علىٰ أنّ أرباب العقُول السّليمة يعلمون و يَفهمون و يتّذكرون و يَتّعظون و هكذا اللّهم إجعلنا منهم و أحشُرنا معهم و لا تَكِلنا الىٰ أنفسُنا طَرفة عينٍ أبداً و إجعلنا من عبادك المخلصين أمين يا ربّ العالمين.

■

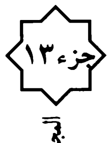
١- البقرة = ۲۶۹
٢- أل عمران = ۷
٣- المائدة = ۱۰۰
۴- يوسف = ۱۱۱
۵- ص = ۲۹

الفهرست

■

■


ضياء الفرقان فى تفسير القرآن
المجلد التاسع


جزء ١٣